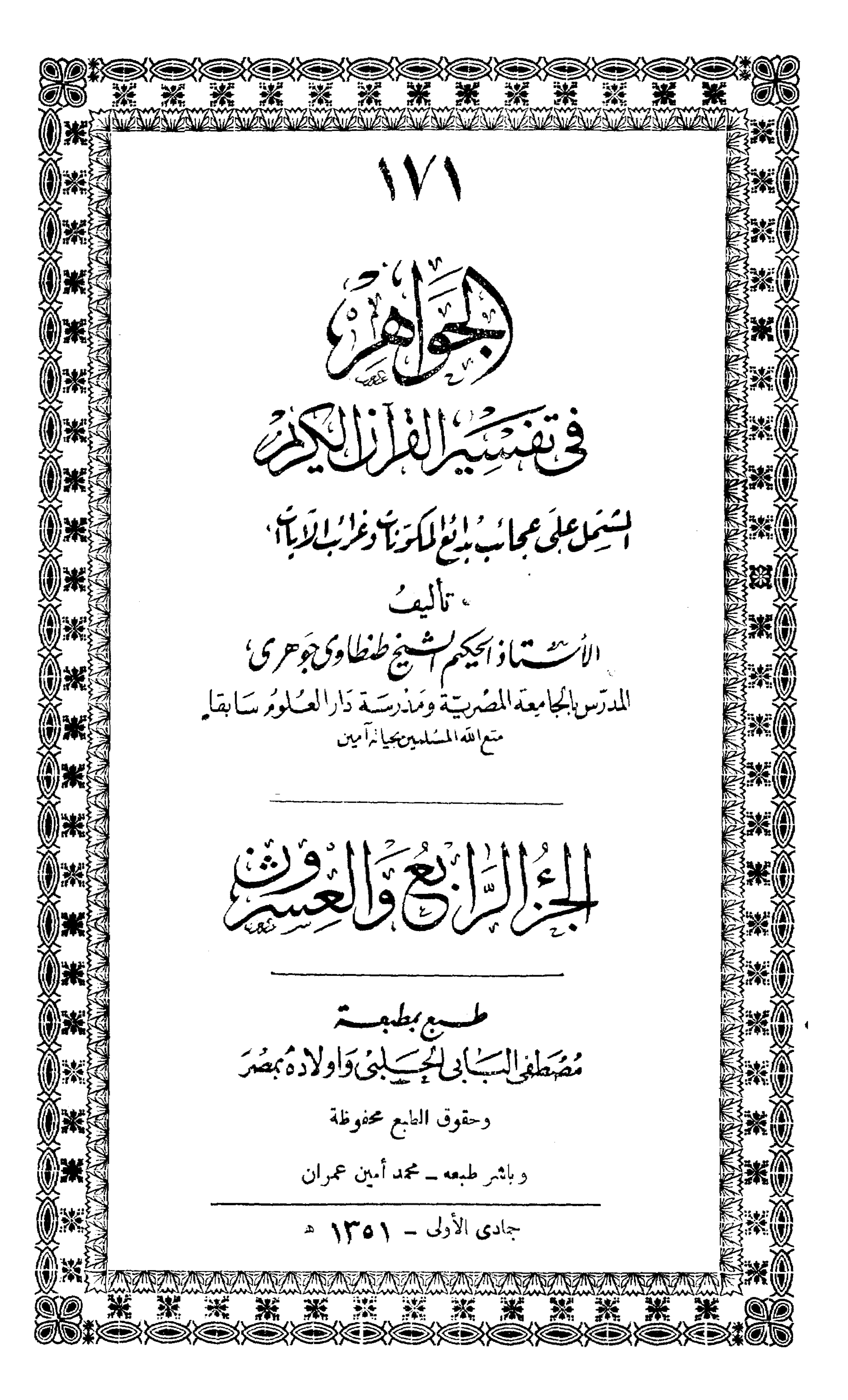


١٧١

الجواهر

في تفسير القرآن الكريم

المشتمل على عجائب بدائع المكونات وغرائب الآيات

تأليف

الأستاذ الحكيم الشيخ طنطاوي جوهري

المدرس بالجامعة المصرية ومدرسة دار العلوم سابقا

متع الله المسلمين بحياته آمين

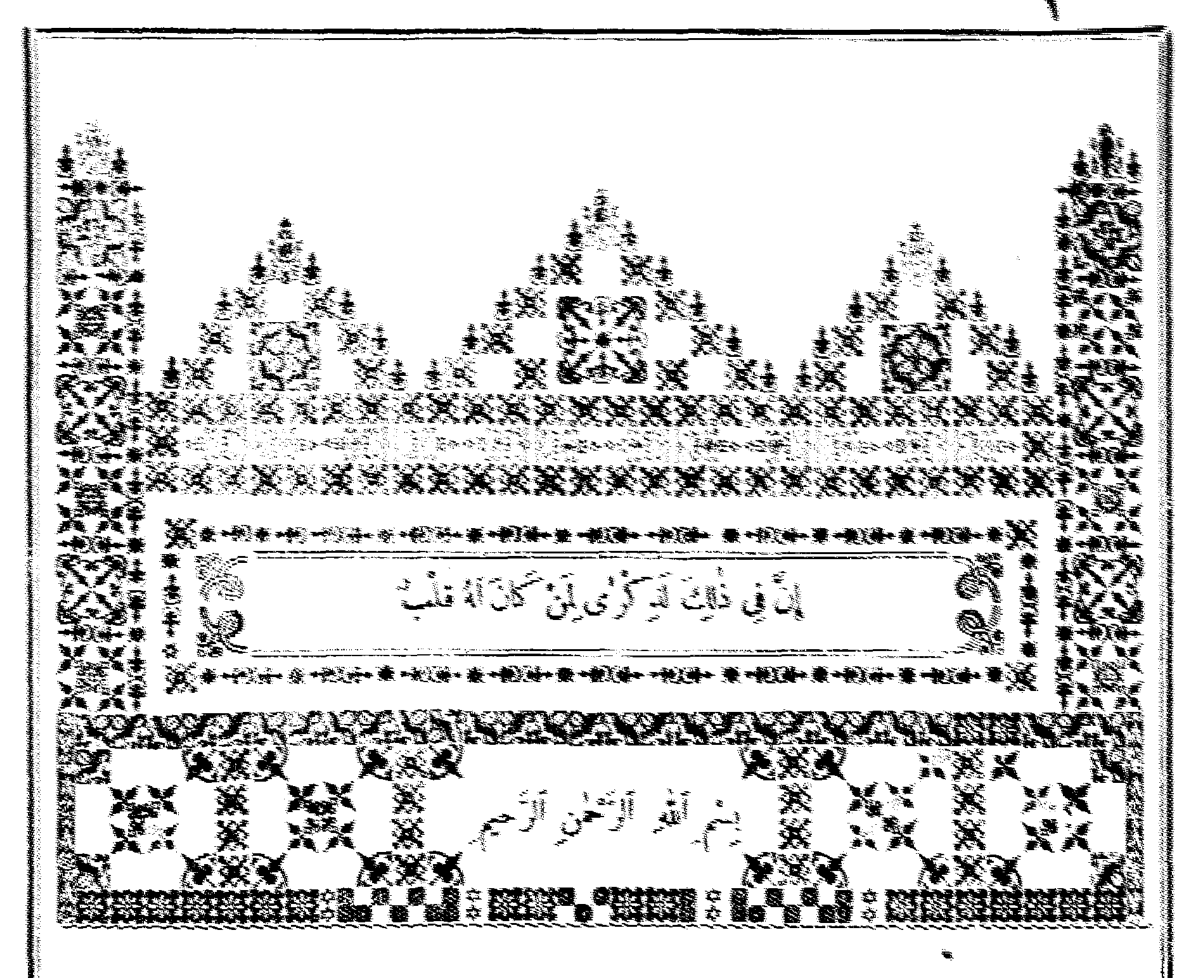
الجزء الرابع والعشرون

طبع بمطبعة

مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

وباشر طبعه — محمد أمين عمران

جمادى الأولى — ١٣٥١ هـ



تفسير سورة الرحمن

هى مدنية

آياتها ٧٨ — نزلت بعد الرعد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الرَّحْمَٰنُ * عَلَّمَ الْقُرْءَانَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ * الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ * وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ * وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ * أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ * وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ * وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ * فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ * وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ * فَبِأَيِّ ءَالَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ * وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ

مِنْ نَارٍ * فَبِأَيِّ ءَالاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ *
فَبِأَيِّ ءَالاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَ يَبْغِيَانِ *
فَبِأَيِّ ءَالاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ * فَبِأَيِّ ءَالاَءِ
رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَئَاتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلاَمِ * فَبِأَيِّ ءَالاَءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ * كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلاَلِ وَالْإِكْرَامِ * فَبِأَيِّ
ءَالاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * يَسْئَلُهُ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ *
فَبِأَيِّ ءَالاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلاَنِ * فَبِأَيِّ ءَالاَءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ * يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمٰوَاتِ
وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لاَ تَنْفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ * فَبِأَيِّ ءَالاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * يُرْسَلُ
عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلاَ تَنْتَصِرَانِ * فَبِأَيِّ ءَالاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فَإِذَا
انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ * فَبِأَيِّ ءَالاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فَيَوْمَئِذٍ
لاَ يُسْئَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلاَ جَانٌّ * فَبِأَيِّ ءَالاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ
بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ * فَبِأَيِّ ءَالاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * هٰذِهِ جَهَنَّمُ
الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ * يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ * فَبِأَيِّ ءَالاَءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ * وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ * فَبِأَيِّ ءَالاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * ذَوَاتَا
أَفْنَانٍ * فَبِأَيِّ ءَالاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ * فَبِأَيِّ ءَالاَءِ
رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ * فَبِأَيِّ ءَالاَءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ * مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَا الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ * فَبِأَيِّ
ءَالاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلاَ جَانٌّ *
فَبِأَيِّ ءَالاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ * فَبِأَيِّ ءَالاَءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ * هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلاَّ الْإِحْسَانُ * فَبِأَيِّ ءَالاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ *
وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ * فَبِأَيِّ ءَالاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مُدْهَامَّتَانِ * فَبِأَيِّ ءَالاَءِ

رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ * فَبِأَيِّ ءَالاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ * فَبِأَيِّ ءَالاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ * فَبِأَيِّ ءَالاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ * فَبِأَيِّ ءَالاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلاَ جَانٌّ * فَبِأَيِّ ءَالاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ * فَبِأَيِّ ءَالاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلاَلِ وَالْإِكْرَامِ *

هذه السورة ثلاثة أقسام

القسم الأول : فى تفسير البسملة •

القسم الثانى : فى عجائب عالم الدنيا من أول السورة إلى قوله تعالى : يرسل عليكم شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران •

القسم الثالث : فى عجائب عالم الآخرة من قوله تعالى : فاذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان ، الى آخر السورة •

القسم الأول فى تفسير البسملة

هذه السورة فصلت كثيرا من رحمات الله عزّ وجل لمخلوقاته ، فكأنها تفسير للرحمة فى البسملة المكرّرة فى كل سورة ، فمن رحماته :

(١) انزال الديانات ونشرها بين الأمم ، وآخرها دين الاسلام وكتابه القرآن .

(٢) وخلق الأجسام والعقول الانسانية .

(٣) و إلهامها العلم والفهم والنطق والحكم .

(٤) فيدرس هذا الانسان الذى قرأ الدين المنزل نظام الشمس والقمر والكواكب والمجرّات والسدم وحسابهنّ وأقدارهنّ وأبعادهنّ .

(٥) ثم ينظر نظرة أخرى فى نتائج هذه العوالم العلوية فيجد نوعى النبات من التى لاساق لها وهى المسماة بالنجم ، والتى لها ساق وهى المسماة بالشجر .

(٦) ثم اذا فرغ من هذين ونظر تبصرة وتذكرة اعتراه الدهش من الحساب المتقن فيهما كما تقدم فى هذا التفسير فماذا يرى ؟ يرى ميزانا منصوبا ، وحسابا معقولا ، ويفهم كيف انتظام هذا العالم من علوىّ وسفلىّ فى الفلك بالرياضيات ، وفى النبات بعلم الطبيعة ، والمواليد الثلاثة ، والكيمياء العضوية ومتى درس ذلك ارتسمت تلك المزايا فى نفسه ، وامتزجت بعقله وعواطفه ، وشعر فى نفسه بأن

النظام صفة من صفاته لكثرة ممارسته النظام الذى به تترقى الملكات الانسانية فيحكم بالعدل ويعاشر بالانصاف ، وتكون حياته كلها موزونة لما شاهده من الكمال والميزان ، وذلك يصبح كالغريزة له ، ومن ذلك كيله وميزانه للناس بيعا وشراء وأخذا واعطاء ، وهذه نعم لاحصر لها ، وجمال لايوازيه جمال .

(٧) ثم ينظر فيرى أن العوالم الأرضية المذكورة ومافيها من الفاكهة والريحان الخ وما تقدمها من الكواكب جميعها منتجات ظهور الحيوان والانسان المخلوق من طين فنطفة فعلقة إلى أن يصير بشرا سويا ، فتزيد النعم فى قلبه ظهورا ، ويزداد شكرا وحبا ، واذا كان نفس الانسان لن يراها أحد فهذا دليل على جواز وجود عوالم عاقلة لانراها جاء بها الدين ، وهذه العوالم هى الجانّ .

(٨) وبعد أن يدرس ماتقدم اجمالا يأخذ فى التفصيل كالمشرق والمغرب اللذين أمرهما يرجع إلى علم الفلك المتقدم ، وكالبحر الملح والعذب اللذين يرجعان للعالم الأرضى المتقدم ذكره ، ولما كان البحر يحوى لؤلؤا ومرجانا خصصهما بالذكر تبيانا للمسلمين النائمين نوما عميقا ، كأنّ ربنا يقول لكم أيها المسلمون : ياعبادى : ألم يكف فى هذه السورة أن أذكر لكم الشمس وحسابها استغناء بها عن المشرقين وعن المغربين ؟ أولم يكف ذكر الأرض وأنى وضعتها للأنام عن ذكر ماعليها من الريحان وما فيها من البحار ؟ أولم يكف ذكر البحار عما فيها من الدرّ والمرجان ، وماعليها من الجوار المنشآت فى البحر كالأعلام .

إذن الله عزّ وجل يقول لنا : لاتكتفوا أيها المسلمون بالمعرفة العامّة ، فلتقرءوا الأجزاء بعد الاجمال ، ولتقرءوا الجزئيات بعد الكليات ، أليس من العجب أن يبتدئ السورة باسمه [الرحمن] ويسند إليه التعليم ، إذن هذه السورة جاءت لتبيان طريقة التعليم التى يتبعها المسلمون فى المستقبل ، وهذه الطريقة أشبه بالتى قالها ابن خلدون فى المقدّمة ، وذلك أنه رأى المسلمين فى زمانه قد نضب معين العلم عندهم فأخذ يفند آراءهم ، ولكنه أيس من اصلاحهم فى ذلك ، واعتقد أن الداء عضال وقد صدق ، ولكن هذا الداء قد أخذ يزول اليوم والمسلمون استيقظوا استيقاظا لاسبيل لردّه ، ولارادّ لارتقائه وبلوغه أوج الكمال ، فقد ندّد على طريقة التعليم ، وعلى الكتب الصعبة ، وعلى مضايقة التلميذ وحشو رأسه بأقوال متناقضة واختلاف كثير .

ثم قال : إن التعليم يكون على ثلاث درجات : فأوّلا يؤتى بالقواعد العامّة اجمالا ، ثم يعاد مرّة أخرى بطريقة أوسع ، ثم يعاد مرّة ثالثة ، وهناك تترقى الملكات ، والذى فى الآية هو هذا فلم يذكر الله الأرض مكتفيا بها ، ولابذكر مافيها من الأشجار والبحار ، ثم انتقل الكلام من الشجر والنجم العامّين إلى أفرادهما المفصلات كالفاكهة ، وزاد الأمر تفصيلا بذكر النخل والحب والعصف والريحان .

هاهنا استكمل النظام الذى يتبع فى التعليم الأوّلى فى العالم الانسانى ، وهو أوّلا دراسة العوالم العلوية والسفلية فى المدارس الابتدائية والثانوية ، فلابدّ أن تدرس هذه العوالم اجمالا ثم تفصيلا ، فالاجمال هو العلم الذى يسمونه [علم الأشياء] وهذا العلم يشار له بالجمل فى أوّل السورة ، ثم تدرس فى نفس المدارس الثانوية نفس تلك العلوم ، وهذا هو التفصيل بعد الاجمال المتقدّم ، ثم ان الذين يختصون بهذه العلوم أى أولئك الذين يدخلون القسم العلمى فى المدارس العالية الذين يخصصون أنفسهم لدراسة هذه العلوم يدرسون هذه العلوم بطريقة أوسع .

إلى هنا تمت دراسة الحياة الدنيا ، وماهذه الدنيا إلا لوح كتبت فيه هذه الأرقام ، واذا تعلم الأطفال

ما كتب يجب محوه لكتابة غيره . هاهنا أخذ يذكرنا هذه العوالم وأنها مظاهر جلاله وجماله ، وهي الحجب المسدولة بيننا وبينه ، ومتى فهمنا الدرس الذى أعطاه لنا عرفنا كيف نقابله ونرى وجهه الكريم ، وههنا يذكر بعد الشقة بين هذا الانسان الضعيف وبين صانع العالم جلّ جلاله فلن يتمتع بلقائه والسعادة بجواره إلا بعد أن يسأل عما قرأه فى اللوح الذى نشره له فى الدنيا ، والدين الذى أنزله ، فكما أنعم عليه بالسموات والأرض فى الحياة الدنيا يحاسبه على تلك النعم يوم القيامة كما أن التلميذ بعد الدراسة يمتحن فيما تعلمه ؛ فكما أن العبد كان يسأل ربه فى الدنيا المعونة وقد آتى الناس من كل ماسألوه هكذا يسألهم هو يوم القيامة عما عملوه ، فالسؤال يختلف باختلاف السائل والمسئول .

ثم أخذ هاهنا يصف النعيم والعذاب فى الجنات والنيران مما يبهر العقول لذة وجمالا ، ويفتت الأكباد شقاء ونكالا ، ذلك خلاصة ما انتظم فى هذه السورة من معان وماجاء فيها من حكم ، ورحمات مفصلات وآيات مبينات ، ورقائق ساحرات ، وحور مقصورات ، وجواهر مكنونات ، وعلوم مخزونات ، وقضايا عجيبات .

نهج المسلمون المنهج الحسن فى الأعصر الأولى ، ثم تدلى التعليم فى العصور المتأخرة شيئا فشيئا ، فأخذوا يذمّون علوم الحكمة فى بلاد الشرق بالدولة العباسية وفى بلاد المغرب الأقصى والبلاد الأندلسية ، وأخذ الملوك يتزلفون إلى العامة بمقاطعة العلماء كما فعل بعض ملوك المغرب فى أواخر القرن السادس الهجرى فى دولة الموحدين إذ نفى ابن رشد ، وكما فعل بعض ملوك العباسيين كذلك فى بغداد فيما يقرب من ذلك التاريخ ، فانزوى العلم فى بلاد الاسلام ففرّ هاربا إلى أوروبا مع تلاميذ ابن رشد المسلمين واليهود كما مرّ مفصلا فى هذا التفسير ، وهؤلاء دخلوا فى حمى بعض ملوك ألمانيا ، وتغلغل العلم فى بلاد أوروبا فقامت قومتها ثم رجعت إلينا عقابا من الله على مافرّطنا .

ياربّاه ، ياربّاه : لبيك ، لبيك ، ياربّاه : نحن أذنبنا وإليك تبنا ، كنا نجهل طريقة التعليم والآن أخذنا نرجع إلى سواء الصراط فيها بتعليمك ، ولقد عرفنا أن رحمتك التى وسعت كل شىء لم تخل المسلمين المتأخرين قبلنا مما يحفظ عليهم دينهم .

ربّاه عرفنا أن المسلمين لما غمّ عليهم الأمر وذهبت الحكمة من بلادهم تستر العقلاء فيهم بالتصوّف وحجبوا عن العلوم التى جعلت أساسا لعلم التصوّف ، فرأينا الامام محيي الدين بن عربى ذا العلم الواسع يؤلف فى التصوّف وهو متضلع من علم الحكمة ، ولكنه لاينطق باسم الفلسفة ، بل يسمى ذلك تصوّفا ، ثم رأينا المسلمين بعد ذلك يتدلى التعليم عندهم شيئا فشيئا إلى أن تجاوز سننك المعروف فى هذه السورة ، فأنت ياربّاه ذكرت لنا العوالم التى نعيش فيها ، ولكن رجال التصوّف والأسرار لما نشروا آراءهم جعلوها عويصة مع أنك أنت أريتنا الجمال الذى يراه الخاص والعام ، وأن ماذكره العارف بالله الاستاذ [عبد الكريم الجيلى] المتوفى سنة ٨٩٩ هجرية فى رسالته « الكهف والرقيم ، فى شرح فوائد بسم الله الرحمن الرحيم » تبيان لطرق التعليم عند متأخرى الصوفية لأمم الاسلام المسكينة .

إنه رحمه الله ابتدأ هذه الرسالة بخطبة يصف بها الله عزّ وجل بنعوت الجمال والجلال ، وأخذ يذكر أنه استخار الله تعالى فى املاء كتابه هذا لمن طلبه وهو عماد الدين التونسى ، ثم أخذ يطالب من القرّاء أن يفهموا العبارات والاشارات ، والتصريحات والكنايات ، والتقديم والتأخير فى رسالته . ثم أخذ يذكر أن سرّ الكتب المنزلة كلها فى القرآن ، ومافى القرآن فى الفاتحة ، ومافى الفاتحة فى البسملة ، ومعانى البسملة فى الباء ، وكل مافى الباء فى النقطة التى تحت الباء ، ولاجرم أن هذا القول يجرى اليوم على كل لسان فى بلاد الاسلام يشيعه رجال الصوفية كابرا عن كابر .

ثم أخذ يبين أن البسملة يتكلم فيها قوم من جهة علوم النحو والصرف واللغة ، وقوم من حيث منافعها وأسرارها ، ولكن هو يتكلم عما فيها من المعانى التى تليق بجناب الحق ، وهذه المعانى التى سيقولها فى الرسالة ألقيت على قلبه ، وههنا بيت القصيد ، وهو أن النقطة التى تحت الباء فيها السر كله منها انشق الأسرار والعلوم . وأخذ يذكر أن من الحروف مالايعرف إلا بالنقط ، هكذا العوالم لم يعرفها لنا إلا الله ، فالله الذى فصل العوالم به عرفت العوالم كما عرفت الحروف بالنقط ، وهاهنا أخذ يتوسع فى هذه المعانى ، وأخذ يبين أن النقطة فى الحروف المهملة متحدة بالحرف كالألف والدال مثلا فلذلك لم تكن للألف نقطة ، والألف أقلها نقطتان ، وهذا القول مأخوذ من علم الهندسة ، يعرفه من قرأ مبادئها ، ولما وصل إلى هذا أخذ يذكر أنها ظاهرة فى جميع الحروف ، فالجيم ألف معوجة الطرفين ، والدال منحنية الوسط ، وانتقل منها إلى أن الحقيقة المحمدية خلق العالم بأسره منها ، معتمدا فى ذلك على حديث جابر وهوليس من الصحاح ، فهو أولا يقول : إن النقطة فى الحروف سواء أكانت منفصلة كما فى الحروف المعجمة ، أومتصلة كما فى الحروف المهملة كالحق سبحانه وتعالى فهو مع كل أحد بكماله كما أن النقطة مع كل حرف بكمالها ، ولما كانت الألف مركبة من نقطتين كانت كالحقيقة المحمدية التى ورد فيها ذلك الحديث المتقدم ، وأن الله خلق العالم كله من النور المحمدى ولذلك قدم الألف على جميع الحروف كما قدم صلى الله عليه وسلم على جميع الأنبياء .

ثم أخذ يجعل هذه النقط اشارات إلى الأحاديث مثل : « مارأيت شيئا إلاورأيت الله قبله أو بعده أومعه » روايات ، ورجع ذلك إلى حال النقط المختلفة ، ومن النقط ماتكون بيضاء كالنقطة البيضاء فى قلب الميم والواو وأمثالها ، وهذه نص عبارته ، فانه محل مارأيت شيئا إلا ورأيت الله فيه ، ولهذا تجوف ، لأنه ظهر فى جوفه شىء غيره ، فدائرة رأس الميم محل مارأيت شيئا ، ونقطته البيضاء محل إلاورأيت الله فيه ، والألف محل : « إن الذين يبايعونك » الخ .

وأخذ يفصل الكلام فى الحروف على هذا النحو وجعله فصولا ، ففصل مثلا لتطويل الباء بعد اسقاط الألف ، ثم آخر للصق الباء بالسين فى البسملة ، وآخر يقول فيه : إن السين عبارة عن سر الله وهوالانسان

ثم أخذ يفسر الآيات من أول [يس] وآية آخر التوبة ، ثم رجع إلى الألف ، ثم إلى الميم ، ورجع إلى عددها بالجمل وهو ٤٠ وقال إن هذا العدد هو عين كمال الاعتدال فى كل شىء ، وهو الموافق لعدد مراتب الوجود وهى :

ذات ساذج (١) العماء (٢) الأحدية (٣) الواحدية (٤) الالوهية (٥) الرحمانية (٦) الربوبية (٧) العرش : وهو الجسم الكلى (٨) القلم الأعلى : وهوالعقل الأول (٩) اللوح المحفوظ : النفس الكلية (١٠) الكرسى : وهو العقل الكلى ، وقال هوالقلب (١١) الهيولى (١٢) الهباء (١٣) فلك العناصر (١٤) الفلك الأطلسى (١٥) فلك البروج (١٦) فلك زحل (١٧) فلك المشترى (١٨) فلك المريخ (١٩) فلك الشمس (٢٠) فلك الزهرة (٢١) فلك عطارد (٢٢) فلك القمر (٢٣) فلك الأثير (٢٤) فلك النار (٢٥) فلك الهواء (٢٦) فلك الماء (٢٧) فلك التراب (٢٨) فلك المولدات (٢٩) فلك الجوهر البسيط (٣٠) فلك العرض اللازم (٣١) المركبات : وهى المعدن (٣٢) النباتات (٣٣) الجمادات (٣٤) الحيوانات (٣٥) الانسان (٣٦) عالم الصور : منه مايلحق بالدنيا (٣٧) عالم المعانى : منه مايلحق بها البرزخ (٣٨) عالم الحقائق : و يلحق بها القيامة (٣٩) الجنة والنار (٤٠) الكثيب الأبيض الذى يخرج إليه أهل الجنة .

هذه زبد الكتاب ، فلينظر شبان المسلمين فى زماننا الذين يدرسون أمثال هذا التفسير حال الأمم الاسلامية المسكينة كيف حجبوا عن العلوم واضطر رجال الصوفية والصالحون أن ينتقلوا بهم من الجوهر إلى العرض

ومن الحقيقة إلى المجاز ، ومن الأصل إلى الفرع ، ماهو الأصل ؟ هو هذا العالم ، هو المذكور فى سورة الرحمن وهذا العالم تدل عليه الحروف ، والحروف لا حصر لأشكالها من اللاتينية والعربية والصينية والهيروغليفية وغيرها ، ولما كانت الحروف عندنا نحن المسلمين هى العربية قالوا هذه محل السر مع أن الشجر والحجر والقمر كلها جمال وأسرار ، وهذه جعلت لتدل عليها ، ثم انتقلوا من الحروف إلى الذات العلية وأخذوا يتفننون ومن أعجب هذا التفنن أن حرف الميم يشير من حيث شكله إلى حديث : « مارأيت شيئا إلا ورأيت الله فيه » ومن حيث عدّه إلى أن مراتب الموجودات (٤٠) وهذا أمر عجب ، وهاهنا عمدوا إلى العلوم التى نقلت عندهم عن علماء اليونان ، والمعروف عندهم الكواكب السبعة وفلك البروج والفلك الأطلسى فأتى بها كلها وزاد عليها أشياء كالذات الساذج والواحدية والأحدية ونحوها ، ثم كرر فى بعضها فذكر المولدات وهى نفس المعادن والنبات والحيوان ، ومن العجب أن يجعل للعرض اللازم فلكا ويجعل المركبات هى المعادن مع أن هذا عند القدماء خطأ بل المركبات تشملها وتشمل الحيوان والانسان ، ومن أعجب العجب أن يجعل الجمادات قسما وحدها ، وهذه كلها خطأ محض فى التقسيم والتعليم ، وهذا دليل على أن القوم رحمهم الله كانوا يجتهدون ولو بطريق التقريب فى أن يجعلوا هناك معارف مبنية على هذه الحروف من حيث عددها مثلا ، لأن المراتب اذا كانت أربعين وعدد الميم أربعون أحدثت عند الجهال إيمانا وتصديقا ويقولون هذا من الأسرار ، ثم اذا ثبت فى ذهنه ذلك أصبح يرى أن كل العلوم قشور لاقيمة لها ، ويحتقر ماسوى ذلك ، ويعيش ويموت مؤمنا موحدا ولكنه يجهل مقاصد دين الاسلام ومقاصد الأنبياء وان كان هو صالحا ، ثم يرى الأمة كلها دون مرتبته ، لأنه فهم حقائق الوجود والناس دونه ، وأن علماء الدين وشيوخ الاسلام محجوبون ، أما هو وأمثاله فاهم الواصلون أوشبه واصلين .

أنا أقول ان القوم كانوا يكتبون ذلك وهم يتقربون إلى الله به ، وقد فعلوا ماقدروا عليه فى زمانهم ، وقد قلنا إن العلم هرب من الشرق إلى الغرب قبل ذلك بزمان ، فاذا كان موت الشيخ الجيلى رحمه الله فى أواخر القرن التاسع فذلك فى إبان سقوط دول الاسلام وقد فارق العلم بلادهم قبل ذلك لأن ابن رشد كان قبل ذلك بثلاثة قرون ، فاذا رحل العلم إلى أوروبا قبل هذا الكتاب بثلاثة قرون فأهل الصلاح معذورون اذا تفننوا فى بقايا العلم وألصقوها بالحروف الهجائية متبعين فى ذلك الباطنية الذين جعلوا الأسرار فى الحروف قبل ظهور حسن بن الصباح فى [قلعة الموت] فى أواخر القرن الخامس الهجرى كما قدمناه فى غير هذا المكان ، فكانوا يحسبون جملها ويجعلونها أسرارا مع أنها تقبل الضدين ، ولكنهم جعلوها آلة فى أيديهم يتصرفون فيها كما يشاءون (انظر هذا المقام فى ﴿سورة الكهف﴾ عند آية ــ وما كنت متخذ المضلين عضدا ــ فى غضون الكلام هناك إشارة لبعض ذلك) .

الله أكبر : ظهر الحق واستبان السبيل ، نحمدك ياربنا ، نحمدك على التعليم ، وعلى تنوير أمة الاسلام فى زماننا . الله أكبر : سيقوم الشبان بعدنا ويقرءون جميع كتب القدماء ، وينقدونها ، ويعرفون غثها من سمينها .

الله أكبر : ان هذا النوع من التعليم يربط القلوب ويقفلها فلاتقبل إلا ماكان من قبيل هذه الأحوال ومابعد ذلك وهم باطل ، بذلك ضاعت أمم الاسلام وذات قرونا وقرونا ، وما أشبه هذا التعليم من حيث تحكمه فى العقول بما قدمناه فى ﴿سورة سبأ﴾ عند ذكر المهدى محمد بن تومرت ، ذلك العالم الذى أداه اجتهاده إلى أن المسلمين فى زمانه لايحكمون إلا بطريق الاعتقاد ، وأنه المهدى المنتظر ، وجعل له دولة ، وقال إن هذه الدولة ستبقى إلى آخر الزمان ، ويظهر المسيح عليه السلام ويقابل آخرها ، ولكن هذه الدولة دالت بعد

نيف وقرن من الزمان ، انظر قصــته هناك فى ﴿ سورة سبأ ﴾ كما قدّمناه ؛ ولـكن هناك نقطة لم تتضح ، فسأذكرها هنا ليظهر للمسلمين فى زماننا كيف كان يحكم آباؤهم ، وكيف كان الشيوخ لايجدون طريقا لحكمهم إلا إيهامهم ، وهذا الايهام يتناقله الحـكام بطرق مختلفة ، ويتناقله كثير من الصوفية إلى الآن اعتقادا منهم أن هذا أمر لابدّ منه ، فاذا رأينا المهدى محمد بن تومرت يقتل سبعين ألف مسلم لأنهم على خلاف رأيه بالحيلة والخداع ، فهكذا نرى الأساتذة المحترمين فى الأمة بعد ذلك يعمدون إلى ألفاظ من العلوم ويجعلونها فى كتاب ويربطونها بالبسملة ، وينشرونها باسم أنها أسرار فيربطون القلوب ويقرؤها الجهال من أيام تأليفها إلى الآن أى فى مدة ٤ قرون ونصف قرن وهم يظنون أنها علوم ولاعلم فيها وانما هى أخلاط وضعت معا إيهاما للطلاب أنها أسرار ، واذا نجح المهدى محمد بن تومرت فى أنه نظم دولته والدولة نفعت الناس ثم انتهت ، واذا نجح الجيلى رحمه الله فى كتابه ، وأن الناس قرءوه وآمنوا بالله ، وناموا على ذلك وهم جهال بكل علم وفنّ ، فليس معنى هذا أن ذلك ينفع فى زماننا . كلا والله . فلاالحاكم الذى يغشنا بالوهم اليوم بمغن سبيلا كملوك بنى عثمان فى أواخر أيامهم ، ولا ذلك الذى يدّعى أنه واصـل لله تعالى وهوخال من علوم الحـكمة بصالح أن يقود أمم الاسلام الآن .

لاظلم اليوم يا أمم الاسلام . أيها المسلمون : أنا فى هذا المقام قرنت إيهام المهدى محمد بن تومرت بايهام الملوك العثمانيين فى أواخر الدولة ، وايهام شيوخ الصوفية كالجيلى رحمه الله ، لأن العلم والحكم من واد واحد فالحاكم لايقدرعلى ايقاع الوهم على العلماء وانما الوهم يقع على الجهال ، ولقد جمع الأمرين معا المهدى محمد ابن تومرت الذى اجتهد فاخطأ ، وهاك بعض حديثه الذى أشرت إليه من كتاب [زحلان] تحت عنوان « ذكر قيام محمد بن تومرت أنه المهدى المنتظر » إذ ذكر أنه من جبل السوس ، وادّعى أنه شريف علوى حسنى ، قرأ علوما بالمغرب وارتحل إلى المشرق ، وقابل الامام الغزالى رحمه الله ، ورأى مرّتين أنه شرب ماء البحر ، فقام فى نفسه أنه المهدى ، فأخذ فى الزهد وفى الذكر والعبادة ، وكان يقتصر على رغيف كل يوم وعلى الزيت ، ومن أتباعه عبد الله الونشريسى ، وكان هذا عالما متضلعا فى العلوم ، فأمره أن يكتم ماعنده من العلوم ، وأن يجعـل نفسه أصمّ أبكم كالمجاذيب حتى يأتى الوقت الذى تظهر فيه علومه كمعجزة لتتميم مايريد ، فبقى أبكم بين الناس أبله ، ولعابه يجرى على صـدره ، ولايتـكلم إلامع الشيخ فى خلوته ، ثم انهم دخلوا مراكش وأثاروا ثائرة الأمر بالمعروف والنهى عن المنـكر ، وجعلوا ذلك ذريعة لقلب الدولة وحضر بين يدى أمير المسلمين فى مراكش ، وكان وزيره مالك بن وهب رجلا حازما فأشار على أمير المسلمين بقتله لأنه لايريد بالوعظ إلا الملك ، ولـكن الملك عفا عنـه ، وذهب هو ومن معه إلى السوس ، وذلك سنة أربع عشرة وخمسمائة ، وكان من أمره ما كان ، وتقدّم ذكره فى ﴿ سورة سبأ ﴾ وقد بقيت دولتهم نحو مائة سنة وكانوا يزعمون أن هذه الدولة ستبقى حتى ينزل عيسى ابن مريم وأنه هوالمهدى المنتظر إلى آخر ماهناك

ولقد كان من أصحاب المهدى عمر بن يحيى الهنتانى ، قيل انه ينتهى نسبه إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه صار بعد المهدى من وزراء عبد المؤمن ، وأعطى بنو عبد المؤمن أولاد عمر المذكور ولاية تونس ، فكانوا يسمون الحفصـيين ، استمرّ ملك تونس فيهم إلى سنة تسعمائة واحدى وثمانين ، فانتزع الملك منهم الدولة العثمانية ، وكانوا يلقبون بالحفصيين ، وكانت مدة ملكهم تونس ثلاثمائة وثمانية وسبعين سنة ، وهم من فروع دولة محمد بن تومرت ، واختلف الناس فى أمر ابن تومرت فقال بعض العلماء : انه أراد اظهار الحقّ فاجتهد وأخطأ . وقال بعضهم : انه كان على الأمة شرا من الحجاج ويزيد ، والله أعلم بحقيقة الحال اهـ

ملخص هذا المقام : أن الرحمة التى ذكرت فى بسملة ﴿ سورة الرحمن ﴾ يدخل فيها عجائب السموات والأرض ومابينهما المذكورات فى السورة ، وفيها كيفية تعليم الانسان ، لأن السورة مبدوءة به ، وانه يكون

بالتدريج الأعم فالأخص ، وأن هذه الطريقة ذكرها ابن خلدون ، وأقول الآن : ان اخواننا رجال [دار العلوم] قد اتبعوها فى تعليم اللغة العربية ونجحوا ، وقلبوا تعليم الأمم الاسلامية فى ذلك ؛ واذا كانت رحمة الله عز وجل قد انتشرت فى زماننا فى طريقة التعليم ، فقد ذكرنا بما كان عليـه التعليم فى القرون المظلمة الاسلامية أيام أن طردوا العلم فقل من بينهم ، فأتينا بكتاب [الكهف والرقيم ، فى شرح فوائد بسم الله الرحمن الرحيم] للجيلى رحمة الله عليه ، فرأيناه رجع المعارف كلها إلى باء البسملة ، ثم الى نقطتها والنقطة فى مقابلة الذات العلية إلى آخر ما قال وانتهى أمره إلى الميم من البسملة فأدخل فى عددها وهو ٤٠ ٤٠ مرتبة وهذه المراتب عبارة عن الكواكب المعروفة فى زمانهم ونظام طبقات العوالم على حسب ذلك الزمن مع تحريف وتكرار واختلاط ، فذكرنا نظام هذا العلم بنظام الملك فوجدناهما فرسى رهان ، فالملوك العثمانيون فى أواخر أيامهم يوهمون الشعوب بعظمتهم الجوفاء فى قصورهم ، وبعض رجال الصوفيـة والمهديين يستحلون الأكاذيب مجتهدين خطأ أن هذا هو الباب الموصل لحفظ الأمة فى زمانهم ، ولكن الأمة الآن قد أخرجها الله من هذه الجهالات والظلمات ، ومتى استنارت بالعلم طردت كل دجال فلايعادها ولايحكمها ، لأن الحق أحق أن يتبع .

لقد كان أمثال المهدى محمد بن تومرت ومن ماثله (من المذكورين فى سورة الشعراء عند ذكر السحر وهم المشعوذون الذين اتخذوا الشعوذة سببا فى الملك) أشبه بالطبيب يستعمل كى المريض ، فترى ابن تومرت يردم البئر على الثلاثة الذين شهدوا للونشريسى وأعدم سبعين ألفا قتلا ظلما ليكون أتباعه كالغنم تتبع راعيها وهكذا فعل [حسن ابن الصباح] فى قلعة الموت بجهات أصبهان ، فكان يحرم على أصحابه العلم ليبقوا جهلاء والله يقول : « الرحمن علم القرآن ، خلق الانسان ، علمه البيان » وهكذا فعل ملوك العثمانيين إذ منعوا العلم عن المسلمين ، وقد أخبرنى شاب حجازى منذ أيام فى هذه السنة ١٩٣١ م الموافقة سنة ١٣٥٠ هـ أنهم ماعرفوا شيئا من العلم ولامن أخبار العالم ، ولامن اللغة العربية التى هى لغتهم إلا بعد ذهاب دولة السلطان [حسين الهاشمى] لأنه كان أولا تابعا لتركيا ، وهى أوجبت أن لايقرأ النحو إلا باللغة التركية ، وبعد أن خلع طاعتها حرم الجرائد ، ولما زالت تلك الدولة تعلم الناس وقرءوا الجرائد ، هكذا أخبرنى ، فالانسانية فى مثل هذه الحال تتنزل إلى درجة تحت درجة الحيوان فى النظام ، لأننا قرأنا نظام جمهوريات النمل والنحل مثلا فلم نعثر على هذه الضلالات والأكاذيب والخداع ، إذن الانسان أمكنه أن يعيش وهو أدنى من الحيوان منزلة مع بقاء عقله محفوظا ولكنه مغمور فى الجهالة ، وهذه الحال التى عاش بها المسلمون قرونا بعد العصور الأولى جعلها الله درسا للمسلمين الذين يأتون بعدنا ، وهذا التفسير قد جعله الله مملوءا من العبر والمبتدأ والخبر ليكون تذكرة لهم فلن يقعوا فيما وقع فيه آباؤهم ، ولن يضحك عليهم أحد بعد اليوم ، وسيتعلم الرجال والنساء ، ويدرسون علوم الأمم ولغاتهم كل بحسب طاقته ، فالرحمة هنا من وجهين : الوجه الأول أن الأمة مع جهلها أمكنها أن تعيش وان كانت فى نظامها أنزل من نظام الحيوان . الوجـه الثانى أن هذه الشقاوة التى حلت بالآباء بسبب الجهل تكون مهمازا يسوق الأبناء إلى العلم الصحيح ، والحكم الصحيح ، والتباعد عن الدجل والكذب والبهتان .

إن الأمة تعتبر كلها أولها وآخرها كنفس واحدة شاء الناس أم أبوا ، فخطأ الآباء يحترس منه الأبناء ، وعلم الآباء نافع للأبناء ، الأمة الواحدة فى نفس هذه الحياة نفس واحدة ، فنراها فى الحرب وفى النصر وفى العز وفى الذل مشتركة ، ويظهر لى أن هـذا النوع الانسانى يربى فى هذا العالم وفى عوالم أخرى فى البرزخ ليصل إلى درجة أن تكون الأنفس كلها نفسا واحدة ، وأهل الأرض اليوم جهال بهذه القضية متشاكسون

والله

والله هو الولىّ الحميد ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ، ولاحول ولاقوة إلا بالله العلىّ العظيم ، وهذه من أسرار التعليم فى قوله تعالى : « الرحمن علم القرآن ، خلق الانسان ، علمه البيان » كتب ليلة الجمعة ١٥ جمادى الأولى سنة ١٣٥١ هجرية ، وفرغت منها بعد نصف الليل .

بهجة العلم فى هذا المقال وهو تفسير البسملة فى سورة الرحمن

قد لخصت الكتاب الذى ألفه [الجيلى] رحمة الله عليه منذ ٥٥٠ سنة تقريبا فظهر منه أن العلم إذ ذاك عبارة عن بقايا علوم وآثار منها واشتات ، فانه ذكر رءوس المسائل الفلسفية القديمة مثل الأفلاك التسعة المعروفة عندهم ، وترتيب العالم السفلى ، وهذا ملخص الفلسفة القديمة مع انضمام المعدن والنبات والحيوان فضم ذلك كله بالاسم لا بالشرح ، وزاد عليه ألفاظا مبهمة وجعلها مراتب الوجود ، والأمم الاسلامية فى هذه القرون تجهل علم الفلسفة القديم لأنها معتاصة وفائدتها ضعيفة ، ولأن الترك إذ ذاك تحت امرة بنى عثمان قد قتلوا الأمم الاسلامية تقتيلا ، وأناموهـم فناموا نوما عميقا ، لذلك أخـذ المتعلمون منهم ذلك باعتباره سرّا مصونا ، وماهو بالسرّ المصون ، وإنما هى كلمات من شظايا العلوم أضيف إليها شظايا من آراء الباطنية ، وهى الحروف وأسرارها ، وضمّ هـذا إلى ذلك ، ووصل به آيات قرآنية ، وأضاف إليه معرفة الله بواسطة الألف ومابعدها من الحروف ، وجعل ذلك أشبه برموز ، كل ذلك ابعاد للمسلمين عن معرفة الله بالعلم والحكمة ، وزحزحتهم عن الطبيعة الجميلة إلى حروف صنعها الانسان ، وماهى الحروف ؟ إن هى إلا رسوم دوّنها قدماء المصريين وتبعهم اليونانيون فالأمم كلها كاللاتينيين والعرب ، ألم تر إلى الميم فانها عندقدماء المصريين على صورة من اسم البومة ، والى التاء فانها مأخوذة من حية سامّة ، وترى حرف الميم فى العربية ، وفى اللغات الفرنجية له نوع شبه بالبومة وكذا التاء بالحية ، فهل فى شرعة الانصاف أن ينحاز المسـلمون إلى رسوم اخترعها الانسان ويبتعدوا عن صنع ربهم ! ويجهلوا مواطن حياتهم ، ومعرفة ربهم ، ألاساء مثلا القوم المتأخرون .

رباه ، رباه : فهمنا والله ما حاق بنا من الجهل ، أنت رحمن وأنت رحيم ، علمتنا العلوم ومنها القرآن ، اننا معاشر المسلمين فى جهلنا العلوم فى القرون المتأخرة أشبه بالأمم كلها فى جهلها المركب فى أمر الماء كل ، الناس يأكلون الطعام مطبوخا ، وهذا كأنه اجماع النوع الانسانى وهوخطأ فاحش أظهره الأطباء فى زماننا إذ يقولون إن النار تضيع منـه قوّة الحياة ، إذن كل ماطبخ من الطعام ، أوقلى أوشوى صار فى ذهاب قوّة الحياة منه على رأى الأطباء فى زماننا أشـبه بكل ماهو متعفن ، أوأصبح نبيـذا أوخمرا ، فان الأطباء اليوم بالاجماع يقولون بضرر ذلك كله ، إذن كل ماغير الطعام غالبا ضارّ بالانسان ، بل الفاكهة والخضر التى ليست طازجة تقلّ منفعتها .

هذا ملخص كلام الأطباء فى زماننا ، ولقد شرحته عشرات المرّات فى هذا التفسير ، فهكذا أمور دين الاسلام ، إن المسلمين فى القرون المتأخرة جهلوا العلوم ومقصودها ، فراحوا ينبذون ماهو النافع منها ويكتفون بالحثالات والقمامات والفضلات والرجيع والفتات فتركوها للناس فعاشوا بها زمانا ونسوا عهد آبائهم حتى اذا أراد الله ظهور المجد الاسلامى أظهر العلم كرة أخرى ، وعلمنا تلك العلوم فبحثنا فألفيناها على ماذكرناه فبيناها فى هذا الكتاب .

واعلم أن من رحمة الله الواسعة ماتقدّم فى أوّل [سورة القتال] من صور الحشرات المرسومات هناك التى تعيش على العفونات ، فاذا كان الله واسع الفضل حليما فانه لايذر العفونات ولا الرطوبات بلافائدة بل خلق لها خلقا يلائمها ويناسبها بها يعيش كما خلق عقولا فى الانسان نسبتها إلى العقول العالية فيه كنسبة الحشرات إلى أعلى الحيوان تعيش بالغيبة والنميمة والآراء الجزئية ، فهكذا فى الأمم الاسلامية المتأخرة لما حرمت العلوم

والمعارف سخرالله لها من جعرا لها قامات العلم فعاشوا عليها عيش الحشرات على العفونات ، وعيش صغار العقول من الناس على الأحوال الجزئية ، والأخبار العادية ، سنة الله فى خلقه وهوالرءوف الرحيم .

واعلم أيدك الله أيها الذكى أن الشيخ الجيلى وأمثاله قوم صلحاء يريدون الخير بالأمة ، وقد كتبوا ما رأوا أنه خير فى زمانهم ، وبكتاباتهم صلح قوم وصاروا أتقياء ، ولكن ليس ذلك يمنعنا من أن نظهر الحقيقة ونقول هذه ليست والله بأسرار هى تتف من العلوم ، وهاهى ذه العلوم فلتدرس نفس العلوم لابقاياها ورجيعها وقمامتها ، فمن ذا الذى يكتفى من الفاكهة بقشرها ، أومن الكتاب بعنوانه ، أومن الجوهر بالعرض ، فرحم الله الجيلى ، ورحم الله علماء الاسلام والصوفية أجمعين ، ولكن الاحترام لهم شىء والرجوع إلى الحقيقة شىء آخر ، وحسن النية ليس كل شىء ، فلابدّ من العمل كما لابدّ من النية ، وهم لم يكن لديهم من العلم إلا مارأيته من رموز واشارات ترجع إلى علم الفلسفة القديم ، وقد جاء فى هذا الكتاب قديم الفلسفة وحديثها ، فالحمد لله إذ وفقنى لهذا الكتاب ، أتركه للمسلمين بعدى وقد فك فعلاعقالهم وانطلقوا يقرءون علوم الأمم ، والى هنا تمّ الكلام على القسم الأوّل فى تفسير البسملة ، والحمد لله رب العالمين . كتب يوم الأحد ٢٩ نوفبر سنة ١٩٣٠ م

مقدمة فى مناسبة هذه السورة لما قبلها

اعلم أن السور المتقدّمة من [سورة ق] إلى [سورة القمر] قد مرّ فيها الكلام على العالم العلوى والسفلى ، فهو فى سورة ق حثّ على النظر فى السموات والأرض ، وبناء الأولى وتزيينها ، وأنها لافروج فيها ، وفى الثانية لفت النظر إلى مدّها ، وخلق الجبال فيها ، وانبات النبات فيها ، وجعلها بصائر لذوى العقول وذكر المطر ومايترتب عليه من الجنات والحب والنخل ، وعجيب الثمر وعموم نفع هذه المخلوقات لنوع الانسان وفى [سورة الذاريات] خصص المطر المذكور فى [ق] والرياح بالذكر ليحثّ الناس على دراسة الآثار العلوية من رياح ومطر وكيف تهبّ ، وماسبب هبوبها ، وما آثاره ؟ وجعلها فى صورة القسم تعظيما لعلمها ، وتفخيما لقدر العالمين بها ، وفى [سورة الطور] عمم القسم بمافى السماء وماتحت الأرضين ، من بيت معمور ، وسقف مرفوع ، وبحر مسجور ، وبما بينهما من علم منشور ، وحكمة مأثورة ، وآيات مقروءة ، ودروس معلومة ، ومدنية مشكورة ، فأصبح بهذا العلم بكل شىء مطلوبا ، والنظر فى الحقائق كلها مرغوبا ، وفى [سورة النجم] ذكر ابداع الوحى ، وعجائب الخلق ، إذ لم يبق بعد ذكر العوالم كلها علويها وسفليها واعظام قدرها وقدر العلم بها والعالم بها لما أن الله أقسم بها إلا أن يذكر أوّل نفس عالمة بها ، قارئة لنظامها ، مطلعة على بدائعها ، تشويقا للنفوس ، وتعليما للأمم ، فأبان أن نبينا ﷺ اطلع بطريق الوحى لابطريق التعليم على آيات ربه الكبرى ، وقد رأى مالم يره أهل الأرض قاطبة من عجائب الله ، فأوّل سورة النجم أشبه بضرب مثل لمن علم ذلك من أهل الأرض ، كأن الله عزّ وجل يقول : أضرب لكم مثلا بنبيّ آخر الزمان ، فقد اطلع على ما يمكن أن يصل إليه أعلى انسان فى الأرض وانتهى إلى سدرة المنتهى ، فأما ماوراء ذلك فانه خاص بى ، ولما أن ضرب هذا المثل وضحت مسألة العلوم والتمثيل فلم يبق إلا الانذار لمن هوغافل عنها ، فجاءت سورة القمر التى أعقبت سورة النجم للمناسبة اللفظية والاشراقية على سبيل الترقى ، فأبان فيها أن الغافلين من أهل الأرض يجب أن ينذروا باقتراب يوم الحساب فيقال لهم : أيها الناس : اذا غفلتم عما أوضحناه وعن العلم الذى ذكرناه ، واعظام العالمين به فانى أنذركم يوم الحساب وقربه ، والدليل على ذلك ما ترون من انشقاق القمر من الأرض كما قاله علماء العصر الحاضر ، ويمثل لذلك بانشقاقه على جبل حراء واطلاعكم عليه ، فان هذا كمقدّمة ليوم الحساب : « يوم تنشق السماء فتكون وردة كالدهان » .

ولاريب أن ذكر الساعة لايراد منه إلا تخويفهم وزجرهم بقرب تلك الحقائق و بمقدّماتها ، فهم يزجرون

بالقيامة وعذابها و بعـذاب الدنيا ، فان من كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضلّ سبيلا ، والجاهل فى الدنيا جاهل فى الآخرة ، والأمم الجاهلة فى الدنيا جاهلة يوم القيامة ، فاقتراب القيامة يتقدّمه انشقاق القمر قديما ، أوزمن النبوّة ، أو يوم القيامة ، أو جميع ذلك ، فههنا أمران : ساعة تقترب ، ومقدّمات تسبقها ، ولذلك جاءت أحاديث قوم نوح وعاد وثمود ، وقوم لوط وآل فرعون ، متفقات على أن العذاب فى الدنيا يتبعه العذاب فى الآخرة على وفاق مافى أوّل السورة من اقتراب الساعة ومقدّمتها انشقاق القمر (و بعبارة أخرى) إن العذاب مبدؤه فى الحياة ونهايته فى الآخرة التى لانهاية لها ، فاذا ذكر الله اقتراب الساعة وتقدّم انشقاق القمر عليها كالمقدمة لها فهكذا ذكر قصص الأوّلين وكيف أتبعوا فى هذه الدنيا لعنة و يوم القيامة ، ثم أتى بما هوكالنتيجة لذلك من أن كفارمكة سيهزم جمعهم ويولون الدبر ، وأن الساعة موعدهم ، والساعة أدهى وأمرّ ، ثم جعل ذلك كله فى قاعدة وهى « وكل أمر مستقرّ » وأخرى وهى « إنا كل شىء خلقناه بقدر » أى أنا خلقنا كل شىء مرتبا مقـدّرا على مقتضى الحكمة ، وجعـل تلك القصص بينهما بحيث يكون مافى القصص كله من الحكمة البالغة ، ومن الامور المرتبة ، ومن استقرار كل أمر ، فاذن تكون نتيجة هذا كله وأوّله وآخره أن هناك قانونا عاما ، وهوأن كل أمر يسير إلى غاية لايتعـدّاها ، فمن كان فى هـذه أعمى بالجهالة فهو فى الآخرة أعمى بالندامة والعذاب الأليم ، وهذه هى الحكمة التامّة والنظام الأعلى بحيث يشمل العالم كله أوّله وآخره ، فاذا كان الجاهل هذا شأنه أتبعه بالعالم فقال « إن المتقين فى جنات ونهر ، فى مقعد صدق عند مليك مقتدر » فوصف المتقين بأنهم منعمون فى الجنات والأنهار ، ثم أخذ يرتقى بهم فى المعارف والعلوم رجوعا إلى ماذكر فى السور السابقة فقال هم أهل أن يكونوا فى مقاعد صـدق مقرّبين عنـد ملك تعالى أمره فى ملكوته ، وعظام اقتـداره فى خلقه ، ومعلوم أن ملوك الأرض الضعاف لايحظى بالقرب منهم غالبا إلا الذين نالوا حظا عظيما من الأخلاق ومن العلوم ، فكيف تكون حال من يحظى بالقرب من ملك الملوك ، إن ذلك يكون فى أعلى درجات العلم والحكمة والأخلاق ، وكلما كان أعلى منزلة علمية كان أقرب إلى رب البرية ، وههنا آن الأوان أن نبحث فى [سورة الرحمن] ومناسبتها لما قبلها من سور القرآن ، ههنا أخذ يبين الصفات التى تؤهل المتقين ليكونوا فى مقعد صدق عند مليك مقتدر ، لذلك أخذ يشرح ماصنعه ذلك المليك المقتدر وما أفاده برحمته لأهل الأرض فأفاد أنه [أوّلا] علم القرآن إذ أنزله على محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو بلغه لأمته ، ولاجرم أن ما أوحى به إلى النبىّ ﷺ أصبح يرثه الخلف عن السلف جيلا بعد جيل ، وهذا من رحمته [وثانيا] ذكر خلقه للانسان ، ونظام جسمه ، وعجائب اتقانه [وثالثا] أبان أنه علمه النطق وافهام غيره ، وهذا لايتمّ إلا بنفس وعقل وعجائب تقدم كثير منها فى التفسير [ورابعا] أبان تسخير الشمس والقمر ونحوهما له [وخامسا] أبان تسخير الزرع والشجر له [وسادسا] أبان أنه رفع السماء وأقام الخلق بالحكمة والنظام [وسابعا] ذكر الأرض ومافيها من النخل والفاكهة ، ومايشمّ منه رائحة طيبة [وثامنا] خلق الانسان من طين مطبوخ [وتاسعا] خلق الجانّ من نار [وعاشرا] كونه رب مشرقى الصيف والشتاء ومغربيهما [وحادى عشر] أنه أرسل البحر الملح والحلو متجاورين لايختلطان ، [وثانى عشر] أن اللؤلؤ والمرجان يخرجان من البحر الملح والحلو [وثالث عشر] السفن الجاريات فى البحار [ورابع عشر] أن كل هذا سيفنى ويبقى وجه الله [وخامس عشر] أن كل أهل السموات وأهل الأرض مفتقرون إليه فيسألونه .

فهذه هىَ النعم التى ذكرها الله لنا وتوابعها ولوازمها ، ولـكنه لم يذكرها بدون أن يتقدم فى أوّلها أنه علم القرآن ، وأنه علم الانسان البيان ، وهذا الانسان المتصف بذلك قد ذكرعقب قوله : « فى مقعد صدق

عند مليك مقتدر » فكأنه يقول : إن الملك المقتدر الذى يكون لكم مقعد صدق عنده هو نفسه كثير الرحمة ، وأهم شيء من الرحمة أن تقرءوا العلوم التى رمز لجلها بالقرآن ، فهذا الملك المقتدر الذى أنتم ستكونون فى حضرته وتقربون من مقامه كثير الرحمة للعباد ، أنزل لهم الكتب السماوية وأهمها هذا القرآن ليقرأه الناس ، وانما أنزله لهم لأنهم مخلوقون على هيئة تقبل علومه ، ألم تر أنه قد ألهم لغات يبين بها مراده وأعطى علوما عقلية وغيرها ليبرزها ببيانه ، ويقرأها بلسانه ، ويحفظها بجنانه ، فاذا كان هذا شأن الانسان الذى يرجى أن يكون له مقعد صدق عند مليكه المقتدر ، فمن حقه أن يقرأ علوم هذه الكائنات فيدرس الفلك ونظامه ، والتشريح وأحكامه ، والشجر وأكمامه ، والأرض وعجائبها ، والمزارع وغرائبها ، وأصول الانسان وغرائب عالم الأرواح ، والبحار وماءها ، وما جرى فوقها من سفن ، وما نبت تحتها من المرجان ، أوالدرر الحسان ، وأن يبحث هذا العالم بحثا مدققا حتى يعلم أنه كله ذوافتقار الى من يعينه ويحفظه ويبقيه .

إن الانسان اذا كان مقعده صدقا عند مليكه فعليه أن يتخلق بأخلاق الله ، وأخلاق الله الكمال المطلق فليكن كاملا على قدر امكانه ، ألاترى أنه وضع الميزان والنظام العام لأجل أن لانطغى فى ميزاننا ، وزن كل شيء وقدّره تقديرا من حركات الأفلاك ونظام النبات والأشجار والأزهار والأوراق ونظام الأثمار وهيئاتها وطعومها لأجل أن نقدّر الأشياء وزنا وكيلا ومساحة وشهادة بالأقوال الصادقة والشهادات الحقة ، والموازين المنتظمة ، والمكاييل التامة ، فنفعل كما فعل ، فاذا رأيناه نظام حركات الأفلاك فلننظم حركاتنا ، واذا رأيناه هندس وزوّق الأشكال فلنحسن ظواهرنا ، واذا رأيناه جعل كل نبات وكل حيوان بمساحة خاصة ووزن خاص وقدر معلوم فلنعامل فى بيعنا وشرائنا بالمكاييل والموازين والمقاييس الحقة ، فهذا هو الصدق الذى نتصف به حتى نستعدّ أن نكون فى مقعد الصدق ، ومن جلس فى مجالس الملوك وهو غير أهل لها نبذوه وطردوه .

تقييد [سورة الرحمن] أن العلوم كلها من خصائص الانسان من كواكب محسوبة ، وشموس منتظمة المسير ، وأقمار بديعة ، وكواكب مضيئة ، فالحساب فيها لايعرف إلابالحساب والهندسة والجبر ، وذكر الشجر والنجم والنخل والفاكهة والرياحين المشمومة يرجع لعلم النبات ، وذكر خلق الانسان يرجع لعلم النفس والتشريح ، وذكر الأرض يتضمن المعادن ، وأما علم الحيوان فهو مفهوم من المقام إذ الحيوان بين النبات والانسان ، والحيوان خادم الانسان مخدوم بالنبات فكأنه ذكر بذكر الطرفين ، ولم يبق من العلوم الفلسفية فى سورة الرحمن إلا علوم الطب والبيطرة والكيميا وخواص المادّة وما أشبه ذلك ، وكل هذا يرجع إلى ماهومذكور ، نعلم الزراعة وعلم الطب وعلم البيطرة للنبات والانسان والحيوان ، فالعلوم كلها تضمنتها هذه الآيات ، وقد صرّح فيها بالسفن وبالمرجان وباللؤلؤ ، وبالاختصاران الله أبان أن هذه العلوم كلها من رحمة الله ، وأنه هوالذى غرس فى قلب الانسان حبها ، والغرام بها ، وهيأه لمعرفتها ، ولاجرم أن ذلك يؤهل الانسان لمقعد الصدق عند مليكه المقتدر ، وليس معنى هذا أن كل واحد فى الأمة يعرفها بل يكون لها شيوع فى الأمة ، ويكون لكل طائفة اختصاص بعلم من العلوم ودراسة طائفة من تلك العلوم باعتبار أنها فرض كفاية وكل علم من العلوم له نفع ، وكل صناعة لها فائدة فى كل جيل من أجيال الانسان يحرم على المسلمين أن يهملوه بحيث يأثم الجميع اذا لم يكن فيهم من يقوم به ويكفيهم أمره ، وهذه هى مصيبة أمة الاسلام الآن ، واليه الاشارة بقوله : « خلق الانسان علمه البيان » فالمقصد المجموع لا كل فرد فان هذا مستحيل ، ولتعلم الطائفة الخاصة الراقية من كل فنّ طرفا ، وليختص كل بفنّ بعد ذلك ، ذلك هو الصراط المستقيم فى سعادات الأمم . انتهى الكلام على المقدّمة .

القسم الثانى فى عجائب عالم الدنيا

التفسير اللفظى

بسم الله الرحمن الرحيم

(الرحمن ، علم القرآن ، خلق الانسان ، علمه البيان) أى علم محمدا القرآن ومحمد علم أمته ، خلق جنس الانسان وميزه عن سائر الحيوان بالبيان ، وهو التعبير عما فى الضمير وافهام الغير لما أدركه ، وهذه الجمل الثلاث خلت من العاطف وجعلت أخبارا مترادفة للرحمن على نهج تعداد النعم كما تقول زيد أغناك بعد فقر ، أعزّك بعد ذلّ ، كثرك بعد قلة ، فعل بك مالم يفعله أحد بأحد ، فما تنكر من إحسانه ، كأن كل واحد من هذه المعدودات يصح أن يكون كافيا فى حنظ الجيل ، وانكاره وحده كاف فى نعت المنكر بكفران النعمة (الشمس والقمر) يجريان (بحسبان) بحساب معلوم مقدّر فى بروجهما ومنازلهما ، وعلى مقتضى هذا النسق تنتظم أمور المخلوقات السفلية والفصول والسنون وجداول الحساب ، ولما كان النبات الذى ينجم من الأرض المسمى بالنجم ، وهومالاساق له ، والشجر وهوالذى له ساق [فالأوّل كالحنطة والثانى كالنخل] من جملة العوالم المرتبة على سير الشمس والقمر وحسابهما ، وبذلك الحساب انتظم أمر سائر النبات بحيث يزرع فى فصل مخصوص ، ويحصد ويؤخذ ثمره فى فصل مخصوص ، وينمو على مقتضى حركات الشمس والقمر والنجوم أردفه الله تعالى بذكر ذلك فقال (والنجم والشجر يسجدان) ينقادان لله فيما يريد منهما طبعا كما ينقاد المكلفون اختيارا ، وهذا الانقياد ظاهر ، ألاترى أن الشجر والزرع لايخرجان عن نظام سير الكواكب ولايفترقان عن نهج الشمس فى مسيرها ، ثم انظر أيضا كيف كان الشكل والهيئة واللون والمقدار والطعوم والروائح جارية بقدر ، سائرة لغاية ، كل هذا سجود وطاعة للمسخر الذى نظمها . واعلم أن ظاهر النظم يقتضى أن يقال : « علمه البيان » ، أجرى الشمس والقمر بحسبان ، أسجد النجم والشجر ، ورفع السماء ، ووضع الميزان الخ ولكنه عدل عنه لمجازالبيان عن المبين [بالفتح] .

وايضاحه أن النوع الانسانى عرف اللغات والفهم والافهام ، وأودع فى غريزته الاستعداد لكل العلوم ، فاللغات المختلفة فى الأرض التى أبلغها بعضهم إلى أربعة آلاف لغة كلها علمها الله للانسان للبيان والفهم والافهام ، فلكل قوم لهم لغة ، ولكل قوم كتابة ، فماذا يكتبون ، وماذا يقرءون ، وما الذى عنه يعبرون ؟ فلذلك ذكر الشمس والقمر ومابعدهما تبيانا للمعبر عنه والمبين بعد أن ذكر البيان ، هذا هو السبب فى تغيير نظم العبارة ، وانما بدأ بالشمس لأنها مبدأ الحياة على وجه الأرض وبدونها لاحياة فيها كما تقدّم شرحه (والسماء رفعها) خلقها مرفوعة محلا ومرتبة (ووضع الميزان) العدل والنظام الذى مرّ شرحه فى أغلب سور القرآن بحيث كان حساب سير الكواكب ، وحساب أجزاء النبات الداخلة فى تركيبه ، وحساب الأحجار الساقطة المحسوبة بالتربيع كما تقدم فى ﴿ سورة آل عمران ﴾ وحساب الجسمين المتجاذبين كالفلينتين على سطح الماء المتقاربتين بحساب التربيع أيضا وحساب البندولين المختلفين طولا بحيث يكون الأقصر أسرع اضطرابا من الأطول على نسبة عكسية تربيعية ، وهكذا مما شرحناه لك فى هذا التفسير وهكذا نظريات [نيوتن] و[كاپلر] التى أبانت المثلثات المساحية عند جرى الكواكب بحيث تكون متكافئة فى الأزمان المتساوية مع اختلاف الأقواس المقطوعة صيفا وشتاء ، فيكون القوس الذى تقطعه الشمس فى الشتاء وهى مسرعة أكبر من القوس الذى تقطعه فى الصيف وهى فى الرأس مبطئة مع أنهما متساويان مساحة كما تقدّم فيها أيضا موضحا مرسوما فارجع إليه ، كل هذا وكل علم الفلك ، وكل علوم الطبيعة ، وكل نظام الموسيقى الذى تقدّم فى [سورة يوسف] وكل قواعد العلوم ، وكل قواعد الشعر التى تجرى على نسق واحد موسيقى كما فى

بحر الطويل اذا لم تدخله العلل ولا الزحافات يكون ١٢ سببا و ٨ أوتاد ، والمجموع ٤٨ حرفا ، والسواكن بالنسبة للمتحركات هكذا ٥ - ٧ - ١٠ - ١٤ - ٢٠ - ٢٨ فتكون المتحركات ٢٨ والسواكن ٢٠ ومعلوم أن حاصل ضرب الوسطين يساوى حاصل ضرب الطرفين ـ كل ذلك داخل فى الميزان ، إن الميزان هنا لايفهمه إلا من درس جمع العلوم ، ومن قرأ هذا التفسير كله فقد عرف الميزان ، واذن يكون فى مقعد صدق عند مليك مقتدر ، وقوله (ألاتطغوا فى الميزان) أى لئلا تطغوا فيه [1] ولا تعتدوا ولا تجاوزوا الانصاف ، فاذا نظمنا ملكنا بحيث جرى على تلك النسبة المنظمة فان ذلك يدعوكم لنظام أعمالكم اقتداء بسنتنا وسعيا فى رقى نظامكم ، وتحسين أعمالكم وأخلاقكم (وأقيموا الوزن بالقسط ولاتخسروا الميزان) ولاتنقصوه فان من حقه أن يسوّى ، لأنه المقصود من وضعه ، وانما كرره مبالغة فى التوصية ، ولأن كل واحد من العدل فى الميزان ومن النقص ومن الزيادة مرغوب ذكره للقيام به فى الأوّل وللتنائى عنه فى الأخيرين (والأرض وضعها) خفضها مدحوّة (للأنام) للخلق (فيها فاكهة) ضروب مما يتفكه به (والنخل ذات الأكمام) أوعية الثمر التى يكون فيها الثمر ، لأن ثمر النخل يكون فى غلافه وهو الطلع مالم ينشق ، وكل شيء ستر شيئا فهوكم ، ولذلك قال بعضهم : الأكمام مايكم أى يغطى من ليف وسعف وكفرّى ، فكل مايغطى وكل منغطى به ينتفع الناس به كالجذع والجمار والثمرة (والحبّ ذوالعصف) الحب كالحنطة والشعير والذرة والارز ، والعصف ورق النبات اذا يبس والتبن (والريحان) هو إما الذى يشم ، واما الرزق من قولهم خرجت أطلب ريحان الله أى الرزق (فبأىّ آلاء ربكما تكذبان) أيها الثقلان الإنس والجانّ ، الآلاء جمع إلى وهو النعمة وانما خاطب الثقلين لدلالة الأنام عليهما ، والأنام الخلق ، وكل ذى روح : أى فبأى نعم من هذه النعم المذكورة تكذبان أيها الثقلان ؟ وهذه الآية كرّرت فى أحد وثلاثين موضعا من السورة تقريرا للنعمة وتأكيدا للتذكير بها ، فتراه عدّد نعمه على الخلق ، وفصل بين كل نعمتين بما يذكرهم بها ويقرّرها ، فاذا قال الرجل لمن أحسن إليه بنعمة وهو يكفرها : ألم تكن فقيرا فأغنيتك ، أفتنكرهذا ؟ ألم تكن عريانا فكسوتك ، أفتنكرهذا ؟ ألم تكن خاملا فعزّزتك ، أفتنكر هذا ؟ وهذا كثير فى كلام العرب شائع ، هكذا يقول الله هنا : ألم أخلق الانسان وأعلمه البيان : وأنظم الشمس والقمر بحسبان ، وأنوّع الشجر ، وأبدع الثمر ، وأعمهما فى البدو والحضر ، لمن آمن ومن كفر ، وأسقيهما تارة بالمطر ، وآونة بالجداول والنهر ؟ أفتنكرون أيها الناس والجانّ هذه النعم ؟ فبأيها أنتم مكذبون ؟ أبالشجر أم القمر أم خلقكم الخ ؟ .

ولما كانت النعم المذكورة بعضها يحتاج لزيادة شرح وايضاح كخلق الانسان ، وكحساب الشمس والقمر ، وكأسباب نموّ الزرع والشجر ، وهذه الثلاثة مجامع ماتقدّم أعقبه سبحانه بما يبينها على اللف والنشر المرتب فقال فى الأوّل (خلق الانسان من صلصال) من طين يابس له صلصلة بحيث يصوّت اذا نقر (كالفخار) أى الخزف وهو الطين المطبوخ ، وهذا إيضاح لخلق الانسان ، وبيانه أنه كما أن الطين المطبوخ مركب من مادّة أرضية وحرارة سوّته وأنضجته لتحفظ كيانه ، هكذا هذا الانسان له شهوة الطعام والشراب والتزاوج لتبقى بنيته وتدوم حياته بالمادّة الأرضية التى اجتذبتها النباتات من الأرض ، وله قوّة غضبية تورثه الشجاعة والقوّة ليحافظ على بقائه وحياته ، ويمنع عن نفسه عاديات الكواسر ، ومهاجمات الجيوش والأعداء المحيطة به من كل جانب ؛ وهذه فى الانسان تقابل طبخ الطين ليصير فخارا إذ لابقاء للطين بغير طبخه بالنار لتستمسك أجزاؤه ويبقى بناؤه ، هكذا لولا القوّة الغضبية ، ومحافظة الانسان على هيكله المنصوب ، وجسمه المحبوب ، من عاديات الكواسر وأهل القسوة من بنى الانسان لهلك جسمه وأصبح قتيلا فى الفلوات تأكله الطير ،

(١) ان مسألة الميزان ونظام الحياة التابعة لنظام الافلاك تقدم فى سورة يونس شرحها بأكثر مما ستراه هنا . فهناك ترى رسم الهرم وشرحه فضلا عن حسابه .

أوتهوى بأجزائه الريح بعـد تفرّقها فى مكان سحيق كما ترى الطين اذا لم يطبخ يتفتت وتذروه الرياح ، أو يذوب فى أجزاء الأرض ، هذا هو معنى الآية ، وقد تضمن علوم الشهوة وعلوم الغضب المذكورات فى سورة [آل عمران] ثم انه من حيث ترتيب خلقه ، خلقه من تراب فصار التراب طينا لازبا أى يلصق باليد لما اختلط بالماء ، ثم صار حمأ مسنونا وهوالطين الأسود المنتن فلما يبس صار صلصالا ، فاختـلاف العبارات فى القرآن على مقتضى هذه المراتب (وخلق الجانّ) الجنّ (من مارج) من صاف من الدخان ، ثم بينه فقال (من نار) يقول : خلق الله الجانّ من النار الصافية ، والمارج المختلط بعضه ببعض فيكون اللهب الأحمر والأصفر والأخضر مختلطات ، وكما أن الانسان من عناصر مختلفات هكذا الجانّ من أنواع من اللهب مختلطات ، ولقد ظهر فى الكشف الحديث أن الضوء مركب من ألوان سبعة غـير مالم يعلموه ، فلفظ المارج يشير إلى تركيب الأضواء من ألوانها السبعة والى أن اللهب مضطرب دائما ، وانما خلق الجنّ من ذلك المارج المضطرب إشارة إلى أن نفوس الجانّ لاتزال فى حاجـة إلى التهـذيب والتـكميل ، تأمل فى مقال علماء الأرواح الذين استحضروها ، إذ أفادتهم أن الروح الـكاملة تـكون عند استحضارها ساكـنة هادئة ، أما الروح الناقصة فانها تـكون قلقة مضطربة ، وانظر إلى ماقاله سقراط :

« اعلم أن الظالمين من نوع بنى آدم يعذبون فى هذه الحياة ، لأنهم اذا عتوا وظلموا الناس أحسوا من نفوسهم بآلام تقلقهم ، فالظلم سيف ذوحدّين يقتل المظلوم والظالم ، فاذا استغاث المظلومون وتألموا هـكذا الظالمون ، لأن نفوسهم من عالم شريف ، فاذا أحست بالظلم اضطربت وأقلقتهم » وهذا أيضا من سرّ قوله تعالى : « انهم يألمون كما تألمون وترجون من الله مالايرجون » .

أقول : فاذا مات هؤلاء بقيت نفوسهم فى قلق ، فالظالمون قلقون فى الحياة و بعد الممات ، فلفظ « مارج » أفادتنا علمين : علم ألوان الطيف من علم الطبيعـة ، وعلم أخلاق الجنّ من علم الأرواح ، أليس هـذا من بدائع القرآن وعجائب العـلم ، وانظر كيف جمع خصائص النفس الانسانية من حيث شهوة الطعام ونظامه ، وقوّة الغضب وعجائبـه ، وحفظ الثغور ، ونظام الجيوش ، والدفاع عن الديار ، انظر كيف جمع ذلك كله فى الصلصال ، وكيف أبان عذاب الروح الناقصـة من الجنّ . ومثلها الروح الناقصة الانسية بعد موتها ، لأنهم يكونون أشبه بالجانّ فى أخلاقهم ، كل ذلك فى لفظ « مارج » ومن هنا فلتعلم حكم القرآن وعجائبه ، وقوله (فبأىّ آلاء ربكما تـكذبان) ظاهر .

ولما فرغ من ايضاح خلق الانسان شرع يوضح مابعـده وهوالشمس والقمر بحسبان ، فذكرأنه ربّ مشرق الصيف والشتاء ومغربيهما ، وهذه التربية يترتب عليها الفصول الأربعة ، و يتبع ذلك تقلب الهواء وتنوّعه ، ومايلى ذلك من الأمطار والشجر والنبات ، ومايتخلل ذلك من الأنهار الجاريات ، ولما كان النبات وهوالمذكور بعـد الشمس والقمر لايكون إلا بماء عذب ناجم من السحاب المستمدّ من البحار الملحة ، وهـذه البحار فيها نعمتان : نعمة فى باطنها وهى الدرّ والمرجان ، ونعمة فوقها وهى السفن الجاريات كأنها الجبال الطوال أخـذ يشرح ذلك كله على سبيل الترتيب فقال (ربّ المشرقين وربّ المغربين فبأىّ آلاء ربكما تـكذبان ، مرج البحرين) أرسلهما ، يقال مرجت الدابة أرسلتها : أى أرسل البحر الملح والبحر العذب متجاورين متلاقيين ، فترى العذب يخرج من الجبال كنيل مصر يجرى من جبال القمر وراء خط الاستواء فيمرّ شمالا حتى يصبّ فى البحر الأبيض المتوسط ، فلا الملح يطغى على العذب فيجعله ملحا ، ولا العذب يجعل البحر الملح مثله (يلتقيان) ومع هذا الالتقاء منعهما الله عما فى طبعهما بالبرزخ ، وهو مايحجزهما و يصدّهما عن الاختلاط والامتزاج وهو قوله (بينهما برزخ) حاجز إلهىّ (لايبغيان) لايختلطان ولا يتغيران ، أولا يغرقان الناس

بطغيانهما عليهم (فبأى آلاء ربكما تكذبان ، يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان) اللؤلؤ هو الدرّ المخلوق فى الصدف ، والمرجان الخرز الأحمر ، وهما يخرجان من الملح وحده ، وانما عبر بقوله « منهما » لأن العذب والملح بحر واحد لاينفصل أحدهما عن الآخر ، لأن الأنهار والجداول إنما تكون من ماء الأمطار ، وماء الأمطار من البخار ، والبخار من البحار ، والبحار إليها يرجع ماء الأنهار فى جريه فاذن الملح والبخار والسحاب والأنهار كرة واحدة تحيط بالأرض ، وهذه الكرة منها مايبلغ سبعة من عشرة من محيط الكرة الأرضية وهى البحار كبحر الروم والبحر الأحمر وبحر فارس وبحر الهند وبحر الصين والمحيط الهادى والمحيط الباسفيكى وبحر البلطيق ، فهذه هى الأصل ، فاذا نظرت فوقها رأيت كرة الهواء تحيط بالأرض وبالماء ، وهى دائما مشبعة بالبخار المستمدّ من البحار ، ومن هذا البخار تكون السحب فالأمطار فالانهار الجارية على اليابسة كالنيل ودجلة والفرات ونهر النيجر وزمبيزا وما أشبهها ، وكل هذه الأنهار أصبحت كفروع تتصل بالبحر الملح من جهة مصبها ، وبالجبال من جهة منبعها ، وتستمدّ ماءها من السحاب ، وهو من بخار الهواء المستمدّ من البحار الملحة ، فما البحر الملح إلا كشجرة جداولها الأنهار فوق اليابسة ، وكأن كل نهر غصن ، وكل جدول ورقة ، وكل حقل من الحقول قطعة من الورقة . اذا ثبت هذا علمت معنى قوله تعالى « يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان » فانه جعلهما بحرا واحدا ، فمن جهة العذوبة والملوحة يقال لهما بحران ، ومن جهة خروج الدرّ والمرجان جعلا كأنهما بحر واحد ، وقيل خرج منهما ، يقال خرجت من بيوت هذه البلدة وهو لم يخرج إلا من بيت واحد (فبأى آلاء ربكما تكذبان ، وله الجوار المنشآت فى البحر كالأعلام) أى وله السفن الكبار أى المصنوعات التى رفع خشبها بعضه على بعض ، أوهى التى رفعت شرعها فى الهواء ، وقوله « كالأعلام » أى كالجبال جمع علم ، وهو الجبل الطويل (فبأى آلاء ربكما تكذبان) وانظر فى الجبال التى شبهت بها السفن فوق الماء كيف كانت هى التى جرى منها الماء فى الأنهار ، وكأن الله لما خلق الجبال فوق الأرض وهى يابسة تحمل الجبل أراد أن يجعل فى البحر مايشبه الجبال فى البرّ ، وكأنه يقول : انظروا إلى النواميس الطبيعية كيف خرقتها فان ناموس المادّة ألا يحمل الثقيل إلا الكثيف ، أما اللطيف كالماء فلايحمل الثقيل ، فهاأناذا أريتكم العجب ، ووضعت الجبل فوق ظهر الماء بآيات اخترتها ، وعجائب اخترعتها ، وألقيت عليكم دروسا من النواميس تفهمكم أن الجسم اذا كان يزن مايماثله حجما من الماء استوى مع الماء فلايرتفع ولايغرق ، واذا كان الجسم أخف من مقدار حجمه من الماء وزنا طفا فوقه ، وان كان أثقل من وزنه من الماء غرق فيه ، هذا هو القانون الذى وضعته ، والصراط المستقيم الذى اخترته ، والسمكة عرفت ذلك بغريزتها ، فاذا أرادت أن تنزل فى أسفل الماء قبضت عوّامة فى بطنها مملوءة هواء ، واذا أرادت أن تطفو على وجه الماء نفختها فعظم حجمها نخفت فطفت ، وان أرادت أن تساوى سطح الماء توسطت فى نفخها ، وكل سفينة عائمة فى بحر ملح أوعذب على هذه الطريقة ، فانك اذا وزنتها كلها ألفيت جميع وزنها يساوى الماء الذى أزاحته من مستقرّها فى البحر ، ولوأن الماء المزاح بحجمها كان أخفّ لغرقت ، وجسم الانسان أثقل من مقدار حجمه من الماء ولذلك يغرق فى الماء ، وهذه هى نظرية [ارشميدس] الذى أحسّ بأن جسمه وهو فى الماء قد خفّ فاعتقد أن الأشياء وزنها فى الماء أخفّ من وزنها فى الهواء ، وظهر بعد ذلك أن الذى ينقص من وزن الأشياء هو مقدار وزن الماء المساوى لها فى الحجم ، فخرج من الماء وهو لايعى ويقول عرفتها عرفتها ، وذلك بعد أن تحير ثلاثة أيام فى معرفة الذهب المغشوش ، وكيف يعرف غشه ، فأنتج له عقله ، ودله فهمه ، على هذه الطريقة ، وأخذ يزن الذهب والمواد الأخرى التى كان الذهب بها مغشوشا حتى عرف الحقيقة ، وسرّ ملكه بذلك ، وأظهر له حقيقة الغش ، فهذه النعم التى ذكرها الله فى هذه السورة

هى

هي مجامع ما أنعم به على أهل الأرض ، وكأنه تعالى بتكراره التذكير بها وقوله « فبأى آلاء ربكما تكذبان » يقول : أى عبادى : هل ظننتم أن مجرّد الايمان يكفيكم ؟ فهل خلقت الشمس والقمر والنجم ، والشجر والزرع والحب ، والأنهار والبحار ، والدرّ والمرجان لقوم لايعقلون ، أم خلقتها لقوم يقبلون منى النعمة ؟ وكيف يقبلونها إلا اذا عرفوها .

أيها الناس : اشكروا نعمتى ، ولاشكر عليها إلا اذا عرفتموها ، ولامعرفة إلا بالدراسة ، حتى تكونوا عندى فى مقعد صدق ، أليست هذه النعم من رحمتى ؟ ألم أنزل عليكم القرآن ؟ ألم ألهمكم النطق والبيان ؟ ألم أجعل حاجتكم فى الحياة موقوفة على هذه النعم ، فهل خلقتها لمن لايعلمون ؟ أم نظمتها لمن لايقبلون ؟ وهذه الآيات وتكرار الآلاء فيها ٣١ مرّة فى هذه السورة أشبه بالانذار لأمة الاسلام أنهم ان تركوا هذه النعم فكأنهم أنكروها ودخلوا فى الأمم التى ذكرت فى ﴿ سورة القمر ﴾ يقول الله فيها « فكيف كان عذابى ونذر » وهذا وان لم يذكره القرآن صريحا لوّح له تلويحا ، والا فكيف يشكر النعمة جاهل بها ؟ والجاهل بالنعمة كالمكذب ، ثم أردف ذلك كله بأنه فان فقال (كلّ من عليها فان) أى كل من على الأرض من الحيوانات والمركبات من الثقلين وغيرهما فان (ويبقى وجه ربك) ذاته بل كل مخلوق الآن من حيث هو فان ومن حيث ربه موجود ، فهو فان من وجه موجود من وجه (ذوالجلال والاكرام) ذوالاستغناء المطلق والفضل العام ، فهو ذوالعظمة والكبرياء ، وهو مع علوّه يعطى جميع خلقه من النعم والاكرام مايليق بحالهم جميعا وهو لطيف بهم ، يراعى العالم ويكلأ الجاهل . ويتلطف بأدنى الحيوان وأصغره ، ولايحجب فضله عن مخلوق خلقه ، لايحجبه عظم الفيل عن التلطف بالبقة ، بل أعطاها أجنحة وحرمه منها وسلطها عليه ، وكرم بنى آدم . ومع ذلك أغرى الحيوانات الذرّية الصغيرة فتوغلت فى جسمه وأوردته الحمام بالحمى والوباء والجدرى وما أشبه ذلك ، ثم أرسل له الأطباء ليداووه ، فهو لطيف بتلك الحيوانات الدقيقة حيث مكنها من جسم الانسان ولطيف بالانسان من حيث انه سخر له الأطباء ، وعلمه علم الطب ، واذا مات نقله من حال الجسمية إلى حال الروحية وهى أرق من هذه الحال ، ففناؤه من أنواع اللطف ، ومرضه من الفضل .

ينظر الانسان هذه النجوم الثواقب فى ظلمات الليالى فيراها مشرقة بهجة بهية ساطعة باهرة تتلألأ نورا وبهجة ، وتشرح الصدور ، وبهذا تتجلى العظمة والكبرياء ، ويراه يميت الأحياء وتلك النجوم باقية ، والأرض باقية ، والأحوال لم تتغير بحسب مايظهر للناس ، فهذا مظهر الجلال والعظمة ، جمال فى النجوم ، بهجة فى الاشراق ، مناظر باهرة ، أنوار ساطعة ، أجسام عظيمة ، وأحجام كبيرة ، وأحوال تتقلب ، وأهوال تتعاقب ، والناس من بينها يخرّون صعقين ، فهذا لعمرك هو الجلال والعظمة ، ثم تراه من جهة أخرى يتلطف بالمريض ويواسيه بالطبيب ، واذا مات أرسله إلى عالم روحى بهيج لطيف ، فهذا بعض الاكرام ، ويقرب من هذا قوله تعالى : « إن بطش ربك لشديد ، انه هو يبدئ ويعيد » وهذا مما يقرب من الجلال ، ثم أتبعه بقوله « وهو الغفور الودود ، ذوالعرش المجيد » وهذا يقرب من معنى الاكرام ، فبينما نراه متكبرا محدثا للأمور الهائلة اذا هو يتلطف ويبرّ عباده ، ويواسيهم فى مرضهم ، وفى حال نزعهم ، وبعد موتهم ، وفى حياتهم ، فانظر الكبرياء ولطف وعظمة وتحنن وارتفاع ودنوّ ، وهذا قوله تعالى : « وهو معكم أينما كنتم » وأيضا « إن ربى لطيف لما يشاء » . وبهذا فهمت قوله تعالى : « فبأى آلاء ربكما تكذبان » فالنعم واضحة فى تحليل المركبات ، لولا تحليل أجسامنا وموتنا لجدت هذه الأرض ، ولتعطلت الحياة ، والمادّة الأرضية اذا بقيت على حال واحدة كانت القدرة محدودة ، ولكن انبعاث الصور الكثيرة وتلاحقها جيلا بعد جيل ، وقرنا بعد قرن هو عين العدل ، إن من العدل أن تلبس المادّة جميع الأشكال ، وجميع الأشكال

لا تكون دفعة واحدة ، فاذن يجب أن تلبس شكلا وتخلع شكلا آخر ، وهذا هو الحاصل فيها ، هكذا بنو آدم اذا بقي جيلنا الآن وأخذ هذا الجيل يتوالد قرونا وقرونا فلا يمضى قرون معدودة حتى يكون على القدم ألف قدم ، وتمتلئ الأرض بالآدميين فلا يكفيهم حيوان أرضى ولا نبات مأكول ، واذن يأكل الناس بعضهم بعضا وتمتلئ الأرض بالرمم ، فاذن الفناء فيه نعمتان : نعمة الرحمة بتلاحق الأجيال ، ونعمة الخروج من سجن المادّة إلى فسيح الرحمة بعد الموت ، لذلك قال تعالى : « فبأى آلاء ربكما تكذبان » ومن الآلاء الجليلة الفناء الذى هو نعمة بتلاحق الأجيال وبخروجنا من سجن هذه الحياة طوعا أو كرها . ولما كان ما ذكرته لك يتضمن الافتقار المتجدّد أوضحه ، فقال (يسأله من فى السموات والأرض كل يوم هو فى شأن ، فبأى آلاء ربكما تكذبان) قد علمت أن المادّة كلها تلبس جديدا وتخلق قديما ، وأجسامنا وأجسام الحيوان على هذا المنوال ، فالحيوان والانسان كل فى حاجة إلى بقاء جسمه ، والى التغذية والمداواة ، واذا انحلّ جسم من الأجسام أخذ يفتقر إلى حال جديدة ، فالتغيرات المستمرّة فى المادّة افتقار ، والافتقار المذكور دائم فى كل لحظة ، فالسؤال المذكور سببه الافتقار ، والسؤال إما بنطق ، واما بتوجه النفس ، واما بلسان الحال ، فالمادّة الجامدة مفتقرة لبقاء حال يناسبها ، أو تغيرها بما هو أنسب لها ، والنبات فى كل لحظة مفتقر إلى ما يبقى ذاته من ماء وهواء وموادّ ، والحيوان جميعه يطلب بهمته ما يحتاج إليه ، والانسان يسأل بنفسه داخلا و بلسانه نطقا ، فمعنى الآية أن من فى السموات والأرض مفتقرون إليه فى ذواتهم وصفاتهم ، وسائر ما يهمهم و يعنّ لهم ، كل وقت يحدث أشخاصا ، و يجدّد أحوالا على ما سبق به قضاؤه ، واقتضاء مراده ، فليس كما قالت اليهود : ان الله لا يقضى يوم السبت شيئا . اذا فهمت هذا عرفت قوله « فبأى آلاء ربكما تكذبان » فكم من سؤال أجبته ، وكم من جديد أحدثته ، وكم من ضعيف فى الحياة أرحته إما بصحة تسعده أو بموت من سجن المادّة يخرجه (سنفرغ لكم أيها الثقلان) أى سنتجرّد لحسابكم وجزائكم ، وذلك يوم القيامة . واعلم أن هذا على سبيل التمثيل بدليل قوله تعالى : « يسأله من فى السموات والأرض كل يوم هو فى شأن » أى هو فى كل وقت يحدث أمورا ، ويجدّد أحوالا ، ومع ذلك لا يشغله شأن عن شأن ، فانك تقول لمن تهدّده : لأتفرّغنّ لك : أى سأتجرّد للايقاع بك من كل ما يشغلنى ، والمراد التوفر على احداث النكاية به والانتقام منه ، ولا جرم أن شأن الآخرة ماهو إلا شأن من الشئون فلا يشغله عن شيء آخر ، وهو القائل : « إنما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون » والقائل : « وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر » (فبأى آلاء ربكما تكذبان) والثقلان الانس والجانّ لثقلهما على الأرض ، ولأنهما مثقلان بالتكاليف (يامعشر الجنّ والانس ان استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا) أى ان قدرتم أن تخرجوا من جوانب السموات والأرض هار بين من الله ، فارّين من قضائه ، إذ أعطاكم النعم السابغة وعدّدها عليكم ، ونبهكم إليها ، ثم انه يفنيكم و يميتكم ، و بعد الموت يقصد حسابكم ، وهذا هو أوّلكم وآخركم ، فأنتم فى الدنيا فى قبضته ، و بعد الموت فى قبضته ، وأنتم ما دمتم ناقصين غير كاملين فان أرواحكم مضطربة معذبة فى قبضته تعالى ، هو يريد رحمتكم با كمالكم ، والا كمال لا يكون إلا بالايقاظ بالعلوم ، و بالنوازل ، وتقلب الأحوال عليكم ، كل هذا من الرحمة المذكورة أوّل السورة ، ولكنكم بحسب ما يعنّ لكم وأنتم فى حال النقص تشعرون بأنكم معذبون كما يحس التلميذ بقسوة المعلم الذى يريد ابلاغه الكمال ، فان استطعتم أن تهربوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا : أى فاخرجوا (لاتنفذون) لاتقدرون على النفوذ (إلا بسلطان) إلا بقوّة وقهر ولاقدرة لكم على ذلك ، وأولى من هذا الوجه أن يقال : أيها الثقلان : ان قدرتم أن تنفذوا فى أقطار السموات والأرض لتنظروا صنعنا فانفذوا ولكنكم لاتنفذون إلا بقوّة علمية و بمقدّمات

نصبتها

نصبتها لكم وهى العلوم والمعارف والتهذيب ، وأهمّ ذلك حب العلم وحبّ الخالق وأجتماعهما يعطى المرء قوّة بها يطلع على العلوم والعجائب ليخرج من سجن هذه المادّة (فبأى آلاء ربكما تكذبان) من التنبيه والتحذير والعفو وكمال القدرة ، أوالمعارج العقلية التى نصبها الله لارتقاء العقول الانسانية فى العلوم العقلية فينفذون بها إلى العوالم العجيبة فوق السموات العلى .

إن النفوس الانسانية لايقرّ لها قرار إلا بالاطلاع على عجائب هذه العوالم التى ظهرلنا نورها ، وبدت لنا أنواركواكبها بحيث نرى ضوءها من بعد لايتخيله الوهم بحيث يصل لنا الضوء [الذى يقطع فى الثانية ثلثمائة ألف كيلومترا فى ألف سنة ، أومائة ألف سنة ، أوألف ألف سنة ، بل أكثر من ذلك] فهذا مما يشوّق نفوسنا إلى الاطلاع على هذه العوالم المدهشة ، وكيف ننفذ لها ونحن محبوسون فى هذه الأرض ؟ بل كيف تخترق أرواحنا هذه المسافات الشاسعة لوأرادت الصعود لهذه العوالم بعد الموت ، أوعقولنا معرفتها ونحن فى الأرض ممنوعون عن ذلك بعوائق ، فان لكل عالم من العوالم التى فوقنا جوّا خاصا وأحوالا ليست تليق إلا لمن استعدّ لها ، ونحن لايتسنى لنا اختراق أىّ جوّ من الأجواء إلا اذا كانت أرواحنا صافية مستعدّة لاختراقه ، ومهيئة له ، والنفوس الانسانية فى الدنيا لاقبل لها بمعرفة علوم تلك العوالم أيضا معرفة علمية إلا باستعداد خاص عقلى وخلقى ، فالناس فى الدنيا محجوبون إلا من لهم استعداد وعلم وعمل فيعرفون قليلا ، وبعد الموت كذلك إلا النفوس الصافية المستعدة ، ولايهيء للناس السفر فى تلك الأقطار إلا الاستعداد لها فى هذه الحياة الدنيا بالأخلاق والعلوم والاخلاص ، فقوله (يرسل عليكما شواظ) لهب خالص (من نار ونحاس) وهوالدخان (فلاتنتصران) فلاتمتنعان من الله ، ولا يكون لكم ناصرمنه ، يقول الله : اذا عجزتم الآن عن أن تنفذوا من الأقطار فأنتم عن النفوذ والهرب يوم القيامة أعجز ، فانكم هناك ان هربتم يرسل عليكما لهب ودخان فلاتقدران على الهرب ، إن هذا كله ليفهم الله الناس أنهم فى قبضته ، لايخرجون من حكمه وقضائه .

واعلم أن هذا الذى فى الآية له نظير فى نفوس الناس اليوم ، فكل امرىء فى عاداته ودياناته ومعارفه وأخلاقه وشهواته ووطنه محبوس ، حتى ان من يعيش فى خط الاستواء ، ومن يعيش فى الجزائر الخضراء قرب القطبين اذا نقل كل منهما من مكانه تألم لذلك بل ربما مات ، وهكذا حيوان البرّ لايعيش فى البحر وبالعكس ، فحيوان البحر اذا نفذ من أقطاره أرسل عليه نيران الشمس وعنصرالهواء الجاف فأذاقاه كأس الحمام ، وترى الناس فوق الأرض يكرهون الموت ، لأنهم لم يعرفوه ، ولم يروا هناك حياة غيرهذه ، وترى القلوب كلها مستعدّة للعلوم ، ولكن الشهوات ، وأنواع الغضب ، والعادات المستحكمة تمنعهم من المعرفة والحكمة وتصدّهم كماروى : « لولا أن الشياطين يحومون حول قلوب بنى آدم لنظروا إلى ملكوت السموات والأرض » ، فالشهوات والوسوسة والعوارض فى حياتنا تمنعنا من إدراك العوالم فهى تشبه الدخان والنار ، فالنار كالشهوات ، والدخان كالعادات والعقائد المرتبكة المانعة من العلم ، ونحن اذا متنا لانكون هناك إلا فى المكان اللائق بنا فى الجنة أوفيما هوأعلى منها « ولكل درجات مما عملوا » بحيث لايتجاوز أحدمارسم له لأنه يحجب عنه هناك كما يمنع حيوان البحر أن يعيش فى البرّ ، وإياك أن ترى قولى ماهوأعلى من الجنة خارجا عن أقوال العلماء ، فارجع إليه فى ﴿ سورة البقرة ﴾ عن الامام الغزالى فتفكر ، فارسال اللهب والدخان على أهل المحشر وحبسهم فيه له نظير فى كل شىء فى الدنيا والآخرة ، وفى معارج الأرواح ، والاستعداد هو الذى يعين منازل الناس فى الدنيا والآخرة ، والاستعداد لا يكون إلا بمقدمات ، إنك أيها الذكىّ لو بحثت اليوم فى الناس لوجدتهم جميعا وأنا وأنت فى حال مخصوصة بحيث لوتركناها لرأينا العوائق دوننا كما صدّ اللهب

والدخان أهـل المحشر عن الخروج من القضاء والقدر، فترى كل امرئ لايعدو ما استعدّ له، وما اعتاده هذا تراه فى نفسك، وفى أهلك، وفى جارك. وفى أمّتك، وفى أمم الغرب والشرق، كل حكم عليه بما هو بسبيله أشبه بحيوان البرّ وحيوان البحر، وبعد الموت يسيرون جميعا فيما استعدّوا له ولاينفكون عنه جزاء وفاقا وقانونا مطردا، فالعادات أحاطتنا بسياج من لهب ودخان لانجاوزه، ولوقات لنصرانىّ صلّ صلاة المسلمين لرآه فى عذاب وهكذا المجوس وبالعكس، وتفصيل هذا لانهاية له، ولعلنا بعدالموت نطلع على عالم الكواكب بنفس أحجامها، وليس ينال ذلك منا إلا من استعدّت أرواحهم لذلك خفت فارتقت، فأما الأرواح الضعيفة فانها لاتنال ذلك لعدم استعدادها، ولاتظنّ أن هذا يغاير ما قاله علماؤنا فلتعلم أن العلم هو أعظم نعيم فى الجنة بل كل نعيم الجنـة بالنسبة له أمر ضعيف. وبالعلم تستأهل النفس للنظر إلى وجه الله الكريم، وماسوى ذلك فهومتاع لايهمّ النفوس الشريفة، والله لامعنى لهذه الحياة إلا بتلك النتيجة العالية الشريفة :

على نفسه فليبك من ضاع عمره ✿ وليس له منها نصيب ولاسهم

هـذا هو نهاية تفسير القسم الثانى إجمالا مع بعض التفصيل، وفى هذا القسم [لطيفتان : الأولى فى قوله تعالى : « ووضع الميزان » [الثانية] فى قوله تعالى : « يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان » .

اللطيفة الأولى فى قوله تعالى : ووضع الميزان

قد علمت مما ذكرناه فى هـذا المقام وغيره أن الميزان لا يعرفه إلا من درس العلوم كلها، ولكن الميزان الأرضى من كل ما يقدّر به الأجرام الأرضيـة بمساحة أو بكيل أو بوزن يحتاج إلى بحث مستفيض ليعرف الناس أن هـذه مشتقات مقتبسات من النظام السماوى والميزان الإلهى، وكيف يعرف الناس أن الذراع الذى يقيسون به الثياب، والمقياس الذى يمسحون به الأرض، والرطل الذى يزنون به المأكولات وما أشبهها كيف يعرفون أن ذلك كله مأخوذ من نفس سير الشمس فعلا لامجرّد قول، ولعمرى ان من يقرأ ما سأقوله الآن فى هذا الموضوع ليرينّ العجب العجاب، وليسمعنّ فى هذه المقالة مايدهشه، حيث يرى أن الأردب والقنطار والدرهم ومساحة الفدّان ترجع فعلا إلى ميزان السموات ﴿ وبعبارة أخرى ﴾ إلى مدار الأرض حول الشمس، أومدار الشمس حول الارض بحسب الظاهر، وأن هـذه كلها مرتبطات بذلك .

الحقّ والحقّ أقول أن من يفهم ماسأوضحه سيعجب غاية العجب ! ويقول : حقا ان هذه معجزة للقرآن مدهشة أكبر من كل معجزة، وكيف لاتكون معجزة والله يقول : « ووضع الميزان ألا تطغوا فى الميزان » أى وضعنا نظامنا لأجل ألا تطغوا فى ميزانكم أى ان ميزانكم مبنىّ على ميزاننا، وهاك ماقلته من رسالة صغيرة سميتها « التربية العملية فى الاسلام » لم تطبع إلى الآن، قد وضعتها على هيئة محاورة، فهاك ما يناسب المقام هنا منها :

س — قد فهمت ذلك ولكن من أين لنا أن نوقن بأن علوم الرياضيات التى أوجبها أفلاطون مما ينبغى أن تطلبه الأمة الاسلامية لأجل دينها، وأين ذكر الله هذا فى القرآن ؟ .

ج — لقد ذكر الله ذلك فى القرآن فى مواضع كثيرة كقوله تعالى : « والشمس تجرى لمستقرّ لها ذلك تقدير العزيز العليم، والقمر قدّرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم » الآية .

س — أنا أريد أبين من هذا ؟ .

ج — اقرأ كتبنا : جواهر العلوم، وميزان الجواهر، والنظام والاسلام، ونظام العالم والأمم، تجد فيها آيات كثيرة وحسابا رياضيا جبريا وفلكيا حقيقيا، وتقف إذ ذاك على ما أودع فى القرآن فى نحو ٧٥٠ آية

أبانت أنه ينبغى لأذكياء المسلمين تعلم الرياضيات والطبيعيات لا كما فعل أفلاطون وسقراط إذ خصصا التعليم بالرياضيات فانها مناط الحق والصدق ، ولكنا نقول لن يكون المرء حاكما صالحا إلا بالقوة البدنية والنبوغ فى الرياضيات والطبيعيات ، ولقد كذب الذين قالوا ان العلم يصد عن ضبط مصالح الناس فانما ذلك خاص بالعلم الذى لايصحب بتهذيب وتقويم ، ولاتمرين عضلى ، ولاعشق للحكمة والبحث ، فأما ذلك الذى استوفى تلك الشرائط فما أجدره أن يرفع ذوى النفوس الشريفة إلى مستوى الحكم ، والحكم والعدل فى القضية ، والتسوية بين الرعية ، وسآتى لك فى هذه الرسالة بفائدة عجيبة خلت منها كتبنا السابقة ، وهى من أعاجيب الدهر وعجائب الحكمة ، بل هى درة بهية ، وآية سنية ، وحكمة جوهرية ، وشمس إشراقية ، وبديعة نورية ، تلك آية الرحمن ، إذ قال الله تعالى : « الشمس والقمر بحسبان ، والنجم والشجر يسجدان ، والسماء رفعها ووضع الميزان ، ألاتطغوا فى الميزان ، وأقيموا الوزن بالقسط ولاتخسروا الميزان » .

س — وأى عجب فى هذه الآية وأى ابداع ؟ .

ج — فيها مالاعين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولاخطر على قلب المتكبرين ، ألاترى أنه تعالى يقول : رفعت سمائى وحركتها بالحركات العجيبات ، وقدرتها ووزنتها بالميزان العجيب ، فلاشمس تشرق إلا بنظام ، ولاقمر يطلع إلا بحساب ، ولقد وزنت حركاتها وزنا ، وضبطت سيرها ضبطا ، فلاتأخير ولاتقديم ، ولانجم ولا شمس ولاقمر يتحرك حركة إلابحساب وميزان ظهر لكم فى تقويمكم السنوى ، وعرفتموه فى نتائجكم المعروفة فهل رأيتم فى عملى من خلل ؟ أواطلعتم على تفاوت ، هل نجم النجم قبل إبانه ، أو بدر البدر قبل أوانه ، أوغربت شمس بعد وقتها ، أم أخطأ الليل والنهار ؟ كلا . إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار لتكون أعمالهم موزونة بهذا الميزان ، فكما نظمت سماواتى ، وقدرت كواكبى ، وأدرتها بحساب ، فهكذا ياعبادى نظموا أعمالكم كما نظمنا ، واياكم أن تحجموا عما رسمنا ، فلاتستأخرون دقيقة أوثانية ولاتستقدمون .

س — قد فهمت انشاءك ، وعرفت منهاجك ، وعقلت طريقك ، فما أتيت فى هذه الآية أكثر مما فى غيرها .

ج — على رسلك صبرا ، ولاترهقنى من أمرى عسرا ، فسأكمل المقال لتطلع على مايجهله الأكثرون انظر إلى قدماء المصريين ، ألم تر أنهم جعلوا الفدان والأردب والقنطار مشتقات من دائرة الشمس السنوية

س — وكيف كان ذلك ؟ .

ج — إن الأرض ليس يضبط محيطها كما يضبط محيط مدار الشمس ، فلما كان العالم العلوى أضبط وأبقى جعله أولئك الفلاسفة مقياسا لنا : أى جعلوا منه الرطل المصرى والكيلة والفدان والقيراط وما أشبه ذلك تصديقا لقوله تعالى : « ألاتطغوا فى الميزان » أى انا وزنا السماء وقدرناها وحسبناها وضبطناها فى حركاتها لئلا تزيدوا فى موازينكم كالقناطير والأرطال ، ومكاييلكم كالأردب والكيلة ، ومقاييسكم كالفدان والقيراط ، إن هذه كلها مبنية على نظام شمسنا ، ولواختل نظام مدارها لم يضبط لكم كيل ولاميزان كما لاتضبط أعمالكم اذا تقدم كوكب عن أوانه ، أوطلعت الشمس أوالقمر قبل إبانهما .

س — هذا قول عجيب لا أفهمه أوضحه لى ، فاذا عجبت من جهلى الناس فلاتعجب اذا عجب الناس من غموض قولك .

ج حياك الله : مهلا . إن الفرنسيين الذين جعلوا وحدة المقاييس ترجع إلى محيط الأرض إذ جعلوا المتر جزءا من ٤٠ مليونا من محيط الدائرة الأرضية قدوقع الخطأ فى عملهم ، فانهم رأوا بعد ذلك أن محيط الأرض ليس ٤٠ مليونا بل يختلف اختلافا بينا ، فاذا اختلف الناس فى المتر فيما بعد فإلام يرجعون ، أما قدماء

والدخان أهل المحشر عن الخروج من القضاء والقدر ، فترى كل امرئ لا يعدو ما استعدّ له ، وما اعتاده هذا تراه فى نفسك ، وفى أهلك ، وفى جارك . وفى أمّتك ، وفى أمم الغرب والشرق ، كل حكم عليه بما هو بسبيله أشبه بحيوان البرّ وحيوان البحر ، وبعد الموت يسيرون جميعا فيما استعدّوا له ولا ينفكون عنه جزاء وفاقا وقانونا مطردا ، فالعادات أحاطتنا بسياج من لهب ودخان لا نجاوزه ، ولوقلت لنصرانىّ صلّ صلاة المسلمين لرآه فى عذاب وهكذا المجوس وبالعكس ، وتفصيل هذا لا نهاية له ، ولعلنا بعد الموت نطلع على عالم الكواكب بنفس أحجامها ، وليس ينال ذلك منا إلا من استعدّت أرواحهم لذلك نخفت فارتقت ، فأما الأرواح الضعيفة فانها لا تنال ذلك لعدم استعدادها ، ولا تظننّ أن هذا يغاير ما قاله علماؤنا فتعلم أن العلم هو أعظم نعيم فى الجنة بل كل نعيم الجنة بالنسبة له أمر ضعيف . وبالعلم تستأهل النفس للنظر إلى وجه الله الكريم ، وماسوى ذلك فهو متاع لا يهمّ النفوس الشريفة ، والله لا معنى لهذه الحياة إلا بتلك النتيجة العالية الشريفة :

على نفسه فليبك من ضاع عمره ☆ وليس له منها نصيب ولا سهم

هـذا هو نهاية تفسير القسم الثانى إجمالا مع بعض التفصيل ، وفى هذا القسم [لطيفتان : الأولى] فى قوله تعالى : « ووضع الميزان » [الثانية] فى قوله تعالى : « يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان » .

اللطيفة الأولى فى قوله تعالى : ووضع الميزان

قد علمت مما ذكرناه فى هـذا المقام وغـيره أن الميزان لا يعرفه إلا من درس العلوم كلها ، ولـكن الميزان الأرضى من كل ما يقـدّر به الأجرام الأرضيـة بمساحة أو بكيل أو بوزن يحتاج إلى بحث مستفيض ليعرف الناس أن هـذه مشتقات مقتبسات من النظام السماوى والميزان الإلهى ، وكيف يعرف الناس أن الذراع الذى يقيسون به الثياب ، والمقياس الذى يمسحون به الأرض ، والرطل الذى يزنون به المأكولات وما أشـبهها كيف يعرفون أن ذلك كله مأخوذ من نفس سـير الشمس فعلا لا لمجرّد قول ، ولعمرى ان من يقرأ ما سأقوله الآن فى هذا الموضوع ليرينّ العجب العجاب ، وليسمعنّ فى هذه المقالة مايدهشه ، حيث يرى أن الأردب والقنطار والدرهـم ومساحة الفدّان ترجع فعلا إلى ميزان السموات ﴿ وبعبارة أخرى ﴾ إلى مدار الأرض حول الشمس ، أومدار الشمس حول الارض بحسب الظاهر ، وأن هـذه كلها مرتبطات بذلك .

الحقّ والحقّ أقول أن من يفهم ماسأوضحه سيعجب غاية العجب ! ويقول : حقا ان هذه معجزة للقرآن مدهشة أكبر من كل معجزة ، وكيف لا تـكون معجزة والله يقول : « ووضع الميزان ألا تطغوا فى الميزان » أى وضـعنا نظامنا لأجل ألا تطغوا فى ميزانـكم أى ان ميزانـكم مبنىّ على ميزاننا ، وهاك ماقلته من رسالة صـغيرة سميتها « التربية العملية فى الاسلام » لم تطبع إلى الآن ، قد وضعتها على هيئة محاورة ، فهاك ما يناسب المقام هنا منها :

س — قد فهمت ذلك ولـكن من أين لنا أن نوقن بأن علوم الرياضيات التى أوجبها أفلاطون مما ينبغى أن تطلبه الأمة الاسلامية لأجل دينها ، وأين ذكر الله هذا فى القرآن ؟ .

ج — لقد ذكر الله ذلك فى القرآن فى مواضع كثـيرة كقوله تعالى : « والشمس تجرى لمستقرّ لها ذلك تقدير العزيز العليم ، والقمر قدّرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم » الآية .

س — أنا أريد أبين من هذا ؟ .

ج — اقرأ كتبنا : جواهر العلوم ، وميزان الجواهر ، والنظام والاسلام ، ونظام العالم والأمم ، تجد فيها آيات كثيرة وحسابا رياضيا جبريا وفلـكيا حقيقيا ، وتقف إذ ذاك على ما أودع فى القرآن فى نحو ٧٥٠ آية

أبانت

أبانت أنه ينبغي لأذكياء المسلمين تعلم الرياضيات والطبيعيات لا كما فعل أفلاطون وسقراط إذ خصصا التعليم بالرياضيات فانها مناط الحق والصدق ، ولكنا نقول لن يكون المرء حاكما صالحا إلا بالقوة البدنية والنبوغ فى الرياضيات والطبيعيات ، ولقد كذب الذين قالوا ان العلم يصد عن ضبط مصالح الناس فانما ذلك خاص بالعلم الذى لا يصحب بتهذيب وتقويم ، ولا تمرين عضلى ، ولا عشق للحكمة والبحث ، فأما ذلك الذى استوفى تلك الشرائط فما أجدره أن يرفع ذوى النفوس الشريفة إلى مستوى الحكم ، والحكم والعدل فى القضية ، والتسوية بين الرعية ، وسآتى لك فى هذه الرسالة بفائدة عجيبة خلت منها كتبنا السابقة ، وهى من أعاجيب الدهر وعجائب الحكمة ، بل هى درة بهية ، وآية سنية ، وحكمة جوهرية ، وشمس إشراقية ، وبديعة نورية ، تلك آية الرحمن ، إذ قال الله تعالى : « الشمس والقمر بحسبان ، والنجم والشجر يسجدان ، والسماء رفعها ووضع الميزان ، ألا تطغوا فى الميزان ، وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان » .

س — وأى عجب فى هذه الآية وأى ابداع ؟ .

ج — فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب المتكبرين ، ألا ترى أنه تعالى يقول : رفعت سمائى وحركتها بالحركات العجيبات ، وقدرتها ووزنتها بالميزان العجيب ، فلا شمس تشرق إلا بنظام ، ولا قمر يطلع إلا بحساب ، ولقد وزنت حركاتها وزنا ، وضبطت سيرها ضبطا ، فلا تأخير ولا تقديم ، ولا نجم ولا شمس ولا قمر يتحرك حركة إلا بحساب وميزان ظهر لكم فى تقويمكم السنوى ، وعرفتموه فى نتائجكم المعروفة فهل رأيتم فى عملى من خلل ؟ أو اطلعتم على تفاوت ؟ هل نجم النجم قبل إبانه ، أو بدر البدر قبل أوانه ، أو غربت شمس بعد وقتها ، أم أخطأ الليل والنهار ؟ كلا . إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار لتكون أعمالهم موزونة بهذا الميزان ، فكما نظمت سماواتى ، وقدرت كواكبى ، وأدرتها بحساب ، فهكذا يا عبادى نظموا أعمالكم كما نظمنا ، وإياكم أن تحجموا عما رسمنا ، فلا تستأخرون دقيقة أو ثانية ولا تستقدمون .

س — قد فهمت انشاءك ، وعرفت منهاجك ، وعقلت طريقك ، فما أتيت فى هذه الآية أكثر مما فى غيرها .

ج — على رسلك صبرا ، ولا ترهقنى من أمرى عسرا ، فسأكمل المقال لتطلع على ما يجهله الأكثرون انظر إلى قدماء المصريين ، ألم تر أنهم جعلوا الفدان والأردب والقنطار مشتقات من دائرة الشمس السنوية

س — وكيف كان ذلك ؟ .

ج — إن الأرض ليس يضبط محيطها كما يضبط محيط مدار الشمس ، فلما كان العالم العلوى أضبط وأبقى جعله أولئك الفلاسفة مقياسا لنا : أى جعلوا منه الرطل المصرى والكيلة والفدان والقيراط وما أشبه ذلك تصديقا لقوله تعالى : « ألا تطغوا فى الميزان » أى انا وزنا السماء وقدرناها وحسبناها وضبطناها فى حركاتها لئلا تزيدوا فى موازينكم كالقناطير والأرطال ، ومكاييلكم كالأردب والكيلة ، ومقاييسكم كالفدان والقيراط ، إن هذه كلها مبنية على نظام شمسنا ، ولو اختل نظام مدارها لم يضبط لكم كيل ولا ميزان كما لا تضبط أعمالكم اذا تقدم كوكب عن أوانه ، أو طلعت الشمس أو القمر قبل إبانهما .

س — هذا قول عجيب لا أفهمه أوضحه لى ، فاذا عجبت من جهل الناس فلا تعجب اذا عجب الناس من غموض قولك .

ج حياك الله : مهلا . إن الفرنسيين الذين جعلوا وحدة المقاييس ترجع إلى محيط الأرض إذ جعلوا المتر جزءا من ٤٠ مليونا من محيط الدائرة الأرضية قد وقع الخطأ فى عملهم ، فانهم رأوا بعد ذلك أن محيط الأرض ليس ٤٠ مليونا بل يختلف اختلافا بينا ، فاذا اختلف الناس فى المتر فيما بعد فإلام يرجعون ، أما قدماء

المصريين فانهم قاسوا مدار الشمس السنوى بالحساب العالى فبنوا الهرم الأكبر على أن محيطه جزء من مليار جزء من محيط مدار الشمس السنوى : أى جزء من ألف ألف ألف جزء من ذلك المحيط ، وارتفاعه جزء من ألف ألف ألف جزء من البعد بين الشمس والأرض: أى مليار وضعف الارتفاع المذكور يساوى قطر محيط دائرة مساوية لمحيط الهرم ، فالارتفاع نفسه كما تقدم يساوى جزءا من مليار من البعد بين الشمس والأرض ومحيط الهرم يساوى جزءا من مليار من الدائرة التى تدور عليها الشمس التى ذلك البعد نصف قطرها .

وعليه يكون ضلع الهرم مساويا لجزء من ربع مليار من محيط الدائرة الشمسية ، ومعلوم أن الضلع المذكور يساوى ٤٠٠ ذراع بلدى ، أو ٣٦٠ هنـداسة ، فيكون الذراع البلدى واحدا من مائة مليار من محيط الدائرة الشمسية : أى جزء من مائة ألف ألف ألف جزء من ذلك المحيط ، ثم ان ربع الذراع البلدى المكعب يسع ألف درهـم من الماء المقطر ، وكل اثنى عشر درهما أوقيـة ، وكل ١٢ أوقية رطل ، فالرطل ١٤٤ درهما ، والقنطار مائة رطل ، وعليه تـكون المقاييس منها عشرى ومنها ذوالاثنى عشر ، والأردب ذراع بلدى مكعب ، فتعجب كيف كان الأردب ذراعا مكعبا منسوبا إلى ضلع الهرم ، فهوجزء من ٤٠٠ منه ، أو واحد من مائة ألف ألف ألف جزء من محيط الدائرة الشمسية ، ألاترى كيف قسنا ووزنا وكلنا على نسبة محيط الشمس .

إن الفدّان عبارة عن ١٠٠ × ١٠٠ = ١٠٠٠٠ عشرة آلاف هنداسة ، فطوله ١٠٠ وعرضه ١٠٠ وهونسبة عشرية ، والهنداسة جزء من ٣٦٠ جزءا من ضلع الهرم المنسوب لربع محيط الدائرة الشمسية فأصبح الفدّان منسوبا مقياسه للدائرة الشمسية ، أليس هذا بعينه قوله تعالى « ألا تطغوا فى الميزان وأقيموا الوزن بالقسط ولاتخسروا الميزان » فأمر بالاعتدال ، وألا ننقص وألا نزيد فى وزننا ، ولا فى كيلنا ومساحتنا ، كل ذلك على حسب مدار الشمس .

واعلم أن الذراع النيلى $\frac{٥}{٦}$ من الهنداسة فيكون ضلع الفدّان ١٢٠ ذراعا نيليا ، والفدان ١٤٤٠٠ ذراعا نيليا ، ويكون القـيراط ٦٠٠ والسهم ٢٥ والدانق ١٠٠ — فالذراع النيلى والهنـداسة كلاهما يمسحان الفدان ١٠٠ × ١٤٤ = ١٤٤٠٠

هل يدرى ذلك الفلاح الذى يبيع قطنه بالقنطار أن للقنطار نسبة إلى مدار الشمس فى السماء ؟ هل يعلم أن القنطار المنقسم إلى أرطال إلى دراهم ، أن تلك الدراهم منسوبة إلى الذراع البلدى الذى اذا كعب ربعه وسع ألف درهـم ، واذا كعب هو وسع ٦٤ ألف درهم ، وأن هذا الذراع البلدى جزء من أربعمائة من ضلع قاعدة الهرم ، وأن ضلع قاعدة الهرم جزء من ألف ألف ألف جزء من ربع محيط دائرة الشمس حول الأرض ، وأن هذا المحيط أحد المحيطات التى للشموس العظيمة التى لايعلم عددها إلا الله ، وهل درى الفلاح الذى يقيس أرضـه بالقصبة أن هـذا الفدان يساوى عشرة آلاف هنداسة ، وأن الهنداسة جزء من ثلثمائة وستين جزء من ذلك الضلع المنسوب لمحيط الشمس .

وهل علم من يبيع أردب قمح أنه منسوب إلى الذراع البلدى ، الراجع إلى ضلع الهرم ، المستمد من مدار الشمس ، سبحان الله ، وأن الشمس ومافوقها إلى ربك منتهاها ، هل علم الناس أن الذراع البلدى اشتقّ كما اشتقّ الـكيل والوزن وهما من الحساب ذى الاثنى عشر ، وأن المساحة من الهنداسة والذراع النيلى أولهما عشرى والثانى فيه ذوالاثنى عشر ، وأن هذا كله راجع إلى مدار الشمس ، الناس فى بلادنا لاهون لاعبون جهلوا الدين وجهلوا نظام المدن ، وعاشوا عالة على الذين حلوا من قبل فى ديارنا ، وعلى الأمم حولنا ، جهلوا لأن هذا الأردب ، وهذا القنطار ، وهذا الفدان ، كل ذلك مقادير موزونة محسوبة منظومة راجعة لابداع

الشمس ونظام سيرها ، كأن القدماء لما رأوا أن الناس غافلون ذكروهم بهذه الموازين العجيبة البديعة فى غدوّهم ورواحهم وحسابهم وليلهم ونهارهم لئلا يغفلوا عن ذكر ربهم ، وعن ذكر نظام مدنهم ، وعن نظام الفلك ، أليس هذا عجيبا ! إى وربى انه لحق ، إى وربى انه لحق ، لقدوضع صصة بن داهر الحكيم الهندى الشطرنج ، ووضع غيره النرد ، وكان لتلك الأوضاع بهجة تذكر اللاعبين بسير الشمس والقمر والأيام وأعدادها والشهور وأدوارها ، ولكن أعجب من ذلك نظام قدماء المصريين الذين أبرزوا مكنون العلم فى الأعمال اليومية لا الألعاب الصبيانية فتأمّل وتعجب ! وانظر كيف تعلم اليونانيون علم المصريين ، ودرسوا هرمهم وحكمتهم وميزانهم ورطلهم وقنطارهم وأردبهم ، وعرفوا أن ذلك منسوب لضلع الهرم المنسوب لدائرة الشمس ، وأن ذلك كله لم يتم إلا بعلم الحساب والهندسة والجبر العالى وأمثال ذلك فأوضحه أفلاطون فى جمهوريته ، وقال : « لن يكون الانسان عدلا مطيعا لله قائما بأمره صادقا فى حكمه حتى يبرع فى الرياضيات ويتخلق بأخلاق الله » ثم قرأنا ذلك ونظرنا فى القرآن فرأيناها أنزلت على النبىّ العربى بلاتعليم : « والسماء رفعها ووضع الميزان ألا تطغوا فى الميزان » .

أفليس هذا يكفيك أن توقن أن أمة الاسلام اليوم نائمة نوما عميقا ، جاهلة بما بين يديها وماخلفها ، وأن الله عزّوجل أيقظ فريقا منها ليوقظوها من نوم الغفلة والجهالة والغرور ، وأن الحكمة الأفلاطونية الفيثاغورية كانت مصرية كانت بضاعتنا فردّت إلينا ، وقد أوحى إلى نبينا بمضمونها ، فهلا أعددنا للأمر عدّته ، ونهجنا منهج نبينا ﷺ وقد وافق شرعه شرع النبىّ ادريس عليه السلام الذى علم قدماء المصريين وجاء وفاقا له فى ﴿ سورة الرحمن ﴾ « علم القرآن » انتهى ما أردته من رسالتى المسماة « التربية العملية » كتب الساعة ٦ بعد عصر يوم السبت ١٠ أغسطس سنة ١٩١٨ م — [بالبغاله : مصر العامرة] وبهذا تمّ الكلام على اللطيفة الأولى فى قوله تعالى : « ووضع الميزان » والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة الثانية فى قوله تعالى : يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان

قد تقدّم الكلام على اللؤلؤ فى ﴿ سورة الفاتحة ﴾ وعلى المرجان فى سور أخرى مفصلا ، ولكن لابدّ من فصل قصير نزين به جيد تفسير هذه السورة فنقول :

من ذا الذى كان يظنّ أن تلك المرجانة التى تتزين بها النساء فوق براقعهنّ ببلادنا المصرية فى القرى بحيث تراها صفا واحدا منظما على برقعها ، منتظما من أعلى إلى أسفل ، ويتبعه قطع من الذهب فيكون المرجان فى الأعلى والذهب فى الأسفل .

أقول : من ذا الذى كان يظن أن تلك المرجانة كانت صنع حيوان صغير جدّا ، وأن تلك الحيوانات باجتماعها آلافا وآلافا كوّنت مساكن ، وتلك المساكن أشبه بأغصان الأشجار ، ثم تتكامل اجتماعا ، وتتلاحق اتساعا ، وتمتدّ ذراعا وباعا ، وتتسع انفراجا فى البحر حتى تكون منها جزائر ، وتلك الجزائر أيضا تتكاثر وتتكاثر وعلى مدى الزمان ، تراها فى المحيط الهندى والمحيط الهادى (الباسفيكى) وكيف تراها على شكل الخاتم ، ووسطها فيه ماء لونه يخالف لون المحيط الذى هو أزرق ، واذا اجتمعت جزائر كوّنت حلقة أيضا ، وتعيش الحيوانات فى مائها ساكنة مطمئنة آمنة عاديات الدهر وهيجان المحيط ، وترى شجر [الشكولاته] يكسوها وهوجميل بهيج ، ولو رأيت شجر المرجان لرأيته له فروع غبراء كظباء الصحراء ، أوصفراء برتقالية ، أوحمراء قرنفلية ، أو زرقاء تتلاعب بها الأمواج ، والريح تعبث بأغصانها ، فانظر كيف تصبح هى أنفسها نفس الصخرات المكوّنات للجزائر المرجانية ، وتكون منها جزيرة حجرية ، وقد تزيد إلى عشرة إلى مائة إلى

ألف إلى عشرة آلاف إلى مائة ألف جزيرة كالجزائر المعروفة باسم [بلكاديف] فهى مائة ألف جزيرة ، وكالجزائر المعروفة باسم [ملاديف] فهى ألف جزيرة كلها صخرية حجرية أصلها شجرات نابتات وليست بشجرات إنما هى مساكن بناها الحيوان المرجانى الدقيق الذى سخره الله مع ضعفه ليبنى الجزائر فى البحر ويختطها لتكون مسكن الحيوانات بعد ذلك وموطن الأشجار النافعة للإنسان والحيوان ، والجزيرة الواحدة من تلك الجزائر يبلغ محيطها فراسخ عديدة تتكسر أمواج المحيط على جوانبها لناصعة البياض « فتبارك الله أحسن الخالقين » .

فصل فى اللؤلؤ

وهل أتاك نبأ ماعرفته أنا بعد ماراًيته فما تقدم ؟ رأيت عجبا ! ذلك أن عادة علماء التفسير أن يقولوا ان اللؤلؤ والمرجان لايخرجان إلا من البحر الملح مع أن الله يقول « منهما » وقد أوّلوه بماعلمت وتابعتهم عليه ، فانظر كيف جاء العلم الحديث جاريا على نفس ظواهر القرآن ، إذ كشفوا أن اللؤلؤ يكون من الماء العذب ، فانظر مايقوله الناس اليوم ، فقد جاء فى مجلة « السياسة الأسبوعية » بتاريخ يوم السبت ٢٧ رمضان سنة ١٣٤٤ هجرية — ١٠ ابريل سنة ١٩٢٦ م تحت العنوان الآتى مانصه :

تكوين اللؤلؤ

يتكوّن اللؤلؤ فى أنواع كثيرة من الحيوانات الصدفية ، أوالمحارية التى تعيش فى الماء العذب ، أوفى الماء الملح ، وكانت لآلئ الماء العذب شهيرة عند الرومانيين ، وهى تستخرج حتى الآن من بعض جهات فى أمريكا والصين وغيرها ، وأجل نوع من اللؤلؤ هومايتكوّن فى الحيوانات الرخوة الصدفية التى تعيش فى البحار الحارّة ، والحيوان موجود داخل محارتين منطبقتين على بعضهما ، ويوجد منها نحو الثلاثين نوعا ، وأهمّ هذه الأنواع ثلاثة :

أوّلا : مليجرينا مرجريتيفرا : وهوالاسم العلمى ، وهوحيوان صدفى كبير ، يصل قطره إلى قدر ثلاثين سنتيمترا ، ويصل ثقله إلى نحوعشرة الكيلوجرامات ، ويعيش فى المحيط الهندى والبحر الأحمر ، وفى بحار الهند ، وسيلان ، وفى الاقيانوسية ، ويوجد اللؤلؤ فيه بنسبة لؤلؤة فى كل أربعة حيوانات .

ثانيا : مليجرينا وديانا : وهو حيوان صدفى أصغر حجما من الأوّل لأن قطره يصل الى اثنى عشر سنتيمترا ، وثقله لايزيد عادة عن مائتى جرام ، وهو يعيش فى أغلب البحار الحارّة ، وخصوصا فى البحر الأحمر والخليج الفارسى .

ثالثا : مليجرينا امبريكاتا : وهوحيوان صدفى صغير يعيش فى البحار الغربية لشواطئ استراليا ، وهو يخالف النوعين السابقين فى أنه يعيش فى مكانه ملتصقا على الصخور بعضو خاص ، هذا النوع من الأصداف عضو اسمه [البسوس] توجد هذه الأصداف على شكل جماعات عديدة الأفراد .

واللؤلؤ اللطيف الشكل الجيل الماء (كما يقولون) هو مايسمى باللؤلؤ الحرّ ، أوالصافى ، وهوذوالقيمة التجارية الهائلة ، وهو مايطلق عليه عادة اسم اللؤلؤ ، ولايستخرج أغلبه الآن إلا من الحيوانات البحرية التى سبق ذكرها . وأغلاه ما كان جيد الماء كروىّ الشكل ، أومماثلا للكمثرى فى شكلها ، وتختلف ألوانه فنه الأبيض ، وهوأكثر شيوعا بين الناس ، ومنه الرمادى والوردى ، والأخضر والأحمر والأصفر والأسود والأزرق ، واللؤلؤ الأسود نادر جدّا وقيمته التجارية كبيرة .

وهناك نوع من اللؤلؤ الحرّ ذولمعان ذهبى جميل ، يفضله بعض الغاوين على غيره ، ومايجعل للؤلؤ هذه

القيمة

القيمة الاقتصادية المعروفة هو لمعانه وماؤه ولونه ، وبمرور الزمن وكثرة الاحتكاك فى استعماله وتأثير العرق (وهو سبب غير أكيد) يذهب اللمعان والماء ، إذ يبخر كمية من الماء الذى يكون ضمن المواد المكونة لهذا اللؤلؤ فيقول إذ ذاك العارفون : ان اللؤلؤ مات ، وهناك أنواع من اللؤلؤ تموت قبل غيرها بمدة طويلة أو قصيرة رغما من وجودها فى نفس الظروف المفروض أنها هى سبب الموت ، وهذا الاختلاف يرجع إلى ماسماه الاستاذ [دوبوا] ضعف اللؤلؤ أوقوته ، ففى نظر هذا العالم هنالك أمزجة مختلفة فى اللؤلؤ تجعل بعضه يتحمل المؤثرات الخارجية ، والبعض الآخر لايتحملها فيموت البعض قبل البعض الآخر .

وموت اللؤلؤ هو السبب فى أن أغلب لآلئ المصاغ المحفوظ فى المتاحف ذهب ماؤها ، واندثر لمعانها . واللؤلؤ الكروى أوالقريب منه هوأغلاه ، وهنالك أنواع من اللؤلؤ نصف كروية تسمى بأنصاف اللآلئ وهى أقل قيمة من الأولى ، وتستعمل فى أنواع المصاغ الذى لايرى فيه إلا أنصاف اللآلئ كرءوس الدبابيس وما شابه ذلك . انتهى ماجاء فى المجلة المذكورة ، وبهذا تم الكلام على اللطيفة الثانية والحمد لله رب العالمين .

جوهرة فى قوله تعالى : يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلاتنتصران

تأمل فى هذه الآية من [وجهين : الأول] انه عبر عنها بشواظ من نار وفيما تقدم بقوله : « من مارج من نار » والشواظ والمارج كلاهما اللهب الخالص ، فلماذا جعل الجان مخلوقا من مارج ولم يقل من شواظ ؟ فاعلم أن المارج فيه معنى الاضطراب كما تقدم ، وقد أبنت ذلك هناك ، وهذا الاضطراب يفيد اضطراب الروح كما تقدم فى علم الأرواح ، وأيضا اختلاط الألوان الآن معروف فى التحليل فهو من هذا القبيل ، وانما أعدت الكلام فيه لورود هذا اللفظ هناك ولم يرد هنا ، فان ذكره هناك لهذا الغرض ، وهذه الفكرة لم تعلم قط إلا فى زماننا هذا فان تحليل الضوء والعلم بأنه مختلط ، والاطلاع على عالم الأرواح الناقصة وانها مضطربة لم يكن إلا فى زماننا ، وهذا من أعاجيب القرآن التى لاتدرك إلا بقراءة العلوم ، وليس يعقلها الناس بفن البلاغة المعروف ، فلا أصحاب المعلقات يدركونها ، ولا الذين بعدهم يعلمونها ، فهل لمثل امرئ القيس ، أولأبى العلاء أوالمتنبى أن يتناولوا هذه المعانى فى أقوالهم ؟ كلا . فهذه بلاغة لاتخطر ببالهم ، وأنى لهم علم الروح حتى يخصصوها بلفظ مارج ، وعند انزال العذاب يذكرون الشواظ [الوجه الثانى] أن الشواظ والنحاس الواردين فى الآية لهما نظائر فى أحوالنا الانسانية اليوم كما تقدم ، ولكنى أريد أن أزيدها أيضا :

(١) الناس محبوسون فى شهواتهم كشرب الدخان ، والخمر ، والكوكايين .
(٢) فى أنواع من الطعام .
(٣) فى أنواع من اللباس .
(٤) فى أنواع من الزينة .
(٥) فى أنواع من العادة .
(٦) فى أوطانهم .
(٧) فى دياناتهم .
(٨) فى أرضهم لايخرجون عنها إلى المريخ .
(٩) وكل محبوب عند نفوسنا اذا فارقناه أحسسنا بآلام للفراق فنحن للأوطان ، ولمن نعشقهم ، ونحزن لفراق المألوفات من مال وولد وملك وجاه وماأشبه ذلك ، ولافراق إلايصحبه حزن ، والحزن يعبر عنه الناس بالنار ، يحسون بها فى باطنهم وقد يتعدى الباطن فيورث الحمى والسهر فيقول شاعرهم

منحسرا يا ليل مالك آخر ❊ يرجى ولا للشوق آخر
يهنيك بدرك حاضر ❊ ياليت بدرى كان حاضر
حتى يبين لناظرى ❊ من منهما زاه وزاهر

والأشعار كثيرة نبغ فيها أسلافنا ، وكلها تصف الأشجان والفراق ونار البعد والحسرة والتوجع ، فهذه الآية وإن كانت فى أمر الآخرة فهى من جوامع الكلم شملت أحوال الناس من حيث طباعهم فى الدنيا والآخرة ، لأن « من كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضلّ سبيلا » ومثل هذه المعانى لن يتصوّرها الشعراء قديما وحديثا . انتهى تفسير القسم الثانى من السورة .

القسم الثالث فى عجائب عالم الآخرة

قال تعالى (فإذا انشقت السماء فكانت وردة) أى حمراء فهى كلون الورد الأحمر (كالدهان) أى مذابة كالدهان ، وهو اسم لما يدهن به بوزن الحزام أوجمع دهن (فبأى آلاء ربكما تكذبان ، فيومئذ) أى فيوم تنشق السماء (لا يسأل عن ذنبه انس ولاجانّ) لأنهم يعرفون بسيماهم ، وذلك حينما يخرجون من قبورهم ويحشرون إلى الموقف وبعد ذلك يسألون (فبأى آلاء ربكما تكذبان ، يعرف المجرمون بسيماهم) هناك ، ولقد عثر النوع الانسانى معرفة علمه على قليل من ذلك فانتفع به فى حصر المجرمين واذلالهم ، نهاهى ذه حكومتنا المصرية قد جعلت إدارة خاصة لعلامات المشتبه فيهم ، وذلك أن لكل امرىء خطوطا خاصة فى إبهامه لاتشابه خطوط غيره ، ولايحصل التباس ، فتى أخذوا صورتها على الورقة لم يفلت ذلك المجرم ، إذ يعرفونه بتلك العلامة التى لايشاركه فيها سواه فى الشرق ولافى الغرب ، وهذا أيضا فى أوروبا وجميع العالم الانسانى [1] وهناك بعض العرب فى البادية يعرفون الانسان بأثره ويرثها الابن وراثة طبيعية ، وذلك مشهور فى طوائف قليلة من الناس وهو من خاصيتهم ، واذا كان هذا فى الدنيا فما بالك بيوم القيامة عند من يعلم الغيب . والحاصل أن لكل امرىء أحوالا تخصه فى جسمه ، وفى عقله وأخلاقه يعرف الناس قليله الآن ، وبقية علمه عند الله يعلمه للملائكة وهم يعرفونهم بسيماهم (فيؤخذ بالنواصى والأقدام) مجموعا أو يؤخذون بالنواصى تارة والأقدام أخرى (فبأى آلاء ربكما تكذبان ، هذه جهنم التى يكذب بها المجرمون ، يطوفون بينها) بين النار يحرقون بها (وبين حميم) ماء حارّ (آن) ماء حارّ قد انتهى حرّه ، فهم يسعون بين الجحيم وبين الحميم ، فاذا استغاثوا من النار جعل عذابهم الحميم الآنى الذى صار كالمهل ، والمهل هو دردىّ الزيت : أى عكره (فبأى آلاء ربكما تكذبان) والنعم فى هذا نجاة الناجى منه بفضله ورحمته وأن فى الانذار به تنبيها وايقاظا (ولمن خاف مقام ربه جنتان) أى قيام ربه عليه يعنى اطلاعه عليه ، فاذا همّ بمعصية ذكر الله وأنه مطلع عليه فتركها من مخافة الله ، فمثل هذا يراقب الله فى السرّ والعلانية ، فيفعل الخير للناس بجوارحه ، ويحب لهم الخير بقلبه ، ويزداد علما يملأ قلبه ، فمثل هذا ينال جنتين : جنة روحانية لقلبه ، وجنة جسمانية على شاكلة ماعمل فى الدنيا ، فهو فى جنات ونعيم ، وقلبه مطلع على جمال الملكوت ناظر لربه ، أو يكون أوّلا فى الجنات الحسية ، ثم تلطف روحه شيئا فشيئا ، وكلما خلعت عاداتها الغليظة لطفت ولاتزال تلطف وهى فى الجنات الحسية ، ونورعلمها يزداد بالجنة الروحية ، وهكذا يستمرّ ازدياد المعنويات ونقص الحسيات حتى تخلص الروح من العوالم كلها وتكون إلى ربها ناظرة ، وهذا هو غاية المراد .

---

(١) قد تقدّم الكلام على هذا المقام موضحا بالصور والأشكال فى هذا التفسير عند آية : « حتى اذا ماجاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون » فى سورة فصلت فى المجلد التاسع عشر

وهذا

وهذا التقرير قد رأيت بعض مايشير إليه فى كلام محيى الدين بن عربى ، إذ قال : « إن الروحية يكون لها سلطان على الجسمانيــة » وهــذا بعض ما قلناه ونقلناه أيضا عن علماء الأرواح فى العصر الحاضر ، وقوله (فبأى آلاء ربكما تكذبان ، ذواتا أفنان) أى أغصان جمع فنن وهوالغصنة التى تتشعب من فروع الشجر ، ولاجرم أن الفنن هوالذى يورق ويثمر ويمد الظل ، لذلك خصــه بالذكر (فبأى آلاء ربكما تكذبان ، فيهما عينان تجريان) حيث يشاءون فى العلالى وفى الأسافل (فبأى آلاء ربكما تكذبان ، فيهما من كل فاكهة زوجان) أى صنفان ونوعان . وروى أن فاكهة الدنيا كلها لهـا نظير فى الجنة ، وهذا المقام له تحقيق مر فى [سورة البقرة] فى أولها (فبأى آلاء ربكما تكذبان ، متكئين على فرش بطائنها من إستبرق) الفرش جمع فراش ، والبطائن جمع بطانة ، والاستبرق ديباج ثخين ، ومتكئين حال من الخائفين ، لأن من خاف فى معنى الجمع (وجنى الجنتين) ثمرهما (دان) يناله القائم والقاعد والمضطجع (فبأى آلاء ربكما تكذبان ، فيهن قاصرات الطرف) أى فى الجنان [المدلول عليها بالجنتين لكل خائف وبتعدد الخائف يتكاثر عدد الجنان] نساء قصرن أبصارهن على أزواجهن لاينظرن إلى غيرهم (لم يطمثهن انس قبلهم ولاجان) الطمث الجماع بالتدمية : أى لايمس الانسيات انسى ، ولايمس الجنيات جنى (فبأى آلاء ربكما تكذبان ، كأنهن الياقوت) صفاء (والمرجان) فى حمرة الوجنة ، أوأن ألوانهن بياض مشرب بحمرة ، فالبياض كاللؤلؤ ، والحمرة كالمرجان ، فتعاشق اللونين يحدث منظرا جميلا ، وهوأحسن الألوان (فبأى آلاء ربكما تكذبان ، هل جزاء الاحسان) فى العمل (إلا الاحسان) فى الثواب وهوالجنــة (فبأى آلاء ربكما تكذبان ، ومن دونهما جنتان) أى ومن دون تينك الجنتين الموعودتين للخائفين جنتان لمن دونهم من أصحاب اليمين (فبأى آلاء ربكما تكذبان ، مدهامتان) خضراوان تضربان إلى السواد من شدة الخضرة ، فينبت فى هاتين الجنتين النبات والرياحين القريبة من وجه الأرض أوالمنبسطة عليها ، وأما أولئك فلهم أشجار فيها فواكه وفرق بين المقامين (فبأى آلاء ربكما تكذبان ، فيهما عينان نضاختان) فوارتان بالماء ، ووصف الأوليين أجل (فبأى آلاء ربكما تكذبان ، فيهما فاكهة ونخل ورمان) من عطف الخاص على العام ففصلهما لفضلهما ، وأيضا الرمان فاكهة ودواء ، وثمر النخل فاكهة وطعام فليسا خالصين للتفكه ، ولذلك قال أبوحنيفة رضى الله عنه : « اذا حلف لايأكل الفاكهة فأكل رطبا أورمانا لم يحنث » وخالفه صاحباه (فبأى آلاء ربكما تكذبان)

واعلم أن الفاكهة إماعطرية كالتفاح ، واما مائية كالبطيخ ، واماحمضية كالليمون ، واما زيتية كالزيتون واما سكرية كالتمر ، واما غير ذلك كثمر التوت ، وقوله تعالى (فيهن خيرات حسان) أى خيرات [بتشديد الياء] فهن أقل من السابقات لأن هؤلاء لسن أخيرا ، لأن خير بمعنى أخير لايجمع ، وحسنهن فى الخلق والخلق (فبأى آلاء ربكما تكذبان ، حور مقصورات فى الخيام) أى قصرن فى خدورهن ، والمرأة القصيرة والقصورة والمقصورة المخدرة (فبأى آلاء ربكما تكذبان ، لم يطمثهن انس قبلهم ولاجان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان ، متكئين على رفرف خضر) الرفرف الخضر الوسائد الخضر جمع رفرفــة (وعبقرى حسان) العبقرى منسوب إلى عبقر تزعم العرب أنه اسم بلد الجن فينسبون إليه كل شىء عجيب ، وهو جنس يدخل فيه كل أمر غريب كالديباج الجيل والطنافس وغيرها .

ثم اعلم أن العبقرى أيضا كل جليل نفيس فاخر من الرجال وغيرهم فهوأعم مما هنا . قال صلى الله عليه وسلم فى عمر « فلم أر عبقريا يفرى فريه » ووصف العبقرى بالحسان لحمله على المعنى (فبأى آلاء ربكما تكذبان تبارك اسم ربك) تعالى اسـمه ، واذا كان الاسم يتعالى فمابالك بذاته تعالى ! (ذى الجلال والاكرام) ذى العظمة والانعام لأوليائه ولغيرهم فيعطى كلا ماهوأهله .

عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا سلم من الصلاة لم يقعد إلامقدار مايقول « اللهم أنت السلام ، ومنك السلام ، تباركت ياذا الجلال والاكرام » أخرجه أبوداود والنسائى غير قولها « لم يقعد إلامقدار مايقول » .

وروى مسلم عن ثوبان قال : كان صلى الله عليه وسلم اذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثا وقال اللهم أنت السلام إلى ياذا الجلال والاكرام .

لطيفة فى قوله تعالى : كل من عليها فان ، وقوله : تبارك اسم ربك ذى الجلال والاكرام

لما ذكر الله نعم الدنيا ختمها بفنائها ، وأن الباقى هو الله ، ولما ذكر نعم الآخرة ختمها بأن الله ذوالعظمة والانعام على العباد وجميع المخلوقات ، وتكون نتيجة السورة هكذا : الدنيا كلها نعم ولايبقى سوى المنعم ، والآخرة كلها نعم للخائفين ومن دونهم ، والله هو مستحق للتسبيح والتنزيه : فهوذوالجلال ، ومستحق للحمد على النعم لأنه ذوالاكرام ، فتكون النتيجة أن هذه الدنيا ومابعدها نتيجتهما العلم ، لأن الحمد لا يكون إلاعلى العلم بالمحمود عليه ، وبالاختصار أعظم نعيم فى الجنة العلم ، وقد رمز له بالاكرام ، إذ لا أعرف إكرام الله إلا اذا درست نعمه ، ومن أعطى انسانا نعمة فوجده يجهل قيمتها لايعاود انعامه عليه ثانيا ، ولسنا نعرف نعم ربنا لنشكرها إلا اذا درسناها فى هذه الدنيا ، فانظر إلى أول السورة كيف بدئت بالرحمة وبالعلم والتعليم ، وختمت بما يشير إلى الحمد ، وما بينهما راجع لهما ، فالشمس والقمر والشجر والميزان العام فى السموات والأرض ، وبقية النعم المتقدمة لاتعرف إلا بدراستها ، وبهذه الدراسة يمكننا أن نشكر الله بالقلب بحيث نخلص لله وللناس ، وباللسان بالثناء على الله بالحمد ، وبالأفعال بحيث نحسن ونتصرف بالخير بأيدينا .

إن [سورة الرحمن] نزلت ايقاظا للمسلمين أن يكونوا مفكرين حتى يدرسوا النعم واذن يكونون حامدين لربهم الذى أكرمهم ، والسورة فيها تعريض بأن من جهل النعمة كأنه كذبها ، وفى هذا ماهو كالانذار لمن جهلوا هذه النعم ، والمسلمون اليوم أقل الأمم علما بعلوم الكائنات ، وقد آن أن يرجع لهم مجدهم ويعرفوا نعم ربهم ، ويسابقوا لنيل الخيرات ، والحمد لله رب العالمين اهـ

اللطائف العامة فى هذه السورة (١)

اللطيفة الأولى فى قوله تعالى : « ووضع الميزان » مع قوله : مرج البحرين يلتقيان الخ

اللطيفة الثانية فى عجائب الحسبان فى سورة الرحمن

اللطيفة الثالثة فى قوله تعالى : يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان .

اللطيفة الأولى فى قوله تعالى : ووضع الميزان ألا تطغوا فى الميزان

مع قوله : مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لايبغيان

لك الحمد اللهم على نعمة العلم وبهجة الحكمة ، أنت معلم المعلمين ، وملهم الصالحين ، ومرسل الأنبياء

(١) يقول المؤلف : هذه اللطائف لم يكن لها وجود عند التأليف ، ولم يفتح الله بها إلا عند تقديم هذه السورة للطبع .

والمرسلين

والمرسلين ، تباركت وتعاليت ، قد هديتنا وعلمتنا وأعنتنا على إبراز ماوقر فى النفس من نعمة العلم والحكمة أنت الرحمن الرحيم ، وبرحمتك أذعت العلم بين الأمم ، وأنزلت القرآن ، وأبدعت فى خلق الانسان ، وربيته وعلمته البيان ، فعلم خواصه علما يقينا أن الكواكب كلها بحساب ، ودرسوا أنواع النبات فألفوها ذات بهجة ونظام ، ودرسوا العلويات فألفوها حسنة القوام ، جميلة الابداع ، رفيعة المقام ، مشرقة مبهجة منعشة مسعدة للأنام ، ورأوا كل مخلوق متزنا بميزان لانقص فيه ولاخلل ولازيادة فى الميزان ، وبهذا الميزان حفظت الكواكب فى مداراتها ، والسيارات فى أبراجها ، والحيوانات فى مسارحها ، وأزهر النبات ، وأثمر الشجر ، وسعد بالحياة نوع الانسان .

هذه هى الآلاء والنعم الكبريات ، ولما أفضت علىّ من نعمك العلمية وأردت أن أشرح الميزان ألفيت المقام متسعا ، والمجال فسيحا ، بل هو بحر لجى لا يعرف مداه ، ولايدرى منتهاه ، ولقدتذكرت اليوم ماانفق لى فى زمان الشباب إذ كنت أفكر فى نظام السموات والأرض ، فقرأت للامام الغزالى جملة هذا معناها : « لايعرف الميزان إلا من درس جميع العلوم » فطار إذ ذاك لبى وحار فكرى ، وأخذت أنشد المعارف ، وأبحث فى كل تليد وطارف ، وأسأل كل عارف وغير عارف ، ودرست ماقدر لى ، ثم ألفت كتاب [جواهر العلوم] وأتبعته بكتاب [ميزان الجواهر] تذكرة بما قاله الامام الغزالى رحمه الله تعالى ، وهل كان يدور بخلدى أو يخطر ببالى أن أعيش حتى هذا الزمان ، وأن أؤيد بروح منك فأفسر القرآن ، وأصل إلى سورة الرحمن كما هى الحال الآن فأفسر آية : « ووضع الميزان ألا تطغوا فى الميزان » .

هذا لم يكن ليخطر لى ببال ، ولم تكن نفسى تشرئب إلى ذلك المقام ، وفى هذا المقام أنشد قول القائل :

واذا العناية ساعدتك عيونها * نم فالمخاوف كلهنّ أمان
واصطد بها العنقاء فهى حبائل * واقتد بها الجوزاء فهى عنان

فاذا كنت موقنا أن العناية ساعدتنى فى التفسير عامة ، فبالعناية الإلهية أبتدئ فى تفسير هذه الآية التى يشمل معناها جميع ماتضمنه الوجود من النظام ، وأجتزئ بأن أذكر طرفا يسيرا من ذلك النظام :

(١) فأبتدئ بذكر حقائق الجماد بوصف بعض الأحجار الثمينة .

(٢) ثم أقفى بالاشارة إلى نظام النبات .

(٣) ثم أذكر بعض الحيوان الذى يعيش فى البحر .

(٤) ثم أقفى على آثاره بعجائب خلق الحيوان الذى يعيش فى البحر صغيرا ، وفى البرّ كبيرا ، وهو الضفادع التى يرى العاقل فى نموّها وتدرّجها من العجائب ماتخرّ له العقلاء سجدا من تلك المادّة الهلامية التى تحيط بالبيض وتأخذ فى رفعه كلما زاد نموّه حتى تصل به إلى سطح الماء فيكون إذ ذاك قد فقس البيض ، فأما المادّة الهلامية فانها تنحل بتدبير آخر وابداع عجيب .

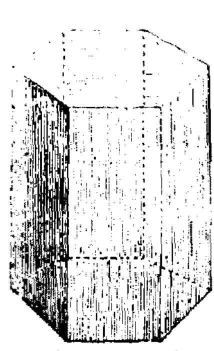
(٥) ثم أقفى بذكر بعض حيوان البرّ وأبتدئ بالعنكبوت ، وأبين كيف يبتدئ فى نسجه وهيئة سيره فيه مما لم يتقدم له نظير حتى تعلم أيها الصديق أن تلك العناية التى أحاطت بأجسام الحيوان نفذت إلى إدراكه وغرائزه فأخذ ينظم أعماله كما نظمت هيئة جسمه وكأنه تلميذ تربى فى معهد جسمه المنظم فأخذ ينسج على منواله .

(٦) ثم أتبعه بذكر عجائب النحل وابداعه فى عمله مما لم يسبق له نظير فيما مضى ، وكيف كان منه بناءون ونساجون ونجارون وغيرهم .

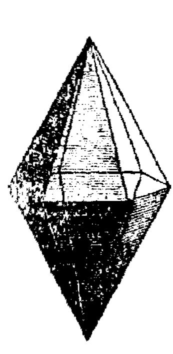
(٧) ثم أذكر مايقرب منه وهوالزنبور ، وكيف يغلف عشه بما يشبه الورق فيكون ذلك الغلاف سببا لدفء صغاره داخل خلاياه التي بناها ونظمها .

(٨) ثم أختم المقام بذكر النمل وعجائبه التي لم يسبق لها نظير مثل النجارين منه والبنائين الذين يبنون أبراجا سترى بعضها قريبا . واليك تفصيل ما أجملناه :

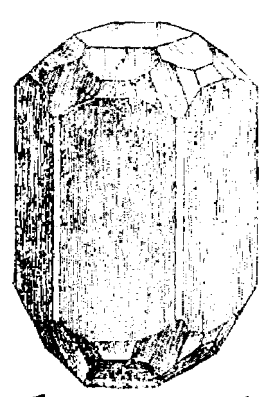
فأولا لا أقف عند مافي الجماد من إبداع واتقان ونظام مثل [الزمرد] (انظر شكل ١) . ومثل الياقوت الأزرق البلوري (انظر شكل ٢) . ومثل الزمرد البلوري المركب (انظر شكل ٣) . ومثل أحد الأحجار الكريمة المخضر لونه المسمى بالفرنجية [برل] (انظر شكل ٤) . ومثل الحجر المسمى [كوارتز] (انظر شكل ٥) وهاك أشكالها :



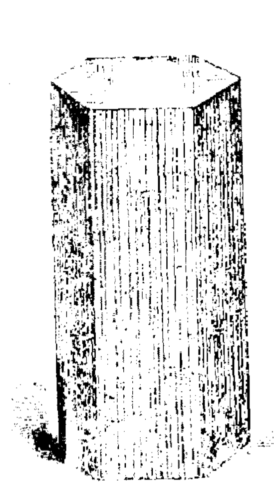
(شكل ١)
الزمرد البلوري



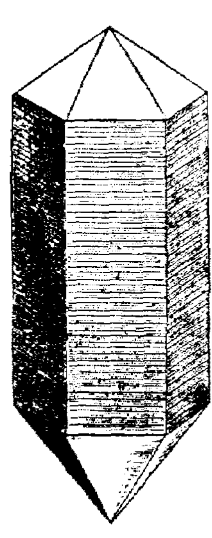
(شكل ٢)



شكل ٣ زمرد بلوري مركب



(شكل ٤ ـ برل البلوري ذي الخطوط الطويلة)



(شكل ٥ ـ كوارتز البلوري ذي الخطوط العرضية القاطعة)

فهذه الأنواع الخمسة من الأحجار الثمينة نراها ونرى غيرها في الطبيعة على هيئة البلور مسدسة الأشكال منظمة الأوضاع ، بهجة الألوان ، زينة للدنيا ونورا للعلماء المفكرين ، فهل أقف عند هذه وحدها نموذجا للميزان المنصوب في الأرض والسماء ؟ كلا . بل أقفي بذكر الميزان في النبات فأقول :

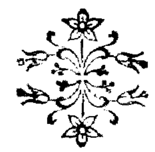
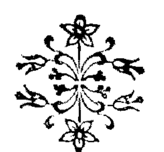
ثانيا : نرى الحكمة كما سرت في الجماد ونظمته وأحكمته سرت فيما هو أرقى منه وأبدع وهو النبات كما تقدم في قوله تعالى في [سورة الحجر] : « والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء موزون » . وفي هذا التفسير من وزن النبات مايذهل الألباب ، فبأي مقام أذكرك أيها الذكي ؟ :

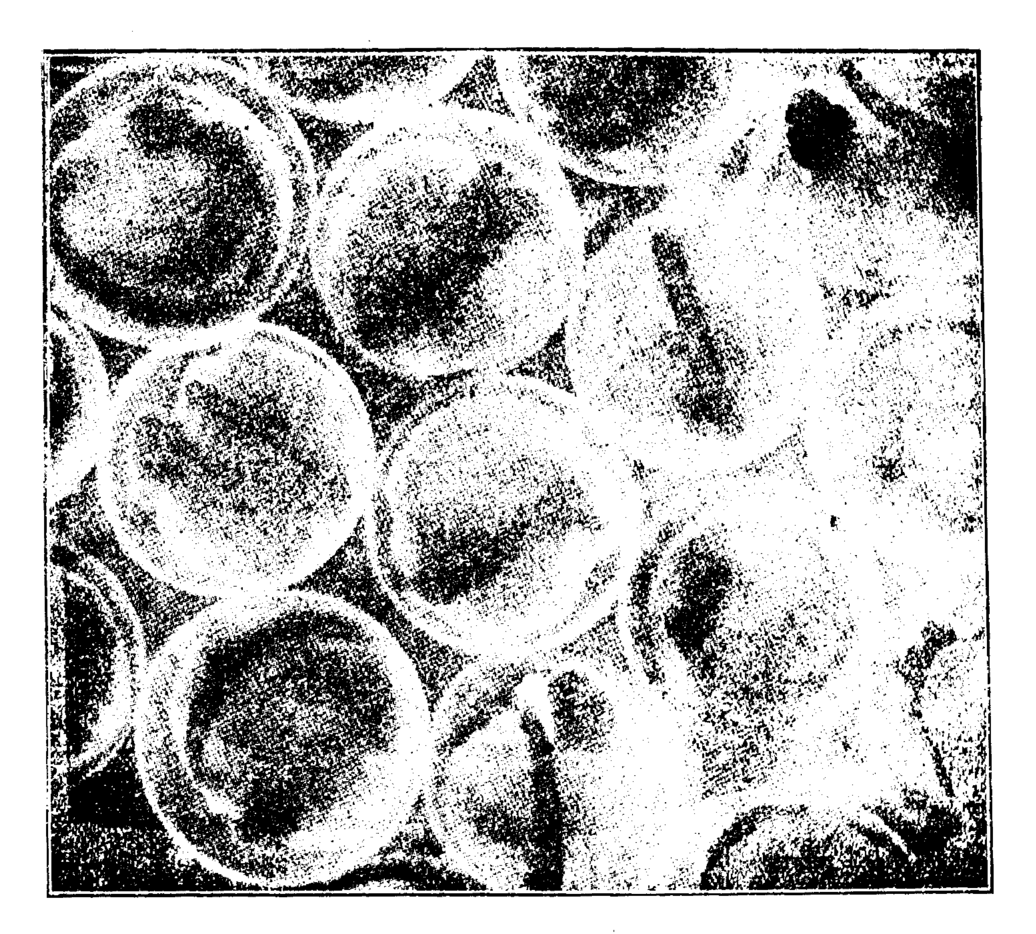
(ا) أبالمذكور فى سورة [ق] .
(ب) أم بالمذكور فى [سورة حم فصلت] .
(ج) أم بما قبل ذلك فى [سورة يس] .
(د) أم بالمذكور قبلها فى [سورة فاطر والسجدة] من تلك الصور البديعة العجيبة ، والأشجار المونقة البهجة الجميلة ، وأشكالها ، وتشريح سوق الأشجار وانتظام حلقاتها بعدد سنيها من بدائع الحكم المودعة فى النبات ، وكيف كان للأشجار طبقة فوق قشرتها تمنع الماء فى داخلها أن يبخر ، وتحتها طبقة أخرى تمتد منها شعرات تمنع شدة ضوء الشمس من طغيانها على النبات ، وربما ملئت بسائل حريف أو مر أو نحو ذلك مما يمنع الحيوان عن تعاطى ذلك النبات ، وهناك عجائب الطبقات الخشبية التى جعلت ناقلة الغذاء من الساق إلى فروعه وأوراقه ، وعجائب اللحاء التى توصل العصارات التى اكتمل نضجها فى الأوراق إلى بقية الأجزاء فى النبات ، فلقد تقدم هذا هناك موضحا بصوره العجيبة ، ودروسه المنتظمة ، فاقرأه على مكث .
(هـ) أم بما ذكرناه فى [سورة الحجر] عند آية : « وأنبتنا فيها من كل شيء موزون » وهناك ترى شجرات مرسومات منتظمات الدوائر الحاصلات من منابت الأوراق ، وفيها بدائع تذهل العقل ، وتبهج النفس ، فبينما نحن نأكل التفاح ، ونتفكه به ، ونظن أن هذا هو المقصود منه فى حياتنا ونفرح به ونقول الحمد لله ، اذا نحن نرى حياة جديدة ، نرى الأوراق التى لا نأبه لها قد جعلت كل خمس منها مشكلات لدائرة تامة ، بحيث يكون بين كل ورقتين ٧٢ درجة من ٣٦٠ درجة من الدائرة . وفى كل دائرة تامة شكلان حلزونيان ، ومن عجب أن الورقة الأولى من الدائرة الأولى على خط مستقيم مع الورقة الأولى من الدائرة التى فوقها ، وهكذا الورقة الثانية فيكون هناك فوق نظام الدوائر التامة والأشكال الحلزونية أمر آخر وهو الخطوط المستقيمة المنتظمة فيما بين النظائر فى الدوائر ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل أصبحت هناك نسبة بين تلك الأشكال الحلزونية ودوائرها مع كل الدوائر الأخرى فى نباتات كثيرة وأشكالها الحلزونية ، حتى انك ترى هناك سلسلة حسابية منتظمة تسرى فى كل نبات . ولما كان هذا قد تقدم فلا حاجة لاعادته هنا ، وكفى ماذكرناه تشويقا لمراجعته . هذا هو الميزان فى النبات وهو المقام الثانى .

ثالثا : فلأخط خطوة فوق ماتقدم إلى حيوان البحر لأنه مقدم على حيوان البر مكتفيا بذكر سمكة تسمى [پلاس] أو [پليس] بامالة اللام فأقول :

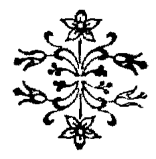
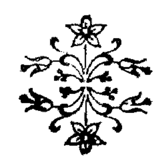
« إن هذا السمك الذى يشبه مايسمى فى بلادى المصرية [القنومه] والواحدة منه تضع نحو نصف مليون بيضة ، وكل بيضة يبلغ قطرها جزءا من ١٢ من البوصة ، وهذا البيض يكون عائما قرب سطح الماء ، ونمو الجنين فى البيض يمكن ملاحظة درجاته المختلفة فى داخل البيض ، (انظر شكل ٦ فى الصفحة التالية وشكل ٧ فى صفحة ٣٥) .





(شكل ٦ – نموّ سمك پلاس)

(شكل ٧)

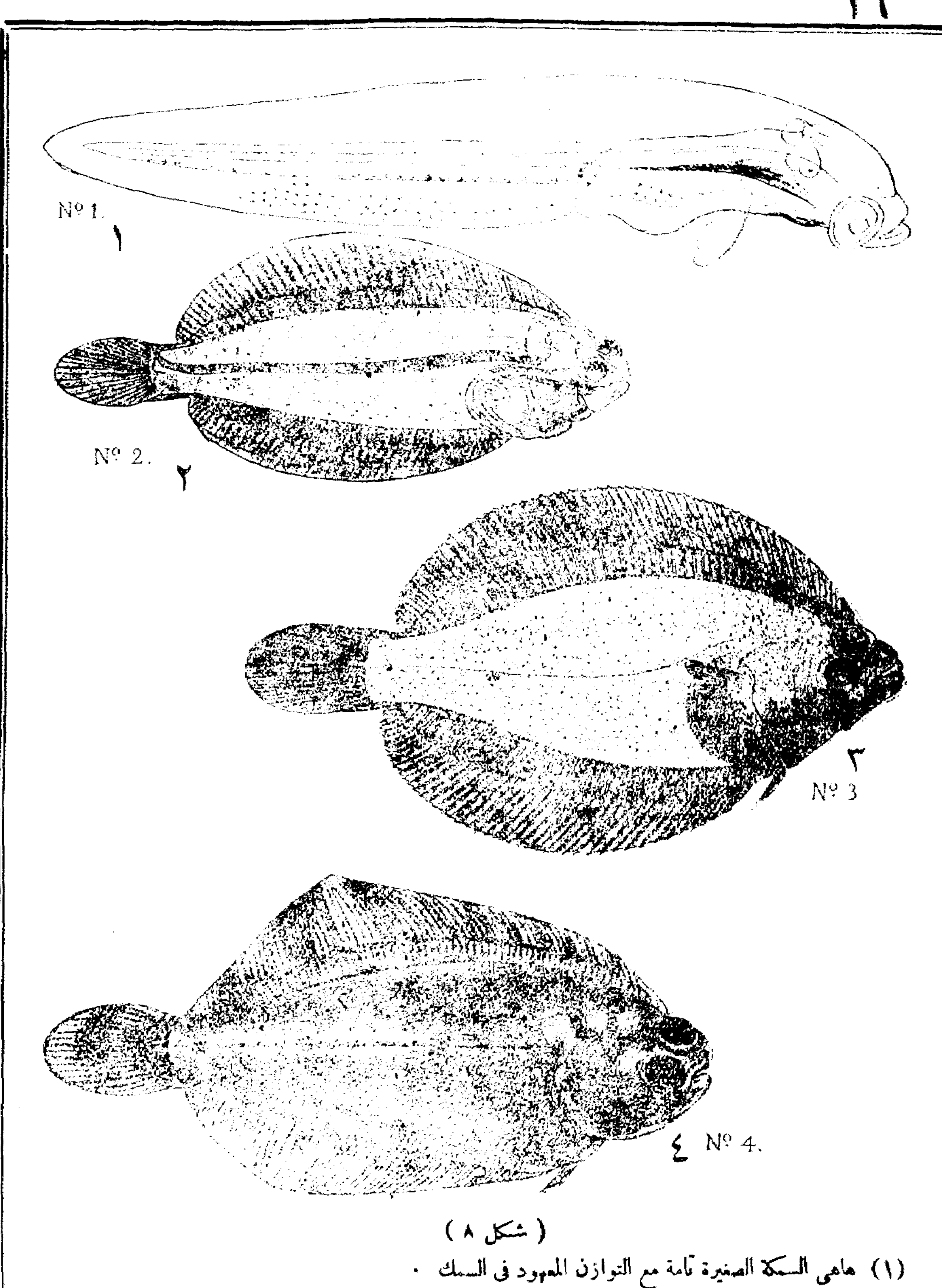
نمو السمك بلاس

(١) إن الصورة العليا اليسرى ترينا جنين السمكة فى اليوم التاسع بعد الالقاح ، والنقط الصغيرة عبارة عن حواصل ملوّنة ، والحجم الطبيعى أقل من جزء من ١٢ من البوصة .

(٢) الصورة العليا اليمنى ترينا الجنين مستعدًا للخروج من البيض بعد ١٧ يومًا بعد الالقاح . الخلايا الملوّنة بالسواد أخذت الآن تظهر .

(٣) والصورة السفلى ترينا السمكة الصغيرة نحو ثلاثة أخماس البوصة ، وهاهى ذه أخذت الآن تأكل [المح] (صفار البيض) وقد التهمته جميعه . ثم انظر شكل ٨ فى الصفحة التالية .





(شكل ٨)

(١) هاهى السمكة الصغيرة تامة مع التوازن المعهود فى السمك .

(٢) ترينا تغيرا واضحا بنجاح . فالجسم أصبح الآن مسطحا من ناحية الى الأخرى . والعين اليسرى صارت مدورة للجهة اليمنى مائلة نحو الجنب . وطولها الى الآن لايصل الى نصف البوصة .

(٣) سمكة « شابة » (وهو تعبير مجازى) وصلت الآن قاع النهر ، هى تستريح تارة وتعوم أخرى على جنبها الأيسر وقد صار طولها بوصة .

(٤) سمكة شابة فى قاع البحر وحويصلاتها الملونة قد أخذت تنحو نحو الجانب الأيمن وهى لاتظهر من الجهة اليسرى نحو الجانب الذى هو نقى اللون . أما العينان فانهما جنبا لجنب متجهان الى أعلى نحو الجانب . انتهى المقام الثالث فى السمك .

رابعا : هل أقف عند السمك فى الميزان ؟ كلا . بل هناك ماهو أجلّ منه وهو عالم الحيوان الذى هو أرقى منه ، ولقد مرّ فى سور كثيرة فى البقرة والأنعام ، وسورة المؤمنين ، وسورة النور ، وسورة السجدة ، وفاطر ، وسورة حم فصلت وغيرها ، وكنت أودّ أن أذكر هنا الحيوان الذى يعيش فى البرّ وفى البحر كعالم الضفادع تتميما للأقسام ، ولكن يمنعنى من ذلك أنه قد تقدّم مفصلا موضحا بالصور فى [سورة البقرة] فى الطبعة الثانية فانه هناك أوضح وأجل وأبدع مما كتب عنها فى [سورة طه] .

ألاترى رعاك الله أن فيه نوعى الضفادع وكيفية نموّ أجنتها ، وحسن إبداعها ، واتقان صنعها ، وكيف يرى بيضها فى الماء على هيئة الخطوط المتوازية ، ولقد فاتنى هناك أن أذكر أن الذى حببنى فى شرحها أننى حينما نظرت ذلك الرسم خطر لى خاطر كان يسنح لى وأنا تلميذ بدار العلوم ، ذلك أننا كنا نتعلم فنّ الرسم وكنا نرسم خطوطا منتظمة ، فكنت فى أثناء الرسم أتفكر فى [أمرين : أوّلهما] أننى فى هذا العمل أعتبر نفسى فى طاعة لله تعالى ، وهذا كان شأنى فى جميع الأعمال [ثانيهما] انى كنت أثناء الرسم أحسّ كأنى فى عالم السموات الذى هو عالم منظم ، ورسم هذه الخطوط يذكرنى به .

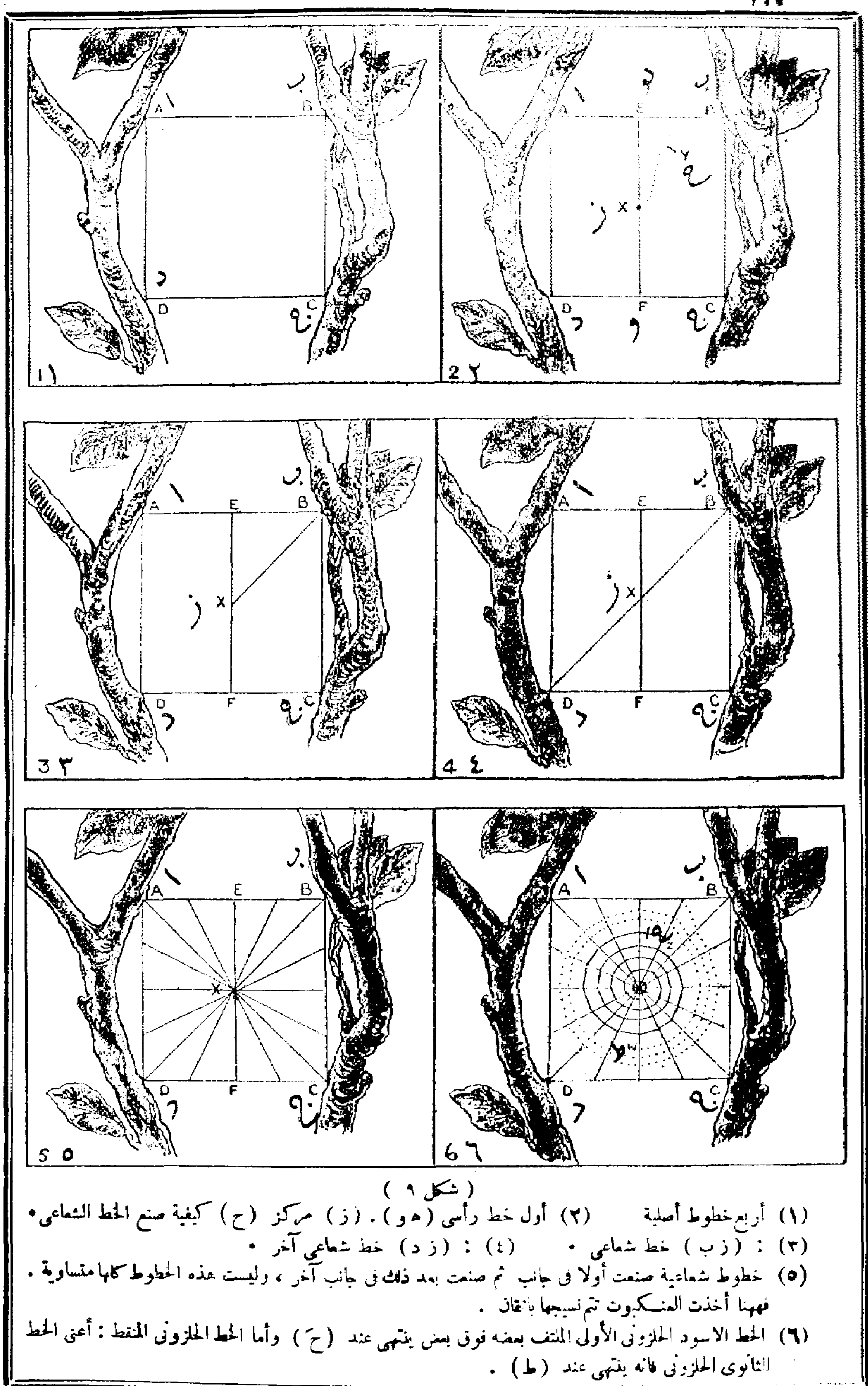
هـذا هو الذى كان يدور بخلدى أيام الدراسة ، فلما رأيت رسوم الخطوط لبيض الضفادع المتوازية أذكرنى ذلك فرسمتها وشرحتها ، والحمد لله رب العالمين .

✡✡✡

ولكنى لا أقف فى الميزان عند حدّ الحيوانات البرّية والبحرية . كلا . فلأنتقل للكلام على العنكبوت وهى من الحيوانات التى لاتعيش فى غمرة الماء ، وبهذا نبدأ الكلام على عجائب جديدة لم تكن من قبل وبيان أن ماتقدّم فى الأحجار الثمينة والنبات والسمك والضفادع ، ان كل ذلك إلا صنعة لم نرَ صانعها ، فأما هذه الصنائع التى نريد دراستها المبدوءة بصناعة العنكبوت (التى لم يسبق إيضاحها فى سورته كما هنا) فان أمرها عجب ! نعم عجب للحكيم ، أما الجهال فهم فريقان : فريق هم السواد الأعظم لايعرفون من العنكبوت ، ولامن النحل ، ولامن الزنابير ، ولامن النمل إلا مامس عواطفهم كراهة وحبا ، فيتبرّمون من العنكبوت ، ويفرحون بالنحل ، ويخشون الزنابير والنمل .

هذه آراء أغلب نوع الانسان فى أرضنا ، ويلحق بهم أكثر أولئك الذين يتعلمون فى مدارس الشرق والغرب علم التاريخ الطبيعى ، فهؤلاء يقرءون هذه العلوم وأكثرهم لايدرسه إلا كما يدرس علم النحو أو علم الزراعة كأن أرواحهم لاتعرف إلا الامور المحسوسة ، أما التفكر والتذكر بل السعادة الحقيقية فانها هاربة منهم ، بعيدة عنهم ، رحلت من عقولهم ، فهم لايعقلون ولايسعدون ، وفريق آخر وهم أقلّ هذا النوع الانسانى اذا درسوا أمثال ماسنذكره هنا فانهم يدهشون ويقولون نعم رأينا الابداع فى الأحجار الثمينة البلورية وفى النبات وفى السمك وفى الضفادع ، لأن الذى صنع هذا هو صانع العالم فلاغرابة فى ذلك ، إنما الأمر المدهش أن صانع نسيج العنكبوت هو نفس العنكبوت ، وصانع خلايا العسل إنما هو النحل ، ويقرب منه الزنبور ، ونرى فى النمل والنحل بنائين ونجارين ، وضباطا وجيوشا ومربين .

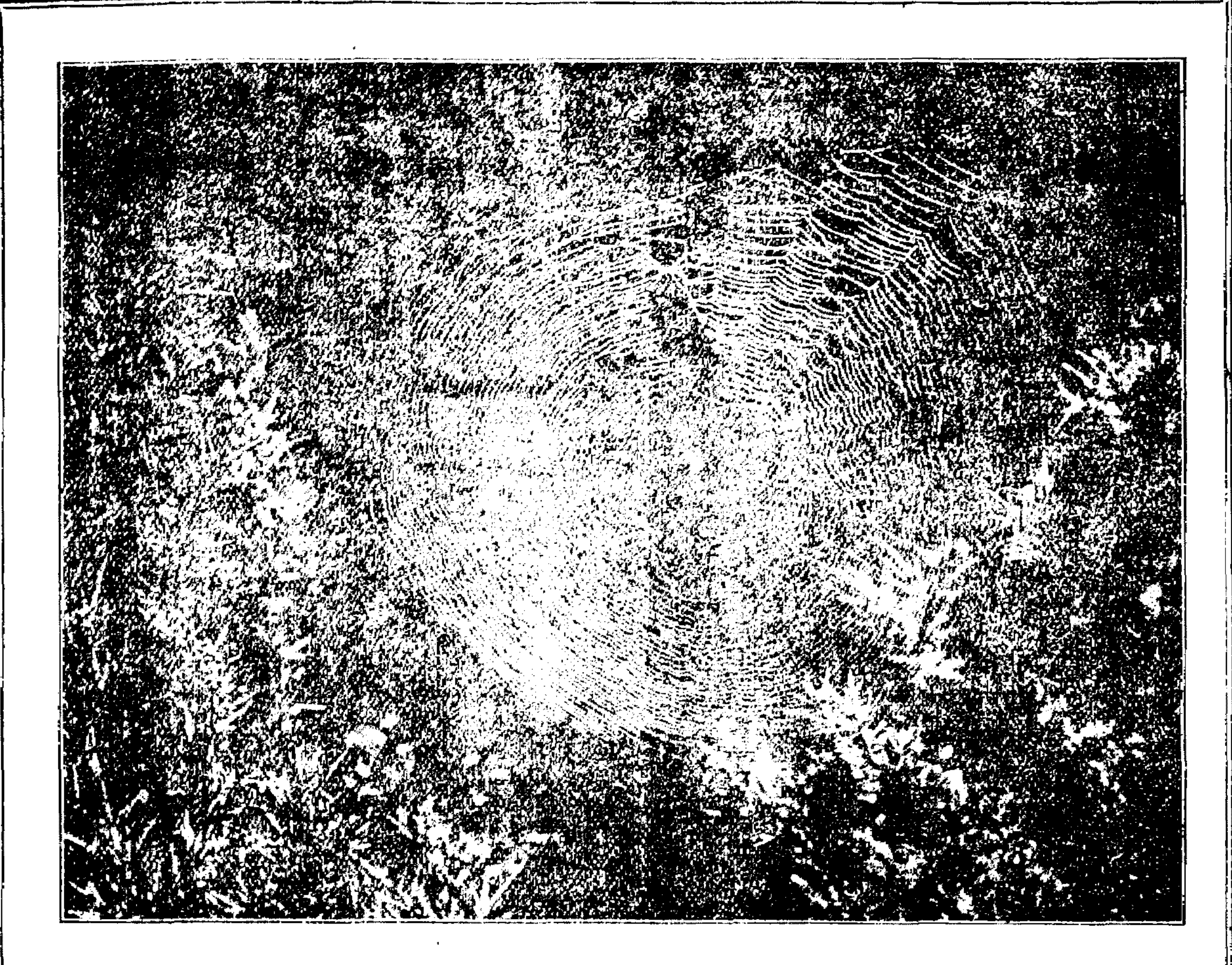
فما هذا الحادث الجديد ؟ فهؤلاء يرون أن هذه العوالم ماهى إلا كتلاميذ تربوا فى بيت الحكيم وتحت رعايته فقلدوه ونحوا نحو عمله ، وهل عمله إلا النظام المحكم ؟ مثلا شكل ٩ وهو رسم بيانى لنسيج العنكبوت (انظر الرسم الآتى فى الصفحة التالية) :



(شكل ٩)

(١) أربع خطوط أصلية (٢) أول خط رأسى (ه و) . (ز) مركز (ح) كيفية صنع الخط الشعاعى .
(٣) : (ز ب) خط شعاعى . (٤) : (ز د) خط شعاعى آخر .
(٥) خطوط شعاعية صنعت أولا فى جانب ثم صنعت بعد ذلك فى جانب آخر ، وليست هذه الخطوط كلها متساوية . فهنا أخذت العنكبوت تتم نسيجها باتقان .
(٦) الخط الاسود الحلزونى الأولى الملتف بعضه فوق بعض ينتهى عند (حَ) وأما الخط الحلزونى المنقط : أعنى الخط الثانوى الحلزونى فانه ينتهى عند (ط) .

شكل ١٠



(شكل ١٠ ـ نسيج عنكبوت الحدائق)

هذه صورة شمسية لنسيج عنكبوت الحدائق ترينا الخط الأعلى الأساسى للنسيج وهولزج ، وهذا النساج جالس فى الوسط ، وربما غادرت العنكبوت ذلك المركز ، وحينئذ يحمل معه خيطا بسيطا به يقدرأن يميزأى ذبذبة تعرض فى النسيج فكأنها أشبه بآلة التلغراف (البرق) انتهى الكلام على القسم الخامس

سادسا : وهذا القسم ليس كافيا لمعرفة الميزان ، فههنا نبدأ فى الكلام على النحل فنقول :

نبتدىء بذكر نبات يسمى [سم النمر] يشتار منه النحل العسل وهذه صورته (انظر شكل ١١)

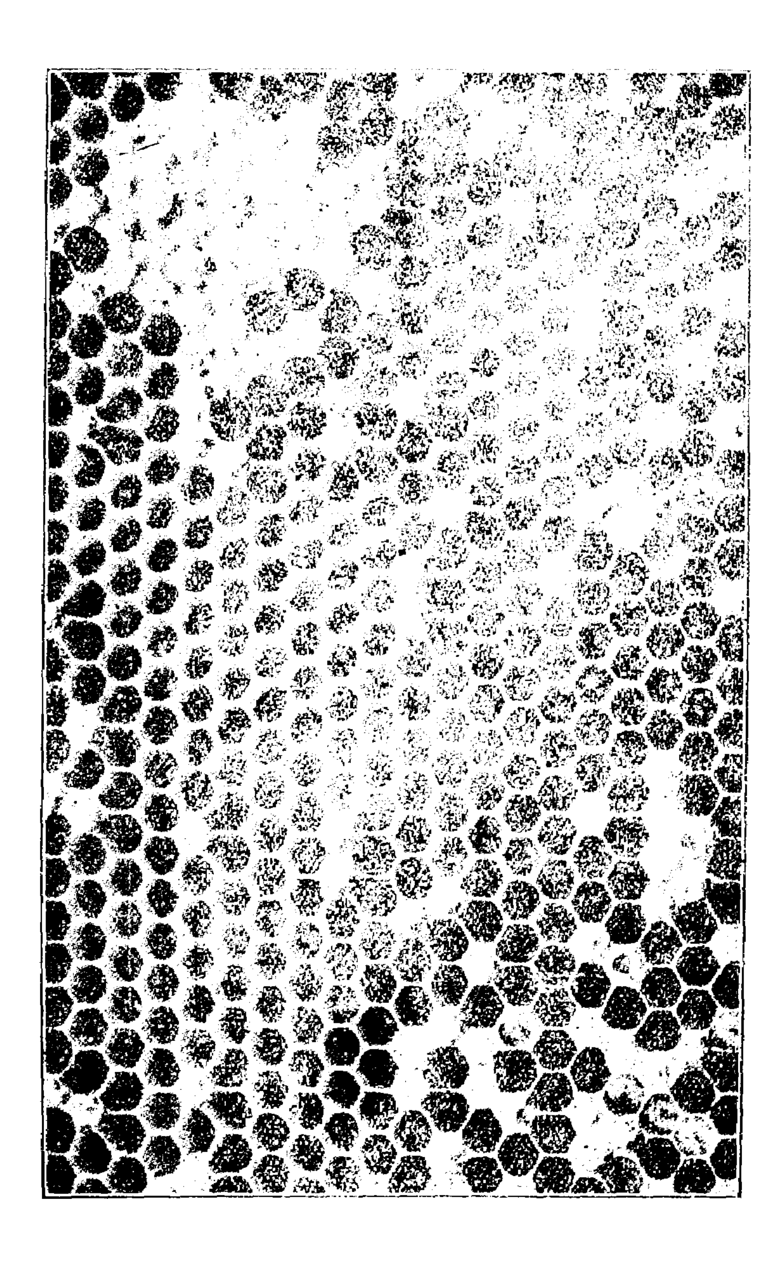


(شكل ١١ ـ نحل العسل حاملا كرات الطلع الصفراء من هذا النبات المسمى « سم النمر »)

هاهوذا نحل العسل حاملا كرات الطلع الصفراء من هذا النبات المسمى [سم النمر] بالفرنجية وهو بالعربية [عابد الشمس] .

إن بعض الأزهار يجمع منها النحل مايصير فى باطنه عسلا ، و بعضها يجمع منه مايصير غذاء للذرية الصغيرة ، وهى الدود فى الخلايا ، وهناك أزهار تصلح للحالين معا ، و يوضح ذلك (شكل ١١) المتقدم .

ثم انظر شكل ١٢

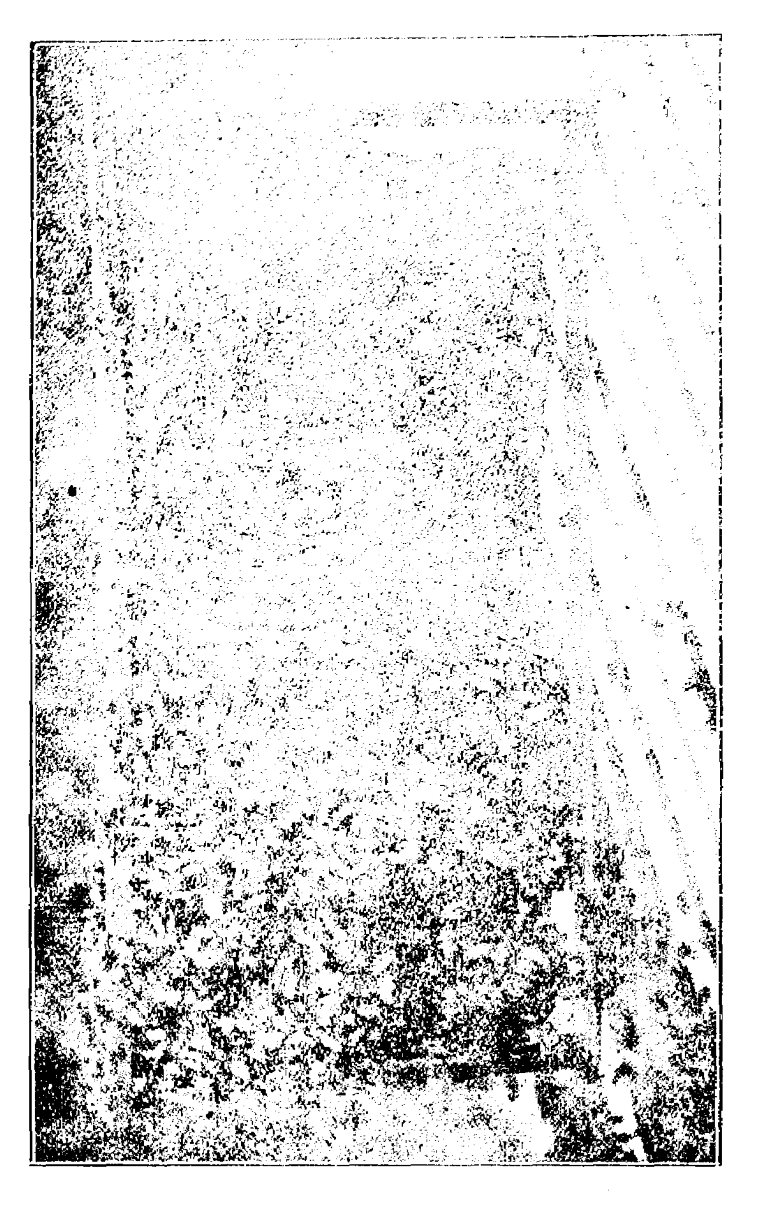


(شكل ١٢)

قرص عريض ، قرص النحل مع خلايا تحوى دود عاملات النحل

وهى التى تسمى عادة [الشغالة]





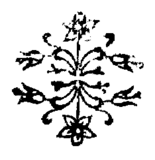
(شكل ١٣ – قرص عسل النحل يشتمل على ذكور النحل وعاملاته والخلايا التى فيها العسل)

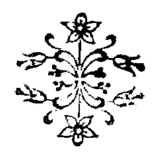
إن الخلايا التى تربى فيها العاملات من النحل هى الصغريات ، أما التى ينمو فيها الذكور فانها أوسع ، وأما التى فيها الملكات فانها أكثر اتساعا ، وليس فى قفير النحل مايزيد على ست ملكات .

إن الخلايا الخازنات العسل تساوى فى حجمها الخلايا التى تربى فيها ذكور النحل ، هـذه القطعة من قرص العسل موضوعة وضعا رأسيا عموديا . ثم انظر شكل ١٤ فى الصفحة التالية .



(شكل ١٤ ـ طائفة من النحل مزدحمة على شجر التفاح)







(شكل ١٥ ـ عش النحل الحجرى)

فى هذا العش قد نزع الغطاء الرقيق من فوقه ليظهر القرص وخلاياه ، وقد كسرت خليتان من أعلاهما الدودات الصغيرات السمينة البيضاء وهى ذرّية النحل ، إن هذه النحل تعرف بنقطة حمراء فى انتهاء ذيل جسمها الاسود ، وهى لاتصنع عشها أبدا إلا تحت الحجر . ثم انظر شكل ١٦ وهذه صورته :



(شكل ١٦ ـ هذا عش للنحلة المنفردة وحدها فى هيكل قوقعة الحدائق)

ترى فى الشكل المتقدم (شكل ١٦) نوع النحل الذى يعيش فى عزلة منفردا عن غيره ، وان يعيش إلا فى مكان مجوّف ، والقوقعة الوسطى تريك نحلة حديثة الولادة قد خرجت حالا من شرنقتها ، والصورة اليمنى عبارة عن قوقعة قد كسرت فظهرت فيها الدودة الصغيرة التى تنقلب فيما بعد ذلك شرنقة ، وفى كل قوقعة دودتان دائما إحداهما ذكر والثانية أنثى .



(شكل ١٧)

(العليا) النحل المستقل بنفسه قطاع الورق الذى حجمه بقدر حجم نحل القفير يقطع الورقة ليتخذ منها بهذا القطع خلية انظر النحلة تعمل . وترى فى الجزء الأعلى الأيمن من الورقة فجوتين مقوستين مرتبتين منظمتين ، وقد قطع منهما أجزاء من الورقة . والنحلة تراها فى إحدى الفجوتين وقد خفيت تحت جسمها



(الوسطى) ههنا النحلة تحمل قطعة من ورقة الورد للخلية ثم الخلايا مركبات من قطع من الورق مقوسة على بعضها . والاغطية مصنوعة من القطع الصغيرة .

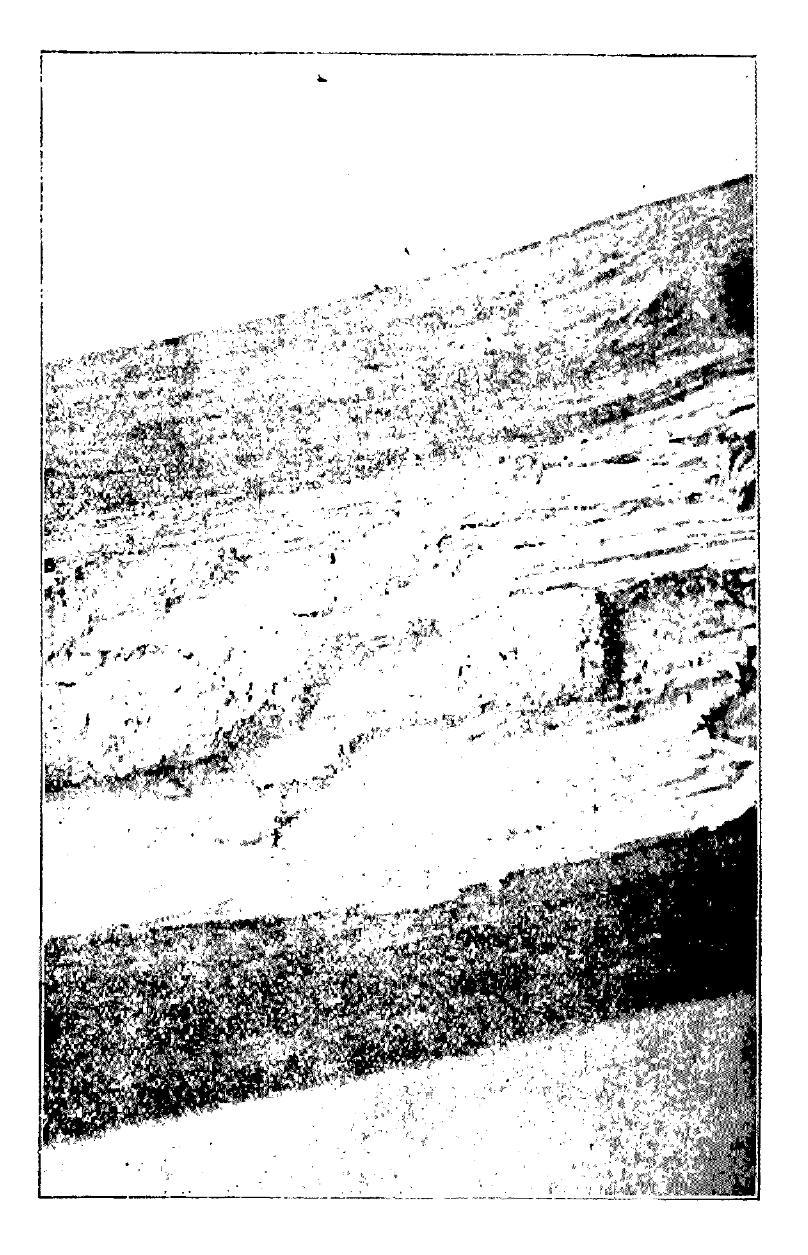
الخلايا تامة

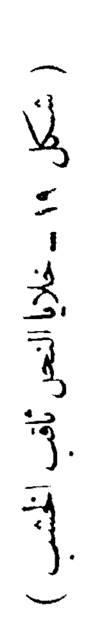
(السفلى) الاعشاش مصنوعة فى التجاويف والخلايا مرتبة منظمة . آخر كل خلية متصل بآخر الاخرى يظهر من الشكل • انها لمتنبطة بما صنعت . ان كل خلية مملوءة الى نصفها باللقاح وتحتوى على بيضة مفردة . ثم انظر شكل ١٨ فى الصفحة التالية .



(شكل ١٨ ـ النحل الثاقب للخشب متعلقا بفكيه فى حالة سكون)

هذا النحل ثاقب الخشب أوالنحل النجار يمضى فصل الشتاء فى حالة حياة ،وقوفة لاعمل له اللهم الا انه عادة يبحث عن زاوية ليتخذها مأوى . ثم انظر الشكل الآتى فى الصفحة التالية .





(شكل ١٩ ـ خلايا النحل ثاقب الخشب)

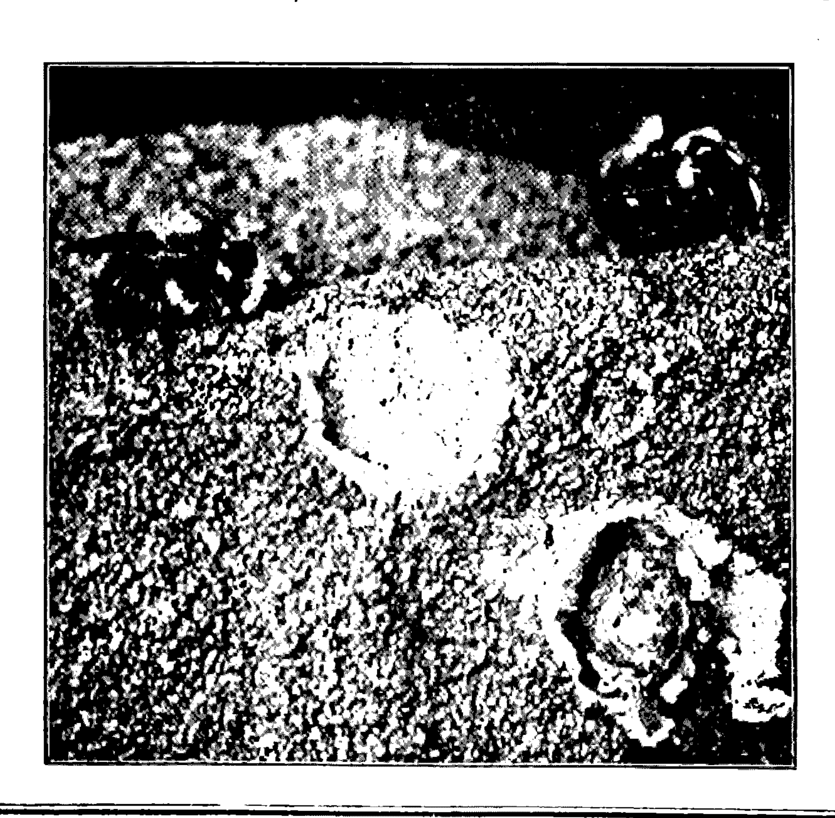
هذه الخلايا العريضة التى صنعتها النحلة القوية المتينة مصنوعة من قطع خشبية قد اتسقت وانتظمت بواسطة اللعاب الذى يفعل فعل الغراء . ثم انظر شكل ٢٠ الآتى فى الصفحة التالية .



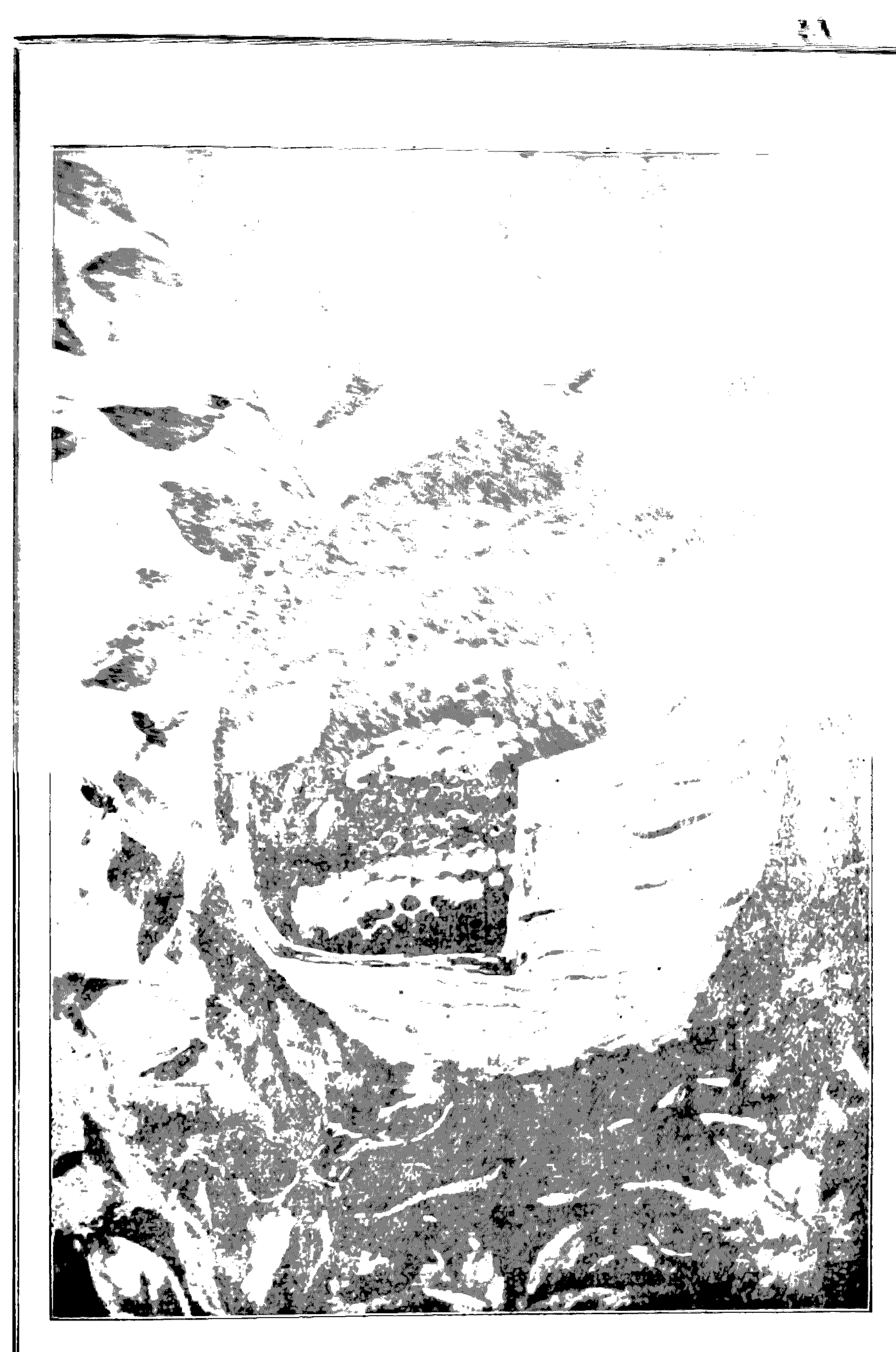
(شكل ٢٠ ـ النحل الثاقب للخشب وهو خارج من خليته)

هـذه الخلايا التي ينمو فيها جنـين النحلة تـكون عادة فى أروقة مستطيلة بعريش أساسى مثقوب فى الخشب ، وهذه التى ترى فى أسفل الصورة مفصولة من مركزها الطبيعى والنحل النجار (كما يسمى عادة) أدكن اللون ذو شعر وهو معتزل مستقل له قوة عصلية ، وهو بها قوى متين . ثم انظر شكل ٢١ وهذه صورته

هـذا الشكل أبان خليتين وعلتين ، النحل البناء المستقل المنفرد قد صنع عشا فى غاية المتانة والقوة من الأرض مخلوطا بسائل من ريقه ، وهذا الريق يستعمل للصق الحصيات المصطفيات بحذق ومهارة تامتين ، إن الخلايا حينئذ مملوءات إلى أنصافهن بنوعين مما جنته النحلة وهما الطلع والعسل ، و بعد أن توضع البيضة تقفل الخلية بمادة الأسمنت . انتهى الكلام على النحل .



شكل ٢١ ـ النحل البناء



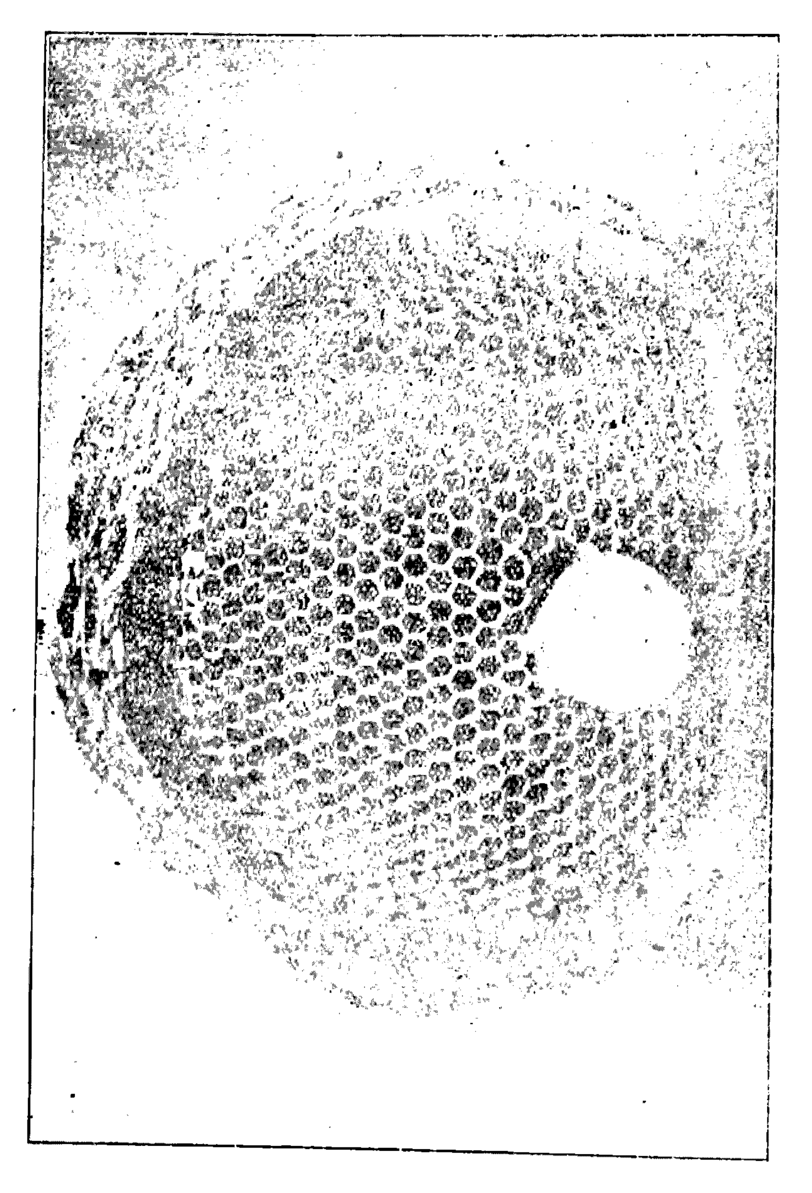
(شكل ٢٢ ــ عش زنبار الخشب)

إن عش هـذا الزنبور المعتاد يبنى من أغصان الأشجار ، أومن الأخشاب ، وهـذا قرص معلق على آخر

بواسطة

بواسطة حامل عمودى ، والخلايا مغطاة بأغطية مصنوعة أشبه بورق الكتابة عند الانسان (وقد تقدم فى سورة طه) أنّ الزنبور صنع الورق قبل الانسان ، وهذه الأغطية تمنع المطر أن يدخل الخلايا وتحفظ الحرارة فى داخلها فتبقى دافئة ، ودرجة الحرارة فى داخل الخلايا قد تكون أعلى منها فى خارجها ٢٥ درجة بميزان فهرنهايت

الخلايا تكون مفتوحة لأجل ادخال الطعام للدود الصغير وهو ذرّية الزنابير ، فاذا كبر الدود أخذ ينسج شرنقه و يقفل باب الخلية اقفالا من أعلاها إلى أسفلها . ثم انظر شكل ٢٣ وهذه صورته :[1]



(شكل ٢٣ ـ قطعة من العش ، أوقرص الزنابير من بلاد البرازيل متصلة بغصن من الشجرة)

إن الصورة الشمسية [الفوتوغرافية] ترينا طبقات بالعش فتحفظه من الماء والهواء ، وفى داخل خلاياه المسدّسة الأشكال ، ينمو البيض فينقلب ما فى داخله إلى دود ، والدود ينقلب شرانق [فيالج] والفيالج تصير زنابير كبيرة ، والدائرة البيضاء التى تراها عند أسفل العش عبارة عن غصن مقطوع . ثم انظر شكل ٢٤ الآتى فى الصفحة التالية .

(١) هذه الصور كلها وما شرحتها به قد ترجمته من مجلة [التاريخ الطبيعى الجديد] الباحثة فى عجائب الأرض المدهشة عجائبها الطبيعية لصاحبها الاستاذ الابروفسورا (ارثورتومسون)



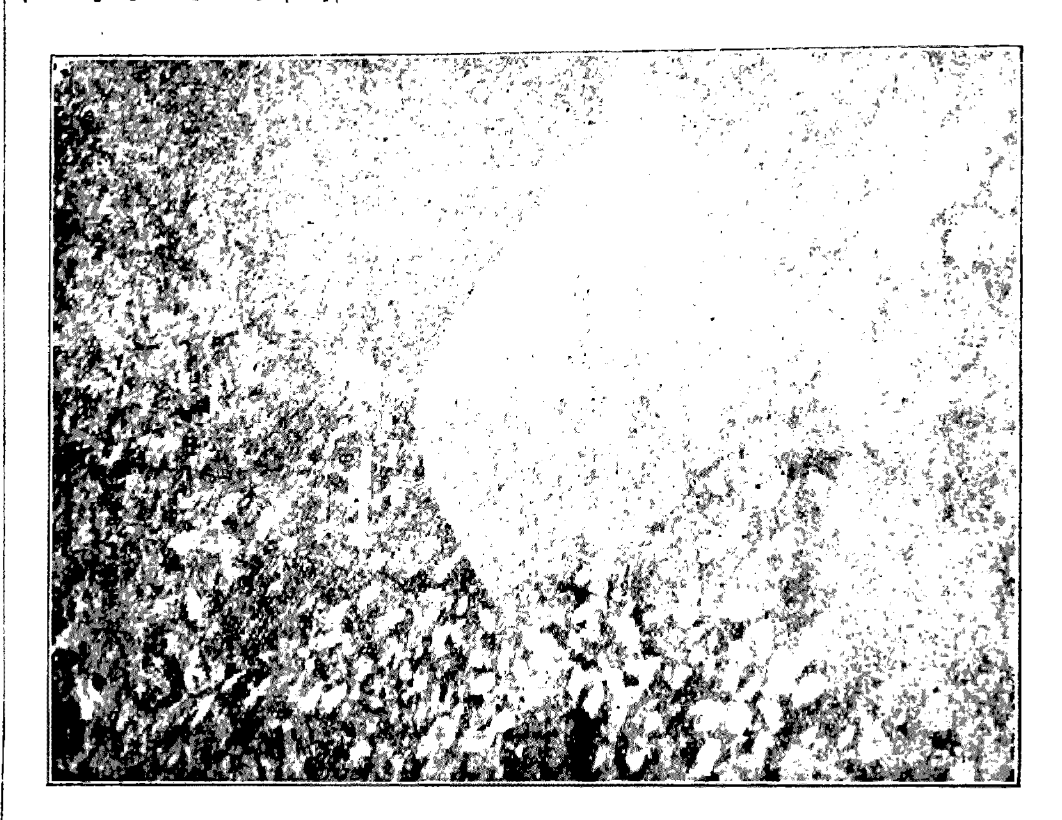
(شكل ٢٤ عش الزنبور البناء)

الزنبور البناء يصنع عشه من الطين فى شقوق الحيطان ، ويكون العش غالبا بهيئة طينية خشنة بحيث ترى على وجهه لطخ من رشاش الطين غير منتظمة ، وهذه تكون سببا لنجاة الزنبور من أن يراه أعداؤه ومع ذلك نرى العش مبنيا بمهارة فائقة ، حافظا لعناصر بنائه مثبتا لها ، وترى دود الفراش (الذى لسعه الزنبور فلقحه بسمه قد أصبح مشلولا عديم الحركة) مخزونا فى الخلايا ليكون قوتا للذرّية فيها ، ومتى خزن ذلك الدود المشلول فى الخلايا سدّها الزنبور ، وهذه الصورة تظهر اثنتين مقفلتين على الذرّية وعلى قوتها ، فأما غيرهما فلم يكمل . والى هنا تمّ الكلام على الزنابير والحمد لله رب العالمين .



الـكلام على النمل

لقدتقدم الـكلام على النحل والنمل والعنكبوت فى سورهن ، ولـكن ما رسمناه هنا أوكتبناه لم يتقدم نظيره وهو هنا تفسير للميزان العام

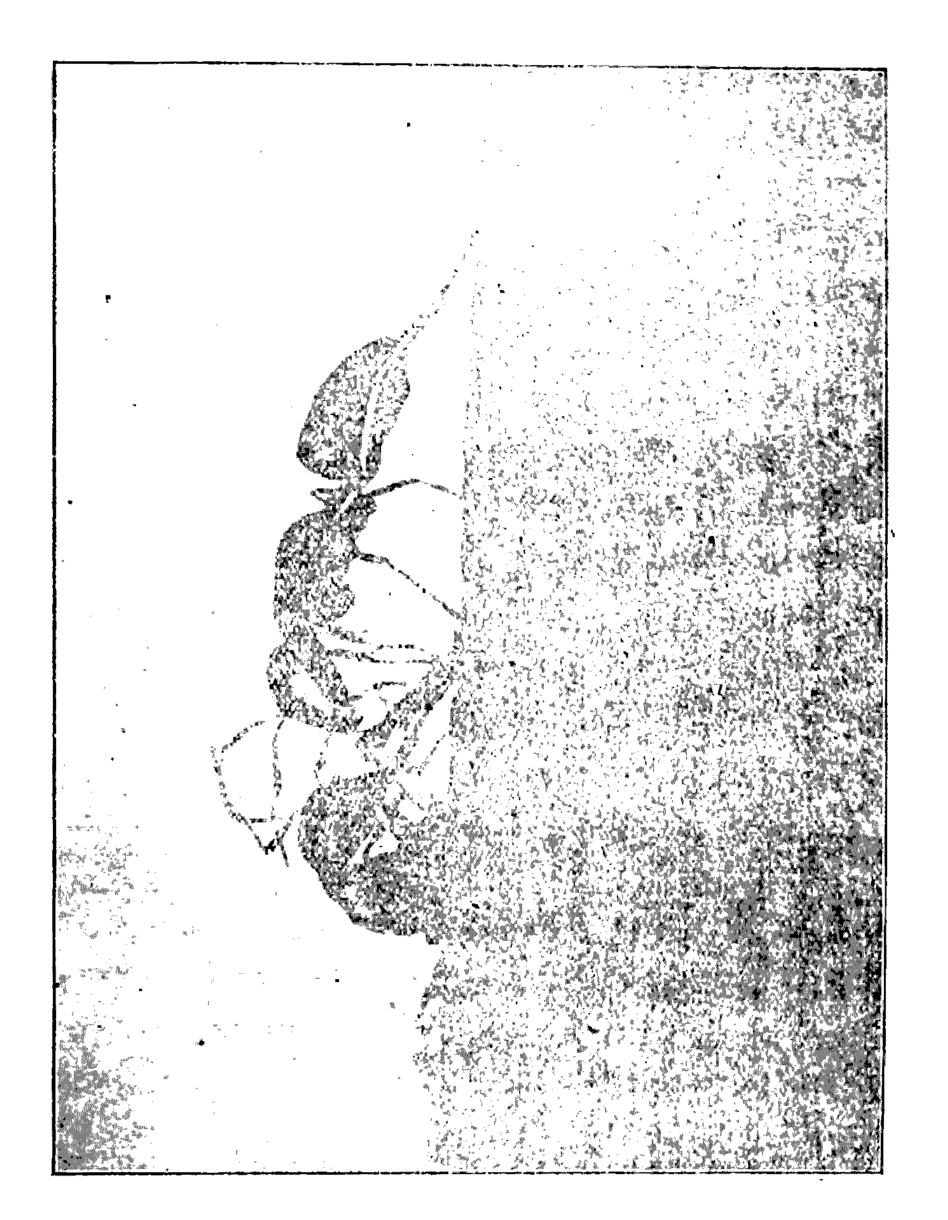


(شكل ٢٥ — عش نمل الخشب وهو ثلاثة أقدام ارتفاعا)

ان هذا العش النملى المعتاد المصنوع من الخشب مبنى من إبر الصنوبر وقطع من العصى ، وهو غالبا فوق القدمين ارتفاعا والمحيط الدائرى أربعون قدما ، وترى حجرا لاحصر لعددها وطرقا شتى فى القبة نفسها وفى الارض من تحتها ، وطبعا هناك الآلاف من السكان والمداخل الـكثيرة الى القبة تقفل عند غروب الشمس ، ولعلّ ذلك لتدفع الأعداء الصغيرة من الدخول فيها



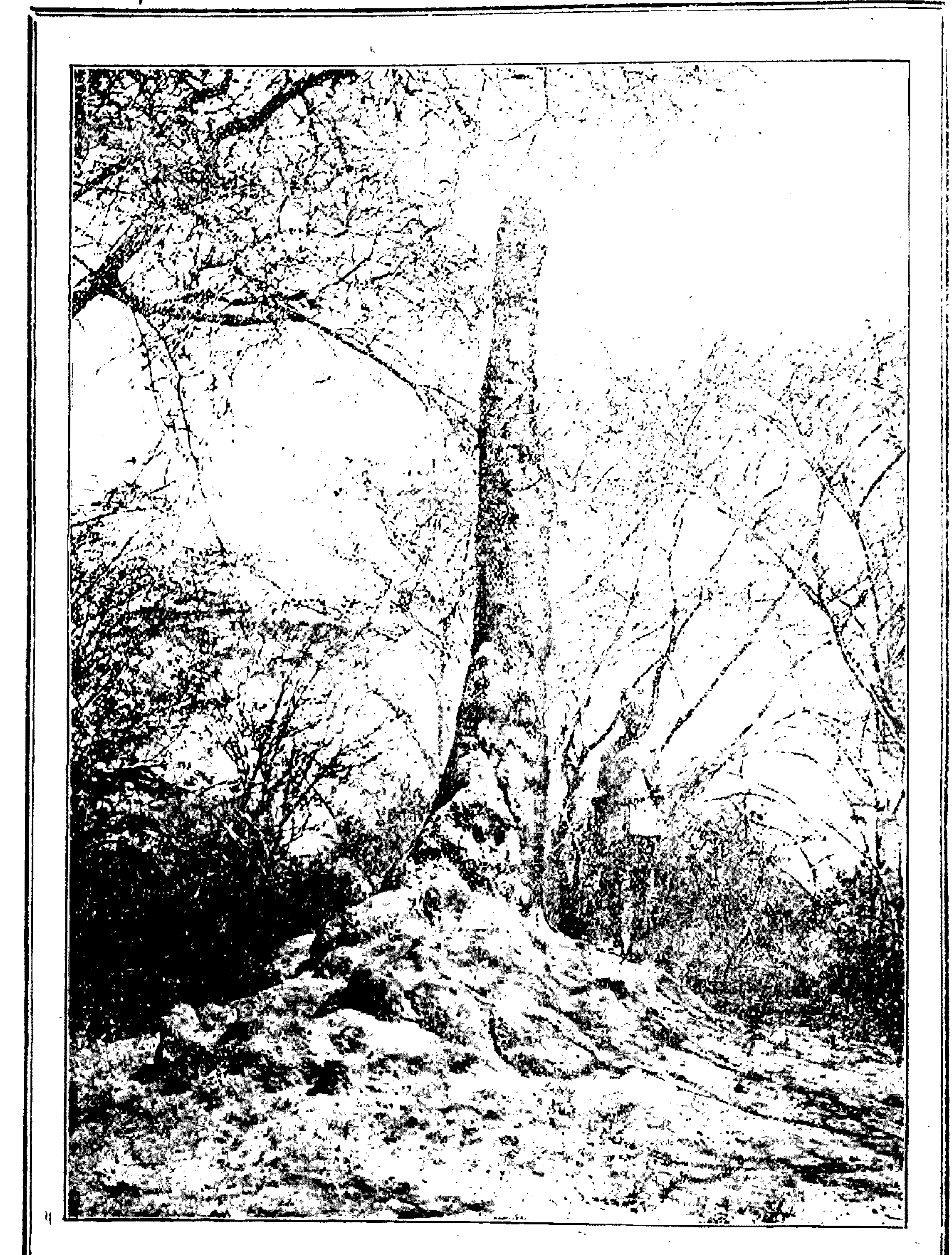
(شكل ٢٦ — نمل تسوم ماشيتها ، وهى طائر صغير أخضر على غصن من عشب ، وهناك أنواع من النمل تستعمل هذا الطائر الأخضر المسمى [أفيد] كأنه قطعان ترعى تحت نظرها فى هذا الشجر المسمى [جوزبرى])



شكل ٢٧ — النمل النجار فى عمله

النملة التي فى جهة اليسار الواقفة فى مدخل العش المتخذ فى الخشب هاهى ذه تسلم قطعة من الخشب للعامل (العتال) جهة اليمين الذى شرع يحملها ليلقيها بعيدا .





(شكل ٢٨)

هذا البرج الموحش الغريب الخلقة قد شيده النمل الابيض فى شرق افريقيا ، ان النمل الابيض ليس من أنواع النمل الحقيق كلا . ولكنه يشبهه فى أطواره ، فترى فيه أخلاق الملكة والذكور ، والنمل القائم بالعمل ، والعسكر . ان البرج فى هذه الصورة الشمسية صنعها النمل من مواد الارض بعد أن مضغها بفكيه وعجنها بريقه ، انتهى ما أردت ذكره فى آية « والسماء رفعها ووضع الميزان » والحمد لله رب العالمين .

هذه صفحة من مناظر هذا العالم الذى نعيش فيه ، هذه صفحة جميلة بهجة ، يا ألله ما أجل صنعك ، وأبدع اتقانك ، نظمت الأحجار الثمينة الجامدة فجعلتها أشبه بالبلور فى تسديس أشكالها ، واتقان نظامها ، وجمال هيئاتها ، أريتنا فى هذا الزمان بواطن السمك فدرسنا أعضاءه الباطنة مفصلة عضوا عضوا بما أعطيتنا من نعمة التصوير الشمسى وفاء بوعدك : «سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم» وذلك لنعرف معنى الميزان ومن أعجب العجب ، وأبدع الخلق ما زادنى حيرة ، وأحدث فى نفسى نار الشوق العلمى وهو أمر ذرّية الضفادع (التى تقدّم صورها والكلام عليها فى الجزء الأوّل من الطبعة الثانية من هذا التفسير) . ألا ترى رعاك الله النوع الأوّل الذى يتربى بيضه فى كرات هلامية تلازمه فى قاع البرك والمستنقعات ، وهناك يكون الميزان ، فكلما ازداد الماء ثقلا ازدادت الكرات الهلامية انتفاخا حتى تقاوم ذلك الثقل فترتفع ، أليس من عجب أننا نرى رحما موضوعة فى الماء خارج الحيوان ، وهذه الرحم فيها قوّة تجعلها مناسبة لما يحيط بها فترفعه بقانون مسنون .

وأعجب من هذا أن نفس هذه الكرات الهلامية إن هى إلا سجن سجنت فيه تلك الذرّية ، فهى من جهة رحم لها وحفاظ ، ومن جهة أخرى اذا طال عليها الأمد وفقس الحيوان كانت شرّا و بيلا عليه وعذابا أليما ، وهلاكا حاضرا ، فماذا فعلت تلك الحكمة بموازينها ؟ فعلت معها مافعلته فى دول أوروبا بالنسبة لبلاد الاسلام ، ذلك أن أوروبا فى هذه السنين أرادت أن تستحوذ على بلاد الشرق وخصوصا بلاد الاسلام ، وهل كان أعدى عدوّ لهذه الأمم إلا دولة الروس التى بمناوأتها لبلاد الصين من جهة و بلاد الترك العثمانيين من جهة أخرى فتحت الباب لفرنسا وانكلترا فأوغلتا فى بلاد الاسلام إهلاكا وتدميرا و إذلالا ، فماذا فعل الله بأوروبا ؟ أخرج لها أناسا من بلادها ، فأحدثوا الرأى الاشتراكى ثم البلشفى ، وهذه البلشفية اليوم أخذت حقها فى بلاد الروسيا ، وهذه الدولة الآن هى التى منعت عن بلاد الشرق والاسلام شرّها ، وساعدت على استقلال بعض الأمم ، فصارت أوروبا أشبه بجسد قوىّ أخذ الداء يفتك فيه من نفسه فى داخله ، وهذا هو نفس ماحصل فى بيض الضفادع ، ذلك الذى أحاطت به كرات هلامية فرقته بمقدار ، ولما انتهى عملها مزقت كل ممزق كما تمزق المشيمة عند ولادة الطفل ، وما الذى يمزّقها ؟ هى تلك الحشائش الدقيقة التى لانراها ومايلازمها من حيوانات ذرّية ، فهذه كلها تفتك بتلك الكرات فيخرج الجنين سليما معافى من كل شىء يؤذيه . الميزان واحد ، فهو فى سياسة الأمم نظيره فى سياسة الأفراد ، مزقت كرات أجنة الضفادع بمخلوقات نبتت فى باطنها ، هكذا الأمم الظالمة يكون هلاكها بتفريق كلمتها : « ليحق الحقّ و يبطل الباطل ولو كره المجرمون»

مسامرة

ههنا حضر صاحبى العلامة وقرأ هذا الموضوع فسرّ أيما سرور ، وأعجب بالصور الشمسية والتعليق عليها وقال هذه صفحة جميلة أبانت لنا الضارّ كالزنبور ، والنافع كالنحل ، والأحجار الثمينة ، والحيوانات الجميلة ، وأدركنا كيف تنسج العنكبوت مسكنها وهو نفس شبكتها ؟ وكيف تكون لزجة جميلة ؟ وهذه الصورة الشمسية الأولى من صوره ترينا أن عمله فى بناء بيته يشبه أعمال النساجين ، إذ يبتدئون بالسدى و يقفون باللحام ، ثم كيف رأينا الزنابير يعوزها دود يكون بجانب ذرّيتها على شريطة أن يكون فى حال شلل ، فأحضر له الأبوان دودا على هذه الشريطة و بقى حتى فقس البيض وخرجت الذرّية وعندها غذاؤها ، ولاعلم للأبوين بها ، أليس هذا هو الميزان والعجب العجاب ! وكيف كان من تلك الحشرات بناء ، ونساج ، وثاقب خشب ، وقاطع ورق ، ومتخذ من نحو الجبال بيوتا ، ومن القواقع ، وكيف رأينا منه مايعيش وحده كالعرب فى البادية ،

ومنه مايعيش جماعات ، هـذا عجب عجاب ! فقلت نعم لله درّك ، إن الميزان يجمعها ، وبالميزان كان الضرّ في الزنبور ، والنفع في النحل واجتماعهما في الأرض عندنا واجتماع كل ضدين من خير وشرّ يكون استخراجا لقوانا وملـكاتنا ، وتذكرة للعقلاء ، وتبصرة للحكماء ، إن غرائز الحيوان وعجائبه جعلت في الأرض تبصرة وتذكيرا ، إن الجسم الانسانى يعوزه ملبس ومسكن وغذاء ودواء وهواء وماء ، فهـذه كلها قوام لجسمه ، هكذا قوام عقله يكون بدراسة هـذه المخلوقات ، فظواهرها لجثمانه ، وبواطنها لروحه ، فاذا قصر في أحدهما فهو المسئول .

تربية الأمم الاسلامية في مستقبل الزمان

ثم قلت : أيها الأخ الذكىّ ، إن بناء جسم الانسان تابع لما يتغذى به ، فاذا أكل ماً كل رديئة ضارّة فالضرر لاحق بجسمه ، وبضدها تتميز الأشياء : هكذا غذاء العقل ان كان صالحا صلح والافلا ، والغذاء الصالح لعقول أمم الاسلام في تربيتهم هو هـذه العجائب ، فانهـم اذا درسوها صارت تلك الدراسة مهيعا لعقولهم ، فيتـكرار تلك المباحث وتواردها على العـقل شيئا فشيئا يجمل العـقل ويصلح ، ويكون أشبه بتلميذ عاشر حكيما فقلده ، وأىّ حكيم في العالم يضارع صانعـه ، فمن راض عقله من الصغر على هذه المشاهدات أصبح عقله مرتاضا على الحقائق ، مفيدا لغيره ، نافعا لنوع الانسان ، إن كتاب الله المجسم دلّ عليـه كتابه المنزل فقال : « ووضع الميزان » .

درجات الحيوان في الادراك ودرجات الانسان

إن هذا الذى يشاهد هذه العجائب وقدمرن عليها ينظر فيجد غرائز الحيوان ترتقى من أدناها إلى أعلاها ثم يرى من الحيوان مايقبل التعليم كالـكلب والأنعام وبعض الطيور ، ثم ينظر فيرى منها مايقلد الانسان بدون أن يعلمه ، فهذا أرقى مما قبله وأعظم وهو القرد ، ثم ينظر فيجد نوع الانسان يرتقى من أدناه ، وهم الذين يقربون من القردة إلى أعلاه ، وهم الذين يقلدون صانع هذا العالم في اتقانه البديع .

إن الانسان اليوم بلغ في العـلم حدّ المراهقين ، لأنه أخذ يتلمس الحقائق ، ويدرس الحيوان ، ويقتفى أثر صانع العالم اقتفاء مّا ، فهاهوذا أخذ يطير في الجوّ ، ويقطع المسافات سريعا ، واخترع وأبدع أيما ابداع ولـكنه لايزال في مبدأ الميدان ، نظر هذا الانسان فلم يكن نظره قاصرا على بناء بيته كالعنـكبوت ، ولا على ملء خزائنه بالغـذاء كالنحل والنمل ، بل فـكر في هذا العالم كله ، لأن روحه من عالم فوق هذه المـادّة ، فماذا فعـل ؟ فـكر فرأى الصور حوله ثلاثة أقسام ، لأنها إما صور مركبة من مادّة محسوسة تحيط به ، واما صور حملها الضوء فوصلها إلى العيون ، واما صور في الهواء بهيئة حروف شكلتها الأصوات فوصلت إلى الآذان هذه صور العالم كله الذى نعيش فيه ، نظر الانسان فرأى محوطا بهذه الصور ، فألطفها الصور الضوئية وأغلظها الصور المادّية ، وأوسطها الحروف والـكلمات في الهواء ، درس الانسان الجماد والحيوان والنبات والسماء والأرض فـكانت علوم وعلوم تقدمت في هـذا التفسير كالتى في ﴿سورة الروم﴾ عند آية : « فطرت الله التى فطر النّاس عليها » وكالتى في سورة ألم السجدة ، وكالتى في سورة لقمان عند آية : « ولقد آتينا لقمان الحـكمة » .

أوليس من العجب أن الحروف والـكلمات التى يحملها الهواء صور تعـبر عمـا فوقها من الصور النورية الواصـلة إلى العيون وعمـا تحتها من صور النبات والحيوان ، درس الانسان علوم التاريخ الطبيعى وعلم طبقات الأرض ونحوها ، وهذه هى الصور الغليظة ، واستخرج لهـا موازين من الميزان الذى وضعه الله في

العالم ، ودرس الصور فى الهواء وهى جميع اللغات ، واستخرج لها موازين كرفع الفاعل ونصب المفعول فى النحو فى اللغة العربية ، وكالأبواب الستة فى الفعل الثلاثى وهى باب نصر وضرب وفتح وعلم وشرف وحسب وكموازين اسم الفاعل واسم المفعول وهكذا فى الصرف ، وكالمسند والمسند إليه ، والتقديم والتأخير ، وأحوال متعلقات الفعل ، والذكر والحذف والحصر ، والفصل والوصل ، والايجاز والاطناب والمساواة فى علم المعانى ، وكالتشبيه وأقسامه ، والمجاز وأنواعه ، والكناية وفروعها فى علم البيان ، وكالجناس والطباق فى علم البديع ، وكما وضع موازين للصور الحرفية الهوائيـة أخذ يضع موازين للصور العقلية ، وابتدأ بالمنطق كما تراه موضحا فى ﴿ سورة الروم ﴾ بهيئة عامة تسر الناظرين ، ولعلم النفس كما فى كتابنا [نظام العالم والأمم] ولعلم السياسة العامة ، ولكل شأن من شئون الحياة جل أودق ، ومن ذلك أنه حسب الأجرام الفلكية بما انبعث منها من صور ضوئيـة ، فوصلت إلى شبكية العين ، فأدركها العقل ، فكان علم التقويم ، وعلم النجوم والمجرات والسدم العظيمات ، كل ذلك تعبر عنه الحروف .

الله أكبر : ان للانسان سبع قوى مدركات : ثلاث عليا ، وثلاث سفلى ، وواحـدة هى واسطة العقد النظيم ، أما الثلاثة العليا فهى البصر والعقل والقوة القدسية التى اختص بها الأنبياء والملهمون ، وأما الثلاثة السفلى فهى اللمس والذوق والشم ، وأما الوسطى فهى حاسة السمع وهى التى اختصت بادراك صور الحروف المعبرات عن الأقسام الست أعلاها وأدناها .

هذا ملخص نظام هـذا الانسان ، وهو الذى أدرك أدق الأشياء من الكهرباء والمغناطيس والراديو ، وخواص أخرى لايزال يترقى فيها ، وهو الآن فى مبدأ الرقى ، وهناك هناك معال ومدارج هو فيها سائر إلى الأمام ، فياليت شعرى أى مناسبة بين ما رأيناه فى صـناعة العنكبوت والنحل والنمل و بين ماعرفناه من صناعة الانسان ؟ .

الله أكبر : ان الانسان لم ينل هـذه النعم العظمى إلا بدراسته غرائز أصغر الحيوان ، لأن من لم يفهم الأدنى لاسبيل له أن يدرك الأعلى ، ومن جهل المقـدمات حرم النتائج ، فهذه الأمم التى ارتقت فى مدارج الحياة العلمية هم هم الذين درسوا أصغر المخلوقات الذرية التى هى بعض قوله تعالى : « ووضع الميزان ألا تطغوا فى الميزان » .

فانظر إلى أى حد بلغ الانسان فى أمانيـه وهو مسرع إلى الأمام طار فى الجو وفاق الطيور ، وهاهوذا يسارع إلى المعالى ، يقول فى نفسه : لماذا لا أصل إلى القمر ؟ لماذا لا أصل للمريخ ؟ فهل هناك مايمنعنى ؟ وأى عائق يقف فى طريقى ذللت لى المصاعب وفتحت لى المعاقل ، فغصت فى قاع البحر وطرت فى الجو ، كل ذلك بمعرفة الميزان ، إن الطيارات التى أطير بها لم تكن فى أول الأمر إلا لاعبات للصبيان ، إن غريزتى التى غرست فى قـد كمن فيها كل شىء ، أنا من عالم أعلى ، أوحى الله الى غريزتى وأنا طفل أن أطير فى الجو طيارات لعبا ولهوا ، لأن نفسى من عالم أعلى فلعبها يشير إلى ما كمن فيها ، فأخذت أدرس الطيور ، فاستنتجت منها علم الطيارات ، ثم أرى الناس يطلقون السهام النارية للهو واللعب فلماذا أقف فى الارتقاء على الطيارات ؟ ولماذا لاأرتقى أعلى وأعلى ؟ ولماذا لا أجعل هذه الصواريخ حاملة لجسمى ولأمتعتى ، ألست أنا الذى كنت أسير فى الأرض على قدمى فرأيت الخيل والبغال والحمير فخطر لى أنها تحملنى فحملتنى ، ثم رأيت الورق وخفيف الخشب يعوم فى البحر فصنعت المراكب وسافرت عليها ، ثم رأيت القدر على النار يرتفع فيها البخار ، فاذا كانت القدر مغطاة رأيتها تضطرب وترتفع ، فاستنتجت من ذلك أنها تساعد على الانتقال فى البر ، ثم كانت الطيارات كما تقدم فلماذا لا أجعل الصاروخ مركبى وحامل أمتعتى ، أنا فوق الجميع ، الموازين أمامى فلأدرسها ، أنا هنا فى

الارض

الأرض خليفة الله استخلفنى وركب فىّ العقل وقال لى فكر واعمل ، وهذا هو الذى يجدّ فيه العلماء اليوم فانظر ماجاء فى جريدة الاهرام يوم ١١ اكتوبر سنة ١٩٣١ م ، واعجب كيف يكون هذا فى وقت كتابة هذا المقال ، لأجعله بهجة لجماله ، وحلية بهية فى نظامه ، وهذا نصه : —

عصر الاختراع والاكتشاف

السهم أو الصاروخ . معجزة هذا القرن

الصاروخ أحدث استنباط لايزال رهن التجربة ، قد يزيل الوقت ويلاشى الابعاد وينقل البريد بسرعة عشرة أميال فى الثانية ، وقد يوصل الناس إلى المريخ ، ويستأصل الحروب أو يزيدها هولا وويلا ، فيدك معالم الحضارة دكا ، فتى بلغ حدّ الكمال يعدل الناس عن التراسل بالبريد أو البرق ، وعن التخاطب بالتلفون ويعتمدون على الصاروخ فينقل رسائلهم من أميركا إلى أوروبا فى نحو خمس دقائق .

فلا تتعجب أيها القارئ الكريم ، ولا تقل ان زمان العجائب قد مضى فان عصر عجائب العلم لايزال فى أوّل عهده ، وقد أرانا فى الأعوام القليلة الماضية العجب العجاب ! ولكن الصاروخ هذا سيكون أعجوبة القرن العشرين بدليل التجارب السرّية التى أجريت فى ألمانيا وروسيا وأميركا .

إن هذا الصاروخ لذى كان فيما مضى من السهام النارية التى يطلقها الناس فى الفضاء احتفالا بعيد ، أو تذكر بما لبطل فاتح قد أصبح بعد أن تناولته يد العلم ، وأتقنته الهندسة ، وأحكم تركيبه الدماغ المبتدع من أعجب ما استنبطه العقل الانسانى ، فالراديو والطيارة ، ونقل الصور بالراديو ، والمدهشات الأخرى التى أتحفنا بها هذا الجيل سوف تصبح من التوافه بالنسبة إلى الصاروخ ، فهو سيحدث انقلابا هائلا فى وسائل النقل والطيران والحرب ، ومابدا منه حتى الآن يرسم لنا صورا للمستقبل كالسفر إلى القمر والمريخ ، والدوران حول الكرة الأرضية فى أقلّ من ساعة ، فاذا خامر القارئ الشك فيما تقدم بيانه (وهو سيشك فى انكاره دون ريب) فانى أنقل له ماقرأته عن ذلك ليزول مابه من الارتياب ، فان أعظم الأدمغة فى العالم قد برهنت مؤخرا بما لايقبل الريب على أن تحقيق ماذكرته ليس بالحادث البعيد ، فان مشاكل هذا الاختراع الأساسية قد انحلت ، وأهمها مشكل الجاذبية لاختراق الفسحة الكائنة بين عالمنا والعوالم الأخرى ، فمن مضىّ أشهر معدودة أطلق سهم هائل فى الجوّ على مقربة من برلين فبلغ الطبقات العليا وعاد بعدئذ إلى الأرض ، وكان ارتفاعه عظيما جدّا ، مع أنه لم يكن فيه من الوقود سوى جزء من أربعين جزءا مما يسعه ، وقد وافقت الحكومة الألمانية مبتدع هذا السهم على القول أنه لوجهز بكمية وافية من الوقود لاجتاز مسافة ألف ميل فى أعماق الجوّ ، وقد قال الاستاذ [هرمان أوبرت] الألمانى انه أطلق واحدا منها مؤخرا وركب فيه آلة تدفعه من ذاتها ، فبقى محلقا فى الفضاء أكثر من ساعة ، واصاروخ الاستاذ أوبرت قوّة دافعة تضاهى قوّة دفع القطار الحديدى الكبير تولدها فيه آلة تماثل زجاجة اللبن الصغيرة ، وهذا يدلنا على القوّة الهائلة الممكن توليدها فى الصاروخ متى تمّ للقائمين باتقانه أمر وضع مولد كبير للقوّة فيه ، ومن التجاريب التى أجريت فى أميركا التجربة التى قام بها المستر [روبرت جودارد] فقد أطلق واحدا من هذه السهام التى تحاكى الأنابيب فعلت على الأرض ستين ميلا ، وقال بعد ذلك انه قد اكتشف السرّ العظيم الذى يمكنه من ارسال صاروخ إلى القمر ، وجرت مثل هذه التجاريب قبل ذلك فى روسيا ومبتدعها الاستاذ [فيودوروف] وهو الآن يعمل لاتقانها تحت رعاية حكومة السوفيات فى ادارتها الخاصة بالمواصلات الجوّية ، ومثله فعل الاستاذ الروسى [زيولوسكى] وهو الآن يجهد الفكر فى تحسين الصاروخ النور بيدى على حساب الحكومة الروسية ، وكان الغرض الأوّل من ابتداع هذه الصواريخ أن تحشى بالبريد وتنقله بسرعة بين أوروبا وأميركا فيكون تحليقها

فوق الاوقيانوس أعلى كثيرا من سكان الأرض حيث لاتلاقى أقلّ مقاومة من الهواء فتسير عندئذ بسرعة تتراوح بين الخمسة والعشرة أميال فى الثانية ، والصواريخ تدار بالراديو بحيث انه اذا حدث خطأ يمكن اصلاحه والصاروخ طائرة ، ويدير الصاروخ بواسطة الأجهزة اللاسلكية رجل يبقى على الأرض محدقا على الدوام فى لوح أمامه يريه طريق الصاروخ والمكان الذى وصل إليه من حيث المسافة والعلو ، فاذا أراد المدير تخفيض سرعة الصاروخ أومضاعفتها وضع يده على مفتاح معلوم فتنطبع بذلك على مولد القوة فى الصاروخ ارشادات المدير الذى على الأرض ، وتنجم عن ضغطها عليه مايراد من سرعة أو بطء ، أوتحوّل عن خطة السير ، وهذا من الامور التى يصعب تصديقها ، إلا أن مبتدعى الصواريخ يقولون انها فى منتهى السهولة ، وقد جرّبوها مرارا فى ألمانيا من بضعة أشهر ، فعند مايبتدئ الصاروخ من المكان الذى يقصده ، فاذا كان ذلك المكان [نيويورك] مثلا فانّ مديره فى لندن يضغط زرا فيؤثر بالراديو على لوحة الصاروخ فيفلت كيسا من البريد يهبط إلى الأرض فى شبه مظلة ، ومثل ذلك يفعل اذا أراد انزال الصاروخ فلاتمرّ أعوام معدودة حتى تضع على الكتاب الذى ترسله عبر الاوقيانوس طابعا خاصا ببريد الصاروخ فيصل بعد ساعة إلى صديقك فى أوروبا ، ولايبعد أن تبلغ هذه الصواريخ حدّا من الاتقان تصير معه صالحة لشحن البضائع وتكون نفقات ارسالها تافهة إلى الغاية ، ذلك لأن نفقة تسييرها معدومة تقريبا ، غيرأن التجاريب المحفوفة بالغموض التى تجرى اليوم فى روسيا وغيرها من البلدان تشير إلى وجه آخر يبعث على القلق ألاوهواستخدامها فى الحروب فلاريب فى أن صاروخ [التوربيد] سيكون من أعظم مدمرات العمران هولا ، فاذا عوّل البشر على استخدام هذه الآلة الجهنمية فى الحرب فلا يبقى لانسان مهرب ولاملجأ بل يهلك الناس بالالوف ، فهو يضرب بلا انذار ، ويحوّل أعظم العواصم إلى آكام من رماد فى بضع دقائق ، وفى أوروبا اليوم أناس يستطيعون اذا شاءوا توجيه واحد من هذه الصواريخ التوربيدية عبر الاوقيانوس إلى الولايات المتحدة فيحدث فيها من التدمير وإهلاك النفوس مالاتحدثه الحرب الطاحنة فى خلال أشهركاملة ، ومن المعلوم أنّ الطيارات الحربية مهماكثر عديدها لاتقوى على صدّ الصاروخ ، فهويخترقها بسهولة وبدون أن يصاب بأذى ، واذا وجه إلى الأساطيل الحربية فانه يفنيها قبل أن يتيسر لها الوقت للفرار ، ولكن الوجه الآخر لهذا الابتداع الجهنمى هو أنه قد يعمل على ابطال الحروب لأنه عند ماتبلغ حدّ الكمال تقتنى كل دولة منه عددا ، فاذا أرادت دولة بدولة أخرى شرا يكون إقدامها على ذلك من قبيل الانتحار ، وأين هى الدولة التى تسوّل لها النفس خوض غمرات عراك تكون نهايته خرابها المحتم ؟ ومن أجل هذا نقول : إن المساعى الكثيرة التى يبذلها دعاة السلام اليوم لانهاء الحروب سوف يكللها الصاروخ بالنجاح ، ولكن استخدام الصاروخ فى الحروب وفى نقل البريد ليس بالشىء الذى يذكر فى جنب مايتوقعه منه مبتدعوه وهوالقيام باكتشافات مهمة فى القبة السماوية كالذهاب إلى المريخ ، وهذا كان يعدّ حديث خرافة إلا أن ماأتمه العلم للآن وما قام به رجاله من التجارب بالصاروخ قد أدناه من الحقائق ، فالصاروخ الذى يوجه إلى المريخ يكون بشكل قنبلة كبيرة الحجم ، ويكون فيها من الخمسين إلى الستين مولدا للقوة يذهب فيها جماعة صغيرة من الرجال الشجعان محصورين فى مكان لايدخله الهواء ومعهم من ضروريات الحياة مايستطيعون معه اصطناعيا مدة ١٥٠ يوما وهى المدة اللازمة للوصول إلى المريخ والرجوع منه حسب تعديل الفلكيين ، ومن الطبيعى أن يزورالانسان المريخ قبل غيره من السيارات ، وذلك لوجود دلائل عديدة على أنه مأهول بجنس من المخلوقات التى تحاكى سكان الأرض ، و يعتقد العلماء أن ألمانيا ستكون السابقة إلى اتقان هذا السهم العجيب كما أنها ستكون السابقة فى كثير غيره ، فقد قرأت لمراسل جريدة أمبركان فى برلين أن كبار علمائهامنهمكون

فى درس القوى الكامنة فى الجواهر الفردة للاستفادة منها ، وهزنى الطرب عند ماقرأت أن عالما مصريا اسمه الدكتور [عدنان] يساعدهم فى ذلك اهـ مكاتب الاهرام بنيويورك

وبهذا تم الكلام على اللطيفة الأولى فى قوله تعالى : « ووضع الميزان » مع قوله : « مرج البحرين يلتقيان » الخ والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة الثانية : عجائب الحسبان فى سورة الرحمن

ابتدأ الله السورة بذكر أنه رحمن ، وأخذ يعد الرحمة مبتدئا بما هوأشرف وهوالعلم ، وأتبعها بخلق من يحمله وهوالانسان ، ثم أعقبهما بما يجمعهما معا وهوالتعليم ، لأنه لاتعليم إلا حيث يكون متعلم وعلم ، وههنا قص علينا مبدأ العلوم فى سياق حديث الشمس والقمر وأنهما بحساب ، وبنى على ذلك بناء شامخا ومجدا رفيعا من حيث انتظام أنواع النبات والشجر ، فلولا الحساب فى العلويات لم تنتظم السفليات ، وهنا أتى بما يجمع النظم فى السموات والأرض وهوالميزان السائد فى كل دقيق وجليل وعظيم وحقير ، ولكن مبدأ ذلك كله الحساب ، فلنبين فى هذه العجالة ما فتح الله به فى ليالى الأحد والاثنين والثلاثاء فى أواخر شهر مارس سنة ١٩٣١ م .

ذلك أن هذا الموضوع أخذ يهتاج قلبى ، ويثير شعورى ، ويحرك وجدانى ، اللهم إن أمر الحساب لعجب ! فنه الشفع والوتر ، وبهما أقسم الله فقال : « والشفع والوتر » أفليس من الغريب أن يقسم الله بأمور مكشوفة للعام والخاص والناس لايهتمون بها ، ولايولون وجوههم شطرها ، الشفع والوتر عند الجهلاء كأجسامهم ، وكالهواء والماء ، فهم غالبا لايذكرون نعمة الله فيهن ، الأعداد حاضرة عند نفوسنا تشاهدها عقولنا كما تشاهد عيوننا الضوء ، ولكن غلب على عقول بنى آدم أن الأعداد معدومة لاوجود لها ، فأما الضوء والشمس والقمر ، والجبل والجمل ، والبحر والبر ، فهن موجودات ، ذلك لما وقر فى نفوسنا أن ما تشاهده الحواس موجود ، ومالاتشاهده الحواس وجوده عدم .

لما وصلت إلى هذا المقام حضر صديقى العالم الذى اعتاد أن يناقشنى فى هذا التفسير . فقال : الشفع والوتر والوجود والعدم مادة الفلسفة ، القرآن واضح والتفسير قد طال فماذا تريد بهذه الكلمات ؟ فقلت له التفسير لم يطل ، ولقد استبان لك الآن أن القرآن إلى الآن لم يفسر حق تفسيره فأين تفسيره أيها الصديق ؟ فقال : الحمد لله قد فسره المفسرون رحمهم الله وفسرته أنت . فقلت : أما من جهتى أنا فانى أقول لك : ان ماخطر لى بحق وصدق فى تفسير هذه الخمسة الحروف حسبان يعوزه مجلد أومجلدان . فقال تريد بذلك علم الحساب ؟ قلت . كلا . فعلم الحساب شىء والحكمة المستنتجة منه شىء آخر ، وتلك الحكمة هى التى بها يعرف بعض سر القرآن ، فيالك الله يا أخى ، قل لى : أيبتدئ الله بالحساب فى أول النعم فى السورة التى وسمها بسورة الرحمن مصادفة ، أفلاتذكر ما جاء فى خطبة الصديق رضى الله عنه ، إذ استدل بتقديم المهاجرين على الأنصار فى القرآن على أن يكون الأمراء من المهاجرين والوزراء من الأنصار . قال بلى . قلت : ألم تقم بذلك دولة بنى أمية ودولة بنى العباس اللتان لم تكونا إلا من المهاجرين . قال بلى . قلت : فاذا كان عشرات الملوك والممالك قامت على مجرد أمر اعتبارى وهوالتقديم والتأخير فى كلمتين اثنتين ، فما الذى نفهمه الآن من تقديم الحساب على جل كثيرة فى سورة هى عنوان الرحمة ، ولقد أعظم الله أمر الحساب فقال : « إن الله سريع الحساب » ، وقال : « وأحصى كل شىء عددا » الخ فقال : حقا إن الأمر لعظيم ، ولكن أمر الحساب دقيق ، فنرجو أن تلخص حكما منه لتكون نبراسا ونورا بين قراء التفسير . فقلت :

(١) إن الواحد ليس قبله عدد .

(٢) وهو يعدّ جميع الأعداد بخلاف الاثنين فانه يعدّ نصفها وهكذا .

(٣) اذا زال الواحد زالت جميع الأعداد ، ولقد تزول الأعداد ولا يزول الواحد ، فهكذا :

(١) الله ليس قبله شيء .

(٢) وهو متصرّف فى كل موجود .

(٣) ولولا الله لم تكن هذه الموجودات ، واذا زالت الموجودات لم يزل الله .

فلما سمع صاحبى ذلك قال هـذا حسن ولـكنه من باب التشبيه : أى انك الآن ضربت لنا مثلا من العوالم المعقولة فى نفوسنا ، وهذه المعقولات نظمها الله فصارت ضرب مثل لنا .

ثم ماذا ؟ قلت : ان هذه الأعداد وحضورها فى أذهاننا أمرها عجب ! فقال حضورها فى أذهاننا عجب وأىّ عجب فى ذلك الحضور ؟ فقلت : إن وجودها حقيقى وثابت بخلاف ماتراه من الشمس والقمر والأرض والانسان . فقال : إذن أنت تعتبر العدد فى نفوسنا الذى وجوده ذهنى ثابت وحقّ ، فأما المحسوسات التى عشنا بها وملأ الله بها القرآن والحـكمة ليست ثابتة . فقلت نعم . فقال : إن عقلى لايحتمل فهم هذا . فقلت له : بِمَ ثبتت عندك الأرض والسماء ومابينهما ؟ قال بالحواس ، فنحن نراها ونلمسها الخ وهى باقية فالشمس والأرض والجبال بقيت ألوف السنين ، أوألوف الالوف ، والآباء والأجداد يرون ذلك ، فأما الأعداد فانما هى أمر ذهنى لاغير فوجودها عدم . فقلت : أفلاتعتبر العقل له ادراك كالحواس ؟ فقال : له ادراك أقوى من الحواس . فقلت : العـقل هوالذى يحفظ الأعداد و يتصوّرها كما ترى العين الضوء وتلمس اليد الحجر . فقال : ولـكن الحجر ثابت . فقلت العـدد أثبت من ثلاثة وجوه ، ألم تر أن حاسة البصر قـد تخطىء فترى الصغير كبيرا كالنار من بعد ليلا ، وبالعكس كالشمس لبعدها . قال بلى . قلت : حاسة الذوق فى المرضى تحس بالحلو مرّا . قال بلى . قلت : والناس يختلفون فى الجمال ، فـكل له فيه ذوق خاص . قال حقا ، قلت ونفس الجبال والبحار تتبدّل بعد مئات الألوف من السنين ، لأن الماء يفتت الصخور ، ويحمل الرمال ويقذفها فى البحر والجبال تربى هناك فى عصور وعصور ، ثم تأتى زلزلة فتظهر تلك الجبال التى كانت أجنة فى أرحام البحار . فقال حقا والله . فقلت : إذن المحسوسات يعتريها التغير من طريق نقص فى الحاسة ، أومن طريق اختلاف الأشخاص ، أومن طريق تغير المحسوس ، إذن هذه السموات وهذه الأرضون تختلف مناظرها من ثلاثة وجوه فهى إذن ليست ثابتة فوجودها أشبه بالعدم .

ثم قلت : ونضيف إلى ذلك أمرا رابعا ، وهو أن هذه العوالم المشاهدة ليست شيئا سوى نتائج حركات ظهرت لحواسنا فأدركتها بحسب ماظهر لها من عدد الحركات فى الثانية الواحـدة ، فان كانت الحركات فى الأثير فى الثانية الواحدة نحو ٦ آلاف مليون مليون مرّة فذلك هو أمثال الحديد والنحاس ، وان كان عدد الحركات أقلّ من ذلك بحيث يكون فى الثانية الواحدة من ٤٠٠ مليون مليون مرّة إلى ٧٠٠ مليون مليون مرّة فى الثانية الواحدة ، فذاك هو النور بألوانه السبعة ، فالأحمر أدناه والبنفسجى أعلاه ، ولاجرم أن هـذا الأمر الرابع يفيدنا أن هذه المحسوسات فى نفسها غير موجودة ، وانما هى تظهر لحواسنا بحسب عدد حركاتها فى الثانية متنوّعة المظاهر بتنوّع حركاتها لاغير ، فأين الوجود الحقيقى إذن لهذه الظواهر ؟ (اقرأ هذا المقال واضحا فى سورة «النور» عند آية : « الله نور السموات والأرض» إذن مايظنه الناس والحيوان موجودا وهو المشاهد ليس له حقيقة ، وما جهلته الحواس وأدركه العـقل أحقّ باسم الوجود كالأعداد وجميع الحقائق الثابتة ، فالأعداد لاتتغير فى العقول ، والشمس ستزول ، ولـكن العـدد هو هو ، فـكل عقل وجد تبدو له الأعداد كما بدت لنا ،

واذا اعترض على ذلك بأنه لم يوجد إلا فى ذهننا ، قلت وهل المحسوسات ظهرت إلا لحواسنا ؟ وهل هى شىء غير حركات خفية ظهرت لحواسنا على هـذه الأنماط ، فالاعتراض واحد على المحسوس والمعقول ، ولـكن يمتاز المعقول بأنه لايعتريه تغير فى نفسه ، ولا تغير باختلاف الأشخاص ، ولا باختلاف الأزمان ، إذن الحساب من الحقائق الثابتة ، فهو موجود ثابت دائم علمه الله فى الأزل ، وجعل العالم على منواله « وما خلقنا السموات والأرض ومابينهما إلا بالحق » فهذا من الحق الذى بنيت عليه السموات و لأرض ، الأعداد عوالم لاتحتاج إلى مادّة فى وجودها ، هكذا الأرواح عوالم مجرّدة مثلها ، فكلاهما كالأثير أصل لغيره ، وهو مخلوق ابتداء بلامادّة اشتق منها ، وهذا من بعض أسرار القرآن ، لأن الرحمة بالألف واللام أى كلها لاتتحقق إلابالدوام والدوام للحقائق الثابتة ومنها الحساب ، ولذلك قال : « الشمس والقمر بحسبان » وقل فى آية أخرى : « وما خلقنا السموات والأرض ومابينهما لاعبين ماخلقناهما إلا بالحق » وهل الحق إلا ما كان ثابتا والحساب ثابت ، فبنى الله العالم عليه وعلى غيره من الحقائق الثابتة فى علمه القديم . فقال : إن هذا القول إجمالى ، فأريد تفصيله ، فقلت لأفصله فى أربعة فصول :

(١) أوّلا : إن العدد منه ما يقبل القسمة مثل ٤ و ٦ ومنه مالايقبلها مثل ٥ و ٧ فان ٤ مضاربها ٢ و ٢ و ١ ، و ٦ مضاربها ٢ و ٣ ، و ١ وأما ٥ و ٧ فلا مضارب لهما ، وإنما يقسمان على نفسيهما وعلى الواحد لاغير ، فهذا عدد أوّلى أو أصمّ .

(٢) ثانيا : إن العدد فيه الكامل والناقص والزائد ، وفيه الأعداد المتحابة وغيرها من عجائب الحساب .

(٣) ثالثا : العدد فيه المتوالية العددية مثل ٢ - ٤ - ٦ وهكذا ، والمتوالية الهندسية مثل ٢ - ٤ - ٨ - ١٦ - ٣٢ وهكذا ، ومثل ٣ - ٦ - ١٢ - ٢٤ وهكذا .

(٤) رابعا : العـدد فيه الـكسر الدائر البسيط مثل ⅓ فانه يساوى ٣٣٣ر. فهذا كسر لاينتهى ، والـكسر الدائر المركب مثل ⅐ فانه يساوى ١٤٢٨٥٩ ١٤٢٨٥٩ ١٤٢٨٥٩ ١٤٢٨٥٩ر. فهذا الـكسر لاينتهى وهو مركب من ٦ أرقام ، وكسر ⅓ بسيط لأنه عدد واحد مكرر .

وهذه الصفات الأربع نراها جلية فى المعدودات المشاهدات [أوّلا] العدد الأصمّ وغير الأصمّ لهما نظير فى العوالم المشاهدة ، فانك ترى الماء والهواء كالعدد القابل للقسمة الصحيحة ، أما الحجر والحديد فهو كالعدد الذى لايقبل القسمة الصحيحة ، فقسمة ٤ على ٢ ليست كقسمة ١١ على أىّ عدد ماعدا نفسها والواحد

فقال صاحبي : أريد أن أعرف الأعداد الأوّلية معرفة اجمالية لأبنى عليها ذلك ؟ فقلت : انها فى الآحاد ٢ - ٣ - ٥ - ٧ وفى العشرات ١١ - ١٣ - ١٧ - ١٩ - ٢٣ - ٢٩ - ٣١ - ٣٧ - ٤١ - ٤٣ - ٤٧ - ٥٣ - ٥٩ - ٦١ - ٦٧ - ٧١ - ٧٣ - ٧٩ - ٨٣ - ٨٩ - ٩٧ فهى فى المائة الأولى (٢٥) عددا ، وفى المائة الثانية ٢١ أوّلها ١٠١ وآخرها ١٩٩ :

	الأعداد الصماء فيها	أوّلها	آخرها
المائة الثالثة	١٦	٢١١	٢٩٣
المائة الرابعة	١٦	٣٠٧	٣٩٧
المائة الخامسة	١٧	٤٠١	٤٩٩
المائة السادسة	١٤	٥٠٣	٥٩٩
المائة السابعة	١٦	٦٠١	٦٩١
المائة الثامنة	١٤	٧٠١	٧٩٧
المائة التاسعة	١٤	٨١١	٨٨٧
المائة العاشرة	١٤	٩٠٧	٩٩٧

وهكذا إلى ٩٩٠١ الذى ينتهى الى ٩٩٧٣ ، وفى هذه المائة الأخيرة ٩ أعداد لاغير ، وفى المائة قبلها ١٢ عددا ، وهكذا لاتجد مائة فى هذه المئات خالية من الأعداد الأوّلية :

(١) ولاجرم أن العوالم المشاهدة أكثرها أشبه بالأعداد التى تقبل القسمة ، وأقلها أشبه بالأعداد الأوّلية ، فضوء الشمس والقمر وعالم الأثير والهواء والماء أكثر جدّا من الأرض كما أن الأعداد التى تقبل القسمة أكثر من الأعداد الأوّلية .

(٢) ان كل مائة فيها أعداد أوّلية كما تقدم قد تكون ٩ وقد تكون ٢٥ وقد تكون عددا بينهما مثل ١٤ و ١٥ هكذا فى كل قرن أناس يظهرون فى الأمم لهم مبادئ وحكم جديدة لم تكن من قبل ، ونابغون فى الحرف والصناعات ، نسج الناس على منوالهم ولكن الأكثرون مقلدون ، فهم أشبه بأعداد ٤ و ٨ و ٩ و ١٢ وغيرها من كل عدد له مضاريب ترجع إلى أعداد أوّلية . فقال : أنا لم أفهم هذا ، فقلت :

(١) اعلم أننا نعدّ هكذا : ١ ٢ ٣ ٤ الخ أو ٢ - ٤ - ٦ - ٨ - ١٠ - ١٢ وهكذا ، أونقول : ٣ - ٦ - ٩ - ١٢ - ١٥ وهكذا . أونقول : ٥ - ١٠ - ١٥ - ٢٠ وهكذا : أى اننا نعدّ إما بالواحد واما بالاثنين واما بالثلاثة وهكذا ، فاذا وصلنا إلى عدد أوّلى من الأعداد الكبرى مثل : ١٠٠٩ و ١٠١٣ و ١٠١٩ و ١٠٢١ و ١٠٣١ وهكذا وأردنا أن نعدّ به فلابدّ أن نكرّره مرّة ومرّتين وثلاثا وهكذا كما نقول ١١ - ٢٢ - ٣٣ ، فهنا لابدّ لنا أن نعدّ فى تكراره ١ - ٢ - ٣ - ٤ وهكذا أى اننا مع كل عدد أوّلى بعد ألف أومائة ألف أوغيرها لابدّ أن نعدّ من أوّل واحد ونسير كطريقتنا الأولى ، ولاجرم أن هذا معناه أن النابغين فى كل قرن لابدّ أنهم يعرفون مافى التاريخ ، و يبنون مجدهم على مقتضاه بطريقتهم هم كما أن العدد الأصمّ يعدّ من الواحد وما بعده .

(٢) ثم اننا كما نحلل المركبات فى المعامل الكيمائية إلى عناصرها كتحليل الماء إلى اكسوجين وأودروجين هكذا نحلل الأعداد إلى عواملها الأوّلية ، فتحليل الأعداد فى نفوسنا له نظير فى الخارج وذلك فى المركبات مثل تحليل عدد ٤٧٢٥ فانا نقسمه على ٣ فيكون الخارج ١٥٧٥ وهذا نقسمه على ٣ فالخارج ٥٢٥ وهذا نقسمه على ٣ فالخارج ١٧٥ وهذا نقسمه على ٥ فالخارج ٧ وهذا نقسمه على ١ فالخارج ١ فيكون ٤٧٢٥ يساوى ٢٧ × ٢٥ × ٧ = يساوى ٤٧٢٥ وهذا كما نقول الماء حلل إلى ١٦ جزءا من الاكسوجين ، وجزءين من الاودروجين وزنا أيضا ، فالتحليل فى المادّة أظهر حقائقها فتصرّفنا فيها كما أظهر تحليل الحساب عوامله فتصرّفنا فيها وانتفعنا بها ، هذا هو الفصل الأوّل من الفصول الأربعة .

الفصل الثانى فى عجائب العدد الكامل والاعداد المتحابة وحساب الجذر والتربيع ونحوها

وفى هذا الفصل مسائل : المسألة الأولى

العدد اما كامل وهومايساوى جميع مضاريبه مثل عدد ٦ فانمضاريبه هى ١ - ٢ - ٣ ومجموعها ٦ وكذلك ٢٨ فان مضاريبه وهى ١ - ٢ - ٤ - ٧ - ١٤ يساوى ٢٨ فهوعدد كامل ، وان كانت المضاريب أقلّ منه فهوناقص مثل ١٠ فان عواملها ١ و ٢ و ٥ فهى ٨ فهذا عدد ناقص لنقص مجموع مضاريبه عنه ، وعدد ١٢ مضاريبه هى ٢ و ٦ و ٣ و ٤ و ١ المجموع ١٦ فهو عدد زائد وأكثر الأعداد ناقصة أو زائدة كما أن أكثر هذا النوع الانسانى غير معتدل ، والكامل قليل ، كما أن الكامل فى الانسان قليل ، فهو هكذا :

٦
٢٨
٤٩٦
٨١٢٨
١٣٠٨١٦
٢٠٩٦١٢٨
٣٣٥٥٠٣٣٦

وهكذا ، فترى أنه من عدد (١) إلى (١٠) لاعدد كامل إلا واحدا ، وكذلك من ١٠ إلى ١٠٠ وهكذا من ١٠٠ إلى ١٠٠٠ ومن ١٠٠٠ إلى ١٠٠٠٠ ولكنك فى هذا الجدول لاتجد فى الأعداد من ١٠٠٠٠ إلى ١٠٠٠٠٠ عددا واحدا كاملا ، وهكذا لاتجد فيه من مائة ألف إلى مليون إلاعددا واحدا كاملا ، أليس هذا يشابه العالم الخارجى ، فاننا نجد الراديوم قليلا والذهب والبلاتين وغيرهما كثيرة ، ونجد الأنبياء والحكماء قليلا .

موازنة بين العدد الكامل والاصم

العدد الأصم يكثر لأنه نظير ذوى الاختراع فى الصناعات والنبوغ فى مختلف الحرف ، أما العدد الكامل فهو أقرب فى ندرته إلى ندرة الأنبياء والحكماء والراديوم وهكذا .

المسألة الثانية

قد وجد العلماء أن عدد ١٢٠ يساوى نصف مجموع مضاريبه ، فهذا أشبه بكونه نصف الكامل ، والمضاريب هى : ١ - ٢ - ٣ - ٤ - ٥ - ٦ - ٨ - ١٠ - ١٢ - ١٥ - ٢٠ - ٢٤ - ٣٠ - ٤٠ - ٦٠ ومجموعها ٢٤٠ ونصفه ١٢٠ ، ومثله فى ذلك عدد ٦٧٢ فانه يساوى نصف مجموع الأعداد المتدخلة فيه وهو ١٣٤٤ ونصفه ٦٧٢

المسألة الثالثة

الأعداد المتحابة مثل عدد ٢٢٠ وعدد ٢٨٤ وسموهما متحابين لأنهم وجدوا أن كلا منهما مؤلف من مضاريب الآخر ، فان (٢٢٠) يساوى مضاريب (٢٨٤) وهى ١ - ٢ - ٤ - ٧١ - ١٤٢ ، و٢٨٤ يساوى مضاريب (٢٢٠) وهى ١ - ٢ - ٤ - ٥ - ١٠ - ١١ - ٢٠ - ٢٢ - ٤٤ - ٥٥ - ١١٠ إذن عندنا عدد لامضاريب له وهى الأعداد الأوّلية ، وعدد مضاريبه أكثر منه وهو العدد الزائد ، وعدد مضاريبه أقل منه وهو العدد الناقص ، وعدد يساوى هو نصف مضاريبه وقد تقدّم ، وعدد يساوى مضاريبه وهو الكامل ، وعدد يساوى مضاريب غيره وغيره يساوى مضاريبه وهما العددان المتحابان ، فهذه ستة أنواع .

فلما سمع ذلك صاحبى قال : ما أجل هذا العلم ، وما أبدع قوله تعالى : « الشمس والقمر بحسبان » ، والله إن شأن الحساب لعجب ! فقلت أيها الصديق : اذا سرك هذا فلأسمعك ماهو أعجب وأبهج وأبدع ، قال أحب ذلك ، فقلت : إن هذه الأعداد المتحابة أمكن العلماء البحث عنها واستخراجها . فقال وكيف ذلك ؟ فقلت : يجعلون عدد ٢ هو الأس . فقال ثم ماذا ؟ فقلت : ثم يأخذون ثلاثة أمثاله وستة أمثاله و٩ أمثاله فى مربع العدد وهو ٤ فيحصل عندهم هذه الأعداد بالتوالى ٦ - ١٢ - ٧٢ ، لأن ٢ فى ٩ يساوى ١٨ و١٨ بضربها فى ٤ يكون ٧٢ . فقال : هذا واضح ، ثم ماذا ؟ فقلت ينقصون من هذه الأعداد واحدا واحدا فتكون هكذا : ٥ - ١١ - ٧١ ، فاذا ضربنا ٥ فى ١١ وضربنا الناتج وهو

٥٥ فى ضعف عدد ٢ وهو ٤ كان الحاصل ٢٢٠ وهو أحد العددين المتحابين ، فأما العدد الآخر فكيفية إيجاده أن نضرب عدد ٧١ وهو العدد الثالث فى ضعف عدد ٢ وهو ٤ كما فعلنا فى العددين السابقين فيكون عندنا عدد ٢٨٤

فلخص ذلك أن عددين ضربا فى ضعف ٢ وعدد ٤ ضرب فيه أيضا ، وصار الأمر واضحا ، وأيضا أمكنهم استخراج الأعداد المتحابة من مكعب ٢ بالطريقة المتقدمة ، فيضربون مكعب ٢ وهو ٨ فى ٣ ثم فى ٦ ثم فى ٦٤ وهذا الأخير هو مربع ذلك المكعب الذى هو ٨ فيكون الحاصل بالتوالى ٢٤ و ٤٨ و ١١٥٢ فاذا نقصنا من كل واحد منها عدد ١ كان الباقى هكذا بالتوالى : ٢٣ - ٤٧ - ١١٥١ ، فاذا ضربنا ٢٣ فى ٤٧ وهما العددان الأوّلان ، ثم ضربنا حاصل الضرب فى ضعف المكعب المذكور وهو ٨ وهذا الضعف هو ١٦ فان حاصل الضرب يكون ١٧٫٢٥٦ فهذا عدد متحاب أوّل ، والعدد المتحابّ الثانى نفعل فيه مافعلنا هناك ، فنضرب ١١٥١ فى ١٦ أيضا فيكون الحاصل ذلك العدد ١٨٫٤١٦

وهذه القاعدة التى رأيتها أيها الذكىّ هنا يمكنك بها إيجاد أعداد متحابة لانهاية لها بجعلك قوّة عدد ٢ هى الأسّ ، فالعدد المتقدّم بقوّتها الثالثة أى بضربها فى نفسها ٣ مرّات ، فقوّتها الرابعة ، وقوّتها الخامسة وقوّتها السادسة : أى ضربها فى نفسها ٤ مرّات ، وضربها فى نفسها ٥ مرّات ، وضربها فى نفسها ٦ مرات وهكذا يمكنك بها أن تستخرج أعدادا متحابة إلى مالايتناهى على شريطة أن تحافظ على هذا النظام .

ثم قلت : ومن أبدع الحكم وأعجب العلم ما استنبطه العلماء غير ماتقدّم لايجاد قاعدة للأعداد المتحابة ذلك أنهم وضعوا صفا أفقيا مركبا من متوالية هندسية تصاعدية أسها ٢ وحدّها الأوّل ٢ أيضا هكذا : ٢ - ٤ - ٨ - ١٦ - ٣٢ - ٦٤ ثم يضعون تحت هذا الصف صفا آخر مركبا من هذا الصف مضروبا فى ثلاثة فيكون هكذا : ٦ - ١٢ - ٢٤ - ٤٨ - ٩٦ - ١٩٢ ويضعون فوق الصف الأوّل صفا تكون أعداده هى عين أعداده بشرط أن تنقص ١ فهى هكذا : ٥ - ١١ - ٢٣ - ٤٧ - ٩٥ - ١٩١ إذن تكون الصفوف هكذا :

٥	١١	٢٣	٤٧	٩٥	١٩١
٢	٤	٠٨	١٦	٣٢	٦٤
٦	١٢	٢٤	٤٨	٩٦	١٩٢
٠	٧١	٢٨٧	١١٥١	٤٦٠٧	١٨٤٣١

وهذا الصف الرابع إنما حدث بضرب ١٢ من الصف الثالث فى ٦ قبله فالحاصل ٧٢ وينقص ١ فيكون ٧١ وهكذا يصنعون فى الحد الثانى فيضربون الحد الثالث من الصف الثالث فى الحد الثانى منه أعنى ٢٤ فى ١٢ ويطرح من حاصل الضرب ١ وعلى هذه الكيفية يحصل الحدّ الثالث والرابع وهكذا .

وهذا الجدول تؤخذ منه الأعداد المتحابة ، أفلاتعجب أنك اذا أخذت ٧١ وهو الحدّ الأوّل من الصف الرابع وضربته فى ١١ وهو الحدّ المقابل له من الصف الأوّل فانك تحصل على عدد ٢٨٤ ولو ضربت عدد ١١ فى العدد الذى تحته وهو عدد ٤ لحصل عندك عدد ٤٤ فيضربه فى ٥ الذى على يمين ١١ يكون عندنا ٢٢٠ وهذان العددان هما العددان المتحابان المتقدّمان ، وبهذه الطريقة يمكن استخراج أعداد متحابة كما تريد بشرط أن تكون الأعداد المختارة بهذه الطريقة أعدادا أوّلية لاغير .

فلما سمع ذلك صاحبى قال : إن هذا الموضوع طال ، وكان الأولى أن تقف بنا عند القاعدة المتقدّمة

قبل

قبل هذا الجدول ، أما هذا الجدول فإن أعماله كثيرة ، وشروطه كثيرة ، وهو صعب على فهو على قرّاء هذا التفسير أصعب جدّا ، فما كان يليق ذكره فى تفسير آية : « الشمس والقمر بحسبان » . فقلت : أما هذه الصعوبة فأنا أعلمها وأنا أكتب هـذا قاصدا . فقال : لماذا ؟ قلت : لأن هنا عجبا عجابا ! فقال : وماهو ؟ قلت لسرّ مصون ، وجوهر مكنون : ✡ ومن خطب الحسناء لم يغلها مهر ✡

لاتحسب المجد تمرا أنت آكله ✡ لاتبلغ المجد حتى تلعق الصبرا

أيها الأخ الذكىّ : إن أمة الاسلام اليوم يجب أن نلتى إليها العلم لتفكر فى أمرها ، وتبحث فى الأرض وفى السماء ، أذكرك أيها الذكى بما مرّ فى ﴿ سورة الحجر ﴾ عند قوله تعالى : « وأنبتنا فيها من كل شىء موزون » . فقال أتذكر ذلك . فقلت : ماذا رأيت هناك ؟ فقال : رأيت هناك نظام النبات وهو مرسوم ، وهناك مناسبة عجيبة بين أوراق الأشجار (اقرأ هذا المقام وانظر صوره البديعة هناك إن شئت)

ثم قلت له : إن بين أوراق النباتات المختلفة مناسبات عددية ، ولكل صف علاقة مع بعض الصفوف الأخرى ، أليس هذا هو نفس الوزن ، وهذا الوزن اشتقّ منه الميزان المذكور فى هذه السورة ، فاذا سمعنا الله يقول هنا : « والنجم والشجر يسجدان ، والسماء رفعها ووضع الميزان ، ألا تطغوا فى الميزان ، وأقيموا الوزن بالقسط ولاتخسروا الميزان ، والأرض وضعها للأنام ، فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام ، والحب ذو العصف والريحان » فذلك كله بحساب موزون كوزن النبات . قال نعم . قلت : جلّ الله وجلّ العلم ، فاذا أنا أيها الأخ الذكىّ أتيت بالأعداد المتحابة ووضعت الجدول المذكور وهو الصعب فلم أضعه جزافا . كلا . إن المضطر يركب الصعب من الامور وهو عالم بركوبه ، فأنا الآن أريد أن أبين أن الحساب الذى فطرنا عليه وهو حقائق ثابتة لاتحويل لها ولاتغيير ، بل يستحيل تغييره قد قام عليه نظام العالم ، فكما وجدنا الأعداد المخبوءة فى نفوسنا ذات نظام ثابت ، هكذا وجدنا الأوراق فى الأشجار لها ذلك النظام الثابت ، ووجدنا لها جداول ذات ارتباط وانتظام كالانتظام الذى رأيناه فى نفوسنا عند دراسة الأعداد المتحابة .

فواحسرتاه على المسلمين أولا ، وعلى نوع الانسان ثانيا ، جهل هـذا الانسان نفسه ، وجهـل ربه ، يدرسون الحساب وأكثرهم يعيشون ويموتون وهم لايفكرون : « قتل الانسان ما أكفره » .

فياليت شعرى أيها الأخ الذكىّ كيف نرى نفوسنا مفطورة على الحساب والنظام البديع ، ثم نجد نفس ذلك النظام أومايشبهه فى نظام الكواكب ، ونظام النبات ، ونظام الحيوان .

الله أكبر : ان دراسة هذه العجائب هى السعادة ، أليست هذه هى الباب والسلم لمعرفة عجائب نفوسنا ، إن نفوسنا مفطورة على الحساب ، والحساب كامن فيها ، والحساب جميل بديع مشوّق لما فيه من البدائع والعجائب ، وهـذا الحساب الذى عرفنا طرفا منه ثابت فى علم الله عزّ وجل ، وقد بنى نظام الدنيا عليه ، وبهذا نفهم معنى : « الشمس والقمر بحسبان » ونعرف مثات الآيات من القرآن إذ يقول : « لكل أمة أجل » ويقول : « لايستقدمون ساعة ولايستأخرون » ويقول : « وكل شىء عنده بمقدار » ويقول : « إن ذلك فى كتاب إن ذلك على الله يسير » ومن هنا نشعر بمعنى القضاء والقدر ، ومن هنا نعرف كيف يكون تهذيب الأخلاق .

فقال : تهذيب الأخلاق ! لعلّ هذا خروج عن الموضوع ؟ فقلت هو فى نفس الموضوع ، بل هو تتميم له . فقال : إن الموضوع هو أن عجائب الحساب تعطينا نموذجا ضئيلا يعرّفنا نظام الله وقدره وعجائب صنعه ، وأن هذه العوالم منشآت على حساب فطرت عليه نفوسنا ، وهذه حقائق ثابتة ، والله يقول : « وماخلقنا السموات والأرض ومابينهما لاعبين ، ماخلقناهما إلا بالحق » وهكذا ، فبهذا عرفنا أن هذه العوالم بنيت على حقائق ونفوسنا تشعر بطرف من هذه الحقائق ، فأما الأخلاق فهى شىء آخر . فقلت : إن تمرين الطلاب

فى مدارس العالم قاطبة على مقدار تمرّنهم فى العلوم الطبيعية والعلوم الرياضية بحيث تصقل نفوسهم بحميد الصفات وجميل الأفعال ، لأن تلك النفوس تشعر بجمال ونظام ثابت فى هذه العوالم فيكسبها صفة الجمال والبهاء والعدل والنظام ، فيظهر ذلك فى أفعالها . فقال : هذا مقبول عقلا وتؤيده أفعال الانسان ، لأنى رأيت الحلاق حينما يأتى له صبىّ ليعلمه يأمره أن يقف زمنا وهو يشاهد مزاولة الحلاق ؛ فيكون ذلك أوّل باعث له على التقليد وسهولة العمل ، وللمشاهدة أثر فعال ، فهكذا مزاولة العلوم الطبيعية والرياضية ، ولكن أنا أريد نصا من القرآن على ماتقول ، لأننا الآن فى تفسيره ، ولن يعتقد المسلمون هذا القول إلا بنص من القرآن بشرط أن يكون فى هذه السورة . فقلت : إن النص فيها ، ألم يقل الله تعالى : « ووضع الميزان ألاتطغوا فى الميزان » يقول : نصبت الموازين فى سماواتى وفى أرضى ، وخلقتكم فيها لتشاهدوا أفعالى بالبحث والتنقيب ، فتقر فى ملكاتكم على النظام ، ومن أحبّ عملا أحبّ تقليده طبعا ، فيكون ذلك داعيا لكم أن تزنوا أعمالكم فلا افراط ولا تقصير . فقال : الحمد لله الذى علم الحكمة وهدى ، وسيكون لهذا القول مابعده ، وستكون فى الاسلام أمة لم يحلم بها التاريخ ، فان تفسير الآية اللفظى من غير تدقيق لايعطى كمال هذه المعانى التى تقلب عقول النوع الانسانى وتغيره من حال إلى حال .

انحطاط تعاليم الحساب فى بلاد الاسلام

وهل له نظير فى المشاهدات الحسية

وكيف عرف الاوروبيون أن الأخلاق تصقلها هذه العلوم ، واذا كانت أخلاق المتعلمين منهم شريفة فلماذا نراهم يتعلمون فى الشرق ؟

ولكنى أريد أن أسألك اذا أذنت لى فى بعض أمور مرتبة على هذا النظام الحسابى . فقلت : حبا وكرامة فقال : [أوّلا] انى وأنا مجاور بالجامع الأزهر كنت أطلع على بعض كتب نحو [شمس المعارف الكبرى] للبونى فأجده يذكر هذه الأعداد المتحابة ، ويقول : تمزج أعداد اسم الرجل بأعداد اسم المرأة الخ وله هناك دعوات وبخور وهكذا ، إن المطلع على هذه الكتب يظنّ أن هذا من الدين . فقلت : اعلم أن هذا الموضوع لايتمّ فهمه إلا بمثل وهو نهر النيل ، إن نهر النيل يستمدّ ماءه من المطر النازل من السماء ، وهذا المطر ينزل بعضه فيخزن ثلجا فوق الجبال العالية هناك ، وان كان ذلك فى خط الاستواء لشدة الارتفاع ، وبقية المطر ينزل بعضه فى باطن الأرض ، وبعضه يجرى على ظاهرها ، والذى يجرى على ظاهرها هو الذى ينزل فى البحيرات هناك ، ومنه يكون نهر النيل ، والثلج فوق الجبال يمدّ النهر طول السنة بما ينحل من مائه بحرارة الشمس ، فاذا مرّ الماء فى بلادنا إلى البحر الأبيض المتوسط سقى الزرع وأدرّ الضرع ، ولكن بعض الماء ينفرد ولايتصل بالنهر فيكون فى برك ومستنقعات ، فهو منفصل من النيل المتصل بالبحيرات والمطر والجبل ، وهذا الماء المنقطع هو من أفعال الله عزّ وجل ، ومعلوم أن الله هو الرحمن ، فرحمته تسرى فى كل شىء ، فهذه البرك والمستنقعات لايصلح ماؤها للشرب ، بل تكون ضارّة للانسان والحيوان ، فيخلق الله عزّ وجل فيها الناموس والذباب والحشرات ، ويعطيها من رحمته قوّة وسلاحا ، ويحفظ نسلها مهما حاربها الانسان وآذاها ، لأنه [أوّلا] يريد بقاء هذه الحيوانات وتكاثرها لأنها مخلوقاته [وثانيا] يجعلها مطهرات للجوّ [وثالثا] ليجعلها جنودا تقتل هذا الانسان الجاهل النظام حتى يرجع عن جهله .

اذا فهمت هذا أيها الأخ الذكىّ فاعلم أن الأمم جميعها فى أوّل أمرها تكون نشطة مفكرة ذكية ، فاذا حلّ بها الضعف ، وانتابها الخور ، فكت أوصال علومها ، وانحلت عراها ، واستعملت العلوم فى غير ماوضعت له ، وأصبحت تلك العلوم فيها أشبه بالناموس والذباب وبقية الحشرات فلاتزال تؤذى .

والحشرات

والحشرات مؤذيات ، ولله فيها أيضا رحمة ، فهو كما خلق الحشرات وجعل حياتها جارية على قوانين ، هكذا اذا جهلت الأمم أصول علومها تبعثرت تلك العلوم وتناثرت بعد أن كانت قلادة واحدة ، فترى علم الأعداد مستعملا فى غير ماوضع له بحيث نرى الأعداد المتحابة المتقدمة قد جعلت لامور صبيانية بعد أن كانت دراستها لمعرفة الحكمة ، ونظام الخليقة ، وحب صانع العالم ، والتمكن من العلوم ، لسعادة الحياة وارتقاء الانسانية ونرى علم النحو والصرف والمعانى والبيان والبديع لا تتجاوز معرفة ألفاظ القرآن فيضيع العمر فيها و يقف العقل عندها بعد أن كانت مقدمات لمعرفة أمثال هذه الأسرار ، ونرى علم الفقه وأصوله لايقصد إلا لمعرفة آراء الشافعى وأبى حنيفة أونحوهما مع بقاء عقل الطالب فى قيد ذلك الامام لايتجاوزه مع ان الاصول ماوضعت إلا للاجتهاد لا للاستعباد ، ثم ان القاضى يتولى القضاء لفرض التبسط فى الحياة ، وحوز الدرهم والدينار ، مع ان هذا ترف ، والترف أصل الشقاء فى هذه الحياة نفسها ، والقضاة فى زماننا هم الذين يطلبون القضاء لأجل المال ، ولأجل الترف والتنعم فى الحياة ، كل ذلك لأن هذه العلوم تقرأ والطالب ذاهل عن أصل وضع الدين ، لأن أصل الدين جاء ليجعل فى الناس طبقة تكون سياجا للأمة وقوادا لها ، والقواد يكونون أقرب إلى الزهد ، وهكذا الملوك والأمراء كلهم يحرصون على المال لأنفسهم لا للدولة ، وكل ذلك ناشىء من الجهل باصول الحياة و باصول الدين ، فانّ صاحب الشرع ﷺ لم يحز المال لنفسه بل للأمة ، وعمر رضى الله عنه كذلك و بقية الخلفاء ، فخلف من بعدهم خلف جعلوا الامارة مغنما ، فهؤلاء وهؤلاء أشبه بالحشرات العائشات فى البرك والمستنقعات ، والتشبيه صحيح لأن الذين يقرءون سورة يس لأجل جلب الرزق ، أوالذين يكتبون وفقا محسوبا بهيئة خاصة لأجل ذلك ، أوالذين يتولون القضاء أوالامارة وهم غافلون عن حقائق ماهم بصدده أوالذين يتولون الزعامة لاعطاء العهود ولكن قصدهم جمع المال فقط ، فهؤلاء وهؤلاء لافرق بينهم و بين الحشرات فى البرك وفى المستنقعات ، ومثلهم فى ذلك الذين يحسبون [بالزايرجة] فهؤلاء لهم حساب منظم نظاما بديعا ، وقد يكون وراء هذا الحساب اخبار ببعض الحقائق ، والأكثر منه يتخلف كما حققته أنا معهم ودرسته دراسة تامة ، وهكذا الذين يعرفون علم الرمل وأمثالهم ، ومثلهم من يحضر الأرواح لقصد المنافع الدنيوية ، فكل هؤلاء يجب الاستيقاظ لهم .

على قادة الأمة (وهل القادة إلا المفكرون الذين قرءوا علوما شتى ومنهم قرّاء هذا التفسير) أن يحذفوا من البلاد الاسلامية تلك الكتب التى فيها اليازرجة والرمل ، وأمثال كتب البونى ، فهذه مضعفات للعزائم ، فانّ الانسان يترك العمل و يتكل على الأمل ، وجميع ذلك يضرّ الأمم ضررا بليغا ، لأنّ الساحر وأمثاله يريدون أن يعيشوا على حساب الأمة ، وهذا هو الوبال والضلال ، بل يجب أن تحصى الأمة ولايترك أحد بغير صناعة ، فهذا هو الواجب الآن .

فقال صاحبى : لقد شفيت صدرى فى هذا السؤال فارجو الاجابة على السؤال الثانى . فقلت سل ماتشاء :

السؤال الثانى

إنّ هذا القول أحدث عندى اشكالا واشكالا وحيرة ، إنك أثبتّ من القرآن فى هذه السورة أنّ العلوم الرياضية والطبيعية تصقل العقول وتهذب الأخلاق : أى تساعد على ذلك ، ولكن يقتضى هذا [أمرين : الأوّل] ان أبا بكر وعمر رضى الله عنهما و بقية الخلفاء الراشدين كانوا على سداد فى آرائهم وفضل عظيم ، وقد أجمع الناقدون من الأمم المعاصرة لنا أنّ أبا بكر وعمر رضى الله عنهما كانا أذكى وأعدل من قيصر وكسرى فى زمانهما مع ان المدارس فى الفرس والرومان كانت مكتظة بالطلاب ، وهؤلاء الملوك تعلموا فيها ، فكيف وجدنا من لم يقرأ رياضيات ولاطبيعيات أعدل وأتمّ أخلاقا من القارئين المتعلمين [الأمر الثانى] أن بعض الاورو بيين الحاليين الذين يقرءون الرياضيات والطبيعيات هم شرّ خلق الله على الناس وعلى

أنفسهم . ثم أخذ يقول : وأىّ دليل أتمّ وبرهان أعظم على نقض هذه النظرية مما نراه من الموازنة بين أخلاق الاوروبيين الذين فى زماننا وهم بلامراء دارسون هذه العلوم ، وبين أخلاق الصحابة الذين لم يدرسوها أيام عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وسرد ماجاء فى الجزء الثانى من كتاب « حاضر العالم الاسلامى » من أن الأمم الاوروبية فى هذه الحرب الكبرى عاهدوا المسلمين ونقضوا العهود ، فهذه أمم ناكثة للعهد لا يوثق بها . ثم قال : أليس من أقبح الأخلاق نقض العهد ! أولم يقرأ هؤلاء هذه العلوم ؟ ثم لننظر ماجاء فى سيرة عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى كتاب « أشهر مشاهير الاسلام » فقد جاء فيه فى صفحة ٣٣١ تحت العنوان الآتى مانصه :

خبر جندى سابور ، وأمان عبد أمضاه جيش المسلمين

روى الطبرى أن أبا سبرة لما فرغ من السوس خرج فى جنده حتى نزل على جندى سابور ، وزر بن عبد الله بن كليب محاصرهم ، فأقاموا عليها يغادونهم ويراوحونهم القتال ، فلم يفجأهم يوما إلا وأبواب البلد تفتح ، ثم خرج الناس وخرج الأسواق وانبث أهلها ، فحار المسلمون من ذلك ، وأرسلوا فسألوهم أن مالكم قلوا رميتم إلينا بالأمان فقبلناه وأقررنا لكم بالجزاء على أن تمنعونا ، فقال المسلمون ما فعلنا ، فقال أهل جندى سابور ونحن ما كذبنا ، فسأل المسلمون فيما بينهم ، فاذا عبد يدعى [مكنفا] كان أصله منها هوالذى كتب لهم ، فقالوا انما هو عبد ، فقالوا إنا لا نعرف حركم من عبدكم قد جاءنا أمان فنحن عليه قد قبلناه ولم نبدّل فان شئتم فاغدروا ، فأمسكوا عنهم وكتبوا بذلك إلى عمر فكتب إليهم يقول : إن الله عظم الوفاء فلا تكونون أوفياء حتى تفوا ، مادمتم فى شك أجيزوهم وفوا لهم ، فوفوا لهم وانصرفوا عنهم اه

* * *

ولما أتمّ هذا المثال حدّق ببصره إلىّ وأخذ يقول : إن النظرية لاحظ لها من الحقيقة ، فهاهم أولاء القياصرة والأكاسرة قديما ، وهكذا ساسة أهل أوروبا حديثا سقطوا فى الميدان الأخلاقى وهم الدارسون لهذه العلوم ، والصحابة وعمر لم يخونوا العهد وصدقوا ماعاهدوا ، وأهل أوروبا اليوم ناكثوا العهود .

جواب هذين الاعتراضين

فقلت أيها الأخ الذكىّ : إن الأمم لها دوران : دور البداوة ، ودور الحضارة ، فهى فى دور البداوة تكون أقرب إلى الخير لأنها لاتزال على الفطرة ، ولا يعوزها إلا أمران : إزالة الخرافات فى العقائد ، وهدايتهم إلى الصراط المستقيم فى الأخلاق ، ومتى زال هذان العائقان انبعثت الفطرة إلى الأعمال الصالحة لأنه لا غشاوة تحجبها ، ولا غطاء ، ولا ران عليها ، وهذا جوابى على اعتراضك الأوّل ، فاذا رأيت أبا بكر وعمر وبقية الخلفاء أفضل من ملوك زمانهم ، فذلك ان هؤلاء الملوك قد حجبت عنهم فطرهم بالحضارة وغشاوات الزلات المنكرة الفاشية فى الأمم التى طال عليها العهد وقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون .

فأما الأمم فى دور الحضارة فان الشرور والشهوات والطمع والبغى تكزن حجابا على القلوب فلابدّ من دراسة العلوم الرياضية والطبيعية لتصقل النفس فتقرب من فطرتها ، وتحب الحقّ الذى درسته لأنه مخبوء فى النفس وظاهر فى الطبيعة ، ففى شهدته أخذت ترجع إلى فطرتها شيئا فشيئا ، وذلك من غير جدال شأن جميع الطبقة المتعلمة فى الأمم الراقية ، وهم بلاجدال حافظون لكيان دولهم ، وعندهم عدل بقدر امكانهم . فقال : ما دليلك على هذا ؟ قلت : دليلى اننا نرسل أبناءنا يتعلمون القوانين فى مدارسهم ، وأيضا ان الأمم التى تغير على بلادنا بقضها وقضيضها وتغلبنا ، لن يتمّ ذلك لها إلا بحفظ بلادها أوّلا ، لأن الأمم أشبه بالآلات

التى

التي تستخرج الماء من الأرض ، فكل صناعة وعلم جزء من تلك الآلة ، ومتى فسدت قطعة منها وقفت حركتها ، فاذا كنا نراهم على هذا النمط فمن المستحيل أن يكون القضاة مجبولين على الظلم والاختلال النظام وبقوا فى بلادهم جائرين .

فقال : هذا حق ، ولكنى أقول انهم يظلموننا نحن ، وقد وازنت بين إخلافهم وعدنا وبين وفاء الصحابة . فقلت : حقا إن هؤلاء القوم أخلفوا عهودهم معنا ، ولم تنفعهم ثقافتهم بالعلوم ، والصحابة كانوا أقرب إلى العدل مع الأمم منهم ، ذلك لأن هؤلاء أشبه برجل اتبع رأى الأطباء فى الطعام والشراب فأكل الفاكهة والخضر ولكنه ابتلى بشرب الخمر واتبع الشهوات ، فهؤلاء وان غذيت عقولهم بالعلوم الطبيعية والرياضية وصلحت كما تصلح الأجسام بالأغذية الصحية انتابتهم أمراض اجتماعية أفسدت فطرهم بالنسبة لأمم الشرق كما يفسد الجسم المعتدل بالأغذية الطبيعية اذا شرب الخمر أو أكثر من التبغ والقهوة والشاى والمخدرات الأخرى .

إن هذه الأمم يعطون تلاميذهم فى جامعاتهم وكلياتهم درسا خاصا بأمم الشرق فيقولون : إياكم أن تعاملوا هذه الشعوب معاملة الاوروبيين لأننا نريد أن نبقيهم على حال أدنى ليكونوا تحت طاعتنا خاضعين، وهذا جوابى عن اعتراضك الثانى ، ولافرق بين هؤلاء الاوروبيين الذين يذلون الأمم الشرقية وبين كثير من أسلافنا بعد عصر الخلافة الذين ظلموا الأمم وخربوا البلاد (اقرأه فى مقدمة ابن خلدون وارجع إليه فى سورة النمل عند آية : إنّ الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها ، الخ . فقال : شرحت صدرى شرح الله صدرك وبهذا تم الكلام على الاجابة على السؤال الثانى ، والحمد لله رب العالمين .

ملخص ماتقدم

هنالك أخذ صديقى العالم يحدثنى فى هذا الموضوع قائلا : إنى أخاف أن يكون هذا القول خارجا عن الموضوع ، نحن فى آية « الشمس والقمر بحسبان » وانى لما سمعت منك أن دراسة هذه العلوم تعلم العدل خرجت عن الموضوع بذكر السياسة بين الشرق والغرب ، وأردت بذلك اختبار طريقك ، هل مايقوله كثير من الناس حق بالنسبة لك من حيث انك دائما تخرج عن دائرة التفسير ؟ فقلت : إن ماتقوله كنت ألاحظه أثناء كلامك وأعلم انك تريد اخراجى من الموضوع استدراجا ، ولكنى أنا أعلم أن الكلام لم يخرج عن الموضوع فما رأيته أنت نقصا للاسلوب أراه أنا كمالا . فقال وكيف ذلك ؟ فقلت : اننا قلنا ان العوالم كلها مبنية على الحساب ، والحساب ثابت فى النفس ، والعالم على مقتضاه ، وقلنا ان الأعداد الأوّلية أقل من الأعداد التى تقبل القسمة ، وأن الأوّلية يعوزها بعض البحث ، والأعداد الكاملة تحتاج إلى بحث أتم ، والأعداد المتحابة العجيبة يعوزها تنقيب أكثر لجمالها ولقلتها وابداعها وعجائبها ، وأن هناك المتوالية الهندسية والعددية ، والجذر والتربيع ، والكسر الدائر وغير الدائر ، وأثبت أن هذه العلوم تصقل العقول ولها دخل فى تهذيب الأخلاق ، فلما اعترضت أنت على ذلك بأعمال الأكاسرة والقياصرة ، وبأعمال أهل أوروبا أجبتك بما أقنعك ، وبعد هذا وذاك أرى أن هذا كله فى تفسير الآية ، ألم تر رعاك الله أن الشمس والقمر مبنيان على الحساب . قال بلى . قلت : والزروع بأقسامها كلها مبنيات على حساب الشمس والقمر . فقال بلى . قلت : أليست هذه هى العلوم الطبيعية والرياضية ؟ قال بلى . قلت : أوليس قوله تعالى : « ووضع الميزان ألاتطغوا فى الميزان » راجع لعلم الأخلاق والسياسة معا لأن السياسة أخلاق أيضا فى ساحات أعم من الأخلاق الفردية . قال بلى وربى . قلت : إذن ما أوردته أنت لم يخرج بنا عن الموضوع بل هو اتمام له وأنت فى ذلك من المصلحين . قال الحمد لله والشكر له ، وبهذا تم الكلام على الفصل الثانى فى العدد الزائد

والناقص والأعداد المتحابة فلنبتدئ فى :

الفصل الثالث فى الجذر والتربيع
والمتوالية العددية والمتوالية والهندسية

ولا أريد أن أطيل الكلام على بقية المواضيع هنا ، فمن أراد فليراجع ما تقدم فى ﴿ سورة الذاريات ﴾ عند آية : « وفى أنفسكم أفلا تبصرون » فى المجلد الثالث والعشرين من هذا التفسير ، وإلى هنا تم الكلام على اللطيفة الثانية فى عجائب الحسبان فى سورة الرحمن ، والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة الثالثة

زيادة ايضاح قوله تعالى : يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان

اعلم أن اللآلئ على ثلاثة أنواع : طبيعية ، ومولده ، وصناعية ، وهذه سنتكلم عليها من [طريقين : الطريق الأول] تمييز كل منها ، و بيان نفعها المادى فى التجارة [الطريق الثانى] بيان جمالها العلمى فى الحكمة .

الكلام على الطريق الأول وهو تمييز أنواع اللآلئ الثلاثة

اللؤلؤ الطبيعى

لقد تقدم الكلام عليه فى [سورة الفاتحة] وهناك بيان أنه يخلق فى [المحار] الذى يعيش فى البحار ويتكون فى باطنه ، وهناك إيضاح كاف لحياة وأوصاف هذا المحار ، ونزيد عليه هنا أن نقول :

لقد اختلف العلماء فى سبب تكون اللؤلؤ فى جوف المحار ، فمن قائل : ان اللؤلؤ يتكون بسبب حيوان حلمى صغير يدخل جسم المحار فتجتمع حوله المادة اللؤلؤية لتقتله ، وقد بحث (هردمان) و (هورنل) فى لؤلؤ سيلان فقالا : ان فى قلب كل لؤلؤة بحثنا فيها نواة هى بزرة دودة من نوع الدود القرعى ، ووافقهما غيرهما على ذلك .

فهذان العالمان ومن وافقهما عينا نوع ذلك الداخل الغريب فى جوف [المحار] الذى اجتمعت حوله مادة اللؤلؤ .

وقال الدكتور [جايوس] قولا لا يخالف ما تقدم بل يوضحه فقط ، ذلك انه امتحن نوعا مخصوصا من محار اللؤلؤ فوجد انه تحل فيه الدودة الحلمية المعروفة بلفظ [جنوفالس] وهذه الدودة يحيط بها كيس من نسيج بشرة المحار الذى يفرز المادة الصدفية ، فاذا ماتت أوخرجت من الكيس أخذ الكيس يفرز المادة اللؤلؤية طبقات بعضها فوق بعض فيكون لؤلؤة ، ولا يتكون هذا الكيس حول جسم آخر اذا دخل أنسجة الحيوان سواء أكان هذا الجسم جمادا أوحيوانا حلميا غير [الجنوفالس] إذن هذه الدودة المخصوصة هى سبب تكون اللؤلؤ فى هـذا النوع من المحار ، أما غيره فانه يتكون بأى جسم غريب دخل المحار بدليل ماسيأتى فى اللؤلؤ الصناعى وانه يتكون بادخال أى جسم .

اللؤلؤ المولد

لما عرف الناس ما سبب تكون اللؤلؤ فى جوف المحار قالوا لماذا لا نربيه كما نربى الدجاج والسمك وسائر الحيوان ؟ فعمدوا إلى المحار ، وأدخلوا فى جوف كل واحدة منه [هنة صغيرة] كالهنة التى تدخل فى الهيئة الطبيعية فتكون اللؤلؤ ، ولكنه يحتاج إلى زمان طويل كالذى يقضيه فى اللؤلؤ الطبيعى ، فأخذوا يدخلون فى جوف المحار [هنة كبيرة] فهذه يتكون حولها اللؤلؤ سريعا على مقدار كبر حجمها ، وقد

كسب القوم بهـذا فى التجارة مالا كثيرا بسبب العلم ، ولولا العلم بسبب تـكوّن اللؤلؤ ما أمكنهم تربيته ولا تقصير زمنه ولا اكثاره ، ولايعرف اللؤلؤ الطبيعى من المولد إلا بأشعة [اكس] .

اللؤلؤ الصناعى أوالمقلد

جاء فى تاريخ اللؤلؤ أن رجلا فرنسيا سنة ١٦٥ م يسمى [جاكون] كان يغسل نوعا من السمك فى ماء عذب ، فرأى فى غسالته لمعانا كلمعان اللؤلؤ حين يجف ، فخطر له أن يطلى به خرزا من الزجاج بعـد مزجه بشىء من الشمع حتى يلصق بالزجاج ، ففعل وصنع أوّل لؤلؤة صناعية فى التاريخ ، فاشتهرت لآلئه وأقبلت عليها الغوانى فى ذلك العصر ، وصارت الدانيـة لاتحسب جواهرها كاملة ان لم يكن بينها عقد من هذا الخرز اللماع ، وقد أصبحت هذه صناعة فرنسية أشار لها العالم [زويدر] سنة ١٧١٦ ومصدر هذه المادّة نوع من السمك يسمى [البينوس لوسيدوس] وفى انـكلترا يستخرجونه من قشر سمك [الرنكه] الهرنغ ، فهذه الأسماك تغسل بالماء العذب غسلا لطيفا حتى تنظف من الملح والقذر ، ثم تحك الحراشف التى على بطنها بقفا سكين فترسب المادّة اللؤلؤية فى الماء ، واذا أريد حفظها فى الماء أضيف له شىء من [الامونيا] حتى لايتطرّق الفساد إليها سريعا ، وكيفية صنع الخرز الذى يطلى بهذه المادّة اللؤلؤية هو مايأتى :

(١) أن يؤتى بخرز فارغ من الداخل يستحضر بنفخ زجاج عادى غـير ملوّن فى قوالب صغيرة بحسب الحجم المطلوب .

(٢) أن يؤتى بكتل صلدة من الزجاج ، فالنوع الأوّل من الخرز الزجاجى يطلى من الداخل ، ثم يحشى بنوع من الشمع ملوّن أوغـير ملوّن ، أما النوع الثانى فيطلى من الخارج إذ لاجوف له يطلى ، وهـذا يفوق الأوّل فى مشاكلته للؤلؤ الحقيقى ، ولـكن طلاؤه معرّض للدثور بخلاف الأوّل ، وثمن العقد الواحد من هذا النوع من ريال إلى جنيه فقط . انتهى الـكلام على الطريق الأوّل وهو تمييز أنواع اللؤلؤ ، والحمد لله رب العالمين .

الطريق الثانى : بيان جمالها العلمى فى الحـكمة

هذا الطريق الثانى لايتسنى معرفته إلا بعد فهم الطريق الأوّل ، لذلك قدّمناه ، ان الله عزّوجل جعل هذه الدنيا ونظامها مرقاة للعقول الانسانية ترتقى بها إلى معارج الحـكمة ، فانظر إلى نظام اللؤلؤ ، وما اللؤلؤ إلا طبقات دقيقة (مبلوره) أى متشكلة بأشكال منتظمة من كربونات الجير ، ثم ان هذا الذى نشاهده من الألوان الزاهية على سطحها لم يكن شيئا سوى تـكسر أشعة النور على هذه الطبقات الدقيقة ، هذا هو اللؤلؤ وهذا هو السبب فى جماله ، وهنا يبتدىء العجب فى العلم فنقول :

اللؤلؤ إذن جير مع كربون : أى جير مع فحم ، مادّتان اتحدت إحداهما بالأخرى اتحادا خاصا بأجزاء محدودات ، امتصهما المحار من ماء البحر ، فالمحار هوالذى يتغذى بهذه الموادّ الجيرية والموادّ الفحمية وغيرها وهذا الغذاء يصطفى منه هاتان المادّتان : الجير والفحم ، ثم يصيران جسما متحدا واحدا ، وهذا الجسم يلمع لماذا يكون هـذا الجمال ؟ ذلك الجمال بسبب ضوء الشمس وغيره ، فضوء الشمس الآتى لنا من طبقات بعيدة يقع على هذا الجسم الجيرى الفحمى ، فيجد هناك ذرّات منظمة تحيط بهذا الجرم صالحة لأن تعكس عنها ذلك النورفيحصل تموّج باهر وجميـل ، فهـذا هو جمال اللؤلؤ ، هو ناشىء من تدبير فى باطن المحار ، وتدبير فى ضوء الشمس ، وتدبير فى هيئـة خلق اللؤلؤة ، فهناك مادّة من جير وفحم ، وهناك نظام الذرّات المنظم ، وهناك شعاع الأنوار كالشمس ، وهذا قوله تعالى : « إن ربى لطيف لما يشاء » فظهر هنا فى هذا كما فى غيره لطفه فى صنع اللؤلؤ ، إذ استخرجه من موادّ معروفة عندنا لابريق فيها ولالمعان ، فماهوالفحم ؟

إن هو إلا مادّة مظلمة نحرقها فنستدفئ بها ، وبها تجرى القطارات والسفن فى البحار ، وبها ندير آلاتنا ، ونصنع خبزنا ومايزيد من الأعمال ، ومنه اشتقت مئات الألوان فى الصباغة ، وهكذا كان الغاز الذى تضاء به شوارع المدن الكبار كالقاهرة والاسكندرية وغيرهما ، إن الفحم أو الكربون هو نفس الماس على شرط أن يكون نقيا وهو اللؤلؤ على شرط اتحاده مع الجير ، إن الله اشتق من هذه المادّة لؤلؤا وماسا كما اشتق العقل فى الانسان من المادّة الجامدة ، إن الفحم المظلم قد اشتقت منه الأنوار ، واشتق منه الجمال ، فالأنوار معروفة مشاهدة ، وهكذا أنواع ألوان الصباغة ، وأما الجمال فهو مانحن بصدده من اللآلئ الجميلة ، جعل الله الجمال هنا من مادّتين منبوذتين : الفحم والجير ليبين للناس أن كل ماحولكم فيه أسرار لانهاية لها بل كمن فى كل مخلوق جمال لايدركه الناس إلا بالعلم ، وأكثر هذا الانسان مغرورون محجوبون ، والعلم هو الذى يوقظهم لأمرين : رقىّ دنيوى ، ورقىّ نفسى ، أما الرقىّ الدنيوى فمثل ما ظهر فى هذا المقام من توليد اللؤلؤ وعدم الاكتفاء بما يكون من المحار بحسب طبعه كما قال تعالى : « يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان ، فبأىّ آلاء ربكما تكذبان » فجعل ذلك من الآلاء أى النعم ، وذكر لفظ ربّ وأضافه للمخاطبين فقال ربكما أيها الانسان ويأيها الجانّ ، وذلك ليدلنا على أمرين : تربيته هو سبحانه لهذا اللؤلؤ ، وتربيتنا نحن له ، وهو اللؤلؤ المولد فانّ الناس يربونه الآن ، ولعمرك ماذكره الله هنا وعبر بما فيه معنى التربية إلا ليوقظ المسلمين إلى أن فى ذلك علما تجب دراسته وجوبا كفائيا لرقىّ العقول ولرقىّ الصناعات بالتربية العملية من نوع الانسان لهذا اللؤلؤ ، وكرر الله لفظ « رب » وراء كل نعمة من النعم فى هذه السورة ايقاظا لنا أن نفكر فى تربية هذه العوالم كلها ونقف على الحقائق ، وهذا هو سرّ الفاتحة التى يقرؤها المسلم صباحا ومساء فيقول « الحمد لله رب العالمين » .

فسورة [الرحمن] التى جمعت ذكر المخلوقات فى الدنيا والمخلوقات فى الآخرة قد ناطت ذلك كله بالتربية وأفادت إيضاح [سورة الفاتحة] وبينت التربية وأنواعها إجمالا ، فلم تذر شمسا ولاقمرا ولانجما ولاشجرا ولاسماء ولاأرضا ولافاكهة ولانخلا ولاحبا ولاعصفا ولاانسا ولاجانا ولاشرقا ولاغربا ولابحرا ولابرزخا ولالؤلؤا ولامرجانا ولانارا ولانحاسا ولاسفينة فى بحر ولاجنة ولاحورا عينا ولاغيرها إلا ذكر بها معبرا عنه بالنعمة وبالتربية ذكرى للمسلمين بعدنا ، فسيقرءون هذا القول وأمثاله ، ويدخلون فى بحر لجىّ من العلم والحكمة وهم مجدّون .

من عجائب هذا المقام انك ترى أن أنواع اللؤلؤ لم تفارق البحر سواء أكان طبيعيا أم مولدا أم كان صناعيا ، ألم تر أن الصناعى إنما هو عبارة عما يكون من موادّ عالقة بحراشف السمك ، وهذه المادّة اللامعة يطلى بها الزجاج ، فالطبيعى من المحار ، والصناعى مما يرى على حراشف السمك ، وهذا يطلى به الزجاج إما من داخل وإما من خارج ، وماهو الزجاج ؟ إن هو إلا رمل متحد مع مغنيسيا وجير ، فرجع الأمر إلى أن الجمال من فحم وجير ورمل ، فأما المادّة التى تلمع على حراشف السمك فانما خلقت فيه لمنفعة نفسه ، ذلك انه ينعكس بسبب تلك المادّة بريق فضىّ وهاج عن بطنها ، فبذلك تختفى عن أعين أعدائها لما تلقى على أعين أولئك الأعداء من النور الذى يبهر أبصارها فلاتتمكن من رؤيتها فلاتقتنصها ، فتعجب من مادّة جاءت للسمكة وقاية من الأعداء ، وللغادات الحسان جذبا للأحباب والأصدقاء « فتبارك الله أحسن الخالقين » . « وفى الأرض آيات للموقنين » والى هنا تمّ الكلام على قوله تعالى : « يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان » وبهذا تمّ تفسير ﴿ سورة الرحمن ﴾ والحمد لله رب العالمين . كتب صباح يوم الأربعاء ١٧ من شهر أغسطس سنة ١٩٢٧ م

تفسير سورة الواقعة

هى مكية

إلا قوله تعالى : أفبهذا الحديث أنتم مدهنون ، وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون . فمدنية

آياتها ٩٦ — نزلت بعد طه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ * لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ * خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ * إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا * وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا * فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا * وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً * فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ * وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ * وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ * وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ * عَلَىٰ سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ * مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ * يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ * بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ * لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ * وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ * وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ * وَحُورٌ عِينٌ * كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ * جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا * إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا * وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ * فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ * وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ * وَظِلٍّ مَمْدُودٍ * وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ * وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ * لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ * وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ * إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً * فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا * عُرُبًا أَتْرَابًا * لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ * ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ * وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ * وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ * فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ * وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ * لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ * إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ * وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ * وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ * أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ * قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ *

لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ * ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ * لَآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ * فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ * فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ * فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ * هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ * نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ * أَفَرَءَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ * ءَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ * نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ * أَفَرَءَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ * ءَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ * لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ * إِنَّا لَمُغْرَمُونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ * أَفَرَءَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ * ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ * لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ * أَفَرَءَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ * ءَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ * نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِينَ * فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ * فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّهُ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ * لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ * تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ * وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ * فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ * وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ * وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ * فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ * تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ * وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ * فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ * فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ *

هذه السورة ثلاثة أقسام

القسم الأوّل فى تفسير البسملة .

القسم الثانى فى ذكر السابقين وأصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة وجزاءهم من أوّل السورة إلى قوله تعالى « هذا نزلهم يوم الدين » .

القسم الثالث فى ذكر العجائب الكونية والاستدلال بها على وجود الخالق سبحانه وتعالى وقدرته ، واختتام ذلك بملخص القسم الأوّل .

القسم الأول فى تفسير البسملة

أكتب هذا فى صباح يوم السبت ٢٠ أغسطس سنة ١٩٣٢ م ذاكرا ماشاهدته فى مساء يوم الثلاثاء الفائت ١٦ من هذا الشهر ، ذلك انى توجهت إلى مزرعتنا بجهة المرج بالقرب من القاهرة سيرا على قدمىّ كما ذكرت نظيره سابقا فى هذا التفسير ، لأن ذلك أقرب للصحة وأروح للبدن ، وكل مؤلف لايسير كل يوم أميالا على قدميه لاحظاله غالبا فى انتفاع الناس بمؤلفه لضعف النشاط فى روحه واعتلال صحته ، و بينما أناسائر إذ رأيت امرأة اعرابية ترعى غنمات وشابا معها يساعدها فى ذلك ، والمرأة لابسة أهداما قالصة تحمل مخلاة على ظهرها فخطرلى ما يأتى :

هذه المرأة فى نظر هذا الشاب أجل امرأة فى الدنيا وأشرف ، لأنهم يرون الفلاحين وأهل المدينة أدنى منهم منزلة وأقلّ سعادة ، ثم وازنت بين هذه المرأة وأختها التى تعيش فى القصور بمصر وهى جارتها ، وهذه الأخيرة لاترى لها سعادة إلا فى أن تكون مرفهة البال ، محجوبة فى القصر ، قد حرمت من الشمس وضحاها ، والقمر اذا تلاها ، وتمتعت بأنواع اللذات فى قصرها ، ولاعمل لها غالبا إلا أن تتزين صباحا ومساء واذا ذكرت لها هذه الاعرابية حقرتها وعدتها من سقط المتاع ، إذن السعادة فى هذه الحياة تابعة للعقيدة ، فالبدوية سعيدة بعقيدتها ، والحضرية سعيدة بعقيدتها وان كانت الأولى أقرب للحقيقة لصحة بدنها وارتياضها فى الهواء وضوء الشمس ، وههنا ظهرت لى هذه القاعدة : السعادة تتبع العقيدة ، فأهل كل دين فى الأرض يرون سعادتهم بدينهم سواء أعبدوا صنما أم فيلا أم شجرا أم حجرا ، وفى الآية : « وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثانا مودّة بينكم فى الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض و يلعن بعضكم بعضا ومأواكم النار ومالكم من ناصرين » فالناس جميعا يتبعون ما ألقى لهم من العقائد والآراء ، فأرباب كل حرفة سعداء بحرفتهم ، بل اللصوص يظنون أنفسهم فى بحبوحة السعادة والهناء .

اللهم إن رحمة كل حىّ فى الأرض رحمة جزئيـة ، وهذه الرحمات الجزئيـة بعالمنا تحيط بها الشموس والأقمار والكواكب ، تلك العوالم التى تدوم قرونا وقرونا . وعشرات آلاف آلاف السنين ، إذن هذه الرحمات الجزئية فوقها رحمة كلية كأنها دائمة ، تشرق الشمس وتغرب وهكذا القمر والنجوم ، جلّ الله ، جلّ الله ، عجب وعجب ! شروق وغروب للكواكب ، وحياة وموت لمن على الأرض وهم يسعدون سعادات جزئية سواء أكانت تلك السعادات ضالة خاطئة ، أم مهدية صالحة ، عبد الناس الشمس والقمر ، لماذا عبدوهما ؟ لدوامهما ، ومالادوام له لاسعادة فيه ، السعادة الوقتية كلاسعادة ، فليعش الناس فى الأرض وليموتوا وليتمتعوا وليأكلوا ولتأكل أنعامهم ثم ليموتوا ، فهذه سعادات جزئية ، بل الشمس والقمر والنجوم أيضا لادوام لهنّ فقد ثبت أنهنّ متغيرات ، وسيأتى يوم تبدّل فيه الأرض غير الأرض والسموات كما أثبت ذلك العلم الحديث

الله اكبر : إذن سعادة نفوسنا بعقائدها ، والعقائد المعرّضـة للتغير لاسعادة بها ، وأهل الأرض غير باقين ، والشموس والأقمار والكواكب ذاهبات من الوجود كأهل الأرضين ، إذن هذه أيضا رحمات جزئيات والرحمة الكلية مصدر تلك الرحمات ، إذن الرحمة على ثلاثة أقسام : رحمة جزئية سريعة التغير ، ورحمة جزئية بطيئة التغير ، ورحمة كلية هى مصدر الرحمتين السابقتين ولاتتغير ، ولقد أثبتنا أن السعادة تتبع العقيدة ، بل لادوام لحىّ من العقلاء إلابفكر يحتذيه ورأى يتبعه ، إن الآراء غذاء العقول كما ان الحبوب وأنواع النبات غذاء الأجسام ، وأكبر العقول من تتغذى بأجل العلوم وأبهاها وأدومها ، وهو ذلك المصدر الذى منه استمدّ ذلك الجمال والبهاء وأنواع الرحمات من شموس وأقمار وأغذية وفواكه وأنواع الحيوان والانسان ، يعبد

الناس ربهم و يظن جهالهم أن ذلك أشبه بما يفعله العبيد مع ساداتهم وهوخطأ فاضح ، إن الناس يغرمون باعظام الناس لهم ، ولكن الله هو الذى خلق الناس فلاوزن لهم عنده من هذا القبيل ، لأنهم لا عمل لهم إلا باعانته هو ، أما السيد والملك فعمل الناس ليس مستمدا منه ، فلذلك يفرح باعظامهم ، إذن قول الله تعالى « وماخلقت الجن والانس إلا ليعبدون » ليس يقصد منه إلا منفعة العابدين وارتقاؤهم ، وقد قدمنا أن السعادة على مقتضى العقائد والآراء ، فكلما ازداد الانسان عبادة أوعلما بهذه الدنيا وجمالها ازدادت النفس اطمئنانا وارتقاء وحكمة بمن هو باق ، ويتبع بقاءه بقاء الشمس والقمر وكل من على الأرض ، وعلى ذلك تبقى هذه النفوس إلى الأبد حية سعيدة لأنها تحيا وتبقى بحياة و بقاء من تفكر فيه بعبادة و بعلم ، إذن بقاء الناس بعدالموت سعداء لن يكون ولن يتم إلا بأن نفوسهم تمتلئ علما بمن هوأجل وأدوم وأرحم الأحياء وهوالذى أبدع هذا الجمال والبهاء والحسن والاشراق ، وهذا معنى [بسم الله الرحمن الرحيم] فى أول سورة [الواقعة] هنا .

فى سورة الواقعة قوم أشقياء وقوم سعداء بالنار وبالجنة ، وأعقب ذلك بعجب وأى عجب ! ذكر الماء والنار والنبات والانسان والمشرقات فى السموات ، فما على الأرض ليس له إلا السعادة الجزئية لقلة دوامه والمشرقات فى السموات أدوم وأبقى ، وقد ذكرت بعد ذلك فى السورة : « فلاأقسم بمواقع النجوم وانه لقسم لوتعلمون عظيم » ، إذن عظمة النجوم لاتعقل إلا بالعلم ، ذلك انها أدوم من الماء والنار والحيوان والنبات المتقدم فى السورة ، وختم السورة بالسعادة العليا وهو القسم الثالث من أقسام الرحمة ، وهى السعادة الدائمة فقال : « فسبح باسم ربك العظيم » فذكر التسبيح ، وذكر الرب ، وذكر العظمة ، التسبيح تنزيه عن كل مالا يليق لمقام القدس ، فاذاخلق الموت والحياة فى أهل الأرض ، واذا غير الشموس والأقمار فى السموات فذلك لأن العوالم لايتم نظامها إلا بهذه الدرجات ، فكل ألم وكل شر جزئى لم يكن إلا مقدمة للرحمة ، والرحمة الحقيقية امتلاء النفس بمعرفة الربوبية والعظمة الباقيتين : ولولا ذلك لم تخلق هذه النفوس فى الأرضين .

نفحة الرحمات

لما وصلت إلى الضيعة أخذت أطوف بين الحقول ، وأجلس تحت الأشجار ، خيل لى أن نغمات الأشجار الباسقات ، وحفيف الأوراق ، وغوير الأعشاب ، وتغريد الطيور ، وطنين الحشرات ، وهبوب النسمات فى البطاح ، وأن ضياء الشمس ونور القمر وتلألؤ الكواكب نهارا وليلا لم يخلقن إلا ليكن أعراسا لهذه الأرواح التى تزف الآن من عالم الحسرات إلى عالم الكمال والجمال ، فالنغمات المذكورات قائمات مقام الدفوف والمزامير فى الأعراس الأرضية ، والمشرقات فى السموات قائمات مقام المشاعل فى الأعراس ، بل أنا حينما جلست فى الحقل تخيلت أن نفسى هى التى تزف إلى ذلك العالم الجميل ، والمشرقات فى السماء تزين الموكب وكأن الرحمات العليا تحدثنى بهذه النغمات ، وتؤنسنى بحفيف الأشجار ، وبدائع الأزهار ، وتقول لى : هيا إلى العلا ، قم فبشر أهل الأرض بهذه البشارات ، إن فى الأرض نفوسا امتلأت بهذه المعانى وفهمت هذه الرحمات ، وهذه هى التى تزف إلى العوالم الجميلة ، وهذه الأرواح هى الخلائف فى الارض ، وهى التى تفهم آية : « وهوالذى جعلكم خلائف الارض ورفع بعضكم فوق بعض درجات » والى هنا تم الكلام على القسم الاول فى تفسير البسملة . كتب صباح يوم السبت فى التاريخ المذكور ، والحمد لله رب العالمين .

القسم الثاني

فى ذكر السابقين وأصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة وجزائهم

مقدمة فى مناسبة السورة لما قبلها

اعلم أن هـذه السورة بينها وبين [سورة الرحمن] مشابهة ، ففى هذه ذكر النعم فى القسم الثالث ، وهى خلق الانسان وخلق الزرع والماء والنار ، وفيه الاقسام بمواقع النجوم على عظمة القرآن ، وهذه كلها من آلاء الله كالمذكورة فى سورة الرحمن ، وفى القسم الثانى وصف الجنة والنار ، وذلك فى سورة الرحمن فبين السورتين تشابه ، وانما قدّم ذكر القيامة وأصحاب الجنة وأصحاب النار ووصف المقامين ليناسب آخر سورة الرحمن ، فان القسم الثالث منها فى وصف أهل النار وأهل الجنة والعـذاب والنعيم ، وقد وصف أهل الجنة لمناسبة ذكره فى آخر السورة : فكأن [سورة الواقعة] من حيث ترتيبها بعكس [سورة الرحمن] ابتداء وانتهاء ، ولنشرع فى التفسير اللفظى للقسم الثانى من السورة فنقول ومن الله التوفيق :

التفسير اللفظى

بسم الله الرحمن الرحيم

(اذا وقعت الواقعة) اذا قامت القيامة سميت واقعة لتحقق وقوعها (ليس لوقعتها كاذبة) أى نفس كاذبة ، فهى حين تقع لاتكون نفس تكذب على الله فتنكره ، ولاعلى القيامة فتنكرها ، لأنها تحققها بالوقوع والظهور والمعاينة والعذاب ، فأما فى الدنيا فما أكثر النفوس الكاذبة على الله بانكاره وانكارها لأنهم لم يعاينوا العذاب كما عاينه المعذبون ، هى (خافضة) لقوم (رافعة) لآخرين ، وأيضا تزيل الأجرام من أماكنها فتخفض وترفع ، وهذا بيان لعظمتها ، فان الوقائع العظام هذا شأنها (إذا رجت الأرض رجا) يقول تعالى هى خافضة رافعة وقت تحريك الأرض حركة شديدة وزلزلتها بحيث ينهدم مافوقها من بناء وجبل ، وقوله (وبست الجبال بسا) أى صارت كثيبا مهيلا وسيرت على وجه الأرض حتى ذهب بها ، يقال بسّ الغنم اذا ساقها (فكانت هباء منبثا) منتشرا (وكنتم أزواجا) أصنافا (ثلاثة) ومعلوم أن كل صنف يذكر أو يوجد مع صنف آخر يسمى زوجا كالعينين والرجلين واليدين والنعلين فكل منهما يسمى زوجا ، وهما معا زوجان ، فههنا أزواج ثلاثة ، لازوجان (فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة ، وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة) أى فأصحاب المنزلة السنية وأصحاب المنزلة الدنية ، لأن العرب كانوا يتيمنون بالميامن ويتشاءمون بالشمائل ، ويصح أن يقال أصحاب اليمن والشؤم ، وقوله : « ما أصحاب الخ » أى أىّ شىء هم ، وهو تعجيب من حالهم فى المقامين ارتفاعا وانحطاطا وهو مبتدأ وخبر أخبر بهما عن المبتدأ الأوّل فى المقامين (والسابقون) مبتدأ : أى السابقون إلى الخيرات فى الدنيا خبره (السابقون) إلى الجنات فى الآخرة (أولئك المقرّبون فى جنات النعيم) أى هم فى جنات النعيم (ثلة من الأوّلين وقليل من الآخرين) أى هـم ثلة ، والثلة الأمة الكثيرة : أى هم كثير من الأوّلين ، يعنى الأمم السالفة من آدم عليه السلام إلى نبينا محمد ﷺ (وقليل من الآخرين) أى أمة محمد ﷺ ولاينافى هذا ما ورد : « ان أمتى يكثرون سائر الأمم » فعسى أن يكون سابقو سائر الأمم أكثر من سابقى هذه الأمة ، ويكون أتباع هذه الأمة أكثر ، ويقول بعضهم : من الأوّلين متقدّمى هذه الأمة ، ومن الآخرين متأخريها ، لما روى مرفوعا أنهما من هذه الأمة . يقول الله : هم ثلة من الأوّلين وقليل من الآخرين كائنون (على سرر موضونة) منسوجة بالذهب مشبكة بالدر والياقوت (متكئين

عليها) على السرر (متقابلين) لا ينظر بعضهم فى قفا بعض ، فهم حسنو العشرة فى المجالسة ، لاسيما اذا صاروا أرواحا صافية ، فهناك صفاء العيش ، وذهاب الأخلاق المادّية من كل ما يوجب الافتراق أوغلبت الروحانية على الجسمانيـة (يطوف عليهم) للخدمة (ولدان مخلدون) مبقون أبدا على هيئـة الولدان وطراوتهم (بأكواب وأباريق) الأكواب جمع كوب ، وهى الأقداح المستديرة الأفواه لا آذان لها ولاعرى ، والأباريق جمع ابريق ، وهى ذوات الخراطيم والعرى (وكأس) وقدح فيه شراب ، فان لم يكن فيه شراب فليس بكأس (من معين) من خمر تجرى من العيون (لا يصدّعون عنها) أى لا يفرقون بسببها كما يحصل فى أهل الدنيا ، أولا يصـدر صداعهم بسببها كما فى خمر الدنيا فانها تصدع وتحدث الافتراق حال السكر والعربدة (ولا ينزفون) ولا يسكرون ، يقال نزف الرجل ذهب عقله بالسكر ، وقرئ بكسر الزاى أى لا ينفد شرابهم ، يقال أنزف القوم اذا فنى شرابهم (وفاكهة مما يتخيرون) يأخذون خيره وأفضله (ولحم طير مما يشتهون) يتمنون (وحور عين) جمع حوراء عيناء : أى ولهم حور عين ، أى بيض ضخام العيون ، أومعطوف على ولدان ، أى يطوف عليهم ولدان وحور (كأمثال اللؤلؤ المكنون) المصون عما يضرّ به فى الصفاء والنقاء ، يفعل ذلك كله بهم (جزاء بما كانوا يعملون) أى بأعمالهـم (لا يسمعون فيها لغوا) باطلا (ولا تأثيما) ولا نسبة إلى الإثم : أى لا يقال لهم أثمتم (إلا قيلا) أى إلا قولا ، ثم أبدل منه (سلاما سلاما) أى إلا قولا ذا سلامة ، وهذا استثناء منقطع أوسلاما مفعول بقيلا : أى لا يسمعون فيها إلا أن يقولوا سلاما سلاما : أى انهم يفشون السلام بينهم فيسلمون سلاما بعد سلام ، ويسلم الله عليهم ، والملائكة ، فهم آمنون من المكروه أبدا بخلاف أهل الدنيا إذ لاسلام فى الأرض ، فالأمم فى حرب ومكر دائما ، والأفراد يتعادون ، والله من فوقهم يرسل عليهم صواعق وأنواعا من المكروه ، أما فى الجنة فهذا كله لا وجود له ، فهم متحابون ، والله لا يرسل عليهم من المكروه ما نراه الآن فى الدنيا (وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين فى سدر مخضود) السدر شجر النبق ، والمخضود الذى لا شوك له كأنما خضد شوكه (وطلح منضود) الطلح شجر الموز ، والمنضود الذى نضد بالحمل من أسفله إلى أعلاه ، فليست له ساق بارزة (وظلّ ممدود) منبسط ممتدّ لا يتقلص ولا يتفاوت ، فهو أشـبه بظل ما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس (وماء مسكوب) مصبوب يسكب لهـم كما يشاءون بلا تعب ولا نصب ، فههنا أصحاب اليمين ونعيمهم التامّ هو أكمل ما يتصوّر لأهل البوادى ، ونعيم السابقين فى تمامه أشبه بأكمل ما يتصوّر لأهل المدن وذلك ليظهر التفاوت بين المقامين بما نراه نحن الآن فى أهـل الدنيا . قال تعالى (وفاكهة كثيرة) كثيرة الأجناس (لا مقطوعة) لا تنقطع فى وقت (ولا ممنوعة) ولا تمنع ممن يتناولها (وفرش مرفوعة) أى نساء مرتفعة على الأرائك (إنا أنشأناهنّ انشاء) أى ابتـدأناهنّ ابتداء جـديدا من غير ولادة ، وورد فى الحديث : « هنّ اللواتى قبضن فى دار الدنيا عجائز شمطا رمصا جعلهنّ الله بعد الكبر أترابا على ميلاد واحـد كلما أتاهنّ أزواجهنّ وجدوهنّ أبكارا » (فجعلناهنّ أبكارا) عذارى (عربا) جمع عروب ، وهى المتحببة إلى زوجها الحسنة التبعل (أترابا) مستويات فى السنّ بنات ثلاث وثلاثين سنة وأزواجهنّ كذلك فهؤلاء أنشأناهنّ (لأصحاب اليمين ، ثلة من الأوّلين ، وثلة من الآخرين) أى هم ثلة من المؤمنين الذين هم قبل هذه الأمة ، وثلة من الآخرين ، وهم مؤمنو هذه الأمة (وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال فى سموم وحميم) فى حرّ نار ينفـذ فى المسامّ ، وماء متناه فى الحرارة (وظلّ من يحموم) من دخان أسود فى جهنم (لا بارد ولا كريم) أى لا بارد الهواء ولا كريم المنظر ، فان فائدة الظلّ أمران : دفع الحرّ وحسن المنظر ، وهـذا الظلّ من دخان حارّ أسود ، فلا يأوى من أذى الحرّ ولا يسرّ النظر ، ثم بين سبب ذلك فقال (انهم كانوا قبـل ذلك) فى الدنيا (مترفين) منعمـين فشغلهم ذلك التنعم عن الاعتبار والادّكار كما فى آية أخرى :

« أذهبتم

« أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون » وهذا قاعدة عامة فى المتنعمين من المؤمنين والكافرين ، فالتنعم يصد الانسان عن تهذيب نفسه ، بل ان عاقبة التنعم فى هذه الدنيا الفقر والذلة كما يفعل بعض المسلمين ، إذ يتقربون من الفرنجة ويحاربون اخوانهم المسلمين طلبا لحطام الدنيا كما نسمع اليوم فى بعض بلاد الاسلام ذلك لأجل التنعم فهؤلاء جزاؤهم يبتدىء فى هذه الدنيا فيصيرون أذلاء هم وأعقابهم ، وهكذا المسرفون لأجل التنعم يصبحون أذلاء ، ثم قال تعالى : (وكانوا يصرّون على الحنث العظيم) أى الذنب العظيم ، وهو الشرك ، ومن هذا القبيل بلغ الغلام الحنث أى الحلم ، وهو وقت المؤاخذة بالذنب (وكانوا يقولون أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون أوآباؤنا الأوّلون) كررت الهمزة للدلالة على أن البعث يكون انكاره أشدّ اذا كنا ترابا وعظاما ، ويكون أكثر شدّة اذا تعلق بالآباء الأوّلين لتقادم عهدهم (قل إن الأوّلين والآخرين لمجموعون الى ميقات يوم معلوم) أى انهم يجتمعون ويحشرون ليوم الحساب (ثم إنكم أيها الضالون المكذبون) بالبعث ، والخطاب لأهل مكة ومن نحا نحوهم (لآكلون من شجر من زقوم) من الثانية للبيان ، والأولى للابتداء (فمالئون منها البطون) لشدة الجوع ، وشجرة الزقوم تنبت فى أصل الجحيم (فشاربون عليه من الحميم) لغلبة العطش (فشاربون شرب الهيم) أى الإبل التى أصابها الهيام ، وهو داء يشبه الاستسقاء جمع أهيم وهيماء كأحمر وحمراء (هذا نزلهم يوم الدين) أى ماذكر من الزقوم والحميم ما أعدّ لاكرامهم ، وهذا كقول عمرو بن كلثوم :

قريناكم فعجلنا قراكم ☆ قبيل الصبح مرداة طحونا

يكون ثفالها شرقى نجد ☆ ولهوتها قضاعة أجمعينا

يقول قريناكم وقت الفجر بصخرة تطحنكم : أى حاربناكم فغلبناكم ، وهذا هو اكرامكم باعتباركم جئتم ضيوفا فى ديارنا ، هكذا هنا أكرم الله هؤلاء بالزقوم والحميم . انتهى التفسير اللفظى للقسم الثانى من السورة ، والحمد لله رب العالمين .

القسم الثالث : فى ذكر العجائب الكونية

والاستدلال بها على وجود الخالق سبحانه وتعالى وقدرته

قال تعالى (نحن خلقناكم فلولا تصدّقون) أى فهلا تصدّقون بالبعث ومن قدر على الابتداء يقدر على الاعادة (أفرأيتم ماتمنون) ماتصبون فى الأرحام من النطف (أأنتم تخلقونه) تقدّرونه وتصوّرونه وتجعلونه بشرا سويا (أم نحن الخالقون ، نحن قدرنا بينكم الموت) أى جعلناكم فى الموت سواء شريفكم ووضيعكم ويكون قدّر بمعنى قضى ، أوقسمناه عليكم قسمة الأرزاق على اختلاف وتفاوت فاختلفت أعماركم من يوم إلى سنة إلى مائة ، أوأكثر أوأقل (ومانحن بمسبوقين على أن نبدّل أمثالكم) ومانحن بعاجزين عن أن نأتى بخلق مثلكم بدلا منكم فى أسرع حين (وننشئكم) ونخلقكم (فيما لاتعلمون) أى ننشئكم النشأة الثانية فى وقت لاتعلمونه ولاتعلمون كيفيته كما علمتم النشأة الأولى من جهة التناسل والقصد التحريض على العمل الصالح ، فان التبديل والانشاء أوّلهما بالموت ، وثانيهما بالبعث ، وكلاهما لايعلم وقته ، فلا الموت معلوم ولا البعث وقته محدّد ، فليتخذ الانسان عدّته قبل الموت (ولقد علمتم النشأة الأولى) الخلقة الأولى ولم تكونوا شيئا مذكورا (فلولا تذكرون) أن من قدر عليها قدر على النشأة الأخرى (أفرأيتم ماتحرثون) أى ماتثيرون من الأرض وتلقون فيه البذر (أأنتم تزرعونه) تنبتونه (أم نحن الزارعون) المنبتون (لونشاء لجعلناه حطاما) هشيما (فظلتم تفكهون) تتعجبون مما نزل فى زرعكم ، أوتندمون على اجتهادكم فيه

وقرئ فظللتم على الأصل ، وتقولون (إنا لمغرمون) والغرم ذهاب المال بغير عوض (بل نحن) قوم (محرومون) حرمنا رزقنا ، إذ حرمنا الذى كنا نطلبه من الريع فى الزرع (أفرأيتم الماء الذى تشربون ، أأنتم أنزلتموه من المزن) المزن السحاب واحده مزنة ، أوالمزن السحاب الأبيض وماؤه أعذب (أم نحن المنزلون) بقدرتنا ، والرؤية وهى بمعنى العلم قد علقت عن العمل بالاستفهام (لونشاء لجعلناه أجاجا) ملحا أومرًا لايقدر على شربه (فلولاتشكرون) فهلاتشكرون أمثال هـذه النعم (أفرأيتم النار التى تورون) تقدحون من الزند ، يعنى التى تقدح منها النار كما تقدّم فى ﴿سورة يس﴾ وهما شجرتان رطبتان : المرخ والعفار ، فأحدهما يعتبر زندا ، والثانى يعتبر زندة ، والماء يقطر منهما ، والنار عند القدح تخرج بينهما ، وليست النارخاصة بهما بل هما ممتازتان ، فقد قالوا فى كل شجر نار واستمجد المرخ والعفار (أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون) الشجرة التى منها الزناد ، أونار الدنيا فانها تذكره بنار جهنم . عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ناركم هذه التى توقدون جزء من سبعين جزءا من نار جهنم ، وقد مضى أن هذا يوافق الكشف الحديث فى ﴿ سورة آل عمران ﴾ محققا هناك (نحن جعلناها) جعلنا نار الزناد (تذكرة) تبصرة فى أمر البعث وفى الظلام ونموذجا لنار جهـنم (ومتاعا) ومنفعة (للمقوين) الذين ينزلون القواء وهو القفر ، أوالذين خلت بطونهم أومزاودهم من الطعام ، يقال : أقوت الدار اذا خلت من ساكنها ، فهؤلاء المقوون جعلت النار لهـم لانضاج طعامهم فيصلح لأكلهم (فسبح باسم ربك العظيم) أى قل سبحان ربى العظيم ، ولما نزل قال ﷺ اجعلوها فى ركوعكم (فلاأقسم) يقول تعالى : أنالاأقسم لأن الأمر واضح فلاحاجة للقسم ، أوفأقسم ولامزيدة للتأكيـد ، وكلا الوجهين دالّ على شرف النجوم ومواقع النجوم ، وأن الناس ينبغى أن يفكروا فيها ويعتبروا بها ، وقوله (بمواقع النجوم) أى بمساقطها فى مغاربها أومنازلها ، ولما كان أمر النجوم فى مواقعها عظيما شأنه أعقب ماتقدم بجملة معترضة فى أخرى معترضة بين القسم والمقسم به إشعارا بعظمتها وآثارها النافعـة فقال (وانه لقسم لوتعلمون عظيم) وقوله : (إنه لقرآن كريم) حسن مرضىّ نفاع جمّ المنافع (فى كتاب مكنون) الكتاب اللوح المحفوظ ، والمكنون المصون فلايطلع عليه إلا المقرّبون ، فقوله (لايمسه إلا المطهرون) بيان لكونه مكنونا فلايطلع على اللوح المحفوظ إلا المطهرون من المادّة التى تعوق عن إدراك الحقائق ، ولا يكون ذلك إلا فى الملائكة ، وان جعل الكتاب هو القرآن كانت صيانته ألايأتيه الباطل ولايطلبه إلاالمطهرون من الكفر ، وقوله (تنزيل من رب العالمين) أى منزل منه وهوصفة رابعة للقرآن (أفبهذا الحديث) القرآن (أنتم مدهنون) متهاونون ، يقال أدهن فى الأمر ألان جانبه فيه ولم يتصلب تهاونا به (وتجعلون رزقكم) أى شكر رزقكم (أنكم تكذبون) بمن منحه فتنسبون الرزق للأنواء فتقولون مطرنا بنوء كذا ، أوتجعلون حظكم ونصيبكم من القرآن أنكم تكذبون (فلولا اذا بلغت الحلقوم ، وأنتم حينئذ تنظرون ، ونحن أقرب إليه منكم ولكن لاتبصرون ، فلولا ان كنتم غير مدينين ترجعونها إن كنتم صادقين) لولا للتحضيض فى الآيتين ، والفعل الذى يستلزمه التحضيض هوترجعونها ، ولولا الثانيـة مكرّرة للأولى للتأكيد ، ومدينين مجزيين يوم القيامة ، أومملوكين مقهورين ، يقال دانه اذ أذله واستعبده ، يقول الله لأهل الميت : هلاترجعون نفس ميتكم اذا بلغت الحلقوم وهو يعالج سكرات الموت ان كنتم غـير مملوكين والحال أننا نحن أقرب إليه منكم بقدرتنا وعلمنا وبملائكتنا وأنتم تنظرون الى المحتضر ولكن لاتعلمون ذلك ، أولاتبصرون الذين حضروه من الملائكة ، والمعنى انكم أيها الناس شأنكم عجب ! جحدتم آيات الله ، وكذبتم رسله ، وكتابه ، وقلتم هوسحر وافتراء ، وجعلتم رزقكم من الأنواء ، فلخص حالكم أنه لاخالق ولارازق ، واذا كان الفعل لابدّ له من فاعل ، وقد نفيتم الله وكذبتم

رسله

رسله ، فاذن الفاعل لهذا كله أنتم لأن الخالق إما الله واما أنتم ، فاذا نفيتم الله فأنتم الخالقون ، إذن فلماذا لاترجعون الروح لميتكم وهو يعالج سكرات الموت فان كنتم صادقين فارجعوها ! الحق انكم لاتعقلون بالبرهان فلما لم تروا الفاعل كذبتم به ، وهذه صفة الحيوان والجهال ، إذ للدليل علوم فليس عدم رؤية الشيء دليلا على عدمه (فأما ان كان) المتوفى (من المقربين فروح) فله استراحة وفرح ورحمة (وريحان) ورزق طيب (وجنة نعيم) ذات تنعم (وأما إن كان من أصحاب اليمين فسلام لك) ياصاحب اليمين (من أصحاب اليمين) أى من اخوانك يسلمون عليك : أى فيقال له ذلك ، أوفسلام لك يامحمد : أى سلامة منهم ، أى فلاتهتم لهم فانهم سلموا من عذاب الله (وأما ان كان من المكذبين) بالبعث (الضالين) عن الهدى وهم أصحاب الشمال (فنزل من حميم وتصلية جحيم) إذ يجد فى القبر سموم النار ودخانها ، وهوالذى جعل نزلا لمقدمه كما يجعل للضيف كما تقدم على سبيل الاهانة ، والتصلية الادخال (ان هذا) الذى ذكر فى السورة (لهو حق اليقين) أى حق الخبر اليقين الذى لاشك فيه (فسبح باسم ربك العظيم) أى فنزه ربك العظيم عن كل مالايليق به ، أوفصل بذكر ربك العظيم و بأمره ، وكان ﷺ يقول فى ركوعه : « سبحان ربى العظيم » وفى سجوده « سبحان ربى الأعلى » انتهى التفسير اللفظى للقسم الثالث من السورة ، والحمد لله رب العالمين .

لطائف هذه السورة (١)

فى هذه السورة لطيفتان

اللطيفة الأولى فى آية : « انهم كانوا قبل ذلك مترفين » وهى رسالة أرسلتها إلى بلاد المغرب الأقصى يوم الأربعاء ٢٣ مارس سنة ١٩٣٢ م ثم نشرت هناك .

اللطيفة الثانية فى قوله تعالى : « نحن قدرنا بينكم الموت » .

اللطيفة الأولى فى قوله تعالى : انهم كانوا قبل ذلك مترفين

تحذير المسلمين من الخطر فيما يشربون

أيها المسلمون : أحذركم من كل مايعطيكم لذة وقتية ، ويعقبه انحلال فى القوى وضررعظيم . أيها المسلمون أنا لا أقول لكم دعوا الخمر فانها محرمة فانكم بذلك عالمون ، ولكنى أقول لكم فوق ذلك انها جعلت فخا لاصطياد أمم الاسلام واهلاكهم واذلالهم وانهاك قواهم فيصبحون صرعى الأوهام فى ديارهم خامدين .

أنا لا أقول لكم ان أمريكا المسيحية حرمت الخمر حفظا لأهل بلادها من عاديات الدهر ومصائب المرض وخلل العقول وضعف الأجسام ، أنا لا أقول ذلك لكم لأنكم به عالمون ، فاذا كنتم تعلمون ذلك فاعلموا أنكم أولى بذلك المنع ، لأنكم أولا مسلمون ، ولأن كثيرا منكم تحت دول مستعمرة تنتهز الفرص لاذلال المحكومين .

وهل أتاكم نبأ أهل الأندلس قديما ؟ وقد يئس بابا روما ودوق فينيزيا و بارونات أوروبا من اخضاع الأمة العربية إذ ذاك ، وكيف أشار عليهم [براق بن عمار] بأن يعقدوا معاهدة لحرية التجارة والتعليم والدين حتى يتاح لشبانهم شرب الخمر والتمتع بلذات الحياة . فتقل الحمية والنخوة والمروءة ، وبذلك يخضعون ثم يطردون ، وما وصلت تلك المعاهدة إلى مالك بن عباد بقرطبة وقد فرغ من تحصين مدائنه وقلاعه حتى

(١) يقول المؤلف : هذه اللطائف لم يكن لها وجود عند التأليف ولم يفتح الله بها إلا عند تقديم هذه السورة للطبع .

أرسلها للأمراء فأقرّوها ، ولم يكد يجفّ مدادها حتى أسسوا أربع مدارس كبرى على نفقة [دوق فينيزيا] وصار عدد المبشرين بالأندلس ألفا ، وعدد المعلمين بالمدارس التى أنفق عليها البابا ٤٥ وأنفق البابا من خزانته لترويج الخمر خمسمائة ألف [فلورين] (راجع كتاب غادة الأندلس) .

(١) هنالك شرب الشبان الخمر جهارا نهارا .

(٢) وخلعوا رداء الحياء والحشمة .

(٣) وحقروا عوائد آبائهم ودولهم .

(٤) ولبسوا الحرير ونبذوا الصوف والشعر .

(٥) وأهملت تعاليم البلاد .

وكانت نتيجة ذلك ماتعرفون أيها الشبان مما فعله فرديناند وزوجته ايزابلا ، وهو طرد العرب من تلك البلاد أجمعين أكتعين ابصعين .

أيها المسلمون : حذار أن تظنوا أن الرواية تمت فصولها ، إن للرواية لذيولا ، أتحبون أن أحدثكم بشأنها ؟ اصغوا الىّ واسمعوا : تعلمون أن فى بعض الروايات أن النبىّ ﷺ أنذر المسلمين وحذرهم من المسيح الدجال ، وجاء فيها أن معه جنة ومعه نارا ، وأن من اغترّ بجنته دخل النار ، ومن اصطلى بناره دخل الجنة ، وأنا أقول رافعا صوتى لكم ، أيها المسلمون الفضلاء : إن هذه الروايات لها آثار فى زماننا وأسرار فى أحوالنا الحاضرة ، وذلك أن كل أمة فعلت فى المسلمين مافعله [بابا رومه] و [دوق فينيزيا] و [بارونات أوروبا] من بث الفجور والفسق والخلاعة بين المسلمين لاذلالهم واضعافهم ، فهو من أنصار ومن أصحاب ومن أشباه المسيح الدجال ، فهو يعطينا الخمر لنسكر ثم يدخلنا تحت سيطرته فنصطلى ناره ، نعم هذه الأمم ليست هى نفس المسيح الدجال ولكن الفعل هو نفس الفعل ، فكل من أظهر لنا المودّة وأراد اذلالنا فهو لايشبه المسيح الصادق بل هو المسيح الكذاب الدجال .

فلتحترسوا أيها المسلمون من كل مطعم أومشرب أوملبس يغركم بهجته ولذته تكون عاقبته الدمار والهلاك والعار والبوار .

أليس مما يؤلم النفوس أن نقرأ فى التاريخ المتقدّم أن قسيسا اشترى عنب قرطبة كله ، وعصره عنبا ، وقال : لا أعطيه إلا لأحبابى الشبان المسلمين ، فخدع الأمة وأهل البلاد غافلون نائمون لايعقلون ولا يفهمون فطاحوا أجمعين .

أوليس من العجب أن نقرأ فى كتاب [الكونت هنرى دى كاسترى] الضابط العظيم الفرنسى فى بلاد الجزائر المسمى [خواطر وسوانح فى الاسلام] مانصه بالحرف الواحد فى النسخة المترجمة صفحة ١١١

« أما انقراض الأهالى شيئا فشيئا كلما دخل التمدّن الاوروبى بلادهم (الجزائر) فنحن لانصدّقه إلا قليلا ، لأن احتكاكهم بالمتمدنين ربما قلل من وسائل العيش لديهم ولكنه لايؤثر فى وجودهم ، بل هم لايزالون يتناسلون أكثر من الاوروبيين ، ونضيف على ذلك أن المسكرات التى استعملها الاوروبيون للتعجيل على وجود بعض الأمم المغايرة لهم لاتؤثر عند أهالى الجزائر لكونهم يمقتونها مقتا شديدا » انتهى بالحرف الواحد

أيعجبكم هذا أيها المسلمون ؟ أيعجبكم أن تكون الدروس بالأندلس لاتزال تتلى إلى اليوم ، وأن الخمر ونشرها فى البلاد يراد بها القضاء على أبنائكم وخراب البلاد ، أفليس هذا كلام رجل من أعاظم الفرنسيين يقول لقومه : « الخمر والنعيم لم يقللا نسل المسلمين فلننظر طريقا آخر للعيش معهم » أليس الدرس مستمرا ورواية الأندلس تمثل والمسلمون نائمون هائمون ، أتدرون ماذا حصل بعد ذلك أيها المسلمون ؟ لعبت الدول

المستعمرة

المستعمرة دورا آخر فى إبادة المسلمين ، وعرفوا أن الخمرة اذا نجحت فى بلاد لاتبالى بالعقل ولا بالدين ، فانها لاتؤثر فى الأمم التى لاتزال ذات مجد أثيل ، وشرف وفضل مبين ، كالمراكشيين .

ماذا دهى اخواننا المراكشيين ؟ انتشر الشاى بينهم ، والشاى لابدّ معه من السكر ، والسكر يباع بأغلى الأثمان .

رحماك اللهم ، رحماك اللهم ، إن أمر الشاى أشدّ خطرا ، وأبعد أثرا ، لأنّ الشاى لاتظنّ فيه الظنون ولم تذمه الديانات ، ولا الشرائع ، ولا القوانين .

أيها المسلمون : هل تسمعون ما أقول لكم واحسرتاه قد قرأت فى كتاب اسمه [كتاب اليد فى الصحة والعلاج] للاستاذ [كيلوج] الأمريكى الذى نشره قبل تحريم الخمر بعشرين سنة ، فرأيته رتب المضار أربع رتب : الخمر ، ثم الدخان والشاى ، ثم القهوة ، ثم الكاكاو ، فجعل الخمر أشدّ ضررا ، ويليها الدخان والشاى وأتى ببراهين كثيرة ، وأتذكر منها انهم أتوا بورق الشاى فأكله حصان فمات ، فعدّوه إذن سما بطيئا ، وهناك تجارب لامحل لذكرها الآن ، وانما الذى أريد أن أقوله الآن أن السكر الذى يشرب مع الشاى قد عدّوه من الأغذية المميتة ، إن أكل الفواكه ومافيها من السكر الطبيعى نافع وجيد للصحة ، ولكن السكر الصناعى مفسد للأجسام ومنهكها ، وان كان فى أوّل الأمر يعطى قوّة ، وتظهر الصحة على وجوه الشيوخ والشبان والأطفال ، أنا لست طبيبا فعلىّ أن أنقل لكم من كلام أطباء أوروبا مابه تقتنعون ، جاء فى كتاب [دستور التغذية] لصديقنا الاستاذ محمد فريد وجدى صفحة ٢٦ مانصه :

« قال الدكتور [جاستون دورفيل] : اذا كان الافراط فى الأكل من الأخطار الكبيرة فان تناول الأغذية المركزة كالسكر واللحم بقصد التقوّى ، أوتحسين التغذى أشدّ خطرا على الصحة .

نعم إن تلك الأغذية القوية توجد لنا قوّة فنحس بسعادة جسمية ولكنها سعادة وقتية ، إذ تنقلب إلى ضعف وانحطاط ، فهذه الأغذية التى يخيل للناس أنها مقوّية هى كضربة سوط تنزل على الحصان المعى فتجعله يجرى قليلا ثم ينحط انحطاطا لاقيام له منه ، فمن الناس ضحايا هـذا القرن الذى يقال انه قرن النور لم يتناول الأغذية المركزة ، وههنا عدّد أصنافا وذكر منها السكريات والشكولاتات والحلاوات المشبعة بالسكر والكحول ، فان هـذه المواد مهما كان مقدارها صغيرا فانها تتجه إلى خلايانا مجتمعة فتحدث اضطرابا ، وهذا الاضطراب نتوهمانه قوّة بدنية ، ولكنه ليس فى الحقيقة إلا خطوة نحو الصدمة الأبدية » انتهى ملخصا

وجاء فيه بعد ذلك مانصه : « وقال الدكتور [جاستون دورفيل] أيضا : السكر أحد الأغذية المهلكة لأجسادنا ، فالتناول منه كعادة معاصرينا من أربع قطع إلى ست قطع فوق الغذاء المفرط ينتج أمراضا مميتة لقد كان آباؤنا يجهلون السكر الصناعى ، وكانوا أبطأ منا انحطاطا فى قواهم ، والأرق الذى يكثر فينا الآن إنما هو من السكر المعروف ، إن السكر إنما ينفع بهيئة علاج ، فهو دواء ، والدواء اذا استعمل شرابا أوغـذاء عاديا كان من المهلكات ، فهونافع اذا وصف للدواء ، ضارّ اذا تعاطيناه فى أكثر الأوقات كالطعام والشراب ومن أراد السكر فليأكل الفاكهة ففيها سكر طبيعى وهوغذاء نافع ، إن السكر الصناعى مهلك الأبدان » انتهى باختصار .

الشاى الذى مع السكر

فلننظر فى هذا الشاى الذى يشربه الناس مع السكر ، قد قدّمنا أنه من الموادّ التى تلى الخمر فى إهلاك الأمم ، وأزيد عليه الآن أن الشاى يضاف إليه ماء مشبع بالأفيون ، ومتى شرب الانسان منه فانه يتعوّدعليه فلايأتى موعـده إلا وقد انحطت القوى فلايفيق إلا بشربه ، إذن فى الشاى الذى يشرب فى أكثر بلاد

الاسلام ثلاث مضار : نفس الشاى بنص علماء الطب ، والأفيون المضاف إليه ، والسكر الصناعى الذى صاحبه :

ولوكان سهما واحدا لاتقيته ☆ ولـكنه سـهم وثان وثالث

أيها المسلمون عموما ، وأهل شمال افريقيا خصوصا « قتل الانسان ما أكفره ، إن الانسان لظلوم كفار ، انه كان ظلوما جهولا » .

الانسان اليوم كثير الدهاء ، كثير المكر ، عرفت أوروبا أن الخمرة لايتعاطاها الصالحون من المسلمين ، فماذا تصنع أوروبا ؟ تجلب الشاى ، وهل جلبه إلا التجار ، هذا أمر سهل ولـكن السم فى الدسم ، والسكر بحسب الظاهر لاضرر فيه ، فانظروا كيف أصبح الناس مستعبدين بسبب الشاى والسكر أشد من استعبادهم بالخمر ، يؤلف العلماء فى أوروبا كتبا فى ضرر أغذية ثلاثة مميتة ويعدون منها السكر وأهل الاسلام نائمون .

لا لا أيها المسلمون : من تمـكنت عادة الشاى ومعـه السكر منه فليعلم أن الأفيون معهما ، وانه أصبح فريسة ، فياأيها الشاربون للشاى فى مراكش ، يامن حكم عليكم أن تكونوا شاربين صباحا ومساء اتقوا الله فى أبنائـكم وبناتـكم ، حذروهـم ، بل اشربوا سرا ولاتعطوهـم جرعة واحدة ، ولست أقول لـكم اتركوه لأن الذى يتركه منكم أصحاب النفوس الـكبيرة أهل العزائم والهمم والمجاهدات .

هذه نصيحتى لأهل مراكش خاصة ، والمسلمين عامة ، أحذركم فتنة أصابت البلاد والعباد ، الله أكبر استقلال الأمم إنما يكون بعد الامتحان ، والله قد امتحنكم أيها المسلمون بالملابس الفرنجية وأنواع الخمور والشاى والسكر وجعلـكم لهذه مستعبدين ، فاذا نلتم الاستقلال الشخصى بلبس الملابس الوطنية ونبـذ المهيجات من الخمر والشاى المثلث المضار ، فأنتم إذن أهل للاستقلال السياسى ، لااستقلال لأمة إلا باستقلال أفرادها من الملاذ الفردية .

يامن تشربون الخمور ، وتتجرعون الشاى والسكر معها أنتم مقيدون بقيود من حديد أذلاء فتخلصوا من هذه القيود الفردية تنحل عنكم الروابط الاجتماعية ، وتصبحوا سادة فى بلادكم ، أحرارا فى دياركم ، سعداء فى أوطانكم ، ويخرج إذ ذاك المستعمرون .

أين عزائمكم ؟ أين مجدكم القـديم ؟ أين نخوتـكم العربية ، أين ملـكـكم العظيم ؟ أعدكم بهذا كله بعد أن تذروا ماحذرتـكم منه ، فقد حذرت وأنذرت وبرهنت لـكم ، وأنتم أهل لما أقول ، وستعملون به وأنتم به موقنون ، والى هنا تم الـكلام على اللطيفة الأولى فى قوله تعالى : « انهـم كانوا قبل ذلك مترفين » وهى الرسالة التى أرسلتها إلى بلاد مراكش فى التاريخ المذكور ونشرت هناك ، والحمد لله رب العالمين ، كتب فى صباح الأربعاء ٢٣ مارس سنة ١٩٣٢ م — بحى السيده زينب .

اللطيفة الثانية

فى قوله تعالى : نحن قدرنا بينكم الموت

نذكر فى هـذه اللطيفة ماجاء فى جريدة الأهرام مناسبا لهذه الآية بتاريخ ٣ ديسمبر سنة ١٩٣٠ م تحت العنوان الآتى ، وهذا نصه :

الخلود وطول العمر

حوادث مدهشة عن طوال الأعمار

يفـكر الفلاسفة والأطباء قديما وحديثا فى حياة الانسان من جهة امكان إطالة العمر عن المتوسط المعروف أوالى أن يكون المتوسط مائة أومائة وخمسين أومائتين ، ومن جهة ماإذا كان ممكنا أن يعمر الانسان الى الخلود .

ظهر مؤلف حديث للمسيو جورج لاكورسكى بعنوان [العلم والسعادة] وله قبل ذلك مؤلفان أحدهما باسم « أصل الحياة » والثانى باسم « سرّ الحياة » .

فى كتاب « العلم والسعادة » يعرض مسيو لاكورسكى لمسألة طول العمر والخلود ، أشار المؤلف إلى كتاب لمسيو خان فينو الفيلسوف باسم « فلسفة طول العمر » ، وقال : ان هذا الفيلسوف يطلعنا على أن الأمثلة النادرة جدًا التى يعرفها الناس بشأن طوال الأعمار ليست ندرتها بالدرجة التى يتصوّرونها ، فمن الأسف أن الاحصاءات الصحيحة الدقيقة لم تكن إلا قريبة العهد ، ومن المستحيل علينا مثلا أن نعتمد على سجل المواليد عن ٩٦٩ سنة عاشها [ماتوسالم] أوال ٨٠٢ التى زعم أن ملك جزيرة [لوكباز] قد عاشها والتى تكلم عنها [بلين] و [فاليرماكسيم] . وقد ذكر [استرابون] أن بين سكان بنجاب أفرادا قد عاشوا ٢٠٠ سنة ، وقال [بلين] : انه فى عهد فيسباسيان عمل إحصاء ظهر فيه أن عدد سكان بلاد المغول سيرالبين ٣ ملايين نفس كان فيه ١٧٠ شخصا يبلغ عمر كل منهم أكثر من ١٠٠ سنة أى بنسبة واحد من ذوى الأكثر من المائة إلى كل ٢٠ ألف من السكان .

ويقول [بلين] : إن ماركوس ابونيوس عاش أكثر من ١٥٠ سنة ، ويقول لوسيان : ان تبريسياس عاش ستة قرون ، وأن سكان جبل آتوس كان يعيش الواحد منهم ١٣٠ سنة . وقال الكسندركورنيليوس إن أحد الالليريين عاش ٥٠٠ سنة واسمه دوددون . وقال انكربون : إن [سنجرين] ملك قبرص عاش ١٦٠ سنة ، وفى حياة القديسين عاش القديس سيمون ١٠٧ سنوات ، والقديس تاكريس ١٦٥ سنة والقديس انطوان ١٠٥ سنوات ، والبوما مطران الحبشة ١٥٠ سنة .

ويقول [هالار] فى كتابه « العناصر الطبيعية » : « إن الانسان من الحيوانات التى تعيش زمانا طويلا ، ويظهر أن الحدّ الطبيعى لوجوده حيا هو ٢٠٠ سنة ، ويقول بأن اثنين من المعمرين مات كل منهما بحادثة [الأوّل] توماس بار ، وعمره ١٥٢ سنة وقد مات أثر عسر هضم بعد غداء حفلة أقامها ملك انجلترا تكريما له ، وأن الثانى توفى متأثرا ببرودة شديدة ، وكان للأوّل عند وفاته ابن عمره ١٠٢ سنة وللثانى ولد عمره ١٤٠ سنة .

وظهر من احصاء سنة ١٨٩٧ فى بونس ايرس أن عبدا اسمه برنوكوتريم جاوز عمره ١٥٠ سنة ، وفى سربيا بلغ عمر ثلاثة من المعمرين ما يأتى : [الأوّل] ١٣٥ سنة [والثانى] ١٢٥ سنة والثالث ٢٩٠ سنة ، و بلغ فى الولايات المتحدة عدد المعمرين الذين جاوزوا المائة سنة فى سنة ١٨٩٠ م ٣٨٩١ ، وفى لندن ٢١ شخصا . وفى روسيا يبلغ عدد المعمرين الذين جاوزوا المائة سنة كثيرا ، ويدل احصاء ليفونيا على أن معمرا يبلغ عمره ١٦٨ سنة ، ومات فى سنة ١٣٤٦ رجل فى لوسرن يبلغ عمره ١٨٦ سنة ، ومات زارع ايقاسى عندما بلغ عمره ١٨٥ سنة .

وما زال يعيش فى مصر معمر عمره ١٥٤ سنة ما زال يذكر عمله القنصلى فى عهد نابليون ، وفى تركيا كان يوجد رجل عمره ١٥٦ سنة اسمه زارو ، وقد أرسل إلى أمريكا ليكون مثالا على فوائد منع المسكرات وقد مات أخيرا ، وقد شوهدت صورته فى الأفلام السينماتوغرافية وصوره الشمسية ، وقد أعجبت بها إذ الناظر إليه لا يقدّر للرجل من العمر أكثر من ٧٠ سنة اذا نظر إلى مشيته .

لكثرة المعمرين فى الدنيا وضع بعض العلماء قوانين عامّة ، ومنذ القرن التاسع عشر عملت احصاءات

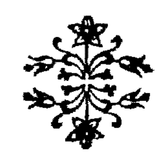
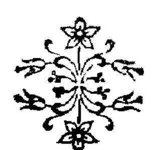
كثيرة بواسطة الذين يشتغلون لمصلحة شركات التأمين ، إذ هي تبين العمر والسنة وعدد المعمرين فى جهات مختلفة من أوروبا أوالولايات المتحدة .

ومما يلفت النظر أنه فى الاحصاءات الصادرة ببيان المعمرين الذين وصلوا أوجاوزوا المائة سنة لاتظهر السيدات ، ذلك لأنهنّ يضعفن بالأمراض المختلفة ، وأن جميع القوى العقلية والحسية تضعف مرّة واحدة عنـدهنّ ، فقد ظهر أن الرجال المعمرين إلى مافوق المائة سنة عند ماصرّوا بسنّ الشيخوخة فقدوا بعض خاصياتهم ، ولـكن بعد ذلك تجدّدت لهم قوى شباب جديدة .

ويقول [هالارو بلاندين] وأطباء آخرون : انهم لاحظوا ظهور أسنان جديدة ابتداء من ٨٠ سنة ، ويذكر الدكتورجراف انه شاهد أن امرأة عجوزا صار شعرها أبيض اللون من المشيب عنـد ما كان عمرها ١١٠ سنين ولـكن بعد هذا التاريخ عاد إليها لونها الأوّل ، وآخرون تجدّدت أسنانهم عند سن ٩٠ و١٠٧ سنين ، ومما يذكر أن القوى العقلية والبدنية عند المعمرين كانت سليمة جدّا .

لقد اختلف فى تعليل طول العمر عند المعمرين ، ويمكن القول اجمالا بأن الحياة الهادئة التى يعيشها المعمر ، وفراغ قلبه من الحسد والبغض والهموم واللؤم والغيرة والطمع من أسباب إطالة العمر ، والمعمرون هم الذين يحفظون النسبة بين قواهـم العقلية وقواهم البدنية طول حياتهـم ، وعند الباحثين فى أمر إطالة العمر ببحث الوسائل التى تؤدّى إليها من رياضة وامتناع عن المسكرات ، وحياة هادئة ، لاتغمرها المطامع ، ولاتحفها الشهوات والأحقاد ، ولايخالجها اليأس ، إن الوصول إلى إطالة العمر ، أورفع نسبة أعمار الأحياء هوخطوة أولى ولازمة فى سبيل تحقيق الخلود ، فهل الخلود ممكن للانسان ؟ !

هذا ماجاء فى جريدة الاهرام فى التاريخ المذكور ، وبهذا تمّ الـكلام على اللطيفة الثانية فى قوله تعالى « نحن قدّرنا بينكم الموت » والحمد لله رب العالمين . انتهى تفسير سورة الواقعة .

تفسير سورة الحديد

هى مدنية

آياتها ٢٩ — نزلت بعد الزلزلة

بسم الله الرحمن الرحيم

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * لَهُ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * لَهُ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ * يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ * وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ * وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ * يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا

نُوراً فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ * يُنَادُونَهُمْ
أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ
الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللهِ وَغَرَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ * فَالْيَوْمَ لاَ يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلاَ مِنَ
الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلاَكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ * أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ
تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلاَ يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ
فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ * اعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يُحْيِي الْأَرْضَ
بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ
وَأَقْرَضُوا اللهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ * وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ
أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا
بِـَٔايَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ * اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ
بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلاَدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ
فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٌ
وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ * سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا
كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ
وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ * مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلاَ فِي أَنْفُسِكُمْ إِلاَّ فِي
كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ * لِكَيْلاَ تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ
تَفْرَحُوا بِمَا ءَاتَاكُمْ وَاللهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ * الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ
بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ * لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا
مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ
لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ * وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً
وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ *
ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى ءَاثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ

الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ *

هذه السورة أربعة أقسام

القسم الأوّل فى تفسير البسملة .

القسم الثانى فى صفات الله ، وأسمائه الحسنى ، وظهور آثاره ، فى بدائع مخلوقاته ، من أوّل السورة إلى قوله : « وهو عليم بذات الصدور » .

القسم الثالث فى الحض على الانفاق من قوله تعالى : « آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير » إلى قوله : « وله أجر كريم » .

القسم الرابع فى عشر جواهر (١) بشرى المؤمنين بالنور يوم القيامة (٢) وحثّ لهم على الجدّ وذكر الله (٣) وثواب المنفقين (٤) وذم الدنيا (٥) والترغيب فى الآخرة (٦) والتسلية على المصائب (٧) وذم البخل (٨) والحثّ على العدل (٩) والاعتبار بالأمم السابقة (١٠) والأعمال التى توجب النور المتقدّم ذكره ، وذلك من قوله تعالى : « يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم » إلى آخر السورة .

القسم الأول فى تفسير البسملة

تجلت رحمة الله فى عالمنا هذا ، وما عالمنا هذا المادّى ، أليس عالمنا عدميا ؟ وكيف لا يكون عدميا وما هو إلا حركات فى عالم سموه الأثير ، وما الأثير إلا عالم أشبه بخيالنا نحن ، عالمنا حركات فى خيال الفضاء ، وهذه الحركات المذكورات هى التى أجمع عليها علماء زماننا شرقا وغربا فى مدارسهم وشرحناها فى سور كثيرة فى هذا التفسير لاسيما فى [سورة النور] عند آية : « الله نور السموات والأرض » وأثبتنا هناك أن الحديد والصلب والهواء والماء والضوء جميعها حركات والاختلاف بينها لن يكون إلا بعدد الحركات ، فان كان عددها نحو ٦ آلاف مليون مليون فى الثانيـة فهى المواد التى نحسّ بها بحاسة اللمس والشم والذوق من طعام وشراب وفاكهة وماحولها ، وان كانت أقلّ من ذلك فنقصت عن هذا العدد فكانت من نحو ٤٠٠ مليون مليون فى الثانية إلى نحو ٧٠٠ مليون فى الثانية فهى الأضواء كضوء الشمس ، فالأحمر ذو العدد الأقلّ ، والبنفسجى ذو العدد الأكبر ، وبقية الألوان بينهما كالأخضر والأصفر والبرتقالى والنيلى والأزرق . هذا القول وأمثاله مشروح فى هذا التفسير كثيرا ، ولكن المقصود الآن التعجب من هذا العالم ، فما هو إلا أشبه عدم ، هو خيال ، وهذا الخيال فيه حركات ، وهذه الحركات أشبه بحركات أفكارنا فى خيالنا فلا نعجب نحن من ذلك لأن الله يقول : « وفى أنفسكم أفلا تبصرون » فلما أبصرنا أنفسنا ألفينا فيها أمرا موجودا لانشك فى وجوده وهو الخيال ، وهذا الخيال نحسّ بأننا مجبولون على أن نجنده ونصفيه ونهذبه ، ونصنع فيه حركات فكرية تنتج لنا علوما ومعارف ، فلا نعجب إذن اذا رأينا خيال الفضاء فيه حركات أحدثت آثارا

أبصرتها عيوننا كما أحدثت حركات الأفكار فى الخيال آراء شهدتها عقولنا ، إن نفوسنا نبراس علومنا ، ومهيع تفكيرنا ، إن نفوسنا فى صفاتها وجمالها واتساعها لحوز العلوم أشبه بما نشاهد فى المادة المحسوسة من أنها كما تعطينا غذاء ودواء وفاكهة هى نفسها تكون مجال أفكارنا ومناط علومنا كما أن نفوسنا كما تكون سببا فى حياتنا وأعمالنا فى الحياة تكون هى مدرسة لنا وكتابا نقرؤه ، فكما نفكر فى أعراضها المختلفة ومواهبها العجيبة نفكر فى هيئتها فنجعلها لنا مجال دراسة ، فنحل المشكلات بقراءتها ودراستها ونقول : لقد رأينا فيها خيالا قامت به حركات أفكارنا ، وهذان عالمان موجودان حيث لا مظنة للوجود ، هكذا هذا الفضاء فيه خيال نسميه أثيرا ليس مظنة الوجود ، وفيه حركات لا ندرى ماهى ، رتبت فصارت عالما تحس به حواسنا .

الله أكبر : لقد أجمع علماء الطبيعة أن البعد بين الذرة والذرة فى المادة كالبعد ما بين الشمس والأرض إن دقائق الماء والهواء والسحاب والأرض والحجر والمدر كلها متباعدات تباعدا يقف العقل دونه ، فالمادة فضلا عن أنها مجرد حركات وتلك الحركات تنقلب أنوارا كهربائية ، وهذه الأنوار يجرى سائلها حول موجبها فتكون الأشكال المختلفات عند حواسنا باختلاف أعداد حركاتها وهيئاتها ، هى متباعدات تباعدا مدهشا عجيبا ، وياليت أمرها وقف عند كونها أشبه بالأمور الوهمية من كونها حركات فما يشبه الخيال ، بل أمرها تعدى ذلك فصار هذا الأمر الشبيه بالوهمى هو نفسه قليل أيضا يشبه المعدوم ، وماذا نقول فى عالمنا هذا الذى نعيش فيه ، وقد أثبت ذلك علم الطبيعة الذى يقرؤه أصغر تلميذ فى مدارس العالم الانسانى فقد قيل فيه : إن المسام الصغيرة وان تكن لشدة صغرها لا ترى بالمكرسكوب فهى أكبر من الجواهر بما لا يقاس ، فلو تصورنا أن فى المسام حيوانا صغيرا جدا بحيث يعيش على جوهر من الجواهر كما يعيش انسان منا على الأرض وفرضنا أن ذلك الجوهر واقع فى وسط حجر لسكان الحيوان المشار إليه يرى أقرب الجواهر إليه بعيدة جدا عنه كما نرى نحن الشمس والقمر والنجوم ، وربما كان يحتاج لمعرفة تلك الجواهر إلى نظارات كبيرة كما نحتاج نحن إليها لمعرفة الأجرام السماوية ، فيظهر من ذلك اتساع المسام بالنسبة إلى الجواهر .

هذا ما جاء فى كتب الطبيعة فى عصرنا الحاضر ودرس للتلاميذ ، اذا كانت هذه صفات المادة ونفس جسمى والفكر الذى أكتب به هذه المقالة والحبر والقرطاس ، وكلها ان هى إلا فضاء واسع كالفضاء بين السماء والأرض والنجوم تتخلله حركات تكون أنوارا كهربائية ، وما تلك الحركات وأنوارها إلا ذرات أشبه بالمعدوم وسط هذا الخلاء ، فهى أمور أشبه بالخيالية نادرة جدا فى وسط جو فسيح تائهات فيه ومع ذلك نرى جسما وقلما وقرطاسا ونقول نحن موجودون ومادتنا ملتئمة مسدودة الأبواب مقفلة ، إذن هذا العالم الذى نعيش فيه حركات وأنوار لا غير ، وهى مع كونها كذلك نادرة جدا ، فأجسامنا هذه أشبه بفضاء واسع لا مخلوق فيه ، فلو ركبنا قطارا فى ذلك الخلاء صادفنا فى كل بضعة أيام نباتا تراه أبصارنا ثم يختفى بسبب سرعة القطار ، إذن عالمنا مبنى على العدد .

ياعجبا : وهل امتاز الحديد والرصاص والماء والهواء والضياء إلا بالعدد ، حركات وأضواء امتازت بأعدادها إذن العدد كأنه أصل الوجود ، وكيف لا يكون أصل الوجود وبه انتظام الأجسام ، وهل الأجسام إلا حركات فى أثير نتجت عنها أضواء ، وهذه الأضواء والحركات لا امتياز لبعضها عن بعض ولا تفريق إلا بعدد الحركات ، فان قلت كانت لطيفة كالأضواء ، وان كثرت كانت كثيفة كالأجرام الثقيلة والصلبة .

سبحان الله : إذن العدد به تباينت الأجسام ، والعدد قرأناه فى نفوسنا ، هل أحد منا يجهل الأعداد ؟ الأعداد مرتبة ثابتات فى نفوسنا ، فهذه الأعداد بها نظمت النفوس العالية أمر الأجسام فباعدت ما بينها بمراتب الأعداد ، إذن مراتب الأعداد فى نفوسنا كانت سببا فى مراتب ما نصنعه فى أرضنا ، هكذا هناك نفوس كبيرة نسبتها إلينا كنسبة العوالم المحيطة بنا إلى أعمالنا الضئيلة اليومية ، إذن الأعداد كأنها أصل الوجود

لأن الأعداد ثوابت والحركات غير ثوابت ، وما كان غير ثابت لا يصلح أصلا ، إن الأعداد ثابتات فى نفوسنا ، وفيها أنواع الواجب والجائز والمستحيل ، فان ٦ فى ٦ يساوى ٣٦ وهذا واجب ، ومستحيل أن يكون أقل أو أكثر ، و٣٦ كما يكون من ضرب ٦ فى ٦ يكون من ضرب ٣ فى ١٢ و٢ فى ١٨ و٤ فى ٩ ومن واحد ونصف فى ٢٤ ففيه الواجب والجائز والمستحيل ، والعلم كله لم يخرج عن هذه الأقسام المرتبات فى عقولنا ، العالم الذى نعيش فيه لايخرج كله عن عالمين اثنين : رياضى وطبيعى ، فالعالم الرياضى راجع للعدد لأن العدد سار فى الحساب والهندسة والفلك والموسيقى ، كل العالم الطبيعى موزون محسوب بحساب مهندس بهندسة ، نظامى بشكله ، راجع للوحدات ، تلك الوحدات المرتبات فى نفوسنا ، فالعالم من عرشه لفرشه مقدر موزون محسوب ، والحساب مبدؤه ثابت فى نفوسنا .

من هذا البيان يفهم الناس فى زماننا قول [فيثاغورس] : أن العدد أصل العالم ، وذلك لأنه لاعالم أن هو إلا حركات فى أمر يشبه المعدوم ، والحركات وجودها ضعيف ، وهذا معنى قول علماء عصرنا : إن المادة لاوجود لها ، وان هى إلا حركات ، وللحركات أضواء ، واذا كانت معدومة فنظامها العدد ، والعدد مرتب فى نفوسنا ، لذلك نسمع الله يقول : « والفجر وليال عشر ، والشفع والوتر » وما الشفع والوتر إلا جميع الأعداد ، وهذا أيضا يوضح لنا قول القدماء : « إن المادة لم يظهر وجودها إلا بالصورة » وهل هذه الصورة المادية إلا ماحددت بالعدد أى عدد الحركات .

نتيجة هذا المقام

ان نتيجة هذا المقال أن الأمر كل الأمر أن عالمنا ثبت أنه أشبه بالذى ليس بموجود ، وأن مايشبه الموجود منه ماهو إلا حركات مع كثرتها فى نفسها هى معدومة فى جانب الخلاء الذى تقع فيه وتضىء فى مواضع نادرة منه ، وهذه المظاهر الباهرة كلها أشبه بالوهم ، والوهم أخو العدم ، أليس هذا به نفهم « بسم الله الرحمن الرحيم ، سبح لله مافى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم » فاذا كان العالم أشبه بالمعدوم ومع ذلك نراه ونسمعه ونتمتع به ، ولم يمتز بعضه عن بعض إلا بالعدد ، إذن الأمر فوق ذلك ان هو إلا تجليات ومظاهر للمحيط علما بالعوالم كلها ، لأن هذه العوالم لاظهور لها إلا بامتياز أعدادها وأقدارها ، والأعداد أمور معقولة لامحسوسة ، وهذا العالم محسوس مشاهد ، إذن الموجود الحق الذى لاوهم يلحقه هو الموجود الذى يستحق اسم الوجود ، وما هذه الصور والأشكال إلا مظاهر أعماله هو أو آثار معلوماته ، طبعت فى هذا الجو الفسيح طبعا ظهرت لنا أصوله بهيئة حركات وأضواء ، وتجلى لعيوننا بهيئة نبات وحيوان وشمس الخ . فهذا معنى قوله : « هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شىء عليم » فأما هذه التى ذكرناها فما هى إلا مظاهر رحماته وآثارها .

ضرب مثل

اعلم أيها الذكى المطلع على هذا المقال أن هذا المقام خطر فان عقولنا لاتقدر أن تجمع بين وجود ولا وجود : أى لاتجمع بين الوجود والعدم ، هما نقيضان ، والنقيضان مستحيل جمعهما ، فنحن الآن موجودون فكيف ساغ لنا أن نقول ان هذا كله وهم كما يقوله علماء الطبيعة أجمعون ، وكيف يقول الله : ان الله هو الأول والآخر والظاهر والباطن الخ فالعلم والقرآن اتحدا على أمر واحد وهو أن هذا العالم وجود ولاوجود ، فماذا نقول إذن ؟ لاسبيل لنا إلا ضرب الأمثال ، هذه الشمس مشرقة ، وذرات النور مسافرة فى الجو الفسيح : أى فى العدم باعتبار النظر الظاهرى ، أوفيما يشبه العدم وهو الأثير ، وهذه الذرات الضوئية لايظهر

ضوءها فى الجوّ إذ لا تظهر إلا على جسم ، ولا جسم فى جوّ السماء إلا ما طار فيه ، فالله ضرب مثل للشمس ، وأرواح المخلوقات ضرب مثل للذرّات الضوئية وهى تسافر فى العدم المحض بحسب الظاهر أو فيما يشبه العدم وهو عالم الأجسام الذى هو رتبة فى مراتب عالم الأثير ، إن الذرّات الضوئية مختفية فى أثناء سفرها من الشمس إلى الأرض أى فى ثمان دقائق و ١٨ ثانية ، وإنما يكون ظهورها إذا وصلت إلى أرضنا لا غير ، فحياة أرواحنا فى أجسامنا أشبه بظهور ضوء الشمس على الأرض التى أشبهها أجسامنا فى أن كلا منهما مظهر ، فأحدهما مظهر للنور ، وثانيهما مظهر للروح ، فإذا نظرنا لضوء الشمس على الأرض فإنا لا نجده شيئا سوى حركات مبدؤها الشمس ظهرت لنا بهيئة نور ، وإذا نظرنا للشمس ونحن فى الجوّ لم نجد إلا ظلمات متراكمة تنتهى بموجود مضىء عظيم هى الشمس ولا نرى للذرّات الضوئية أثرا فى تلك الظلمات التى لا حدّ لها ، نعم لها وجود مستعار من الشمس يظهر لنا إذا ظهرت على جسم معتم كالأرض ، فمن وقف فى جوّ السماء فإنه لا يرى إلا الشمس المشرقة بنورها فيقول عجبا ! هى الأوّل وهى الآخر وهى الظاهر وهى الباطن ، لأنّ هذه كلها ظلمات وغاية الأمر أن لها آثارا مستعارة منها على الأرضين ، وهذا ضرب مثل لا غير « ولله المثل الأعلى » والله ليس كمثله شىء ، ولكن مرادنا هنا الإيضاح لا غير ، فالله منزه عن المادّة وعن الشبيه والنظير ، وإياك أن تظنّ أن ضوء الشمس جزء منها . كلا . بل هو حركات فى الأثير لا غير ، وهذه الحركات غير الشمس كما أن الأرواح غير ذات الله ، فالمخلوق غير الخالق .

بهذا نفهم : « هو الأوّل والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شىء عليم ، هو الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أينما كنتم » أى بعلمه ، ولولا أنه معنا ما علمنا بوجود أنفسنا ، كما أنه لولا أن الشمس مع أضوائها المنبعثات منها ما ظهرت تلك الأضواء على وجه الأرض ، هذا ما فتح الله به فى تفسير البسملة فى ﴿ سورة الحديد ﴾ والحمد لله رب العالمين . كتب يوم الثلاثاء ٨ مارس سنة ١٩٣٢ م .

مقدمة فى اتصال هذه السورة بما قبلها

(١) إنّ السورة المتقدّمة والسور قبلها سور ترجع إلى العلم ، وهذه السورة أكثرها للأعمال .

(٢) إن آخر السورة السابقة قوله : « فسبح باسم ربك العظيم » الذى هو مرتب على ما قبله من جزاء كل فريق من أصحاب اليمين وأصحاب الشمال والسابقين كلّ بما هو أهل له ، وههنا يبين صفات الذى أمر بتسبيحه ، وأن تسبيحه ليس خاصا بأهل الأرض ، بل هو عام ، وهذا كقوله « فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون » من بعض الوجوه . انتهت المقدّمة .

القسم الثانى : فى صفات الله ، وأسمائه الحسنى ، وظهور آثاره ، فى بدائع مخلوقاته

التفسير اللفظى

بسم الله الرحمن الرحيم

[سبح] ذكر التسبيح بالماضى هنا وبالأمر فى السورة قبلها ، وذكر بالماضى أيضا فى الحشر والصف ، وذكر بصيغة المضارع فى الجمعة والتغابن للإشارة إلى أنه يسبح فى جميع الأوقات ، بل هو مأمور به ، ويقال سبحته وسبحت له كما تقول نصحت له ونصحته ، وتنزيه الله وتسبيحه من العقلاء هو القول الدال على تنزيهه كما هو معروف ، فأما غير بنى آدم والملائكة ، فالتسبيح منها الدلالة على العظمة والتنزيه ، أو الانقياد والتسخير

لله تعالى ، فاشارتك لصاحبك بيدك على هيئة مخصوصة يفهم منها تأن واصبر ، واشارتك بها على هيئة أخرى خاصة يفهم منها لاتفعل وهكذا ، فهذه الدلالة فى الحالين أفهمت صاحبك افهاما كافهام الكلام بل أشد تفهما وأبلغ أثرا ، وكم للانسان فى حركاته من معانى يفهمها الآخرون ، فاذا كان هذا من الانسان المحدود العلم ، فما بالك بما أطلعنا الله عليه من بدائع العلم والحكمة معاشر بنى آدم وفهمنا منه مالا نفهم بالقول ، ولوأنك وقفت فى الخلوات ، وراقبت المزارع والجنات ، والشجر مترنحات ، والحشائش متحركات ، والأوراق تغنى بموزون الأصوات ، وقد أرخى الليل سدوله ، وأرسل من الخافقين جحافل جنوده ، وتخللها بريق الكواكب تلمع فى السباسب ، هناك تتجلى لك العبر ، وتقرأ علوم المبتدأ والخبر ، وتغنى لك النسمات ، على أعواد الغابات ، بما يشنف سمعك ، ويقرب أنسك ، ويشرق شمسك ، وهناك هناك تناجيك اللذات ، وتسارك الآيات ، وتحيط بك الاشارات ، وتقصر عنها العبارات ، وترى فيها مالا تراه العيون ، والناس حولك ساهون لاهون ، هنالك الأنس والنور ، وهنالك الجنات والحور ، وهنالك السعادة والحبور ، وهنالك تفهم قوله تعالى (سبح لله مافى السموات والأرض وهوالعزيز) المنتقم ممن يعيش ويموت وهو لايعقل ذلك التسبيح الذى نطقت به الذرات ، وشهدت به الآيات ، فضلا عن تركه التسبيح هو ، فاذا أمر المسلم أن يسبح فى آخر السورة السابقة فان الله يعاقبه اذا تمكن من إدراك بعض أسرار الكائنات التى يعبربها عن التسبيح وأقفل عنها عينيه ، وأصم عن سماعها أذنيه ، وقوله (الحكيم) أى فى مجازاة من عقل ذلك وسبح لله فيكون عالما عاملا ، ويعم نوره بقية المسلمين من حيث العلم والاقتداء به (له ملك السموات والأرض) لأنه الخالق المتصرف حال كونه (يحيي ويميت وهو على كل شىء قدير) أى يحيي الأموات ويميت الأحياء ، وهو على كل شىء من الإحياء والاماتة وغيرهما قدير (هوالأول) السابق على سائر الموجودات ، لأنه أوجدها (والآخر) الباقى بعد فنائها ، وأيضا منه ابتدأت الأسباب ، واليه انتهت المسببات (والظاهروالباطن) فقد ظهرت دلائل وجوده وتكاثرت ، وبطنت ذاته فلم ترها العيون ، واحتجبت عن الظنون ، فهو ظاهر بآثاره وأفعاله ، باطن بذاته ومشرق جماله وكماله ، قدظهرت غلبته على المخلوقات وعلم حقائقها ، ولم يخف عليه بواطنها فهوظاهر بغلبته عليها ، باطن لعلمه بما بطن منها (وهو بكل شىء) من الظاهروالباطن والجلى والخفى (عليم هوالذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام) تقدمت الحكمة فى أنها ستة فى سورة الفرقان ولماذا اختيرت الستة (ثم استوى على العرش) تقدم الكلام عليه فى سورة يونس وفى سورة هود (يعلم مايلج فى الأرض) مايدخل فيها من الكنوز والبذور والموتى والمعادن ، ومن أهمها الحديد الآتى ذكره ، الذى فيه بأس شديد ومنافع للناس ، فلم يدخل البذر فى الأرض إلا للقوت ومنفعة الناس والدواب ، ولم يدخل الناس فى الأرض إلا لاخراج أرواحهم من عالم المادة واسعادهم ، أوتر بيتهم اذا كانوا عاصين الخ ، ولم يدخل الكنوز فى الأرض إلا ليبحث الناس عنها ويستخرجوها ، فهو لم يولج المعادن إلابعلم يعلم منافعها ، فلذلك دفنها لمن هم مستعدون لاستخراجها (ومايخرج منها) كالمعادن المذكورة والزرع والموتى إذ يخرجون من القبور (وماينزل من السماء) من الملائكة والمطر ونحوهما (ومايعرج فيها) كالأبخرة والأعمال والدعوات (وهومعكم أينما كنتم) لاينفك علمه وقدرته عنكم بحال (والله بما تعملون) فى أموردينكم ودنياكم (بصير) فيعطى كل ذى فضل فضله «ولايظلم ربك أحدا» ثم قال (له ملك السموات والأرض) وانما كرره ليرتب عليه مابعده (والى الله ترجع الامور ، يولج الليل فى النهارويولج النهار فى الليل) تقدم شرح ذلك فى ﴿سورة البقرة﴾ وغيرها (وهو عليم بذات الصدور) أى بمكنوناتها . انتهى التفسير اللفظى للقسم الثانى من السورة ، والحمد لله رب العالمين .

لطيفة فى قوله تعالى : يعلم مايلج فى الأرض ومايخرج منها

اعلم أن الكلام على هذه الآية قد تقدّم فى ﴿سورة سبأ﴾ وشرحت لك هناك ما تشير له الآية من الكنوز والآثار والعلوم المدفونة فى خرائب بلاد اليمن ، وكيف سخر الله الفرنجة فقاموا بالحفر والتنقيب والمسلمون هم النائمون لايدرون ماحولهم كأنّ البلاد ليست بلادهم ، وكأنّ هذه الآية ليست من دينهم ، أوكأنها نزلت لمن لايتفكرون فيها ، لماذا يذكر الله الايلاج فى الأرض فى أوّل سورة ذكرفيها قصة سبأ ، فهكذا هنا بدأ الله هذه السورة بما يفيد أنه يعلم مايلج فى الأرض ومايخرج منها ، ثم رأيناه بعد ذلك يقول : « وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس » فعلمنا أنه يرمز إلى نعمة المعادن التى هى من قبيل الحديد والتى هى الآن فى قبضة الفرنجة ، وكيف نام المسلمون عنها والله يقول انه يعلم مايلج فى الأرض ومايخرج منها ، فيعلم منفعتها ، و يعلم الذين ينتفعون بها ، و يعلم متى ينتفعون بها ، و يعلم متى يستخرجونها ، و يعلم من الذى يحرم منها فتكون الدائرة عليه لجهله فلم يذكر الله ذلك لمجرّد معرفة الله مجرّدة من كمال العباد ومنافعهم والا لم يقل فى ﴿سورة ق﴾ : « والنخل باسقات لها طلع نضيد رزقا للعباد » فهذه المخلوقات بها الاستدلال تارة وبها الرزق أخرى ، فليستخرج المسلمون الحديد والذهب والنحاس وجميع المعادن ، ولا يكونوا عالة على أوروبا .

ومما يستخرج من الأرض آثار الأوّلين كما تقدّم فى ﴿سورة سبأ﴾ أيضا ، ولن يكون هذا إلا اذا ملكت الدولة رشدها ، وكمل نظامها ، وعظم عمرانها ، فهل أنبئك بأمر عجب قرأته فى إحدى جوائدنا المصرية يوم الأحد الخامس من شهر مايو سنة ١٩٢٥ عند تفسير هذه الآية : ذلك أن الغوّاصين الذين يغوصون على [السفنج] ليستخرجوه فى البحر الأبيض أمام تونس ، كان أحدهم قد غاص ونزل فى البحر على عمق ثلاثين قدما ، و بينما هو يعالج الاسفنج إذ لمح من بعيد امرأة جميلة لم ير الراءون مثلها ، معتدلة القوام ، باهرة المحاسن ، باسمة المحيا ، والحشائش نابتة حول جسمها ، والسمك يغدو و يروح حولها ، فلما رأى هذا المنظر دهش وظنّ أن عقله ليس فى حاله العادية ، فأشار إلى رفاقه فى البرّ إشارة الخطر ، فرفعوه ، فأخبرهم الخبر ، فنزل رفاقه فوجدوا الأمر كما قال ، وأن هناك مدينة ذات شوارع ومنازل والسمك ذاهب آيب فيها ، فأخبروا الحاكم الفرنسى بتلك الأقطار بالجزائر ، فطير الخبر إلى بلاده ، فأرسلوا الى عالم كبير بالآثار من أمريكا فلما درس الموضوع ، قال : ان هذه المرأة هى صورة آلهة الجمال فى قديم الزمان ، وانه يظنّ أن تلك المدينة ومدنا أخرى قد ابتلعها البحر منذ ثلاثة آلاف سنة ، وانه يريد أن ينظر فى أمرها هل يبنى سورا حولها ان كان ميسورا ، أم يرفع الأشياء الثمينة منها ويتركها إن لم يتيسر الأوّل ؟ .

هذا ملخص الخبر فى جريدة البلاغ المصرية ، فهذه الحادثة مما يلج البحر ومايخرج منه والله يعلمها ، وذلك ان الله أولجها فى البحر الذى هو بمثابة الأرض لعلمه أن قوماسينتفعون بها بعد خروجها ، فان المتأخر اذا اطلع على صناعة المتقدّم أدهشه الحسن والجمال والدقة فى الصنع فيستمسك بما ليس عنده ، ويجدّ فى الوصول إلى الكمال ، فان العلم منشؤه التعجب ، ومتى تعجب الناس من جمال صنعة المتقدّمين زادهم ذلك نشاطا وجدّا ، ولى أن أقول لأمة الاسلام : هذا كلام ربنا وهذه آثاره فى الأرض ، وهناك آثار سبأ المتقدّمة فى سورة سبأ وهى فى أرض المسلمين الآن ، وآثار هذه المدينة المجهولة التى أغرقها الله فى البحر أمام تونس ، تونس التى هى بلاد اسلامية والمسلمون هم الآن نائمون ، ملكت فرنسا تونس ، فأصبح أهلها وأهل الجزائر وطرابلس وغيرها من شمال افريقيا لايعلمون شيئا فى بلادهم ولكن الله يقول : « يعلم مايلج فى الأرض »

نعم يعلمه ويخبر عباده به ، فانظر لأمة الاسلام التى تركت الدنيا تبنى من بناها ، وتقول لاأهتم بشىء ، فلاعلم ولامال ولادولة ، وقد آن أوان أن تشرق أيامهم ، وتزدان مدنهـم ، ويكون منهم فى كل جيل طوّافون فى الأرض ، وعلماء فى كل فن كما هوأوامر شرعنا أن يكون فى المسلمين طوائف لكل فن طائفة تكفى المسلمين الحاجة ، وهـذا هوالمسمى فرض كفاية بحيث لوترك لأثم المسلمون جميعا ، فسيعلم المسلمون ذلك ، وسيتولون نظام الأرض كما تولها أوروبا التى ضيقت الحصار على المسلمين ، وأرغمتهم رهم فى كل واد يهيمون ، وسيأخذ المسلمون حظهم الموعود ، ويومهم المقبل « ولتعلمن نبأه بعد حين » انتهى الكلام على القسم الثانى من السورة ، والحمد لله رب العالمين .

القسم الثالث : فى الحض على الانفاق

قال تعالى (آمنوابالله ورسوله وأنفقوا مماجعلكم مستخلفين فيه) من الأموال التى هى ملكه فى الحقيقة وما أنتم إلا خلفاؤه فى التصرّف فيها (فالذين آمنوا) بالله ورسله (منكم وأنفقوا لهم أجركبير ، ومالكم لاتؤمنون بالله) أى وأىّ عذر لكم فى ترك الايمان بالله والرسول يدعوكم اليه ويتلو عليكم كتابه الناطق بالبرهان ، وهـذا قوله (والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم) الجملة حالية (وقد أخذ ميثاقكم) بالايمان قبل ذلك بنصب الدلائل والتمكين من النظر (ان كنتم مؤمنين) أىّ ايمان كان لموجب ما ، فان الايمان لهذا الموجب أعظم وهوأخذ الميثاق (هوالذى ينزل على عبده) محمد ﷺ (آيات بينات) القرآن (ليخرجكم) الله تعالى أونبيه بدعوته (من الظلمات إلى النور) من الكفر إلى الايمان (وانّ الله بكم لرءوف رحيم) إذ أنزل عليكم الكتاب ولم يقتصر على نصب الدلائل العقلية (ومالكم ألاتنفقوا فى سبيل الله ولله ميراث السموات والأرض) أى وأىّ غرض عرض لكم فى ترك الانفاق فى سبيل الله والجهاد مع رسوله مع أنكم ستموتون وتتركون أموالكم لغيركم ، فالأولى لكم أن تنفقوها فيما يقرّبكم إلى الله تعالى وتستحقون به الثواب ، ثم أخذ يبين درجات المنفقين فقال (لايستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى والله بما تعملون خبير) الفتح فتح مكة فمن قاتل وأنفق قبله فأجره أعظم ممن أنفق وقاتل بعده مع أن كلا منهما وعده الله المثوبة الحسنى وهى الجنة كما تقدم فى [سورة الواقعة] من الفرق بين السابقين وأصحاب اليمين والله يعلم بظاهر أعمالكم وباطنها فيجازى كلا بما فعل ، وأعظم من قاتل وأنفق قبل الفتح أبو بكر الصدّيق رضى الله عنه ، وأكثر المفسرين يرون أن الآية نزلت فيه ، ولكنها بحسب حكمها أعمّ (من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا) أى من ذا الذى ينفق ماله فى سبيله رجاء ثوابه ، ففيه استعارة لفظ القرض ليفيد لزوم الجزاء (فيضاعفه له) أى يعطيه أجره أضعافا (وله أجركريم) أى ان هـذا الأجر فى نفسه كريم حسن فكيف وقد ضوعف أضعافا . انتهى التفسير اللفظى للقسم الثالث من السورة ، والحمد لله رب العالمين .

القسم الرابع

قال تعالى (يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم) وهو مايوجب نجاتهم وهدايتهم إلى الجنة من العلم والعمل والعبادات والحكمة (بين أيديهـم وبأيمانهم) لامن شمائلهم ولامن وراء ظهورهم كالكافرين ، فاختصاص النور بالأمام وبجهة اليمين للاشعار بأنهم هم الذين بحسناتهم سعدوا ، وبصحائفهم البيض أفلحوا فاذا مرّوا على الصراط يسعون يسعى بسعيهم ذلك النور وتقول لهم الملائكة (بشراكم اليوم جنات) أى دخول جنات (تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم) ثم أبدل من « يوم ترى » قوله

(يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا) أى انتظرونا ، وذلك اذا رأوهم قد أسرعوا كالبرق الخاطف إلى الجنة ، أوانظروا إلينا فانهم اذا أقبلوا عليهم بوجوههم استضاءوا بنورهم ، ان تنظرونا (نقتبس من نوركم) نستضئ من نوركم (قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا) وهذا تهكم بهم وتخييب لآمالهم من المؤمنين والملائكة ، أوقيل ارجعوا وراءكم إلى الدنيا فالتمسوا نورا بتحصيل العلوم والمعارف الإلهية والأخلاق الفاضلة فلانور إلا منها ، وأما هنا فلاسبيل لكم أن تنالوا نورا ، إذ لاينفع المرء إلا عمله ، ومن لم تستعد نفسه للهداية فلاينفعه آخر (فضرب بينهم) أى بين المؤمنين والمنافقين (بسور) بحائط (له باب) يدخل فيه المؤمنون (باطنه) باطن السور أو الباب (فيه الرحمة) لأنه يلى الجنة (وظاهره من قبله العذاب) من جهته لأنه يلى النار (ينادونهم) أى ينادى المنافقون المؤمنين من وراء ذلك السور حين حجز بينهم و بقوا فى الظلمة (ألم نكن معكم) فى الدنيا نصلى ونصوم ونزكى ونحج (قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم) أهلكتموها بالنفاق والمعاصى والشهوات ، فهذه كلها فتنة (وتربصتم) بالمؤمنين و بالنبى صلى الله عليه وسلم الدوائر (وارتبتم) وشككتم فى الدين (وغرتكم الأمانى) الأباطيل وماتمنونه كامتداد أعماركم (حتى جاء أمر الله) وهو الموت (وغركم بالله الغرور) أى الشيطان أوالدنيا (فاليوم لا يؤخذ منكم فدية) فداء (ولامن الذين كفروا) ظاهرا و باطنا (مأواكم النار هى مولاكم) أى مصيركم النارهى أولى بكم لما أسلفتم من الذنوب ، وهى مكانكم الذى يقال فيه هوأولى بكم (وبئس المصير) النار : اعلم أن المؤمنين لما قدموا المدينة أصابوا من لين العيش ورفاهيته ففتروا عن بعض ما كانوا عليه فعوقبوا ونزل فى ذلك : « ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق » الآية . وقال ابن مسعود ما كان بين اسلامنا و بين أن عاتبنا الله بهذه الآية إلا أربع سنين . وقال ابن عباس : ان الله تعالى استبطأ قلوب المؤمنين فعاقبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن فقال (ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع) أى ترق وتلين وتخضع (قلوبهم لذكر الله) لمواعظ الله (ومانزل من الحق) أى القرآن ، وقوله « ألم يأن » أى ألم يأت وقته ، يقال أنى الأمر يأنى اذا جاء إناه أى وقته (ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل) معطوف على تخشع (فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون) أى فطال عليهم الزمان بينهم و بين أنبيائهم وكثير منهم خارجون عن دينهم ، رافضون لما فى كتابهم ، من فرط قسوة قلوبهم ، والمقصود أن الله نهى المسلمين أن يكونوا فى صحبة القرآن كاليهود والنصارى الذين قست قلوبهم لما طال عليهم الدهر . ويروى عن أبى موسى الأشعرى أنه بعث إلى قراء البصرة ، فدخل عليه ثلثمائة رجل قد قرءوا القرآن ، فقال أنتم خيار أهل البصرة وقراؤهم فاتلوه ، ولايطولن عليكم الأمد فتقسو قلوبكم .

أقول : ولما كانت الأمة الاسلامية اليوم قد أصابها الوهن بطول المدة التى ليست ثلاث عشرة سنة [كما قال ابن عباس بل مضاعفة مائة مرة ، فقد انتهينا الآن من القرن الثالث عشر] كانت هذه الآية أقرب إلى التعبير عن حالها ، واذا كان الله قد وعظ أصحاب رسول الله ﷺ بأنهم قد ضعفت عزائمهم ، فالمسلمون بعد ذلك بثلاثة عشر قرنا ظهر الوهن فى عزائمهم ظهورا فاضحا أكثر مائة مرة وأفرط الافرنج فى إذلالهم ، واذا كان الله يقول لآبائنا الأولين أيام النبوة (اعلموا أن الله يحيى الأرض بعد موتها) أى يحيى القلوب القاسية بالذكر والتلاوة والنشاط فى العلم والعمل .

أقول : اذا كان الله يبشرهم بذلك ونبينا ﷺ بينهم فالبشارة لعمرالله اليوم لنا أكثر تحقيقا وأقرب رحمة ، ألاترى أن الأرض اذا نزل المطر عليها بعد طول الفترة كانت قد استراحت فتعطى ثمرا أعظم بشروط خاصة ، وكلما كان الليل أشد ظلاما كان النهار أبهر إشراقا ، وطول المشقات يعقبه الفوز ، والضد يتبعه ضده

وتلك

ـ وتلك الأيام نداولها بين الناس ـ وانى أنا أبشر المسلمين اليوم بهذه الآية و بأشياء أخرى لامحل لذكرها ، أبشر المسلمين وأقول لهم قد جاء يومهم الموعود ، وأقبل اسعادهم المأمول ، وسترثون العلم والحكمة ، وستكونون أمة لها شأن وأى شأن ، وسيكون قرّاء هذا التفسير من أوّل العاملين لرفعة شأن هذه الأمة وليقومنّ فى شمال افريقيا وفى الحجاز والشام و بلاد العراق واليمن و بقى بلاد الاسلام علماء قريبا ، وحكماء يجدّدون الأمر ، ويقتفون أثر أجدادهم ، ويجدّدون ما اندرس من العلم ، وستكون الأمة الاسلامية بعد هذا الزمان أمة مفكرة ، بحاثة ، نافعة لنوع الانسان ، رحمة للعالمين ، قال تعالى (قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون) أى كى تكمل عقولكم (إنّ المصدّقين والمصدّقات) أى المتصدّقين والمتصدّقات ، وقرىء بتشديد الدال وحده من التصديق (وأقرضوا الله قرضا حسنا) عطف على المصدّقين (يضاعف لهم) يضعف لهم (ولهم أجر كريم) هى الجنة (والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصدّيقون والشهداء عند ربهم) أى ان المؤمنين عند الله بمنزلة الصدّيقين والشهداء ، وهم الذين سبقوا الى التصديق واستشهدوا فى سبيل الله (لهم أجرهم ونورهم) أى لهم مثل أجر الصدّيقين والشهداء ومثل نورهم ، والفرق بين هؤلاء وهؤلاء أن نورهم من غير تضعيف ، فأما الآخرون فثوابهم مضاعف (والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم) والى هنا تمّ الكلام على بشارة المؤمنين بنورهم يوم القيامة ، وعلى حضهم وحثهم على بذل الجهد وترك الغفلة ، وعلى ثواب المتصدّقين والمتصدقات ، ثم أخذ يشرح وصف سرعة زوال الدنيا فقال (اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب) كلعب الصبيان فى الملاعب من غير فائدة (ولهو) يلهون به أنفسهم عما يهمهم كلهو الفتيان (وزينة) كالملابس الحسنة ، والمراكب البهية ، والمنازل الرفيعة . وكزينة النساء (وتفاخر بينكم) كتفاخر الأقران بالأنساب (وتكاثر فى الأموال والأولاد) مباهاة بكثرة الأموال والأولاد ، ثم قرّر ذلك فقال (كمثل غيث أعجب الكفار نباته) الكفار الزرّاع لكفرهم : أى سترهم الأرض بالبذر ، والنبات مانبت بذلك الغيث (ثم يهيج) ييبس (فتراه مصفرّا) بعد خضرته (ثم يكون حطاما) يتحطم ويتكسر بعد يبسه ويفنى (وفى الآخرة عذاب شديد) لمن كانت حياته بهذه الصفة ، فمن انهمك فى الدنيا كانت عاقبته شدة العذاب ، وقوله (ومغفرة من الله ورضوان) أى لمن جعلها سبيلا للآخرة (وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور) لمن عمل لها ولم يعمل للآخرة ، ثم شرع فى ترغيب العباد فى العمل للجنة فقال (سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والارض) أى عرضها كعرضيهما ، فاذا كان ذلك عرضها فماذا يكون طولها ؟ (أعدّت للذين آمنوا بالله ورسله) فهى مهيئة الآن مخلوقة (ذلك) الموعود (فضل الله يؤتيه من يشاء) يتفضل به على من يشاء من غير إيجاب (والله ذوالفضل العظيم) فالتفضل منه ممكن وان عظم قدره ، ثم أعقبه بتهوين المصائب على المؤمنين تعجيلا للسعادة ، لان هذه المسألة أهمّ المسائل فى الحياة الدنيا ، وعليها تكون السعادة ، وبخلافها يكون الشقاء ، ألم تر إلى مانقلته لك عن الحكيم قابس اليونانى ، وكيف شرح جميع أنواع النعم من مال وولد وعلم وصيت ، وانتهى فى آخر الأمر إلى أنه لاسعادة إلا من حيث الصبر ووصول النفس إلى نهاية كمالها الأخلاقى بحيث يمرّ المال والولد والقوة والعلم عليها فتصيبها تارة وتخطئها أخرى وهى بحالها مطمئنة ، لايزدهيها الاتصاف بما تقدم ، ولايحزنها الفوت .

هذا آخر آراء المتقدمين من الفلاسفة فى سعادة الأنفس البشرية فى هذه الحياة الدنيا ، فكأن الله يقول : أيها المؤمنون : الحياة الدنيا غرور فسابقوا إلى الجنات ، واعلموا أنكم فى هذه الحياة التى سميناها غرورا واقعون فى خيرها وشرها ، فلنعجل لكم السعادة قبل الموت حتى تشموا رائحة الجنة وأنتم أحياء ، وذلك بما نصفه فنقول (ما أصاب من مصيبة فى الأرض) الأولى كالجدب والفاقة واحتلال الأجانب من

الظالمين ، واستيلاء الحكام الفاسقين من المسلمين (ولافي أنفسكم) كمرض وفقة (إلا في كتاب) إلامكتوبة في اللوح المحفوظ ، مثبتة في علم الله (من قبل أن نبرأها) نخلقها أي المصيبة (إن ذلك) أي اثباته في كتاب (على الله يسير) لاستغنائه تعالى عن العدد والمدد ، انى أثبت ذلك وكتبته وأخبرتكم (لكيلا تأسوا) تحزنوا (على ما فاتكم) من نعيم الدنيا (ولاتفرحوا بما آتاكم) بما أعطاكم الله منها ، فانظركيف يقول قابس اليوناني : « إن الصبر مخرج من الشقاء » ويجيء القرآن بما هو أقرب من أوّل وهلة فيقول : ان كل شيء قدر في الكتاب فكيف تفرح أوتحزن ! قال عكرمة « ليس أحد إلا وهو يحزن ويفرح ، ولكن اجعلوا الفرح شكرا ، والحزن صبرا » . وقال صاحب الكشاف : « المراد بالحزن المخرج إلى مايذهل صاحبه عن الصبر والتسليم لأمر الله ورجاء الثواب ، وبالفرح المطغي الملهي عن الشكر » (والله لايحبّ كل مختال) متكبر بما أعطاه الله في الدنيا (فخور) بذلك الذي أوتى على الناس :

ذم البخل

قال تعالى (الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل) والخبر محذوف مثل فانّ الله غنيّ عنهم محمود وان لم يحمدوه ، وهذا الخبر مأخوذ من قوله (ومن يتولّ) أي يعرض عن الانفاق (فانّ الله هو الغنيّ الحميد) أي الغنيّ عنه وعن انفاقه ، محمود في ذاته ، لايضرّه الاعراض عن شكره .

التحريض على العدل

قال تعالى (لقد أرسلنا رسلنا) الملائكة إلى الأنبياء ، والأنبياء إلى الأمم (بالبينات) بالحجج والمعجزات (وأنزلنا معهم الكتاب) المتضمن للأحكام وشرائع الدين (والميزان) أي العدل : أي وأمرنا بالعدل (ليقوم الناس بالقسط) ليتعاملوا بينهم بالعدل ولايظلم بعضهم بعضا ، ولما كان مايزع السلطان أكثر مما يزع القرآن وكان الناس فريقين : فريقا يقوده العلم والحكمة ، وفريقا يقوده السيف والعصا ، وكان العدل والقانون لابدّ له من حام يحميه وهوالدولة والملك وجنوده وأعوانه ، وهؤلاء لابدّ لهم من عدّة يحمون بها القانون والعدل في داخل البلاد وخارجها أعقبه بأنه أنزل الحديد لتكون منه السيوف والرماح والسفن البحرية وما أشبه ذلك ، وهذا قوله (وأنزلنا الحديد) قبل أن نخلق الانسان والحيوان على الأرض حينما كانت آخذة في التبرّد شيئا فشيئا فانه كان هو وبقية المعادن سائلا تارة وبخارا أخرى ، يرتفع كالسحب في الجوّ ، ويمطر على اليابسة ، وينزل في شقوق الأرض عاما بعد عام هو والذهب والفضة ، وباقي المعادن فانها كلها في تلك الدهور القديمة كانت مرتفعة الحرارة جدّا ، وكلما بردت الحرارة نوعا ما أخذت تلك الموادّ تبرد بالتدريج ، ومنها الحديد في دوره الخاص به كما تقدم إيضاحه بالتفصيل في الأجزاء السابقة من هذا التفسير مع بيان الدرجة التي يصير فيها سائلا ، والدرجة التي يصير فيها جامدا صلبا فلانعيده ، فصحّ أن الحديد أنزل من السماء كما ينزل المطر ، وهذا من عجائب القرآن التي أظهرها علم طبقات الأرض الآن في المعادن والحديد الذي قال الله فيه (فيه بأس شديد) قوّة شديدة ، فبه يقاتلون ، ومنه يصنعون السفن في هذا العصر للقتال والدروع (و) منه (منافع للناس) في جميع الصناعات ، فهو في قطارات السكك الحديدية في سائر أقطار الأرض كما هو في الابرة ومابينهما ، لافرق بين صنع الكرسي وصنع القصر العظيم ، كلاهما داخل فيه الحديد ، وانما فعلنا ذلك لتجاهدوا في سبيلي (وليعلم الله من ينصره) باستعمال الأسلحة في مجاهدة الكفار ، والمحافظة على سلامة الأوطان ، التي هي من أهمّ الجهاد كما قال تعالى : « ومالنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا » ومعنى [ليعلم الله] ليرى الله (من ينصره) أي من ينصر دينه (ورسله بالغيب) أي حال كونه

غائبا عنهم : أى ينصرونه ولايبصرونه (إنّ الله قوىّ) يدفع بقوّته بأس من يعرض عن ملته (عزيز) يربط بعزّته جأش من يتعرّض لنصرته . واعلم أن كتاب الله المنزل من السماء ، والعدل الذى أمر الله به والحديد الذى يجعل فى المدافعة عنهما مرتبطان كما شرحته لك .

ذكر بعض الأمم السالفة التى أنزل عليها الكتاب والميزان

وأن منهم من اهتدى ، ومنهم من فسق ، ايرتب عليه مابعده

قال تعالى (ولقد أرسلنا نوحا وابراهيم وجعلنا فى ذرّيتهما النبوّة والكتاب) فجعلناهم أنبياء وأوحينا إليهم الكتب (فنهم مهتد) أى فن المرسل إليهم مهتد (وكثير منهم فاسقون) خارجون عادلون عن الطريق المستقيم (ثم قفينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى ابن مريم) وذلك بأن أرسلنا رسولا بعد رسول حتى انتهى الى عيسى (وآتيناه الانجيل وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة) الرأفة المودّة واللين ، والرحمة التعطف على الاخوان (ورهبانية ابتدعوها) وهى انهم يترهبون فى الجبال ، فارّين من الفتنة فى الدين ، مخلصين أنفسهم للعبادة ، والرهبانية هى الفعلة المنسوبة للرهبان كخشيان من خشى ، والرهبان المبالغ فى الخوف ، ومعنى ابتدعوها أخرجوها من عند أنفسهم ، وذلك بعد المسيح بقرون ، أيام اضطهاد النصرانية بمصر ، فان بعض العلماء ترك البلاد وخرج الى الجبال كما جاء فى كتاب [الخريدة النفيسة ، فى تاريخ الكنيسة] الذى ألفه أحد الرهبان بمصر وطبع سنة ١٨٨٤ م (ماكتبناها عليهم) مافرضناها عليهم ولكنهم ابتدعوها (إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حقّ رعايتها) أى الذين جاءوا بعدهم (فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم) أى الذين ابتدعوها ابتغاء رضوان الله (وكثير منهم فاسقون) وهم الذين جاءوا بعدهم فلما أرسل النبى صلى الله عليه وسلم انحط رجل من صومعته وجاء سائح من سياحته وصاحب دير من ديره فآمنوا به وصدّقوه فقال الله (يا أيها الذين آمنوا) بالرسل المتقدّمة ومنهم عيسى (اتقوا الله) فيما نهاكم عنه (وآمنوا برسوله) محمد صلى الله عليه وسلم (يؤتكم كفلين) نصيبين (من رحمته) لايمانكم بمحمد وبمن قبله (ويجعل لكم نورا تمشون به) وهو المذكور فى قوله « يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم » (ويغفرلكم) الكفر والمعاصى (والله غفور رحيم) وانما فعلنا ماذكر (لئلا يعلم أهل الكتاب ألايقدرون على شىء من فضل الله وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذوالفضل العظيم) أى فعلنا ذلك ليعلم أهل الكتاب أنهم لاينالون شيئا مما ذكر من فضله ، ولايتمكنون من الكفلين من رحمته ، ولامن النور والمغفرة اذا لم يؤمنوا برسوله محمد ﷺ فليس ينفعهم إيمانهم بمن قبله وحده ولا يكسبهم فضلا فتكون إذن لازائدة وقوله « وأنّ الفضل بيدالله » عطف على « ألايقدرون » أى ليعلموا عدم قدرتهم على ماذكر ويعلموا أن الفضل المذكور فى ملك الله وتصرفه يؤتيه من يشاء من عباده ، واذا جعلت لا غير مزيدة يكون المعنى لأجل ألايعتقد أهل الكتاب أنه لايقدر النبى والمؤمنون به على شىء من فضل الله ولاينالونه ان الفضل بيد الله فلذلك أعطاه للنبى والمؤمنين . انتهى التفسير اللفظى للقسم الرابع من السورة ، والحمد لله رب العالمين .

لطائف هذه السورة

(١) فى قوله تعالى : « فضرب بينهم بسور » أى بحائط الخ .

(٢) وفى قوله : « وجنة عرضها كعرض السماء والأرض » .

(٣) وفى قوله : « ورهبانية ابتدعوها » الخ .

اللطيفة الأولى فى قوله تعالى : فضرب بينهم بسور

اعلم أن هذه الآية تفيد أن بين الجنة والنار حائطا له باب ومن دخله دخل الجنة ، ومن هو خارجه فهو فى النار ، والمنافقون واقفون خارج هـذا السور يقولون لمن كانوا معهم من المؤمنين « انظرونا نقتبس من نوركم » وأولئك لايجيبونهم إلا بالتقريع والتوبيخ . واعلم أن هذا الوصف له نظير فى الدنيا ، بل ان مراتب الناس فى الدنيا على هذا المنوال ، بل جميع العوالم النامية من حيوان وانسان ، ولأضرب لك ثلاثة أمثال :

[المثال الأوّل] كل فاكهة من الفواكه ، أوحب من المأكول ، أوزهرة فى شجرة ، تجدها ذات قشر غليظ من أعلى يليه ماهو ألطف منه ، ولا يكون فى داخل الجميع إلا الفاكهة المطلوبة ، ولا يكون فى المركز إلا ماهو أهم وهو المقصود ، فترى الزهرة يحجبها أوّلا الورقات المسماة بالكأس ، ولاجرم أنها أغلظ مما بعدها وهى الوريقات الملوّنات المسميات بالتويج ، وفى داخل هذين تجد أعضاء الذكور وأعضاء الاناث فى داخل الزهرة ، إذن ظاهر الزهرة أقرب إلى العالم الخشن ، و باطنها أقرب إلى العالم اللطيف ، وهو المقصود بالذات ، انظر إلى البندق والى الجوز كيف كان القشر الأعلى غليظا وماتحته لطيف ، وفى داخله المادّة المأكولة المحافظ عليها ، وهكذا البطيخ والرمان وجميع الفواكه ، وترى الثمرة وجميع النخلة كأنها خوادم لنواة التمر لتكون أصلا لشجرة أخرى ، وهكذا كل نواة فهى محافظ عليها بمثل ذلك .

[المثال الثانى] إن جراثيم الأجنة فى أرحام الأمهات من كل حيوان برّى أو بحرى تمرّ فى أدوار من الخلق ، ثم انها اذا وصلت إلى ماهى أهل له من الخلق وقفت ولم تجاوز ما استعدّت له ، فترى الحيوانات النقاعية التى هى فى آخر مراتب الحيوانية تبقى على حالها لاترتقى وهى فى دور التربية ، وترى أنواع العنكبوت والنمل والنحل اذا خرجت من البيض لاتعدو مرتبة أصلها ، أما الحيوانات الفقرية فانها تجاوز تلك المراتب ولاتتجاوز مرتبتها هى ، والانسان يجاوز المراتب كلها ويرتقى إلى مرتبة الانسانية ، فكأن كل درجة من درجات الحيوانية غلاف يحفظ ماتحته ، وآخرها ارتقاء هو الانسان الذى أحاط الجميع به محافظة عليه كما يحافظ القشر على لبّ الثمار ، وكما يحافظ الكأس والتويج فى الزهرة على أعضاء الالقاح .

[المثال الثالث] : دراسة العلوم فى اللغة العربية ، مثلا : الخط ، الاملاء ، النحو والصرف ، البلاغة القرآن : حكمه وعلومه ، اشراق النفس به . وانظر إلى نوع الانسان كيف كان كل لايتعدّى حدّه الذى حدّه له استعداده ، والبيئة التى هو فيها .

يكتب الانسان و يقرأ ثم يقف بعد ذلك لايتعدّى القراءة البسيطة ، وهو قد امتاز عمن لم يقرأ ومن لم يكتب . ثم يتجاوز ذلك طائفة علماء النحو ويجاوزهم علماء البلاغة ، و يظن هؤلاء انهم وصلوا إلى قمة العلم ، فيرتقى عنهم قوم إلى قراءة أشعار العرب ونثرها وخطبها فى الجاهلية والاسلام ، و يظنّ هؤلاء انهم أعلى الجميع ، و يزيد عليهم آخرون فيقرءون تاريخ العرب وأنسابهم ولا يتعدون ذلك ، و يتجاوزهم آخرون فيعرفون معانى القرآن و بلاغته و يظنون انهم أرقى ، و يتجاوزهم آخرون فيدركون مقاصده من الأخلاق والعلوم و يقفون ، و يتجاوزهم آخرون فيعملون بذلك و يدرسون هذه الدنيا ونظامها ، و يتخلقون بجميل الأخلاق ، و يقفون عند هـذا الحدّ ، و يتجاوزهم آخرون فيكونون مخلصين لربهم ، نافعين لأمتهم ، وهؤلاء هم الصديقون والحكماء ، فكل طائفة متقدمة كالقشر لما بعدها ، وكأن كل واحدة تقول لمن تقدّم عليها وتجاوزها ألم نكن معكم قالوا بلى ولكنكم ظلمتم أنفسكم ، واغتررتم بعلمكم ، ووقفتم عند حدّ مخصوص ، ولكن نحن عرفنا الحقيقة ووصلنا ، فلاتلوموا إلا أنفسكم ، انك ترى هذه الحقائق مجسمة أمامك فى كل آن ، والى هنا تمّ الكلام على اللطيفة الأولى ، والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة الثانية فى قوله تعالى : وجنة عرضها كعرض السماء والأرض

تقدّم هذا فى سورة ﴿ آل عمران ﴾ فارجع إليه هناك إن شئت .

اللطيفة الثالثة فى قوله تعالى : ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم

لنشرح هـذا المقام من كتاب [الخريدة النفيسة ، فى تاريخ الكنيسة] فنقول : جاء فى الكتاب المذكور الذى ألفه أحد رهبان دير السيده برموس فى برية انبا مقاريوس الطبعـة الأولى بالمطبعة الأميرية ببولاق مصر القاهرة سنة ١٨٨٣ هدية للأب الكلى الوقار [أنبابوانس] مطران البحيرة ووكيل الكرازه المرقسية صفحة ١٦٢ ومابعدها مانصه :

« فى أنباء القرن الثالث للمسيح أى فى أواخره أن [بولس السائح] قد انفرد للوحدة وانقطع للعبادة منذ صغره ، فكان قدوة بفضائله للأوّلين والآخرين ، وقد ارتشد منه القديس [أنطونيوس] مقتفيا أثره ، ومنتهجا منهجه الصارم لما كشفه وهومختف فى مغارة ، وبيان ذلك أن القديس أنطونيوس اختلجه فكر العظمة ظانا أنه هو أوّل من سلك طريق الرهبنـة منفردا للعبادة والنسك فى البرية ، فتـداركته نعمة الله باعلان إلهى بأن فى البرية رجلا أقدم منه زمنا ، وأفضل قداسة ، فأخذ عكازه وخرج يطوف فى البرية قاصدا مكان عبده ، وبعد ماسار يوما بتمامه ولم يجد أثرا يدل عليه قام مصليا الليل أجمع مستمدّا الارشاد من البارى ثم أخذ يطوف فى اليوم الثانى ، فرأى غروبا ذئبـة صاعدة إلى جبـل ، فتعقب أثرها ولم يدعها حتى خيم الظلام ، فتركها ومال إلى مغارة يريد أن يبيت فيها ، وبينما هوسائر فى الظلام دنا من النور فشعر به القديس بولس ، فأسرع وأغلق دونه الباب ، فلما وصل إليه جثا على الأرض باكيا وصارخا ، إنى لواثق بأنك تعلم من أنا ، ومن أين جئت ، ولماذا أتيت ؟ ولايخفى عليك اننى لا أخرج من هنا أوأبصرك ، فهل يمكنك ياذا الذى يقبل الحيوانات أن تطرد الانسان ، إنى طلبتك وقد وجدتك ، وقد قرعت بابك لتفتح لى فان لم تقبل فانى أموت هنا ، فأقلّ ما يكون انك تجدنى بعد موتى ، ففتح له الباب ، وعانق كلّ صاحبـه مسلما عليه بفمه ، فقال له القديس بولس : أبصر الآن من فتشت عنه بعناية عظيمة ، فترى أعضائى قد وهنت من الشيخوخة ، وقد ابيضت لحيتى كلها ، وجفّ جلدى ، فانظر انسانا يرتد إلى الرماد سريعا قد تكبدت كثيرا بالاستقصاء عنى ، فأخبرنى عن حال العالم من بعدى ، وهل يوجد من يعبـد الشيطان فيه ؟ فأجاب أنطونيوس على ذلك بالتفصيل ، ثم سأله عن السبب الذى أحضره إلى ذلك المكان ، فأجابه القديس بولس قائلا : انه بينما كان الملك [ديسيوس] يفتك بنصارى مصر والصعيد حيث ولدت مات والدى إذ كان عمرى ١٢ سنة ، فدخلت مدارس الفلاسفة ، وحزت علوما وافرة ، فلما اشتدّت المصائب على المؤمنين انفردت فى منزل كان لى بين مزارعى ، فعرض لى خطرعظيم ، وذلك أن زوج أختى قام علىّ ورام أن يختلس أموالى ، أويشكونى إلى الوالى بأنى مسيحى ، وكنت سمعت بأن هـذا الوالى أرسل إلى كل مكان رسلا يفحصون عن المسيحيين ليعذبهم ، أوينكروا المسيحية فهربت إلى هـذه البرية وتخلصت من خبث خصمى ، وبينما كنا نتفاوض طار إلينا غراب حاملا فى منقاره رغيفا وتركه بين أيدينا وطار ، فقال القديس بولس : مبارك الرب الذى أرسل إلينا مأكلا ، فاعلم يا أخى أن منذ ٦٠ سنة يأتينى هذا الغراب كل يوم بنصف رغيف ، واليوم أتى برغيف كامل من أجلك ، فشكرا لله الذى يهتم بقدّيسه ، ثم صرفنا الليل كله فى الصلاة ، وفى الغد استدعانى وقال لى : أنا عرفت منذ زمان أنك مستوطن هذه البرية ، وقد وعدنى الله بأنك مزمع أن تزورنى وتوارينى التراب ، وقد وافى الوقت الذى فيه أفارق هـذا الجسد البالى ، وأنطلق إلى الرب ، فأطلب

إليك أن تعود إلى ديرك وتأتيني بالرداء الذى أعطاه لك أثناسيوس لتكفنني به ؛ فبدأت أذرف الدموع متأسفا ، وطلبت أن لايفارقني قبل أن يلتمس من المسيح أن أنطلق معه ، فقال لى : يجب أن تمكث مدة من أجل خير اخوانك ، ثم أخبرني عن مستقبل مجد الرهبنة وفضلها ، فودّعته وعدت مسرعا إلى ديرى ، ولما صادفت اثنين من الرهبان وسألانى عن سبب غيابى لم أجبهما بكلمة ، بل قلت لهما انى رجل خاطئ لا أستحق أن أسمى راهبا (للكلام وقت ، وللصمت وقت) ثم أخذت ذلك الرداء ورجعت إلى حيث القديس راجيا أن أعاينه وهو حىّ ، فلما لم يبق إلا مسافة قليلة أبصرت جوقا من الملائكة يرتلون و بينهم نفس البار [القديس بولس] فحزنت و بكيت بكاء مرّا ، ولما دخلت المغارة وجدت جسده جالسا جاثيا على ركبتيه ، ورأسه مستقيما ، ويديه مرتفعتين ، فظننت أنه حىّ ، فجثوت أصلى بقربه ، ولما نظرت انه لم يتنهد كعادته فى الصلاة ، تفرّست فيه جيدا فتأكدت أنه توفى ، فوثبت على جسده أقبله ذارفا الدموع ، ثم كفنته بذلك الرداء ، وفيما أنا مفكر فى كيف أنا أدفنه إذ لم يكن معى آلة أحفر بها حفرة ساق الله لى أسدين وبدءآ يحفران فى الأرض حتى أكملا قبرا ، وجثيا أمامى كأنهما يطلبان إذنا للانصراف ، فأشرت لهما بيدى ، ثم واريت الجسد فى التراب ، وأخذت ثوبه المنسوج من الخوص ، وعدت به إلى ديرى ، وكنت ألبسه فى الأعياد الإلهية » انتهى .

هذا هو الذى نقلته من ذلك الكتاب ، أنا أكتب هذا وأنا فى غاية العجب ، هذا كتاب لم يظهر إلا فى هذه الأيام ، والمسيحيون فى مصر لم يعلموا به إلا فى هذه الأيام ، والسبب فى نقلى هذه الرواية على علاتها أنى كنت اطلعت فى بعض الجرائد على مقالة لمسيحى مصرى يقول : « الرهبانية مبتدعة وليست من أصل الدين » وما كنا نعلم ذلك من قبل ظهور قصة القديس بولس الذى عثر عليه أنطونيوس فى كتاب الجريدة المذكور ، فقلت فى نفسى عجبا ! يقول الله « ورهبانية ابتدعوها » وجميع المسيحيين لم يعلموا أنها مبتدعة إلا فى هذه السنة لما عثروا على تاريخ [القديس بولس] الذى ظلمه الملك بمصر ، وقلت فى نفسى لابدّ من البحث على هذا الكتاب ، فاهتديت إليه ، ونقلت منه العبارة بنصها ، وها أنا ذا قرأتها وعرفتها .

أقول : أفى يقظة أنا أم فى منام ؟ هذه معجزة تفوق جميع المعجزات النبوية الاسلامية ، هذا الابتداع للرهبانية لايعلمه المسلمون إلا إيمانا بالقرآن ، أما اليقين فهو محتاج إلى العلم ولاعلم عندنا ، واذا كان المسيحيون أنفسهم لايعلمون فمن الذى يعلم منا إلا بالسماع من القرآن ، إنى أحمد الله إذ وفقت لهذه النعمة وهى المعجزة الكبرى للاسلام والقرآن ، وهل لك أن أسمعك ماجاء فى الآثار ، فقد ورد عن ابن مسعود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر أنّ طائفة لم يستطيعوا القيام مع الملوك الذين ظلموهم لأجل إقامتهم على دين المسيح فساحوا فى البلاد ، وترهبوا ، وهم الذين قال الله فيهم : « ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم » .

وقال أيضا : « كنت رديف رسول الله صلى الله عليه وسلم على حمار وذكر نحو هذا ، ومنه : فتفرّقوا فى غيران الجبال وأحدثوا الرهبانية ، ثم قال ﷺ رهبانية هذه الأمة الجهاد فى سبيل الله ، وقال ابن عباس « كانت ملوك بعد عيسى عليه السلام بدلوا التوراة والانجيل ، وأطال فى ذلك إلى أن قال : فجعل الرجل يقول نكون فى مكان كذا نتعبد كما تعبد فلان ، ونسيح كما ساح فلان ، ونتخذ دورا كما اتخذ فلان ، إلى أن قال : فذلك قول الله « ورهبانية ابتدعوها » أى ابتدعها الصالحون منهم ، والذين جاءوا بعد الصالحين « مارعوها حقّ رعايتها فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم » وهم الصالحون المبتدعون « وكثير منهم فاسقون » أى الذين جاءوا بعدهم » انتهى ملخصا .

وانى ليأخذنى العجب كل مأخذ أن أجد ابن عباس والآثار والأحاديث كلها تنحو منحى قصة بولس

وأنطونيوس ونحوهما ، فذكر النبيّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه اضطهاد الملك والسياحة فى البرية والمغاور والخوف من الملوك والضلالة من اتباعهم فى عدم الرعاية أمر عظيم ؛ والحمد لله الذى بنعمته تتمّ الصالحات وهذا من أعظم توفيق فى هذا التفسير من الله عزّ وجل ، وإلى هنا تمّ الكلام على قوله تعالى : « ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم » والحمد لله رب العالمين .

اللطائف العامة فى هذه السورة (١)

(١) فى قوله تعالى : « سبح لله » .

(٢) فى قوله تعالى : « يعلم مايلج فى الأرض ومايخرج منها » .

(٣) فى قوله تعالى : « اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو » .

(٤) فى قوله تعالى : « ما أصاب من مصيبة » .

اللطيفة الأولى فى قوله تعالى : سبح لله مافى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم

له ملك السموات والأرض يحيى ويميت وهو على كل شيء قدير . الآيات

حضر صديقى العالم الذى اعتاد محادثتى فى هذا التفسير فقال : نحن نسبح الله ويسبحه مافى السموات والأرض ، فهو منزه فى ذاته وصفاته وأفعاله ، فأذكرك الآن بسؤال وجهته لك فى ﴿ سورة النجم ﴾ تحت عنوان [لطيفة فى قوله تعالى : وأنه هو أضحك وأبكى ، وأنه هو أمات وأحيا ، وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى ، من نطفة إذا تمنى ، وأن عليه النشأة الأخرى ، وأنه هو أغنى وأقنى ، وأنه هو رب الشعرى ، وأنه أهلك عادا الأولى ، وثمود فما أبقى ، وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى ، والمؤتفكة أهوى ، فغشاها ماغشى ، فبأى آلاء ربك تتمارى] فقد قلت لك مانصه :

الله أضحك وأبكى ، الله أمات وأحيا ، الله أهلك عادا ، الله أهلك ثمودا ، وقوم نوح ، وأهوى المؤتفكة ، وانتهت الآية ان هذه آلاء الله ، الآلاء النعم ، أمن النعم أن يبكى العيون ويهلك الأمم ؟ نعم هذا السؤال ورد كثيرا فى هذا التفسير ، وكثرت الاجابة عليه ، ولكن النفس لاتزال تطالب بالمزيد ، فحدّثنى أليس الله أرحم الراحمين ؟ أليس الله قدوة لنا فى أفعاله ؟ الله أهلك أمما وأبكى عيونا ، وإذا قتل أحدنا انسانا عمدا دخل جهنم ، الله يهلك أمما ، الله يسلط الميكروب على الأمم فيهلكها ، ويسلط الأمم القوية على الضعيفة فتذلها ، الله يسلط الوحوش على آكلات الحشائش فتأكلها ، كل هذا فعل الله ، لأنّ هذا نظامه ، ثم تشريعه لنا على خلاف ذلك ، فنحن إذا قتلنا انسانا عمدا نعذب فى جهنم يوم القيامة ، وتحكم شريعتنا علينا بالقتل ، وإذا كان الله أرحم الراحمين هذا فعله فكيف بنا نحن الضعاف فى الأرض ؟ هذه المعانى تتردّد فى نفسى صباحا ومساء ، وكل ماجاء فى هذا التفسير من الأجوبة فيما مضى فانما هى أجوبة جزئية ، والجزئيات لاتغنى عن الكليات ، فأنا الساعة يوم الأربعاء ١٢ رمضان سنة ١٣٥٠ هجرية — ٢٠ يناير سنة ١٩٣٢ م أريد إجابة شاملة كاملة حتى لاأحتاج إلى سؤال بعدها فى هذا الشأن . فقلت : ماذا تقول فى آية : « لايسأل عما يفعل وهم يسألون » . فقال : وماذا تقول فى آية : « شهد الله أنه لاإله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط » فنحن الآن فى مقام السير فى طريق أولى العلم الذين يشهدون ببصائرهم أن صانع العالم قائم

---

(١) يقول المؤلف : هذه اللطائف لم يكن لها وجود عند التأليف ولم يفتح الله بها إلا عند تقديم هذه السورة للطبع .

فى عمله بالقسط والعدل ، نريد أن نشهد ونحن فى الأرض كيف كان الله قائما بالقسط فى تدبير الخلق ؟ وفوق ذلك نريد أن نفهم كيف يمكن الجمع بين هـذا الإهلاك والابكاء والتدمير وابادة الأمم واذلالها و بين اسمه [الودود] ! ألم يقل الله « وهوالغفور الودود ، ذوالعرش المجيد ، فعال لما يريد » ولاجرم أن الودود يفعل مايريد ، ولـكن هل يلتى ودّه إليهم ، ويكون فعله محبوبا ، لأنه أتى على سبيل المحبة ، وهو إهلاك المدن ، وازالة الدول ، وابكاء العيون ، أيكون ذلك ودّا ؟ وأيضا جاء فى القرآن آيات فى سوركثيرة كلها دالة على تنزيهه فى ذاته وصفاته وأفعاله ، وذلك بصفة التسبيح ، والتسبيح تنزيه ، وهذا المعنى جاء مصدرا وفعلا ماضيا وفعلا مضارعا وأمرا مثل : « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا ، وسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون » وفى سورة النجم ، وفى آخر السورة قبلها : « ومن الليل فسبحه وادبار النجوم » وكذلك فى ﴿ سورة الحديد ﴾ «سبح لله مافى السموات والأرض وهوالعزيز الحكيم » وذكر الاحياء والاماتة ، وفى آخر ﴿ سورة الحشر ﴾ « يسبح له مافى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم » ، وفى آخر ﴿ سورة المجادلة ﴾ « رضى الله عنهم ورضوا عنه » .

إنّ رضا العبد عن ربه ، وتنزيهه وحبه وودّه يعوزه الاطلاع على جمال الأفعال ، والأفعال الالهية المذكورة مشكلة مع أوصاف الحب والودّ والرضا الخ فأرجو الاجابة على هـذا حتى لا أعود إلى السؤال كرّة أخرى .

فقلت : سأوضح الكلام فى هذه اللطيفة إن شاء الله تعالى فى هذه المعانى ، وهنالك تتجلى المعانى التى تريدها وان كان أكثر ما سأقصه عليك هنا قد مضى كثير منه متفرّقا فيما مضى من التفسير ، وسأشرح :

(١) النظام التكوينى .

(٢) والنظام التشريعى وأنهما متفقان .

(٣) وأبين درجات التربية الست :

(٤) تربية الأمّ لولدها .

(٥) وتربية الأب له .

(٦) وتربية المعلم .

(٧) وتربية الحكومة للافراد مع مايتبع ذلك من نظام الجندية .

(٨) والتربية الالهية وأنواع الزلازل والحوادث العظيمة .

(٩) وأنّ الأم حين تمنع ولدها ما يضرّه وهو يبكى لم يمنع ذلك حبها له ، وقد ضربت مثلا لدرجات التربية التى بعدها ، و بمقدار ازدياد العلم تعرف حقائق تلك التربية ويزداد الحب للمربى

(١٠) و بيان أن العلم إما بهيئة سطحية كعلم الشعراء والأدباء ، واما بهيئة حكمية فلسفية عالية كعلم الحكماء ، وايضاح ذلك وتفصيله من كلام [كونفوشيوس] فيلسوف الصين الذى توفى فى القرن الرابع قبل الميلاد .

(١١) ثم بيان أن الحب على مقدار العلم .

(١٢) بيان أن الله توارى عنا بحجبه ، ولكنه قذف لنا كرات جمة لاحصر لعددها وهى الشموس والكواكب ، وهو يقرّبها و يبعدها ليجذبنا إلى حضرته ، وجعل الشطرنج والنرد عند اللاعبين مثلا لذلك كما جعل الجمال والحب الأدنيين مثلين لجماله وحبه الأعليين ، وصنع للناس فى الأرض عجائب لولا حوادث الموت والحياة ومزعجات الليالى لذهلت عقولهم ، فمن سرج تجرى فى سقف مرفوع تدور حولهم ، ومن حدائق وحقول حولهم ومناظر بهجات ، وتارة يرسل لهم شهبا تقترب

من أرضهم ليوقظهم إلى العـلا ، ونسبة هـذه الأعاجيب إلى صانعها كنسبة صـفات الـكرة والصولجان والنرد والشطرنج إلى مخترعها ، والتعجب يكون على مقدار اتقان الصنعة .

هذا ماسأذكره هنا قريبا ان شاء الله مع شذرات فى الآيات التى ذكرتها أيها الأخ الذكى ، فلما سمع ذلك قال : إن هذا لعجب ! وانى لفى غاية الشوق إلى ماوصفت ، وهانحن أولاء وصلنا بعناية الله فى التفسير إلى المقام الذى وعدتنى أن تجيبنى فيه . فقلت : ها أناذا أفى بعهدى الآن والله هو الموفق :

أيها الأخ الذكى : مدار سؤالك على أن حب الله وودّه وتنزيهه وعدله متوقفات كلها على ادراك مقاصد أفعاله ، فلأجعل هذا المقام فى اثنى عشر فصلا مرتبات على مقتضى السؤال :

الفصل الأول فى النظام التكوينى

اعلم أيها الأخ الذكى أن نظام التكوين مهما قلبنا طرفنا فيه لانجد فيه إلا مقاصد الاصلاح والبقاء ، وكل هدم وتخريب واهلاك فانه موجه إلى الاصلاح ، خذ لك مثلا : هـذه العوالم حولنا ، نراها فى تغيير مستمر ، وهذا التغير منشؤه كله أن المادّة لن تقبل إلا صورة وراء صورة فليست كعقولنا التى هى أشرف منها وأرقى ، إن عقولنا تسع مالاحدّ له من الصور والعلوم فى آن واحد ، ولكن هـذه المادّة التى جعلت لخدمة عقولنا لن تقبل إلا صورا وراء صور ، وصانع العالم يعلم صورا من الوجود لاحدّ لها ، وهذه الصور بحسب الرحمة العامة لابد من وجودها ، ولكن وجودها يستحيل أن يكون فى آن واحد ، فلامحيص إذن من شتاء وصيف وموت وحياة ، وهكذا جميع المتناقضات ، ولامفرّ إذن من زلازل وبراكين لاحداث تربة جديدة ، ولامحيص من موت الأحياء لتلبس أجسامهم صورا جـديدة لارواح حديثة ترسل إلى الأرض ، وهكذا كل حيوان وكل نبات ، فالعقل بهـذا البرهان يقضى أن تتعاقب الصور على هذه المادّة ، وأن هذا عدل وخلافه ظلم ، وأيضا الحياة فى هذه المادّة فيها شقاء ، فلابدّ من عروج هذه النفوس إلى عالم الأرواح لتستريح من هذا الشقاء .

فلئن رأينا موتا وحياة فذلك عدل وسواه ظلم بهذا البرهان ، وكل ما تفرّع على هذه القاعدة تابع لها فمن فروعها عوالم الحيوانات الذرّية التى تسمى بالميكروبات ، تلك العوالم التى أعدّت لابادة أمم وأمم من الحيوان والانسان ، ومن فروعها عوالم الطيور الكواسر فى الجوّ ، والوحوش والسباع فى الخلاء ، والحرّ والبرد المفرطان ، المهلكان بعض الحيوان ، وعوالم الأمراض القاتلات ، وعوالم الجيوش الانسانية الفاتكة بجيوش أخرى من بنى آدم فوق الأرض كما فى الحرب الكبرى المبتدئة سنة ١٩١٤ م المنتهية سنة ١٩١٨ م فهذه كلها من النظام التكوينى ، وصانع العالم كما ألهم الحيوانات الذرّية أن تفتك بالانسان والحيوان ألهم الجيوش الانسانية فى الأمم التى تسمى نفسها [متمدينة] باهلاك جيوش أخرى ، وعلمهم اختراع المهلكات والمدمرات لابادة اخوانهم ، كل هـذه أفعال صادرات عن نفوس تلك النفوس مخلوقة لصانع هـذا العالم الذى صنعها وصنع نفوس الوحوش والأسود ، فهذه الفروع كلها ترجع للأصل الذى قرّرناه وهو أن المادّة لاتسع إلا صورة وراء صورة ، فلابدّ من تلاحق هـذه الصور ، وكل ما رأيناه من هذه الأعمال تنزّعات ترجع لذلك الأصل ، إذن أيها الصديق نظام التكوين معقول ومقبول . انتهى الفصل الأوّل .

الفصل الثانى فى النظام التشريعى

ولاجرم أننا اذا أقررنا النظام التكوينى السابق فليس معناه أن نجعل النظام التشريعى على مقتضاه . كلا . بل التشريع شىء والتكوين شىء آخر . فقال صاحبى : أليس الأمران من صانع واحد ؟ فقلت نعم ولكن

الصانع ميز عالم الانسان عن هـذه العوالم التى حوله كلها من شموس وكواكب وحيوان ، أعطاه قوّة عقلية وقال له : أنا وضعتك هنا بين المتناقضات ، ووهبتك قوّة فاستعملها ، و إياك ثم إياك أن تحتج بأنى خلقتك ، فلك قوّة تمييز فاعمل بها ، فاذا قتل الانسان انسانا عمدا وقال لصانع العالم انك أنت تقتل الالوف والالوف ، وتهدم المدن ، وأنا يارب ماقتلت إلا واحدا أومائة ، فأنا أفعل ماتفعله السباع فى البرية ، وماتصنعه الكواسر فى الجوّ ، وماتصنعه الحيوانات الذرّية من إهلاك الناس ، فهبنى يارب ميكروبات ، أوفهبنى يارب من كواسر الطيور ، أومن أسد البرية ، أوهبنى جنديا من جنود أمة من الأمم تغزو أمة أخرى فانك سلطتها على غيرها فتبيد منها جنودا وجنودا ، وقد قضى نظام تكوينك أن تلبس المادّة صورة وتخلع أخرى ، وأنا من الذين ساعدوا فى ذلك ، فهل علىّ من سبيل ؟ .

اذا قال الانسان ذلك لصانع العالم يقول له مجيبا : أيها الانسان : هـذه الكواسر والسباع وحيوان الميكروب القاتلات كلها مسخرات بأمرى ، لها غرائز قضت عليها بذلك ، ولاحياة لها إلا به ، فلم يكن مقصـدها الا هلاك والتـدمير ، وانما غرائزها موجهات لما خلقت له ، فهى أشبه بالحرّ والبرد والزلازل ، فلامقاصد شريرة هنا ، فالحرّ والبرد لا ادراك لهما ، وكذا الزلازل ، وهذه الحيوانات مرغمات على ذلك ، أما أنت وان كنت مثلها فى أنك مساعد على أن تلبس المادّة صورة غير الصورة التى تلبسها فتخلع قديما وتلبس حديثا ، فان عملك عمل موجه لفكرة جزئية وهى فكرة الانتقام ، إما كراهة فى المقتول ، واما أن تفعل ذلك لتأكل ثمرات كسبه ، والامور بمقاصدها ، فاذا فعلنا الاهلاك والتدمير فى أرضنا فذلك قام عليه البرهان السابق الذى لامناقض ولامناهض له ، لأننا نريد الاصلاح العام ، فأما أنت فلم تردبعملك الاصلاح العام ، وانما أنت أردت شهوة خاصة وهو اشباع قوّتك الغضبية انتقاما ، أواشباع شهوتك البهيمية اغتناما لمال المقتول وفرق بين عملنا وعملك ، فلوجود هذه القوّة فيك أصبحت بها مسئولا أمامنا ، نعم أنت بقتلك انسانا ، فعلت مانفعله نحن بحسب الظاهر ، ولكن ليس المدار على الفعل بل على الباعث عليه ، وباعثك شهوتك وغضبك وباعث فعلنا رحمة عامة موجهة للمجموع ، وقد تفرّع عن هذه الرحمة كل ماحولكم مما اشتبه عليكم ، ولعلك بهذا تفهم قولنا فى الكتاب الكريم « فلله الحجة البالغـة » فهذه من حججنا البالغة التى ادّخرناها فى عوالمنا لتظهر للعقول الكبيرة فى أرضكم . انتهى

أقول : هذا هو الجواب الذى خطر لى اليوم ، الموجه من جناب صانع العالم إلى عبد من عباده يسأله السؤال المتقدّم ، كتبته اليوم صباح الجمعة ١٦ رمضان سنة ١٣٥٠ هجرية — ٢٢ يناير سنة ١٩٣٢ م وعلى هذا يتفرّع أن قتل الخطأ لاقتل فيه ، وانما فيه الدية ، وبه يظهر معنى « متعمدا » فى الآية . والى هنا تمّ الكلام على الفصل الثانى ، والحمد لله رب العالمين .

الفصل الثالث : فى ذكر الآلام التى تحيق بالانسان

فقال صاحبى : هذا الجواب جميل وبهيج وحسن ، ولكننى أريد أن أتبين وجوه تلك الآلام التى تعترينا وما وجه الحكمة فيها ؟ فقلت : لقد شرحت هذا فى التفسير فى مواضع كثيرة جدّا ، لاسيما فى تفسير البسملة التى تكرّرت هى وتفسيرها فى كل سورة . فقال : ولكننا نريد أن نعرف هنا معرفة عامّة . فقلت :

الفصل الرابع : أول مثل ضربه الله لفعله فى خلقه هو فعل الأم فى طفلها

معلوم مما تقدّم أن الأمّ أكثر الناس عطفا على ولدها ، ولكنها قد تجرعه الدواء ، وتلبسه اللباس ، وتغسل جسمه ، وهو كاره وكثير البكاء ، ولكن الأم لاتبالى بذلك كله ، بل تفعل المصلحة ولا تبالى بآلامه ، ولما كانت

الأم أقل من المربين لولدها ادراكا ، تلقفه بعدها من هو أولى بتدريبه وتعليمه وتهذيبه منها ، وهو الأب المذكور فى :

الفصل الخامس

ذلك ان الأب يأخذه إلى الحقل ، أوالى المعمل ، أوالى المدرسة ، ويحكم عليه بأن يعمل ويجد ، والأم غالبا تشفق عليه فى ذلك كله ، ولكن الأب لايبالى بما يقاسيه ولده ، وهناك من هو أوسع علما من الأب ، وهوالمذكور فى :

الفصل السادس

ألا وهو المعلم ، فيزيد فى تثقيفه وتعليمه وتدريبه ، وهذا يسلمه إلى الأمة والى الحكومة فى :

الفصل السابع

ذلك ان هناك ماهو أوسع مدى من الأم ومن عطف عليها حتى المعلم ، ذلك ان فى الأمة حكومة وقضاء والقضاء قد يحكم عليه بالتغريب ، أوالأشغال الشاقة ، لجرم ارتكبه ، فههنا رحمة أوسع من رحمة من تقدم ، ذلك ان الرحمة هنا شاملة لمجموع الأمة وهذا فرد منها ، وحياة الفرد لاقيمة لها إلا بحياة المجموع ، فاذا ظهر من الفرد مايخل بحياة المجموع مرض المجتمع ، ويتبعه الأفراد ، وهذا واحد منهم ، فهذه رحمة أوسع ، وقد تجمع الأمة الجموع لحرب غيرها ، دفاعا عنها ، أواغتيالا وظلما لها ، فالفرد هنا مسير بقوة المجموع ، ونيته هنا (وان كانت تابعة للمجموع فى حال الاغتيال والظلم) موجهة لعموم أمته لا له وحده ، والقاتل لغيره عمدا أكثر اجراما من هذا وان كان كلاهما مجرما ، وهل هناك تربية فوق هذه إلا الآتية فى :

الفصل الثامن

فى التربية الإلهية التى لاتقف عند ماتقدمها ، فهناك المصلحة العامة ، فلتكن الزلازل ، ولتكن البراكين ولتزل بلاد ، وليمت أهلها ، وليكن وباء عام ، ولتخسف أرضون ، بل لتزل شمس وأرض من لوح الوجود فهل هذه كلها إلا كموت زيد وولادة عمر ، القاعدة مطردة والفعل فى غاية النظام ، والمثل لهذا كله مافى :

الفصل التاسع

وهو مانشاهده من رحمة الأم بولدها مع صبرها على بكائه عند اعطائه الدواء الذى أمرها به الطبيب ، وهل بعد مابيناه من درجات التربية من أدناها إلى أعلاها إلا أن نذكر فى :

الفصل العاشر

التربية العامة فى مدارس العالم الانسانى قديما وحديثا ، والى أى حد وصل هذا الانسان ؟

وهل الأولون والآخرون يرمون لغرض واحد ؟ وماهو ذلك الغرض ؟

فاعلم أيها الذكى أن التعليم إما ظاهرى سطحى ، واما بهيئة حكمية عالية ، فالأول كعلم الشعراء والأدباء والخطباء والوعاظ ، ورجال الديانات فى الأرض ، والثانى كعلم الحكماء والفلاسفة ، وههنا وصلنا إلى أبواب المحبة والجمال والسعادة ، لاجمال ولاسعادة إلابالحكمة ، نعم الأم تربى ، والأب والمعلم ، والمدن تنظم ولكن المقصود من وجود هذه الأرواح الأرضية استنارتها وحبها ومعرفتها الجمال ، ثم عروجها إلى أعلى ، وذلك لم يكن ولا يكون ولن يكون إلا بجد الانسان نفسه ومحبته هو ، إن مباحث الانسان كلها موجهات إلى ادراك حقائق جميع

الأشياء إجمالا ، وذلك من الحب والشغف الموجه للمعرفة ، فلنذكر أوّلا أوصاف هذا الحب اجمالا ، ثم نقفي على آثاره بوصف الشعراء له ، ثم نتبعه بالآثار العالية للحب وهي الفلسفة ، فههنا ثلاث جواهر :

الجوهرة الأولى فى وصف الحب

ولقد أعجبنى الموضوع الآتى فى وصفه

قال بعض الأدباء : « إن الانسان الذى يبتغى أن يعيش بالسلام والهناء لابدّ له من معرفة قواعد الحب كما يعرف قواعد الكيمياء مثلا ، أوأنظمة البلاد التى يقيم فيها ، وهى مسألة حياة أوموت ، فليس الحب أعمى كما يزعم بعضهم ، بل هو بعكس ذلك يعرف دون سواه أن يبصر الحقيقة ، ولايقتصر فى ذلك على العلاقات بين البشر ، بل يتناول غيرذلك أيضا ، فلماذا يعدّ [اديسن] فى مصاف الدهاة حينما يدور الكلام على اختراعاته على اختلاف أنواعها ؟ فقد يجاوب بعضهم على هذا السؤال بقوله : لأنه أوتى دهاء وعلما ، لاننفى ما للدهاء والعلم من القدرة ، ولكن الأمر الجوهرى الذى مهد له سبيل الوصول إلى أغراضه هوحبه للعمل فى مختبره ووقف نفسه عليه .

إن الذى لايحب الخيل لايستطيع أبدا قيادة الخيل ، إن الطاهى البارع هوالذى يسر فى مزاولة الطبخ إن القصصى القدير هوالذى يحب الأشخاص الذين يختلقهم محبة شديدة ، إن الممثل الممتازهوالشديدالولوع بفنه ، والخطيب المصقع هوالذى يميل ميلا شديدا إلى الفصاحة ، وليس فى العالم قوّة أعظم من قوّة الحب ، وليس فيه رؤيا جلية أجلى من الحبّ ، وليس فيه حكمة أسمى من الحب ، وليس فيه فضيلة دينية أفضل من الحب ، ولايستطيع المعلم أن يعلم التلاميذ شيئا اذا لم يكن يحبهم ، ولاينشأ عن المال خيردائم ، ولكن القلب المحب ينشأ عنه خير حقيقى أكبر مما ينشأ عن جميع هبات [كارنجى] و [روكفلر] .

الحب يرى الأشياء واضحة أما عدم الاكتراث فيراها قاتمة ، وليس فى العالم سوى مأساة واحدة وهى فقد الحب ، والحب دون سواه مبدع أما البرودة فعقيمة ، ويزعم [غوتى] أن [مفيستوفيلس] روح الشر هوتخيل محض وانه لم يحب أحدا ، وقد جاء فى الانجيل : ان الله محبة ، ولم تصنع الأرض إلاللذين يحبون ، أماالذين لايحبون فمعدودون فى جملة الأموات وان كانوا أحياء يرزقون ، وكانواعلى سطحها يمرحون » انتهى ماأردته من جريدة الاهرام ، وبهذ تمّ الكلام على الجوهرة الأولى ، والحمد لله رب العالمين .

الجوهرة الثانية وهى طبقة الشعراء

فهل لك أن تسمع قصيدة بديعة لشاعرصينى يرثى نفسه قبل موته ، عاش سنة ٢٣٥٠ ق . م

جاء فى جريدة « الجهاد » يوم الاثنين ١٨ يناير سنة ١٩٣٢ — ١٠ رمضان سنة ١٣٥٠ هجرية مانصه بالحرف الواحد :

نشرت « البرلنغرتاجيلاط » ترجمة قصيدة بديعة عثر عليها المنقبون حديثا ، وقد كتبها يرثى بها نفسه الشاعر الصينى [تاويانمنج] الذى ولد فى سنة ٤٢٧ قبل الميلاد وتوفى فى سنة ٣٦٥ ق . م والقصيدة تدل على خيال بديع ، وزهد فى الحياة ، واحتقار لمتاع الدنيا ، واليك ترجمتها :

« نحن فى الشهر الأخير من سنة [تنجماو] والبرد شديد ، والليل طويل ، كأنما لا آخر له ، والريح تعصف بقوّة ، وطيور الليل تضرب بأجنحتها ، وترسل صراخها الثاقب . أما الأشجار فقد رأيتها فى النهار وقد ذبلت أوراقها ، وجفت غصونها ، ودبّ فيها الجفاف كما يدب الموت فى الحياة ، وهاأناذا أتأهب لمغادرة دار الضيافة (الدنيا) التى عشت فيها غريبا وحيدا ، لكى أعود إلى الأبدية التى لانهاية لها ، والتى هى

موطنى

موطنى الحقيق ، سيبكى الذين عرفونى ، وسيتصدّق أهلى بالنبيذ النقى ، والفاكهة الناضجة ، وستترقرق الدموع فى عيونهم فما أنعس الحياة ! .

أنتم يامن ستقرءون مرثيتى لنفسى ، انكم وفرتم لأبدانكم كل أسباب النعـمة ، أما أنا فولدت فقيرا ، وعشت فقيرا ، وكنت دائما فى حاجة إلى الطعام ، وكانت شراييني تنقصها الدماء ، كنت فى الشتاء أرتدى ملابس الصيف ، ولكنى عشت سـعيدا وأموت الآن سعيدا ، ولطالما انحدرت إلى الغـدير أملأ من مائه آنيتى ، وأعود منه مسرورا أغنى قصائدى ، وأردّد مقطوعاتى .

كنت أختبئ تحت كومة من الأوراق الذابلة ، وأواصل الليل بالنهار فى نظم القصائد ، ومتى فرغت من قصيدة أخذت أغنيها كالبلبل الغرد ، أغنيها واشتغل فى حديقتى ، والربيع يقبل وينقضى ، والخريف يأتى تلو الخريف ، وأنا أزرع ، وأحصـد ، وأنظم القصائد . كنت أجد فى القراءة ، والعزف على القيثار سرورا ليس بعده سرور ، وكنت فى الشتاء أبحث عن الشمس ، وفى الصيف أسبح فى ماء الغدير ، وكانت حياتى مجموعة من العـمل الشاق ، ولكنى كنت سعيدا مرتاح البال ، أقابل إرادة السماء بنفس طائعـة مطمئنة ، وهاأناذا أوشك أن أغادر الحياة كما دخلتها .

الناس يحبون الحياة ، ولديهـم دائما أعمـال ، يشفقون أن يخترمهم الموت قبل أن يفرغوا منها ، فهم عبيد الأيام والساعات وهم محبوبون طالما هم يعيشون ، ومتى طواهم الموت فقلّ أن يذكرهم أحد ، وان ذكروا فبطيبة أوخبيثة ، أما أنا فأغادر الحياة وحيدا ، ولم أخلف فيها مايشرّفنى أو يوصمنى ، وليس لى فيها ما أحرص عليه ، فأنا سعيد فى الحياة ، سعيد فى الممات ، وسيان عنـدى البقاء والعدم » انتهى ماجاء فى الجريدة المذكورة .

أقول : انما اخترت هذا الشاعر لأنه من الامور الغريبة لتوغله فى القدم ، فلنجعل هذه الدرجة إلى ماهو أعلى منها ، وهى الآتية فى :

الجوهرة الثالثة : آثار الحب العالية وهى الفلسفة

فاعجب لحكمة الأمم المتوغلة فى القدم وهى التى سأذكرها لك الآن كيف اصطلحت واتفقت مع الحكم التى عرفتها أمم بعدها ، ولامواصلة بين الأوّلين والآخرين ، فاعجب هنا من قصائد [المهابارانا] السنسكريتية ومعلوم أن [المهابارانا] مجموعة علواءات ، أوقصائد حماسية ، تحوى أكثر من مائتى ألف بيت فى وصف الحروب القديمة ، ويقدّرون أنها وضعت فى القرن الخامس عشر أوالسادس عشر قبـل المسيح ، فأصبحت وكأنها دائرة معارف لعلوم الحكمة البرهمانية وتعاليمها ، ومنبع آداب وجمال لاينضب .

ومن المجموعة الشعرية الأخرى التى تضارعها شهرة وأهمية هى [الرامايانا] فهذان الكتابان فى الهند بمثابة [الالياذه] و [الاوديسا] فى بلاد اليونان ، ولئن نسب كتابا الاغريق الى شاعرفرد هو [هوميرس] (رغم قول القائلين اليوم بأن هذا الشاعر لم يوجد أصلا) فان شاعر [الرامايانا] يدعى فلميكى ، أما علواءات [المهابارانا] فتعرف باسم [فياسا] جامعها فقط . إن المهابارانا المذكورة تشمل قسما عظيما منها يختص باسم [البهجاوات جيتا] وهـذه خاصـة ترجمتها إلى الانجليزية السيدة [انى بيزانت] فاطلع عليها قرّاء اللغـة الانجليزية فى زماننا . ولقد وصفت [مسز بيزانت] المذكورة هذه القصيدة التى ترجمتها إلى الانجليزية قائلة ماملخصه : « بين التعاليم الثمينة المودعة فى [المهابارانا] الـكتاب الهنـدى العظيم ، ليس من تعليم أندر وأثمن من [البهجاوات جيتا] ومعناه « نشيد السيد » فمنذ أن أرسلت هذا النشيدالفخم شفتا [كريشنا] الالهتان فى ميدان الوغى ليهدئ انفعالات تلميذه وصديقه [ارجونا] . كم من قلب هوطمأن وشدد ، وكم

من روح معذبة قد اقتاد إليه ، انما الغرض منه رفع طالب الرفعة من أدنى دركات التضحية السطحية إلى أعلى المراتب حيث تتضاءل الرغبات ، وحيث يمكث الحكيم الصميم فى تأمل هادئ ، بينما جسده وعقله يقومان فى نشاط بالواجبات المنوطة به فى الحياة ، فالحكمة الحكيمة حقا لاتعنى انعزال الجانب الروحى من الانسان ، بل توجب تحقيق اختباراته فى الأعمال الزمنية اليومية كائنة حقارتها ما كانت ، على أن يفكر المرء فى رقيه الخلقى والروحى ، وعلى أن يعلم أن الحواجز القائمة دون ذلك الرقى ليست متأتية من الخارج ، بل هى منبثقة من داخل النفس ، وبلوغ الرفعة الروحية لابد من الحصول على كمية خاصة من التوازن والانسجام النفسى بحيث يصبح المرء غيرمتأثر بالمسرات والآلام ، بالشوق والنفور وغيره من الانفعالات المتناقضة المتعاقبة فليتعلم القارئ إذن فن ترويض نفسه على أن لاتجذبه الجواذب ، ولاتزجره الزواجر ، بل يستخلص من هذه وتلك دروسا تقوده وتهديه إلى أعلى المبادئ فى وسط المحن والغموم ، فيقوم بواجبه كله على أتم وجه ممكن ، لا لأنه ينتظر نتائج عمله بل لأن القيام بالواجب مفروض عليه ، يعمل لأن فى العمل شرفا وترويضا وفائدة ، يعمل ليعمل ، ويزرع البذور دون أن ينتظر لنفسه جنى الثمار . انتهى

* * *

أنا اخترت نقل هذه القطعة من كلام هذه الكاتبة المترجمة معجبا بتعاليم صدرت قبل الميلاد بنحو ١٦ قرنا ونار انبعثت من الوجدان الانسانى العميق ، ثم ظهرت الآن حديثا ، فأدهشنا والله هذا القول ، أدهشنا لأننا نرى روح الانسان الوثابة لم تفتأ تجد ، ولن تفتأ حتى تقرب من الحقيقة ، وهل الحقيقة التامة إلا أن أعمل حبا فى نفس العمل ؟ نعم هو ذلك ، فههنا يقول الله : « سبح لله مافى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ، له ملك السموات والأرض يحيى ويميت وهو على كل شىء قدير » . ان عمل الله موجه للمصالح العامة كما قدمناه ، وكل من كان أقرب إلى نفس المصالح العامة بشوق فهو إلى الحكمة العليا أقرب ولن يبلغ هذه المرتبة أحد بمجرد القراءة ، بل لابد من شعور يفيض من النفس بعد الاطلاع والتعمق ، أما ظواهر العلم فلاتعطى هذا الشعور والادراك الجليل . وقد آن أن أحدثك عن سير علم الحكمة فى العالم بعد ذلك التاريخ ، ولقد تقدم فى ﴿ سورة الحجرات ﴾ عند آية : « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا » حكمة [كنفوشيوس] حكيم الصين المتوفى سنة ٣٧٨ ق . م وانه جعل نظامها هكذا :

(١) أولا مشاهدة الأشياء والأفعال المحيطة بنا

(٢) ثانيا : متى كملت المعرفة خلصت الأفكار وتنزهت الأغراض .

(٣) ومتى تنزهت الأغراض تهذبت الأخلاق وتنقت النفوس .

(٤) ومتى تنقت النفوس انتظمت الأسر .

(٥) ومتى انتظمت الأسر انتظمت الدول .

(٦) ومتى انتظمت الدول أصبحت الأرض كلها تمرح فى السعادة والحبور .

هذا ملخص ماتقدم هناك وهوهنا أكثر وضوحا مع الاختصار ، اللهم انك أنت العزيز الحكيم ، سبحت لك الأفلاك ، سبح لك مافى السموات والأرض ، لأن كل مافيهما يرى لك عزة بها قهرت كل مادة فصارت مصوغة كما تريد ، وهذه الصياغة محكمة ، فأنت عزيز ، وأنت حكيم .

ينظر العقلاء فى سمواتك وأرضك فيرون مادة بلانهاية يرونها ، وحكمة فى تلك الصور لاحد لها ، ثم يرجعون إلى الحقائق والعقول فماذا يرون ؟ يرونك جعلت العقول المنقطعة التواصل ، المتباعدة المناهج ، المنفصلة المساكن ، المتطاولة الأزمنة ، ترمى لغرض واحد ، وماهو هذا الغرض ؟ هو تسبيحك وتقديسك بحب وشوق وغرام لك وولوع .

يارباه : هاهى‌ذه [المهاباراتا] باللغة السنسكريتية قبل ٣٥ قرنا وهى مائتا ألف بيت ، هذه [الرامايانا] هاتان موسوعتان لعلوم أمم وأمم قبلنا ، وهاهى ذه خلاصة من أولى المجموعتين ، فكانت النتيجة نظرة عامة فى الوجود ، وحب لخالقه ، وصبر على السراء والضراء ، وذلك كله تابع للحب ، وهاهوذا الشاعر الصينى منذ ٢٤ قرنا نراه يحوم حول هذا المعنى بدون تعمق ، وهاهوذا فى نفس ذلك القرن الفيلسوف كنفوشيوس الصينى يلقى لنا درسا فى عدة أسطر ، فنرى علم الفلسفة كلها ملخصة فيها ، فقد ذكر ظواهر الطبيعة التى تشمل الرياضيات والطبيعيات ، وانتقل إلى تهذيب النفس ، وآداب الأسرة ، ونظام الدولة .

هذا ملخص فلسفة الأمم الحديثة قد ظهرت عند الصين قبل الميلاد ، والترتيب هونفس الترتيب ، ولما كانت فلسفة اليونان قد نقلت إلى علماء الاسكندرية ، والى الفرع الشامى والفرع الأثينى بعد الميلاد وأيام حكم الرومان قرءوا نفس هذه الفلسفة على هذا الاسلوب نفسه ، وانتقلت إلى المسلمين بنفس هذا الترتيب ، ظواهر الأشياء ، ثم معرفة الله ، ثم تهذيب النفس ، ثم الأسرة الخ وهونفس ما قاله كنفوشيوس الصينى ، ولما وصلت هذه الفلسفة الى أوروبا وقرأها [بيكون] الانجليزى غير النظام ، ولكن الجوهر واحد ، فقال : أوّلا ان جميع العلوم نسميها تواريخ ، والتواريخ ترجع لقوّة الذاكرة ، فالذاكرة تذكرنا بالتاريخ البشرى والتاريخ الأثرى الذى جاء فى الديانات وبالتاريخ العلمى ، فنقول التاريخ الطبيعى والتاريخ الرياضى الخ وههنا يختص أناس بعد هذه العلوم بالبحث فى نظام الطبيعة ومعرفة الله ومعرفة النفس ، فههنا نظام عام فى مقابلة نظام أجسامنا الخاص ، وههنا مدبر عام لهذا النظام فى مقابلة المدبر الخاص لأجسامنا وهى نفوسنا فكان علم النفس التى بها يعرف المنطق فعلم الجمال فنظام الأمة والأسرة والقوانين العامة ، إذن نظام الفلسفة الذى صوّره [بيكون] هو نفس النظام القديم المنقول عن اليونان ، وهوهوذلك الذى أجله [كونفوشيوس] .

الله أكبر : علم واحد ونظام واحد تهتدى به العقول قديما وحديثا ، ونسمعك فى كتابك تقول : « سبح لله مافى السموات والأرض » فكان جميع المسلمين على نمط واحد ، وكيف لا يكونون على نمط واحد والمنبع واحد ؟ وكيف لا يكونون على نمط واحد ونحن نرى كنفوشيوس الصينى الذى بهر الصين بحكمته مغرما بك غرام كتاب [المهاباراتا] وما فيه من [البهجاوات جيتا] الذى اتضح فيه معنى آية هى فى نفس سورة الحديد ، كتاب البهجاوات جيتا الذى ترجم إلى الانجليزية حديثا ، وقد ترجمته فتاة ، هذا الكتاب نتيجته قد ظهرت فى آية فى نفس هذه السورة ، أى سورة الحديد ، يقول الله : « اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرّا ثم يكون حطاما وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ، سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدّت للذين آمنوا بالله ورسله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذوالفضل العظيم ، ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولافى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير ، لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور » .

أفلا تعجب معى أيها الذكىّ المطلع على هذا التفسير ، فهل كان يدور بخلدى حينما ابتدأت فى كتابة تفسير ﴿ سورة الحديد ﴾ وأنا أرتب هذا الموضوع أن خلاصة مافى كتاب [البهجاوات جيتا] هى نفسها فى آية من هذه السورة ، إذ يقول تعالى : ان مايصيبكم أيها الناس قد كان عندى فى كتاب ، وانما أقصّ عليكم ذلك لأجل ألا تفرحوا ولا تحزنوا ، فاذا كان كل شىء مرتبا منظما عندى فما شأنكم أنتم ؟ وكيف تفرحون بشىء لا عمل لكم فيه ، أم كيف تحزنون على شىء فاتكم وأنا الذى قضيت بفواته لكم ؟ فلتكن حياتكم حياة تسليم

فى كل وقت ، وقد ضربت لكم المثل المحسوس ، وهى الأم تستعذب العذاب فى سبيل مرضاة ابنها لأنها تحبه ، فالحب يجعل الصعب سهلا ، احبت الأم ابنها فهى لايهنأ لها طعام ولا شراب ولا حياة إلا بارضائه واسعاده .

هذا مثل مشاهد لآثار الحب ، وليست الفلسفة الملخصة من تاريخ علوم الأمم قديما وحديثا المعبر عن نتائجها بقوله تعالى : « سبح لله مافى السموات والأرض » الخ إلا نبراسا للحب : أى حب صانع العالم ، وحب نفس العالم من حيث نظامه ، وحب الناس وأسعادهم ، وهذا الحب نتائجه استعذاب العذاب فى سبيل انتهاج الخطة المثلى التى اختطها مبدع العالم من حيث المعرفة العامة وسعادة المجموع ، فاذا كانت الأم مغرمة بابنها ، وهـذا الغرام أنساها الآلام ، فهكذا كان حكماء الأمم قديما ، وهكذا سيكون حكماء هـذه الأمة الاسلامية فى مستقبل الزمان .

يا ألله : تقطعت قلوبنا أسى وحسرة على أمم الاسلام ، فأنلنا ما نريد فوق ما أنلتنا ، يا ألله : أنا لا أدرى وأنا أكتب هذا الموضوع بأىّ فكر أكتب ، أكاد أكون منفذا لفكر ليس لى .

تحدّثا بنعمة الله ، جلست حين أردت الابتداء فى هـذا الموضوع ، فرأيته موضوعا مشتتا غير منتظم ، وكل ماليس منتظما فليس بمشوّق لقراءته ، لأن الجمال يتبع النظام ، وما ليس منتظما ليس بجميـل ، هنالك ودعت القلم والقرطاس وقلت إلى الملتقى ، ثم رأيت الشمس أمامى ضحى ، وقد تقدّم فى هـذا التفسير فى أوّل ﴿ سورة يونس ﴾ عند الـكلام على الشمس وضيائها كيف نصح الأطباء بأن يجلس الانسان فى الشمس عاريا ماعدا العورة شرعا ، وماعدا الرأس طبا ، ففعلت ذلك ، و بقيت فيها أتلقى أشعتها ، وأحمد خالقها ، الذى علمنا علما يجهله أكثر هـذا النوع المتمدين الانسانى ، الذى حرّمت عاداته عليـه أن تباشر أشعة الشمس جسمه ، وهى أكبر نعمة حظى بها النبات والحيوان ، وحرمها الانسان لجهالته ، و بذر وأسرف فى الملابس جهلا وغرورا ، ورثها عن الآباء تقليدا ، وما أقبح التقليد ، لجلست نحو ساعتين ، وفى أثناء ذلك كنت أحسّ بسعادة ، لأنى تلقيت أشعة الشمس ولو قليلا من ساعات النهار ، وما كدت أقوم من مجلسى حتى رأيت فى نفسى عجبا ! رأيت هذا الموضوع المتشعب قد رتب اثنى عشر فصلا منظمة مرتبة ، فلم يسعنى إلا أن قمت من فورى وقيدت الفصول التى أسمعتها لك قريبا ، وأخذت أشرحها ، وهذا تمام الفصل العاشر منها .

الفصل الحادى عشر : فى بيان أن الحب على مقدار العلم

إن هذا المقام ظاهر فى كثير من مواضيع هذا التفسير ، ولـكن نذكر هنا جملة وجيزة تناسب هذا المقام ، الأمم تسبح ربها ، ومافى السموات والأرض تسبح لله ، وفلاسفة الصـين واليونان والعوالم كلها تسبح له ، والتسبيح ذكر ، والذكر يتبعـه الفـكر ، ألم تر إلى قول الله تعالى : « الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم و يتفـكرون فى خلق السموات والأرض » الخ والتفكر يوجب المعرفة ، والمعرفة يتبعها الحب .

الأعمى لا يحبّ الصورة الجميلة لأجل جمالها ، لأنه لم يعرف ، هكذا عمى القلوب لا يعرفون جمال هذه الدنيا ، لأن عيون قلوبهم لم تشاهدها ، وهذا باب واسع لا آخر له ، وانظر آخر حديث فى البخارى ، قال حدّثنى أحمد بن اشكاب حدّثنا محمد بن فضيل عن عمـارة بن القعقاع عن أبى زرعة عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال النبىّ صـلى الله عليه وسلم : « كلمتان حبيبتان إلى الرحمن ، خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان فى الميزان : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم » اهـ

فهاتان الـكلمتان الخفيفتان على اللسان هما التسبيح المقرون بالحمد تارة و بعظمة الله أخرى . الله أكبر : نطق اللسان بها وهى سهلة عليه ، ولـكن الميزان بها ثقيل ، وهل يثقل الميزان إلا بما أودع فى التسبيح من العلوم

التى يعقلها الانسان ، وهل لعلوم التسبيح آخر ؟ أليس له ملك السموات والأرض ، أليس يحيى ويميت ، وهو الأول والآخر والظاهر والباطن الخ . كل هـذه مقرونة بالتربية ، وهذه يعوزها علوم وعلوم ، وعلى مقدار الغرام بالعلم والوصول للحقائق يثقل الميزان ، واذا لم نحس فى أنفسنا فى الحياة الدنيا ببهجة العلم وارتقاء النفس به والابتهاج بآثاره فلاوزن فى الآخرة ، إن الميزان فى الآخرة على مقدار ماحصلنا فى الدنيا ، فان كنا من العباد ، فالميزان على مقدار احساسنا بآثارها ، وان كنا من المفكرين فعلى مقدار علومنا وتأثرنا بها يزداد ميزاننا رجحانا « إنّ ربى على صراط مستقيم » . انتهى الكلام على الفصل الحادى عشر والحمد لله رب العالمين .

الفصل الثانى عشر

فى أن الله عزّ وجل توارى عنا بحجبه ، ولكنه قذف لنا كرات لاحصر لعددها ، وهى الشموس والكواكب ، وهو يقرّبها ويبعدها ليجذبنا إلى حضرته العلية ، وجعل الشطرنج والنرد عند اللاعبين مثلا لذلك كما جعل الجمال والحب الأدنيين مثلين لجماله وحبه الأعليين

وضع الله للناس فى الارض عجائب لولا حوادث الموت والحياة ومزعجات الليالى لذهلت عقولهم ، فمن سرج تجرى فى سقف مرفوع تدور حولهم ، ومن حدائق وحقول تحيط بهم ، ومناظر بهجات ، ولم يكتف بتلك الكرات البعيدة الجليلة ، بل أرسل لهم شهبا تقترب من أرضهم ليوقظهم إلى العلا ، كأنه يقول : هذه نموذج للشموس والكواكب ، ونسبة هـذه إلى صانعها كنسبة صفات الكرة والصولجان والنرد والشطرنج إلى مخترعها ، أوكنسبة آلات النور وآلات الصوت إلى مخترعها ، وهو [اديسون] فى زماننا .

الله أكبر : صنع العبد بالنسبة لصنع صانعه أقل بما لاحدّ له من عمل الأطفال وهم يركبون العيدان ويجرون فى الطرقات بالنسبة لآبائهم وهم يركبون الجمال والخيل . جلّ الله : أين نحن من عجائب مدهشات أشار لها الله تبارك وتعالى هنا فى هـذه الآيات فقال انه له ملك السموات والأرض وانه يحيى ويميت وانه على كل شىء قدير الخ فما هو هذا الملك ؟ هذا الملك منه شمسنا ، منه مجرّتنا ، مجرّتنا التى يقول [سيزر] (وهو أحد علماء مرصد جبل ولسن) ان فيها ٣٠ ألف مليون نجم ، ويقول [نتايبلى] وهو أحد أساتذة الفلك فى [هارفرد] انها مائة ألف مليون نجم ، ويبلغ قطع المجرّة الأطول ٢٢٠٫٠٠٠ سنة ضوئية ، وهى المسافة التى يقطعها الضوء فى ٢٢٠٫٠٠٠ سنة بسرعة ١٨٦٠٠٠ ميل فى الثانية الواحدة ، هذه مجرّة واحدة ، أوهذه جزيرة واحدة من الجزائر التى خلقها الله فى هذا البحر الواسع ، ذلك البحر الذى امتلأ بمادّة ليست ماء ولكنها أمر أشبه بخيالنا سموه الأثير ، تبارك الله رب العالمين .

فهذه الجزيرة التى سميناها مجرّة فيها شموس كشمسنا أوأعظم بما لاحدّ له ، وعدد الشموس من ٣٠ ألف مليون شمس إلى مائة ألف مليون شمس ، فهذه الجزيرة الواحدة لها أخوات فما عدد هذه الأخوات ياترى ؟ عدد ما يمكن معرفته منها مليونان (كما يقوله هبل أحد علماء مرصد جبل ولسن) على اعتبار أن تلسكوب المرصد المذكور فى الوقت الحاضر ١٠٠ بوصة ، وكل واحد من هذه الجزائر التى سميناها مجرّات يبعد عن الآخر مليونى سنة ضوئية ، وأبعدها عنا يبعد ١٤٠ مليون سنة ضوئية ، ومتى تمّ بناء التلسكوب الجديد الذى سيكون قطر مرآته ٢٠٠ بوصة يتمكن الراصدون من الوصول به الى ١٦ مليون مجرّة من هذه المجرّات بدلا من مليونين ، والمجرّة الواحدة من هـذه الستة عشرة مليون فيها مادّة تكفى أن يكون منها نحو ألفى مليون نجم .

هـذه آراء علماء الفلك فى معرفة ملك الله ﴿ و بعبارة أخرى ﴾ هذا آخر مايفهمه النوع الانسانى فى فى تفسيرقوله تعالى : « له ملك السموات والأرض » فيقال :

أولا : ما الذى عرف الناس من ملك السموات

وثانياً : ماذا عرفوا من ملك الأرض

والاجابة عن الأوّل أن الناس يظنون اليوم أن هذا الملك يصل إلى ١٦ مليون مجرّة تضرب فى ألفى مليون شمس كشمسنا ، ماهذه العظمة ؟ ماهذا الملك العظيم ؟ ماهذا الابداع ؟ هذا هوقول المصلى « الله أكبر » وهذا قوله فى صلاته « الحمد لله رب العالمين » وهذا قوله « الرحمن الرحيم » وهذا هوالتسبيح : « سبح لله مافى السموات والأرض » . يقرأ المسلم : « ومن الليل فسبحه وادبارالنجوم » فى آخر سورة الطور ، ثم يقرأ بعدها « والنجم اذا هوى » . أقسم الله بالنجم وهذا بيت القصيد ، أقسم بالنجم ليلفتنا إليه لنعرف سعة ملـكه الذى ظهر بعضـه فى زماننا ، ولذلك يقول فى [سورة الواقعة] « فلاأقسم بمواقع النجوم ، وانه لقسم لوتعلمون عظيم » .

عجب ! يقول « لوتعلمون » ولقد علمنا اليوم بعض تلك العظمة التى بها نفهم أمرنا بالتسبيح فى آخر نفس سورة الواقعة ، ونفهم الاخبار بأنه « سبح لله مافى السموات والأرض » فى أوّل الحديد .

أيها المسلمون : القرآن لهذا نزل ، أيها المسلمون : أنتم مأمورون أن تسبحوا ، وهذا هو التسبيح ، وهل يكفينا فى هذا المقام : أى فى الاجابة عن السؤال الأوّل ، وهو ملك الله المذكور فى آية : « سبح لله مافى السموات والأرض » أن نؤلف صفحات أوكتبا ، إن الاجابة يعوزها آلاف آلاف من العلماء فى آلاف الآلاف من السيارات والأرضين وهم يدوّنون فلايستطيعون سبيلا لنهاية الاجابة ، هاهوذا علم الفلك أرانا شذرة من العلم فأدهشنا ، هاهوذا علم الفلك يحدّثنا :

فياسعد حدّثنا بأخبارمن مضى ✲ فأنت خبير بالأحاديث ياسعد

وقال ابن الفارض :

وعلى تفنن واصـفيه بحسنه ✲ يفنى الزمان وفيه مالم يوصف

يقول علم الفلك ولوعلى سبيل الظن إذ هوالممكن لنا ونحن على هـذه الأرض : ان ١٦ مليون من المجرّات التى قدّر علماء الفلك بحسب المرصد الذى يبنى الآن وقطره ٢٠٠ بوصة بضربها فى ٢٠٠٠ مليون كوكب يبلغ الحاصـل من ذلك كله ٣٢ ألف مليون مليون كوكب ﴿ و بعبارة أخرى ﴾ ان الشموس التى يقدّر وجودها الناس اليوم فى ملك الله الذى نسبحه ونعظمه فى هذه الآيات ، هى هذه الأعداد التى يذهل العقل فى تقديرها بعد أن كان هذا النوع الانسانى لايعرف من عظمة الله إلا شمسا واحدة ، وهى شمسنا هذه التى يذهل العـقل حين يرى أن ذوات الأذناب الدائرات حولها كسمك البحر عدّا ، وهكذا النيازك والشهب ، فالمجموعة الشمسية تذهلنا عظمتها ، والمجرّة التى تشمل المجموعة أشدّ إذهالا لنا ، وعدد المجرّات أعظم وأعظم . هذا هو الذى به نفهم قوله تعالى : « قل لوكان البحرمدادا لـكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى » وهذا مبـدأ تفسيره ، إن تفسيركتاب الله كل علم ظهر وكل علم يظهر ، واذا كان الاجمال هكذا مدهشا لاحدّ له فالتفصيل من باب أولى ، فليقل علماء الفلك اليوم اننا نظن أن الشمس الآن قدمضى من عمرها خمسة ملايين مليون سنة ، وأن الأرض قد مضى لها نحو ألفى مليون سنة ، وأن عمر الحياة عليها نحو ٣٠٠ مليون سنة ، وعمر الانسان عليها ٣٠٠ ألف سنة .

وليقولوا كذلك [1] : « إن الشمس ستبقى مدة تتراوح بين ٥٠ مليون مليون سنة و٥٠٠ مليون مليون سنة » فليقولوا ذلك ، وسيقول غيرهم كلاما غير هذا : وهكذا ليقولوا ان هناك شموسا أكبر من شمسنا ٢٥ مليون مرة كشمس من شموس الجوزاء ، وضوء شمسنا بالنسبة لضوء ذلك الكوكب كضوء الحباحب بالنسبة لضوء الشمس ، ثم ليقولوا ان هناك شموسا لاتبلغ سوى جزء من عشرة آلاف جزء من تألق شمسنا ، فليقولوا ذلك وليقولوا فالأمر عظيم ومدهش ، فليقولوا فانهم انما يفسرون قوله تعالى هنا : « سبح لله مافي السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ، له ملك السموات والأرض» فهذا هو ملك السموات وهذه هي الاجابة على السؤال الأول .

الاجابة على السؤال الثانى ، وهو ملك الأرض

فما هو ملك الأرض ياترى ؟ الأرض سيار يتبع الشمس ، إذن هو عدم صرف ، وكيف لا يكون عدما وهذا الملك الذى اطلعت عليه بحسب ماوصل إليه العقل الانسانى لوأن الأرض صغرت فصارت جوهرا فردا يكون كله ألف مليون أرض كأرضنا بحجمها الحالى : أى ان الملك يصغر بنسبة صغرها هى ، فهى صغرت حتى صارت جوهرا فردا ، فيكون الملك كله ألف مليون أرض ، كهذا الحجم الحالى ، إذن الأرض عدم والسكان عليها لامعنى لذكرهم أيضا لأنها هى أشبه بالعدم فهى إذن عدم ، ولكن عند البحث نجد مافوقها من العوالم يدهشنا أيضا ، فهو يفعل فى عقولنا ما فعلته أعداد المجرّات اللاتى يظن أنها ربما تبلغ ١٦ مليون مجرّة ، وهى الآن مليونان اثنان : أى ماعلم منها ، ثم هذه الأعداد بالنسبة لما عرفناه ومالم نعرفه أعظم وأعظم ، والمجرّة الواحدة تحوى مادّة لاتقلّ عن أن يصاغ منها نحو ألفى مليون شمس وهكذا إلى آخر ماتقدّم ، فنفس هذه الحيرة قد أذهلتنا فى العوالم التى على أرضنا التى تشبه العدم ، حيوان أنواعه تعد بمئات الألوف ، ونبات كذلك ، ومعادن ، وغرائب لاحصر لها ، والذى قلناه فى تلك العوالم نقوله فى هذا العالم الذى يشبه العدم .

عجب حياتنا كلها ! عجب هذا الوجود ! سعادة تنتظر نفوسنا بعد مفارقة هذه الدار ، نور ، بهجة ، جمال ، لك الحمد يا ألله على العلم وعلى الحكمة ، فلنقتصر فى هذا المقام الذى لاحصر له على زهرات من العلم ، ولنذكر بعض جمال النبات وجمال الحيوان مما تقدم شرحه فى هذا التفسير ، ولنذكر بعض جمال النبات المذكور فى المجلد التاسع عشر :

(١) فنها أن هناك شجرة تسمى [شجرة البقرة] من كراكاس وهى تعطى لبنا خالصا سائغا للشاربين وأهل كراكاس يتغذون منه ، ومن العجب أن صفات هذا اللبن هى نفس صفات لبن البقر و يفضل عليه بأن الأحماض لاتؤثر فيه ، ومن عجب أيضا أنه يستخرج منه عطر .

(٢) وشجرة [ذات اليد] يستعمل ورقها لعلاج الصرع ، وهى تنبت فى البرازيل .

(٣) وشجرة الحرير : وهى شجرة باسقة جدا [والمسيو برتران بوكانديه] يقول : ان فى كازاما منسى مراكب طولها ١٥ مترا فى عرض مترين ونصف ، تصنع الواحدة من ساق إحدى هذه الأشجار ، وتزرع الشجرة عند ميلاد الغلام ، فاذا كبر وعقل واستقلّ أخذ كل مايلزمه من هذه الشجرة ، فلها فاكهة ولها وبر قطنى حريرى كثير جدا تقذفه على الأرض إلى مسافات بعيدة ، تراها كأن السماء أمطرت لؤلؤا وثلجا ، وهذا الوبر يجعل فى الوسادات والفرش الوثير .

---

(١) يقول المؤلف : إن أكثر هذه الحقائق من الكتاب السنوى الثانى الذى يحتوى على مجموعة المحاضرات التى ألقيت فى مؤتمر المجمع المصرى للثقافة العلمية لسنة ١٩٣١ .

(٤) وشجرة الدّهن : تزرع فى الصين ، يصنع منها شمع كشمع العسل فيضىء ، وهكذا يستخرج منه دهن ونوع من الزيت .
(٥) وشجرة الثعابين : تزرع فى البرازيل ، وجذرها يستعمل فى الشفاء من لسع الثعابين .
(٦) وشجرة [الكمثرى اليابانى] ولها لبن وقشده .
هذا ملخص ما تقدّم هناك ، أنا لست الآن إلا فى مقام ذكر ملك الأرض ، وملك الأرض اكتفينا منه ببعض زهرات العلم ، وهذا التفسير فيه كثير من علم النبات فى مواضع مختلفة تكفى اللبيب فلنقف عند هذا الحدّ ، اننا ذكرنا ستة أشجار فقط ، فألفينا حريرا وفاكهة ، وشفاء من الصرع ، وشفاء من لدغ الحيات ، ولبنا ، ودهنا ، وعطرا ، ومراكب كبيرة ، وعجائب كثيرة ، فأصبحنا أمام هذه الشجرات الست وماماثلها مما يعدّ بمئات الألوف من النبات كأننا فى حيرة المجرّات والشموس والسيارات والأرضين العظيمة عظمة لأحدّ لها فيما قلّ وفيما كثر ، إذن فلننفض فى الكلام على شذرات من علم الحيوان ، فنقول :

شذرات من علم الحيوان

أنا الآن فى مقام التسبيح ، والذى نسبحه وهو صانع العالم له ملك السموات والأرض ، ومن ملك الأرض الحيوان ، وقد قلنا ان فى هذا التفسير ما يكفى للثقافة العامة فى أمم الاسلام ، ولكن لابدّ من ذكر نبذ من أجل ماتقدّم ، فأذكرك أيها الذكىّ بما تقدّم فى ﴿ سورة طه ﴾ عند قوله تعالى : « قال ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى » فانظر هناك تجد :
(١) الثعالب ونحوها تعلم منها الانسان حرفة الصيد .
(٢) ومن الفيران تعلم سكنى الكهوف .
(٣) ومن نحو الظباء تعلم أن يعيش فى الآجام .
(٤) ومن النمل اتخذ البيوت .
(٥) ومن حيوان يسمى [الكستور] بنى الجسور المتينة لمنع السيل .
(٦) ومن الدب فى الأقطار الشمالية تعلم صناعة السفن .
(٧) ومن العنكبوت تعلم الصيد بالشبكة .
(٨) ومن بعض السمك تعلم صناعة النجارة باستعمال البلطة والمنشار .
(٩) ومن السرطان فى البحر تعلم صناعة الدروع التى تقى جسمه النبال .
(١٠) ومن أمّ الخلول تعلم أحقاق النشوق .
(١١) ومن الخنزير تعلم حراثة الأرض .
(١٢) ومن الهرّة تعلم الاحتراس من الروائح المتصاعدة من الفحم .
وهكذا من الصناعات التى تبلغ ٣١ صناعة مذكورة ، وهذه قلّ من جلّ من تلك الصناعات الحيوانية التى عرفها الحيوان وقلده الانسان فيها ، فملكة الحيوان مملوءة من العجائب كملكة النبات فيما تقدّم ، فاقرأ بقية ماذكر فى ﴿ سورة طه ﴾ .
ثم اعجب مما حفظ به الحيوان من الهلاك ، فهو كما كمل بالصناعات العجيبة النافعة فعاش قرير العين أسبغت عليه نعم أخرى بها حفظ من الهلاك ، فانظر ماتقدم فى ﴿ سورة المؤمنون ﴾ عند آية : « وما كنا عن الخلق غافلين » وتأمّل الفيران مثلا كيف كان لونها السواد ، ذلك لأنها مضطهدة من جميع الناس لأنها مسلطات على زروعهم بأكلها ، وعلى أجسامهم بما تنقل لهم من العدوى ، ولكن الصانع الحكيم الذى برأها هو

الذى

الذى يدافع عنها ، بماذا يكون ذلك الدفاع ؟ يكون الدفاع بأمر عدمى ، ماهوذلك العدمى ؟ هوعدم اللون ، وهوالسواد ، فانه اذا حرم من الخروج نهارا ، فلا بد له من السعى ليلا ، ولوكان لونه غيرالسواد لظهر ، فبهذا حفظ .

أيها المسلمون : لهذا يقول الله : « سبح لله مافى السموات والأرض وهوالعزيز » عز أى غلب وقهر هذه المواد ولم يبال بالأهواء ، كأن يقال : لماذا لا يكون الفأر كالطاوس جمالا وبهجة ؟ فلا يكون هناك جواب غير نفس العلم (الحكيم) ، فهوحكيم فى صنعه ، وبحكمته سوّد الفيران لتحيا محاربة للانسان ، لأنه يريد حياة الخصمين معا لا أحدهما ، وبهذه المخاصمة تتم الحياة ، ولوعاش الانسان بغير مضاد له لكان أقرب إلى البله ، ولضعف تفكيره ، ومثل ما قلنا فى الفيران نقول فى عشرات الحيوانات المذكورات هناك من الاسود والنمور اللاتى تشبه آجامها ماحولها فى الصحارى والقفار ، ولوأن ألوانها لم تكن كذلك وكانت واضحة لرأتها فرائسها ففرت منها فهلكت تلك الحيوانات المفترسة فى يوم أو بعض يوم ، وهكذا نقول فى نحوالجمال (الإبل) إنما كان لونها كلون ماحولها فى الجبال والوهاد ، لأنها لولم تكن كذلك لافترستها السباع لظهورألوانها . الله أكبر : « يسبح لله مافى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ، له ملك السموات والأرض » .

وهكذا يقال فى طائر ليلى بأمريكا مذكور هناك ، فهوذوذيل طويل أبيض يقق ، ولكن هذا البياض ليلا لايضرّه لأن له سلاحا يقيه العطب ، وهى الرائحة الكريهة كرائحة الظربان ، كما ان الزنابير الملوّنة ألوانا براقة بالنهار لاتخشى العطب من هجوم أعدائها ، لأن هؤلاء الأعداء يعلمون ماعندها من السلاح والكراع وقس على هذا بقية الحيوانات المذكورة هناك فراجعه .

ومثل ذلك يقال فى أنواع الحشرات من أبى دقيق المذكورات فى ﴿ سورة الروم ﴾ المرسومة صورها هناك كما رسمت صور كثيرة للحيوانات المتقدّمة فى ﴿ سورة المؤمنون ﴾ ففى هذه التى فى سورة الروم ترى نوعا من حشرات أبى دقيق لها لون جميل شديد اللمعان ، وهذه الحشرات اذا أمسكتها بيدك لوّثت جسمك وثيابك بمادّة قذرة ، عرفت ذلك كل الحيوانات فتحامتها ، ولكن المدهش أن هناك حيوانات أخرى لاسلاح لها تعيش مع هذه فى مكان واحد ، وتلوّن كلونها حذوالقذة بالقذة فتتحاماها أعداؤها فيكثرنسلها (ارجع إلى هذا المقام هناك تجد تفننا فى أساليب الدفاع بالمشابهة فى الألوان اختصارا فى صور الطبيعة البديعة .

نعم هذا هوالملك ، وهذا هوالابداع ، وحسن الصنع والتزويق ، واظهار الجمال ، تفنن فى المجرّات ، تفنن فى الشموس ، تفنن فى السيارات ، تفنن فى النبات ، كل هذه أفانين وأفانين لاحدّ لها ولاانتهاء .

جمهوريات الحيوانات

ضرب مثل يذكرنا باجتماع الأرواح بعد مفارقة الأجسام

يظهرلنا أن كل ماتتصف به جعل ضرب مثل لنا ، ومن الأمثال المضروبة لنا جمال الصور فى كل ماتراه ، فاننا نفرح به ثم يزول ، كأنه يقال : هناك جمال لايزول وهذا جمال زائل ، فابحث عما لايزول من الجمال الذى هوالسبب فيما يزول ألا وهوجمال الله ، نفرح بملك و بسلطان ثم يزولان ، فيقال هناك ملك وسلطان دائمان فابحثوا عنهما « واذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا » .

تنظرالنحل والنمل ونحوهما تفرح بالملكات التى تحكمها وتكون لها أشبه بالأستاذ للتلميذ والأم لولدها والأب الرءوف لأبنائه ، ونرى السيارات تدورحول الشمس ، والأقمار تدورحول الأرض ، والأبناء ترجع

مثل محسوس لأمر معقول وهوحب الله اعظاما ، واتحاد النفوس أدبا ونظاما : وهذا المعقول عبر عنه بالتكبير والسلام ، وهاتان الكلمتان وزعت عليهما أقوال الصلاة كلها ، فههنا أمور معقولة وأمور محسوسة بحاسة البصر ، وأمور مسموعة بالأذن ، فالمشاهد بحاسة البصر نظام الحيوان ، والمسموع بالأذن الصلوات مختصرة بالتكبير والسلام ومطوّلة بتفصيلها ، والمعروف بالعقل الأرواح وصانعها ، فالمحسوس بالبصر ضرب مثل للمسموع بالأذن مختصرا ، والمسموع بالأذن مختصرا ضرب مثل للصلاة مطوّلة ، والصلاة فحواها توجه الأرواح إلى خالقها ، إذن العوالم كلها متشابهات . فقلت : لقد أحسنت تلخيصا . فقال : كفى هذا البيان فى تفسير الآيات فى أوّل ﴿ سورة الحديد ﴾ . كتب قبل غروب يوم الجمعة ٢١ رمضان سنة ١٣٥٠ هجرية .

بهجة هذا المقام فى التسبيح وجماله

يوم الأربعاء ٢٦ من شهر رمضان المعظم سنة ١٣٥٠ هجرية — الثالث من شهر فبراير سنة ١٩٣٢ م حضر صديق العالم الذى اعتاد محادثتى فى هذا التفسير ، فأخذ يحادثنى فى المقالة السابقة التى تختص بآية « سبح لله مافى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ، له ملك السموات والأرض يحيى و يميت وهو على كل شىء قدير » وقال : لقد تجلت معانى هذه الآيات واضحة بحيث يرى المسبح كأنه فى روضات الجنات ، وكيف لا يكون فى روضات الجنات وهو عند النطق بالتسبيح مستحضرا تلك المعانى ، يشعر كأنه منضم إلى أرواح أخرى تعطف عليه و يعطف عليها ، وهم يتسابقون معا إلى الزلفى إلى صانع العالم فتتجدّد فى نفوسهم السعادة وروح الحياة والبهجة .

سبحان الله : أهذا هو التسبيح ومافى معناه من التحميد وأمثالها ، وهذه المعانى كلها مخبوءة فيه ؟ أهذا هو جمالها ؟ إذن التسبيح الذى يخطر لأغلب المصلين والمسبحين تسبيح جاف لايطفىء غله ، ولا يشفى من علة ، فقلت : نعم ان التسبيح مرتبط بحياة النفس وسعادتها و بهجتها ، وهو التغلغل فى العلوم والجمال ، هذا سرّ الآيات فى آخر ﴿ سورة الحشر ﴾ . فقال : وماسرّها ؟ فقلت : من سرّها الذى ستقرؤه هناك قوله تعالى : « له الأسماء الحسنى يسبح له مافى السموات والأرض » . إن حسن أسماء الله راجع إلى المدلول ، ومن آثار ذلك المدلول هذا الجمال المشاهد فى هذا العالم الذى عبر عنه بقوله : « له ملك السموات والأرض » فوصف الأسماء بذلك فتح باب يلج منه الحكماء العاشقون الممتلئون حياة وحكمة المرموز لهم بآية : « يايحيى خذ الكتاب بقوّة وآتيناه الحكم صبيا » . إن هذه الأرض خلق فيها أناس لهم طبائع خالفت أهل عصرهم إذ يحسون بدافع قوىّ فى أنفسهم ، ذلك هو الحياة الحقيقية فيكونون بذلك نورا لأمتهم ، ذلك النور هو سرّ خفىّ فى أنفسهم التى أحست بجمال العالم المرموز له بأن أسماء الله حسنة ، فهذه النفوس هى التى بها ترقى أمم وأمم فى معراج الحياة بحسب درجتها الحسية أوالمعنوية ، ولقد تجلى فى نفسى معنى أحب أن أبديه الآن وهو أن فى هذه الأرض أناسا يشعرون من الآن بأنهم فى حضرة ربهم مجذوبين بعواطف هم مجبولون عليها فينطبق عليهم المثل الذى ضربناه فى المقال السابق من حيث أنهم مع أممهم مسوقون إلى ربهم ، فهؤلاء يرون فى نفوسهم عطفا على أممهم وحبا لربهم ، فنفوسهم من الآن تشعر كأنها فى حضرة ربها ، وهؤلاء يستوى عندهم الموت والحياة ، والأحوال العارضة عليهم ، فلا الفرح يستخفهم ، ولا الحزن يقعدهم ، وهذا هو الكمال الحقيق .

ومن أعجب العجب أن هذه المعانى التى تجلت فى نفسى من اشراق أنوار التسبيح فى آيات أوّل الحديد يكاد ينطق ببعض نتائجها عالم أمريكى يسمى [ستانلى هول] وهو أكبر علماء النفس فى أمريكا ورئيس

إحدى جامعاتها الكبرى ، وقد بلغ ٧٧ سنة من عمره ، هذا العالم لما اطلعت على آرائه دهشت فانها أشبه بأثر من آثارالآية والله يقول فى القرآن : « بل هوآيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم » وقد قررنا مرارا فى هذا التفسير أن نتائج مباحث العقلاء كلها وحكمتهم التى أدركتها عقولهم يتضمنها القرآن ، وهذا من عجائبه ، بل من معجزاته . فقال صديق : لقد شوّقتنى لمقاله ، فأريد أن أسمعه ملخصا ؟ فقلت : قرأت فى بعض الكتب مانصه :

« كتب [مستر ولز] الكاتب الانكليزى المعروف مقالا عن النجاح قال فيه : ان مستر لويدجورج ليس من الناجحين بينما هو يعدّ [اينشتين] صاحب نظرية النسبية منهم ، وقد ختم مقاله بهذه العبارة : « ليست الثروة ، أوالشهرة ، أوالمقام دليلا على النجاح ، فانما يقاس النجاح الحقيقى بنسبة ما عملنا إلى ما كان يمكننا عمله » .

أما [ستانلى هول] وهو أكبر علماء النفس فى أمريكا ، ورئيس إحدى جامعاتها الكبرى ، وقد بلغ السابعة والسبعين من عمره ، فاز بذلك الشيخوخة الهنية ، والسمعة الطيبة ، وخدم أمته بجملة تآليف قيمة فانه يرى شروطا أخرى للنجاح ، فقد وضع هذا العالم كتابا حديثا عن تاريخ حياته ، وعقد فصلا عن شروط النجاح الانسانى قال فيه : « إن أوّل شرط لذلك هوالصحة ، فان الأعمال العظيمة التى قام بها عظماء الناس فى هذا العالم إنما أدّوها وهم فى أحسن أيام صحتهم ، وليس من يشكّ فى أن المرضى قد أتوا أحيانا بالعجائب ولكن هذا من الشذوذ فانما القاعدة هى أن الصحة شرط للنجاح حتى ليصح أن يقول : « لكى تنجح يجب أن تكون حيوانا صحيحا » .

والشرط الثانى هومعرفة القوى الكامنة فى أنفسنا ، ففى كل منا قوى كامنة يعرفها الصوفيون عند ما يشعرون بأن فيضا من الذات القدسية اتصل بهم ، وكأن حياة جديدة قد لابست بشرتهم ، فالمؤلف يشعر بها عند ماتتملكه الفكرة ، وتندفع فى ذهنه تريد أن تتكشف وتتوضح .

والشرط الثالث هوكيفية ضبط عواطفنا ، فنحن فى أغلب أيامنا نتراوح بين التفاؤل والتشاؤم ، فاذا تعلمنا كيف نضبط عواطفنا ، فلايستخففنا النجاح ، ولايثبط عزيمتنا الفشل الطارئ ، واذا وقفنا عند حدّ الاعتدال دون غلوّ فى السرور والاغتمام كان النجاح أقرب إلى أعمالنا .

والشرط الرابع هوغرس العطف فى أخلاقنا ، فان الذين لايعطفون يفقدون صلتهم بالطفولة بل بطفوليتهم ولانجاح للأديب ، أوالشاعر ، أوالسياسى إلا بغرس العطف فى نفسه وتنشئتها عليه .

والشرط الخامس هوحبّ الطبيعة ، فيجب على الناس أن يكثروا من المشى فى الحقول ، لرؤية أحسن المناظر وأسراها ، ويحسن أن يمشى الانسان صحبة آخرين ، وخيرالوطنية ما كانت أصولها نابتة من الحقول .

والشرط السادس هو رقىّ فنّ العواطف ، فعاطفة الغضب ، أوالخوف ، أوالطمع ، اذا تركت فى حالها الأولى تنتج عنها أضرار كبرى ، فاذا هذبت عادت بالفائدة ، وخير مثال لذلك هو العاطفة الجنسية ، فهى اذا لم تهذب صارت غلمة حيوانية ، واذا لم تضبط أدّت إلى خراب العائلات وهدم البيوت ، بينما هى عند رفعها تصير حيا جيلا يعمل على ارتقاء الانسان ، وهى فى هذه الحال أصل للأدب وخير مايحرّك القرائح للشعر وسائر الفنون .

الشرط السابع هو إيجاد توازن بين المزاج العملى والمزاج الذهنى ، فمن الناس من يكون مزاجهم ذهنيا يحبون البقاء ، وادعين ، يتأملون ويفكرون ، كما هو شأن أكثر التجار ورجال الأعمال ، وكلاهما لايمكن أن يعتبر ناجحا راقيا ، لأن الترقى والنجاح إيجاد توازن بين هذين الخلقين .

أما الشرط الثامن فهو الولاء ، وهو يريد بذلك ولاءنا لأصدقائنا ، ولعائلاتنا ، ولأمتنا ، وولاءنا أيضا للعالم والنوع الانسانى . انتهى .

هذا هو نهاية الكلام على اللطيفة الأولى فى قوله تعالى : « سبح لله مافى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم ، له ملك السموات والأرض يحيى ويميت وهو على كل شىء قدير » والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة الثانية

فى قوله تعالى : يعلم مايلج فى الأرض ومايخرج منها وماينزل من السماء ومايعرج فيها مع قوله : آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه الخ

ولاجرم أن ماء البحر الميت له بخار يرتفع إلى السماء ، وهناك ماء يصب فيه ، فهذا يلج فى الارض وهذا يخرج منها ، فأين الانفاق من هذا البحر اذا لم يعلمه المسلمون ؟ فقد جاء فى إحدى جرائدنا المصرية يوم ١٦ شوال سنة ١٣٤٩ هجرية — ٦ مارس سنة ١٩٣١ م تحت العنوان الآتى مانصه :

ثروة البحر الميت

كنوز لايستفيد منها أحد

فى أوائل عام ١٩٣٠ م جرى اتفاق بين الدولة البريطانية وشركة دولية على استثمار البحر الميت المشهور ، وقد تكفلت الحكومة البريطانية ان تمنح تلك الشركة الحقوق التامة لاستثمار هذا البحر الذى لايثمن على شرط واحد وهو أنه بعد عشر سنوات يجب على الشركة أن تستخرج لاأقل من ١٠٠٠٠ طن من البوتاس النقى ومن السنة الحادية عشرة أيضا يجب أن تستخرج فى كل عام لا أقل من ٥٠٠٠٠ طن ، ومن الحسنات التى تزيد قيمة المواد المستخرجة من هناك كون البحر الميت قريبا من قنال السويس الباب لكل أسواق العالم المهمة ، أربعة وسبعون ميلا فى الطول وعشرة أميال فى العرض تبلغ مساحة ذلك البحر ، وفى كل يوم يبخر مايقدر بـ ٦ مليون طن من المياه ، وهذه الكمية المدهشة تزيد بكثير عما يفرغه نهر الأردن يوميا فى ذلك البحر ، ولولا بحار صغيرة عديدة تكسر مياهها فيه لأصبح قطعة يابسة من الأرض منذ قرون عدة ، واليوم نرى أن البحر الميت يرتفع مستوى سطحه بين كل مدة وأخرى بالرغم من الكمية الهائلة التى تتبخر يوميا ، ومنذ سنة ١٨٨٣ حتى سنة ١٩٣٠ ارتفع مستواه ٢٨٠ قدما ، أما عمقه فيبلغ ١١١٠ أقدام وهكذا يكون عمق سطح البحر الميت أوطأ من سطح البحر المتوسط بألفين وستمائة وقدمين .

ولقد كان من أعظم أمانى الانجليز فى زمن الحرب الكبرى أن يضعوا أيديهم على هذا البحر ، لكى يستثمروا كنوزه التى طالما حلموا بوجودها ، وهاهو ذا الآن اكتسح [الجنرال اللنبى] فلسطين وامتلك البحر الميت بجيوشه الجرارة ، حتى أمر فئة من الكيمائيين أن يحلل مياهه . ولقد كانت نتيجة التحليل أن تلك المياه هى بوتاس أومايقدر ٢٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠ طنا من هـذا المعدن و٩٨٠٠٠٠٠٠٠٠ طنا من المغنزيا و١١٩٠٠٠٠٠٠٠٠ طنا من كلورات الصودا و٢٢٠٠٠٠٠٠٠٠ طنا من كلورات المغنزيا و٦٠٠٠٠٠٠٠٠ طنا من كلورات الكلس ، وهذه الكميات الهائلة تثبت أن البحر الميت الصغير هو أغنى بحر بين كل البحار فى العالم .

ولقد كانت دهشة [الجنرال اللنبى] عظيمة عند ما اطلع على النتيجة لدرجة انه قال جملته المأثورة : « حقا هذه هى مروج الذهب ! » . أما قيمة المواد التى ذكرناها فتقدر بـ ١٢٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠

دولارا ، أو ما يعدل ٣٠٠ مرة من قيمة مجموع ديون بريطانيا العظمى كلها فى الحرب للولايات المتحدة ، ومن الغريب أن تكون هذه الثروة الطائلة مدفونة بين مد الأمواج وجزرها فى مساحة صغيرة هى أوطأ من سطح البحر بـ ١٢٩٢ قدما .

وعلاوة على المعادن الطبيعية يمكن لفلسطين أن تستفيد من البحر الميت استفادة مهمة ثانية ، فقد قدم المهندسون الألمان تقريرا بكيفية ايصال البحر المتوسط بنهر الأردن الأعلى بواسطة نفق ، وهذه الطريقة لا تحفظ المياه الموجودة فى البحر الميت فحسب ، بل تستخرج منها قوة كهربائية تعادل مليون حصان يمكن توزيعها لادارة دولاب الأعمال فى كل فلسطين وسوريا حتى تركيا .

أما الأتراك فقد كانوا يعيشون فى بلدان تدر عليهم الذهب أنهارا ولكنهم كانوا غافلين لا يعرفون كيف يستثمرونها ، ولم تكن الحياة يوما إلا فريسة النشط المجتهد ، وكفى اهـ

***

ومما يناسب هذه الآية أيضا ماجاء فى جريدة الاهرام بتاريخ يوم الاثنين ٢٣ مارس سنة ١٩٣١ م الموافق ٤ ذى القعدة سنة ١٣٤٩ هجرية فقد جاء فيها تحت العنوان التالى ما نصه :

كهربة القطر المصرى ومشروع القطاره

خلاصة خطبة حسين بك سرى فى المجمع العلمى

قال : لقد آن لمصر أن تفكر جديا فى تحويل جهود بنيها نحو الصناعات حتى تتمكن من الزيادة المطردة فى عدد سكانها من إيجاد موارد رزق جديدة لهم بجانب الزراعة ، وحتى يمكنها مواجهة الصعوبات الاقتصادية بثروة متنوعة الموارد ، وهى لن تصبح بلدا صناعيا حقا حتى يتمكن رجالها الفنيون من ايجاد حل موفق لتوليد القوى المحركة من موارد داخل حدود المملكة وبأسعار قليلة تمكن المصنوعات المحلية من منافسة مثيلاتها الأجنبية .

ثم ذكر أن هذه الموارد هى مساقط المياه التى يمكن بواسطتها توليد الكهرباء لادارة مختلف الآلات ، مبينا أفضلية هذا النوع من التوليد على غيره ، ثم استعرض الموجود حاليا من القوى فى القطر المصرى ، وحلل ما يحتاج إليه القطر من القوى الكهربائية فى مدى قرن يبدأ من سنة ١٩٤٥ قاصرا الحساب التفصيلى على الوجه البحرى ، وذاكرا فى النهاية حسابا اجماليا للوجه القبلى .

وقال : انه يؤمن كل الايمان بأن الصناعات التى يجب أن تزدهر فى هذا القطر هى تلك الصناعات التى تكون مواردها الأولية من ناتج الزراعة كالنسيج القطنى والسكر والورق والكتان والتى تستخرج موادها الأولية من تربة مصر كالزجاج والأسمدة ، أو تحويل ناتج الزراعة إلى مواد غذائية كالدقيق ، وعمل حسابا للقوى اللازمة لكل ذلك فى خلال القرن من ١٩٤٥ — ٢٠٤٥ وعلى حسابه تحتاج مصر سنة ٢٠٤٥ إلى نحو ٣٥٠ ألف كيلو وط .

ثم بين أن هناك موردين للقوة الكهربائية الأول منخفض القطارة للوجه البحرى ، وخزان اسوان للوجه القبلى ، ثم أخذ يشرح مشروع منخفض القطارة موضحا ذلك بخرائط مساحية ورسومات هندسية ، مشيرا إلى أن الفضل فى اكتشاف ذلك المنخفض العظيم يعود إلى الدكتور [بول] مدير مساحة الصحارى .

وقد أشاد به سرى بك لما يقوم به من المباحث الجليلة فى مشروع الانتفاع بالمنخفض لتوليد القوى المحركة .

ثم وصف المنخفض وصفا جغرافيا وجيولوجيا ، وهو كائن فى الجزء الشمالى من صحراء ليبيا فى منتصف

المسافة بين وادى النيل والحدود الغربية ، ويبلغ متوسط عمقه ٦٠ مترا ، وأوطأ نقطة فيه منخفضة عن سطح البحر ١٣٤ مترا ، وهى أوطأ نقطة اكتشفت حتى الآن فى قارة افريقيا ، ثم أشار المحاضر الى تبليغه الحكومة خبر هـذا الاكتشاف فى سنة ١٩٢٧ وبيانه الفائدة العملية التى تعود على البلاد من استغلال سقوط المياه فيه ، ولخص الأسس التى وضعها لهذا المشروع ، وأهمها :

(١) حفر نفق تمرّ فيه المياه من البحر إلى هذا المنخفض .

(٢) حفظ منسوب المياه ثابتا ، وذلك يقتضى أن الوارد من مياه البحر ، ومايسقط من المطر يساوى ما يتبخر من سطح البحيرة التى تكون فيه أوّلا ومايتسرّب إلى الأرض .

(٣) تقدير منسوب سطح المياه فيه ، وبالتبعية مقدار سقوط المياه مابين النفق والتربينات .

ثم فصل هذه الأركان وماتمّ من البحث حتى الآن ، وخصوصا التجارب التى جرّبت فى [بحيرة قارون] لمعرفة مقدار التبخر ، ومقدار مايتسرّب من الماء إلى الصحراء لحفظ النسبة بين الوارد من المياه من البحر أومن الأمطار ، والفاقد تبخرا فى الجوّ ، وتسرّبا فى الأرض .

ثم ذكر النقطة الجوهرية فى المشروع ، وهى القوّة التى يمكن توليدها من سقوط المياه مفصلا جعل منسوب سطح البحيرة خمسين تحت الصفر وهكذا تتولد لدينا قوّة مقدارها ١٨٠ ألف كيلو واط عند مخرج المحطة ، ولايؤثر ذلك على عملية الصرف فى مديرية الفيوم التى تتسرّب مياهها الآن من بحيرة قارون إلى القطارة .

ثم عرض لبناء القناة التى توصل المياه من البحر إلى المنخفض مفضلا أن تكون فى العشرين كيلومترا الأولى المجاورة للشاطئ ترعة عادية تحفر فى الأرض الجيرية ، ثم تدخل المياه فى نفق طوله ٤٥ كيلومترا وقطره ١٧ مترا حتى تصل إلى المنخفض .

واقترح تنفيذ هذا المشروع على ثلاث درجات ، لأن الوجه البحرى لايستطيع أن يستعمل ١٨٠ ألف كيلو واط رأسا ، لذلك يقترح جعـل النفق ثلاثة أنفاق حقيقية ، فيولد أوّلا نحو ٦٠ ألف كيلو واط ، فاذا تحققت آماله فى كهربة القطر المصرى فيبدأ سنة ١٩٧٠ ببناء نفق ثان لتوليد نحو ٦٠ ألف كيلو واط أخرى وفى بداية القرن الحادى والعشرين يبنى الثالث ويتمّ المشروع .

ثم ردّ على الأسئلة التى وجهت اليه فيما يتعلق بنفقات المشروع ، فقال : ان الجواب تقريبى لايتحمل مسئوليتـه لكثرة المباحث الاختبارية التى يجب اجراؤها فى أرض لم تدرس درسا جيولوجيا وافيا ، وانما يقدّر النفقات اللازمة لتتميم الثلث الأوّل من المشروع وتوليـد نحو ٦٠ ألف كيلو واط بنحو ١٧ مليونا ونصف مليون من الجنيهات .

ثم وازن فى الختام بين هـذا المشروع ومشروع مماثل لتوليد الكهربائية باقامة محطة تربينات بخارية على النيل ، وبرهن على أن مشروع القطارة من الوجهة المالية وبصرف النظر عن مميزاته الوطنية وفوائده الاقتصادية الأخرى أفضل من المشروع البخارى . انتهى ماجاء فى الجريدة المذكورة .

هذا هونهاية الكلام على اللطيفة الثانية فى قوله تعالى : « يعلم مايلج فى الأرض ومايخرج منها وماينزل من السماء ومايعرج فيها » والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة الثالثة

فى قوله تعالى : اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو الخ

دخلت أحد المساجد الذى يقرب من منزلنا بشارع زين العابدين يوم الجمعة ٣٠ سبتمبر سنة ١٩٣٢ فسمعت القارئ يتلو فى ﴿ سورة الكهف ﴾ آية : « إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء » فما أسرع أن سنح لى ما يأتى : وهو أن تمثيل الحياة بالماء النازل من السماء ظهر بعض سرّه الآن ، ذلك انه تقدّم فى هذا التفسير أن علماء عصرنا يقولون : إن الحياة ليست من هذه الأرض ، بل هى من عالم آخر ، وأقول إذن : كما أن الماء والضوء والحرارة تنزل من السماء هكذا الحياة وهى منزلة من عالم روحى يمثل له بالماء ، ومن أراد فهم هذا الموضوع حقّ فهمه فليقرأ رسالتى المسماة « مرآة الفلسفة » المذكورة فى ﴿ سورة محمد ﴾ صلى الله عليه وسلم عند آية : « فاعلم أنه لا إله إلا الله » انتهت اللطيفة الثالثة . كتب ليلة أوّل اكتوبر سنة ١٩٣٢ م

اللطيفة الرابعة

فى قوله تعالى « ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير . لكيلا تأسوا على مافاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم . والله لايحبّ كل مختال فخور »

خطر لى فى صلاة العشاء قبيل فجر يوم الثلاثاء ١٣ سبتمبر سنة ١٩٣٢ م وأنا أقول : « السلام عليك أيها النبيّ ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين » ما يأتى :

السلام على قسمين : سلام أدنى ، وسلام أعلى ، فالسلام الأدنى هو السلام العام الذى تنشده أمم الاسلام فى الأرض الآن ، وهذا الذى جاء الاسلام مقدّمة له ، أما السلام الأعلى فهو الذى يعمّ الأمم والأفراد ، وهو الذى إليه تشدّ الرحال ، وتعقد الآمال ، وهو أن يدرس هذه الدنيا دراسة صادقة ، ويعرف مادبّ وطار ، ولا يغادر حكمة إلا قرأها ، ولا علما إلا اطلع على عجائبه ، لافرق بين العلويات والسفليات ، حتى تقتنع النفس اقتناعا تاما بحسن النظام وجمال الوضع .

ومتى وصل الانسان الى هذا المقام أصبح فى عيشة راضية وهو لم يزل فى الدنيا ، ودخل فيمن قال الله فيهم « رضى الله عنهم ورضوا عنه » وذلك لأنه يرى أن كل دقيق وجليل قد وضع بحكمة ، ويرى أن كل مصيبة فى الحياة أو الموت لامحيص منها لرقينا ، وانه لولا ذلك لم يكن ارتقاء ، وذلك على سبيل العلم والبحث والاستقراء ، وههنا يفهم العاقل آية : « ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها ان ذلك على الله يسير ، لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم » وهذه الطائفة فى النوع الانسانى قليلة جدا ، بل نادرة وان كانوا يقرءون هذه الآية ويؤمنون بها ، لأن الايمان غير الايقان وان كان مقدمة له ، وهذا هو السرّ فى كون أمة الاسلام هم الحامدون ، وفى أن ذكر أهل الجنة « سبحان الله وبحمده » كل ذلك يرجع إلى وصول أقوام إلى ذلك يقينا لا تقليدا . انتهت اللطيفة الرابعة .
وبهذا تمّ تفسير ﴿ سورة الحديد ﴾ والحمد لله رب العالمين .

تفسير سورة المجادلة

هى مدنية

آياتها ٢٢ – نزلت بعد المنافقون

بسم الله الرحمن الرحيم

قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا
إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ * الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا
اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ * وَالَّذِينَ
يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ
بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا
فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ
وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ
قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ * يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا
فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي
السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ
سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا
يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا
نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ
بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ
الْمَصِيرُ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ
وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ * إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ

لِيَحْزُنَ الَّذِينَ ءامَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئاً إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ * يٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ ءامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * يٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذٰلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * ءأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَءاتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ * أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلاَ مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ * لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أُولٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ * اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلاَ إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ * إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولٰئِكَ فِي الأَذَلِّينَ * كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ * لاَ تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا ءابَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلاَ إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ *

هذه السورة ثلاثة أقسام

القسم الأوّل فى تفسير بسملة [سورة المجادلة] وما بعدها إلى [سورة تبارك] .

القسم الثانى فى أحكام المظاهرة من أوّل السورة إلى قوله : « وللكافرين عذاب أليم » .

القسم الثالث فى أحكام المجالس من النجوى والتفسح فيها ومناجاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومن ذمّ المنافقين وما يتبعه من قوله تعالى : « إن الذين يحادّون الله ورسوله » إلى آخر السورة .

القسم الأول فى تفسير بسملة سورة المجادلة

ومابعدها إلى سورة تبارك

(١) — ملخص السورة

اللهم إنا نحمدك ونشكرك على نعمة العلم وبهجة الحكمة ، لقد أنرت بصائرنا وأسعدتنا بالعرفان ، هذه الرحمات المترادفات فى أوّل هذه السور : [المجادلة ، والحشر ، والممتحنة ، والصف ، والجمعة ، وسورة المنافقين ، والتغابن ، والطلاق ، والتحريم ، وسورة الملك] .

هى عشر سور ذكرت الرحمات فى أوائلها عشرين مرّة ، إن هذه الرحمة موجهة فى هذه السور العشر غالبا لمنهج خاص ، وطريق معبد ، ومهيع طريف بديع ، ذلك أن الأمم يعوزها علم وعمل ، والعمل هنا فى هذه السور العشر راجع إلى نظام الأسرة ونظام الدولة ، فلئن رأينا التى تجادل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى زوجها ، وتشتكى إلى الله ، والله يسمع تحاورهما ، وقد رحم المرأة وجعلها قريرة العين مع زوجها ، فهذا كله من الرحمة الإلهية العامّة التى يراد بها حفظ الأسرة ، و بقاء الألفة بين الزوجين ، وثبات الأحوال ، وزوال الشقاق ، فهذه رحمة وجهت لنظام الأسرة ، وحفظ العشرة ، ودوام الألفة ، فعلى الولاة أن يستيقظوا للمّ شعث الأسرات والأمم أسوة برسول الله ﷺ ، فهذا انما هومثل ضربه الله لذلك وليس خاصا بهذه المرأة ، نعم هى حادثة وقعت أيام النبوّة ولكنها مضرب أمثال للولاة والحكام أن يستنبطوا الطرق للمّ الشعث وجمع الكلمة ، ويتبع ذلك آداب المعاشرة من ترك النجوى التى بها يحزن الاخوان فى المجلس ويسوؤهم فعل المتناجين ، وهكذا التفسح فى المجالس ، ثم ترك مضايقة الرسول ﷺ لأن وقته لايتسع لذلك ، فليقدّم الذى يريد مناجاته صدقة ، ثم التخفيف بترك تلك الصدقة ، ثم النهى عن موالاة الأعداء بخيانة الأمة وتفريق الكلمة .

إذن [سورة المجادلة] راجعة فى جماها إلى :

(١) ألفة الأزواج فى المنازل .

(٢) وألفة الأصحاب فى المجالس .

(٣) والأدب مع الحكام بترك مضايقتهم لكثرة أعمالهم .

(٤) ورفق الحكام بالمحكومين اذا رأوا أمرا يثقلهم .

(٥) ومجانبة خيانة الأمة بموالاة أعدائها ، وبالنفاق والشقاق ، فان ذلك يضعفها ويفرّق جمعها ويذلها

إذن الرحمة فى [سورة المجادلة] موجهة بنوع أخصّ إلى حفظ الأسرة وحفظ الدولة .

(٢) — تفسير البسملة وتلخيص سورة الحشر

أما فى [سورة الحشر] وهى السورة الثانية فان الرحمة فيها موجهة إلى حفظ الدولة كالشق الأخير من [سورة المجادلة] فكأن السورتين سورة واحدة ، لحفظ الأسرة ، وحفظ نظام المجالس ، وحفظ الدولة فى المجادلة تبعها فى الحشر مايفيد ذلك . وبيانه أن اليهود هنا تخاذلوا وتباغضوا ، والتخاذل يتبعه انبعاث الرعب فى القلوب ، ومتى انبعث الرعب فى القلوب زال الأمن ولم تنفع الحصون ، وقطعت الأشجار ، وكان الجلاء عن الوطن ، أوالاستعباد فيه . يقول الله فى الموالين لهؤلاء : « لأنتم أشدّ رهبة فى صدورهم من الله » ويقول : « بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لايعقلون » فهؤلاء اليهود المذكورون فى هذه السورة تقدّم فى بعضهم ما يقرب من هذا فى [سورة آل عمران] عند آية : « ألم ترَ إلى الذين أوتوا

نصيبا من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون » فأنهم هنالك اتكلوا على شفاعة آبائهم وهم مذنبون ، فنبذوا كتاب الله وهو التوراة فى الأحكام الشرعية ، فأصابهم التخاذل فتفرّقوا شذر مذر ، وأخذ المسلمون ديارهم ، وذلك مشروح هناك شرحا ضافيا ، وهناك سرّ [ا ل م] فى أوّل السورة فارجع إليه إن شئت ، فما هنا وماهناك ضرب مثل للأمم كلها ، ومنهم المسلمون ، فاذا سمعت الله يقول : « تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لايعقلون » فمعناه أن كل أمة على هذه الشاكلة فانها لاتعقل ، فآباؤنا العرب فى الجاهلية يصح أن نقول فيهم ذلك ، لأنهم كانوا فريقين : فريق يتبعون الأكاسرة فى جهة بلاد الفرس ، وفريق يتبعون القياصرة فى جهة بلاد الشام وما والاها ، واذا رأينا الأمم الاسلامية العربية بعد العصر الأوّل قد تفرّقوا ، وذاق بعضهم بأس بعض ، فلنا الحقّ أن نحترس مما وقعوا فيه ، وأن نقول : تجب المحبة العامّة ، والا حقت علينا كلمة الله إذ يقول : « تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لايعقلون » .

واذا رأينا بلاد العراق قد دخلت فى عصبة الأمم فى هذه الأيام وأنا أكتب هذا صباح يوم الجمعة ٢٨ اكتوبر سنة ١٩٣٢ م — الموافق ٢٨ جمادى الثانى سنة ١٣٥١ هجرية ، وزال عنها احتلال الانجليز وأعلن ذلك فى الجرائد شرقا وغربا ، واذا رأينا أمة الترك استقلت من قبلها ، وأمة الأفغان كذلك ، وأمة الفرس أيضا ، فمعنى هذا أن هذه الأمم الاسلامية التى استقلت بعد الحرب الكبرى المنتهية سنة ١٩١٨ م قد نبذت الشقاق ، وخلصت من النفاق ، ولم يصبها ما أصاب الأمم الجاهلة المتخاذلة التى قال الله فيها : « تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لايعقلون » أى ان هؤلاء قوم لايعقلون ، وهذه الشنشنة وهى الاتحاد طارئة على هذه الأمم بسبب ما أنعم الله عليهم به من رحمة التواصى بالحقّ ، فأصبحوا على نمط الذين ذكروا هنا فى [سورة الحشر] إذ جاء فيها أن الأنصار يحبون المهاجرين و يؤثرونهم على أنفسهم ، وهؤلاء المتحدون على الضد من الذين نافقوا .

(٣) — تفسير البسملة وتلخيص سورة الممتحنة

ثم أليس من العجب العجاب أن نرى [سورة الممتحنة] تجرى على نفس هذا الاسلوب إذ ابتدئت بالنهى عن اتخاذ الأعداء أولياء كما فى سورة الحشر قبلها ، وكما فى آخر سورة المجادلة من حيث المعنى ، إذن هذه السور أشبه بسورة واحدة فصل بينها بذكر الرحمة لتذكير الناس بنعمة العلم وايقاظهم للاتحاد ولمّ الشمل وحفظ الجمع ، ومن أجل الحكم أن يذكر فيها امتحان المهاجرات ، وهل هنّ مؤمنات حقا ؟ وربما كنّ منافقات ، ومعنى هذا ألا نذر أحدا من الأمم التى تناوئنا يدخل معنا إلا بعد امتحانه ، سواء أكان ذكرا أم أنثى ، وان كان الامتحان فى السورة خاصا بالاناث ، واذا احترسنا من المرأة فالاحتراس من الرجل من باب أولى

(٤) — تفسير بسملة سورة الصف

والرحمة فى [سورة الصف] واضحة متممة لما تقدّم ، فاننا اذا حفظنا الأسرات والمجالس والدولة ، ونبذنا المنافقين ، فتمام ذلك أننا اذا حاربنا الأعداء لانكون متخاذلين ، بل نكون صفا واحدا كأننا بنيان مرصوص ، ومستحيل أن يكون الناس كالبنيان المرصوص فى الحرب ، وقتال العدوّ ، وحفظ الدولة والتعاون فى الأعمال العامّة إلا بعد نبذ ذوى النفاق بعد امتحانهم واخراجهم من صفوف الأمة حتى لا يكونوا سببا فى تفريق الصفوف ، ومتى اجتمعت الصفوف كان النصر المذكور فى آخر ﴿ سورة الصف ﴾ « نصر من الله وفتح قريب » .

(٥) تفسير بسملة سورة الجمعة

ومن أعجب العجب أن يتبع اتحاد الصفوف فى الحرب باتحاد النفوس فى صلاة الجمعة ؛ فليس الاتحاد على العدوّ بمغن عن الاتحاد فى العبادات الموجب لتقارب القلوب وانتظام الألفة ؛ بل لا انتظام لصفوف القتال إلا بعد الانتظام فى الأعمال العامّة والعبادات كصلاة الجمعة ، ومن عجب أن يذكر فيها أن الذين آتاهم الله كتابه ثم لم يصلوا إلى أمثال هذه النتائج فأولئك مثلهم كمثل الحمار يحمل أسفارا ﴿و بعبارة واضحة﴾ أن أمم الاسلام الحالية ، وأخصّ بالذكر الأمة العربية التى أنا واحد منها اذا لم يصلوا لهذه الدرجة من المنعة والقوّة بترك التخاذل والعمل بكتاب الله فى الأعمال العامة فانهم يمسهم نصيب من « مثل الذين حملوا التوراة » ومن آية : « تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون » لأنهم اجتمعوا فى اللغة والدين والعادات والنسب وتجاور الأوطان ، واختلفوا فى أمور فرعية فى الدين جعلوها أصلا وتخاذلوا .

وأنا أحمد الله إذ رأيت فى هذه الأمم من سعدوا بالألفة ، وهنّ الأمم الأربعة المتقدّمة ، وإحداهنّ عربية والأخريات منها تركية ، ومنها أفغانية ، ومنها فارسية ، ولقد رأيت من اهتمام بقية أبناء العرب مايشرح الصدر فى زماننا ، فهذه اليمن ، وهذه نجد ، وهذه الحجاز ، كل هذه الأمم مستقلة ، ولكن بقيت مصر و بقيت بلاد سوريا وفلسطين و بلاد شمال افريقيا طرابلس وتونس والجزائر ومراكش .

أيتها الأمم العربية المستقلة وغير المستقلة : عار عليكم أن يكون هذا كتاب ربكم وأنتم تتلونه ، والحوادث قد أيقظتكم ، ومع ذلك لا تتحدون .

يجب أن يكون السودانى المسلم العربى وغير العربى مع المصرى ، وسكان شمال افريقيا وأهل فلسطين وسوريا والحجاز ونجد واليمن والعراق كلهنّ أمة واحدة ، إن لم يفعلوا ذلك فان مثلهم كمثل آبائنا العرب فى الجاهلية ، وكمثل اليهود إذ قال الله فيهم : « تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون » .

أيها المسلمون : أيها العرب : هذا هو المقصود الأعظم من هذه السور ، ولهذا أنزل القرآن ، واذا ظنت هذه الأمم أن اختلاف أوطانها أوملوكها أومذاهبها كالشافعية والحنفية والمالكية والحنبلية والزيدية والوهابية والشيعية وغيرها يوجب تخاذلها وعدم اتحادها ، فان ذلك يدل على عدم تبصرها وعلى جهلها .

فياعجبا لأمة الاسلام ! (تلك الأمة التى جاء الدين لها ، وهو يجمع الأمم كلها فى دولة واحدة ، يضم تحت رايتها كل نحلة وملة ، ويحافظ على عباد الله) كيف تجعل مابه الانفاق عين مابه الشقاق ، ويقول كل أصحاب مذهب نفسى نفسى ، و بقية العرب و بقية المسلمين كفار أوفساق : وربما استحلوا دماءهم وأموالهم وقتلوهم تقتيلا .

والحقّ الصراح أن هذا اذا ظهر فى هذه الأمم فانه ينطبق عليها قوله تعالى : « تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون » وانى أرى أن أمم الاسلام عربية وغير عربية اليوم تسعى جهدها للكمال والاتحاد .

(٦) — تفسير بسملة سورة المنافقين

ولما كانت السور الخمس السابقة مدارها على نظام الألفة المنزلية تارة ، ونظام الأمة بنبذ النفاق ثانيا أكد الشق الثانى فى سورة المنافقين : إن هذه السور وتناسقها وتلاحقها يدعو للبحث والتفكير فيها : كررت السور التى تدعو إلى الوفاق وترك الشقاق ، وهذه السورة سادستها ، وذلك دلالة على أن هذا الدين يسع أمما وأمما ، وليس ديننا ضيق الصدر ، وسع ديننا منافق المدينة ، ووسع صدر رسول الله ﷺ عبد الله بن أبىّ

ابن سلول ، وسعه وهو القائل فى إحدى الغزوات كما سيأتى : « لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعزّ منها الأذلّ » ، وسعه ولم يكدّر صفو ابنه المسلم بقتله لهذا القول ، خيفة أن يقال : ان محمدا يقتل أصحابه ، دين واسع ، ولكن بعض الفرق الاسلامية تبيح قتل المسلمين تدينا لأنهم كفار فى نظرهم ، نظريات خاطئة ، ونفوس ضائعة ، وعقول نائمة بالتقليد الأعمى ، وسع ديننا المنافقين فيه ، ووسع جميع الديانات أن تعيش تحت كنف دولة الاسلام ، ولكن الأمم الاسلامية العربية لم تقدر فى القرون المتأخرة أن تعيش فى دولة واحدة تباعدا عن الحقّ وجهلا بالدين :

(٧) تفسير بسملة سورة التغابن

ولما كان مقام حفظ الدولة من النفاق قد جاء فيه ما يكفى لذوى الألباب أتبعه بسورة التغابن يراد بها استراحة القلوب وشرح الصدور بتذكير الناس بعوالم السموات والأرض المسبحات لربها فيها ، وتذكير الناس بالأمم الخالية ، والقرون الماضية ، وانذار بعضهم بالنار ، وتبشير آخرين بالجنات ، ثم إراحة الأفئدة بأن المصائب مقدّرة فى الأزل ، فعلى الناس أن يرحوا نفوسهم ، ولا يحملوها مافوق طاقتها من الغمّ على مافات ، لأنهم لا يد لهم فى وقوعه ، فعلى الانسان إذن أن يصفح عن ذنوب أهله وذرّيته لأنهم مسخرون ، وقد جعلوا اختبارا له لينظر أيصبر ، فكما صبر رسول الله ﷺ على المنافقين فى المدينة يجب على رب الأسرة أن يتحمل مايصيبه فى سبيل حفظ أسرته اقتداء بنبيه صلى الله عليه وسلم ، وليعف وليصفح .

(٨) تفسير بسملة سورة الطلاق

واذا طلق المسلمون أزواجهم ، فعلى المطلق ، وعلى القاضى ، وعلى سائر الحكام أن يكونوا عادلين فى المعاملة ، وليلاحظوا النفقة والعدّة ، وذلك رجوع الى نظام الأسرة اقتداء بالرسول صلى الله عليه وسلم ، إذ عامل أزواجه أمهات المؤمنين بالرفق واللين والشفقة ، فكما أن الله سمع قول المرأة التى تجادل فى زوجها وتشتكى إلى الله .

(٩) تفسير بسملة سورة التحريم

هكذا هو سبحانه ألهم رسوله أن يكون قدوة فى حفظ الزوجات والمعاشرة ، فأعرض عن إذاعة بعض الأسرار التى أذاعتها إحدى أمهات المؤمنين ، وضرب الله الأمثال لحسن المعاشرة فى الدنيا والصبر على مضض المعاملة فيها بامرأة نوح إذ صبر عليها ، وكذا امرأة لوط ، فهذان مثلان ضربا لرسول الله صلى الله عليه وسلم اطمئنانا لقلبه فيصبر على الزوجات كما صبر نوح ولوط ، وهكذا مريم ابنة عمران وآسية امرأة فرعون صبرتا فدخلتا الجنة ، فهذه الأمثال الأربعة المضروبة مثلا لدوام المعاشرة والصبر على المعاشرين وان كانوا كافرين أومنافقين رجالا ونساء ، وهكذا صبره ﷺ وحفظه لأهل بيته ، كل ذلك ليثبت به فؤاد المسلمين فى معاشرة الأهل المذكورة فى سورة التغابن : « يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوّا لكم فاحذروهم » . هذا نموذج لأهمّ المقصود بهذه السور التسع المتتابعات .

(١٠) تفسير بسملة سورة تبارك

ثم أتبعها بمعاشرتها ، وهى [سورة تبارك الذى بيده الملك] وأشار إلى ماقلناه كله فى هذا المقام فقال فى أوّلها « ليبلوكم أيكم أحسن عملا » . فكأنه يقول : إن جميع ما تقدّم من أحوال الأمم ، ونفاق بعض رجالها ، وشقاق نسائها ، ومايتبع ذلك ، كل هذا إنما جعلته اختبارا لكم وامتحانا ، وهنا أخذ يخرج بعقل المسلم

من ساحات الأرض الضيقة إلى ساحات السموات الواسعة ، ويشرح عالم السموات والأرضين ، والليل والنهار ، والجبال والجنات الواسعات فى الدنيا وفى الآخرة ، وكذلك جهنم ترويحا لنفوس الناس ، وارشادا إلى أن هذا هو المقصود الأتم من الحياة ، وماتقدم إنما هومقدمات ، وقد تقدم نظيرهذا فى ﴿سورة البقرة﴾ عند آيات الطلاق والخلع ونحوها . والى هنا تم الكلام على القسم الأول فى تفسير بسملة سورة المجادلة ومابعدها إلى سورة تبارك ، وانما فعلنا ذلك لأن الرجة تقدم الكلام عليها كثيرا فى هذا التفسير ، فاكتفينا هنا بذكر ملخص السور العشر مخافة التطويل . كتب صباح يوم الجمعة ٢٨ جمادى الثانية سنة ١٣٥١ هجرية — الموافق ٢٨ اكتوبر سنة ١٩٣٢ م والحمد لله رب العالمين .

القسم الثاني فى احكام المظاهرة

التفسير اللفظى

بسم الله الرحمن الرحيم

روى أن خولة بنت ثعلبة ظاهر منها زوجها أوس بن الصامت فاستفتت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقالت يارسول الله : إن زوجي أوس بن الصامت تزوجني وأنا شابة غنية ذات أهل ومال حتى اذا أكل مالى وأفنى شبابى ، وتفرق أهلى ، وكبرسنى ، ظاهرمنى وقد ندم ، فهل من شيء تجمعنى واياه وتفتينى به ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : حرمت عليه ، فأعادت الكرة وهو يعاود الجواب حتى قالت : أشكو إلى الله فاقتى ووحدتى ، قد طالت له صحبتى ، ونثرت له بطنى ، وإن لى صبية صغارا ، إن ضممتهم إلى جاعوا ، وان ضممتهم إليه ضاعوا ، وجعلت ترفع رأسها إلى السماء وتستغيث وتشكو إلى الله ، فنزل هذه الآيات الأربع فقال لها صلى الله عليه وسلم : ادعى لى زوجك ، فتلا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم (قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها) تجادلك : أى تخاصمك وتكلمك فى شأن زوجها (وتشتكى الى الله) تظهر مابها من المكروه (والله يسمع تحاوركما) مراجعتكما الكلام (إن الله سميع) يسمع شكوى المضطر (بصير) بحاله (الذين يظاهرون منكم من نسائهم) الظهار أن يقول الرجل لامرأته : أنت على كظهر أمى ، وألحق بالظهر الفقهاء كل جزء من أنثى محرم ، وهذا كان من أيمان الجاهلية (ماهن أمهاتهم) أى مااللاتى يجعلونهن من زوجاتهم كالأمهات بأمهات : أى لسن بأمهاتهم (إن أمهاتهم إلا اللائى ولدنهم) فلاتشبه بهن فى الحرمة إلامن حكم الله بالحاقهن كالمرضعات وأزواج الرسول ﷺ (وانهم ليقولون منكرا من القول) لايعرف فى الشرع (وزورا) كذبا (وان الله لعفو غفور) لما سلف اذا تاب الانسان منه (والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لماقالوا) أى يعودون لتحليل ماحرموا ، أو يعودون لنقض ماقالوا ، أولتداركه ، والعود للنقض أوللتدارك أوللتحليل نتيجتها متقاربة ، وذلك إما بالسكوت عن الطلاق بعد الظهار زمانا يمكنه أن يطلقها فيه ، واما بالندم فيرجع إلى الألفة بعد الظهار ، أواستباحة الوطء والملامسة والنظر بشهوة ، أومجرد العزم على وطئها أونفس الوطء ، والأول قول الشافعى ، والثانى قول ابن عباس ، والثالث قول أبى حنيفة ، والرابع قول مالك والخامس للحسن وقتادة وطاوس والزهرى ، وهناك وجه سادس : أن الظهار كان فى الجاهلية فالتلفظ به نفسه رجوع إلى حال الجاهلية ، ووجه سابع : أنه لايقع الظهار إلا اذا كرر لفظ الظهار ، والا لم يكن عود ، فان لم يكرر اللفظ فلا كفارة ، وهذا الأخير قول أهل الظاهر .

هذا ملخص الأقوال ، فاذا عاد المظاهر بعدم التلفظ بالطلاق ، أو بالندم ، أو بالعزم على الوطء ، أو بنفس الوطء إلى آخرماتقدم (فتحرير رقبة) أى فالواجب عليهم إعتاق رقبة (من قبل أن يتماسا) أى أن يستمتع

كلٌّ من المظاهر والمظاهر منها بالآخر فيحرم عليه الاستمتاع قبل التكفير فلاجماع ولا لمس بشهوة ونحوذلك (ذلكم) أى ذلكم الحكم بالكفارة (توعظون به) أى إن غلظ الكفارة وعظ لكم حتى تتركوا الظهار ولاتعاودوه (والله بما تعملون) من التكفير وتركه (خبير) ثم أخذ يذكر حكم من لم يقدرعلى الرقبة فقال (فمن لم يجد) الرقبة (فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا) فان أفطر بغيرعذر فليستأنف ، وان أفطر بعذر ففيه خلاف ، وان جامع ليلا عصى الله ، ولاينقطع التتابع عند الشافعى ، وعند أبى حنيفة ومالك ينقطع التتابع (فمن لم يستطع) الصوم لهرم ، أومرض مزمن ، أوشبق مفرط (فاطعام ستين مسكينا) ستين مدًّا ، وهو رطل وثلث مما يخرج فى زكاة الفطر ، ويقول أبوحنيفة : يعطى كل مسكين نصف صاع من برّ ، أوصاعا من غيره ، ولم يذكر التماس مع الطعام اكتفاء بذكره مع الآخرين (ذلك) البيان والتعليم للأحكام فرض (لتؤمنوا بالله ورسوله) أى لتصدّقوا بالله ورسوله فى قبول شرائعه ورفض ما كنتم عليه فى جاهليتكم (وتلك حدود الله) لايجوز تعدّيها (وللكافرين) الذين لايقبلونها (عذاب أليم) فى نار جهنم :

مسائل

(١) من ظاهر من امرأته مرارا ، فالشافعى وأبوحنيفة يوجبان لكل مظاهرة كفارة مالم يكن فى مجلس واحد وأراد التأكيد فتكون كفارة واحدة ، وأما مالك فجعل المظاهر فى مجالس متفرّقة ليس عليه إلا كفارة واحدة .

(٢) يقول مالك رحمه الله : إن أراد التكفير بالاطعام يجوز له الوطء قبله ، وعند غيره يحمل الاطعام على غيره .

(٣) اذا جامع قبل أن يكفر فعليه كفارة واحدة عند مالك وأبى حنيفة والشافعى وأحمد وسفيان ، و بعضهم يقول : عليه كفارتان . انتهى القسم الثانى من السورة ، والحمد لله رب العالمين .

القسم الثالث

فى أحكام المجالس من النجوى والتفسح فيها ، ومناجاة الرسول صلى الله عليه وسلم ومن ذم المنافقين وما يتبعه

قال تعالى (إنّ الذين يحادون الله ورسوله) يعادونهما ، أويختارون حدودا غيرحدودهما (كبتوا) أخزوا أوأهلكوا (كما كبت الذين من قبلهم) من كفار الأمم الماضية (وقد أنزلنا آيات بينات) تدل على صدق الرسول وماجاء به (وللكافرين عذاب مهين) يذهب تكبرهم وعزّهم (يوم يبعثهم الله جميعا فينبئهم بما عملوا) الظرف متعلق بمهين (أحصاه الله) حفظ الله ماعملوا وأحاط به عددا لم يغب منه شىء (ونسوه) لأنه كثير ، وهم به متهاونون (والله على كل شىء شهيد) لايغيب عنه شىء .

الكلام على النجوى وأحكامها

قال تعالى (ألم ترَ أن الله يعلم مافى السموات ومافى الأرض) الكليات والجزئيات (ما يكون من نجوى ثلاثة) مايقع من أسرارثلاثة : أى مسارّة ومشاورة : أى مامن شىء يناجى به ثلاثة بعضهم بعضا (إلا هو رابعهم) بالعلم يعلم نجواهم كأنه حاضر معهم ومشاهدهم (ولاخمسة إلاهوسادسهم) وانماخصّ هذه الأعداد لأن الله وتر يحبّ الوتر (ولاأدنى من ذلك) ولاأقلّ كالواحد والاثنين (ولاأكثر) كالستة فما فوقها (إلا

هومعهم) يعلم مايجرى بينهم (أينما كانوا) بالعلم والقدرة (ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة) اظهارا لذنوبهم ليفتضحوا ويجازوا (إنّ الله بكل شىء عليم) ثم إن اليهود والمنافقين كانوا يتناجون ويتغامزون بأعينهم اذا رأوا المؤمنين فيظن المؤمنون أنهم يتناجون بما يسوءهم كأن يكون بلغهم خبر عن سرية هزمت أو كثر فيها القتل فيحزنون لذلك ، فنهاهم رسول الله ﷺ ثم عادوا لمثل ما نهوا عنه ، فهذا قوله تعالى (ألم ترَ إلى الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه ويتناجون بالإثم والعدوان) وهو ذلك السرّ الذى كان بينهم لأنه يكون إما مكرا واما كيدا بالمسلمين أوشيئا يسوءهم ، وهذان إثم وعدوان ، وقوله (ومعصية الرسول) أى يوصى بعضهم بعضا بمعصيته ﷺ (واذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله) فقد كان اليهود يدخلون على رسول الله ﷺ ويقولون : السام عليك يامحمد ، والسام الموت ، والله يقول : « وسلام على عباده الذين اصطفى » و « يا أيها الرسول » و « يا أيها النبىّ » (ويقولون فى أنفسهم لولا يعذبنا الله) أى يقولون فيما بينهم : لوكان نبيا لعاقبنا الله (بما نقول) من الاستخفاف به (حسبهم جهنم يصلونها) أى حال كونهم يدخلونها (فبئس المصير) المرجع جهنم .

ورد فى حديث البخارى أن رهطا من اليهود دخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : السام عليك فقال : وعليكم ، فقالت عائشة : السام عليكم ولعنكم الله وغضب عليكم ، فقال صلى الله عليه وسلم : ياعائشة عليك بالرفق ، وإياك والعنف والفحش اه

ثم خاطب الله المؤمنين فقال (ياأيها الذين آمنوا اذا تناجيتم فلاتتناجوا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول) كما يفعل المنافقون (وتناجوا بالبرّ والتقوى) لخير المسلمين وعدم معصية الرسول (واتقوا الله الذى إليه تحشرون) فيما تأتون وتذرون (إنما النجوى من الشيطان) أى إنما النجوى بالاثم والعدوان منه فانه المزين لها والمحرّض عليها (ليحزن الذين آمنوا) أى إنما يزين الشيطان ذلك ليحزن المؤمنين ، وفى البخارى ومسلم أن رسول الله ﷺ قال : اذا كانوا ثلاثة فلايتناجى اثنان دون الثالث ، فان ذلك يحزنه ، وهذه الجملة الأخيرة لأبى داود (وليس بضارّهم شيئا) الضمير فى ليس إما للتناجى واما للشيطان (إلا باذن الله) إلا ما أراد الله تعالى (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) فليكل المؤمنون أمرهم لله .

الكلام على التفسح فى المجالس

قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا اذا قيل لكم تفسحوا فى المجالس فافسحوا) أى اذا قيل لكم توسعوا فيها وليفسح بعضكم عن بعض فوسعوا وتنحوا ، وقد كانوا يتنافسون فى مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم ويحبون القرب منه ، فكانوا اذا رأوا رجلا مقبلا تضامّوا فى مجلسهم ، فأمرهم الله أن يفسح بعضهم لبعض بقوله « فافسحوا » (يفسح الله لكم) فيما تريدون التفسح فيه من المكان والرزق والصدر وفى الجنة .

واعلم أنه لافرق فى هذا بين أن يكون المجلس فى صلاة الجمعة ، أوفى صف القتال ، أوفى حلقة العلم ، أوالذكر وفى بعضها وردت أحاديث أسندت السبب إليها ، والآية أعمّ (واذا قيل انشزوا فانشزوا) أى ارتفعوا عن مواضعكم حتى توسعوا لاخوانكم فارتفعوا (يرفع الله الذين آمنوا منكم) بامتثال أوامره (والذين أوتوا العلم) والعالمين منكم خاصة (درجات والله بما تعملون خبير) وهذه الدرجات فى الدنيا بالرتبة والشرف ، وفى الآخرة فى الجنة ، فكان ابن مسعود اذا قرأها يقول : يا أيها الناس افهموا هذه الآية ولترغبنكم فى العلم ، وقال صلى الله عليه وسلم : « فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب » وعنه صلى الله عليه وسلم أيضا : « يشفع يوم القيامة ثلاثة : الأنبياء ، ثم العلماء ، ثم الشهداء » .

وورد أن سليمان خير بين العلم والمال والملك ، فاختار العلم ، فأعطى المال والملك معه ، وورد أيضا : أوحى

الله إلى ابراهيم عليه السلام : يا ابراهيم إنى عليم أحبّ كل عليم . ثم ان فى قوله « انشزوا » تفسيرا آخر : أى اذا قيل لكم انهضوا إلى الصلاة ، والى الجهاد ، والى كل خير ، فانهضوا ولا تقصروا عنه ، وقوله « والله بما تعملون خبير » تهديد لمن لم يمتثل الأمر .

حكم مناجاة الرسول صلى الله عليه وسلم

قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا اذا ناجيتم الرسول فقدّموا بين يدى نجواكم صدقة) أى فتصدّقوا قدّامها ، شبهت النجوى بمن له يدان على سبيل الاستعارة المكنية ، وذلك فيه [أمران : الأوّل] اعظام مناجاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فان الانسان اذا وجد الشىء بمشقة استعظمه ، واذا ناله عفوا و بسهولة احتقره [والثانى] نفع الفقراء ، وذلك أن أهل الميسرة منهم كانوا يكثرون المناجاة معه ﷺ دون الفقراء حتى تأذى بذلك النبيّ ﷺ فنهاهم الله عن ذلك وأمرهم بالصدقة قبل أن يتناجوا مع النبيّ صلى الله عليه وسلم (ذلك) أى الصدقة (خيرلكم) من الامساك (وأطهر) لقلوبكم من الذنوب ، أوأطهر لقلوب الفقراء (فان لم تجدوا) الصدقة يا أهل الفقرفتكلموا مع رسول الله ﷺ بماشئتم بعد التصدق (فانّ الله غفور) متجاوزلذنوبكم (رحيم) لمن تاب منكم ، وهذه تفيد طلب الصدقة من الأغنياء دون الفقراء قبل المناجاة ، قيل انهم يتصدّقون لكل كلمة بدرهم ، ومع الاختلاف فيها أهى للندب أوالوجوب نسخت بآية « أأشفقتم » الآتية ، وعن علىّ رضى الله عنه : « ان فى كتاب الله آية ماعمل بها أحد غيرى ، كان لى دينار فصرفته فكنت اذا ناجيته تصدّقت بدرهم » وقوله (أأشفقتم) أى أبخلتم وخفتم العيلة والفاقة ان قدّمتم ، وهذا هوقوله (أن تقدّموا بين يدى نجواكم صدقات فاذ لم تفعلوا) ما أمرتم به (وتاب الله عليكم) تجاوزعنكم ونسخ الصدقة قبل المناجاة بعد عشرليال ، وإذ بمعنى ان (فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الله ورسوله) فيما امر ونهى (والله خبير بما تعملون) فهومحيط بأعمالكم ونياتكم .

الكلام فى المنافقين

قال تعالى (ألم تر إلى الذين تولوا) والوا (قوما غضب الله عليهم) وهم اليهود (ماهم منكم ولامنهم) لأنهم منافقون مذبذبون بين ذلك ، ولولا النفاق لم يوالوا اليهود المغضوب عليهم (ويحلفون على الكذب) وهوادّعاء الاسلام (وهم يعلمون) أنهم كاذبون . روى أنه ﷺ كان فى حجرة من حجراته فقال يدخل عليكم الآن رجل قلبه قلب جبار ، وينظر بعين شيطان ، فدخل عبد الله بن نبتل المنافق ، وكان أزرق فقال صلى الله عليه وسلم له : علام تشتمنى أنت وأصحابك ؟ فحلف بالله ما فعل ، ثم أمر أصحابه فحلفوا ، فنزلت (أعدّ الله لهم عذابا شديدا إنهم ساء ما كانوا يعملون) فتمرّنوا على سوء العمل وأصرّوا عليه (اتخذوا أيمانهم جنة) وقاية دون دمائهم وأموالهم (فصدّوا عن سبيل الله) فصدّوا الناس عن الايمان بدين الله بتثبيطهم وتحريشهم (فلهم عذاب مهين) ذكر العذابين : الأوّل للقبر ، والثانى عذاب الآخرة (لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) تفسيره واضح مما سبق فى التفسير (يوم يبعثهم الله جميعا) الظرف متعلق بقوله « لن تغنى » (فيحلفون له كما يحلفون لكم) لأن الأخلاق تلازم الانسان فى الآخرة كما كانت ملازمة له فى الدنيا (ويحسبون أنهم على شىء) فى حلفهم الكاذب ، ذلك أنهم لاعتيادهم رواج الأيمان الكاذبة فى الدنيا وخدعهم يظنون أن الله كذلك تروج عنده الأيمان الكاذبة (ألا إنهم هم الكاذبون) البالغون غاية الكذب (استحوذ عليهم الشيطان) استولى عليهم ، يقال حاذ الإبل وأحاذها اذا استوليت عليها (فأنساهم ذكر الله) لايذكرونه بقلوبهم ولا بألسنتهم

(أولئك حزب الشيطان) جنوده وأتباعه (ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون) وأىّ خسرأعظم من أن يفوت عليهم النعيم الأبدىّ (إنّ الذين يحادّون الله ورسوله أولئك فى الأذلين) أى فى جملة من يلحقهم الذلّ فى الدنيا والآخرة ، فاذا كانت عزّة الله لانهاية لها فذل أعدائه عظيم (كتب الله) فى اللوح المحفوظ وأبرز آثاره فى نظام العالم أن يغلب هو ورسله ، وهذا قوله تعالى (لأغلبنّ أنا ورسلى) فنهم من ألقنه الحجة فيغلب بها ، ومنهم من أعطيه القوّة فيغلب بالسيف ، لأنه لايبقى فى الوجود إلا ماهوأصلح له وأنفع (إنّ الله قوىّ) فهو ينصر أنبياءه (عزيز) غالب أعداءه (لاتجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادّون من حادّ الله ورسوله) فاذن إيمان المؤمنين يفسد بموادّة الكافرين ، ومن كان مؤمنا حقا لايوالى كافرا ، لأن من أحبّ أحدا امتنع أن يوالى عدوّه . واعلم أنه ليس فى مخالطتهم ومعاشرتهم محظور ، إنما المحظور مناصحتهم وارادة الخير لهم دينا ودنيا مع كفرهم ، قال تعالى مبالغا فى زجر موادّتهم (ولوكانوا آباءهم أوأبناءهم أواخوانهم أوعشيرتهم) فهؤلاء وان كان الميل لهم أمرا طبيعيا يجب أن يقاوم هذا الميل لكفرهم . ومن ذلك أن حاطب ابن أبى بلتعة كتب إلى أهل مكة كما سيأتى فى ﴿سورة الممتحنة﴾ بالمناصحة فنهى عن ذلك بهذه الآية هو وأمثاله (أولئك كتب فى قلوبهم الايمان) أثبته فيها (وأيدهم بروح منه) من عندالله ، وهونورالقلب والبصر والايمان والقرآن (ويدخلهم جنات تجرى من تحتها الأنهارخالدين فيها رضى الله عنهم ورضوا عنه) ولاجرم أن رضوان الله بعد دخول الجنة أعظم من الجنة (أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون) أى الفائزون . انتهى التفسير اللفظى للقسم الثالث من السورة ، والحمد لله رب العالمين .

لطائف هذه السورة

(١) فى قوله تعالى : « قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله والله يسمع تحاوركما »

(٤) فى قوله تعالى : « أأشفقتم أن تقدّموا بين يدى نجواكم صدقات » .

(٣) فى قوله تعالى : « كتب الله لأغلبنّ أنا ورسلى » .

(٤) فى قوله تعالى : « لاتجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادّون من حادّ الله ورسوله » .

اللطيفة الأولى والثانية

اعلم أن هذه السورة كالمتممة لسورة الحديد ، وكالمفصلة لبعض مافيها ، ذلك أن الله قال فى أواخرسورة الحديد « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس » وقد تقدّم أن الآية تفيد أن الله تعالى أعطى أنبياءه العدل ، وأعانهم بالقوّة المادّية ، فيستعملون القهر بالسيف والرمح عندالاقتضاء ، فههنا أمران : قانون ونظام تامّ فى الدولة ، وجيش وسلاح يحافظ على ذلك النظام ، فاذن لابدّ من شريعة وقضاة وحكام ، ثم لابدّ من جند ودفاع وشرطة يحملون السيوف ليُحافظوا على الأمن فى الداخل ، ويصدّوا العدوّ من الخارج ، وهذا كل النظام ، ولاريب أن من يعطى هذه القوّة فليس هناك من قوّة فوق قوّته ، ولا رادّ لقضائه ، وعلى الناس أن يسمعوا ويطيعوا وليس ذلك للأنبياء وحدهم ، بل اذا ولى عليهم عبد حبشى وخاطبهم بالقانون ورفع السيف فوق رءوسهم وجب عليهم أن يطيعوه ، فلما كان ذلك مقتضى القانون وقوّة السيف جعل الله سورة قد سمع بعد ذلك ليبين أن من الحوادث مايقبل الأخذ والردّ ، ومراعاة الجمهور ، وحفظ القلوب ، ألاترى أن الله سمع قول امرأة شكت إلى الله ضياع عيالها عند أبيهم وجوعهم عندها فما أسرع أن نزل الوحى بماسرّ قلبها ، هكذا لما نزلت آية المناجاة وظهر أن ذلك فيه صعوبة عليهم نزلت الآية بعدها لنسخ ذلك الأمر ، والمقصود من هذا

أن

أن الله عزّوجل يعلم الحكام كيف ينظرون فى أمر رعاياهم ، فاذا أصدروا أمرا فليبحثوا فى أمر الرعية فان وجدوه قدأحرجهم وشقّ عليهم فلا عار عليهم اذا رجعوا عنه فان فى ذلك المصلحة العامّة للحكام والمحكومين ، جاء فى آخر ﴿سورة الحديد﴾ : « وجعلنا فى قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة » فأراد أن يعلم حكام المسلمين هذه الرأفة والرحمة ، ويقول : اذا أمرتم بأمر ترون فيه مصلحة الجهور ، ثم تعسر تنفيذه على الرعيــة فلا ترهقوهم من أمرهم عسرا ، ولا تجعلوا القوّة التى خوّلنــكموها من السيف والجيش الحافظين للقانون عسفا بالناس وظلما لهم ، بل كونوا ذوى رأفة ورحمة كما جاء فى آية أخرى : « ولوكنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهــم فى الأمر » فهذا من العفو عنهم ، جاء من طريق الوحى ، أن القرآن إنمـا نزل ليعلم الناس ، وهذا من أعظم التعاليم ، ولذلك تجد الأمم العظيمة تراعى مصالح الجهور ، بل انهم زادوا على ذلك أنهم جعلوا البــلاد تحت أمر نوّابهم المنتخبين من تلك البلاد ، فـكأنّ الله يقول : أيها الحـكام المسلمون : اذا كنت أنا الذى نسخت آية الصدقة بآية أخرى وليس بينهما إلا عشر ليال ، وأنا العليم بكل شيء ، وأعلم أنى سأنزل الآية ، وأنها ستشقّ عليهم ، وأنى سأنسخها ، وأنكم ستقولون : اثبات الانفاق ونفيه معناه أنه لافائدة فى هذه الآيات التى شغلت بها هذه السورة ، واذا كان الله يعلم كل شيء فما أجدره أن لايأمر ولاينهى توفيرا للزمن ، وهو بكل شيء عليم ؟ كأنه تعالى يقول : أنا أعلم أنكم تقولون ذلك ، ولــكنى فعلت ذلك وأثبت الآيتين تعليما لكم حتى تنهجوا نهج الكمال وحفظ قلوب الرعية ، ولاتــكونوا كالفرنجة الذين يضربون المسلمين بالمدافع فى شمال افريقيا وفى الهند اذا عصوا لهم أمرا ، إن ذلك ممـا يزيل ملـكهم سريعا ، فلذلك علمتكم بهذه الآيات كيف تحفظون القلوب وتحافظون على الدولة . هذا هو السرّ فى جعل هذه السورة بعد سورة الحديد . انتهى الـكلام على اللطيفتين ، الأولى : والثانية . والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة الثالثة فى قوله تعالى : كتب الله لأغلبنّ أنا ورسلى إن الله قوىّ عزيز

اعلم أن القانون المسنون فى هذه الدنيا ، وفى نظام البرية أن من عمل عملا لمصلحة عامة وكان جديرا بها فان الله يساعده ويحفظه ، ويخلصــه من المصائب ، واذا أصابه مكروه فذلك لرفعــة شأنه وزيادة معونته لتقوى روحه على ذلك الأمر العظيم ، فلتجرّب ذلك أيها الذكىّ ، بل ليـكن استدلالك على صحة الدين بمثل هذا ، فذلك هو البرهان على صــدق النبوّة ، ففكر فيما أقول وقم بنصيبك من منفعة الانسانية بشرط أن تـكون قادرا عليــه ، وثابر بجدّ على ماتقدر عليه من نفع المسلمين أو بقية النوع الانسانى ، فانك تجد الله معك فى كل حركة وكلمة ، لايفوتك ولايتركك ، فان وجدت الأمر كما ذكرت لك بان لك صدق قوله تعالى : « لأغلبنّ أنا ورسلى » ، وكلما كان العمل أعمّ كان نظر الله للعامل أتمّ ، وكلما كان العمل أضعف كانت المساعدة على مقتضاه .

وكم من مسلم يتصدّق على من يقدر على العمل ويظن أنه يفعل حسنا ، وكم من مؤمن يكبّ على عمــل مبرور كالحجّ ، أوالصلاة ، أوالصيام ، ويظنّ أن المبالغة فى ذلك العمل هى كل شيء ، والحقّ أن الاسلام أمر أعمّ ممـا يظنّ هؤلاء ، الاسلام يوجب أن يقوم الناس بالآداب النفسية ، والأعمال الجسمية ، ومساعدة الناس ما استطاعوا لذلك سبيلا ، ومن قصر أواقتصر على بعض ذلك فهو مذنب متى كان له قدرة على ماهو أعظم وهى المنافع العامّة للمسلمين ، أوللعالمين ، لأن الله ربّ كل شيء ، وأقرب الناس إليه من كان خيره أعمّ هذا معنى : « لأغلبنّ أنا ورسلى » فبهذا فليعرف الناس صدق الأنبياء عملا لاسماعا على شريطة أن يلاحظوا ما كتبناه . وبهذا تم الـكلام على اللطيفة الثالثة ، والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة الرابعة

في قوله تعالى : لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادّون من حادّ الله ورسوله الخ

اعلم أن الله كرّر هذه الآيات فى سور كثيرة ، وجعل الوعيد شديدا على من والى الأعداء ، وذلك هو مصيبة الاسلام اليوم ، إن الأمة الاسلامية اليوم أصبحت فى أخريات الأمم ، وأبناؤها فى شمال افريقيا وفى مصر وغيرها يوالون الفرنجة وينصرونهم على أبناء جنسهم ، ذلك داء عضال قد استحكم ، وقد كررنا أن هذه الأمة سيزول منها هذا الشرّ المستطير ، وتأخذ حظها بين الأمم فى زمن قريب . انتهت اللطيفة الرابعة . والى هنا تمّ الكلام على سورة المجادلة ، والحمد لله رب العالمين .

تفسير سورة الحشر

هي مدنية

آياتها ٢٤ — نزلت بعد البينة

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ * وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ * ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ * مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ * وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلٰكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ *

لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُولٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ * وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ * أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلاَ نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * لَئِنْ أُخْرِجُوا لاَ يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لاَ يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لاَ يُنْصَرُونَ * لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللهِ ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَفْقَهُونَ * لاَ يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلاَّ فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَعْقِلُونَ * كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ * فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ * يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ * وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ * لاَ يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ * لَوْ أَنْزَلْنَا هٰذَا الْقُرْءَانَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ * هُوَ اللهُ الَّذِي لاَ إِلٰهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمٰنُ الرَّحِيمُ * هُوَ اللهُ الَّذِي لاَ إِلٰهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلاَمُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ * هُوَ اللهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى * يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ *

هذه السورة ثلاثة اقسام

(١) فى ذكر غلبة الله ورسوله لأعدائه فى قوله : « هوالذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب » إذ أخرجوا من ديارهم وأخذ منهم الفىء ومايتبع ذلك من أول السورة إلى قوله : « ربنا انك رءوف رحيم »

(٢) فى ذكر أخلاق المنافقين ، وأنهم هم وأهل الكتاب الذين نافقوا هم مغلوبون على أمرهم كمثل أهل بدر، أو بنى قينقاع ، وكمثل الشيطان الذى يغرّ الانسان ثم يتبرّأ منه من قوله تعالى : « ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لاخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجنّ معكم ولانطيع فيكم أحدا أبدا وان قوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون » إلى قوله « وذلك جزاء الظالمين » .

(٣) فى ذكر نصائح للؤمنين ، واعظام أمر القرآن ، ووصف الله بأوصاف الجلال والجمال ، لأن هذا هوالمقصود من هذه الحياة من قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ماقدّمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون » إلى آخر السورة .

القسم الأول من السورة

التفسير اللفظى

بسم الله الرحمن الرحيم

اعلم أن الله لما ذكر سورة المجادلة وكانت ترجع إلى أحكام شرعية ، وتقريع للمنافقين ونحو ذلك ، وأعقبها الله بهذه السورة ، وكانت فى جملتها تشبه سابقتها ، ولم يكن فى ذلك ذكر الله الذى هوالمقصود الأعظم ابتدأ هذه السورة وختمها بالتسبيح ، وبذكر أوصافه تعالى حتى يكون القارىء متذكرا أوصافه العالية ، سبحانه ، وهذا قوله (سبح لله مافى السموات ومافى الأرض) باللسان وبالقلب من عقلائهم ، فأما غيرهم فبلسان الحال بحيث يدل كل مخلوق على أن صانعه منزه عن المادّة ولواحقها ، أوأن كل مخلوق منقاد له ، يتصرّف فيه وينفذ فيه أمره كيف يشاء ، فجميع أجزاء السموات والأرض فيهاهاتان الدلالتان : ترفع فاعلها وتنزهه ، وانقيادها له وخضوعها (وهوالعزيز) القاهر لكل مخلوق ، الغالب من حاد عن الجادّة (الحكيم) فيما يصنعه . روى أن هذه السورة نزلت بأسرها فى بنى النضير ، وذلك أن النبىّ صلى الله عليه وسلم حين قدم المدينة صالح بنوالنضير رسول الله صلى الله عليه وسلم على ألا يكونوا عليه ولاله ، فلما ظهر يوم بدر قالوا هذا النبىّ الذى جاء نعته فى التوراة ، فلما هزم المسلمون يوم أحد ارتابوا ونكثوا ، فخرج كعب بن الأشرف فى أربعين راكبا الى مكة فحالف أبا سفيان عند الكعبة ، فأمر ﷺ محمد بن مسلمة الأنصارى فقتل كعبا غيلة ، ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم مع الجيش إليهم فحاصرهم إحدى وعشرين ليلة ، وأمر بقطع نخيلهم ، فلما قذف الله الرعب فى قلوبهم طلبوا الصلح ، فأبى عليهم إلا الجلاء على أن يحمل كل ثلاثة أبيات على بعير ماشاءوا من متاعهم فجلوا إلى الشام إلى أريحاء وأذرعات ، ثم ان عبد الله بن أبىّ ابن سلول قبل ذلك قال لهم هو وأصحابه لاتخرجوا من حصنكم ، فان قاتلوكم فنحن معكم ولانخذلكم ولننصرنكم ، ولئن أخرجتم لنخرجنّ معكم ، فحصنوا الأزقة ، وبعد ذلك أرادوا مكيدة فكشف أمرها ، فخرج إليهم صلى الله عليه وسلم مع الجيش وحاصرهم كما تقدم ، وهذا قوله تعالى (هوالذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأوّل الحشر) أى فى أوّل حشرهم : أى جمعهم من جزيرة العرب ونفيهم إلى الشام ، وآخر ذلك الحشر اجلاء عمر إياهم من

خيبر إلى الشام ، وكان هؤلاء من سبط لم يصبهم جلاء قط ، وهم أول من خرج من أهل الكتاب من جزيرة العرب ، والحشر اخراج جمع من مكان إلى آخر (ماظننتم أن يخرجوا) لشدة بأسهم ومنعتهم (وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله) أى ان حصونهم تمنعهم من بأس الله (فأتاهم الله) عذابه وهو الرعب والاضطرار إلى الجلاء (من حيث لم يحتسبوا) وهو أن الله أمر نبيه ﷺ بقتالهم واجلائهم ، وكانوا لا يظنون ذلك (وقذف فى قلوبهم الرعب) الخوف الشديد بقتل سيدهم كعب بن الأشرف (يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين) فانهم كانوا ينظرون إلى الخشب فى منازلهم فيهدمونها ، وينزعون ما استحسنوه منها فيحملونه على إبلهم ، ويخرب المؤمنون باقيها ، ويقلعون العمد ، وينقضون السقوف ، وينقبون الجدران ، لئلا يسكنها المؤمنون حسدا منهم وبغضا (فاعتبروا يا أولى الأبصار) أى فاتعظوا بحالهم فلا تغدروا ، ولا تعتمدوا على غيرالله ، وهذه الآية استدل بها على ربع الدين الاسلامى ، وهو القياس ، وأنه حجة من حيث أنه أمر بالمجاوزة من حال إلى حال ، وحملها عليها فى حكم لما بينهما من المشاركة المقتضية له (ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء) الخروج من أوطانهم (لعذبهم فى الدنيا) بالقتل والسبى كما فعل ببنى قريظة (ولهم فى الآخرة عذاب النار) سواء أجلوا أم قتلوا (ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاق الله فان الله شديد العقاب) . ولما نزل صلى الله عليه وسلم ببنى النضير وأمر بقطع النخيل ، قالوا : قد كنت يا محمد تنهى عن الفساد فى الأرض فما بال قطع النخل وتحريقها ؟ فوجد المسلمون فى أنفسهم من قولهم وخشوا أن يكون ذلك فسادا فى الأرض فقطع بعضهم ، وقال بعضهم : لا تقطعوا فانه مما أفاء الله عليكم ، وقال الآخرون : بل نغيظهم ، فنزلت هذه الآية بتصديق من نهى ، وبتحليل من قطع ، وهى (ماقطعتم من لينة) أى أى شىء قطعتم من لينة ، واللينة النخلة الكريمة ، والجمع أليان (أوتركتموها قائمة على أصولها فباذن الله) فبأمره : أى فقطعها وتركها باذن الله ، وانما أذنا فى ذلك وقطعتم بأذننا النخل لنطهر البلاد منهم (وليخزى الفاسقين) على فسقهم بما غاظهم (وما أفاء الله على رسوله) أى ماأعاده عليه ، وصيره إليه ، أورده إليه ، لأنه أولى به ، لأن المصلحين فى الأرض أولى الناس بما فيها (منهم) من بنى النضير (فما أوجفتم) أى فما أجريتم على تحصيله ، والوجيف سرعة السير (عليه من خيل ولاركاب) والركاب مايركب من الإبل ، غلب فيه كما غلب الراكب على راكبه وذلك أن قرى بنى النضير كانت على ميلين من المدينة ، فمشوا إليها رجالا إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم فانه ركب جملا ، أوحمارا ، ولم يكن ليجرى معهم عظيم قتال (ولكن الله يسلط رسله على من يشاء) بقذف الرعب فى قلوبهم (والله على كل شىء قدير) فهو يسلط ظواهر الأسباب تارة وبواطنها أخرى .

ولما تم الكلام على جلاء بنى النضير وعلى فيئهم أعقبه بالكلام على مصرف هذا الفىء فقال سبحانه (ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى) أى من أموال كفار أهل القرى كقريظة والنضير وفدك وخيبر (فلله وللرسول ولذى القربى) وهم بنوهاشم وبنوالمطلب (واليتامى والمساكين وابن السبيل كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم) أى انما حكمنا بذلك وجعلناه لهؤلاء المذكورين لئلا يكون الفىء الذى حقه أن يعطى للمذكورين ليعيشوا به متداولا بين الأغنياء دائرا بينهم كما كان فى الجاهلية يتكاثرون به ، والدولة مايدول للانسان : أى يدور من الجد والحظ (وما آتاكم الرسول فخذوه) أى ماأعطاكم من قسمة غنيمة ، أوفىء فاقبلوه (وما نهاكم عنه فانتهوا) أى ما نهاكم عن أخذه فانتهوا عنه ولاتطلبوه (واتقوا الله) أن تخالفوه وتتهاونوا فى أمره (إن الله شديد العقاب) لمن خالف رسوله ﷺ ، وليست الآية خاصة بالفىء فنحن مأمورون أن نتبعه فى كل شىء أمرا ونهيا ، ثم أبدل من « لذى القربى » ومابعده قوله (للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم) فان كفار مكة أخرجوهم وأخذوا أموالهم (يبتغون فضلا من الله

ورضوانا و ينصرون الله ورسوله) بأنفسهم وأموالهم (أولئك هم الصادقون) الذين ظهرصدقهم ، ثم عطف على المهاجرين قوله (والذين تبوّؤا الدّار والايمان من قبلهم) وهم الأنصار ، فهم لزموا المدينة والايمان وتمكنوا فيهما من قبل هجرة المهاجرين (يحبون من هاجر إليهم) ولا يثقل عليهم (ولايجدون فى صدورهم) فى أنفسهم (حاجة) ماتحمل عليه الحاجة من الطلب والحسد والحزازة والغيظ (مما أوتوا) مما أعطى المهاجرون من الفيء وغيره (و يؤثرون على أنفسهم) أى و يقدّمون المهاجرين على أنفسهم ، حتى ان من كان عنده امرأتان نزل عن واحدة وزوّجها من أحدهم (ولوكان بهم خصاصة) أى فاقة (ومن يوق شحّ نفسه فأولئك هم المفلحون) الفائزون بالثناء العاجل ، والثواب الآجل .

روى أن عمر رضى الله عنه قرأ : « ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى » حتى بلغ « للفقراء المهاجرين » إلى قوله : « والذين جاءو من بعدهم يقولون ربنا اغفرلنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولاتجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم » وهى الآية الآتية ، ثم قال هذه قد استوعبت المسلمين عامّة ، قال : وماعلى وجه الأرض مسلم إلا وله فى هذا الفيء حقّ إلا ماملكت أيمانكم .

وللشافعى قولان : أحدهما أن الفيء للمقاتلة ، والثانى وهو الأنسب بالآية لمصالح المسلمين ، و يبدأ بالمقاتلة ثم بالأهمّ فالأهمّ من مصالح المسلمين ، وأكثرالعلماء أنه يصرف جميعه لجميع المسلمين كما هوقول عمر ، وأحد القولين عند الشافعى ، قال تعالى : (والذين جاءوا من بعدهم) عطف على المهاجرين ، ودخل فى هذا الفيء كل من هومولود إلى يوم القيامة فى الاسلام : أى وذلك من العطف المذكور على المهاجرين كما تقدّم عن عمر (يقولون ربنا اغفرلنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان) أى لاخواننا فى الدين السابقين ، وهم المهاجرون والأنصار ، وهذا خبر بمعنى الأمر ، أمرالذين جاءوا بعد الصدرالأوّل أن يستغفروا لهم ، قالت عائشة رضى الله عنها : أمروا بأن يستغفروا لهم فسبوهم (ولاتجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا) أى حقدا لهم (ربنا إنك رءوف رحيم) فحقيق بنا أن تجيب دعاءنا . انتهى الكلام على القسم الأوّل من السورة ، والحمد لله رب العالمين .

القسم الثاني

فى ذكر أخلاق المنافقين ، وأنهم هم وأهل الكتاب الذين نافقوا لهم مغلوبون على أمرهم كمثل أهل بدر أو بنى قينقاع ، أوكمثل الشيطان الذى يغر الانسان ثم يتبرأ منه

ولما أتمّ الكلام على بنى النضير وعلى تقسيم الفيء أعقبه باتمام الكلام على ماحصل من المنافقين قبل الجلاء كما تقدّم فى التفسير قريبا من مناصحة عبد الله بن أبىّ ابن سلول لليهود هو ومن معه ، وقوله لهم : « لئن أخرجتم لنخرجنّ معكم » الخ فقال (ألم ترَ إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب) أى الذين بينهم و بينهم اخوة الكفر والصداقة والموالاة (لئن أخرجتم) من دياركم (لنخرجنّ معكم ولانطيع فيكم) فى قتالكم وخذلانكم (أحدا أبدا) أى من رسول الله والمؤمنين (وان قوتلتم لننصرنكم) لنعاونكم (والله يشهد إنهم لكاذبون) لعلمه بأنهم لايفعلون ذلك ، وهوقوله (لئن أخرجوا لايخرجون معهم ولئن قوتلوالاينصرونهم) وهذا هوالذى كان، فانهم أخرجوا من ديارهم وماخرجوا معهم ، وتوجه المسلمون لقتالهم فلم يدافعوا عنهم (ولئن نصروهم) على الفرض والتقدير (ليولنّ الأدبار) منهزمين (ثم لاينصرون) أى ينهزم اليهود ثم لاتنفعهم نصرة المنافقين (لأنتم أشدّ رهبة) أى أشدّ مرهوبية (فى صدورهم من الله)

فلذلك

فلذلك يظهرون لكم فى العلانية خوف الله وأنتم أهيب فى صدورهم منه (ذلك بأنهم قوم لايفقهون) لا يعلمون الله وعظمته حتى يخشوه حق خشيته (لايقاتلونكم) أى اليهود والمنافقون (جميعا) مجتمعين (إلا فى قرى محصنة) بالدروب والخنادق (أومن وراء جدر) لفرط رهبتهم (بأسهم بينهم شديد) أى ان البأس الشديد الذى يوجفون به إنما هو اذا حارب بعضهم بعضا، ولوقاتلوكم لم يبق ذلك البأس والشدة، لأن من حارب الله ورسوله يجبن (تحسبهم جميعا) مجتمعين متفقين (وقلوبهم شتى) متفرقة لا ألفة بينهم لافتراق عقائدهم، واختلاف مقاصدهم (ذلك بأنهم قوم لايعقلون) مافيه صلاحهم، ولا يعلمون أن تشتت القلوب يوهن القوى ويضعفها. ثم قال: مثل اليهود (كمثل الذين من قبلهم) أى كمثل أهل بدر، أوكمثل بنى قينقاع (قريبا) أى فى زمان قريب ثم بين ذلك فقال (ذاقوا وبال أمرهم) أى سوء عاقبة كفرهم فى الدنيا (ولهم عذاب أليم) فى الآخرة، ومثل المنافقين مع بنى قريظة حيث خذلوهم (كمثل الشيطان) مع الانسان (إذ قال للانسان اكفر فلما كفر قال إنى برىء منك إنى أخاف الله رب العالمين) فهؤلاء المنافقون فعلوا مع اليهود كما فعل الشيطان مع الانسان، إذ يستغويه بكيده ثم يتبرأ منه، ومن هذا الاستغواء أنه استغوى قريشا يوم بدر وقال: «لاغالب لكم اليوم من الناس وانى جار لكم» الخ (فكان عاقبتهما) أى عاقبة الانسان الكافر والشيطان (أنهما فى النار خالدين فيها وذلك جزاء الظالمين) وهذا القول يدخل فيه ماذكر من استغواء الشيطان للكفار يوم بدر. وماروى عن برصيصا الراهب الذى حكى أنه كان كثير العبادة، ثم أغواه الشيطان أن يتعلم الاسم الأعظم الذى تجاب به الدعوات، ثم تكاثرت عليه الناس، وأخيرا أتوا له بأجل فتاة ليقوم بأمرها، فأبى أولا، ثم أخذ يدعو الله لها وهى تشفى كلما مرضت بدعائه، ثم ان الشيطان سوّل له فواقعها، فحملت منه، ثم أغواه أن يقتلها ويدفنها، ثم جاء إلى اخوتها فى المنام فأخبرهم، فوجدوها مدفونة، فهدّوا صومعة برصيصا وقتل الملك ذلك الراهب، وانتهى الأمر، وهذه الحكاية وان كانت من أقاصيص بنى اسرائيل فهى ذات مغزى يناسب مانحن فيه وان لم تكن حقيقية.

فانظر كيف فعل المنافقون بالمدينة مع اليهود مانشاهده كل يوم من أعمال الناس يضل بعضهم بعضا ويغوونهم ثم يتركونهم، وهذا العمل بعينه هو الذى يفعله أمم أوروبا الآن، ألم تر أنهم فتحوا مدارس فى بلاد سوريا وأظهروا أنهم خلقوا لرقى الأمم واسعادها وأن الله خلقهم لذلك، وأذاعوا العلوم والمعارف، واشتاق الشبان والشيوخ لذلك الشعب الفرنسى النافع للانسانية، وكانت نساؤهم تتمنى أن يشاهدوا هؤلاء الرافعين للانسانية، فلما كانت الحرب الكبرى أخذوا تلك البلاد، وأخذوا يذيقونهم سوء العذاب، ويوقعون بهم النكال.

اللهم إن فعل المنافقين مع اليهود، وفعل الشيطان مع برصيصا العابد هو الذى نشاهده كل يوم من أوروبا، إن الله أنزل هذا القرآن ليبين للمسلمين وجوه النفع، يقرأ بعض المسلمين هذه الآيات فيقولون فى أنفسهم «تلك أمة قد خلت» وأى شىء المنافقون ويهود بنى النضير؟ لقد ماتوا، ومن هو برصيصا الراهب وشيطانه الذى هو من أقاصيص بنى اسرائيل؟ نقول لهم هذا هو الذى ترونه كل يوم، إن الشيطان الذى ظهر لبرصيصا فى تلك الحكاية كان يتظاهر بالصلاة، فلايزال يصلى أربعين يوما ولاينفلت من صلاته، فظن برصيصا أنه أحسن منه، فلما لقنه الدعوات قبلها، وكان قبوله للدعوات سبب وقوع الفتاة عنده.

إن هذه حال أوروبا الآن حرفا بحرف، يتظاهرون بالمدنية، ويفتحون المدارس، ويقولون نمدّن الشعوب، ونرقى الجنس البشرى، ثم هم فى الوقت نفسه يمتصون دماء الشعوب، ويقتلون الأمم، ويبتزون المال، ويجعلون الناس طعمة لهم، وفاكهة وأبا، متاعا لهم، وتقوية لشهواتهم وفسوقهم.

ومن هذا القبيل ما قاله [غاندى] الحكيم الهندى فى زماننا مامعناه : « إنّ الشيطان يفلح فى إضلال الناس اذا ظهر وفى فمه ذكر الله » .

فهذا كمثل قصة برصيصا الكاهن ، فهذه الآيات يجب على المسلمين أن يتذكروها ، و يؤلفوا رسائل سياسية تناسبها بألفاظ وأمثال يفهمها الناس ، وفى كتاب «كليلة ودمنة» من الأمثال مافيه مقنع ، لأنه كتاب كله سياسة ، فانظره إن شئت . والى هنا تمّ الكلام على القسم الثانى من السورة ، والحمد لله ربّ العالمين .

القسم الثالث

فى ذكر نصائح للمؤمنين ، واعظام أمر القرآن ، ووصف الله تعالى بأوصاف الجلال والجمال لأن هذا هو المقصود من هذه الحياة

ولما أتمّ الكلام على أخلاق الضالين من المنافقين والضالين ، وحذر من أفعالهم ، شرع ينصح المسلمين بلزوم التقوى فقال (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ماقدّمت لغد) ليوم القيامة ، وإنما سماه غدا لدنوّه وقربه ، أواقرب مايدل عليه من عذاب الدنيا وعذاب القبر (واتقوا الله) تكريره للتأكيد (إنّ الله خبير بما تعملون) وهذا وعيد (ولاتكونوا كالذين نسوا الله) نسوا حقه (فأنساهم أنفسهم) أى أنساهم حظوظ أنفسهم فلم يقدّموا لها خيرا ينفعها ، ولم يدرسوها و يعرفوا العالم حولها حتى يفطنوا لها (أولئك هم الفاسقون) الكاملون فى فسوقهم (لايستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة) وهم الذين كملت نفوسهم فدخلوا الجنة ، والذين استمهنوها فاستحقوا النار (أصحاب الجنة هم الفائزون) بالنعيم المقيم .

إن الآيات المتقدمة فيها عبر وأمثال ، ومنها قوله : «كمثل الشيطان» وقوله «كمثل الذين من قبلهم قريبا ذاقوا وبال أمرهم» فان ذلك رمز إلى ما ذكرناه من انخداع النفوس الانسانية بشياطين الإنس تارة و بشياطين الجنّ تارة أخرى ، ألاترى أن وعد المنافقين بالمدينة لليهود ، ووعد الشيطان لأهل مكة يوم بدر مثالان ينطبقان على كل ما ابتلى به الناس فى هذه الدنيا ، إن الناس لاعذاب عليهم ولاشقاوة إلا من جهة الجهل ، فالجهل هو الباب الواسع الذى فتح لهذا الانسان فأوقعه فى الشقاء . والاضلال والاغواء لايخرجان عن أمرين : إما أن يكونا بلسان الأحياء من بنى آدم ، واما أن يكونا بهواجس فى نفوسنا ، وآراء داخل قلوبنا ، وهذا منسوب لشياطين الجنّ :

(١) فالشره فى الطعام الذى يعقبه المرض .

(٢) والبخل بالمال الذى يعقبه كراهة الناس .

(٣) والخوف من الموت الذى يورث الجبن فيتبعه قهر الأعداء .

(٤) والاسراف فى المال الذى يتبعه الفقر .

كل ذلك من آراء من داخل النفس ، فهى شيطانية من شياطين الجنّ أوالهوى أوالنفس ، وإما من خارجها فهى من شياطين الانس ، وأعمّ الأمور وأهمها فى أيامنا الحاضرة ما ابتلى به المسلمون من ضحك الفرنجة عليهم ، وابتلائهم إياهم بالأنسجة المزخرفة ، والصناعات الجميلة ، والنساء البهيات الطلعة ، واستغوائهم إياهم تارة بالمادّيات ، وتارة بالمعنويات ، كأن يعلموهم فى مدارسهم ، و يغشون على عقولهم ، و يقولون لهم : نحن ننشر المدنية والحرّية حتى اذا ما أناموا العقول ، وابتزوا الأموال ، وأصبح الشرق كأنه منوّم [بالفتح] تنويما مغناطيسيا انقضوا على البلاد فأورثوها النكال والبوار ، وجرّوا عليها الخراب ، وورثوا أرض المسلمين

ودیارهم ، فهذا من الأمثال المضروبة فى هذه السورة : « كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إنى برىء منك إنى أخاف الله ربّ العالمين » .

إنّ الاوروبى لايقول للشرقى اكفر ولكنه يقول له : دع الامور القديمة ، واعلم أن الديانات أصبحت لاقيمة لها ، ويبغضونه فى عادات آبائه وأجداده ، ويحقرون ذلك فى عينيه ، وهكذا ينقضون عزائمه حلقة حلقة حتى ينخلع من وطنه ودينه وهولايشعر ، فاذا جاء دورالاحتلال ، وأخذ البلاد ، أصبح ذلك المفتون بهم فيمن شملهم الذّل « ولات حين مناص » .

ذلك هوالذى صنعه الاسبانيون فى بلادالأندلس ، وهوالذى استمرّ بعد ذلك فى مصر وسوريا وشمال افريقيا ، دخل الفرنجة بلادنا وكان دخولهم أشبه بالحكاية المنقولة عن بنى اسرائيل التى ابتدعوها كضرب الأمثال من باب الاستعارة التمثيلية ، وقد أشرنا إليها فيما تقدم ، فان الشيطان المسمى بالأبيض الذى أرسله إبليس لاضلال برصيصا الراهب فيما يزعمون هم العلماء فى الكليات فى أوروبا ورجال الدين ، ثم إن حضور الأبيض فى صورة برصيصا واظهاره العبادة والصلاة والصيام حتى صار لايأكل إلا كل أربعين يوما مرّة أشبه بما يقوله أولئك العلماء الاوروبيون ورجال الدين فى المدارس من أنهم جاءوا لترقية أبناء الشرق ، ثم ان قول ذلك الشيطان لبرصيصا : سأعلمك كلمات تدعو بها الله فيستجيب لك ، كقول الأوروبى لأحد الخديويين فى مصر سابقا : « قل للعسكر يتركوا الدعوات والعبادات ، لأنّ المتدين ضعيف الارادة ، أما حرّ العقيدة فانه شجاع » .

وأما دعاء برصيصا بتلك الدعوات واستجابتها وحبّ الناس له والتفافهم حوله ثم وقوعه أخيرا فى الذنب الذى نصبه له ذلك الشيطان إذأوقع بنت الملك فى مرض أشبه بالجنون ، ودلهم على برصيصا فحضرت عنده ، وأغراه بالفسق بها ، فحملت ، ثم أمره فقتلها ، ثم أخبرأهلها فى المنام ، وعرّفهم محلها الذى دفنت فيه فى الجبل فهو بعينه ماتفعله أوروبا الآن ، يتدخلون فى كل شىء بصفة الاصلاح ويكتبون الى دولهم حتى اذا حان وقت ابتلاع البلاد أحاطوا بها من كل جانب بسبب مالديهم من الرسوم ومعرفة الاماكن والعورات ، فيسهل فتح البلاد وتصبح ملكالهم ، وهذا قتل للأمة كما قتل الملك برصيصا الراهب لوقوعه فى جريمتين : الزنا والقتل ، وهؤلاء الشرقيون وقعوا فى جريمتين : الانخلاع من الفضائل ، وهذا بالزنا أشبه ، وترك حبل الامور على غاربها ، وهذا قتل للأمة ، فاذن يستحقون القتل ، وقتلهم استعبادهم .

ألاترى أن هذاكله فى ضمن الآية ، أفلاترى معى أن جميع مانخطىء فيه فى صحتنا ومالنا وسياستنا وتجارتنا إنما هو من آراء تكون فى أفئدتنا من داخلها أومن الخارج ، أفلاترى أن قوله تعالى « ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظرنفس ماقدّمت لغد » بعدماتقدم للاشارة إلى أنه يجب الحرص على مافى هذه السورة ونحوها من المعانى ، أفلاترى أن قوله تعالى بعد ذلك «لوأنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدّعا من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون » إنما جىء به بعد هذه التشبيهات للاشارة إلى عظم خطرها وأهميتها بالنسبة للمسلمين ، والا فلماذالم يذكر هذا القول إلا فى هذا المقام ؟ ولماذا يمثل الجبل برجل ذى عقل وقد قرىء عليه القرآن فيكون خاشعا مشفقا من باب التخييل ، ثم يعقبه بقوله « وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون » وذلك كله لأجل تعليم المسلمين التفكر ، وطريق التفكريكون بمثل ما كتبناه ، فان القرآن لم ينزل إلا ليتفكر فيه ، وفى هذه السورة فتح أعظم باب للفكر ، ولذلك أعظم أمر القرآن وأمر الأمثال ، وقال : « لعلهم يتفكرون » .

إن جميع بنى آدم مسحورون إمابفكرداخلى ، واما بشيطان انسى ، إن شياطين الإنس هم كثيرمن أهل أوروبا

يختصون بأموال الشرقيين لاسيما المسلمين ، و يجدّون فى بقائهم جاهلين ، ليكونوا لهم خولا وعبيدا خاضعين . لعمرى لقد أعطيت الآية من العناية مايليق بهذا التفسير ، فلأتمم الكلام على بقية السورة (هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة) ما غاب عن الحسّ من عوالم الملائكة ، وماحضر من الأجرام المادّية ، والسرّ والعلانية ، والآخرة والدنيا ، والمعدوم والموجود (هوالرحمن الرحيم ، هوالله الذى لا إله إلا هو الملك القدّوس) المنزه عن القبائح ، وعن كل ما يلابس المادّة ومافيه نقص (السلام) الذى سلم الخلق من ظلمه ، إذ جعلهم على نظام يكفل رقيهم ، ولاتعرف هذا حقّ المعرفة إلا اذا رجعت إلى تفسير قوله تعالى : « بيدك الخير » فى ﴿سورة آل عمران﴾ . وأيضا هوالذى سلم من النقائص وكل آفة تلحق الخلق فيكون السلام أعمّ من القدّوس (المؤمن) واهب الأمن ، ولذلك نرى كل مخلوق فى الأرض يعيش وهو فى أمن نسبى ، فالطائر فى جوّه ، والحية فى وكرها ، والسمك فى البحر ، والانسان فى القرية . ولايعيش قوم على الأرض مالم يكن هناك حرّاس يحرسون قراهم والا هلكوا ، فهذا من معانى « المؤمن » (المهيمن) الشهيد على عباده بأعمالهم الذى لايغيب عنه شىء ، أوالرقيب الحافظ لكل شىء ، فهو على الأوّل راجع للعلم وعلى الثانى للقدرة (العزيز الجبار) أى الغالب الذى جبر خلقه على ما أراده ، أوجبرحالهم : أى أصلحه ، وربما دخل المعنى الثانى فى عموم الأوّل ، لأنه يسوقهم إلى مايريد ، ومن ذلك اصلاح حالهم (المتكبر) البليغ الكبرياء والعظمة (سبحان الله عما يشركون) نزّه ذاته عما يصفه به المشركون (هوالله الخالق) المقدّر للأشياء على مقتضى الحكمة (البارئ) الموجد لكل شىء بريئا من التفاوت (المصوّر) الموجد لصورها وكيفياتها كما أراد ، ولاجرم أن هذه المعانى يمكن معرفتها من تتبع أجزاء هذا التفسير ، فان آثار ذلك فيما كتبناه من جمال هذه الدنيا ونظامها وعجائبها (له الأسماء الحسنى) لدلالتها على محاسن المعانى ، ومحاسن المعانى تظهر فى مظاهر هذا الوجود ، فمن جهل نظام هذه الدنيا التى نحن فيها فقد جهل آثار صفات الله ، ومن جهل أثر الصفة جهل نفس الصفة ، والله لايعرف بذاته ، وانما يعرف بصفاته ، فهذا كله حثّ على العلوم التى أنزلها الله على قلوب عباده فى الشرق والغرب والحكمة فى هذا الوجود من الفلك وعلوم الطبيعة ، ومن ظنّ أن تلاوة أسماء الله ، أومعرفة معانيها وشرحها كافية فهو جاهل ، وانما تعرف الأسماء بالآثار ، فمن جهل الآثار فقد بار ، ولعمرى ما أوقع أمة الاسلام فى الخبال ، وأضاعها فيما مضى من القرون والأجيال ، إلا لما اعتراها من الجهالة ، وما أحاط بها من الجهال الذين اكتفوا بالقشور وتركوا العلوم فعميت الأبصار ، فياليت شعرى كيف نعرف المصوّر إلا بآثاره : أى بالصور التى صوّرها فى المعادن والنبات والحيوان وكيف نعرف أنه رحمن رحيم إلا اذا درسنا نظام الحيوان فندرك لطفه ورحمته به ؟ وكيف ندرك حفظه لكل شىء إلا اذا تتبعنا الأشياء بقدر طاقتنا البشرية ؟ وكيف نفهم قوله : (يسبح له مافى السموات والأرض) وأنه منزه عن النقائص كلها إلا اذا شاهدنا كمال صنعه بالدراسة فنهتدى بالكمال فى الأثر إلى الكمال فى المؤثر وقوله (وهوالعزيز) أى الغالب (الحكيم) الجامع للكمالات بأسرها ، فان الحكمة ترجع للكمال فى القدرة والعلم . والى هنا تمّ الكلام على القسم الثالث من السورة ، والحمد لله رب العالمين .



فى قوله تعالى : « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون ، هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم ، هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون ، هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى يسبح له مافى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم »

إن أوّل هذه الآيات ضرب مثل وتخييل ، وهذا التمثيل مثل ماجاء فى قوله تعالى : « إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان إنه كان ظلوما جهولا » . والمراد من ذلك توبيخ الانسان على عدم تخشعه عند تلاوة القرآن ، لقساوة قلبه ، وقلة تدبره ، والتصدع التشقق ، إن الجبل مع صلابته ورزانته لو أعطى تمييزا لأشفق من خشية الله وحذر من ألا يؤدّى حقّ الله تعالى فى تعظيم القرآن ، والكافر مستخف بحقه ، معرض عما فيه من العبر والأحكام ، كأنه لم يسمعها ، وصفه بقساوة القلب ، فهو غافل عما يتضمنه القرآن من المواعظ والأمثال ، والوعد والوعيد ، وتمييز الحقّ من الباطل ، والواجب مما لا يجب ، بأحسن بيان ، وأوضح برهان ، ومن وقف على هذا وفهمه أوجب له الخشوع ، ولقد دلّ على أن ذلك تمثيل قوله تعالى بعد ذلك « وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون » ثم شرع فى المقصود الأعظم والمهمّ الأتمّ من هذه المقدّمة العظيمة ، وهو تبيان أسماء الله الحسنى ﴿ وبعبارة أخرى ﴾ ان الله عزّ وجل ابتدأ سورة الحشر بقوله : « سبح لله مافى السموات ومافى الأرض وهو العزيز الحكيم » فهو منزه عن كل مالا يليق بالربوبية فى ذاته وصفاته وأفعاله ، وذلك كله مقتضى التسبيح ، فلا يكون من أفعاله مايشعر بالنقص ، أو الشرّ ، وكل مافى العالم من الشرور والنقائص ان هى إلا مقدّمات للخير والكمال ، وهو الذى عزّ فى سلطانه ، وقهر كل مخلوق أن يسير على مقتضى أمره ، وهو حكيم فيما يدبره من النظم العجيبة ، والأفعال البديعة ، وختم السورة بوصف القرآن بأن الجبال تصدّع من خشيته ، وجعل هذا مقدمة لما بعدها ، وهو الاشارة إلى أسمائه الحسنى ، تلك الأسماء التى تبلغ ٩٩ اسما ، وقد دخل فى معانيها هذا الوجود كله من سموات وأرضين ، ودخل فيها أيضا أفعال المكلفين ، ففيها العلم وفيها العمل ، وهذا عجب والله وأى عجب ! أن يصف القرآن بأن الجبال تخشع من خشية الله لو أنها سمعته ، ثم يتبع ذلك بأسمائه التى وصفها بأنها حسنى ، وهذه الأسماء تتضمن الوجود كله ، والقرآن كله ، لأن معانى القرآن كلها وجميع هذه المخلوقات لا تخرج عن معانى هذه الأسماء .

(١) ألم تر أن الرحمة التى تضمنها اسما [الرحمن الرحيم] تدل على إرادته الخير والنعمة والاحسان إلى خلقه جميعهم ، وأن كل نقمة ، وكل نازلة ، وكل خطب أسود يلمّ بهم لم تخرج عن كونها ممهدات ومعدّات لرحمات واسعة تشمل هؤلاء المنكوبين الأذلاء ، ولن يعرف هذا حقّ المعرفة إلا أناس صفت نفوسهم ودرسوا علوم هذه الدنيا دراسة كاملة ، أو قوم قرءوا هذا التفسير بامعان أو أكثره ، فانهم لا جرم يوقنون بأن كل نقمة فى هذه العوالم نعمة عظيمة لأنها مقدّمة لها ، بل لا تتمّ تلك النعم العظيمة إلا بتلك النقائص والآلام التى جعلت أساطين لها ودعائم ومقوّمات .

(٢) ولما كانت الرحمة بدون حكمة فى الفعل تدعو إلى عدم النظام والخلل فى الأحكام أعقبه بما يدل على نظام الامور وحفظ التوازن فى العوالم كلها ، ولولا ذلك لم الأحياء من هذه المخلوقات فقال : « هو الله الذى لا إله إلا هو الملك » فوصف نفسه أوّلا بالرحمة حتى يعلم نوع الانسان أن انفراده بالحكم فى هذه العوالم وسياسته

فى نظامها لايقتضى ظلما ، فهو منفرد بالملك ، متصرّف بالأمر والنهى فى جميع خلقه ، وهم تحت ملكه وقهره وارادته ، ولكن ذلك كله مسبوق بالرحمة ، فليس انفراده بالملك كانفراد ملوك الأرض بملكهم ، لأنهم يظلمون الناس و يسخرونهم لشهواتهم ، وتلك الشهوات تطمس وتغطى تلك الرحمة الكامنة فى النفوس ، ذلك أن المستبدّين بالملك يرون أنهم ان لم يكن لهم فى ذلك الملك منافع فلافائدة فيه ، والمنافع عندهم خاصة بالشهوات واللذات التى تعرفها البهائم ، وهم فى قلوبهم رحمة ، ولكن تلك اللذات تغطى هذه الرحمة وتطمسها كما تطمس تلك اللذات رحمات الناس بالحيوان عند ذبحه ، فهو يعلم أن الحيوان متألم عند ذبحه ، وفى قلبه رحمة له ، ولكن تلك الرحمة قد نامت تحت ذلك الغطاء ، لاسيما أن الشرائع المنزلة أيدت ذلك ، هكذا هؤلاء الملوك والأمم المستبدّون قد أنامت الرحمات التى كمنت فى قلوبهم تلك اللذات العاجلة فلم يحسوا بآلام تلك الأمم المظلومة ، لاسيما اذا أيد ذلك كتابهم (بتشديد التاء) ورجال سياستهم الذين يثيرون الجشع فى أفئدتهم ، و يبيحون لهم الفتك والظلم ، وهذه الاباحة من مخلوق لاتدفع إثما ولاتمنع ذنبا بخلاف الاباحة الدينية فهى مقدّسة . هذا كله فى أفعال العباد ، فهم اذا ملكوا بطشوا بطش الجبارين ونامت الرحمات ، وليسوا عند الظلم والبطش بمريدين الخير للظالمين المبطوش بهم . كلا . بل هم إنما يريدون منافع نفوسهم لاغير ، أما الله عزّوجل فانه منفرد بالملك والتصرّف ، ولكنه ليس كالملوك والأمم المستبدّة ، بل رحمته كاملة تامّة شاملة . هذه هى الحكمة فى أنه ذكر انفراده بالألوهية والملك بعد وصفه بالرحمة .

(٣) و يشير إلى ماقرّرناه فى هذا المقام أنه ذكر بعد ذلك أنه [القدّوس] أى البليغ فى النزاهة عما يوجب نقصانا فى ذاته وصفاته وأفعاله . ولذلك يقول الملائكة : « سبوح قدّوس رب الملائكة والروح » . ألاتعجب أيها الأخ معى كيف يكون ذكر انفراده بالألوهية والملك بعد وصفه بالرحمة قد اقتضى أن يخالف من انفردوا بالملك من الخلق فى أن هذا الانفراد وسيلة لسلب الرحمة من قلوبهم ، فهم إذن غير منزهين ولاطاهرين والله مخالف لهم ، فهو منزه من كل مالايليق له ، ثم كيف يصرّح بما فهم ضمنا مما تقدّم بقوله [القدّوس]

(٤) و (٥) ثم أكد ذلك المعنى بقوله بعده [السلام المؤمن] وهو ذو السلامة من كل نقص وآفة ، وهذا مصدر وصف به للمبالغة ، وزاده تأكيدا بوصفه بأنه واهب الأمن ، فقد أمّن الخلائق من ظلمه ، وقد أمّن من آمن به من عذابه اذا كان مطيعا بخلاف المنفردين بالملك من الناس ، فهم ليسوا منزهين عن الظلم ، ولاسالمين من النقص ، ولا آمنة رعاياهم بوائقهم كما نرى ذلك فى الأمم الاوروبية التى تحكم بعض بلاد الاسلام فهؤلاء المحكومون أبدا فى فزع وجزع من ظلم هؤلاء ومقتهم وشرّهم ، ولكن هذه الأمم الاسلامية يجب أن تطمئن ، لأن الله رحمن رحيم ، ملك قدّوس ، سلام مؤمن ، واذا كان هو المتصرّف فى الخلق بالرحمة فهو لم يسلط هؤلاء على المسلمين تشفيا وانتقاما . كلا . ثم كلا . جلّ الله وجلّ الله ، ولكنه سلطهم على المسلمين حتى يستيقظوا من غفلتهم ، و يقوموا من رقدتهم ، وهنالك يخرج تلك الأمم من ديار الاسلام ، لأنه قدّوس ، ولأنه سلام ، ولأنه مؤمن ، فالناس فى أمان وربهم منزه عن الظلم ولكنه يلهم بعض عباده أن يؤذوا آخرين ليوقظهم هو بذلك الايذاء ، كما أنه سبحانه يلهم الآساد والنمور والوحوش أن تهاجم قطعان الماشية ، وتقتنص منها ما يكون به قوتها ، فتستفيد الآساد قوتها ، وتستفيد القطعان الاتحاد والوئام والمحبة ، لأن القطيع كله يجرى حثيثا عند مهاجمة الآساد والذؤبان له ، وهناك لايقتنص إلا واحدة من مائة أو آلاف ، وهذه الواحدة تكون ضعيفة ولكن بقية أفراد القطيع يحتمى بعضها ببعض ، و يتدخل بعضها فى بعض ، وهذا هو الاتحاد الذى لايتم إلا بالمحبة ، و بهذه المحبة يعيش القطيع بالسعادة والسلام ، فهذه الأمم الهاجمة على ديار الاسلام لن تبقى فيها إلا ريثما تستيقظ تلك الأمم ، ولن تأخذ منها إلا ماتأخذه الآساد من قطعان الماشية ، لحظها شبع بطونها ، ولكن حظ

الامم

الأمم المقهورة الاسلامية الاتحاد والوئام وانتشار العلم الذى يوجبه توالى الضغط والظلم المنصب على هذه الأمم ، انّ الله قدّوس وسلام ومؤمن .

(٦) وهو الرقيب الحافظ لكل شيء ، الشهيد على عباده بأعمالهم فلا يغيب عنه شيء ، والقائم على خلقه برزقهم ، وذلك معنى اسمه [المهيمن] ، ويقال انه مأخوذ من الأمن فهو [مؤيمن] قلبت الهمزة هاء .

(٧) و(٨) و(٩) ثم أتبع ذلك بصفات العزة والغلبة ، فهو [العزيز] الغالب غير المغلوب [الجبار] الذى جبر خلقه على ما أراده [المتكبر] الذى تكبر عن كل مايوجب حاجة أونقصا ، وهو البليغ الكبرياء والعظمة ، وهذه الصفات المسبوقات بالرحمة وبالأمن وبالسلامة متممات لها ، وكيف تكون رحمة وأمن وسلامة إلا بالاحتياط لها والأخذ بأسبابها ؟ وكيف يداوى الطبيب المريض اذا لم يقطع عضوه الفاسد حفظا لسلامة جسمه ؟ فلايبالى بألم المريض ولاأنينه ، لأن رحمته بهذا المريض رحمة صادقة بخلاف رحمة الأم المشفقة على ولدها أن يلاق المصاعب ، فهى رحمة جاهلة ، فذكر الملك أوّلا والعزّة والجبروت والكبرياء ثانيا ، وذكر القدس والسلام والأمن والهيمنة فيما بين ذلك لافادة أن الرحمة ليست كرحمة الأمهات ، بل يضرب لها المثل برحمة الأب ورحمة الحكومات العادلة التى لاتبالى بالآلام القليلة فى جانب المنافع الكثيرة ، ولذلك يقتلون القاتل ، لأن الألم الناجم من قتله يختص بعشيرته ، ولكن المنافع تعم الأمة كلها لأنها تكون فى أمان من الظلم ، ويصبحون فى سلام واطمئنان ، فالآلام القليلة اذا أدّت إلى منافع كثيرة تكون خيرا لاشرّا ، فاذلال الغرب للشرق الآن من الله عزّوجلّ ، فهو سبوح قدّوس ، منزه عن العبث فى أفعاله : أى انه لم يسلط هؤلاء على هؤلاء للاذلال أوللانتقام . كلا والله . وانما هو سبحانه يريد اليسر ولايريد العسر ، وانما فعل ذلك كما يفعل الطبيب بالمريض ، يؤلمه ساعة ويريحه عشرات السنين ، وليس هناك سبيل للطبيب فى نفع المريض غير ذلك ، هكذا الله عزّوجلّ قد علم سبحانه أن هذه الأمم لايرفعها إلا هذا الاذلال والاحراج وتسليط الظالمين عليها ، وتكون فائدة الظالمين مادّية حقيرة ، وفائدة المظلومين معنوية دائمة ، ثم هو بعد ذلك قد يخفض هذه الأمم الظالمة ويرفع المظلومة : « وتلك الأيام نداولها بين الناس » ، ثم رجع إلى التنزيه ثانيا يؤكد هذه المعانى فقال : [سبحان الله عما يشركون] .

واعلم أن معانى الرحمة ومامعها ، والكبرياء وما شاكلها ، تجتمع كلها فى نظام هذه المخلوقات ، أليس من العجب أن نرى العناصر التى تبلغ فوق الثمانين متضادّة متنافرة ، فمنها محرق كالاكسوجين والصودا والبوتاسا ، ومنها ماليس كذلك كالادروجين ، فهو غاز لايورث احتراقا ، ولكنه هو قهرها وأذلها وصوّرها ، فخلق الماء من الاكسوجين والادروجين ، وجعل القطن من موادّ محرقة ، وأخرى غير محرقة كما تراه موضحا فى ﴿ سورة البقرة ﴾ عند آية الطير وابراهيم ، أليس هذا معنى قوله بعد ذلك :

(١٠) و(١١) و(١٢) : [هو الله الخالق] المقدّر للأشياء على مقتضى الحكمة [البارىء] الموجد لها بريئا من التفاوت [المصوّر] الموجد لصورها وكيفياتها كما أراد ، فهذه الصفات أفادت الأمرين معا : قهر هذه العناصر واذلالها ، وقد خلع عنها مالبست من صفاتها وألبسها لباسا آخر كما ترى ، أن الصودا والبوتاسا فى القطن قد عريت عن الاحراق وأصبحت ملبسا ، فههنا اجتمعت الكبرياء والعظمة والقهر مع الملك والسلامة والأمان والهيمنة والرحمة . ومن أعجب العجب أن تصبح هذه المادّة المتشاكسة المتنافرة متوادّة متحابة ولم يكن ذلك إلا برحمة وأمان وسلام أوّلا ، وكبرياء وقهر ثانيا ، وهذا معنى قوله : « سبحان الله عما يشركون » ومعنى قوله فى أوّل السورة : « سبح لله مافى السموات والأرض » وهذا هو قوله بعد ذلك : « له الأسماء الحسنى » لأنها دالة على محاسن المعانى ، وختم ذلك بمجمل ماتقدّم كله ، بل بمجمل هذا الوجود ، فذكر انه

يسبح له مافى السموات والأرض ، وانه عزيز حكيم ، فالتسبيح راجع للتنزه عن قصد الشر ، والعزة راجعة لصفات القهر المتقدمة ، و باجتماعهما معا اتصف بأنه [حكيم] وحكمته ظاهرة واضحة عند الحكماء وحدهم أولئك الذين يشهدون فى صور الموجودات كالفواكه والأقوات والملابس عناصر متنافرات ، قهرها وذللها لتسلب صفات الشر عنها وتلبس خلع الخير ، فأما سلبها صفات الشر فذلك بصفات السلام والقهر والكبرياء والبطش والعلو والملك ، وأما إلباسها لباس النفع فذلك بصفات الرحمة والسلامة والأمان والهيمنة والقدس والتنزه .

واعلم أيها الذكى أن هذه المعانى جميعها ظاهرة واضحة لذوى البصائر فى هذه الدنيا وهم أحياء يرونها بأعينهم فى ملابسهم وما كلهم ومشاربهم ، فكأن الماء وهم يشربونه يخاطبهم قائلا : هاأناذا مصوّر مبروء مخلوق من عنصرين متنافرين ، فبالكبرياء والملك كان اجتماعى ، وبالرحمة والرأفة والسلامة والأمان كانت هذه المنافع المزجاة إليكم بشربى ، وهكذا يقول القطن للابسه لوكان يعقل مايلبس ، أو يفهم لغة الجمادات الناطقات المتكلمات لذوى البصائر لا الجاهلين الغافلين إذ يقول :

أيها الانسان : أنت تلبسنى ولاتعلم أنى مكوّن من عناصر بعضها نيران محرقة ، ولكن هذه النار أصبحت بردا وسلاما عليك وعلى الناس أجمعين كما كانت النار بردا وسلاما على ابراهيم .

أيها الانسان : إنك لجهلك وقلة عقلك وغفلتك وقف عقلك عند ابراهيم وناره ، وظننت أن آيات الله خاصة بخوارق العادات . كلا . ثم كلا . إن آيات الله تحيط بك من كل جانب ، وهاأناذا أحيط بجسمك ، وأقيك حرّ الشمس ، وأنا نفسى مركب من موادّ بعضها محرقة ولم أحترق أنا ولم أحرقك ، فالعجائب تحيط بك أيها الانسان وأنت لاتشعر بما هو ظاهر واضح لك : « قتل الانسان ما أكفره » . « إنه كان ظلوما جهولا » .

هذه لغة الماء ولغة القطن ، ومثلها لغة الذرة والقمح ، وكل ماتراه يحيط بك ، تذهب إلى حقل الذرة فيعجبك رونقه ، ولكن ذلك بالنظر الظاهرى ، أما هو فانه يخاطبك بلسان حاله الذى هو أفصح من لسان المقال ، ويذكرك بما فيه من العناصر المذكورة فى ﴿ سورة البقرة ﴾ فارجع اليها ، ويريك أن الكبريت الذى يستوقد الناس النار به هو نفسه داخل فى ضمن الذرة ، ويقول لك :

أيها الانسان : أنت تأكل المحرق لجسمك وهو الكبريت الداخل ضمن أجزائى ، ولكنك لاتحترق وأنا لا أحترق به ، فأنا معجزة ماثلة أمامك ، الجاهل لا يعرف من آيات الله فى هذا المقام إلا نار ابراهيم ، والحكيم العالم يشاهد ابداع الله فى المشاهدات أمامه والله يقول لكم يابنى آدم : « وما نرسل بالآيات إلا تخويفا » . فالجاهلون لا يعرفون إلا خوارق العادات ، والحكماء يرون هذه المعانى تحيط بهم فلا يعوزهم خوارق العادات .

محاورات بينى وبين أحد الأصدقاء

اطلع على هذا بعض الأصدقاء الأعزاء العلماء ، فقال : إن ماتقدم كله حسن ، ولكنى الآن أريد أن أفهم معنى كون أسماء الله حسنى وأفهم هذا الحسن بالمشاهدة والعيان تفصيلا ؟ ، وأما هذا فما هو إلا إجمال ، وأريد أن أقص عليك ما ذكره الغزالى فى كتابه الذى جعله شرحا لأسماء الله الحسنى ، و بعد أن أتم مقاله أودّ أن ترينى هذا الحسن عيانا ؟ لأن الله يقول : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم » وأنت طالما قلت لنا ان هذا هو الزمان الذى يرى الله الناس فيه الآيات ؟ فقلت : أنا لا أمنع أن تذكر ماقاله الامام الغزالى فى هذا المقام ، وأنا ان شاء الله أريك هذه المعانى عيانا ومشاهدة لتنال اليقين والسعادة فى الحياة الدنيا قبل

الموت

الموت ، وأسأل الله أن يلهمنا جميعا الخير ، فذلك إذن [فصلان : الفصل الأوّل] ما قاله الامام الغزالى فى معنى هذه الأسماء [الفصل الثانى] فى عجائب ومحاسن أسماء الله الحسنى فى العوالم المشاهدات :

الفصل الأول فى معانى هذه الأسماء

من كلام الغزالى رحمه الله تعالى

فقلت : أسمعنى ما قاله الغزالى رحمه الله فى معانى هذه الأسماء . فقال : [الرحمن الرحيم] هما اسمان مشتقان من الرحمة ، وملخص المعنى الذى قاله : أن الرحمة لاتكون تامة إلا اذا شملت المستحق وغيره ، وشملت الضروريات والحاجيات والكماليات والدنيا والآخرة ، والرحيم من الناس عادة يحسّ بألم فى نفسه من رقته على المرحوم ، وهذا الألم مستحيل فى جانب الله ، فتكون الرحمة أتمّ ، لأن رحمتنا فيها إزالة الألم عن أنفسنا ، وليست كذلك رحمة الله ، والرحمن أخصّ من الرحيم ، ولذلك لايسمى به غير الله ، فهو جار مجرى العلم ، فالرحمن للسعادة الأخروية ، وهذه الرحمة خاصة بالله :

(١) هو عطوف على العباد بالايجاد .

(٢) والهداية إلى الايمان وأسباب السعادة .

(٣) والاسعاد فى الآخرة .

(٤) والانعام بالنظر إلى وجهه الكريم .

وحظ العبد من اسم الرحمن أن يرحم العبد الغافل فيعظه باللطف ، وأن ينظر إلى العصاة بعين الرحمة ، وأن تكون معاصى الناس كأنها معاصيه ، فيسعى فى إزالتها .

وحظ العبد من اسم [الرحيم] أن يسعى فى إزالة فاقة كل محتاج ، فان عجز فبالدعاء واظهار الحزن اهـ

[الملك] هو الذى يستغنى فى ذاته وصفاته وأفعاله وبقائه عن كل ماسواه ، ويستمدّ سواه الوجود وسائر الصفات منه ، والعبد لايتصوّر أن يكون ملكا مطلقا بهذا المعنى ، فهو لايستغنى عن كل شيء ، بل هو مفتقر أبدا ، ولما كان يملك شيئا ويفتقر إلى شيء ، كان له شوب فى الملك ، وأعظم ملك فى العباد هو المستغنى عن كل ماسوى الله ، وقد أطاعته رعيته الخاصة به قلبه ولسانه وقالبه وجنده وشهوته وغضبه وهواه وسائر أعضائه وقواه ، فاذا ملكها ولم تملكه واستغنى عن الناس واحتاج الناس إليه فى حياتهم العاجلة والآجلة فهو الملك فى العالم الأرضى ، وهذه رتبة الأنبياء ، ويليهم العلماء ، وملكهم على قدر ارشادهم واستغنائهم عن الاسترشاد ، وبهذه الصفات يقرب العبد من الملائكة ، وهذا الملك عطية من الحق .

أوصى بعض العارفين تلميذه فقال : « كن ملكا فى الدنيا تكن ملكا فى الآخرة » ، ومعناه اقطع طمعك وشهوتك عن الدنيا فان الملك فى الحرّية والاستغناء .

[القدّوس] الله قدّوس أى منزه عن كل صفة من صفات العباد الكاملة كالقدرة والعلم الخ فضلا عن نواقصها وقدرته ، وجميع صفات الكمال فيه ماكان ينبغى أن يعبر عنها بالألفاظ التى تدل على ما يظنه الخلق كمالا فيهم ، ولولا أن الرخصة وردت فى الشرع باطلاق ذلك لم يجز ، إن الناس نظروا فى أنفسهم فوجدوا نقصا وكمالا ، فنفوا عنه النقص وأثبتوا الكمال ولكن الله فوق كمالهم فضلا عن نقصهم .

[تنبيه] حظ العبد من هذا الاسم أن يكون علمه متعلقا بما هو دائم فيكون منزها عن كل مايشارك فيه البهائم من كل محسوس ومتخيل وكل متغير بحيث لوسلب آلة العلم بقى العلم فى نفسه ، وهكذا تكون ارادته قدسية : أى انه لايلحظ فى نفسه إلا لقاء الله والفرح بقربه ولا يكتفى بالجنة ونعيمها ، وبالجملة جميع الادراكات الحسية والخيالية يشارك الانسان فيها البهائم فيتعالى عنها فى الدنيا والآخرة ، ومن لم تكن همته

إلا فى الله فدرجته على قدرهمته ، و بالجلة من رقى علمه عن درجة المحسوسات والتخيلات وقدّس إرادته عن مقتضى الشهوات فقد نزل بحبوحة حظيرة القدس . هذا ملخص كلامه رحمه الله .

أقول: واياك أيها الذكى أن تظنّ أن هذا ينافى ماكتبناه فى هـذا التفسير، بل هو عينه ، وحب الله وحبّ لقائه لن يتمّ لامرئ فى هذه الحياة الدنيا إلا بأمر واحد ، وهوعشق العلم والغرام بالطبيعة ودرسها درسا مدققا ، وكتابنا هذا كاف لنيل هذه الدرجة وفتح باب للمزيد منها .

[السلام] هو الذى تسلم ذاته عن العيب ، وصفاته عن النقص ، وأفعاله عن الشرّ . أقول : وقد تقدّم فى هـذا التفسير براهين كثيرة على أنه لاشرّ فى هذا العالم إلا وقد جعل مقدمة لخير، حتى ان الموت مقدمة لصفاء الروح وخروجها من سجنها ، وحظ العبد من هذا الاسم أن يسلم قلبه من الحقد والغش وارادة الشرّ ، وأن تسلم جوارحه من الآثام والمحظورات ، ومثل هذا العبد يأتى الله بقلب سليم ، فهذا العبد سلام قريب من السلام المطلق الحق ، ولاسلام لمن أصبح عقله أسير شهواته .

[المؤمن] هوالذى يعزى إليه الأمن والأمان بافادته أسبابه ، وسدّه طرق المخاوف ، والمؤمن المطلق هو الذى يستمدّ منه كل أمن وأمان ، وجميع حواس الانسان تعطيه من الأمن مايلائمها كالعـين تبصر العدوّ فتتحاشاه ، واليد تبطش به فيكون الأمان من شرّه ، فالمؤمن هو الذى خلقها ، ولاجرم أن الانسان فى أصل فطرته ضعيف ، وهذه الجنود من العقل والجوارح قوّة له بها يتعاطى الطعام والشراب ، و يدافع الأعداء فذلك كله من صنع المؤمن ، ومن جنود الأمن والأمان الدين والعقائد ، والآراء الشريفة التى تجعل الانسان فى أمان فى الدنيا والآخرة ، وحظ العبد من هـذا الاسم أن يأمن الناس شرّه ، وأن يكون عضـدا لـكل خائف ، وأحقّ الناس بشرف هذا الوصف من يكون سببا فى أمان الناس من عذاب الآخرة بتعليمهم وتقويمهم ، وأفضل الناس فى ذلك الأنبياء ، وليس وصف الله بأنه مؤمن بمانع أن يكون الله مخوفا ، فانه منه الأمن وأسبابه ، ومنه الخوف وأسبابه ، كما أنه معزّ ومذلّ ، وخافض ورافع ، ولايمنع أحد الوصفين الآخر ، وقد ورد التوقيف بالمؤمن ولم يرد بأنه مخوف .

[المهيمن] أى القائم على خلقه بأعمالهم وأرزاقهم وآجالهم ، فهومطلع ومستول عليهم وحافظ ، وكل من هو مشرف كنه الأمر مستول عليه حافظ له ، فهو مهيمن عليه ، والاشراف يرجع إلى العـلم ، والاستيلاء إلى كمال القدرة ، والحفظ إلى الفعل ، فالجامع لهذه المعانى اسمه المهيمن ، وهل يجمعها على سبيل الاطلاق إلا الله ، وحظ العبد من هذا الاسم أن يهيمن أو يشرف على أغوار أسراره ، و يستولى على تقويم أحواله وأوصافه ، و يحفظها على الدوام ، فذلك مهيمن على قلبـه ، فان أشرف على عباد الله بتعرّف بواطنهم بالاستدلال بظواهرهم والتفرّس فيها كان نصيبه من هذا المعنى أوفر وحظه أتمّ .

[العزيز] هوالخطيرالذى يقلّ وجود مثله ، وتشتدّ الحاجة إليه ، و يصعب الوصول إليه ، فهذه أربعة معان ان لم تجتمع فى الموصوف لايسمى عزيزا ، فالأرض والشمس نفعهما عظيم ولانظير لهما (بحسب الظاهر عند أهل الأرض والا فكم من شموس وأرضين كما تقدّم) والحاجة مشتدّة إليهما ، ولـكن نحن نشاهدهما فلم يصعب الوصول إليهما ، فأين العزّة إذن ؟ وحظ العبـد من هـذا الاسم أن يحتاج إليه العباد فى أهمّ أمورهم فى الحياة الدنيا والآخرة ، والأنبياء أولى بهذه الصفة ، و يقرب منهم الخلفاء الراشدون والعلماء الخ .

[الجبار] هو من تنفذ مشيئته فى كل أحد على سبيل الاجبار ، ولاتنفذ فيه مشيئة أحد ، ولايخرج عن قبضته أحد ، وتقصر الأيدى دون حمى حضرته ، والجبار من العباد من ارتفع عن الاتباع ونال درجة الاستتباع بحيث يجبر الخلق بهيئته وصورته على الاقتداء به ومتابعته فى سمته وسيرته فيفيد الخلق ولا يستفيد ولايشاهده

أحد إلا ويغنى عن ملاحظة نفسه ويصير متشوّقا إليه غير ملتفت إلى ذاته ، ولا يطمع أحد فى استدراجه ، وهذه صفة الأنبياء لاسيما خاتمهم صلى الله عليه وسلم .

[المتكبر] هو الذى يرى الكل بالنسبة حقيرا بالاضافة إلى ذاته ، ولا يرى العظمة والكبرياء إلا لنفسه ، وذلك هو الله ، والمتكبر من العباد على هذا المنوال تكبره باطل ، والمتكبر من العباد هو الزاهد العارف فينزه سرّه عما يشغله من الخلق ، ويتكبر على كل شىء سوى الحقّ فيحقر الدنيا والآخرة جميعا بحيث لا يشغلانه عن الحق تعالى .

أقول : وأنت أيها الذكىّ خبير أن عجائب العوالم تجعل فى النفس قربا لمبدعها ، وارشاد الخلق وانقاذ الأمم من ضعفها ، كل هذا لم يخرج عن كونه مقرّبا لله تعالى .

[الخالق البارئ المصوّر] : فالأوّل راجع للتقدير ، والثانى للإيجاد ، والثالث للتصوير ، إن المهندس يفكر فى نظام المنزل ، فهو له مقدّر ، يقدّر مالابدّ منه من الخشب واللبن والمساحة الخ ، ثم يكون البناء ، ثم يكون الذى ينقش ظاهره ، وهذه بالترتيب : « الخالق البارئ المصوّر » ولكن الله هو الذى يتولى هذه الأفعال الثلاثة بنفسه .

أقول : ومن نعم الله عزّ وجل أن هذا التفسير من قرأ أكثر مافيه أو مقدارا كبيرا منه أدرك بحقّ وصدق ويقين عجائب اسمه تعالى المصوّر ، فانه يرى الاتقان فى كل صغير وكبير كالعين والأذن وتركيبهما وبدائع النظم فى أعالى العوالم وأسافلها ، ولقد أطال فى ذلك الامام الغزالى ، ولكن زماننا والحمد لله زمان هذه العلوم فبذلك فليفرح المسلمون ، فبشرى لهم بنابغين سيظهرون فى بلاد الاسلام ، يزرعون ما بذرنا فى الأفئدة ، وسيكونون حقا خير أمة أخرجت للناس . وحظ العبد من اسمه تعالى المصوّر أن يحصل فى نفسه صورة الوجود كله على هيئته حتى يحيط بالعالم علويه وسفليه من المجرّات والشموس والسدم .

أقول : ومن قرأ أكثر هذا التفسير فقد نال هذه الأمنية إن كان من الأذكياء العاشقين للعلم ، وهكذا يشرف على صورة الانسان من حيث بدنه وأعضاؤه الجسمانية ، فيعلم مفصلها بالتشريح وترتيب أجزائها ، وعددها والحكمة فى خلقها ، ثم يشرف على صفات الانسان المعنوية ومعانيه الشريفة التى بها إدراكاته وإراداته ، وكذلك يعرف صور الحيوانات والنباتات ظاهرا وباطنا بقدر وسعه حتى يحصل نفس الجميع وصورته فى قلبه ومعرفة الامور الجسمانية صورة مصغرة للامور الروحية ، وههنا يدخل فى عالم الملائكة وهم المتصرّفون فى عالم السموات والأرضين ، وهم الملهمون بأمر الله لكل انسان وحيوان ، لحظ العبد من هذا الاسم اكتساب الصور العلمية المطابقة للصورة الوجودية ، فان العلم صورة فى النفس مطابقة لصورة المعلوم ، وهذا فى الحادث أما علم الله بالصور فهو سبب فى وجود الصور فى الأعيان ، هذا كله فى الاسم [المصوّر] .

أما الخالق والبارئ فليس للعبد حظ فيهما إلا بطريق المجاز ، إن للعبد علما وقدرة ، وهذان لا ارتباط لهما بالتأثير فى عوالم السموات والأرضين ، نعم للانسان أعمال كالصناعات والسياسات والعبادات والمجاهدات ، فاذا هذب العبد نفسه وساسها وانفرد بأمور لم يسبق لها نظير كصنع الطيارات والراديو فى زماننا ، فان المخترع يطلق عليه هذا الاسم مجازا فيقال خالق وبارئ ، فهذا فى حق الله حقيقة وفى حق العبد مجاز بخلاف الصبور الشكور ، فهما فى حق العبد حقيقة ، وفى حق الله مجاز . وينبغى أن تلاحظ أيها الذكىّ مع المشاركة فى الاسم التفاوت بين المقامين .

هذا ملخص ماكتبه الامام الغزالى مع تغيير يسير كضرب الأمثلة ، فهو قد مثل للمخترعين بالشطرنج ، وأنا أمثل الآن بما لاحصر له من الأمثلة ، ومن أعجب العجب أن يكون دين الاسلام هذا مقامه ، وأن يكون

المسلم باختراعه قريبا من ربه ، والمسلمون نيام كأنهم لم يقرءوا كلام علمائهم فناموا ففرّ العلم والاختراع إلى بلاد أوروبا ، وانتقل الى أمريكا والشرق الأقصى ، أما بلاد الاسلام فلا ، وأنا أنذر أمم الاسلام قاطبة صاعقة العذاب الهون بما كانوا يجهلون .

اللهم لك المشتكى ، أمة تكون أسماؤك أنفسها أعينها نبراسا لهدايتهم للاختراع ، والاختراع يقربهم من من حضرتك العلية وهم لا يعلمون ، ولا يدرسون إلا القشور .

اللهم إنى أبرأ إليك من الكتمان ، وهاأناذا أنشر لهم ما فتحت به علىّ وألهمتنيه حتى ألقاك ، وقد فعلت ماقدرت عليه ، ولا تؤاخذنى بتقصيرى فانى وعزتك قد نشرت مع اعانتك لى بقدر امكانى ، ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها ، وهو أرحم الراحمين . انتهى الكلام على الفصل الأوّل ، والحمد لله رب العالمين .

الفصل الثاني

فى تبيان محاسن أسماء الله الحسنى بالمعاينة والمشاهدة

مصداقا لقوله تعالى : « وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها » وقوله : « إنّ علينا للهدى » وقوله : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحقّ »

هنالك ابتدأ صاحبى يسألنى قائلا : ما معنى كون أسماء الله حسنى ؟ أمحاسنها فى ألفاظها أم فى معانيها ؟ أم فى الآثار المنطبقة على معانيها ؟ وأنا أذكر أنه ورد فى بعض الآثار أن من أحصى أسماء الله الحسنى عددا دخل الجنة ، ورأيت للعلماء أقوالا فى ذلك ، فمن قائل من حفظها ، ومن قائل من فهم معناها ، ومن قائل من تخلق بها ، وأنا لا أدرى ماهو الحقّ من ذلك ، وأيضا هاهوذا الامام الغزالى يضرب أمثالا فى تفسيره لهذه الأسماء بذكر أعضاء النملة وتركيبها ، وتركيب العين وعجائب طبقاتها وهكذا مما تقدم شرحه ، فهاأناذا أريد أن أرى بعين البصر بعض هذه العجائب على شريطة أن تكون داخلة تحت أسماء الله الحسنى دخولا حقيقيا ؟ فقلت : ياصاح : أنا أجيبك بعون الله فى المقامين [المقام الأوّل] فى تبيان ماهو الحق من هذه الأقوال [المقام الثانى] فى تبيان محاسن الأسماء الحسنى بالعيان والمشاهدة .

المقام الأول فى تبيان ماهو الحقّ من هذه الأقوال

اعلم أيها الأخ الذكىّ أن هذه الأقوال لم تكن فى أمم الاسلام سدى ، فالقول الأوّل يناسب الأطفال ليحفظوا هذه الأسماء ، وهذا يناسب عقولهم لأنهم لا يعقلون المعانى ، والقول الثانى يلقى إلى الطفل متى عقل فيقال له : إن الجنة ودخولها لن تكون بمجرّد اللفظ ، لأن اللفظ يراد به المعنى ، ومتى زاد تعقلا يقال له : أيها الفتى : أنت فهمت المعنى ، وعرفت أن الله رحيم وقدوس الخ فاقرأ القرآن وادرس العلوم تجد فى الأوّل محرّمات فاجتنبها ، وواجبات فقم بها ، لتبرأ من العيوب الانسانية ، وتتحلى بالصفات الملكية ، فلا بدّ لك من علم وعمل ، ثم اذا ازداد تعقلا يقال له : أيها الانسان : لاسعادة فى هذه الحياة إلا بالوقوف على الحقائق ، ولن يقف الانسان على الحقائق وقلبه مفعم بالرذائل ، فاذا صفت نفسه قبلت الحكمة والعلم ، وظهرت له نفس هذه الدنيا بصورة بهجة جميلة ، وكأنها جنات ، يحسّ بها والناس لا يعلمون ، ويكون ذلك مقدّمات للجنات الحقيقية ، والسعادة الأبدية ، بمشاهدة صانع هذه العوالم بعد الموت ، ولن يطمع امرؤ عدم عشق هذه العجائب فى الدنيا فى أن يرى ربه إلا من وراء حجاب ، وعلى مقدار حجابه المسدول عليه فى هذه الحياة الدنيا يسدل عليه الحجاب يوم القيامة وبعد الموت ، لأنه لا درجة هناك مستأنفة ، فالحياة الدنيا هى أسّ

السعادة وأسّ الشقاء ، وهنالك يشتاق العاقل إلى أن يسمع :

المقام الثانى من الفصل الثانى

فقال صديق : أريد أن تذكر لى بالمشاهدة معنى [اللطيف ، والنور الهادى] فانى رأيت فى شرح الغزالى فى معنى اللطيف أنه هو العالم بدقائق المصالح وغوامضها ، ومادقّ منها ومالطف ، ثم يسلك فى ايصالها إلى المستحق سبيل الرفق دون العنف ، فاذا اجتمع الرفق فى الفعل واللطف فى العلم تمّ معنى اللطف ، ولا يتصوّر كمال ذلك فى العلم والفعل إلا لله تعالى ، فأما إحاطته بالدقائق والخفايا ، فلايمكن تفصيل ذلك ، بل الخفى مكشوف فى علمه كالجلى من غير فرق ، وأما رفقه فى الأفعال ولطفه فيها فلايدخل أيضا تحت الحصر ، إذ لايعرف اللطف فى الفعل إلا من عرف تفاصيل أفعاله ، وعرف دقائق الرفق فيها ، و بقدر اتساع المعرفة فيها تتسع المعرفة بمعنى اسم اللطيف ، وشرح ذلك يستدعى تطويلا ، ثم لايتصوّر أن يفى بعشر عشره مجلدات كبيرة ، وإنما يمكن التنبيه على بعض جمله ، فمن لطفه خلقه الجنين فى بطن الأم فى ظلمات ثلاث وحفظه فيها وتغذيته بواسطة السرّة إلى أن ينفصل فيستقل بالتناول بالفم ، ثم إلهامه إياه عند الانفصال التقام الثدى وامتصاصه ولو فى ظلام الليل من غير تعليم ومشاهدة ، بل فلق البيضة عن الفرخ ، وقد ألهمه التقاط الحب فى الحال ، ثم تأخير خلق السنّ عن أوّل الخلقة إلى وقت الحاجة للاستغناء فى الاغتذاء باللبن عن السنّ ، ثم انباته السنّ بعد ذلك عند الحاجة إلى طحن الطعام ، ثم تقسيم الأسنان إلى عريضة للطحن ، وإلى أنياب للكسر ، وإلى ثنايا حادّة الأطراف للقطع ، ثم استعمال اللسان الذى الغرض الأظهر منه النطق فى ردّ الطعام إلى المطحن كالمجرفة ، ولو ذكر لطفه فى تيسير لقمة يتناولها العبد من غير كلفة يتجشمها ، وقد تعاون على إصلاحها خلق لايحصى عددهم من مصلح الأرض وزارعها ، وساقيها وحاصدها ، ومنقيها وطاحنها ، وعاجنها وخابزها ، إلى غير ذلك لكان لايستوفى شرحه . وعلى الجملة فهو من حيث دبر الامور حكم ، ومن حيث أوجدها جواد ، ومن حيث رتبها مصوّر ، ومن حيث وضع كل شىء فى موضعه عدل ، ومن حيث لم يترك فيها دقائق وجوه الرفق لطيف ، ولن يعرف حقيقة هذه الأسامى من لم يعرف حقيقة هذه الأفعال ، ومن لطفه بعباده أنه أعطاهم فوق الكفاية وكلفهم دون الطاقة ، ومن لطفه أنه يسر لهم الوصول إلى سعادة الأبد بسعى خفيف فى مدة قصيرة ، وهى العمر ، فانه لانسبة لها بالاضافة إلى الأبد ، ومن لطفه اخراج اللبن الصافى من بين الفرث والدم واخراج الجواهر النفيسة من الأحجار الصلبة ، واخراج العسل من النحل ، والابريسم من الدود ، والدرّ من الصدف . وأعجب من ذلك كله خلقه الانسان من النطفة القذرة ، وجعله مستودعا لمعرفته ، وحاملا لأمانته ، ومشاهدا لملكوت سمواته . وهذا أيضا رفق لايمكن احصاؤه .

[تنبيه] حظ العبد من هذا الوصف الرفق بعباد الله تعالى والتلطف بهم فى الدعوة إلى الله ، والهداية إلى سعادة الآخرة من غير ازدراء وعنف ، ومن غير خصام وتعصب ، وأحسن وجوه اللطف فيه الجذب إلى قبول الحق بالشمائل والسيرة المرضية ، والأعمال الصالحة ، فانها أوقع وألطف من الألفاظ المزينة اهـ

***

وقال فى معنى [النور الهادى] مانصه : « النور هو الظاهر الذى به كل ظهور ، فان الظاهر فى نفسه المظهر لغيره يسمى نورا ، ومهما قوبل الوجود بالعدم كان الظهور لامحالة للوجود ، ولاظلام أظلم من العدم ، فالبرىء عن ظلمة العدم ، بل عن امكان العدم والمخرج كل الأشياء من ظلمة العدم الى ظهور الوجود جدير بأن يسمى نورا ، والوجود نور فائض على الأشياء كلها من نور ذاته ، فهو نور السموات والأرض ، وكما أنه لاذرّة من نور الشمس إلا وهى دالة على وجود الشمس المنوّرة ، فلاذرّة من موجودات السموات والأرض

ومابينهما إلا وهى بجواز وجودها دالة على وجوب وجود موجدها ، وما ذكرناه فى معنى الظاهر يفهمك معنى النور ويغنيك عن التعسفات المذكورة فى معناه .

[الهادى] هو الذى هدى خواصّ عباده أوّلا إلى معرفة ذاته حتى استشهدوا بها على معرفة مخلوقاته وهدى عوامّ عباده إلى مخلوقاته حتى استشهدوا بها على ذاته ، وهـدى كل مخلوق إلى مالابدّ منه فى قضاء حاجاته ، فهدى الطفل إلى التقام الثدى عند انفصاله ، والفرخ إلى التقاط الحب وقت خروجه ، والنحل إلى بناء بيته على شكل التسديس لكونه أوفق الأشكال لبدنه ، وأحواها وأبعدها عن أن يتخللها فرج ضائعة وشرح ذلك مما يطول ، وعنه عبر قوله تعالى : « الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى » ، وقوله تعالى : « والذى قدّر فهـدى » والهداة من العباد الأنبياء والعلماء الذين أرشدوا الخلق إلى السعادة الأخروية ، وهدوهم إلى صراط الله المستقيم ، بل الله الهادى لهم على ألسنتهم ، وهم مسخرون تحت قدرته وتدبيره » اهـ

***

هذا ما قاله الامام الغزالى ، وأنا أريد أن أشاهد هذه الأمور عيانا : أى أشاهد هدايته لمخلوقاته بالصور المشاهدة ، وكيف كان لطفه بهم مشاهدة أيضا ؟ فقلت ياصاح : إن هذا التفسير مفعم بهذه العجائب ، فارجع إلى ﴿ سورة البقرة ﴾ فى الطبعة الثانية ، ففيها عجائب كثيرة مثل تدرّجه فى خلقه طبقا عن طبق ، فتراه هناك مصوّرا بالتصوير الشمسى عند آية الطير وابراهيم ، والعزير وحماره ، وهكذا فى سور كثيرة . فقال نعم ولكنى أريد الآن أمرا آخر ، وهو التلطف فى هداية الناس فى الأرض ، وكيف يتوصلون إلى أعاظم الامور بأصاغرها ؟ فقلت : ذلك هو علم الهندسة والحساب والجبر والفلك والطبيعة ، فمن درس هذه العلوم أدرك ذلك اللطف والهـداية والنور ، فاذا كان ذا بصـيرة فانه يعرف أنه قد ارتقى فى الهندسة من الخط والزاوية والمثلث والمربع إلى الكرات والمكعبات ودراسة الكواكب فى السموات ، ذلك مدوّن فى كتب جميع الأمم غاية الأمر أن أكثر هذا النوع الانسانى يدرسون ويفهمون ولكنهم لايعقلون أن هذا لطف بهم وهداية بل يعيشون ويموتون وكأنهم لايدرسون ولايعلمون .

فقال نعم ، هذا حسن ، ولكن الأحسن منه أن تريني مثالا واحدا كما وعدت فى أوّل المقال ؟ فقلت : الآن أحدّثك حديثا جيلا ، ولكن هذا الحديث سأحدّثك به إن شاء الله فى ﴿ سورة الملك ﴾ عنـد آية « ولقـد زينا السماء الدنيا بمصابيح » الخ فارتقب ذلك هناك ، إن هـذه العلوم السماوية والأضواء كلها مرتبطات بأسماء الله ، وهل الأسماء إلادالة على الصفات ، وهذه الآثاردالات على الصفات ، وهكذا ستشاهد عجائب النبات والأزهار فى ﴿ سورة النبأ ﴾ فى المجلد الخامس والعشرين من هذا التفسير .

هذا هونهاية الكلام على قوله تعالى : « لوأنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون ، هو الله الذى لاإله إلا هوعالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم ، هوالله الذى لاإله إلاهو الملك القدّوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون ، هوالله الخالق البارىء المصوّر له الأسماء الحسنى يسبح له مافى السموات والأرض وهوالعزيز الحكيم » وبهذا تمّ تفسير سورة الحشر ، والحمد لله رب العالمين .

تفسير سورة الممتحنة

هى مدنية

آياتها ١٣ — نزلت بعد الأحزاب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ * إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ * لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ * رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ * عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ *

يـٰأيها الذين ءامنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله أعلم بإيمانهن فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن وءاتوهم ما أنفقوا ولا جناح عليكم أن تنكحوهن إذا ءاتيتموهن أجورهن ولا تمسكوا بعصم الكوافر وسئلوا ما أنفقتم وليسئلوا ما أنفقوا ذلكم حكم الله يحكم بينكم والله عليم حكيم ☆ وإن فاتكم شىء من أزواجكم إلى الكفار فعاقبتم فـٔاتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ☆ يـٰأيها النبى إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئا ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك فى معروف فبايعهن واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم ☆ يـٰأيها الذين ءامنوا لا تتولوا قوما غضب الله عليهم قد يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور ☆

هذه السورة فيها مسئلتان

الأولى ألا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء فيفشون إليهم أسرار المسلمين .

الثانية مسئلة المؤمنات المهاجرات وامتحانهن ونحو ذلك .

مقدمة

قال المفسرون : ان سارة التى كانت مغنية ونائحة بمكة أتت المدينة تشكو الحاجة ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بنى عبد المطلب أن يعطوها ما تحتاج إليه ، فأعطوها نفقة وكسوة ، وحملوها ، فجاء لها حاطب ابن أبى بلتعة ، وكتب معها كتابا إلى أهل مكة ، وأعطاها عشرة دنانير ، وكساها ، وهذا نصه : « من حاطب ابن أبى بلتعة إلى أهل مكة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريدكم فخذوا حذركم » فأخبره جبريل ، فبعث صلى الله عليه وسلم عليا وعمارا وعمر وطلحة والزبير والمقداد وأبا مرثد ، وكانوا فرسانا ، وقال : انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ ، فان بها ظعينة معها كتاب من حاطب إلى أهل مكة فخذوه منها وخلوها ، فان أبت فاضربوا عنقها فأدركوها فجحدت وحلفت ، فهموا بالرجوع ، فقال على : والله ما كذبنا ، ولا كذب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسل سيفه ، وقال لها : أخرجى الكتاب أو تضعى رأسك ، فأخرجته من عقاص شعرها ، فاستحضر رسول الله صلى الله عليه وسلم حاطبا ، وقال : ما حملك عليه ؟ فقال يارسول الله ما كفرت منذ أسلمت ، ولا غششتك منذ نصحتك ، ولا أحببتهم منذ فارقتهم ، ولكنى كنت امرأ ملصقا فى قريش ، ولم أكن من انفسها ، وكل من معك من المهاجرين لهم قرابات بمكة يحمون أهاليهم وأموالهم غيرى فخشيت على أهلى فأردت أن أتخذ عندهم يدا ، وقد علمت أن الله ينزل عليهم بأسه ، وأن كتابى لا يغنى عنهم شيئا ، فصدقه وقبل عذره ، فقال عمر : يارسول الله دعنى أضرب عنق هذا المنافق ، فقال صلى الله عليه وسلم : ومايدريك

ياعمر لعلّ الله قد اطلع على أهل بدر فقال لهم اعملوا ماشئتم فقد غفرت لكم ، ففاضت عينا عمر رضي الله عنه ، فنزل :

بسم الله الرحمن الرحيم

(يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا عدوّى وعدوّكم أولياء تلقون إليهم بالمودّة) تفضون اليهم المودّة بالمكاتبة ، والباء زائدة ، أوتلقون إليهم أخبارالرسول صلى الله عليه وسلم بسبب مودّتكم لهم (وقد كفروا بما جاءكم من الحقّ) الجلة حالية (يخرجون الرسول وإياكم) من مكة (أن تؤمنوا بالله ربكم) أى لأن آمنتم : أى يفعلون ذلك لأجل إيمانكم بالله الخ (ان كنتم خرجتم جهادا فى سبيلى وابتغاء مرضاتى) فلا تتخذوا عدوّى وعدوّكم أولياء ، وأبدل من قوله « تلقون » قوله تعالى (تسرّون إليهم بالمودّة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم) أى منكم (ومن يفعله منكم) أى من يفعل الاتخاذ منكم (فقد ضلّ سواء السبيل) أخطأه (إن يثقفوكم) يظفروا بكم (يكونوا لكم أعداء) ولاينفعكم إلقاء المودّة اليهم (ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء) مايسوءكم فيقتلون و يشتمون (وودّوا لوتكفرون) أى وتمنوا كفركم : أى ارتدادكم فتكونون سواء ، والمقصود أن الاختلاف فى العقائد يجعل التناصح معدوما ، فلاتناصحوهم لأنهم لايرحمونكم اذا ظفروا بكم (لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم) أى قراباتكم ولاذرّيتكم الذين توالون المشركين لأجلهم (يوم القيامة يفصل بينكم) يفرق بينكم من شدّة الهول (والله بما تعملون بصير) فيجازيكم عليه . والى هنا تمّ الأمر فى اتخاذ الأعداء أولياء ، فلم يبق إلا ما يقوّى ذلك بالاقتداء بالأنبياء السابقين كما هى طريقة القرآن ، فلذلك قال (قد كانت لكم أسوة حسنة) قدوة ، وهى اسم لما يؤتسى به (فى ابراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم) كظريف وظرفاء (ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم) أى بدينكم أو بمعبودكم (وبدا بيننا و بينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده) فاذا تبرّأ ابراهيم وأصحابه من قومهم فليتأس حاطب والمؤمنون بهم ، فلكم أن تتأسوا بابراهيم فى جميع أموره إلا فى الاستغفار لأبيه المشرك فلاتتأسوا به ، فان ابراهيم كان قد قال لأبيه « لأستغفرنّ لك » فلما تبين له اقامته على الكفر تبرّأ منه ، وهذا قوله تعالى (إلا قول ابراهيم لأبيه لأستغفرنّ لك وما أملك لك من الله من شىء) وهذه الجلة ليست مقصودة بالاستثناء إنما المقصود به قوله لأبيه ، ثم أمر الله المؤمنين أن يقولوا تتميما للوصية السابقة قبل الاستثناء (ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير ، ربنا لاتجعلنا فتنة للذين كفروا) بأن تسلطهم علينا فيفتنونا بعذاب لانتحمله ، أوفيظنوا أنهم على الحق ، أولاتعذبنا بأيديهم ، ولابعذاب من عندك ، فيقولوا : لوكان هؤلاء على الحق ما أصابهم ذلك . وملخص ذلك أن الفتنة إما عذاب المؤمنين ، واما مايترتب عليه من ظنّ الكافرين أنهم على الحقّ لنصرتهم عليهم (واغفر لنا) ما فرط منا من مكاتبة الكافرين (ربنا إنك أنت العزيز الحكيم) ومن هذه صفته فهوحقيق أن يجير من يتوكل عليه ، ويجيب داعيه ، ثم أكد ماتقدم من التأسى فقال (لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة) اقتداء حسن ، ثم أبدل من « لكم » (لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر ومن يتولّ) أى يعرض عن الايمان ويوال الكفار (فانّ الله هو الغنىّ الحميد) أى الغنىّ عن خلقه المحمود المستحق الحمد من جميع خلقه ، ثم إن هذه الآيات حملت المسلمين أن يظهروا براءتهم من أقربائهم ، وعداوتهم لهم ، ولما كان ذلك شديدا عليهم أردفه بوعد قد تمّ فيما بعد فقال (عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودّة والله قدير) على ذلك (والله غفور) لما فرط من موالاتهم (رحيم) بالتوفيق فى المستقبل ، وقد فعل الله ذلك ويسر فتح مكة وأظفرهم الله عليهم ، فأسلم

قومهم وتمّ بينهم التحابّ ، وعسى من الله وعد على عادات الملوك حيث يقولون : عسى أولعلّ ، والمحتاج لايشكّ في تمام ذلك ، ومن تمام ذلك الوعد أنهم خالطوهم ، وناكحوهم ، وتزوّج النبيّ صلى الله عليه وسلم أمّ حبيبة بنت أبي سفيان ، ولان لهم أبوسفيان ، ثم أسلم أخيرا .

ثم أخذ الله سبحانه يبين من نهى المؤمنين عن موالاتهم ، ومن لم ينههم عنها ، فن ذلك أن خزاعة صالحوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على ألايقاتلوه ولا يعينوا عليه أحدا ، فرخص الله في برّهم ، ومن ذلك أن أسماء بنت أبي بكر قدمت أمها إلى المدينة بهدايا وهي مشركة ، فقالت أسماء : لاأقبل منك هدية ولاتدخلي بيتي حتى أستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم فأذن لها ، وفي هذين وأمثالهما قال الله تعالى (لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرّوهم) أي لاينهاكم الله عن برّ الذين لم يقاتلوكم في الدين الخ (وتقسطوا إليهم) وتعدلوا فيهم بالاحسان إليهم والبرّ (إن الله يحبّ المقسطين) العادلين (إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على اخراجكم أن تولوهم) كمشركي مكة ، فانهم قسمان : قسم سعى في إخراجهم من مكة ، وقسم ساعدهم على ذلك وأعانهم (ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون) لأنهم وضعوا الموالاة في غير أهلها ، وهنا أخذ يذكر القسم الثاني من السورة الذي ابتدئ بمسألة المؤمنات المهاجرات . وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما صالح أهل مكة بالحديبية اشترط سهيل بن عمرو [كما تقدّم في سورة الفتح] أنه لايأتيك منا أحد وان كان على دينك إلا رددته إلينا وخليت بيننا و بينه ، فلم يأته أحد من الرجال إلاردّه ، وأوّلهم أبوجندل بن سهيل المذكور وهم جميعا مسلمون ثم جاءت مؤمنات مهاجرات منهنّ سبيعة بنت الحارث الأسلمية وهي مسلمة ، فأقبل زوجها مسافر المخزومي طالبا لها ، فنزلت : (يا أيها الذين آمنوا اذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهنّ) فاختبروهنّ بما يغلب على ظنكم وانظروا هل توافق قلوبهنّ ألسنتهنّ ، أم هنّ منافقات ؟ فكان صلى الله عليه وسلم يستحلف المرأة أنها ماخرجت من بغض زوج ، ولارغبة عن أرض إلى أرض ، ولالحدث أحدثته ، ولاالتماس دنيا ، وماخرجت إلا رغبة في الاسلام ، وحبا لله ورسوله ، فاذا حلفت على ذلك لم يردّها ، فاستحلف صلى الله عليه وسلم سبيعة فحلفت فلم يردّها ، وأعطى زوجها مهرها وما أنفق عليها ، فتزوّجها عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

وقوله (الله أعلم بإيمانهنّ) أي المطلع على مافي قلوبهنّ ، وإنما أنتم تكتفون بالظواهر (فان علمتموهنّ مؤمنات) أي ان ظننتموهنّ ظنا غالبا بالحلف وظهور الأمارات (فلاترجعوهنّ إلى الكفار) أي إلى أزواجهنّ في الكفر ، و بين سببه في قوله (لاهنّ حلّ لهم ولاهم يحلون لهنّ وآتوهم ما أنفقوا) مادفعوا من مهر إليهنّ (ولاجناح عليكم أن تنكحوهنّ) نفى عنهم الجناح في تزوّج هؤلاء المهاجرات (اذا آتيتموهنّ أجورهنّ) مهورهنّ (ولاتمسكوا بعصم الكوافر) العصمة مايعتصم به من عقد وسبب ، والكافرة مفردة الكوافر هي التي بقيت في دار الحرب ، أواللي لحقت بدار الحرب مرتدّة فلا يكن بينكم و بينهنّ عصمة ، ولاعلاقة زوجية ، فمن كانت له امرأة كافرة بمكة فلاتعدّ من نسائه ، لأن اختلاف الدارين قطع العصمة بينهما كما قاله ابن عباس (واسألوا ما أنفقتم) من مهور أزواجكم اللاحقات بالكفار ممن تزوّجهنّ منهم (وليسألوا ما أنفقوا) من مهور نسائهم المهاجرات ممن تزوّجهنّ منكم (ذلكم حكم الله) أي جميع ما ذكر في هذه حكم الله . ثم استأنف فقال (يحكم بينكم والله عليم حكيم) يشرع ماتقتضيه الحكمة ، وليس في إبقاء النساء نقض للعهد ، لأنه روى عن عليّ أن سهيلا قال : لايأتيك منا رجل وان كان على دينك إلا رددته : أي بخلاف المرأة ، فردّ المهر إذن يكون مندوبا لا واجبا ، وقيل إن ردّ النساء واجب كالرجال ، إذن يكون ردّ المهر المذكور واجبا ، وهل الآية منسوخة أوهي غير منسوخة ؟ فلانردّ المال على الأوّل ونردّه على الثاني اذا

شرطنا

شرطنا ذلك مع الـكفار رأيان . ولما نزلت الآية المتقدّمة أبى المشركون أن يؤدّوا مهر الـكوافر فقال تعالى : (وان فاتكم) سبقكم وانفلت منكم (شيء من أزواجكم) أى أحد من أزواجكم (إلى الـكفار فعاقبتم) أى ظهرتم وكانت العاقبـة لكم على الـكفار بأن أصبتم الغنيمة منهم (فآتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا) فاعطوا المسلمين الذين ارتدّت زوجاتهـم بدارالحرب مهور زوجاتهم من هذه الغنيمة (واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون) . ثم بين مبايعة النساء فقال : (يا أيها النبيّ اذا جاءك المؤمنات يبايعنك) الجلة حال (على ألا يشركن بالله شيئا ولايسرقن ولايزنين ولايقتلن أولادهنّ) ، وهو وأد البنات (ولايأتين ببهتان يفترينه بين أيديهنّ وأرجلهنّ) ذلك أن المرأة كانت تلتقط المولود فتقول لزوجها هو ولدى منك ، فالبهتان مجاز عن الولد إذ تلصقه بزوجها كذبا ، وذلك أن بطنها التى تحمل الولد فيه بين اليدين والفرج الذى هومحل الولادة بين الرجلين ، وقد بايعه صلى الله عليه وسلم نحو ٤٥٧ امرأة ، ولم يصافح امرأة منهن قط ، وممن بايعه هند ، فلما سمعت هذه الجلة من الآية قالت : إن البهتان لقبيح ، وما تأمرنا إلا بالرشـد ومكارم الأخلاق (ولايعصينك فى معروف) أى فى حسنة تأمرهنّ بها ، ومن كلام هند له صلى الله عليه وسلم لما قال : « على ألايشركن بالله شيئا » والله انك لتأخذ علينا أمرا مارأيناك أخذته على الرجال ! وكان قد بايع الرجال يومئذ على الاسلام والجهاد فقط ، ولما قال « ولايسرقن » قالت هند : ان أباسفيان رجل شحيح وانى أصبت من ماله هنات فلا أدرى أيحلّ أم لا ؟ فقال أبوسفيان : ما أصبت من شيء فيما مضى فهوحلال ، فضحك صـلى الله عليه وسلم وعرفها وقال لها : وانك لهند بنت عقبة ؟ قالت نعم ، فاعف عما سلف عفا الله عنك ، ولما قال « ولايزنين » قالت هند : أوتزنى الحرّة ؟ ولما قال « ولايقتلن أولادهنّ » قالت هند : ربيناهم صغارا وقتلتهم كبارا ، فأنتم وهم أعلم ، وكان ابنها حنظلة بن أبى سفيان قد قتل يوم بدر ، فضحك عمر حتى استلقى ، وتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والباقى تقدّم ، وجواب الشرط قوله (فبايعهنّ) على هـذا (واستغفر لهنّ الله) عما مضى (إن الله غفور) لما سلف (رحيم) بالتوفيق فى المستقبل ، وهذه البيعة كانت بعد فتح مكة بعد أن فرغ من بيعة الرجال ، وقدكان صلى الله عليه وسلم على الصفا وعمر قاعد أسفل منه يبايعهنّ عنه بأمره ، ويبلغهنّ عنه ، وكانت هند متقنعة متنكرة خوفا من النبيّ صلى الله عليـه وسلم أن يعرفها لما صنعت بحمزة (يا أيها الذين آمنوا لاتتولوا قوما غضب الله عليهم) وهم اليهود ، إذ كان بعض الفقراء من المسلمين يوالونهـم ليصيبوا من ثمارهم (قد يئسوا من الآخرة) أى من حظهم فيها ، لعلمهم بأنهـم خالفوا مافى التوراة التى فيها وصف النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فعاندوه وقاوموه ، فهم يائسون من ذلك الحظ كيأس الـكفار من رجوع من ماتوا ودفنوا فى القبور منهم ، وهـذا قوله (كما يئس الـكفار من أصحاب القبور) انتهى التفسير اللفظى للسورة كلها ، والحمد لله رب العالمين .

خاتمة تفسير هذه السورة

اعلم أن هـذه السورة مناسبة لما قبلها من حيث أن السورة المتقدّمة فيها ذمّ المنافقين الذين حرّضوا اليهود على القتال ، وذمّ اليهود الذين يظنون جميعا وقلوبهم متفرّقة ، ووصفهم بعدم العقل ، وذمّ الذى يتبع الشيطان فى وسوسته وخداعه ، فأما هـذه السورة فانها تعليم للمسلمين ، ينهاهـم عن موالاة الأعداء لئلا يكونوا جميعا وقلوبهم شتى ، ولئلا يوصفوا بعدم العقل ، واذا فعلوا ذلك ينطبق عليهم «مثل الشيطان إذ قال للانسان اكفر فلما كفر قال إنى برىء منك» ، فجاءت هذه السورة بعد المتقدّمة ايقاظا للمسلمين أن يكونوا يدا واحدة ، وألايطلعوا العدوّ على أسرارهـم ، فاذا فعلوا ذلك انطبقت عليهم الأمثال المضروبة فى الـكفار فى

السورة السابقة ، علم الله أن المسلمين سيصابون بهذا الداء ، فحذرهم عاقبة سوء فعلهم ، وكرّره فى مواضع كثيرة ، وهذا الداء قد استفحل فى المسلمين اليوم ، وغلبوا على أمرهــم ، أما الفرنجة فانهم متحدون لما بينهم من الاشتراك فى اقتسام أمم الاسلام وظلمهم .

حكاية مصرية

أخبرنى رجل من الصالحين ، تركىّ الأصل : ذكر لى أن ابنه كان ببلاد فرنسا بصحبة أحد أبناء الأمراء لتربيته هناك ، قال : وبينما هو يوما جالس فى جماعة من عليــة القوم ، إذ قدم له أحدهــم طباقا [التبغ] ليشربه ، فقال : لا أدخن اليوم فانى صائم ، فقال له رئيس إحدى الـكليات : عجبا لك ! أتبقى على هــذه العقائد العتيقة بعد ما تنوّرت وعظم شأنك ، وارتقى عقلك ، وكان بين الجالسين فيلسوف من علماء الهنود البوذيين ، فلما أرادوا الانصراف قال ذلك البوذى للشاب التركى المصرى : اذا كان الغد فقابلنى فى مكان كذا ، فلما قابله توجه به إلى كنيسة تقام فيها الصلوات ، وفيها رئيس تلك الـكلية يصلى ، فقال له انظر ماذا ترى ؟ قال أرى رئيس الـكلية يصلى ، قال : لهذا طلبتك ، إن هؤلاء يريدون أن يرجعونا عن أدياننا حتى يصطادونا بسهولة فلنحذرهم فانهم لنا مهلـكون مخادعون اهـ

وأقول : لقد قرأت فى جرائدنا المصرية اليوم أن كثيرا من علماء فرنسا ، ومدرّسى الـكليات ، وعلماء الأدب والحـكمة قد أرسلوا خطابا إلى العسكر المحارب ببلاد مراكش يحضونهم على مواصلة القتال لاستعباد المسلمين هناك ، فهؤلاء من الذين حذرنا الله منهم ، ووجب على المسلمين أن يفهموا أهل أوروبا فانهم يريدون هلاك المسلمين وابتلاعهم اهـ

لطائف هذه السورة

الأولى فى قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوّى وعدوّكم أولياء » .
الثانية فى قوله تعالى : « فامتحنوهنّ الله أعلم بإيمانهنّ » .

اللطيفة الأولى

إن آثار هذه الآية اليوم ظاهرة فى مصر والشام والهند ، وأظهر حركات اليقظة بادية اليوم فى بلاد الهند فقد جاء فى جرائدنا المصرية يوم ٢ فبراير سنة ١٩٣٢ م ما ملخصه أن الـكتلة الوطنية هناك قائمة بحركة العصيان المدنى : أى انهم لا يريدون أن يشتروا شيئا من تجار الانجليز ، والانجليز يذيقونهم العذاب الشديد ولـكن هؤلاء لا يبالون بما يصيبهم حفظا لحرّيتهم ، وحبا لبلادهــم ، وقد زاد الانجليز عليهم الظلم ، فأمروا بالأخذ بمجرّد الشبهة بدون تحقيق ، وبالجملة فان المقالة قد ختمت بهذه العبارة : « وهذا السلاح الاقتصادى الوحيد هو الذى يشجع الـكثيرين على الاعتقاد أن أشدّ الحـكومات ارهابا وسطوة لابدّ وأن تحنى رأسها فى النهاية أمام الحركة الوطنية الهندية ، حتى ان الذين يعتقدون بأن مذهب غاندى خشن وقديم ، ويرجع إلى عدّة أجيال إزاء التقــدّم العصرى أصبحوا الآن من الساخطين على أساليب الحـكومة الحاضرة » وهذا أشبه بقبس من قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوّى وعدوّكم أولياء » وبهذا تمّ الـكلام على اللطيفة الأولى ، والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة الثانية فى قوله تعالى : فامتحنوهنّ الله أعلم بإيمانهنّ

حضر صديق العالم الذى اعتاد مباحثتى فى هذا التفسير ، فقال : لقد تقدم فى ﴿سورة الحجرات﴾ عند آية : « أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى » أنى سألتك فى أمر امتحان النساء والرجال ، وقلت لك ما معناه : إن الله عزّ وجل شرع الامتحان ، وامتحن القلوب كما فى ﴿سورة الحجرات﴾ وأمرنا أن نمتحن المؤمنات كما فى هذه السورة ، فالامتحان إذن مشروع فى الجملة ، ولقد ذكرت أنت قبل صفات الرجل الكامل وما شابه ذلك ، لحفزنى ذلك أن أسألك فى هذا الموضوع ، فهل مايشاع من أن الحكومات تريد بحث جسم الرجل وجسم المرأة ، أهما قويان ، وهل بهما عاهة أومرض ؟ وهل هناك عارض عرض لهما يجعل ذرّيتهما ضعيفة كداء الزهرى وغيره ؟ ولكنك أحلتنى على هذه السورة ، وانى أسألك فيها ، فقلت : أتذكر ذلك ، وهاهوذا الجواب :

اعلم أن الله عزّ وجل أعطى جميع الناس والحيوان فى الأرض قوّة يحكمون بها ، فحكم الحيوان ظاهرى بالغريزة ، والمقصود من وجود الأرواح فى هذه الأرض كمالها ، ولا كمال إلا بالعقول ، ولاعقول كاملة إلا فى أجسام قوية ، ولامنفعة لعقول وأجسام قويين إلا مع حسن الأخلاق التى بها كمال المعاشرة ، واذا كان الرجل لا يكمل إلا بقوّة بدنه ، وحسن خلقه ، ورجاحة عقله ، وهكذا المرأة ، فوجب أن ينظر فى أمر الزواج نظرا محدودا بحيث تكون الأخلاق والأجسام والعقول صالحة للمشاركة فى الحياة ، وهذه يستحيل أن يحدّدها القانون ، وقد جاء فى شريعتنا فى مذهب الشافعى أن الجنون والجذام والبرص كلهنّ مبيحات فسخ العقد وافتراق الزوجين ، والتفصيل فى الفقه ، وليس هذا محله ، إذن أيها الصديق شريعتنا المطهرة لم تذر هذا الباب أيضا ، فالجنون مرض فى العقل ، والجذام مرض فى الجسم ، ولاجرم أن الأخلاق يضعفها ضعف الجسم كما يضعفها أيضا ضعف العقل .

وعليه أقول : إن هذا المقام لايعوزه كثير عناء ، فعلى العقلاء بعدنا أن يبحثوا هذا الموضوع ، وأن يفكروا فى أقوال الأئمة ، ويلخصوها ، ويرجعوا لأصل الدين ومقاصده ، وليبنوا أحكامهم الاجتهادية على ذلك الأصل ، وعلى ما استنتجوه منه ، ولتكن الأحكام على مقتضى مايصل إليه نظرهم ، ومايفتح الله به عليهم ، فليس لى الآن أن أحكم بما لم أشاهد من أحوال ستكون فى المستقبل ، فلكل مقام مقال ، والله جعل ديننا يسرا « يريد الله بكم اليسر ولايريد بكم العسر » فديننا يسر ، واليسر والعسر تعرفه العقول فى كل زمان بحسبه مع حفظ أصل الدين والمحافظة على أساسه وقوانينه « والله يقول الحق وهو يهدى السبيل » .

فقال حسن هذا ، ولكنى أريد ضرب مثل يقرّب لى هذا المقال ؟ فقلت له :

اعلم أن الله عزّ وجل أودع فى الانسان وفى الحيوان كما قدّمت لك قوّة بها يحكم على مايراه ، أهوموافق أم مباين ؟ والحكم بالغرائز لايعوزه نصب ولابحث عميق ، فالحشرات ترى النار فتسرع إليها حثيثا ، فتقع فيها فتموت ، وهى انما قصدت الضوء ولم تقصد الاحتراق ، فهى حفظت شيئا وغابت عنها أشياء ، ومامن رجل أوامرأة إلا وهو يفرق بين من يحب ومن لايحب ممن يريد أن يصاحبه أو يعاشره ، فالرجل يرى المرأة فيعجبه جمالها فيتزوّجها ، وأصل الوضع الإلهى أن حسن الشكل وصباحة الوجه واعتدال القامة ، كل ذلك منشؤه الصحة ، ومتى كانت المرأة صحيحة الجسم والوالد كذلك كان النسل على مقتضاهما ، فاذا رأينا الشاب يهوى شابة لبهجة جمالها ، فهما لم يطلبا إلاقضاء شهوتهما المبنية على بهجة الظواهر ، والحكمة الأصلية بقاء النسل المخبوء تحت تلك المظاهر البرّاقة المهيجة المنعشة ، يريد الله بقاء النسل بهذه المظاهر ، ويريد الانسان بها التمتع .

ههنا تقابل المقصدان : المقصد الإلهى ، والمقصد الانسانى الحيوانى ، الله يريد بالزواج أوأى اقتران الولد وهو الذى سلط الشهوة المنبعثة بسبب نتائج الصحة على الحيوان والانسان ، ههنا تقابل المقصدان ورجعا إلى نقطة واحدة ، صانع يريد أن تكون صنعته فى الولد متقنة ، وذوشهوة يريد أن يكون المشتهى مقبولا ، فقبول الصورة للتمتع ، وقبولها لجودة الذرية اتحدا وبهما نال الحيوان شهوته ، وأجاد الله صنعته ، هذا أصل الصنع الإلهى فى كل حيوان ومنه الانسان .

الله أكبر : حصل اقتران وتزاوج واختلاط على أى سبيل كان و بأى وسيلة ، ولكن ليس ذلك بكاف لنوع الانسان ، لأن أحواله غير أحوال الحيوان ، فان أحواله مختبطة مختلطة ، مشتتة متشعبة ، لاتجزيه نظرة ، ولاتكفيه لحظة ، واذا كنا نراه لم يكتف فى تعاطى الطعام والشراب بمجرد لذته وحسن ظواهره ، بل رأيناه يجد فى البحث ويقاسى الأمرين فى الدقة ، حتى انه فى أيامنا هذه أخذت أوضاع الطعام والشراب تتغير ، وصار ما كان خيرا بالأمس شرا اليوم ، وما كان مقبولا أصبح مرذولا .

الله أكبر : ألم يصبح الخبز المنخول الذى تصنع منه الفطائر وأنواع الرقاق وأمثالها مرذولا مبغضا مكروها يحدث الامساك والمرض ، إذن لذة الطعام ليست بدالة على جودته ، أليس الخبز الذى فيه نخالته بحيث لاينخل هوالذى أصبح المعوّل عليه الآن فى الصحة ، وبهذه النخالة ومامعها مما يسميه الناس [السن] فى بلادنا المصرية يصبح الخبز نافعا فى الصحة ، لأن مايرميه الناس هوالذى فيه قوة الأبدان وصحتها ، ويتبع ذلك قوة العقل ، ومتى نخل الدقيق كان الخبز المصنوع منه أقل تغذية ، وهو يوجب الامساك والعكس بالعكس . واذا كان طبخ الطعام أصبح اليوم فى كشف الطب الحديث من مسببات الأمراض ، وكذلك السكر ، بل الأطعمة الطازجة التى لم تدخل النار فى انضاجها كالخضر والفاكهة هى النافعة فى الصحة على شرط النظافة .

أقول : اذا كان الأمر كذلك فى الطعام وقد تغير الرأى الآن فيه ، ومعلوم أن البدوى الغر الجاهل فى البادية أسعد وأصح بدنا من المتعلم المترف المنعم ، والعالم الجليل ، والفيلسوف العظيم ، والملك الكبير ، فكل هؤلاء يأكلون متبعين عادات أسلافهم ، يتغالون فى التفنن فى المأكل والمشرب ، ويتبع ذلك ضعف أبدانهم ، وسقم أجسامهم ، وموت احساسهم ، ثم موتهم الأدبى ، ثم الطبيعى ، ويتبع الجيل الجيل ، والملك الملك ، والعالم العالم ، وهم يرون أهل البدو فى سعادة لأنهم يقللون البذخ فى طعامهم وشرابهم ، فأما هم فانهم لايذكرون ولايعقلون ، و يعيشون و يموتون وهم ساهون سامدون لاهون ، فجاء العلم الآن ، وقال : أيها النائمون : استيقظوا أنتم غافلون ، هذه اللذة معناها أنكم تمرضون وتموتون فى عناء .

أقول : اذا كان الأمر كذلك فى الطعام والشراب أفلا يكون كذلك فى اقتران الرجل بالمرأة ؟ فنقول : اذا كانت لذة الطعام لا يكتفى بها فى جودته ، فأحر بنا ألا نحكم ظواهر الجمال فى صلاحية المرأة للحياة الزوجية واذا كان الطبيب لا يكتفى فى معرفة المرض بما يسمعه من وصف مرضه ، ولابما يسمعه بواسطة آلة السمع التى يسلطها على دقات قلبه ، ولابما يراه من لون بوله ، ولابجس نبضه ، بل نراه يسلط الأشعة على بعض أعضائه لتخترق الأشعة جلده ، وتتغلغل فى جسمه ، فتظهر لنا ماخفى عنا ، وحينئذ يحكم على حال المريض و يصف الدواء .

فحقيق بنا ألاندع بابا من أبواب البحث إلا ولجناه ، ولاطريقا من طرق التدقيق إلا سلكناه ، فليبحث الرجل ، ولتبحث المرأة ، ولينظرا فى أمرهما ، أفى أحدهما مرض معد ؟ أوضعف قوة عقلية أوجسمية ؟ وهل ذريتهما اذا حصلت تكون ضارة بالمجتمع لما فيها من المرض المعدى ؟ واذا لم تكن ضارة من هذه الجهة هل تكون على الأمة لضعف أجسامها ، أولضعف عقولها ؟ وهل يكون ضرها أكثر من نفعها أم بالعكس ؟

وكل

وكل ما كان ضرّه أكثر من نفعه يجب الاحتراس من بقائه ، لأننا نرى الحكمة الالهية والميزان المنصوب في السماء والأرض ألا موجود إلا على هذه الشريطة نفعها أكثر من ضرّها .

هذا هو المثـل الذي ضربته لك أيها الأخ الذكيّ ، وعلى العلماء بعدنا البحث والتنقيب بكل ما أوتوا من علم ، وما نالوا من حكمة ، والله هو الوليّ الحميـد ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ، فاكتفى صاحبي بذلك ، وقال : الحمد لله رب العالمين ، انتهت اللطيفة الثانية ، وبها تمّ تفسير [سورة الممتحنة] .

تفسير سورة الصف

هي مدنية

آياتها ١٤ — نزلت بعد التغابن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُونَ * إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ * وَإِذْ قَالَ مُوسٰى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ * وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَاءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هٰذَا سِحْرٌ مُبِينٌ * وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرٰى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعٰى إِلَى الْإِسْلاَمِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ * هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدٰى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ * يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلٰى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَأُخْرٰى

تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ ٱللَّهِ فَـَٔامَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَاءِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ۞

وهذه السورة فيها لوم وتعنيف على مخالفة الفعل والقول ، فانهم وعدوا الصدق فى القتال فولوا يوم أحد ، وفيها ذكر مايحبه الله من القتال ، وفيها ذكر موسى وعيسى عليهما السلام .

تفسير بعض الألفاظ

بسم الله الرحمن الرحيم

(سبح لله مافى السموات ومافى الأرض وهوالعزيز الحكيم) تفسيره معلوم (لم تقولون مالا تفعلون) إذ قلتم لوعلمنا أحبّ الأعمال إلى الله تعالى لبذلنا فيه أموالنا وأنفسنا ، فأنزل الله : « إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا » فوليتم يوم أحد (كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون) المقت أشدّ البغض (صفا) مصطفين (كأنهم بنيان مرصوص) فى تراصهم من غيرفرجة ، والرّص اتصال بعض البناء بالبعض واستحكامه (وإذ قال موسى) أى واذكر إذ قال الخ (لم تؤذوننى) بالعصيان والقذف بما ليس فىّ (وقد تعلمون أنى رسول الله إليكم) أى بسبب ما جئتكم به من المعجزات (فلما زاغوا) عن الحق (أزاغ الله قلوبهم) صرفها عن قبول الحقّ والميل إلى الصواب (والله لايهدى القوم الفاسقين) هداية توصلهم إلى معرفة الحقّ (مصدقا لما بين يدى من التوراة ومبشرا) حالان (اسمه أحمد) يريد محمدا صلى الله عليه وسلم ، يقول عيسى : إن دينى مصدّق بالكتب الإلهية السابقة التى أشهرها التوراة وبآخر الرسل وهو محمد صلى الله عليه وسلم (ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الاسلام) أى لا أحد أظلم ممن يدعى إلى الاسلام فيضع موضع إجابته الافتراء على الله بتكذيب رسوله صلى الله عليه وسلم (يريدون ليطفئوا نورالله) أى أن يطفئوا ، واللام مزيدة للتأكيد ، ونورالله دينه ، أوكتابه ، أوحجته (بأفواههم) بطعنهم (والله متمّ نوره) مبلغ غايته بنشره واعلائه (ولو كره الكافرون) ارغاما لهم (أرسل رسوله بالهدى) بالقرآن (ودين الحقّ) الملة الحنيفية (ليظهره على الدين كله) ليعليه على جميع الأديان (ولو كره المشركون) لأنهم لايحبون إلاالاشراك ، وهوفيه التوحيد المحض ، وقوله (تؤمنون بالله ورسوله) مستأنف لبيان التجارة المنجية من عذاب أليم ، وذلك أمران : إيمان مكمل للنفس ، وجهاد مكمل للغير (ذلكم) أى ماذكر من الايمان والجهاد (إن كنتم تعلمون) أى ان كنتم من أهل العلم ، فان هؤلاء يعلمون أن الانسان عليه أمران تكميل نفسه واكمال غيره ، ثم قال : ان تؤمنوا وتجاهدوا (يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ومساكن طيبة فى جنات عدن ذلك الفوز العظيم) ، ثم قال : ولكم إلى هذه النعمة المذكورة نعمة أخرى عاجلة محبوبة ، وهذا قوله (وأخرى تحبونها) ثم أبدل من أخرى قوله (نصرمن الله وفتح قريب) عاجل أى تنصرون على قريش وتفتح لكم مكة ومابعدها من البلدان

وفى

وفى قوله « تحبونها » شيء من التوبيخ على محبة العاجلة (وبشر المؤمنين) معطوف على تؤمنون : أى كأنه يقول : آمنوا وجاهدوا أيها المؤمنون ، وبشرهم يا أيها النبيّ بما وعدتهم عاجلا وآجلا (من أنصارى إلى الله) أى من جندى متوجها إلى نصرة الله (نحن أنصار الله) أى الذين ينصرون الله ، والحواريون أصفياء محبون ، وهم أوّل من آمن به ، وكانوا اثنى عشر رجلا ، وحواريّ الرجل صفيه من الحور ، وهو البياض الخالص (فأيدنا الذين آمنوا على عدوّهم) بالحجة أو بالحرب بعد رفع عيسى عليه السلام (فأصبحوا ظاهرين) أى فصاروا غالبين . انتهى تفسير بعض الألفاظ .

ايضاح

كأنّ الله يقول : كيف تعدون أيها المسلمون وتخلفون ، وتعاهدون وتنقضون ؟ فما أشدّ المقت والغضب والعقاب على من اتصف بهذه الخلة الشنعاء ، والطريقة السوءى ، فليكن فعل المؤمن مصدّقا لقوله ، وهذا القول يشير إلى ماحصل للمسلمين اليوم من بوار التجارات ، وضياع الأقوات ، وذهاب الجد ، وبيانه أن المسلم يستبيح اخلاف الوعد إلاقليلا من الصادقين ، وكذلك الكذب والحلف . والفرنجة بين ظهرانينا قد أصبحت التجارة فى أيديهم بأغلى الأثمان ، لأنهم غالبا يحفظون الوعد ، ويتظاهرون بأنهم صادقون مخلصون ، وقلما يخلفون . فأما المسلمون : أى الجهلة منهم ، فالحلف ذائع شائع ، والكذب واخلاف الوعد كل ذلك مباح فى نظرهم ، لذلك تنصرف الناس عنهم ويتوجهون إلى محالّ الفرنجة التى يقولون فيها ان الثمن محدّد ، مع أنهم يعلونه أضعافا مضاعفة ، ولكن صدق القول وعدم اخلاف الوعد هما الخلتان اللتان اتصف بهما الفرنجة بيننا مع نظافة محالهم وحسن اللقاء والبشاشة ، وأهمّ هذه الأوصاف صدق الوعد الذى من خالفه وقع فى أشدّ الغضب ، وهو مقت الله ، وأيّ مقت أشدّ مما نحن فيه الآن ؟ أصبحنا لا يأمن بعضنا بعضا إلا قليلا ، فبارت التجارة ، وقلت الأمانة ، هذا من المقت الذى حلّ بأمة الاسلام اليوم .

يطلب الله منا أن تطابق أفعالنا أقوالنا ، وأن نكون صفا واحدا فى قتال العدوّ ، ومقتضى ذلك أننا نكون صفا واحدا فى أمور الحياة كلها ، فلاجهاد إلا مع نظام الأحوال الداخلية ، وجميع مرافق الحياة ، فالجندى فى الحرب محتاج للطرق الحديدية وماقبلها من زراعة وتجارة وصناعة وأمن ومدارس ، وهذا كله لا يكون إلا بحكومة منظمة تحفظ البلاد ، وهناك يكون الاتحاد ، والاتحاد هو الذى عليه نظام هذا العالم ، فهذا هو سرّ قوله تعالى : « إنّ الله يحبّ الذين يقاتلون فى سبيله صفا » ، ثم أتبع ذلك بغرضين : الغرض الأوّل أن يوقع اليأس فى قلوب الكافرين من محاولاتهم اضعاف الاسلام ، وأن الله سيظهره ، وأن يسلى النبيّ صلى الله عليه وسلم على كفر من كفر ، الغرض الثانى تحريض المسلمين على كمال أنفسهم ، وتكميل غيرهم ، ووعدهم بالنصر ، فقال فى الغرض الأوّل مايفيد أن موسى أرسل لقومه فزاغوا عنادا فختم الله على قلوبهم لأن الأعمال الظاهرة من الأقوال والأفعال لها آثار تقع فى القلب فتكسبه نورا تارة وظلمة أخرى ، وهؤلاء زيغهم عن الحقّ وعنادهم أكسب قلوبهم ظلمة فختم عليها ، وهكذا عيسى عليه السلام جاء مصدّقا بالتوراة ، مبشرا بمحمد صلى الله عليه وسلم فكفر به قومه ، فليكن لك يامحمد أسوة بمن سبق من الأنبياء فقد صبروا على ايذاء قومهم وتكذيبهم ، ثم قال : وأن الله قضى أن من قام بالحقّ منصور ، فهل يتصوّر هؤلاء أن يمنع الهداية عن عباده ، إن الله حكم أن يرفع منار الحقّ ويهدم بنيان الباطل ، إذ لا يبقى إلا الأصلح للوجود ، فليس يؤخر الله رقيّ الانسان لأجل طائفة تكره الفضائل .

والغرض الثانى كأن الله يقول فيه : أيها المسلمون : الايمان بالله والجهاد هما الخلتان اللتان بهما تفوزون فى الدارين ، إذ لا فوز فى الدنيا ولا فى الآخرة إلا بعلم وعمل ، والايمان أفضل مافى العلم ، والجهاد أفضل مافى

العمل ، فلتكن فيكم الخصلتان أضمن لكم ثلاث خلال : غفران الذنوب ، ودخول الجنة ، والنصر المصحوب بالفتح قريبا ، واتقتدوا بحوارى عيسى إذ قالوا : « نحن أنصار الله » ونصرناهم على أعدائهم فأصبحوا ظاهرين عليهم ، ولاجرم أن النصارى ظاهرون على اليهود إلى الآن ، والى يوم القيامة ، هكذا ستكونون أيها المسلمون ظاهرين على أمم العالم قاطبة ، هذا معنى هذه السورة .

أقول : ولكن فى هذا الزمان لاظهور للمسلمين إلاقليلا ، ذلك لأنهم لم يقوموا بالصدق والجهاد ، والجهاد لايتمّ إلا بنظام تام فى الدولة كما تفعل الأمم المحيطة بنا .

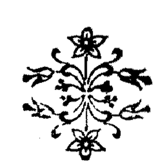
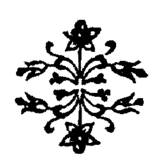
ثم لتعلم أيها الذكىّ أنى موقن أن هذا التفسير سيكون من دلائل الرقىّ الاسلامى المنتظر قريبا ، وأن الله سيؤيد الدين بنشره ، وأنه سيقرؤه الأذكياء من المسلمين فى حياتنا و بعد موتنا ، وستكون لهم آثار حسنة .

إن وعد الله حقّ ، وقد وعد المجاهدين بالنصر ، والجهاد يبتدئ من تعليم الصبيان فى المكاتب ، إلى المزارع والحقول ، إلى التجارة ، إلى انشاء الطرق والتلغراف (البرق) إلى صنع الطيارات والمدافع ، إلى علم السياسة والعمران والاقتصاد ، كل ذلك من الجهاد ، وتمامه غلبة العدوّ وحفظ البلاد ، وقد تضمن هذا التفسير ذلك كله وحضّ عليه ، فلتكن مجاهدا بما سمعت ، ولتحرّض المسلمين على الأخذ بأسباب العمران والرقىّ ، فهذا أوائل أسباب الجهاد ، بل لاجهاد إلا بعلم ، فاذا لم يكن علم فلاجهاد كما هو حاصل فى الاسلام اليوم .

جهلوا جميع العلوم التى بها الحياة فناموا فأخذتهم الفرنجة ، فأوّل كل شىء فى الجهاد اليوم هو العلم ، هو بثّ الفكرة ، إن العالم اليوم هو المجاهد الأكبر ، هو الذى يحيى ما اندرس من المجد ، فاذا كانت هذه حال العلم أفلا أقول لك بحقّ ان الله سيذيع هذا التفسير وينشره ، وينشر نظيره من آراء أرباب الأفكار الثاقبة فى مصر والهند وجميع بلاد الاسلام ، ويقرؤه ويقرؤها الأذكياء من المسلمين ، ويخرجون الناس من الظلمات إلى النور ، نعم هذا سيتمّ حقا كما قال تعالى : « والله متمّ نوره » وكما قال : « ليظهره على الدين كله » .

أقول : ولا أخشى فى الحقّ لومة لائم ان ظهور الاسلام سيكون فى الأزمان المقبلة ، وسيظهر فضله ، ويعلو شأنه .

أيها الذكىّ كن عبدا لربك مخلصا له ، واقصد بالاسلام منفعة الجنس البشرى كله والمسلمين خاصة ، وتعرف هذا من سابق هذا التفسير ، ثم ان قوله تعالى : « ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد » قد تقدّم الكلام عليه فى ﴿سورة البقرة﴾ و ﴿آل عمران﴾ وغيرهما نقلا عن انجيل برنابا ، فارجع إليه هناك إن شئت ، والى هنا تمّ الكلام على سورة الصف ، والحمد لله رب العالمين .

تفسير سورة الجمعة

هى مدنية

آياتها ١١ — نزلت بعد الصف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ * هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ * مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * قُلْ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ * قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْواً انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِماً قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ *

هذه السورة مناسبة لما قبلها تمام المناسبة ، إن فى السورة السابقة الأمر للمؤمنين بالجهاد وأن يكونوا صفا كأنهم بنيان مرصوص ، وفيها توبيخهم على أنهم وعدوا أن يقدموا فى الجهاد أنفسهم وأموالهم فولوا الأدبار يوم أحد ، فأمر الله المؤمنين فى هذه السورة بالسعى إلى ذكر الله وصلاة الجمعة ليكونوا صفوفا منظمة فيها كصفوف الحرب ، وعنف اليهود ووبخهم على أنهم حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار ، وليس ذلك خاصا باليهود ، بل كل أمة تركت مقاصد دينها ، ولم تعمل فهى كالحمير ، فذكرها هنا ليذكر المسلمين كيف يقولون

مالا يفعلون ، فاذا أصبح ذلك خلقا فيهم والعياذ بالله أصبحوا مثل اليهود يحملون الكتب ولاينتفعون بها ، فلم يواجه الله المسلمين بذلك بل وكلها إلى الفطن والعقول الذكية ، وأيضا ذكر فى السورة السابقة التجارة الأخروية الرابحة بالجهاد ، وهنا ذكر التجارة التى هى دنيوية ، وهـذه السورة مبدوءة بما يفيد أن النبيّ صلى الله عليه وسلم مرسل للأميين وإن بعدهم إلى يوم القيامة ؛ ويلى ذلك ذمّ اليهود على عدم عملهم بكتابهم ، ويليه وجوب السعى لنداء الجمعة وتوبيخ من لم يسارع إليها . ولنشرع فى تفسير السورة فنقول :

التفسير اللفظى

بسم الله الرحمن الرحيم

(يسبح لله مافى السموات ومافى الأرض الملك القدّوس العزيز الحكيم) فكل شيء فى السموات والأرض اذا نظرت إليه دلك على وحدانية خالقه وعلى تنزيهه ، وجميع الأشياء مسخرة له مقهورة ، فالتسبيح إما دلالة للعقلاء ، وإما حصول الآثار فى الأشياء المسخرة لله (هوالذى بعث فى الأميين) هم العرب ، والأمىّ هو الذى يكون على ماخلق عليه كأنه منسوب إلى أمه (رسولا منهم يتلوا عليهم آياته) مع أنه هو نفسه أمىّ مثلهم (ويزكيهم) يطهرهم من دنس الشرك (ويعلمهم الكتاب) أى القرآن (والحكمة) السنة (وإن كانوا من قبل) من قبل ارسال محمد صلى الله عليه وسلم (لفى ضلال مبين ، وآخرين منهم) أى من المؤمنين ، وهم المؤمنون إلى يوم القيامة من جميع الأمم ، ومنهم الفرس .

روى عن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال : [كنا جلوسا عند النبيّ صلى الله عليه وسلم إذ نزلت سورة الجمعة ، فتلاها ، فلما بلغ : « وآخرين منهم لما يلحقوا بهم » قال له رجل يارسول الله : من هؤلاء الذين لم يلحقوا بنا ؟ فلم يكلمه حتى سأله ثلاثا ، قال : وسلمان الفارسى فينا ، فوضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده على سلمان وقال : والذى نفسى بيده لوكان الايمان بالثريا لتناوله رجال من هؤلاء] أخرجاه فى الصحيحين وقوله (لما يلحقوا بهم) أى لم يلحقوا بهم بعد وسيلحقون (وهوالعزيز) فى تمكينه من هذا الأمر الخارق للعادة (الحكيم) فى اختياره وتعليمه (ذلك فضل الله) أى ذلك الفضل الذى امتاز به على أقرانه فضل الله (يؤتيه من يشاء) تفضلا وعطية (والله ذوالفضل العظيم) الذى يحتقر فى جانبه نعيم الدنيا والآخرة ، فاذا كان محمد قد أرسلته إليكم أيها الأميون وإلى من يأتى بعدكم فانى آمرهم أن يعملوا بالكتاب ولا يكونوا كاليهود الذين لم يعملوا بكتابهم ؛ وهوقوله (مثل الذين حملوا التوراة) أى علموها وكلفوا العمل بها (ثم لم يحملوها) لم يعملوا بها ولم ينتفعوا (كمثل الحمار يحمل أسفارا) أى كتبا من العلم يتعب فى حملها ولا ينتفع بها ، وقوله « يحمل أسفارا » صفة لا حال ، لأن الحمار لم يقصد أن يكون معينا (بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لايهدى القوم الظالمين) وهم اليهود ، والمخصوص بالذم محذوف ، ثم ان شأن من لم يعمل بالكتاب الذى أنزل إليه أن يكون غافلا جاهلا محبا للحياة الدنيا تاركا للآخرة ، فأعقبه بما يدل على ذلك بأوضح سبيل كأنه يقول : أيها الناس : أنتم كالحمير ، فلا عقل ولا تفكير ، ولاهدى ولا كتاب منير ، ولوكنتم مهديين وللحق عارفين لفرحتم بالموت وتمنيتم لقاء الله ، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه ، فانشوا فى صدوركم ، وانظروا مانقش فى قلوبكم ، وسلوا ضمائركم ، ألستم للموت كارهين وللقاء الله مبغضين ، وللحياة محبين ؟ ولوكانت الأعمال مرضية ، والنفوس مضيئة قوية ، مشرقة بنور ربها لأعرضت عن الدنيا اعراضا ، وفرحت بلقاء الله ، وتمنت الموت ، والموت باب يدخله لله المحبون ، ويلجه بسرور وفرح الصالحون ، ولكنكم لاتحبون الموت لما ران على قلوبكم من الخبائث ، وماختم عليها ، وهذا قوله تعالى (قل ياأيها الذين هادوا)

تهوّدوا (إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين) كانوا يقولون : نحن أبناء الله وأحباؤه : أى ان كان قولكم حقا وأنتم على ثقة منه فتمنوا على الله أن يميتكم وينقلكم سريعا لتحظوا بكرامته ، وتفرحوا باسعاده ، والتمتع بالنظر إلى وجهه الكريم (ولايتمنونه أبدا بماقدمت أيديهم) بسبب ماقدّموا من الكفر والمعاصى (والله عليم بالظالمين) فيجازيهم (قل إنّ الموت الذى تفرّون منه فانه ملاقيكم) أى لاينفعكم الفرار منه ، فما الانسان فى الدنيا إلا كما قال طرفة بن العبد :

لَعَمْرُكَ إِنَّ الْمَوْتَ مَا أَخْطَأَ الْفَتَى ... لَكَالطِّوَلِ الْمُرْخَى وَثِنْيَاهُ بِالْيَدِ

مَتَى مَا يَشَأْ يَوْماً يَقُدْهُ لِحَتْفِهِ ... وَمَنْ يَكُ فِى حَبْلِ الْمَنِيَّةِ يَنْقَدِ

وقوله (ثم تردّون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون) فيجازيكم عليه (يا أيها الذين آمنوا اذا نودى للصلاة) أى اذا أذن لها عند جلوس الامام على المنبر للخطبة (من يوم الجمعة) أى فى يوم الجمعة ، وسمى بذلك لاجتماع الناس فيه للصلاة ، وكانت العرب تسميه العروبة (فاسعوا إلى ذكر الله) فامضوا إليه مسرعين قصدا ، والسعى دون العدو ، والذكر الخطبة ، أوالصلاة (وذروا البيع) واتركوا المعاملة (ذلكم) أى السعى إلى ذكر الله (خيرلكم) من المعاملة فى ذلك الوقت (إن كنتم تعلمون) مصالح أنفسكم ، أومن أهل العلم (فاذا قضيت الصلاة) أدّيت وفرغ منها (فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله) كعيادة المريض ، وحضور الجنازة ، وزيارة الاخوان فى الله ، وطلب العلم ، والتصرف للتجارة ، وهذا الأخير هو المباح ، وما سواه مندوب أو واجب .

وعن عراك بن مالك : انه كان اذا صلى الجمعة انصرف فوقف على باب المسجد ، وقال : اللهم أجبت دعوتك ، وصليت فريضتك ، وانتشرت كما أمرتنى ، فارزقنى من فضلك وأنت خير الرازقين » .

وقوله (واذكروا الله كثيرا) واذكروه فى مجامع أحوالكم ، ولاتخصوا ذكره بالصلاة ، بل اذكروه قياما وقعودا ومضطجعين ، والطاعة أيضا من أنواع الذكر (لعلكم تفلحون) .

روى أن النبىّ صلى الله عليه وسلم كان يخطب للجمعة فمرّت عير تحمل الطعام من دقيق وبرّ وزيت وغيرها ، قدم بها دحية بن خليفة الكلبى من الشام بالتجارة ، وكان اذا قدم لم تبق عاتق بالمدينة إلا أتته ، ثم يضرب بالطبل ليؤذن الناس بقدومه ، فيخرج إليه الناس ليبتاعوا منه ، فخرج الناس إليه إلا اثنى عشر ، فنزلت (واذا رأوا تجارة أولهوا انفضوا إليها) أى اذا رأوا تجارة تفرّقوا إليها ، أولهوا تفرّقوا إليه ، واللهو هنا الطبل المذكور (وتركوك قائما) على المنبر (قل ماعند الله) من الثواب (خير من اللهو ومن التجارة والله خير الرازقين) إذ لايفوتهم رزق الله بترك البيع ، فهو خير الرازقين . انتهى التفسير اللفظى للسورة كلها ، والحمد لله رب العالمين .

فى هذه السورة لطيفتان

(١) فى قوله تعالى : « فتمنوا الموت إن كنتم صادقين » .

(٢) فى قوله تعالى : « يا أيها الذين اذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون » .

اللطيفة الأولى فى قوله تعالى : فتمنوا الموت إن كنتم صادقين

اعلم أن فى هذه السورة تبيان حقيقة الولاية وشرح أصولها ، وأحوال الأمة الاسلامية ، وبيانه أن الله

ابتدأ السورة بأن الأمة الأمّية أرسل الله لها رسولا أمّيا ليتلو عليهم الكتاب ويعلمهم ، ثم أردف ذلك بذم اليهود على أنهم أعطوا الكتاب فلم يعملوا به فأصبحوا كالحير ، ولاداعي لذلك في كتابنا المقدّس إلا اذا كان لتهذيبنا ورقينا واسعادنا ، إن القرآن ذكر للعالمين ، وليس مجرّد ذم اليهود بدون فائدة لنا ، وانما ذمّهم بأنهم حمير تلميحا لنا اذا خالفنا وتعريضا بالأمم الاسلامية النائمة اليوم الذين ناموا عن العلم والحكمة ، وللأمة الاسلامية [مراتب ثلاث : الأولى] انها حين أنزل عليها القرآن كانت بدوية ، فكانت تلقن الكتاب تلقينا [الثانية] أنها بعد اتساع الملك أصبحت دارسة للعلوم ، لمة بالمعارف الواسعة [الثالث] أن يصطفى الله منها أناسا يكونون واقفين على أسرار هذا الوجود ، محبين لربهم ، عاشقين له ، مولعين بالآخرة ، متمنين أن يكونوا معه ناظرين إلى وجهه الكريم بما قدّموا من صالح الأعمال ، فأوّل المراتب رمز لها بأوّل السورة ، وهو قوله : « هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين » والثاني رمز له بذم اليهود على عدم العمل بالكتاب ، فاذن هو يمدح العاملين بالكتاب العاملين به ، ومعرفة الكتاب تستلزم علوما شتى ، والثالثة رمز لها بقوله لليهود : « قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت ان كنتم صادقين » .

واعلم أن هذا هو السرّ المصون ، والجوهر المكنون ، والنور المبين ، والحسن والبهاء ، والاشراق الالهي الذي أرسله الله للأمة الاسلامية تعليما لهم وتفهيما .

علم الله أن المسلمين سيقعون في هذا الدور الذي أصبحنا فيه ، فأخذ يعلمنا اليوم ماجهلناه ، ويدرس لنا ما أغفلناه ، ويذكرنا مانسيناه ، يذمّ اليهود ويقول : انكم أيها اليهود كالحير ، لماذا ؟ لأنكم أعطيتم كتابا فلم تعلموا مافيه ، وان علمتم لم تعملوا .

أيها الذكيّ : قل لي : أليس هذا هو الذي وقعنا فيه الآن ؟ أليست هذه حالنا ؟ أصبحت الأمم كلها في الشرق والغرب متعلمين ، وأمم المسيحية تلاميذ آباؤنا هم العلماء في سائر العلوم ونحن أقلّ الأمم علما ، وأخسهم منها حظا .

ياعجبا كل العجب ! أمة يأتي نبيها بلا كتابة ولاقراءة ويقول الله « ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم » ويقول في آية أخرى : « ن ، والقلم ومايسطرون » ، وفي أخرى : « اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم ، علم الانسان مالم يعلم » .

يقول الله : « علم الانسان مالم يعلم » لعلمه أن كتاب الله يستلزم قراءة جميع العلوم واستيعابها ، أمة هذا شأنها تصبح أقلّ الأمم علما وأكثرها جهلا ، أمة ينزل القرآن عليها ويحفظه أبناؤها عن ظهر قلب ويكتفون بذلك في أكثر البلاد الاسلامية ، وهم عن العلم معزولون ، وعن طريق الرشاد ناكبون ، وفي ميدان الحرب والسياسة مخذولون ، ألاساء مايصنع الجاهلون ، يكتفون بما دوّن الأئمة رحمهم الله من علم الفقه ، ويظنون أنه لاشيء وراءه كذبوا والله ، القرآن بحاله لم يغيرمنه شيء ، ولم ينسخ ، وهو باق ، فليدرس القرآن وليفهم ، لما وقع المسلمون في هذا الداء الوبيل قرونا وقرونا أصبحوا عبرة الأمم ، ومثلا في الجهالة والضعف ، ولكن بعد مابينا في هذا التفسير ، وهكذا كثير من علماء الاسلام شرقا وغربا ستكون أمة لم ينجب الدهر مثلها . وما مثل الأمم الاسلامية المستقبلة إلا كمثل زرع وضع في أرض خصبة لم تضعف بتكرار الزراعة فيها ، ثم سقيت وسمدت ، فان زرعها يكون أسرع نباتا ، وأغزر ثمرا ، وأعظم نفعا ، ذلك مستقبل المسلمين ، فانهم سيجيئون عقب أمم نامت نوما عميقا ، والعقول بحالها مهيئة مستعدّة للعلم والعمل فينبغون ويرشدون ، والله هو الوليّ الحميد .

الكلام على الولاية

علم الله أن المسلمين فى القرون المتأخرة سيكثر فيهم الكلام فى الولاية والأولياء ، فأنزل هذه الآية بشكل لا يكدّر صفو المسلمين ، فلم يقل : أيها المسلمون : اذا أنتم كرهتم الموت فلستم خواص لله ، لم يقل ذلك وترك الأمر للعقول تفكر فيه ، بل خاطب اليهود وقال لهم : إن كنتم خواص الله حقا فما لكم لاتحبون الموت بقلوبكم ؟ كلا . أنتم لستم خواص لله ، بل أنتم كعامة الناس تفرّون من الموت والموت ملاقيكم .

هذا ظاهر القول ، ولكن حقيقته تعليم المسلمين ، فهو من حيث الظاهر ذمّ لليهود من جهة وتكذيب ومن جهة أخرى تعليم للمسلمين ليعرّفهم من هم أولياء الله .

من هو الولىّ ؟

اعلم أن النوع الانسانى وكل أنواع الحيوان يكرهون الموت بالطبع كراهة تامّة ، إن فى الموت قطع اللذات وفراق الأحباب ، والانسان بعد الموت جيفة قذرة ، يأكله الدود ، وتعافه النفس ، فالموت أكبر المصائب فى أرضنا ، لذلك فرّ منه الانسان والحيوان ، وهذا الفرار نعمة من الله عليهم ، إن العالم الذى نحن فيه أحيط بالجهالة العمياء من جميع جهاته ، و بعض الجهالة نافع ، فاذا سلط الله على الحيوان وعلى الانسان الجهل بمصيره بعد الموت ، فذلك ليحافظ الحىّ على حياته ، إذ لو علم أن هناك حياة أخرى فى عالم ألطف من هذا لسارع إلى الخروج من هذه الحياة مع أن وجود الانسان فى الأرض دروس لابدّ منها حتى يهنأ له المقام هناك ، فحياتنا إذن نعمة وجهلنا بالموت نعمة ، وانما كان الجهل بالموت نعمة لأننا لانعرف المصالح لضعف قوانا العاقلة ولو كملت عقولنا لعرفنا مصالحنا ، وأن الحياة فى الأرض دروس نحافظ عليها ولوكان هناك عالم أجلّ من هذا ونبقى فى سجن الأرض حتى يأتى الوقت الذى فيه نفارقها ، ونحن مزوّدون بالقوى والأخلاق التى تساعدنا على الرقىّ هناك ، ولكن علم الله أننا لانقدر على الاحاطة بهذه العلوم ، واننا لأقلّ مرض أوحزن أوألم نغادر الأرض ونتركها لعلمنا أننا أحياء فى عالم آخر ولوفى أدنى درجات الحياة ، لذلك ترى الانسان والحيوان كل منهما مجبول على كراهة الموت وحبّ هذه الحياة ، فلافرق بين المسلم واليهودى والمجوسى والحيوان فى هذه الحياة . ولما كانت حياتنا فى الدنيا للدراسة والعلم للارتقاء هنا ، وكان ترك الناس بلامذكر يحملهم على الغفلة ذكروا تارة بالأنبياء ، وأخرى بالحكماء ، وآونة بعلماء الأرواح ، فيقولون لهم : « إن لكم حياة بعد الموت فجدّوا للوصول إليها » وهؤلاء اذا سمعوا هذا القول يعملون كلّ على قدر جهده وطاقته مع كراهة الموت التى غرست فى القلوب ، فترى المسلمين يصلون و يصومون ، وكذا جميع الأمم تعبد على طريقها ، ولكنهم يكرهون الموت لأنه لايقين عندهم بأن هناك حياة بعد الموت . اذا فهمت هذا فلنبحث فى معنى [الولى] :

اعلم أن كل مسلم فى الأرض ، أوتابع لنبىّ لم ينسخ دينه ، فهو ولىّ الله ، قال تعالى : « الله ولىّ الذين آمنوا » والولىّ من تولاه الله برعايته وتولى هوالله بطاعته ، فكل مؤمن فى الأرض فهو ولىّ ، وليس المقام فى الولاية العامّة إنما نحن الآن فى مقام الولاية الخاصة كما قال تعالى : « ان زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت ان كنتم صادقين » وهنا يكون الكلام فنقول :

قد علمت نظرية الموت وانها مبغضة عند جميع الناس ، ولكن فى كل جيل وفى كل أمة نبغ أناس سارعوا إلى العلم والعمل والدراسة والنظر والفكر ، واطلعوا على أعاجيب الخليقة ، وأسرار الطبيعة ، وأدركوا أن هناك جمالا و بهجة وحكمة وعلما ، وأن هذه العوالم تدار بيد لم نرها ، وبحكمة فوق متناولنا فيشتاقون شوقا حقيقيا ، بل يهيمون هياما ، و يفرطون فى العشق : أى عشق تلك الادارة التى أدارت هذا العالم ،

وهؤلاء يحبون النوع البشرى حبا جما فيفيضون الخير عليه ، ويرسلون من قلوبهم أشعة العرفان إلى أقاصيه وأدانيه ، ويرون أنهم خلفاء الله فى أرضه ، وانهم بما استكملت نفوسهم من علم ، وبما تحلت جوارحهم من عمل جديرون أن يكونوا آباء للنوع الانسانى ، فهم إذن خلفاء الأنبياء والقائمون مقامهم ، وهؤلاء يبعثهم الله آنا فآنا يوقظون النائمين ، وينصحون المستيقظين ، وإذا حرصوا على الحياة فانما يحرصون عليها للغاية المذكورة ، والأعمال المشكورة ، وفى الوقت نفسه يقول الواحد منهم : « رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت وليى فى الدنيا والآخرة توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين » يقولها لا كما تقال الآن بل يكون هذا القول خارجا من النفس بل هو حالها وان لم ينطق به ، فترى الرجل منهم يعيش ليكمل نفسه ويكمل غيره ، فاذا علم أنه قد أتم ما عليه ، وانه لم يبق عنده كمال إلا وقد أخذه عنه تابعوه ، فانه إذ ذاك يحب الموت لعلمه أن الحياة لم يبق لها قيمة ، وأن روحه قد أصبحت ملائمة لذلك العالم العلوى مناسبة له فتأنف إذ ذاك من البقاء هنا ، وهذه الطائفة القليلة فى أرضنا اذا جاءها الموت كانت مستريحة مطمئنة منشرحة الصدر ، وإذ ذاك تموت موتا يسرها .

هذا هو الولى كما تقدم فى قوله تعالى : « أنت وليى فى الدنيا والآخرة توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين » لأن روحى تناسب تلك الأرواح الشريفة وترتاح لمناجاتها ، هذا هو الولى الخاص ، وهذه الطائفة هى التى قال الله فيها : « وقليل من عبادى الشكور » . وقد قلنا فى هذا التفسير مرارا أن الأمم الاسلامية سيذيع فيها التعليم وترتقى وتأخذ حظها فى الأمم ، ومامثل الأولياء فى المسلمين فى العصر الحاضر بالنسبة للأولياء فى الأجيال المقبلة إلا كمثل جهل المسلمين اليوم بالنسبة لرقى الأمم الاسلامية المستقبلة ، فالأذكياء فى أمة أشبه بالأمة ، وكذلك الحكام ، فهذا ولى الله الخاص الذى امتاز عن الناس حوله من مسلمين وغيرهم كما قال تعالى : « إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت ان كنتم صادقين » .

هذا هو الولى أوضحه القرآن ، فأما ذلك الذى يفرح بكثرة الأتباع للشهوة أو بتقبيل اليد أو نحو ذلك فانما هو رجل ابتعد عن ولاية الله واقترب من ولاية الشيطان ، فان القرب من الله يستدعى احتقار الحياة الدنيا ، وقد قلنا ان هذا لا يكون إلا لمن ذكرناه .

ثم اعلم أيها الذكى أن عذاب النوع الانسانى فى الدنيا والآخرة إنما يكون بالجهل ، فكل عذاب ناشئ من الجهل ، والعلم هو الذى يمنع العذاب ، ومن عذاب الدنيا أن الموت موكل بنا ونحن له كارهون ، فالنظام العام لا يتغير ، ونحن للنظام العام كارهون ، والكمال يقضى أن تكون العقول تحب مايقتضيه النظام العام ، ولا سبيل إلى ذلك فى أرضنا كما قدمنا إلا بصرف النفس إلى الكمال العلمى والكمال الخلقى ، فلا تذر حجرا ولا شجرا إلا فكرت فيه ، ولا تدع علما إلا اطلعت عليه بقدر الامكان ، وابحث عن الأسباب والنتائج ، وفى هذا التفسير مايغنى اللبيب ، وفكر فى كل شئ عام وخاص ، وخذ من كل شئ عبرة ، واجعل هذا ديدنك ، وأحب منفعة الناس بقلبك و بعملك لأن الناس أشبه بنفس واحدة قد تفرقت إلى نفوس كثيرة ، وليكن هذا ديدنك ، فانك اذا فعلت ذلك وواظبت عليه تجد الله أمامك فى كل أمر ، وتجده يعينك ولا يتركك ويأخذ بيدك ، ولا تزال تتقرب إليه وهو يلحظك حتى تعرف الحقائق التى ذكر فى هذا التفسير بعضها ، وإذن تصبح نفسك موافقة للنظام العام ، فلا ترى فى الموت إلا خروجا من سجن إلى حرية ، فان لم تجد فى نفسك هذا اليوم فستجده غدا ، ومن جد وجد ، فاحرص الحرص كله أن تكون نافعا للناس بعلم أو بعمل أو بهما ، وأن تكون عاشقا للحكمة التى نقشها الله بيده فى هذا الوجود ، وأبرزها فى كل موجود ، وإذن تكون ولى الله حقا فلا تخاف ولا تحزن ، وكيف تحزن على ماخلفت وأنت موقن أن الله يحفظه ، أو تخاف من أمر فى المستقبل وأنت عرفت الحقائق ، والله هو الولى الحميد . انتهى الكلام على اللطيفة الأولى .

اللطيفة الثانية فى قوله تعالى : يا أيها الذين آمنوا اذا نودى للصلاة من يوم الجمعة الخ

لألخص لك أيها الذكى هنا ماجاء فى الأخبار وأقوال الفقهاء :

(١) — [مسلم] : « خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة ، فيه خلق آدم ، وفيه أدخل الجنة ، وفيه أخرج منها » .

(٢) — [البخارى ومسلم] : « فيه ساعة لايوافقها عبد مسلم وهو يصلى يسأل الله شيئا إلا أعطاه إياه ، وأشار بيده يقللها » .

(٣) — [البخارى ومسلم] : « من اغتسل يوم الجمعة غسل الجنابة ثم راح فى الساعة الأولى فكأنما قرب بدنة ومن راح فى الساعة الثانية فكأنما قرب بقرة ، وذكر فى الثالثة الكبش الأقرن ، وفى الرابعة الدجاجة ، وفى الخامسة البيضة ، فاذ أحرم الامام حضرت الملائكة يستمعون الذكر »

(٤) — [مسلم] : « من توضأ فأحسن الوضوء ثم أتى الجمعة واستمع وأنصت غفر له مابين الجمعة والجمعة » .

(٥) — [البخارى] : « لايغتسل رجل يوم الجمعة ويتطهر ما استطاع من الطهور ، ويدهن من دهنه ، ويمس من طيب بيته ، ثم يخرج فلم يفرق بين اثنين ، ثم يصلى ما كتب له ، ثم ينصت اذا تكلم الامام إلا غفر له مابين الجمعة إلى الجمعة الأخرى » .

(٦) — [مسلم] قال صلى الله عليه وسلم لقوم يتخلفون عن الجمعة : « هممت أن آمر رجلا أن يصلى بالناس ثم أحرق على رجال يتخلفون عن الجمعة بيوتهم» .

(٧) — [الفقهاء] : تجب على كل مسلم حر بالغ عاقل ذكر مقيم اذا لم يكن له عذر فى تركها ، ولاجمعة على صبى ، ولامجنون ، ولاعلى النساء ، ولا العبيد .

(٨) — [الفقهاء] يقول أبوحنيفة : لاجمعة على أهل السواد سواء أكانت قريتهم قريبة أم بعيدة ، وقال الشافعى : يلزمهم اذا سمعوا نداء مؤذن جهورى الصوت ، وحدّد الزهرى ذلك بستة أميال ، وربيعة بأربعة أميال ، ومالك والليث بثلاثة أميال .

(٩) — التخلف عنها لعذر جائز اذا كان هناك طين ودحض وزلق أونحوذلك .

[ا] كان النداء يوم الجمعة أوّله اذا جلس الامام على المنبر على عهده صلى الله عليه وسلم وأبى بكر وعمر ، فلما كان عثمان وكثر الناس زاد النداء الثانى على الزوراء ، وهو موضع عند سوق المدينة قريب من المسجد ، ويقال انه مرتفع كالمنارة .

[ب] السعى إلى ذكر الله بالقلب والخشوع ، وقد نهوا أن يأتوا إلى الصلاة إلا وعليهم السكينة والوقار ، وفى حديث البخارى ومسلم : « اذا سمعتم الاقامة فامشوا إلى الصلاة وعليكم السكينة والوقار ولاتسرعوا ، فما أدركتم فصلوا ، وما فاتكم فأتموا » .

(١٠) — [الفقهاء] : لاتنعقد بأقل من أربعين رجلا عند الشافعى وأحمد واسحق ، ابن عمر شرط أن يكون فى الأربعين وال ، والشافعى لم يشترط هذا الشرط ، على بن أبى طالب شرط أن تكون الجمعة فى مصر جامع ، وأبوحنيفة على هذا الرأى :

[ا] تعقد عند أبى حنيفة بأربعة ، والوالى شرط عنده .

[ب] الأوزاعى وأبو يوسف قالا تنعقد بثلاثة بشرط أن يكون الوالى فيهم .

[ج] الحسن : تنعقد باثنين كسائر الصلوات
[د] ربيعة : تنعقد باثنى عشر رجلا .
[هـ] لاتنعقد إلا فى موضع واحد من البلد ، وهوقول الشافعى ، ومالك ، وأبو يوسف .
[و] وقال أحمد : تصح بموضعين اذا كثر الناس وضاق الجامع ، ورد فى البخارى ومسلم أنه صلى الله عليه وسلم قال : « اذا قلت لصاحبك يوم الجمعة أنصت والامام يخطب فقد لغوت » .

هذا هونهاية الكلام على اللطيفة الثانية فى قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون ، فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون ، واذا رأوا تجارة أولهوا انفضوا إليها وتركوك قائما قل ماعند الله خير من اللهو ومن التجارة والله خير الرازقين » وبهذا تم تفسير [سورة الجمعة] يوم الجمعة ١٩ من ذى الحجة الحرام سنة ١٣٤٣ هجرية — الموافق ١ يوليو سنة ١٩٢٥ م .

تفسير سورة المنافقون

هى مدنية

آياتها ١١ — نزلت بعد الحج

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ .

إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ * اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ * وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ * سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ * هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنْفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ * يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ

يَفْعَلْ ذٰلِكَ فَأُولٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُون * وَأَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللّٰهُ نَفْساً إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللّٰهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ *

فى هذه السورة مسئلتان : وصف المنافقين ، والحضّ على الانفاق قبل الموت

التفسير اللفظى

بسم الله الرحمن الرحيم

(اذا جاءك المنافقون) عبد الله بن أبىّ وأصحابه (والله يعلم انك لرسوله) كلام مستأنف ليس من كلام المنافقين (والله يشهد إن المنافقين لكاذبون) أى فى قولهم : « نشهد إنك لرسول الله » لأنهم أضمروا خلاف ما أظهروا ، وكل من أخبر بشىء وهو يعتقد خلافه فهو كاذب ، فالكذب هنا مخالفة اللسان للجنان (اتخذوا أيمانهم جنة) سترا يستترون به من القتل ، وقد كانوا يحلفون بالله انهم لمنكم ويقولون « نشهد إنك لرسول الله » (فصدّوا عن سبيل الله) أى منعوا الناس عن الإيمان والجهاد فى السرّ (ذلك) إشارة للحال المذكورة من النفاق والكذب الخ (بأنهم آمنوا ثم كفروا) أى بسبب أنهم آمنوا ظاهرا ثم كفروا سرّا فتمرّنوا على الكفر وصار التلوّن سجية لهم (فطبع على قلوبهم) ختم عليها واستحكم الكفر فيها (فهم لايفقهون) حقيقة الايمان ولايعرفون صحته .

ثم وصف هيئاتهم الظاهرة والباطنة ، فهم فى الظاهر ضخام الأجسام صباحها ، ومنطقهم عذب ، ولكلامهم عذوبة وحلاوة ، وهم فى الباطن كأنهم خشبات نخر جوفها ، فهى فى الظاهر ضخمة حسنة ، وفى الباطن فارغة مجوّفة ، فلذلك تراهم جبناء ، حتى اذا سمعوا مناديا ينادى ، أوانفلتت دابة ، أونشدت ضالة ، ظنوا أنهم هم المقصودون ، وأن أمرهم افتضح ، فهم سيهانون ، لأن المريب يكاد يقول خذونى ، والسارق يكاد اذا رأى القيد أن يقول ضعونى ، فخذ حذرك منهم فالله كافيك أمرهم ولاعنهم ، وهذا قوله تعالى (واذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وان يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة) الخشب جمع خشباء ، وهى الخشبة التى نخر جوفها ، شبهوا بها فى حسن المنظر ، وقبح المخبر ، فهم كأشباح بلا أرواح ، أوأجسام بلا أحلام ، ومعنى « مسندة » أى إلى الحائط ، فليست بأشجار مثمرة ينتفع بثمرها وغيره فى المستقبل (يحسبون كل صيحة واقعة (عليهم هم العدوّ فاحذرهم) لأنهم متهمون ، وقوله (قاتلهم الله) دعاء عليهم كأنه سبحانه يطلب من ذاته أن يلعنهم (أنى يؤفكون) أى كيف يصرفون عن الحق (واذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رؤوسهم) أى أمالوها وأعرضوا بوجوههم رغبة عن الاستغفار ، وقوله (يصدّون) أى يعرضون عما دعوا إليه (وهم مستكبرون) عن الايمان .

روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين لقى بنى المصطلق على المريسيع وهو ماء لهم وهزمهم وقتلهم ازدحم على الماء رجلان : رجل يقال له [جهجاه] وهو أجير عمر ، ورجل يقال له [سنان الجهنى] وهو حليف عبد الله بن أبىّ واقتتلا ، فصرخ جهجاه وقال ياللمهاجرين ، وسنان قال ياللأنصار ، فأعان جهجاها رجل من المهاجرين ولطم سنانا فقال عبد الله للمهاجر : ماصحبنا محمدا إلا لنلطم ، والله مامثلنا ومثلهم إلا كما قال : [سمن كلبك يأ كلك] أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعزّ منها الأذلّ [يريد بالأعزّ نفسه ، وبالأذلّ رسول الله صلى الله عليه وسلم] ، ثم قال لقومه : لوأمسكتم عن هذا وذويه فضل الطعام لم

يركبوا رقابكم ، فلا تنفقوا عليهم حتى ينفضوا من حول محمد ، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عمر : دعني أضرب عنق هذا المنافق يارسول الله ، قال إذن ترعد أنف كثيرة بيثرب ، قال فان كرهت أن يقتله مهاجر فأمر به أنصاريا ، قال : فكيف اذا تحدّث الناس أن محمدا يقتل أصحابه ! ثم قال صلى الله عليه وسلم لعبد الله : أنت صاحب الكلام الذي بلغني ، قال والله الذي أنزل عليك الكتاب ماقلت شيئا من ذلك وان زيدا [يريد زيد بن أرقم المبلغ] لكاذب ، فنزلت هذه الآيات ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لزيد بن أرقم : ياغلام : ان الله صدّقك وكذب المنافقين ، فلما بان كذب عبد الله قيل له : قد نزلت فيك آي شداد ، فاذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يستغفر لك ، فلوى رأسه وقال : أمرتموني أن أومن فآمنت ، وأمرتموني أن أزكي فزكيت ، ومابقي إلا أن أسجد لمحمد ، ولم يلبث إلا أياما حتى اشتكى ومات ، وقوله (سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم) أي سواء عليك الاستغفار وعدمه (لن يغفر الله لهم) لرسوخهم في الكفر (إنّ الله لايهدي القوم الفاسقين) الخارجين الذين لايمكن اصلاحهم (هم الذين يقولون) للأنصار (لاتنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا) يريد فقراء المهاجرين (ولله خزائن السموات والأرض) فهوالذي بيده الرزق والقسم (ولكنّ المنافقين لايفقهون) ذلك لجهلهم (يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعزّ منها الأذلّ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين) أي ولله الغلبة والقوّة ولمن أعزّه من رسوله والمؤمنين ، وهذا القول قد تقدّم شرحه في ذكر السبب (ولكنّ المنافقين لايعلمون) لفرط جهلهم ثم قال (يا أيها الذين آمنوا لاتلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله) نهي للمؤمنين أن تشغلهم الأموال وتدبيرها عن ذكر الله بالقلب واللسان في الصلاة والعبادات وفي سائر الأوقات كما شغلت المنافقين (ومن يفعل ذلك) اللهو بها (فأولئك هم الخاسرون) وأيّ خسر أعظم ممن باع حقيرا فانيا بعظيم باق ! (وأنفقوا مما رزقناكم) أي بعض أموالكم (من قبل أن يأتي أحدكم الموت) أي دلائله (فيقول رب لولا) هلا (أخرتني) أمهلتني (إلى أجل قريب) أمد غير بعيد (فأصدّق) فأتصدّق (وأكن من الصالحين) بتدارك مافات (ولن يؤخر الله نفسا) ولن يمهلها (اذا جاء أجلها) آخر عمرها (والله خبير بما تعملون) فمجاز عليه . انتهى التفسير اللفظي للسورة كلها ، والحمد لله رب العالمين .

إيضاح

اعلم أن [سورة الجمعة] إنما دعت إلى فهم كتاب الله وحوز العلم والحكمة ، وألا يكون المؤمنون كاليهود الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها ، واتضح فيها صفة الوليّ ، وأنه هوالذي سارع إلى الخيرات ، ولم يبال بالموت بل يتمناه ، ثم ذكر الصلاة ، وذكر الله في كل حين لإنماء المحبة الالهية في النفس حتى تحب لقاء الله ، فلمافرغ منها أتى بهذه السورة التي أماطت اللثام عن الصبر على إيذاء المنافقين ، وعداوة الأصحاب المخادعين ، وبيانه أن الانسان في هذه الدنيا يقوم بما قسم له من الأعمال ، وكلما كان أكثر نفعا وأبعد أثرا كانت العداوة له أعظم خطرا ، وحساده أشدّ ضررا : وترى الزوج يسعى على زوجته ، والوالد يكسب لأبنائه ، والأستاذ يجدّ لارتقاء تلاميذه وينصحهم ، ومع ذلك كم من زوجة كانت هي الداء العضال لزوجها ، وكم من ولد كان حسرة ونقمة على والديه ، وكم من تلميذ كان حربا عوانا على أستاذه ، فأنزل الله في القرآن : « يا أيها الذين آمنوا إنّ من أزواجكم وأولادكم عدوّا لكم فاحذروهم » ، وقال : « إنما أموالكم وأولادكم فتنة » وأنزل [سورة التحريم] الآتية قريبا ، وذكر فيها إيذاء الزوجات لأزواجهنّ ، وأنزل هذه السورة بعد [سورة الجمعة] ، كل ذلك ليعلم الصبر على المصائب ، والحقّ أن في أكثر الناس استعدادا لأعمال الشريعة ، ولكن من يجوز الامتحان ويصبر عليه قليل ، ألاترى أن كثيرا من الناس يسعى في الأعمال النافعة حتى اذا صدمته صدمة ،

أوأصابته نكبة ، أوآذاه من أحسنوا إليه ، أو واجهوه بالازدراء والسخرية والتهكم ، فانه ينصرف عن نفعهم ويقلع عن نصحهم ، ويرجع لعقربيته مدحورا ، ذلك لأنه لاقدرة له على السير فى الامتحان ، وليس من رجال هـذا الميدان ، ولا هو من طالبى الجبلات الحسان ، فيرجع القهقرى ، ويترك الورى ، كأنه لايسمع ولايرى ، خائبا وهوكليل ، كأن الله بهذه السورة يقول : أيها المؤمنون : هاهوذا نبيى أمددته بالقرآن ، وجعلت الناس يلتفون حوله ويعظمونه ، فليس منكم من يعظمه الناس ويجلونه مثله ، فالمعلمون منكم والمدرّسون لاينالون من تعظيم تلاميذهـم ما ناله ، ولايؤثرون فى قلوبهـم ما أثره ، ثم انه آذاه المنافقون من أصحابه ، وأوحى الله إليه بمـا أسرّوا فى أنفسهم ، وما أظهروا بألسنتهم ، ومع ذلك لم تهن عزيمته ، ولم تضعف همته ، بل دام على النصح والارشاد ، وهذا من خلق الصبر والعزيمة ، فصاحب العزيمة لايثنيه عن عزيمته الجيوش الجرّارة ، ولاالسيوف البتارة ، ولاالأصدقاء الخائنون ، ولاالأبناء العاصون ، ولاالزوجات الماكرات ، فالعزيمة والهمة يخضع لهـا الجبارون ، ويذل لهـا المتكبرون ، ولايقف فى طريقها أعظم الصعاب ، ولاعيب من عاب .

يستعظم المعلم أنفة من تلقى علمه ، أفلايذكر هـذا المعلم أن خير الخلق قد آذاه من أسلم على يديه ، ثم ظهر نفاقه ونبت بالقرآن ، والنبىّ صلى الله عليه وسلم صابر على من آذوه ، ماض فى عمله ، مطيع لربه ، والله هوالولىّ الحميد .

فتكون إذن [سورة الجمعة] للعلم والعـمل [والمنافقون] للصبر وقوّة الأمل : « والعصر ، إنّ الانسان لفى خسر ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحقّ وتواصوا بالصبر » فلأوصينك بالحقّ فقم به فى هذه الأمة التى خفضها الجهل ، وأزرى بها الكسل ، وسترى من تلاميذك و بعض أسرتك من يناوئونك إما سرّا وإما جهرا ، فلتسر فى طريقك . واعلم أن الرجـل اذا سافر فشاكته شوكة فانه لايضيع الزمن فى الكلام عليها ولافى الشكوى منها ، بل يتبع الركب ولايتوقف فيضيع الزمن لأجل الشوكة وكيف دخلت ، ويأخذ فى سبها ، فان ذلك كله ضياع لمصالحه ، فهكذا هنا هؤلاء المنافقون الذين يحيطون بالعامل الصادق من كل جانب لاينبغى أن يصدّوك عن عملك : « فاصدع بمـا تؤمر وأعرض عن الجاهلين ، إنا كفيناك المستهزئين » . انتهى تفسير سورة المنافقون ، والحمد لله رب العالمين .

تفسير سورة التغابن

هى مدنية

آياتها ١٨ — نزلت بعد التحريم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى السَّمٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ✲ هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ✲ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ✲ يَعْلَمُ مَا فِى

السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللّٰهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * ذٰلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللّٰهُ وَاللّٰهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ * زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلٰى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذٰلِكَ عَلَى اللّٰهِ يَسِيرٌ * فَآمِنُوا بِاللّٰهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللّٰهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللّٰهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ * مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللّٰهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللّٰهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللّٰهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * وَأَطِيعُوا اللّٰهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ * اللّٰهُ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللّٰهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللّٰهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللّٰهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ * فَاتَّقُوا اللّٰهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * إِنْ تُقْرِضُوا اللّٰهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللّٰهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ * عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ *

مقدمة

هذه السورة مع ماقبلها تتحدان فى أمر ، وهو الصبر على القرناء ، فسورة المنافقين فيها صبر النبىّ صلى الله عليه وسلم على نفاق من حوله ، جىء بها لتكون ذكرى للعلماء ، أو للحكام أنهم اذا رأوا منافقين من اخوانهم وتلاميذهم ورعاياهم فلا يقعدن ذلك بهممهم عن الجدّ والتشمير فى خدمة المجموع ، وسورة التغابن ذكر فيها أن من الأزواج والأولاد أعداء ، فيكون الملخص من هذين ألا ييئس الانسان بما يقاسى من الأصحاب والتلاميذ والرعية والزوجة والولد ، وملخص ذلك أن الانسان فى الدنيا وحده ، فلا يطمعن فيها أن يكون واثقا كل الثقة بأحد ، فاذا كانت [سورة الجمعة] للعلم والعمل فسورتا [المنافقين والتغابن] للصبر ، فاذن ديننا يحرّض على الأعمال القلبية وهى عنده بالمقام الأوّل ، فبغير الصبر لا علم ولا عمل ، ثم ان السورتين اشتركتا أيضا فى الانفاق والحثّ عليه فى آخرهما ، ولنشرع فى التفسير اللفظى فنقول :

التفسير اللفظى

بسم الله الرحمن الرحيم

(يسبح لله ما فى السموات وما فى الأرض) التسبيح بالدلالة على تنزيه الصانع وكماله ، وبأنّ هـذه المخلوقات مسخرة منقادة ، فالانقياد تسبيح ، والدلالة تسبيح ، وقوله (له الملك وله الحـمد) فهو يتصرّف تصرّف اختصاص ، فلا حد إلا له ، لأنه مصدر الخيرات ، ومفيض البركات (وهو على كل شىء قدير) يفعل مايشاء ، ولاجرم أن عدم تناهى القدرة على الأشياء مما يوجب جلال الملك واتساع نطاق الحمد (هو الذى خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن) فاذا متم و بعثتم رجعتم إليه بصفاتكم التى متم عليها .

وفى حديث مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إنّ الله خلق للجنة أهلا خلقهم لها وهم فى أصلاب آبائهم ، وخلق للنار أهلا خلقهم لها وهم فى أصلاب آبائهم » اهـ

وانما كان ذلك لأن كل مخلوق تابع لاستعداده المستمدّ من النظام العام ، وهذا الاستعداد مخلوق فيه للتربية كما يربى النبات والحيوان ، ولذا أعقبه بقوله (والله بما تعملون بصير) أى عالم و بصير بكفركم وإيمانكم اللذين هما من عملكم ، و بما كان سببا لهما من استعدادكم ، و بما يكون نتيجة لهما من جزائكم (خلق السموات والأرض بالحقّ) بالحكمة البالغة ، ولقد ظهر أثر تلك الحكمة فى تصويركم فكنتم مختلفين فى الصور كما اختلفتم فى العقائد ، فاذا كان فى صوركم السوداء والبيضاء والتى بينهما ، فهكذا فى عقائدكم الكفر والايمان والعصيان ، فالكفر كالسواد ، والايمان كالبياض ، والوسط بينهما كالصفرة والحمرة فى أهل الصين وأهل أمريكا الأصليين ، فاذا كانت هذه حالكم فى صوركم التى اقتضاها النظام ولم يكن هناك تناقض بل النظام محكم ، ولم يقل أحد من الحكماء ولا الفلاسفة أن السواد خطأ ، أو البياض خطأ ، أو الصفرة ، أو الحمرة النحاسية ، هكذا سيكون فى العالم الروحى نظام ستفقهونه بعد الموت اذا انكشف عنكم الغطاء ، فانكم سترون أن كفر الكافر من حسن نظامنا كما كان إيمان المؤمن من حسن نظامنا ، فاذا كان الحنظل فى الأرض والبطيخ والعقرب والجراد والذئب والغزال والسم والغذاء والنار والماء ، كل ذلك من مقوّمات هذا الوجود أومن حسن نظامه ، هكذا ستعرفون فى عالم الأرواح أن اختلاف العقائد لمصالح كمصالح اختلاف الأغذية والأدوية والمهلكات فى هـذه الحياة ، وسترون أن الأنبياء والعلماء والحكماء أشبه بالزرّاع يزرعون المزارع لمصالح الانسان ، وأن العـقائد الزائغة كالحشائش التى يتعمد الفلاح اقتلاعها من الأرض بفأسه ، هذه المعانى بعض مايفهم من قوله (وصوّركم فأحسن صوركم وإليه المصير) فليجدّ المرء منكم أن يكون ممن تأهلوا للقاء الله بقلوب صافية عاقلة ، وليحذر أن تكون صورته القلبية مشوّهة فلا يصلح للقاء الله كما لا يصلح المشوّه الوجوه للقاء الملوك ، ولا لأنس الأصحاب (يعلم مافى السموات والأرض و يعلم ماتسرّون وماتعلنون والله عليم بذات الصدور) فلاتخفى عليه خافية ، قد استوى فى علمه ظواهر الأمور و بواطنها ، ثم خاطب أهل مكة قائلا (ألم يأتكم نبأ الذين كفروا من قبل) كقوم نوح وهود وصالح (فذاقوا وبال أمرهم) أى ضرر كفرهـم فى الدنيا وهو ما لحقهم من العذاب ، وهكذا الأمم العاصية التى كسلت وتركت مايجب عليها من أمة الاسلام فى القرون الآخرة ذاقت وبال أمرها فى الدنيا فأصبحوا عبرة الأمم و مضرب الأمثال بالجهل والذل ، فهؤلاء يصلحون للاعتبار بهم ، فهم قد وقعوا فى عذاب الاختلال واحتلال أهـل أوروبا لغفلتهم وجهلهم ، فهؤلاء يصلحون لأن يعتبر بهم المسلمون الحاليون والذين يأتون بعدهـم ، بل الاعتبار بهـم أقرب ، لأنهم ذاقوا وبال أمرهم ، وفى التعبير بقوله : « ألم يأتكم نبأ الذين كفروا من قبل » فتح باب للاعتبار بالتاريخ ، لافرق

بين قوم نوح وقوم من أمم الاسلام كأهل الأندلس الذين أذاقتهم أوروبا كأس الذل ، وأخرجتهم من ديارهم كما أخرج المسلمون اليهود من جزيرة العرب ، بمثل هؤلاء فليعتبر المسلمون ، وقوله (ولهم عذاب أليم) أى فى الآخرة ، وهكذا المسلمون المقصرون فى فروض الكفايات ، وهى جميع العلوم والصناعات سيعذبون بعد الموت عذاب التقصير لاعذاب الكفر لأنهم مؤمنون . واعلم أن كثيرا من أهل العلم اليوم فى بلاد الاسلام غافلون نائمون ، فقد بلغنى أن أحدهم اطلع على ما كتب فى ﴿سورة البقرة﴾ من قولى : [إنّ علم الأجنة يحرم تركه على المسلمين] فظنّ ذلك الغافل أن هـذا القول شىء اخترعته ، ففرح بذلك وقال : إن هذا ليس فى الدين ، وقد وهم ، لأن هذا ليس واجبا عينيا بل هو فرض كفاية ، وهكذا جميع العلوم والصناعات والأمة كلها تعذب بترك فرض الكفاية ، لأنه نقص لاحق بالأمة كلها (ذلك) المذكور من الوبال والعذاب (بأنه) بسبب أن الشأن (كانت تأتيهم رسلهم بالبينات) بالمعجزات (فقالوا أبشر يهدوننا) أى أنكروا أن يكون الرسل بشرا ، فهـم لاينكرون أن يكون معبودهم حجرا ، وينكرون أن يكون رسول المعبود انسانا ، كأنّ الرسول يجب أن يكون أشرف من المرسل الذى أرسله (فكفروا) أى جحدوا وأنكروا (وتولوا) أعرضوا (واستغنى الله) عن إيمانهم وعبادتهم (والله غنىّ) عن خلقه (حميد) فى أفعاله .

هذا تمام الكلام فى كفرهـم وتكذيبهم الأنبياء ، ثم أتبعه بذكر انكار البعث فقال : (زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل) يامحمد لهم (بلى وربى لتبعثنّ) هذا قسم ليؤكد به الجواب (ثم لتنبؤنّ بما عملتم) بالمحاسبة والمجازاة (وذلك على الله يسير) أى أمر البعث والحساب يوم القيامة (فآمنوا بالله ورسوله) محمد صلى الله عليه وسلم (والنور الذى أنزلنا) وهو القرآن (والله بما تعملون خبير) فمجازعليه وقوله (يوم يجمعكم ليوم الجمع) متعلق بتنبؤنّ ، ويوم الجمع هو يوم القيامة ، إذ يجمع الله فيه الأوّلين والآخرين ، وأهل السموات وأهل الأرضين (ذلك يوم التغابن) مستعار من تغابن القوم فى التجارة ، وهو أن يغبن بعضهم بعضا ، كأن يبيع أحدهم الشىء بأقلّ من قيمته ، فهذا غبن للبائع ، أو يشتريه بأكثر من قيمته ، فهذا غبن للمشترى ، وأىّ غبن أعظم من أن قوما ينعمون وقوما يعذبون ، وأن قوما مغبونين مظلومين فى الدنيا أصبحوا فى الآخرة غابنين لمن غبنوهم فى الدنيا وظلموهـم : إن الكفار غبنوا فى شرائهم ، لأنهم اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة ، فأما المؤمنون فقد ربحت تجارتهم (ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا) أى عملا صالحا (يكفر عنه سيئاته ويدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم ، والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير) وهذا هو التغابن ، فالمؤمن الذى عمل الصالحات فى الجنة ، والكافر فى النار ، وهذا هو ملخص التغابن .

وههنا يرد السؤال فيقال : ولِمَ هذا ؟ وكيف خلقتهم ونوّعتهم ؟ هلا جعلتهم جميعا سعداء ، مع أنك قادر على كل شىء ؟ وكيف تعذب وأنت أرحم الراحمين ؟ إن العقل هنا لايستطيع الاجابة على هذا . ومما يؤيد هـذا السؤال ويقوّيه أنه يقول (ما أصاب من مصيبة إلا باذن الله) أى بقضاء الله وقدره وارادته ، ولا جواب على هذا السؤال إلا ما جاء فى أوّل السورة : «هو الذى خلق السموات والأرض بالحقّ وصوّركم فأحسن صوركم» وقد تضمن الاختلاف فى الصور ، فالاختلاف هنا كالاختلاف هناك ، ومن الحكماء وأرباب البصائر من يعرفون سرّ هذا الاختلاف ، وأن وجود الحنظل والبطيخ ، والبقة والفيل ، والحرّ والبرد والمرّ والحلو مشابهات تمام المشابهة لما فى العقول من كفر وإيمان ، وخير وشرّ ، وجهل وعلم ، وأن النظام فى الحالين واحد ، ولكنهم لايريدون أن يذكروا الحقائق التى عرفوها ، لأن جمهور النوع الانسانى غير كفؤ لفهم هذه الحقائق ، فلذلك يكتمونها ، وهكذا أنت أيها الذكىّ اذا كنت ممن عرفوا الحقائق ، فأنت مضطر

ان

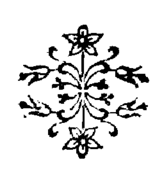
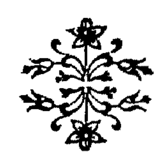
أن تكتمها عن الناس فى هذا الوضوع وحده ، لأن عقولهم لاتتحمله ، وهذا المقام فيه مجال واسع فى ﴿ سورة الأعراف ﴾ عند قوله تعالى : « ورحمتى وسعت كل شىء » فارجع إليه إن شئت .

هذا فى معنى الآية من حيث العلم ، أما مغزاها من حيث العمل فان سورة المنافقين المتقدمة ، وانهم كانوا يؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما يأتى فى هذه السورة بعد هذه الآية من إيذاء الأزواج والأولاد للبعولة والآباء فان الله يبين لنا أن هذه المصائب مقدرة ، فاذا عاب المنافقون نبيهم وأنكروا نعمته ، واذا أنكر التلاميذ نعمة أساتذتهم ، والأبناء نعمة آبائهم ، فلايحزن النبى ولا الأساتذة ولا الآباء ، وكيف يحزنون على شىء قدّر عليهم قبل خلقهم ؟ كما لاينبغى أن يحزن الناس على الاختلاف فى الكفر والايمان والجنة والنار ، لأن ذلك الاختلاف من جملة النظام الذى وجد عليه العالم ، وليس معنى هذا أن الانسان لايعمل ولايجدّ فى هداية الكافرين ، ونصح العاصين ، وتأنيب المنافقين ، وارشاد وتأديب النساء والبنين كلا : إنما ذلك القول ليستروح به الناس بعد أن يكونوا قد عملوا ما يجب عليهم وأتموه ، فأما اذا لم يتموا مايجب عليهم من هداية أوتهذيب لأنفسهم ولغيرهم ، وسعى فى الكسب والعمل لهم ولغيرهم فانهم معذبون بهذا عذابا شديدا ، ويكون ذلك وفق القضاء .

وملخص هذا أن الانسان يتم مايجب عليه له ولغيره ، ثم بعد ذلك لايبالى بما يأتى به القضاء ، وهذا هوالتوكل . ولما كان هذاتمام السعادة فى الدنيا والآخرة بحيث يكون الانسان مجدّا فى عمله ، والقيام بأمره ، والسعى لتمام الامور ، مريحا نفسه من عناء الهم والغم ، لعلمه أنه قد فعل كل مايجب عليه ، وأن مافوق ذلك ليس فى طاقته ، فهما كان من خير أوشر بعد ذلك فلن يهوله أمره ، ولن يحزن عليه ، لذلك أعقبه بقوله (ومن يؤمن بالله يهد قلبه) يوفقه لليقين ، وهذا هوعين اليقين ، وأى نعمة أعظم من هذه النعمة ، جدّ فى عمل ، واستراحة من غم وحزن ، واطمئنان نفس ، ووثوق بفضل ، وعلم بأنه لم يقصر (والله بكل شىء عليم) والقلوب من جملة الأشياء فهومطلع عليها (وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول فان توليتم) فلابأس عليه (فانما على رسولنا البلاغ المبين) لأن وظيفته التبليغ وقد بلغ فماذا عليه بعد ذلك ؟ هل يكلف بما فوق طاقته ؟ إذن هولايحزن بعد ذلك ، وقد هدى الله قلبه ، وعرف أن للقضاء والقدر أثرا تاما فى البرية ، هكذا كل امرئ فى الأرض فليفعل مايجب عليه ، وليس عليه غير ذلك ، ولهذا أشار بقوله (الله لاإله إلاهو وعلى الله فليتوكل المؤمنون) أى فليفعلوا غاية جهدهم ، ثم ليكلوا إلى الله نتائج أعمالهم ، ولايحزنوا على مايصيبهم ، إذ ليس فى طاقتهم ردّه ، وانما الحزن يكون على التقصير ، ونموذج التوكل مسألة التبليغ ، فقد بلغ النبى صلى الله عليه وسلم وليس عليه بأس اذا لم يؤمنوا ، نعم اذا أمر بقتالهم وهو قادر وقصرفانه يؤاخذ على ذلك ، لأن فى القتال ضررا قليلا لطائفة من الناس فيدخلون فى الايمان ثم يأتى بعدهم مالانهاية له من الأمم إلى يوم القيامة فيدخلون فى الدين طوعا لا كرها .

ثم أعقبه بمسألة تصيب الناس فى داخل منازلهم ، وهى مما ينبغى التوكل فيه بعد التأديب الشديد والقيام بالنظام على أتم وجه فقال (يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوّا لكم) أى ان من الأزواج أزواجا يعادين بعولتهنّ ويخاصمنهم ، ومن الأولاد أولادا يعادون آباءهم و يعقونهم ، وهكذا الأزواج والأولاد يكونون سبب جبنكم عن القتال ، و بخلكم بالمال ، وجهلكم ، لأنهم يشغلونهم بجلب المال لهم ، كما اتفق لعوف بن مالك الأشجعى ، وكان ذا أهل وولد ، فاذا أراد أن يغزو بكوا عليه ورققوه وقالوا إلى من تدعنا ؟ فيرق عليهم فيقيم ، وأيضا كان رجال آخرون من أهل مكة أرادوا أن يأتوا النبى صلى الله عليه وسلم ، فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم أن يأتوا النبى ﷺ فلما أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم رأوا

الناس قد فقهوا فى الدين فهموا أن يعاقبوهم فنزل قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوّا لكم » (فاحذروهم) ولاتأمنوا غوائلهم (وإن تعفوا) عن ذنوبهم بترك المعاقبة (وتصفحوا) بالاعراض وترك التثريب عليها (وتغفروا) باخفائها وتمهيد معذرتهم فيها (فانّ الله غفوررحيم) يعاملكم بمثل ماعملتم ويتفضل عليكم ، وهذا العمل هوالذى فعله ﷺ مع المنافقين فانه لم يعاقبهم وعفا عنهم وحذرهم فالانسان إذن فى منزله أشبه بقائد الجيش فى حومة الوغى لاينفك عن مهاجمة عدوّه وصيانة عسكره ، فهو دائما فى حذر ، ثم أتى بالنتيجة وأبان أننا اليوم سائرون لله فى هذه الحياة ، وليس هؤلاء الأولاد ولاالنساء ولا الأصحاب هم المقصودون ، بل المقصود الأعظم الوصول الى الله ، ولوكان المقصود هؤلاء لكانوا نعمة لانقمة فيهم ، ونعيما لاعذابا ، ولكنّ الله جعل السم فى دسمهم ، والعذاب فى نعيمهم ، والشقاء مخبوءا فى الاسترواح لهم ، ليكون ذلك دليلا أن هؤلاء ليسوا نهاية الأعمال إنما هم ممن ابتلينا بهم فى طريق سفرنا الطويل الشاق ، والنتيجة أننا نكون فى دار لا يكون الخيرفيها مشوبا بالشرّ ، وهذا قوله تعالى (إنما أموالكم وأولادكم فتنة) اختبار لكم (والله عنده أجرعظيم) لمن آثر محبة الله وطاعته ، إذن فليكن المقصد الأعظم نهاية الأمر لاالوقوف فى أثناء السفر . ولما كانت هذه الامورفيها اختلاط على النفس واختباط فلا يدرى الانسان ماذا يعمل وجب عليه صيانة أهله وولده ، ووجب عليه جهاد عدوّ البلاد والنزال معه للحرب فلايدرى ماذا يصنع ان حارب العدوّ ترك أهله وان بقى مع أهله دخل العدوّ البلاد ، وهكذا يعيش الانسان بين المتناقضات وهو فى حيرة ، والفؤاد معذب بين الامور العامة والخاصة ، لذلك أعقبه بما يفيد أن الانسان يفكر فيما فيه المصلحة بقدر طاقته ، وهذا قوله تعالى (فاتقوا الله ما استطعتم) أى ابذلوا فى تقواه جهدكم وطاقتكم (واسمعوا) مواعظه (وأطيعوا) أوامره (وأنفقوا) فى وجوه الخير لوجهه وائتوا (خيرا لأنفسكم) أو وأنفقوا انفاقا خيرا (ومن يوق شحّ نفسه) الذى استوجبته الفتنة بالأموال والأولاد (فأولئك هم المفلحون) أى هم الفائزون (إن تقرضوا الله) بصرف المال فيما أمركم به (قرضا حسنا) مقرونا بالاخلاص وطيب القلب غير مكترثين بما تسمعون من أولادكم وأزواجكم (يضاعفه لكم) عشرا وسبعمائة أوأكثر (و يغفر لكم) ببركة الانفاق (والله شكور) يعطى الجزيل بالقليل (حليم) لايعاجل بالعقوبة (عالم الغيب والشهادة) ما غاب وما شوهد (العزيز الحكيم) تامّ القدرة والعلم . انتهى تفسير [سورة التغابن] والحمد لله ربّ العالمين .

تفسير سورة الطلاق

هى مدنية

آياتها ١٢ — نزلت بعد الانسان

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

يٰأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللهَ رَبَّكُمْ لاَ تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلاَ يَخْرُجْنَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لاَ تَدْرِى لَعَلَّ اللهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذٰلِكَ أَمْراً * فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَىْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلّٰهِ ذٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً * وَاللاَّئِى يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاَثَةُ أَشْهُرٍ وَاللاَّئِى لَمْ يَحِضْنَ وَأُولاَتُ الأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً * ذٰلِكَ أَمْرُ اللهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْراً * أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ وَلاَ تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولاَتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ * لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللهُ لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلاَّ مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا * وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَاباً شَدِيداً وَعَذَّبْنَاهَا عَذَاباً نُكْراً * فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْراً * أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ عَذَاباً شَدِيداً فَاتَّقُوا اللهَ يَا أُولِى الأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً * رَسُولاً يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا

وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا * اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا *

مقدمة

هذه السورة فيها معاملة الزوجات حال بقائهنّ فى العصمة وحال مفارقتهنّ من الامساك بالمعروف ، ومن الطلاق والعـدّة ، ومن الانفاق فى مدّتها ، فناسب أن تذكر بعد [سورة التغابن] التى ذكر فيها الصـبر والعفو عن الأزواج والأولاد الذين هـم فتنة ، فههنا أبان أن من هؤلاء الذين فتنتم بهم من تقدرون على مفارقتهم ، فلتكن المفارقة بالمعروف كما يكون الامساك بالمعروف ، أما الأولاد والأصحاب الذين لامفرّ من صحبتهم كالأبناء العاقين ، وكالمنافقين أزمان النبوّة ، فليس لهؤلاء حال يتبرّأ منهم الانسان إلا حال الكفر ، فاذن تكون البراءة ، أما فيما عدا ذلك فلتكن النصيحة والتأديب تارة والعفو والصفح أخرى ، ثم يتخلل تلك الأحكام الشرعية فى هذه السورة ذكر التوكل وارجاع الامور إلى الله كما فى [سورة التغابن] إذن هذه السورة كالمتممة للتى قبلها والموضحة لبعض ما أجل فيها .

ولما طال الكلام فى هذه السور على علوم المعاملة وهذا يجعل الانسان اذا استغرق فيه ناسيا ذكر ربه ختم السورة بأن الله خلق سبع سموات وسبع أرضين ، وأنزل قضاءه وأمره بينهنّ بنظام حسن ، ليعلمنا عظم مبدعاته ، ويرقى نفوسنا ببدائع حكمه ، وعظيم آياته ، هذا ملخص هذه السورة اجمالا .

ملخص الأحكام فى هذه السورة

(١) إن المطلقة عدّتها ثلاثة قروء وهى الاطهار ، أوالحيضات رأيان .
(٢) ولاتخرج من البيت حتى تنقضى عدّتها إلا فى أحوال خاصة .
(٣) فاذا شارفت العدّة أن تنقضى فللرجل الخيار إما أن يراجعها واما أن يفارقها بالمعروف .
(٤) واذا راجعها أوفارقها فليشهد على ذلك ذوى عدل .
(٥) المرأة التى يئست من الحيض ، والتى لم تحض عدّة كل منهما ثلاثة أشهر .
(٦) الحامل عدّتها بوضع الحمل وينفق على الحامل حتى تضع حملها وتخرج من العدّة .
(٧) فاذا أرضعت المرأة فلها أجر الارضاع .
(٨) الانفاق من المعسر ومن الموسر كل بقدره . اهـ

التفسير اللفظى

بسم الله الرحمن الرحيم

(يأيها النبىّ) قل لأمّتك (إذا طلقتم النساء فطلقوهنّ لعدّتهنّ) أى لزمان عدّتهنّ ، وهو الطهر لأنها تحصل فى العدّة عقيب الطلاق فلايطول عليها زمان العدّة ، وقد كان ابن عمر طلق امرأته وهى حائض فذكر

ذلك

ذلك عمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم فتغيظ منه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : مره فليراجعها ثم يمسكها حتى تطهر ، ثم تحيض ، ثم تطهر ، فإن بدا له أن يطلقها فليطلقها قبل أن يمسها ، فتلك العدة التي أمر الله أن يطلق لها النساء . وفي رواية لمسلم أنه قال : « مره فليراجعها ثم ليطلقها طاهرا أو حاملا » .
(وأحصوا العدة) واضبطوها وأكملوها ثلاث أقراء كوامل لا نقصان فيها ، وإنما خوطب الأزواج لغفلة النساء (واتقوا الله ربكم) في تطويل العدة والإضرار بهن و (لاتخرجوهن من بيوتهن) أي من مساكنهن التي يسكنها قبل العدة ، وهي بيوت الأزواج ، فتكون السكنى إذن واجبة ، فلايخرجهن البعولة غضبا عليهن وكراهة لمساكنتهن ، أولحاجة لهم إلى المساكن ، وألا يأذنوا لهن في الخروج اذا طلبن ذلك ، إذ لا أثر لاذنهم في دفع الحظر (ولايخرجن) بأنفسهن ان أردن ذلك (إلا أن يأتين بفاحشة مبينة) كالبذاءة على أهل زوجها فيحل اخراجها لسوء خلقها ، وكخروجها قبل انقضاء عدتها (وتلك) الأحكام المذكورة (حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه) بأن عرضها للعقاب (لاتدرى) أيها المطلق (لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا) فربما حصلت لك الرغبة في المطلقة فراجعتها ، وفي الحديث : « أبغض الحلال إلى الله الطلاق » ، وقال صلى الله عليه وسلم : « أيما امرأة سألت زوجها الطلاق من غير ما بأس به حرام عليها رائحة الجنة » أخرجه أبوداود والترمذي (فاذا بلغن أجلهن) شارفن آخر العدة (فأمسكوهن) فراجعوهن (بمعروف) بحسن عشرة وانفاق مناسب (أوفارقوهن بمعروف) أي اتركوهن حتى تنقضي عدتهن فتبين منكم (وأشهدوا ذوى عدل منكم) على الرجعة وعلى الفراق ، وهذا مندوب كالاشهاد على التبايع ، وعن الشافعي أنه واجب في الرجعة (وأقيموا الشهادة لله) أيها الشهود عند الاقتضاء (ذلكم) أي جميع مافي الآية (يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر) فانه الذي ينتفع به . ولما كان هذا المقام فيه الكلام على الطلاق والعدة وعدم الاخراج من المسكن وتعدى حدود الله واقامة الشهادة ومايناسب ذلك من القضايا والمشاكل الكثيرة التي تنغص العيش وتورث الألم أنزل الله فيه هذه الآية (ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لايحتسب) فاذا لم يطلق الرجل امرأته في الحيض فتطول مدة عدتها ولم يخرجها من مسكنها ولم يتعد حدود الله ولم يكتم الشاهد شهادته ، ولم يعص الله المؤمن على وجه العموم في سائر أحواله فان الله يخرجه من الغموم والوقوع في المضايق ويفرج عنه ويعطيه الخلاص ويرزقه من جهة لاتخطر بباله ، وبالاختصار من اتقى الله جعل له مخرجا ومخلصا من غموم الدنيا والآخرة ، ومن غمرات الموت ، ومن شدائد يوم القيامة ، قال صلى الله عليه وسلم : « إني لأعلم آية لو أخذ الناس بها لكفتهم : ومن يتق الله ، فمازال يقرؤها ويعيدها » . وروى أن عوف بن مالك أسر المشركون ابنا له ، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : أسر ابني ، وشكا إليه الفاقة ، فقال : ما أمسى عند آل محمد إلا مد ، فاتق الله واصبر ، وأكثر من قول : لاحول ولاقوة إلا بالله العلى العظيم ، فعاد إلى بيته وقال لامرأته : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرنى وإياك أن نستكثر من قول لاحول ولاقوة إلا بالله العلى العظيم ، فقالت نعم ما أمرنا به ، فجعلا يقولان ذلك فبينا هو في بيته إذ قرع ابنه الباب ومعه مائة من الإبل تغفل عنها العدو فاستاقها فنزلت ، وقوله (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) أي ومن يكل إليه أمره فهو كافيه في الدارين (إن الله بالغ أمره) أي يبلغ مايريد لايفوته مراد ولايعجزه مطلوب (قد جعل الله لكل شيء قدرا) تقديرا وتوقيتا ، وهذا بيان لوجوب التوكل على الله وتفويض الأمر إليه ، لأنه اذا علم أن الرزق وغيره لها أوقات ومقادير محدودة لم يحزن على مافاته منها .

دفع وهم

ثم اعلم أيها الذكى أن كثيرا من الناس يقرءون أمثال هذه الآيات ولا يفهمون المقصود منها ، فربما ترك الانسان الحزم فى أمر والتفكير فيه والسعى فى طلبه فيفوته فيقول انى توكلت على الله ، وهذا توكل لاقيمة له ، بل التوكل أن تعمل كل ما يمكنك عمله ، وتكل ماعداه إلى الله ، وكم من مسلم يسمع حديث عوف ابن مالك ويظن أن هذا هوالتوكل ، ولم يدر أنّ هذا قد انقطعت به الأسباب ، فلم يبق له إلا الالتجاء إلى رب الأرباب ، أما من عنده قدرة وعقل فعليه أن يسخرهما فى عمله مجدّا ، ولايترك فرجة ولاخللا فى نظامه ويكل أمر النتيجة لربه ، فأما من ليست لديه حيلة فليس له إلا الرجوع بالقلب إلى الله ، فاذن التوكل للقادر علم وعمل وتوجه بالقلب إلى الله ، فأما العاجز فليس له إلا الالتجاء بالقلب ، هذا تحقيق المقام ، فأكثر المسلمين يأخذ الامور من وجه واحد وينسى ماعداه ، وهذا هوالذى قعد بالهمم ، وأمات الأمم ، فرجعت القهقرى ، قال تعالى (واللائى يئسن من المحيض من نسائكم) لكبرهنّ (ان ارتبتم) أى أشكل عليكم حكمهنّ وجهلتم كيف تكون عدّتهنّ (فعدّتهنّ ثلاثة أشهر) أى فهذا حكمهنّ ، وقيل : ان ارتبتم فى دم البالغات مبلغ اليأس أهودم حيض أواستحاضة فعدّتهنّ ثلاثة أشهر ، واذا كانت هذه عدّة المرتاب بها فغيرها أولى بذلك ، وقد قدّر العلماء سنّ اليأس بستين سنة ، أو بخمس وخمسين سنة (واللائى لم يحضن) وهنّ الصغيرات فعدّتهنّ ثلاثة أشهر ، فأما الشابة التى كانت تحيض فارتفع حيضها قبل بلوغ سنّ الآيسات فهذه تنتظر سنّ اليأس ثم تعتدّ بثلاثة أشهر إلا أن يعاودها الدم فتعتدّ بثلاثة أقراء ، وهذا مذهب أكثر العلماء ، وقال عمر رضى الله عنه : تتربص تسعة أشهر فان لم تحض تعتدّ بثلاثة أشهر ، وهذا قول مالك وماقبله قول الشافعى وعطاء وعثمان وغيرهم ، وقال الحسن : تتربص سنة فان لم تحض تعتدّ بثلاثة أشهر ، وهذا كله فى الطلاق ، وأما المتوفى عنها زوجها فعدّتها أربعة أشهر وعشر سواء أكانت ممن تحيض أولاتحيض ، وأما الحامل فعدّتها بوضع الحمل سواء أطلقها زوجها أومات عنها ، وهذا قوله تعالى (وأولات الأحمال أجلهنّ أن يضعن حملهنّ) مطلقات كنّ أومتوفى عنهنّ أزواجهن (ومن يتقّ الله) فى أحكامه فيراعى حقوقها (يجعل له من أمره يسرا) يسهل عليه أمره ويوفقه للخير (ذلك) أى ماذكر من الأحكام (أمر الله أنزله إليكم ومن يتق الله) فى أحكامه فيراعى حقوقه (يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا) بالمضاعفة (أسكنوهنّ من حيث سكنتم) أى بعض مكان سكناكم (من وجدكم) أى من سعتكم وطاقتكم ، فالموسر يوسع عليها فى المسكن والنفقة ، والفقير يفعل على قدرطاقته (ولاتضارّوهنّ) لاتؤذوهنّ (لتضيقوا عليهنّ وان كنّ أولات حمل فأنفقوا عليهنّ حتى يضعن حملهن) فيخرجن من العدّة ، وهذه الآية أوجبت النفقة للحامل مدة الحمل ، والرجعية حكمها أنها لها النفقة والسكنى على الزوج مادامت فى العدّة ، لأنها فى حكم الزوجة فلتبق فى البيت المملوك له والمؤجر ، والا فلها أجرة السكن ، وأما البائن بالطلاق الثلاث ، أو بالخلع ، أو باللعان ، فلها السكنى حاملا وغير حامل ، وقيل لاسكنى لها إلا اذا كانت حاملا ، وهل لها نفقة ؟ قيل لانفقة لها إلا أن تكون حاملا ، وهوقول الحسن وابن عباس والشافعى وأحمد ، وقيل تجب بكل حال ، وهوقول ابن مسعود والنخعى والثورى وأصحاب الرأى ، فاذن أصحاب الرأى يجعلون السكنى والنفقة عامّتين فى الجميع ، ثم قال تعالى (فان أرضعن لكم) بعد انقطاع علقة النكاح (فآتوهنّ أجورهنّ) على الارضاع (وائتمروا بينكم بمعروف) أى ليقبل بعضكم من بعض اذا أمره بالمعروف ، أوليتراض الأب والأمّ على أجر مسمى ، فهو أمر للزوجين معا أن يأتوا بالمعروف وماهو الأحسن ، ولايقصدوا الضرر ، وعلى ذلك لايقصر الرجل فى حق المرأة ونفقتها ، ولا المرأة فى حقّ الولد ورضاعه (وان تعاسرتم) فى حق الولد وأجرة الرضاع فلم يعط الرجل الأم الأجرة ، ولم ترض

الأم بارضاعه فليس له اكراهها على الارضاع ، إذن فليستأجر للصبي مرضعا غير أمه ، وهذا هو قوله تعالى (فسترضع له أخرى) أى امرأة أخرى (لينفق ذوسعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله) فلينفق كل من الموسر والمعسر ما بلغه وسعه (لا يكلف الله نفسا إلا ما آتاها) فإن الله لا يكلف نفسا إلا وسعها ، وهذا القول تطييب لقلب المعسرين الذين وعدهم باليسر فقال (سيجعل الله بعد عسر يسرا) عاجلا أوآجلا ، وهذه الآية وهوقوله تعالى : « لا يكلف الله نفسا إلاما آتاها » تفتح بابا واسعا لمباحث العلوم والصناعات المذكورة فى ﴿سورة البقرة﴾ عند قوله تعالى : « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها » ، فاذا رأيت القضاة يحكمون على زيد بمائة قرش فى الشهر للمرأة ، وعلى خالد بألفى قرش على حسب طاقتهما ، هكذا يجب على زيد من العلوم أو الصناعات ما يطيقه ، وعلى خالد بأكثر أو بأقل ، وكما خلق الله فى الأمة الأغنياء والفقراء ، هكذا خلق فيها قدرا وطاقات مختلفات فى العلوم والصناعات فليمتحن التلاميذ فى العلوم التى يجب أن يعمم تعليمها ، وليجعل كل تلميذ فى العلم الخاص به ويتبغ فيه .

ولما كان هذا المعنى المذكور فى : « لا يكلف الله نفسا إلاما آتاها » ينتقل من الفرد إلى الجماعة ، ومن مسألة الانفاق على النساء إلى سائر فروع الحياة وكانت الأمة التى تهمل القدر والاستعداد كبعض المسلمين اليوم آيلة للخراب ، لأنها أهملت ماخلقه الله لها من العقول النيرة المخبوءة فى أجسام أبناء الفقراء وأبناء الأغنياء فلم تستخرج تلك المواهب ولم تستقص القوى والقدر التى خبأها الله فى أبنائها ، فضاعت سياستها ، وبارت أرضها ، وقلت حاصلاتها ، وضاع الفكر فيها ، وأصبحت طعمة لغيرها من الأمم ككثير من أمم الشرق الآن ، لما كان الأمر كذلك أعقب ماتقدم سبحانه بقوله (وكأين من قرية) أى أهل قرية (عتت عن أمر ربها ورسله) أى اعرضت عنه اعراض العاتى المعاند فأهملت شئون أرضها وطرقاتها وجبالها ومعادنها وحاصلاتها وقوى الشبان فيها (فحاسبناها حسابا شديدا) أثبتنا ذنوبهم جميعها فى صحف الحفظة (وعذبناها عذابا نكرا) منكرا فى الدنيا بالذل والاستعباد مثلا (فذاقت وبال أمرها) أى عقوبة كفرها ومعاصيها (وكان عاقبة أمرها خسرا) لاربح فيه أصلا (أعد الله لهم عذابا شديدا) يوم القيامة (فاتقوا الله يا أولى الألباب) ياذوى العقول ، ثم نعتهم فقال (الذين آمنوا قد أنزل الله إليكم ذكرا) هو القرآن ، وأرسل إليكم (رسولا يتلوا عليكم آيات الله مبينات) صفة لرسول ، ويصح أن يكون رسولا مبدلا من ذكر كأن الرسول نفس الذكر مبالغة (ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور) أى ليخرج من علم سبحانه وقدر أنه يؤمن (ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا قد أحسن الله له رزقا) فى هذا القول تعظيم لما رزقوا من الثواب ، ثم ان هذه السورة مرجع أحكام شرعية ومناهج دينية ، وأدلة فقهية ، وفتاوى اسلامية ، وضعت لاقامة العدل ونهج الصراط السوى ، وذلك العدل على نهج العدل الذى فى السموات والأرض الجارى بين المشرقين والمغربين ، وما أهل الأرض ولا أحكامهم ولا شرائعهم ولا دياناتهم إلا لمحة من نور العدل العام ، وقبسة من اشراقه ، وقبضة من نوره ، وزهرة من شجرته فلئن قضى القضاة على كراسى الحكم بين العباد ، وأعطوا زيدا مايجب على عمرو ، وقالوا للحامل عدتك وضع الحمل ، وللتى تحيض عدتك ثلاثة قروء ، فكم بين السموات والأرض من قضاء فى هذا القضاء الصامت لفظا الناطق معنى ! فكم من حكم بيننا نرى أثره ولا نسمع النطق بحكمه ، نرى الشمس محكوما عليها أن تطلع من مواضع فى الشرق وتغرب فى أماكن فى الغرب لاتجاوزها فى دقائق وثوان لاتنفك عنها بحسب النظر الظاهرى وان كانت الأرض هى الجارية ولكن الحكم لايتغير ، ونرى الرياح قد حكم عليها والسحب مأمورة والأنهار جارية بالحكم الحتم عليها والمزارع يحكم عليها أن تكون فى زمن خاص ومكان خاص ، فليس للقطن

أن ينبت فى البلاد الباردة ، ولا أن يثمر فى زمن الشتاء ، ولا للنخل أن ينبت فى البلاد الباردة ، ولا أن يثمر إلا بعد عدد من السنين ، وقضى على المزارع أن تكون قصيرات الأعمار ، فيزرع القمح والذرة والشعير والعدس والفول وتحصد كلها بعد أشهر معدودات ، ولاتثمر إلا فى فصول خاصة ، كل ذلك حكم لمصلحة الناس فلوأن تلك المزارع لاتثمر إلا بعد سنين كالنخل لضاق الناس ذرعا فى الحياة ، ولقل سكان الكرة الأرضية ، هذه أحكام حكم بها الله ونتائجها سعادة الناس وراحتهم ، كما أن حكم القاضى بنفقة الحامل على المذاهب كلها و بنفقة غيرها على بعض المذاهب لمنفعة المطلقة ، فانظر أى الحكمين أكثر منفعة ، أحكم لمصلحة أشخاص مخصوصين متنازعين ، أم حكم لسعادة هؤلاء المتنازعين وغيرهم من كل أهل دين ونحلة ؟ بل كل حيوان ونبات على الأرض ، لذلك أعقب ماتقدم سبحانه بقوله (الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن) أى وخلق مثلهن فى العدد من الأرض ، وهذا العدد ليس يقتضى الحصر ، فاذا قلت عندى جوادان تركب عليهما أنت وأخوك فليس يمنع أن يكون عندك ألف جواد وجواد ، هكذا هنا فقد قال علماء الفلك كما تقدم : « إن أقل عدد ممكن من الأرضين الدائرة حول الشموس العظيمة التى نسميها نجوما لايقل عن ثلاثمائة مليون أرض » ، هذا فيما عرفه الناس ، وهذا القول من هؤلاء ظنى ، فلم يدع أحد أنه رأى أوقطع بشىء من ذلك ، اللهم إلا علماء الأرواح ، فانهم لما سألوها قالت : « عندنا كواكب آهلة بالسكان لايحصى عددها وفيها سكان أنتم بالنسبة لهم كالنمل بالنسبة للانسان ، هذا معنى ما قالوا ، ارجع لما نقلته لك عن الأستاذ [غاليلى] لما أحضرت روحه وسألوها ، وإياك أن تقول انى أجزم بهذا القول ، بل أقول لكم : فكروا وادرسوا فالعلم علمكم والدين دينكم ، ولايجوز أن تختص أوروبا بالبحث ونحن سنترك لكم الأرض ونمضى منها ونهاجر إلى الله متى جاء الأجل ، وقوله (يتنزل الأمر بينهن) أى يجرى أمر الله وقضاؤه بينهن و ينفذ حكمه فيهن (لتعلموا أن الله على كل شىء قدير وأن الله قد أحاط بكل شىء علما) فالله خالق السموات والأرض وهو يتنزل الأمر بينهن لندرس هذه العوالم ونعقلها ، فنعلم عموم القدرة والعلم فيهما ، ولايتم ذلك إلا اذا كانت دراستنا لتلك العوالم كدراسة الفقهاء لعلم الفقه ، إن الفقيه لا قدرة له على اصدار الأحكام ، والقاضى ليس بقادر أن يصدر حكما ، والمفتى لايستخرج الأحكام من الدين إلا بعد دراسة تامة ، هكذا لايعرف سعة علم الله وقدرته ، ولايفرح بنظام السموات إلا من أضاع العمر فى مباحث العلوم الفلكية والطبيعية ، وقد تضمن هذا التفسير حظا عظيما من تلك المباحث . انتهى تفسير سورة الطلاق ، والحمد لله رب العالمين .

تفسير سورة التحريم

هى مدنية

آياتها ١٢ — نزلت بعد الحجرات

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ✲ قَدْ فَرَضَ اللهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ✲ وَإِذْ أَسَرَّ

النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ * إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ * عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا * يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ * يَأَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءامَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * يَأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ * ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ * وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءامَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ *

هذه السورة قسمان

القسم الأوّل في نساء النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وحلف النبيّ صلى الله عليه وسلم ألا يشرب العسل إرضاء لبعضهنّ ، وفي اطلاع الله على ما أفشين من سرّ أسرهنّ بكتمه وما يتبع ذلك من أوّل السورة إلى قوله : « ومأواهم جهنم وبئس المصير » .

القسم الثاني ضرب مثل لذلك بامرأة نوح وامرأة لوط عليهما السلام من قوله تعالى : « ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما » إلى آخر السورة .

مقدمة فى مناسبة هذه السورة لما قبلها

سورة الطلاق كلها فى حسن المعاشرة مع النساء والقيام بحقوقهن . وهذه السورة فيما حصل منهن مع النبي صلى الله عليه وسلم تعليما لأمته ، وأن يحذروا أمر النساء ؛ وأن يعاملوهن بالسياسة اللطيفة كما عاملهن صلى الله عليه وسلم بذلك وينصحوهن نصحا مؤثرا .

أسباب نزول هذه الآيات ما جاء فى البخاري ومسلم من حديث عائشة رضى الله عنها ، قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب الحلواء والعسل ، وكان اذا انصرف من العصر دخل على نسائه ، وكان يمكث عند زينب بنت جحش ، فيشرب عندها عسلا ، فتواطأت أنا وحفصة أن أيتنا دخل النبي صلى الله عليه وسلم عليها فلتقل له إنى أجد منك ريح مغافير أكلت مغافير ، فدخل على إحداهما ، فقالت ذلك له ، فقال بل شربت عسلا عند زينب بنت جحش ولن أعود . والمغافير صمغ حلو له رائحة كريهة ينضحه شجر يقال له العرفط يكون بالحجاز .

وقد كانت عائشة وحفصة متصافيتين متظاهرتين على سائر أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ، ويقال ان التى دخل عليها النبي صلى الله عليه وسلم وحرم على نفسه العسل أمامها هى حفصة ، فأخبرت عائشة بذلك مع ان النبي صلى الله عليه وسلم استكتمها الخبر كما استكتمها ما أسرها به من الحديث الذى يسرها ويسر عائشة إذ قال لها لاتخبرى أحدا . وذلك الحديث انه قال : [إن أباك وأبا عائشة يكونان خليفتين على أمتى من بعدى] ، فصار السر لها بأمرين : بتحريم العسل الذى كان يبقيه عند زينب بنت جحش ، وبأمر الخلافة اهـ

هذا ملخص ماجاء فى الأحاديث ، وفى الروايات تناقض يسير ، ولكنى استخلصت الزبد المتفق مع سير الآية ، وهناك روايات أخرى مثل كون التى شرب عندها العسل هى حفصة ، ومثل كون التحريم إنما كان لمارية القبطية لا للعسل ، لأن مارية القبطية كان ﷺ دخل معها فى بيت حفصة فغضبت حفصة لذلك فأرضاها بما تقدم ، فلندع ذلك الاختلاف ولنسر فى التفسير على وجه واحد ، لأن قصة مارية لم تأت من طريق صحيح ، وكون المتظاهرتين حفصة وعائشة هو من حديث لابن عباس المروى فى الصحيحين ، ولنشرع الآن فى تفسير السورة فنقول ومن الله التوفيق :

التفسير اللفظى

بسم الله الرحمن الرحيم

(يا أيها النبي لم تحرم) من شرب العسل (ما أحل الله لك تبتغى مرضاة أزواجك) أى حال كونك تبتغى (والله غفور) لك تحريم ما أحل لك (رحيم) رحمك حيث لم يؤاخذك (قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم) أى قدر الله لكم ما تحللون به أيمانكم ، وهى الكفارة المذكورة فى سورة المائدة ، فيقال ان النبي صلى الله عليه وسلم لما قالت له حفصة أكلت مغافير وقال لها كما قال لعائشة : سقتنى زينب شربة عسل قالت : جرست نحلة العرفط : أى أكلته فصار منه العسل ، حينئذ حلف ألا يشربه ، فعوتب على ذلك ، أوشرع الله لكم الاستثناء فى أيمانكم ، يقال حلل فلان فى يمينه اذا استثنى فيها ، وذلك أن يقول ان شاء الله عقيبها حتى لا يحنث ، ويقال : إن تحريم الحلال يمين عند بعض الأئمة ؛ فسواء أكان صلى الله عليه وسلم حلف فعلا فكفر ، أومجرد تحريم الحلال يمين فيكفر عنه فالأمر ظاهر ، لأن الكفارة مشروعة ، وما بعدها أخذ به بعض الأئمة ، والاستثناء فى اليمين مشروع ، وقوله (والله مولاكم) متولى أموركم (وهو العليم)

بما يصلحكم (الحكيم) المتقن فى أفعاله وأحكامه (وإذ أسرّ النبىّ إلى بعض أزواجه) وهى حفصة (حديثا) تحريم العسل ، ومسئلة الخلافة المذكورتين (فلما نبأت به) فلما أخبرت حفصة عائشة رضى الله عنهما بالحديث (وأظهره الله عليه) وأطلع النبىّ ﷺ على افشائه الذى يحزن قلب زينب اذا علمته ، إذ ينكسر قلبها لما ترى من أن إحدى أزواجه ﷺ قدرت أن تحتال حتى حاف ألايشرب العسل فى بيتها ، وذلك نكاية لها وألم عظيم ، وفى افشاء أمر الخلافة خلل فى سياسة الأمة وتفريق لجامعتها ، إذ يحصل التنافر والشقاق قبل وفات النبىّ ﷺ على الخلافة كما حصل بعد وفاته ، وفى هذا تجهيل لما لاتحمد عقباه وجواب لما قوله (عرّف بعضه) أى عرّف صلى الله عليه وسلم حفصة بعض ما أفشت من السرّ (وأعرض عن بعض) أى عن إعلام بعض ، كأن يذكر لها افشاء مسألة تحريم العسل ويترك مسألة الخلافة لئلا تهلع وتحزن على افشائه أشدّ من الحزن على افشاء مسألة العسل مثلا أوالعكس (فلما نبأها به قالت من أنبأك هذا قال نبأنى العليم الخبير) أى العليم بما تكنه الضمائر وبخفيات الامور ، ثم خاطب حفصة وعائشة فقال (إن تتوبا إلى الله) فقد وجد منكما مايوجب التوبة ، وهو ميل قلوبكما عن الواجب من امتحان حضرة الرسول صلى الله عليه وسلم بحبّ مايحبه وكراهة ما يكرهه ، وهذا قوله (فقد صغت قلوبكما وان تظاهرا عليه) أى وان تتظاهرا عليه بما يسوءه (فانّ الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين) فهؤلاء جميعا ينصرونه (والملائكة بعد ذلك ظهير) متظاهرون ، أوفوج مظاهر له ، وانما ذكر ذلك كله لعظم أمر افشاء السرّ ، لاسيما فى مسألة السياسة ، فانه ربما أزال دولة بتمامها بالثورات والفتن (عسى ربه ان طلقكنّ أن يبدله أزواجا خيرا منكنّ مسلمات مؤمنات) منقادات مصدّقات (قانتات) مواظبات على الطاعات (تائبات) عن الذنوب (عابدات) متعبدات (سائحات) صائمات : إذ الصائم يسيح فى النهار بلازاد (ثيبات وأبكارا) أى عذارى جمع بكر ، يقال انه ﷺ غضب من افشاء سرّه وجازى حفصة بأن طلقها فجاءه جبريل وأمره بمراجعتها ، وقيل لا بل همّ بطلاقها ، فقال له جبريل لاتطلقها فانها صوّامة قوّامة ، وانها من نسائك فى الجنة . ولما كان هذا القول خاصا بأمر النبىّ ﷺ وأزواجه أردفه بخطاب عامّ فقال : (يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم) بترك المعاصى وفعل الطاعات (وأهليكم) بالنصح والتأديب (نارا وقودها الناس والحجارة) أى نارا تتقد بهما اتقاد غيرها بالحطب (عليها ملائكة) تلى أمرها وهم الزبانية (غلاظ شداد) غلاظ الأقوال شداد الأفعال (لايعصون الله ما أمرهم) فيما مضى (ويفعلون ما يؤمرون) فيما يستقبل ، فليتق الله الناس ، وليتركوا المعاصى ، وليؤدّبوا نساءهم ، وينهوهنّ عما لايحلّ ، فربّ امرأة أفشت سرّا فأهلكت أمة بتمامها ، وأوقدت فيها نار الفتنة ، فحاذروا أن تعطوا سركم إليهنّ ، فاذا كان الله عصمنى أن يذيع سرّى وأطلعنى عليه فليس يتفق لكم ذلك ، فليكتم المرء سرّه لئلا تفسد امرأته عليه أمره ، وتنغص عيشه ، وتصبح حياة المرء فى قلق ونغص وهكذا لتكن المرأة صالحة ، والا كانت الحياة لاتطاق بين الزوجين ، وتفوت على أهل المنزل المصالح المادّية والمعنوية فيكون الفوت مع الموت ، فيجد الزوجان أنهما أضاعا حياتهما فلايكون لهما جزاء إلا جهنم ، لأن الناقص فى أخلاقه وأعماله ليس له إلا ذلك « ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضلّ سبيلا » .

واعلم أن الحياة المنزلية هى أسّ الحياة العمرانية ، ومن لم ينظم أهل بيته فهوعن تدبير أمر الدولة أعجز فلم يستعن صلى الله عليه وسلم على امرأتين من نسائه بالله وجبريل والملائكة والمؤمنين إلا لما فى أمر تدبير المنزل وحياته من الأهمية ، ولم يذكر جهنم وزبانيتها إلا لما فى ذلك من سرّ حياة الأمة ، فالأمة مركبة من أسرات ، والأسرات اذا كانت حياتها على غير أساس فحياة المجموع كذلك ، لأن الأمة ماهى إلا أفرادها ،

وهى فرد مكرّر ، والفرد اذا كانت سياسته فى الداخل غير منتظمة فقد ضاعت دولته ، هذا هو السرّ فى ذكر الله والملائكة ، وذكر جهنم ونارها وحجارتها .

أمر الله المسلمين أن يقوا أنفسهم وأهليهم نارا ، فنار يوم القيامة مما جنيناه فى الدنيا ، وهو فى هذا المقام تنغيص العيش ، وضياع أمر الأسرة ، والشقاق والنزاع المتوالى ، وفى قوله : « لايعصون الله ما أمرهم » إشارة إلى أن الأسرة اذا كانت مفككة الأوصال غير مجتمعة الرأى لاتطيع المرأة زوجها ولا الولد أباه كانت سائرة على نهج يخالف نظام الله الذى نظم السموات والأرض وجعلهما مرتبطين ، وجعل ملائكته طوع أمره : « ومن يتعدّ حدود الله فقد ظلم نفسه » وذلك هو الموجب لجهنم ، إن نار جهنم فى هذا المقام لم تخرج عن كونها نتيجة المنافرات والمشاجرات والأكدار والتنغيص المحرقات للقلوب فى الدنيا ، فاذا مات الناس دخلوا فى جنس ما كانوا فيه فى الدنيا ، فهل جزاء السيئات إلا السيئات ؟ قوم كانوا فى نزاع دائم وقلوبهم لم تعرف فى الدنيا إلا المشاجرات والشتائم ، فأين يذهبون إلا للمدارس التى استعدّوا لها فى الدنيا ، وهى مدارس نارية محرقة ، فقد أحرقت القلوب فى الحياة بتنغيصهم ، فأحرقت الأجساد والقلوب معا بعد الموت جزاء وفاقا ، ليكون ذلك طهارة لهم ان كانوا مؤمنين ، فأما الذين كفروا فيقال لهم (يا أيها الذين كفروا لاتعتذروا اليوم) وذلك حين يعاينون النار (إنما تجزون ما كنتم تعملون) فان أعمالكم السيئة ألزمتكم العذاب ، فان الجهالة والعناد وانكار الحق قد وضعت على قلوبكم حجابا فى الدنيا فلما متم حجبتم عن الجمال المطلق كما يعذب المؤمنون بفعل المعاصى كترك تأديب زوجاتهم ، وكفساد نظام الأسرات المترتب على ذلك ، ولذلك قال تعالى لهم : (يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا) بالغة ، أوذات نصح تنصح صاحبها بترك العود إلى الذنب . والتوبة النصوح تجمعها ستة أشياء :

(١) على الماضى من الذنوب الندامة .
(٢) وللفرائض الاعادة .
(٣) وردّ المظالم .
(٤) واستحلال الخصوم .
(٥) وأن تعزم على ألاتعود .
(٦) وأن تربى نفسك فى طاعة الله كما ربيتها فى معصيته .

ثم قال تعالى (عسى ربكم أن يكفرعنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار) وفى ذكر عسى اطماع جريا على عادة الملوك ، وقوله (يوم لايخزى الله النبىّ والذين آمنوا معه) متعلق بيدخلكم ، وفيه تعريض بأن المناوئين لهم يخزون ، حال كونهم (نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم) على الصراط (يقولون) اذا أطفئ نور المنافقين الذين ـ مثلهم كمثل الذى استوقد نارا فلما أضاءت ماحوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لايبصرون ـ (ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شئ قدير) ولاجرم أن الأنوار على مقتضى الأعمال فيسألون اتمامها (يا أيها النبىّ جاهد الكفار) بالسيف (والمنافقين) بالحجة والزجر والوعيد (واغلظ عليهم) واشدد على الفريقين بالقول والفعل (ومأواهم) مصير المنافقين والكافرين (جهنم وبئس المصير) جهنم ، ولما كانت هذه السورة مسوقة لأزواج النبىّ صلى الله عليه وسلم ، وأعقب ذلك أن أمر المؤمنين أن ينصحوا زوجاتهم ويؤدّبوا أنفسهم وهدّدهم بالنار ، ثم أتى بنصائح عامّة أعقبه بما يفيد أن الرجل ليس عليه إلا ما أمر به ، والمرأة ليس عليها إلا ما أمرت به ، فاذا خالفت المرأة الرجل بعد نصحها وأذنبت ، أوكان الرجل فاسقا والمرأة صالحة فلاذنب إلا على المذنب منهما وليس على الآخر من سبيل ،

و بين ذلك بمثلين : مثل للمرأة الفاسقة التى صلح زوجها ، ومثل للمرأة الصالحة التى كفر زوجها ، فكل عليه وزره ولايحمل من إثم صاحبه شيئا مادام قائما بما عليه خيرقيام ، فقال تعالى (ضرب الله مثلا) بين الله صفة (للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما) أى لم يدفعا عنهما (من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين) فهاتان المرأتان لما خانتا الرسولين أدخلتا النار ولم ينفعهما صلتهما بالنبيين ، بل ذاقتا وبال أمرهما : هكذا هؤلاء الكفار يعاقبون على معاداتهم للمؤمنين بلامحاباة ولاينفعهم مابينهم و بين المؤمنين من النسب والمصاهرة ، ولوكان الذى يتصل به الكافر نبيا ، كما لم ينفع المرأتين لما خانتا الرسولين أنهما زوجتاهما فعذبتا على خيانتهما وافشائهما أسرارهما ، فدخلت المرأتان النار مع سائر الداخلين ، إذ لافرق بين الشريف والصعلوك فى العقوبة ، فهى لاتترك أزواج الأنبياء كما لاتذر أزواج العصاة والعصاة جميعا (وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون) وهى آسية بنت مزاحم ، فقد آمنت لما غلب موسى عليه السلام السحرة ، فلما علم فرعون بإيمانها عذبها فصرف الله العذاب عنها ، شبه حال المؤمنين فى أن اتصالهم بالكافرين لايضرّهم بحال آسية ، فهى مرضية عند الله مع أنها متصلة بمن ادّعى الألوهية ، اذكر (إذ قالت) وهى تعذب (رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة) قريبا من رحمتك ، أوفى أعلى درجات المقرّبين (ونجنى من فرعون وعمله) من نفسه الخبيثة وعمله السيئ (ونجنى من القوم الظالمين) من القبط التابعين له فى الظلم ، ثم عطف على امرأة فرعون قوله (ومريم ابنت عمران) التى لازوج لها فليتسلّ بها الأرامل ، ففضل الله يسع المتزوّجات واللاتى لا أزواج لهنّ ، ثم وصف مريم فقال : (التى أحصنت فرجها) حفظت فرجها من الرجل (فنفخنا فيه) فى فرجها (من روحنا) من روح خلقناه بلاتوسط أصل (وصدّقت بكلمات ربها) بالشرائع التى شرعها الله لعباده بكلماته المنزلة على أنبيائه (وكتبه) الكتب المنزلة على الأنبياء (وكانت من القانتين) المطيعين ، وهم رهطها وعشيرتها ، لأنهم كانوا أهل بيت وصلاح . انتهى التفسير اللفظى للسورة كلها ، والحمد لله رب العالمين .

* * *

خاتمة لتفسير هذه السورة

وازن أيها الذكىّ بين أوّل السورة وآخرها تجد المعنى متسقا ، فاذا تظاهر على النبىّ صلى الله عليه وسلم امرأتان فهاهما امرأتان : امرأة نوح ، وامرأة لوط تظاهرتا على عبدين صالحين وهما زوجاهما ، فماذا حلّ بهما ؟ أدخلتا النار ، ولم ينفعهما اتصالهما بالنبيين ، وهذا المثل ومابعده لم يجعلا للزوجات فحسب ، بل عمم الأمر لكل امرأة عاصية أوكافرة اتصلت بمؤمن ، ولكل امرأة صالحة أو رجل صالح اتصل بكافر ، فهو فى معنى : « لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة يفصل بينكم » ، وبهذا تمّ الكلام على [سورة التحريم] والحمد لله رب العالمين . كتب يوم الأحد ٢٣ ذى الحجة سنة ١٣٤٣ هجرية — الموافق ١٤ يوليوسنة ١٩٢٥ م .



تفسير سورة الملك

هى مكية

آياتها ٣٠ — نزلت بعد الطور

بسم الله الرحمن الرحيم

تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير * الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور * الذى خلق سبع سموات طباقا ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور * ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير * ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين وأعتدنا لهم عذاب السعير * وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير * إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقا وهى تفور * تكاد تميز من الغيظ كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير * قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شىء إن أنتم إلا فى ضلال كبير * وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير * فاعترفوا بذنبهم فسحقا لأصحاب السعير * إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير * وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور * ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير * هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور * ءأمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هى تمور * أم أمنتم من فى السماء أن يرسل عليكم حاصبا فستعلمون كيف نذير * ولقد كذب الذين من قبلهم فكيف كان نكير * أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يمسكهن إلا الرحمن إنه بكل شىء بصير * أمن هذا الذى هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن إن الكافرون إلا فى غرور * أمن هذا الذى يرزقكم إن أمسك رزقه بل لجوا فى عتو

ونفور

وَنُفُورٍ * أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ * قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ * وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ * فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدَّعُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ *

هذه السورة تشتمل على وصف السموات ، وأن نظام هذا العالم لاعوج فيه ولااختلاف ، وعلى وصف عذاب الكافرين فى الدنيا والآخرة ، وتخلل ذلك تذكير الانسان بخلقه ورزقه وما أشبه ذلك .

إنّ الكلام على هذه السورة ينحصر فى [ثلاثة أقسام : القسم الأوّل] فى تفسير البسملة : أى ماذكر فيها من الرحمتين مع جميع الرحمات العشرين اللواتى فى البسامل التى فى السور العشر التابعات لها إلى سورة المرسلات [القسم الثانى] فى التفسير اللفظى للسورة كلها [القسم الثالث] فى اللطائف .

القسم الأول

فى الكلام على الرحمتين المذكورتين فى البسملة هنا مع جميع الرحمات فى السور العشر التى بعدها

لما كانت الرحمتان المذكورتان فى البسملة هنا فى [سورة الملك] تقدّم الكلام عليها فى أوّل [سورة المجادلة] وجب أن نحصر الكلام الآن فى الرحمات العشرين المذكورات فى السور العشر التى تليها من أوّل [سورة القلم] إلى [سورة المرسلات] فنقول :

إنّ الرحمات فى هذه السور موجهات إلى تخلية الأمم من الرذائل وتحليتها بالفضائل ، ألاترى أن العذاب الشديد والانذار للناس فى هذه السور يقصد به الاقلاع عن الآراء الشريرة ، والأعمال الخبيثة ، فلذلك تجد هذه السور مشحونة بالكلام على إهلاك الأمم فى الحياة الدنيا ، وعلى عذاب الآخرة ، فهمنا وجهت الرحمات إلى الانذار وبه يتخلى الناس عن رذائلهم ، فلاتحلية بالفضائل إلا بعد التخلية من الرذائل ، فأما التحلية بالفضائل فذلك ما جاء فى غضون هذه السور من أخلاق نوح وصبره على قومه سنين وسنين ، وما أبدع فى الدعوة من شرح العوالم العلوية والسفلية ، فهذه فضائل فى الأنبياء تحلوا بها ، وهكذا نبينا صلى الله عليه وسلم الذى نودى مرّة بصفة المدّثر فى ثيابه والمزمّل ، فهذه نفوس كاملة تحلت بصفات الجمال وناجت ربها فى دياجى الظلمات ، وعرفت أخبار الأرواح الناقصة المسميات بالجنّ تريد تكميلها كما عرفت النفوس الكاملة فى ذاتها اللاتى هى ملقيات ذكرا ، فهذه النفوس الكاملة القائمة بذلك ذكرت فى مقابلة الناقصة المتردّية فى هاوية الهلاك ، وهؤلاء الكاملون يدعون الناقصين ليلحقوا بهم فى الكمال ، وهناك نفوس متوسطة ، وهى النفوس اللوّامة ، ولكن لها فضلها فى الجهاد ، وهناك نفوس أخرى كملت أخلاقها فقيل

لها : « يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شرّه مستطيرا » ، وهناك نفوس مفارقة للمادّة ، وهى التى عبر عنها بالملقيات ذكرا للاعذار وللانذار ، فهذه مجامع ما فى هذه السور من الرحمات ، إن الانذار بالإهلاك والتدمير والعذاب الأليم رحمة ليتخلى الانسان بذلك عن الرذائل خوفا من نتائجها ، وهكذا معرفة أخلاق النفوس الكاملة (المتوجهة لربها فى ظلمات الليالى ، وهى تدعوه وتناجيه وتسهرعلى إسعاد غيرها) تدعو حثيثا إلى الاقتداء بها ، فتتوجه لخالقها ، وتدعوه ليساعدها فى ارتقائها وفى انتشال غيرها من أوحال المادّة ورذائل الأخلاق .

هذه مجمل الرحمات فى هذه السور إلى آخر [سورة المرسلات] فلنبدأ فى تفصيلها سورة سورة فنقول ومن الله التوفيق :

الرحمات فى سورة القلم

أقسم الله فيها بالقلم دلالة على شريف منزلته وعظيم قدره ، إن رحمة الله بالأقلام وفنّ الكتابة ونشر الصحف واتساع نطاق المعارف رحمة عامة تضاهى فى عمومها اشراق الكواكب والشموس واضاءتها الأرجاء ، واذا أقسم الله بالقلم فقد أقسم بالشمس وبالقمر وبالنجم ، ولكن نعمة القلم أعلى منزلة وأشرف وأكمل ، ألاترى رعاك الله أن العلم هو وحده الذى يرفع الأرواح إلى العلى ، بالعلم الهداية ورقىّ النفس إلى الكمال ، وبدون العلم الذى لاقيام له إلا بدولة القلم والانشاء لا كمال لهذه النفوس ، تلك النفوس التى أنزلت إلى الأرض وعاشت بالأضواء المشرقة من الشمس والقمروالكواكب ، فالكواكب السماوية المشرقات على الأرض كأنهنّ أظآرير بين النفوس الانسانية تربية أوّلية ، ولكن نفوس الأنبياء والأقلام التى تكتب مايقولون ، والأقاويل الحسنة هى المكملات لهذه النفوس ، فالكواكب والأقمار والنجوم مقدّمات ، والأنبياء والعلماء نهايات ، جلّ الله وجلّ العلم ، سيأتى القسم بالشمس ، وتقدّم القسم بالنجم وبالقمر ، والقسم بالقلم جاء فى الوسط بينهما ، إن أمة الاسلام وان كانت اليوم ضعيفة القوّة ، فهى هى الأمة التى كانت سببا فى انتشار التعليم بين الأمم كلها فى أوروبا وفى الشرق الأقصى ، العلم قد ملأ الأقطار ، ولكنه فى القرون الماضية قد تخطى أمة الاسلام ، وأحاط بها من الشرق والغرب ، كأنه يقال لهم : أيتها الأمم الاسلامية : أقسم ربكم بالقلم ، وبالقلم علمتم الأمم ، وبالقلم تعلمت الأمم ، إن هذه الأمة اليوم أخذت تتعلم وستقود الأمم إلى الفلاح ، لأنها أمة وسط ، وهم شهداء على الناس ، ولن يكونوا شهداء على الناس بحق وصدق إلا بتعميم العلم الذى أقسم الله بالقلم الذى يسطره ، إن رحمة الله عزّوجل قد ظهرت نتائجها التى لاحصر لها فى نشر العلم فى العالم كله بالقلم بعد الرسالة المحمدية التى كانت سببا فى بثّ هذه الروح فى الأمم ، وأىّ رحمة أعظم من هذه ! وهى التى لارحمة توازيها فى كوكب ولاشمس ولاقمر وقد ظهرت على يديه صلى الله عليه وسلم ، والأجر سيكون على مقدار ذلك الانتشار ، فانّ نعيم الانسان على مقدار آثاره بين الأمم ، وهل يكون الفضل منتشرا لامرئ إلا على مقدار ماله من الفضائل ! رحمة عامّة بالعرفان ، ناجمة من الاتصاف بأخلاق حسان ، فهل صاحب هذه الفضائل والعوارف ينسب له الجنون ! كلا . بل انه جاء ليكمل النفوس الناقصة اللاتى لاتعرف إلا المداهنة ورذائل الأخلاق ، ولذلك أمر بالصبر على تكذيب المكذبين ، وحكم عليه ألايقف فى الفضائل دون الغايات ، فاذا رأى نبيا من الأنبياء كيونس عليه السلام الذى لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم فاجتباه ربه فجعله من الصالحين ، فانه يصدع بما أمر به ويصبرلحكم ربه ولا يكون كصاحب الحوت إذ نادى وهومكظوم ، إذن رحمة الله تعالى تجلت واضحة لرسوله صلى الله عليه وسلم فى أخلاقه وعوارفه ، فهو صبور كما أمره الله . ومن الرحمات فى هذه السورة تبيان نتائج البخل الحاصل من أصحاب القرية ، وكيف كان هذا

الشح

الشح سببا فى إبادتها واهلاكها ، وكيف كانت التوبة عليهم نعمة وفيها بيان الفرق بين المتقين والمجرمين اهـ

[سورة الحاقة] — إن سورة الحاقة أشبه بتفصيل لما أجمل فى [سورة القلم] فالرحمات فيها مفصلة لبعض ما أجمل فى تلك ، ففى سورة القلم جعل الناس فريقين : فريق مجرمون ، وفريق مسلمون ، ولكل جزاؤه ، وفيها أصحاب الجنة وأشحاؤها الذين لا يراعون الاخوة العامة ، وانما يريدون اتباع شح نفوسهم ، فهؤلاء ذاقوا عذاب الدنيا بابادة أشجارها وأثمارها ، ولهذه المناسبة ذكر عذاب الآخرة وانه أكبر ، فههنا جاء ذكر العذابين ، فثمود وعاد وفرعون وقوم نوح هلكوا ، وسيهلك العالم كله يوم القيامة ، فههنا تفصيل أتم للهلاك ، ففى سورة القلم هلكت جنة بشح أهلها ، وههنا ذكر هلاك أمم بل زوال الأرض وما عليها ، وتبع هذا ذكر ما سيلاقيه الفريقان من عيشة راضية وعيشة ليس فيها طعام إلا من غسلين ، كل هذا من الرحمات الواسعة ، فذكر العذاب فى الدارين يوجه النفوس إلى الأعمال الشريفة التى تؤدى إلى النعيم .

[سورة المعارج] — ويقرب من ذلك وصف أوسع فى [سورة المعارج] ، أفلا تعجب معى كيف أبان سبب ذلك كله . الله أكبر : إن الجنة والنار خلقتا لأجل هذه النفوس ، هذه النفوس المسكينة المخلوقة فى أرضنا المحبوسة فيها قد جعلت بهيئة محزنة ، كيف لا وهى التى اذا مسها الشر جزعت ، واذا مسها الخير منعت ، هذا هو السر الأكبر فى هذا الانسان ، الانسان فى عمومه أشبه بالطفل يبكى لأدنى شىء ، واذا أعطى المال بخل به كأنه يظن أنه مخلوق وحده والناس مسخرون جميعا له وقد عمى عن هذا الجمال الرائع فى السموات والأرض والأنهار ، والجمال الذى به ينتفع البار والفاجر ، جهل هذا الانسان المسكين أنه يشترك مع جميع نوع الانسان فى المنافع ، فاذا لم يفكر إلا فى نفسه ، فهذا هو المبدأ الأول لاذلاله وشقائه ، فأصحاب الجنة بادت أشجارهم فيها ، لأنهم لم يفكروا فى غيرهم من الناس ، فهذا أشبه بذكر السبب الذى به عوقبوا بذلك ، لأنهم منعوا الخير عن الناس ﴿ وبعبارة أخرى ﴾ ان الانسان خلق ليعلم ويعمل ، ومن أجل الأعمال اتجاه النفس للمنفعة العامة عموم الأنوار وعموم المنافع القلمية العلمية بين الأمم ، ومن أجل الرحمات فى هذه السورة تلك الصفات الشريفة التى بها يصقل الانسان نفسه فتضىء وتشرق بعد اظلامها بحب النفس ، ﴿ وبعبارة أخرى أيضا ﴾ ان النفس فى أول أمرها تميل إلى أن تختص بكل نعمة ولا تفكر فى غيرها كما قدمنا ، وعليها وحدها باغاثة الله لها أن تصقل بصقال الكمال فتصير مهذبة ، وذلك بالعبادات وانفاق المال فى وجوهه ، فتكون للانسان فى حياته وجهات ثلاث : وجهة إلى نفسه يكملها ، ووجهة إلى ربه ليعبده ، ووجهة إلى الناس فيكون نافعا لهم . فأما تكميل نفسه فذلك بالأخلاق الفاضلة كحفظ الأمانة ، والصدق فى الوعد والعهد ، واليه الاشارة بقوله : « والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون » . وأما توجهه إلى ربه فذلك بنحو الصلوات ، واليه الاشارة بقوله : « إلا المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون » . وأما وجهته إلى الناس ، فذلك أنه يمد يد المساعدة لهم ، وإليه الاشارة بقوله : « والذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم » إذن أعظم أسرار هذه السورة أنها كشفت القناع عن سر الأسرار ، وهو هذه النفس ، وأبانت أنها ناقصة ، ولن يخرجها من هذا النقص إلا تهذيبها باجتهاد الانسان وجده هو بنفسه والمثابرة على الصبر على الأعمال الشريفة وعن الشهوات ، وذلك تفصيل لما أجمل فى آخر [سورة القلم] من قوله تعالى : « فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم » والحياة لا كمال فيها إلا بالصبر ، ومن الصبر ما أسبغ عليه صلى الله عليه وسلم إذ كان الذين كفروا عن يمين وشمال يؤذونه فصبر ففاز ، هكذا كل امرىء فى الدنيا لا سعادة ولا فوز له إلا بالصبر على تحمل المشاق فى أمر تهذيب نفسه وتكميل غيره ، هذا من أسرار تسمية هذه السورة بالمعارج ، إذ لا عروج ولا صعود إلا باستخراج ما كمن فى النفوس من الكمال والجمال ولن يتم ذلك إلا بصفائها من الأدران والأخلاق الناقصة ، فهى إنما تعرج من حال نقصها المعبر عنه بقوله

تعالى : « إنّ الانسان خلق هلوعا » إلى كمالها بالآداب التي شرحناها هنا ، وهي مأخوذة من آيات السورة .

[سورة نوح] — ويتلو ذلك في وضوح الرحمة انذار نوح عليه السلام لقومه ، وكيف هلكوا بعد أن أنذرهم فلم يسمعوا ، ولكن في هذه السورة اتضح جمال النفوس وبهاؤها ، ففي التي قبلها شرح الله كيف يكون معراج النفس من خستها ، وفي هذه السورة أبان كيف تلبس تاج العرفان . وكمال الانسان كمالان : كمال علمي ، وكمال أدبي ، فالكمال الأدبي تقدّم في السورة قبلها إذ يصف قوما بأنهم ينفقون من أموالهم ، وبأنهم حافظون فروجهم الخ ، وههنا ذكر الكمال العلمي بطريق شيق ، إذ ذكر خلق السموات وانارة القمر فيها ، واشراق الشمس ، وذكر النبات بعد أن ذكر التوبة والاستغفار ، فهو لم يطل القول في الكمال الأدبي لأنه تقدّم في السورة قبلها ، ولكنه فصل القول تفصيلا في الكمال العلمي الذي لاتمام له ولا كمال إلا باستيفاء الكمال الأدبي أوّلا ، ولذلك عوقب القوم أشدّ عقاب : هلاك في الدنيا وعذاب في الآخرة ، لماذا ذلك ؟ لأنهم أعطوا علما جما فأعرضوا عنه .

[سورة الجنّ] — طال القول في هذه السور في الكفر والايمان ، والمعاصي والطاعات ، والنعيم والعقاب يفصل بعضه بعضا ، ويتبع بعضه بعضا ، ولكن بقيت هناك نقطة لابدّ من تفصيلها ، وهي قوله تعالى : « ماترى في خلق الرحمن من تفاوت » ، فالعالم متشابه ، فهذه الأرض التي نسكنها ظهر اليوم أن العناصر فيها هي أنفسها من عناصر الشمس ، واستبان أيضا بالكشف الحديث أن أشعة المعادن في الأرض مثلا كأشعة العناصر التي في الشمس ، فهذه العوالم من هذه الجهة لاتفاوت فيها ، واذا كان ذلك كذلك في العالم المادّى فهكذا يرى العالم الروحي ، فاذا كان في عالم الانسان وهو العالم العاقل المنظور فيه مسلمون وفيه مجرمون ، هكذا في عالم الجنّ العاقل الذي لانراه مسلمون ومجرمون ، فاذا كان هناك تشابه بين عناصر الأرض والشمس في العالم المادّى ، فهكذا هناك تشابه بين عالم الجنّ وعالم الانسان باعتبار أن الجميع من العالم الذي يحس ويعقل ، وهذه الدرجات المختلفات في نوع الانسان يرى نظيرها في عالم الجنّ الذي لانراه ، وهذا كله طبعا سمعي لادخل للعقل فيه ، ولذلك جاء في هذه السورة بطريق الوحي ، فكأن السور السابقة على هذه السورة كانت أقرب إلى عالم الشهادة ، وهذه السورة صارت أقرب إلى عالم الغيب الذي جاء به الوحي . ولما وصلت الحال إلى ذلك العالم الغائب عنا وجاء فيه ذكر الوحي ناسب أن يشرح كيف كان بدء ذلك الوحي فأتى بسورتي :

[المزمّل والمدّثر] — وفيهما صفتان عامّتان : صفة الاشراق في النفس ، وصفة هداية النفوس الأخرى ، فأما اشراق النفس فلن يكون إلا بالتهجد وقيام الليل ، لأنّ الروح لاتقوى على تحمل المشاق إلا باشراقها ، والقيام بالليل معين لها على ذلك ، لأن الانسان إذ ذاك يخاطب ربه كأنه يراه ، وهذه ترفع النفس عن هذا العالم المادّى ، فاذا كملت بذلك رفعت إلى درجة أعلى ، وذلك بأنها تفيض النور على غيرها ، وأوّل الأمرين واضح في سورة المزمّل ، وثانيهما واضح في سورة المدّثر ، ففي أولاهما تكميل النفس ، وفي ثانيتهما تكميلها لغيرها ، والثاني مرتب على الأوّل ، ولذلك جاء بعده :

[سورة القيامة] — ولما كانت النفس الكاملة في نفسها تكمل غيرها (والكمال على قسمين : كمال مبدئي ، وكمال نهائي ، فالكمال المبدئي أن تصير النفس لوّامة تجاهد للكمال ، والكمال النهائي أن تكون النفس كاملة ، وان لم تصل لدرجة من علمها) جيء بسورة القيامة أوّلا وفيها ذكر النفس اللوّامة ، وأتبعت بسورة [الانسان] وفيها ذكر النفس الكاملة التي وان كانت مخلوقة من أمشاج وابتليت بأنواع من المحن فانها فازت ونجت ، وصارت من الأبرار ، وشربت من كأس كان مزاجها كافورا ، وصارت نفسا مطمئنة تعطي لا لجزاء ولا لشكور .

سورة

[سورة المرسلات] وهذه النفوس المتقدّمة نهاية سعادتها أن تكون فى حبور تتلقى الأمر والنهى عن الله نفسه فى العالم الثانى كما يتلقى الملائكة الكرام المذكورون فى أوّل [سورة المرسلات] عند آية « فالملقيات ذكرا » ويتخلل ذلك الانذار والتبشير ، وذكر العذاب والنعيم .

هذا مجمل الرحمات فى هذه السور العشر من [سورة القلم] إلى [سورة المرسلات] وانما فعلنا ذلك هنا مخافة التطويل ، لأن الرحمة تقدّم الكلام عليها كثيرا فى هذا التفسير ، والرحمة لاحدّ لها ولا حجر عليها ، ولنشرع الآن فى تفسير السورة فنقول ومن الله التوفيق :

التفسير اللفظى

بسم الله الرحمن الرحيم

(تبارك الذى بيده الملك) فله الأمر والنهى والسلطان ، فيعزّ من يشاء ويذلّ من يشاء (وهو على كل شىء قدير) من الممكنات ، ومن ذلك الانعام والانتقام (الذى خلق الموت والحياة) قدرهما (ليبلوكم) ليعاملكم معاملة المختبرين أيها المكلفون (أيكم أحسن عملا) أصوبه وأخلصه ، وأحسن عقلا ، وأورع عن محارم الله ، وأسرع فى طاعته (وهو العزيز) الغالب المنتقم ممن عصاه (الغفور) لمن تاب إليه (الذى خلق سبع سموات طباقا) طبقا على طبق بعضها فوق بعض ، يقال : طابقت النعل اذا خصفتها طبقا على طبق ، فهو من باب الوصف بالمصدر ، والكلام على السموات وتحقيقها وكونها سبعا قد سبق فى سورة البقرة فلا نعيده (ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت) وقرئ : من تفوت ، كالتعهد والتعاهد وهو الاختلاف وعدم التناسب ، فان كلا من المتفاوتين فات عنه بعض مافى الآخر ، والجملة صفة ثانية لسبع ، وضع فيها خلق الرحمن موضع الضمير للاشعار بأنه يخلق ذلك بقدرته الباهرة رحمة وتفضلا ، وأن الرحمة عامّة فى هذه العوالم (فارجع البصر هل ترى من فطور) الفطور الشقوق ، والمقصود منها الخلل من فطره اذا شقه فكأنّ المختل فى نظامه مشقوق متباعد كل شق منه عن الآخر (ثم ارجع البصر كرّتين) رجعتين أخريين فى ارتياد الخلل : أى ارجع البصر مرارا كثيرة كما فى لبيك وسعديك ان أرجعت البصر تطلب أن ترى ذلك الخلل (ينقلب) ينصرف (إليك البصر خاسئا) صاغرا ذليلا مبعدا لم يرما يهوى من الخلل كأنه طرد عنه طردا (وهو حسير) كليل منقطع لم يدرك ما طلب من أن يرى خللا فى النظام ، ثم أعقبه بذكر بعض مايرى من النظام المشاهد وجماله لتكون زينته وحسنه دليلا على جمال مارواه من حسن النظام والاتقان والاحكام فقال (ولقد زينا السماء الدنيا) القربى من الأرض ، وهى التى يراها الناس (بمصابيح) كواكب مضيئة بالليل ، فكما زين الناس منازلهم ومساجدهم بمصابيح ، وهى السرج التى يوقدونها فيها هكذا زين الله سمواته بمصابيح ، ولكن لانسبة بينها وبين مصابيحكم ، والتعبير بمصابيح لينبه الناس إلى المقايسة والموازنة بين السرج والكواكب التى سماها بأسماء السرج فى البيوت ليلاحظوا الفرق بين النظامين نظام منازلنا ونظام السموات العام ، فاذا كان الناس ينظمون منازلهم وينتهى نظامها بالسرج ، هكذا نظم الله السموات وزينها بالكواكب والنسبة بين نظامنا ونظامه كالنسبة بين سرجنا فى البيوت وبين الكواكب فليس رجع البصر كرّتين يجعله ينقلب مقطوعا عن أن يرى خللا فى النظام فحسب بل الأمر أعظم ، إن النظام يفوق جماله الحصر ، وأى نسبة بين سرج الناس وسرج الله ، فأرضنا بالنسبة لبعض الكواكب لاقدر لها فضلا عن جبالها وعن السرج فى البيوت ، فكأن قوله : « الذى خلق سبع سموات طباقا » انتقال من الكلام عن اليأس من رؤية الخلل إلى القول بأن النظام لاحدّ لنهايته ، فهو تنزيه فى الوصف ، يقول أوّلا ان النظام لاخلل فيه ، ثم يقول بل

الأمر أعظم من ذلك ، وضرب مثلا بالسراج وبالكوكب ، كل هذه المعانى تؤخذ من التعبير بلفظ مصابيح ، ولعمرى من هـذا تشم بلاغة القرآن ، وبهذا فاتعرف ، عبر بالمصابيح مشيرا إلى عدم تناهى الحسن ودقة النظام ، وليس عند نوع الانسان من قوّة يدرك بها علوّ النظام وغاية الاتقان أكثر من التعبير بمصابيح ، وقوله (وجعلناها رجوما للشياطين وأعتدنا لهم عذاب السعير) إتمام للكلام على النظام ، يقول : إنّ النظام المتناهى فى الحسن لايتمّ إلا بجمع الأضداد بحيث لا يكون أحد الضدين بدون الآخر ، فهذه المصابيح التى زينا بها السماء لاتقف عند الزينة بل بأضواء الكواكب والشموس يكون مافى الأرض من رزق وحياة وموت تبعا للناموس الذى سنناه ، والقدر الذى أمضيناه ، فيكون فى العالم الانسانى وعالم الأرواح التى فارقت أجسادها نفوس تتقاذفها الأهواء فى عالم المادّة ، وتصطهر بأنواع الذنوب والشهوات فى الدنيا ، وتقتحم مانهينا عنه بحيث تفتنها الشهوات . وتجذبها اللذات التى نجمت من العناصر المتفاعلة بسبب الأضواء المشعة النازلة من عالم الكواكب المشرقة فى السماء التى هى زينتها ، فهى كما كانت زينة السماء ، وأسبابا لرزق ذوى الصلاح والأنبياء والعلماء والحكماء ، هكذا هى سبب لتكون الأرزاق المهيجة لشهوات شياطين الإنس وشياطين الجنّ وهذا العالم قد اختلط فيه الضرّ بالنفع بحسب مايظهر ، وخلق كل على حسب ما استعدّ له ، فالنفوس التى هى مستعدّة للفضائل والنفوس الشريرة كلاهما استمدّ من هـذه المادّة المسخرة المقهورة بالقدرة التى أضاءت الكواكب فأشرقت عليها وبها تكوّنت صور الحيوانات والنباتات ، فاذن النجوم صارت سببا لعذاب النفوس الخبيثة بما سببت لها بأمر الله غذاءها وشهواتها ، ومن ذلك أن المنجمين تكون لهم فيها رجوم وظنون ، فهم أيضا من شياطين الانس ، فالعصاة شياطين ، والمنجمون شياطين ، والمعاندون الجاحدون شياطين ، كل هؤلاء استمدّوا شيطنتهم من مظاهر الطبيعة المصوّرة بواسطة الحرارة والضوء من الكواكب ، وهذا معنى قوله : « وأعتدنا لهم عذاب السعير » أى فى الآخرة ، فمن كان محترق القلب باللذات فى الدنيا وانجذب إلى الشهوات وقالت له نفسه هل من مزيد منها ، وغفل عن جمال هذه العوالم ، ولم يعرف من هذه العوالم إلا شهواته ، أما عقله فانه قد حجب عن الجمال والكمال ، فهذا هوالذى هيئ له عذاب السعير على مثال ماعوّد نفسه فى الدنيا ، إن الجمال فى العالم الذى لاحدّ له المندمج فى ذكر مصابيح لاتعرفه النفوس المحجوبة ، إن السماء قد أضاءت على البرّ والفاجر ، فالفجار حصرت نفوسهم فى شهواتهم فلم ينظروا إلى السماء فوقهم نظر فكر وعقل ، وكأنه قيل : ارجع البصر يامحمد هل ترى من اختلاف فى طراز هذا العالم ، بل ليس لهذا النظام نهاية فى الحسن ، ولكن ليس يعقل هذا إلا نفوس شريفة لم تنحصر فى شهواتها ، بل كان لها إدراك يفوق غيرها من الناس ، فأما الشياطين وهى النفوس الناقصة فليس لها حظ من الحياة إلا مابه قوام الجسم ، وكما أن أنوار الشمس فيها حرارة وضوء ، وبالحرارة تكون الحياة ، وبالضوء تكون الهداية ، هكذا النفوس الناقصة لم تأخذ من آثار الكواكب والشموس إلا مابه الحياة الناتجة من آثار الحرارة ، أماهداية العاقلة التى ترسمها الأضواء للأبصار وتتلقاها البصائر بالبحث والتنقيب ، فهؤلاء الشياطين مبعدون عنها ، وهؤلاء هم الذين أعددنا لهم عذاب السعير فى الآخرة لأنا نضع كل شيء فى موضعه فندخلهم فيما يشا كل حالهم فى الدنيا وهم كانوا محبوسين فى نيران الغضب ، ونيران الحرص ، ونيران البخل ، ونيران الحقد ، ونيران الطمع وهكذا ، فهذه النيران كلها تطلع على القلوب بعد الموت ويوم القيامة ، ثم تصير نارا مشاهدة يراها كل امرئ ملازمة : « إنّ عذابها كان غراما » .

ولما كان الكفار من شياطين الانسان أوتلاميذهم الذين يصغون لوسوستهم أعقبه بقوله : (وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير ، إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقا) صوتا كصوت الحمير (وهى تفور)

تغلى

تغلى بهم غليان المرجل بما فيه (تكاد تميز من الغيظ) تتفرق غضبا عليهم ؛ وهذا من باب الاستعارة التمثيلية بمثل شدة اشتعالها بهم (كلما ألقى فيها فوج) جماعة من الكفرة (سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير) يخوفكم هذا العذاب ، وهذا سؤال توبيخ (قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا مانزّل الله من شيء إن أنتم إلا فى ضلال كبير) والمعنى أفرطنا فى التكذيب (وقالوا لوكنا نسمع) كلام الرسل فنتقبله اعتمادا على مالاح من معجزاتهم (أونعقل) فنتفكر فى حكمه ومعانيه ،ستبصرين حتى نوقن بقولنا (ما كنا فى أصحاب السعير) فى عدادهم (فاعترفوا بذنبهم) حين لاينفعهم ، والاعتراف اقرار عن معرفة (فسحقا لأصحاب السعير) أى بعدا : أى أبعدهم الله من رحمته (إنّ الذين يخشون ربهم بالغيب) يخافون عذابه حال كونه غائبا عنه لم يعاينوه بعد ، أوحال كونهم هم غائبين عنه (لهم مغفرة) لذنوبهم (وأجر كبير) فلانسبة بينه و بين لذات الدنيا ، ثم أخذ يشرح عموم علم الله بالغيب والشهادة لمناسبة قوله « يخشون ربهم بالغيب » (وأسرّوا قولكم أواجهروا به إنه عليم بذات الصدور) أى بالضمائر قبل أن يعبر عنها سرا أوجهرا (ألا يعلم من خلق) ألايعلم السرّ والجهر من أوجد الأشياء على مقتضى علمه وحكمته ، وكيف يخلقها وهو لايعلمها ؟ (وهو اللطيف) باستخراج مافى الصدور (الخبير) بما فيها من السرّ والوسوسة ، فهو حقيق إذن أن يخشى بالغيب ، فكأنّ هذه الآيات لتبيان أن خشية الله بالغيب واجبة (هوالذى جعل لكم الأرض ذلولا) لينة سهلة ليسهل لكم السلوك فيها ولايمتنع المشى فيها لحزونتها وغلظها وخلق فيها أنواع المعادن والحجارة والطين وسائر الموادّ التى تصلح للأنواع المختلفة من الصناعات والأعمال ، فمن طين خاص للأوانى إلى حجارة مختلفة للبناء ، إلى جبال طلقة الهواء ، وأخرى مكسوّة بالأشجار ، إلى أرض صالحة للزرع ، إلى أخرى لاتصلح ولكن تستخرج منها المعادن ، إلى صحارى واسعة وفيافى قاحلة كالتى بين مصر وطرابلس ، يقلّ فيها الماء لتصعب سكناها لتكون فاصلة بين الممالك ، ليقلّ تحرّش بعضها ببعض ، ولينظف فيها الهواء من العفونات و يلطف و يكون بمثابة مرشح الماء ليصلح للشرب إلى جهات ناجية فى القطبين تبقى مئات الألوف أوعشراتها لتستريح من الأعمال النباتية والحيوانية حتى اذا جاء أجلها أديرت الأرض دورة بحادث فجائى فصار القطب خط استواء و بالعكس و يبتدئ دورالعمل ، والدليل على ذلك أن جهة القطبين قد وجد بالقرب منها فيلة عظيمة مطمورة فى باطن الأرض مما دلّ على أن هذه الجهات كانت خط استواء فانقلبت فجأة إلى قطبين ، فالأرض مذللة لنا وفيها مالايحصى من المنافع فلذلك أعقبه بقوله (فامشوا فى مناكبها) فى جوانبها مشيا عقليا ومشيا عمليا ، فالعقلى بالاستدلال و بالبحث فى منافعها ، والعملى باستخراج مافيها من المنافع والمعادن (وكلوا من رزقه) والتمسوا من نعم الله (و إليه النشور) المرجع فيسألكم هل شكرتم نعمه ؟ هل قبلتموها وانتفعتم بها حتى تؤدّوا شكره ؟ .

ولما ذكر نعمه أخذ يحذر من عقوبته فقال : (أأمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض فاذا هى تمور) أى أأمنتم الله الذى هو فى السموات وفى الأرض يعلم سركم وجهركم : أى أأمنتم خسفه بكم الأرض كما خسف بقارون فاذا هى تضطرب أى تحرّك الأرض عند الخسف بكم حتى يقلبكم إلى أسفل وتعلو الأرض عليكم وتمورفوقكم وتجىء وتذهب (أم أمنتم من فى السماء أن يرسل عليكم حاصبا) أى ريحا ذات حجارة صغار كما فعل بقوم لوط (فستعلمون كيف نذير) كيف انذارى اذا شاهدتم المنذر به ولكن لاينفعكم العلم حينئذ ، وكيف يأمنون من فى السماء أن يصبّ عليهم العذاب من فوقهم ومن تحتهم ، وقد ذلل لهم الأرض وزين لهم السماء بمصابيح ، فاذا لم يشكروا النعمة بالبحث فيهما والانتفاع والتفكر فهو حرىّ أن يقلب النعمة نقمة ، فاذا زين السماء وذلل الأرض فهو قادر أن يجعل المزين والمذلل للتعذيب لا للانعام اذا لم يكن للنعمة موضع ، وكيف يأمنون ذلك وقد حصل لمن قبلهم من الأمم (ولقد كذب الذين من قبلهم فكيف

كان نكير) أى انكارى عليهم بانزال العذاب تارة من تحتهم وتارة من فوقهم ، إن الله كما ذلل الأرض وزين السموات لم يذر مابينهما بلا نظام ورحمة (أولم يروا إلى الطير فوقهم) فى الهواء (صافات) باسطات أجنحتهنّ فى الجوّ عند طيرانها (ويقبضن) أى ويضممنها اذا ضربن بها جنوبهنّ وقتا بعد وقت للاستظهار بذلك القبض على التحريك ، والمعنى ويصففن ويقبضن ، وذلك أن الطير فى أكثر الأوقات يكون صافا أجنحته ، ثم هو يقبضها وقتا بعد وقت ، فالبسط هو الأصل ، والقبض يكون آنا فآنا (مايمسكهنّ) فى الجوّ حال القبض والبسط وهنّ أجسام كثيفة من طبعها أن تقع على الأرض بالجاذبية (إلا الرحمن) الذى خلقهنّ على شكل خاص أدهش علماء العصر الحاضر حينما شرعوا فى فنّ الطيران فأدركوا بعض تلك الحكم التى قاومت طبع الجاذبية وجعلت الهواء مسرحا للطير كما تسرح الأنعام فى البرية ، إن هذه الخلقة دقيقة الصنع حتى ان الطائر فى خلقه مختصر من الأنعام فوق الأرض ، فلكل عضو كثيف فى الأنعام عضو يقابله فى الطير غاية فى الخفة أو الصغر أو اللطف ، فكيف ترى الجناحين قد خفّ حملهما وقد كسيا بالريش الخفيف المكوّن من أنابيب مجوّفة وشعرات حريرية ، وجعل لها المنقار مدببا كيلا تصادم الهواء فى طيرانها فيعيق جريها بخلاف ذوات الأربع فانّ وجوهها عريضة وأرجلها المقدّمة القائمة مقام الجناحين ثقيلة منتهية بما تعتمد عليه عند سيرها فى الأرض من حافر أو خف أو ظلف ، لذلك أعقبه بقوله (إنه بكل شىء بصير) أى يعلم كيف يخلق الغرائب ويدبر العجائب ، واذا كانت هذه بعض العجائب التى أبرزناها والحكم التى أظهرناها فهل أمنتم أن ندبر بحكمتنا عذابا نصبه عليكم صبا ، فنحن نغير النظم بحكمتنا ، فقد أبدعنا الطيور فى الجوّ فقويت على مغالبة ثقلها فلم تسقط على الأرض ، هكذا نحن نقدر أن نغير حالكم ونهلككم بقدرتنا وحكمتنا فمن ذا الذى ينصركم منا ؟ ألكم جنود يمنعونكم من عذابنا وقد رأيتم سطوتنا و بطشنا ؟ (أمّن هذا الذى هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن إن الكافرون إلا فى غرور) لامعتمد لهم ، وعبر بلفظ الرحمن فى مقام العذاب اشعارا بأنه برحمته أبقى الناس فى الأرض مع ظلمهم وجهالتهم ، لأن رحمته وسعت كل شىء ، وسعت البارّ والفاجر ، والطير فى السماء ، والأنعام على الأرض (أمّن هذا الذى يرزقكم إن أمسك رزقه) أم من يشار إليه ويقال هذا الذى يرزقكم ان منع المطر عنكم أو أوقف الهواء فلم تجر الرياح ، أو جعل ماء البحر غورا ، ومحصل ذلك أنكم لاجند لكم ينصرونكم إن عذبكم ، ولا رازق يرزقكم ان حرمكم ، فلما لم يتعظوا أضرب عن ذلك وقال (بل لجوا) تمادوا (فى عتوّ ونفور) فى عناد وشراد عن الحقّ (أفمن يمشى مكبا على وجهه أهدى أمّن يمشى سويا على صراط مستقيم) يقال كببته فأكبّ : أى أمن يمشى وهو يتعثر كل ساعة ويخرّ على وجهه لوعوث طريقه واختلاف أجزائه أهدى أمّن يمشى قويا سالما من العثار على طريق مستوى الأجزاء والجهة ، فالمكبّ على وجهه مثل المشرك ، والذى على صراط مستقيم مثل الموحد ، وهذا المكبّ على وجهه هو الذى يحشر على وجهه فى النار يوم القيامة ، ومن يمشى سويا الآن بالتوحيد هو الذى يحشر على قدميه إلى الجنة .

ولما ذكر فيما تقدّم زينة السماء وتذليل الأرض وامساك الطير فى الهواء أخذ هنا يذكر ماهو أقرب إلينا وهو خلق أنفسنا فقال : (قل هو الذى أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار) لتسمعوا المواعظ ولتنظروا صنائعه فتبتهجوا بزينة السماء بالكواكب وتسخير الأرض وتذليلها ، وتعقلوا كيف أمسك الطير فى جوّ السماء (والأفئدة) لتتفكروا فيما ذكر وتعتبروا وتستفيدوا فوائد مادّية وأخرى عقلية (قليلا ماتشكرون) باستعمالها ، ثم لخص هذا كله فقال : (قل هو الذى ذرأكم فى الأرض) فقوله «ذرأكم» أى خلقكم يشمل السمع والبصر والعقل ومنافع الأعضاء ، وقوله «فى الأرض» يشمل جميع المنافع المذكورة من

تذليلها وتسهيلها واشراق الكواكب عليها الخ ومافوقها من طيور فى الجو ، وقوله (وإليه تحشرون) أى للحساب ، هل شكرتم هذه النعم ؟ هل فكرتم فيها ؟ هل عقلتم ذلك ؟ .

ولما أتم الكلام على النعم والحساب عليها أخذ يذكر المنكرين لتلك النتيجة الغائبة عنا ، وهى الحشر والعقاب فقال : (ويقولون متى هذا الوعد) أى الحشر وما يتقدمه من الخسف فى الدنيا وارسال الحاصب (إن كنتم صادقين) أيها النبى والمؤمنون (قل إنما العلم عند الله) أى علم وقته (وإنما أنا نذير مبين) أبين لكم الشرائع (فلما رأوه) أى العذاب الموعود (زلفة) أى حال كونه قريبا منهم (سيئت وجوه الذين كفروا) أى ساءت رؤية الوعد وجوههم بأن علتها الكآبة والمساءة ، وغشيتها القترة والسواد (وقيل هذا الذى كنتم به تدعون) أى وقال الزبانية هذا الذى كنتم تسألون تعجيله وتقولون ائتنا بما تعدنا استهزاء فقوله « تدعون » على هذا من الدعاء لا من الدعوى فهو على وزن تفتعلون (قل أرأيتم ان أهلكنى الله) أماتنى (ومن معى) من المؤمنين (أو رحمنا) بتأخير آجالنا (فمن يجير الكافرين من عذاب أليم) وهذا القول لمشركى مكة الذين كانوا يتمنون هلاكه صلى الله عليه وسلم ومن معه ، يقول : إن هلكنا أو رحمنا فلا مجير لكم من العذاب ، وقد فسرها ابن عباس بما يأتى :

« أرأيتم ان أهلكنى الله » أى فعذبنى « ومن معى أو رحمنا » أى فغفرلنا فنحن مع إيماننا خائفون أن يهلكنا بذنوبنا ، لأن حكمه نافذ فينا ، فمن يجيركم أو يمنعكم من عذاب أليم وأنتم كافرون ؟ اه

ثم قال (قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا فستعلمون من هو فى ضلال مبين) منا ومنكم (قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا) غائرا فى الأرض بحيث لاتناله الدلاء (فمن يأتيكم بماء معين) جار أوظاهر سهل المأخذ : أى أخبرونى ان صار ماؤكم ذاهبا فى الأرض فمن يأتيكم بماء ظاهر تراه العيون ؟ إذن لابد أن يقولوا هو الله تعالى حينئذ يقال لهم : فلم تجعلون معه من لايقدر على شىء أصلا شريكا له فى العبادة ؟ انتهى تفسير السورة اللفظى ، والحمد لله رب العالمين .

لطائف هذه السورة

(١) فى قوله تعالى : « الذى خلق الموت والحياة » .

(٢) وفى قوله : « ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح الخ

(٣) وفى قوله : « أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات » .

(٤) وفى قوله : « قل هو الذى أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار » الخ

اللطيفة الأولى فى قوله تعالى : الذى خلق الموت والحياة

لننظر الآن لم قدم الموت على الحياة ، وكيف يبتدئ السورة بما يفيد أن خيره عام شامل ، ثم يبتدئ بذكر الموت مع ان الموت عدم ، والعدم ليس خيرا لا كثيرا ولا قليلا ؟ فنجيب على ذلك فنقول :

إن النظر السطحى فى هذه الأرض التى نسكنها والجهل هما اللذان جعلا أهلها معذبين ، فالجهل سبب العذاب فى الدنيا بالذلة وسبب العذاب فى الآخرة بجهنم و بأنواع الذل والاهانات ، ومن الجهل عدم فهم نعمة الموت ، إن الموت مزرعة الحياة وحقلها ، ولولا الموت لم تكن الحياة ، فتقديم الموت أشبه بتقديم السبب على المسبب والأصل على الفرع ، وايضاحه أن نقول :

إن الحيوان والنبات هما اللذان يعتريهما الموت والحياة ، وقد وضع الله فى طبيعة أكثر النبات وأكثر

الحيوان كثرة الذرّية كثرة مفرطة جدّا ، وتلك الكثرة الطبيعية لحكمة ، وهي أنها تكون ضمانا لبقاء الأنواع على الأرض ، فلولا هذه الكثرة المفرطة لانقرض كثير منها ولم يعوض بمثله فى الأرض ، فلو تركت تلك الذرّية المتعاقبة حينا من الدهر لامتلأ وجه الأرض بالحيوان فلم تعد الأرض تصلح لحيوان جديد ، فموت هذه المخلوقات وسرعة فنائها هي النعمة العظمى لأنها تخلى وجه الأرض لما بعدها ، فالموت أشبه بالتخلية ، والحياة أشبه بالتحلية ، وهذا هو السرّ فى تقديم الموت ، ولأضرب لك مثالا لذلك فأقول :

(١) إذا نظرت إلى مقدار مافى النخل من لقاح ، ومافى الذرة مما ينتشر فى الهواء أو يقع على الأرض تجده لو صادف صلاحا وأثمر كله لم تسعه الأرض .

(٢) كنا نرى السمك ومافى باطنه من المقادير الكبيرة من البيض الصغير الدقيق جدّا وهو عدد غزير كثير يسمى [البطروخ] يأكله الناس ويباع فى الأسواق ، فلو أن هذا البيض كله صار سمكا لأصبح البحر الملح قطعة جامدة .

(٣) نرى أنّ فى البيوت من أنواع الحشرات كالبق والبراغيث وأمثالها مالو تركت ولم يهلكها الناس ولم يسلط عليها البرد فيهلكها وغيرها من الحشرات كالجراد وغيره لأصبحت الأرض كلها مغلفة بطبقة منها فامتنعت الحياة عليها .

(٤) ذكر العلامة [وولاس] عشبا ينتج من البذر كل سنة ثلاثة أرباع مليون بذرة ، وقدّر انه لو عاش هذا النسل ثلاث سنين فقط وأعقبت كل بذرة فى هذه المدّة مابقى مكان فى الأرض غير مغطى بها ، وقال : لو أن كل نبات أنتج حبتين اثنتين فى السنة واستمرّ النسل على الانتاج لبلغ عدد الانتاج فى السنة الحادية والعشرين ١٠٤٨٥٧٦

(٥) إن بعض الحيوانات الدقيقة المسماة [ميكروبات] اذا استمرّت على التوالد مدة خمسة أيام بدون انقطاع لملأ المحيط كله بنسله إلى عمق ميل .

(٦) وميكروب الوباء [الكوليرا] الذى يتضاعف كل عشرين دقيقة لو مضى عليه يوم واحد وهو يسير بهذا المعدّل بلا عائق لبلغ وزنه ٧٣٦٦ طنا ، وبلغ عدده رقم ٥ والى يمينه ٢١ صفرا .

(٧) والفيل معلوم انه أبطأ الحيوان ولادة ، فانّ الفيلة لاتلد إلا مرة واحدة فى كل عشرين سنة ، وقد حسب أحد العلماء أنه اذا استمرّ التناسل بدون عائق لبلغ نسل الزوجين بعد ٧٥٠ سنة ١٩ مليون فيل .

(٨) الجراد كثيرا مايهجم على القرى والمزارع وهو كالسحاب فيأكل ما أمامه ، ومتى لم يجد مايأكله أكل بعضه بعضا .

(٩) السمك الذى يشرب الناس زيته لتقوية الجسم ، تبيض فى العام الواحد الواحدة من اناثه مليونى بيضة ، فلو أصبحت كل هذه البيضات المستخرجة من سمكة واحدة فى سنة واحدة سمكا لصار البحر كتلة جامدة .

(١٠) بعض المحار فى البحار تبيض الواحدة ستين مليونا من البيض ، وهذا النسل لو بقى كله مابين عام وعامين لزاد على الكرة الأرضية .

(١١) الذباب الذى ينغص عيش الانسان اذا تكاثر أمامه تبيض الأنثى منه خمس أوست مرّات ، وفى كل مرّة تبيض من ١٢٠ بيضة إلى ١٥٠ بيضة ، فلو عاشت كلها لم يعش شيء على الأرض معها . هذا قلّ من كلّ من سرعة تكاثر الحيوان والنبات ، فلولا الموت لم تكن حياة ، هذا هو السرّ

فى

فى تقديم الموت على الحياة .

(١٢) ربما كان حيوان يعيش على آخر ، فاذا انقرض ذلك الآخر مات الحيوان ، مثال ذلك الثعابين تعيش فى بعض البلاد على الجرذان ، و بموت الجرذان وانقراضها تموت الثعابين وتنقرض من تلك الجهة ، فاذا كثرت القطط أكلت الجرذان و بفنائها تفنى الثعابين ، إذن تكون حياة القطط هلاكا لنوعين الجرذان والثعابين ، وذلك فى بعض البلاد ، وهذه رحمة عظمى .

(١٣) جراثيم المرض المسمى [الملاريه] إنما تعيش فى جسم الناموس ، فاذا أزيل الناموس زال معه ذلك الحيوان المهلك .

(١٤) لولا حياة البقر ما ابتلى الانسان بالدودة الوحيدة ، انها تعيش أوّلا فى لحم البقر ، ثم تنتقل إلى جسم الانسان وتعيش فى أمعائه ، فلو لم يكن بقر لم تكن دودة وحيدة .

بهذا وأمثاله من الحكمة التى أشرقت بها الأرض وأضاء نورها نعرف نعمة الله فى الموت ، ونعرف السرّ فى تقديم الموت على الحياة فى هذه السورة .

ياسبحان الله : ظهر أن الموت نعمة على الأحياء ، هو أصل الحياة لمن فى الأرض لغير الميت ، ولكن هل هو نعمة للميت ؟ نعم هو نعمة كبرى لسببين : الأوّل أن ينتقل من هذه الأرض الضيقة التى ضاقت صدورها وضاقت هى بمن فيها فكثر الموت ، الثانى أن يدخل فى عالم أوسع منها ، فهذا من سرّ تقديم الموت على الحياة .

البلاغة فى القرآن

أنظر أيها الذكىّ لكلمتين فى هذه السورة : الموت فى أوّلها ، ولفظ مصابيح فى وسطها ، وكيف اختير اللفظان فيها ، انظر كيف كان تقديم الموت على الحياة نظر فيه لعلم الطبيعة والتاريخ الطبيعى ، وكيف كان اختيار لفظ المصابيح لذلك الجمال وللموازنة بين نظامنا فى بيوتنا ونظام العالم كله كما تقدّم ، وليكون مذكرا بقوله تعالى : « الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح » فمثل هناك لنظام الله فى العالم بنظام مصباحنا حتى نعقل كيف نظم على مقدار عقولنا ، وهنا يشير إلى أن نوازن مابين الدقة هناك والضعف هنا ، فنرى مالايتناهى من المحاسن فى ذلك النظام ، مثل هذه المعانى لايدركها ولا يعقلها من قصروا بلاغة القرآن على أساليب الكلام ، وقد بينا بعضه فى سور كثيرة ووازنا بينه و بين كلام العرب ، فأين الثريا وأين الثرى ، من أين للبليغ اللفظى أن يستعرض علوم الحيوان والنبات كلها لأجل تقديم لفظة على أخرى ؟ من أين له أن يستعرض نظام الكواكب ونظام البيوت لأجل لفظة جاءت مجازا ، فالحقّ والحقّ قلت ان هذا القرآن يطلب جميع العلوم ، فليدرس المسلمون علوم الطبيعة ، وعلوم الفلك ، وعلوم هذه الدنيا كلها والافلا رقىّ لهم ولاقرآن لهم إلا ماتحفظه الأطفال و يعرب به النحويون و يستدلّ به الفقهاء فى أحكام القضاء ثم يحرمون من كل نعيم فى الحياة بعد ذلك فى الدنيا والآخرة ، ولقد نصحت وأفرغت جهدى ، وسيتولى الله الأمة برعايته ، ويحيطها بكرامته ، ويحرسها بكلاءته . انتهى الكلام على اللطيفة الأولى ، والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة الثانية فى قوله تعالى : ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح

لقد كتبنا فيها فى سور متقدّمة ، وفى هذه السورة ، قال الله فى [سورة الصافات] : « إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب ، وحفظا من كل شيطان مارد ، لايسمعون إلى الملأ الأعلى و يقذفون من كل جانب دحورا ولهم عذاب واصب » ، وهنا قال فيها : « وجعلناها رجوما للشياطين وأعتدنا لهم عذاب السعير » فههنا أمران : طرد عن الاستماع ، وعذاب فى الآخرة ، إن كل ما فى القرآن من عذاب فى الآخرة يتقدّمه

عذاب فى الدنيا ، فهذه الشياطين فى الدنيا محجوبون عن الاستماع ، وفى الآخرة لهم جهنم ، وإن أردت أن تفهم نتائج هذه المعانى بنفسك فانظر فى أمتك التى أنت فيها وفى مجالسها وتأمل الناس حولك فاجلس فى مجلس عام وخاطبهم بجمال النجوم وبهجة هذا العالم ، فإنك ستجد قليلا منهم يفرحون والباقى لايبالون ، فهؤلاء الذين لايحبون هذه المباحث هم تلاميذ الشياطين الذين هم عن السمع معزولون ، تلك الشياطين عزلت عن السمع لما فى العالم الأعلى ، وهؤلاء نظراؤهم عزلوا عن معرفة بهجة العلوم ، وهى من بهجة العالم الأعلى ، فأولئك عن السمع معزولون ، كلاهما غيرمستعدّ لهذه الامورالعجيبة ، ثم تأمل أيضا فى الناس حولك تجد الجهال منهم قد تلوح منهم التفاتة إلى العلماء فيحزنون على جهلهم ، وقلة علمهم ، وحرمانهم من التمتع بالمباحث العلمية الشريفة ، فهذا مبدأ العذاب فى الدنيا ، وسيكون بعد الموت ويوم القيامة أشدّ ، فينتقل من العذاب النفسى ويرتقى إلى الجسمى ، فهذا أثر من آثار هذه الآيات تراها فى الدنيا وأنت حىّ ترزق . انتهى الكلام على اللطيفة الثانية ، والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة الثالثة فى قوله تعالى : أولم يروا الى الطير فوقهم صافات ويقبضن مايمسكهنّ إلا الرحمن

والكلام عليها فى مقامين : المقام الأول فى علم الطيران الحديث ومناسبته لطيران الطير ،

المقام الثانى فى بنية الطيور ، وأن أجسامها مختصرة من أجسام ذوات الأربع

المقام الأول

إن قارئ هذه الآية يمرّ عليها مرّ الكرام ، يقرأ : « أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن » وقد خرج منها خاوى الوفاض ، بادى الأنفاض ، يمرّ عليها كما يمرّ الطير فى الهواء ، ولكن مسألة طيران الطير ليست سهلة المتناول ، انها أمرها عجب ! لقد مرّت العصور والدهور والناس يقصون فى حكاياتهم ويتخيلون أنه لوكان لهم أجنحة كأجنحة الطير لطاروا إلى أحبابهم ، وسعدوا كما سعد الطير فى طيرانه فى الهواء ، ألاترى أن هذا مذكور فى قصة حسن الصائغ البصرى ، وفى آداب اليونان مايشير إلى ذلك الخيال ، ولما أفاق الانسان من سباته العميق أخذ يفكر عسى أن يكون هذا الخيال يوما مّا حقيقة ، وعسى أن يتاح له أن يطير كما يطير الطير ، ظنّ الناس أن الانسان ليس عليه ألا يجعل له ريشا كريش الطائر بحيث تكون نسبته إلى جسمه كنسبة ريش الطائر إلى جسمه ، وتكون أجنحته أيضا على تلك النسبة ، فكر الناس فى ذلك وقاموا بهذه التجربة ، وأذكر لك منهم :

(١) رجلا إيطاليا فى بلاط الملك جيمس الرابع الاسكوتلندى فى بدء القرن السادس عشر .

(٢) وبعد ذلك بنحوقرن قام راهب ألمانى بالتجربة أيضا .

(٣) وحاول مركيز فرنسى عاش فى أواسط القرن الثامن عشر أن يطير بالأجنحة .

(٤) وعباس بن فرناس صاحب صحاح الجوهرى .

فهؤلاء الأربعة نموذج لمن حاولوا الطيران قبل هذا القرن الذى نحن فيه فأخفقوا جميعا ، فأما الأول فانه لما حاول الطيران لعبور بحر المانش ، وقد استعدّ بجناحين عظيمين مصنوعين من ريش طيور مختلفة وثب عن برج قصر [سترلنغ] فهوى إلى الحضيض فكسر عظمه ورضّ جسمه ومات ، والثانى سقط فمات كذلك ، والثالث وهو المركيز حاول أن يقطع نهرالرين ، فعمل تجارب ، فبدا له أن يقلع عن العمل فنجا ، والرابع أراد أن يطير فسقط فمات كما هو معروف ، هذه أول خطوة .

[الخطوة الثانية] : فى هذه الخطوة رأى الانسان أن طيران الطيرليس بقوّة الأجنحة فحسب ، وانما هناك أمر آخر فليس يكفى الانسان أن يلبس ريشا على النسبة المتقدّمة ليطير . كلا . والذى عرف ذلك رجل يسمى [بورلى] سنة ١٧١٣ م فدرس حركات الطيور ، وقدّر قوّة عضلاتها الصدرية ، فتبين له عجز الانسان أن يضارع الطير بهذه الوسيلة ، كما ثبت بالاختبار أن الانسان فشل فى هذه التجربة ، فيئس الناس من الطيران .

[الخطوة الثالثة : عمل المناطيد (١)] فى هذه الخطوة وقد يئس الناس من الطيران كالطير رجعوا إلى مسئلة السفينة فى البحر ، إن السفن إنما تسير فى البحر لأنها مصنوعة بطريقة خاصة بحيث يكون حجمها أكبر من حجم الماء الذى يماثلها وزنا ، فلو أن حجمها كان أقلّ من حجم الماء المذكور لغرقت ، هكذا هنا صنعوا المناطيد من موادّ خفيفة تكون أخفّ من الهواء ، كما أن السفينة أخفّ من الماء ، كما نرى الريش يطير ، وكما نرى طيارات الأطفال فى الأعياد ، وكان اختراع المنطاد سنة ١٧٨٢ م فلم يكن غير ثلاث سنين حتى قطع بحر المانش من [دوفر] إلى [كاليه] فى المنطاد سنة ١٧٨٥ م والذى قام به [جان بيار بلانشاد] وهو معدود من أكابر الذين جادوا بأنفسهم ، وهو معروف عند جميع المشتغلين بهذا الفنّ ، ومعنى هذا أن الانسان لايمكنه أن يطير لأنّ جسمه أثقل من الهواء ، فالمنطاد شىء وطيران الانسان فى الجوّ شىء آخر ، وبقى الناس فى حيص بيص من أجل طيران الانسان كما يطير الطير ، الطير يطير وجسمه أثقل فلم لايطير الانسان وقد عرفنا أن الأجنحة لاتكفى فأين السرّ إذن ؟ وهنا جاءت :

[الخطوة الرابعة] وابتداؤها سنة ١٨٩١ م إذ قام [ليليانتال] وراقب الطيور فى حركاتها عشرين سنة ، وبنى عدّة على شكل طيارة منبسطة الأجنحة ، ووضع آلة للموازنة فى طيارته وقوّة محركة لاطالة مدة الطيران ، وقال : انى درست من هذه الطيور أن سرّ الطيران يتمّ للانسان اذا تسنت له قوّة رافعة كافية لأن تدفعه بالسرعة الواجبة للارتفاع عن الأرض ، وحينئذ يمكنه أن يحوم فى الفضاء كما يشاء ، ولكنه مع نجاحه المبدئى أيضا سقط فمات سنة ١٨٩٦ م .

ومما كشفه أيضا أن الأجنحة المحدودة فيها قوّة للرفع تزيد عنها فى الأجنحة المنبسطة ، ولكن كان هناك شابان أمريكيان فى تلك الآونة هما الأخوان [ويلبور] و [أورفيل رايت] يشتغلان سرّا فى بلدهما [دايتن أوهايو] فى درس علم الطيران وإجراء الامتحانات الصغيرة الابتدائية من المركبات الهوائية ، وقد كان محركهما إلى ذلك نجاح [ليليانتال] فى الامتحانات التى قام بها بما اصطنع من الطيارات المنبسطة الأجنحة والمسيرة بالقوّة ، لكنهما لم يعمدا إلى بنيان مركبة كبيرة قبل سنة ١٩٠٠ ، ومنذ ذلك العهد أخذا يمتحنانها ويحسنان فيها ويضيفان إليها حتى كانت سنة ١٩٠٥ م ، فطار أحدهما فى الهواء مسافة أربعة وعشرين ميلا فى مدة ثمان وثلاثين دقيقة فوق حقل بالقرب من بلدهما ، فكان الأخوان أوّل من توفق إلى النجاح فى اكتشاف سرّ مبدأ الطيران وفتح مملكة الهواء لمساعى الانسان .

وفى سنة ١٩٠٧ م أعلنت حكومة الولايات المتحدة رغبتها فى الحصول على طيارة من أوصافها أن تكون أجزاؤها سهلة التركيب والتفكيك تسهيلا لنقلها فى مدة لاتتجاوز الساعة الواحدة ، ومعدّة لحمل رجلين يبلغ وزنها على الأقل ٣٥٠ بونا ، ويقطع مسافة أربعين ميلا ، فجوابا على هذا الاعلان قدّم الأخوان إحدى طياراتهما للامتحان ، وفى سنة ١٩٠٨ جاء [أورفيل رايت] بالطيارة إلى [واشنطون] وفى خلال الامتحانات الابتدائية غير الرسمية طار طيرانا مدهشا استمرّ فيه ساعة و ٢٥ دقيقة و ٢٠ ثانية ، ثم

(١) انظر صورة المنطاد والكلام عليه فى المجلد الحادى والعشرين من هذا التفسير اه

أراد القيام بالامتحان الرسمي فعين الملازم فى الجيش [سلفردج] للركوب معه ، فحلقت الطيارة فى الفضاء ، وكانت فى بدء الطيران عنـد رغائب المراقبين ، ولـكن الرفاص الخشبي انكسر من سرعة دورانه فسقطت الطيارة ، وقتـل الملازم [سلفردج] ، أما [أورفيل] فأصيب بجراح ورضوض بليغة حالت دون اجراء الامتحانات فى تلك السنة ، ولـكن فى السنة التالية امتحنت طيارة [رايت] مرّة أخرى فأتمت شروط الحكومة التى قبلتها واشترتها ودفعت لمخترعيها الأخوين جائزة مالية قدرها ٢٥ ألف دولار .

أما فى فرنسا فـكان تقدم الطيران سريعا وعجيبا ، لأنه لم يكن أحد قبل بدء سنة ١٩٠٨ قد طار أكثر من ثمانمائة واثنين وأربعين ذراعا ، ولـكن لم تنقض تلك السنة حتى كان الطيار الفرنسوى [فارنهام] قد تمكن من الطيران مسافة ٢٥ ميلا ونصف ميل ، وحتى كان [ويلبور رايت] الأمريكى فى أواخر تلك السنة قد طار مدة ساعة و ٥٤ دقيقة و ٢٢ ثانية وقطع ٦١ ميلا .

سنة ١٩٠٩ م يتزل ذكرها فى التاريخ بأنها فاتحة العهد الجديد فى فنّ الطيران ، لأنّ ما تمّ فيها من الأعمال العجيبة يدل على سرعة تقدم هذا الفنّ إلى درجة تفوق حدّ التصديق ، فى الولايات المتحدة طار [كان كورتس] مدة ٦٧ دقيقة ونصف دقيقة ، وطار [أورفيل رايت] فى فورت ماير مدة ساعة و ٢١ دقيقة يحمل معه راكبا ، وقد قطع مسافة ٥٠ ميلا ، وفى فرنسا ربح [كورتس] الجائزة فى السباق الذى جرى فى [ريمس] وقام [بليريو] بمطيره التاريخى المشهور ، إذ قطع لأوّل مرّة بحر المانش من فرنسا إلى انجلترا مجتازا مسافة ٣١ ميلا فى مدة ٣٧ دقيقة ، وقام [فارتهام] بمطير عجيب استمرّ فيه ٤ ساعات و ١٧ دقيقة و ٣٥ ثانية قاطعا مسافة ١٣٧ ميلا ، وطار كل من [أورفيل رايت] و [لاتام] و [بوهان] لحلق إلى أعلى من ألف وخمسمائة قدم ، وطار [بوهان] من لندن إلى مانشستر ، وطار [لورتس] من المبنى إلى نيو يورك ، وطار [هملتون] من نيو يورك إلى فيلاديفيا ، وطار القبطان [رولز الانجليزى] من انجلترا إلى فرنسا ، ثم عاد دون توقف فقطع بحر المانش ذهابا وإيابا فى مطير واحد ، وما زال فنّ الطيران فى ذلك العهد بين تجربة واختبار واصلاحات وتحسينات واضافات هامّة حتى قام الـكونت [زابلين] الألمانى المشهور الذى نظر إلى هـذا الفن نظرة باحث ، فأنشأ فى بلده المعامل الـكبيرة ، وكانت فاتحة أعماله الجليلة اجتياز الاوقيانوس الأتلنتيكى فى الهواء ، و بعدها ابتدأ ببناية المناطيد الهوائية التى تنقل الركاب جاعلا لها أوقاتا محدّدة للسفر على نحو ماهو الأمر مع البواخر والقطرات الحديدية ، فما فـكر فيه [الـكونت زبلين] الألمانى من عشرات السنين يفـكر فيه الآن دول الحلفاء و يقومون بتنفيذه ، كان فنّ الطيران فى عهد طفوليته يوم استلم زمامه الألمان ، وهذا ما وجه له الأنظار والأفـكار بمزيد الاهتمام ، ولاسيما من حيث استخدامه فى الحرب للاستكشاف والدفاع والهجوم برا و بحرا ، ولقد كان للمركبات الهوائية [الايرو بلان] أو بساط الريح شان يذكر فى الحرب العالمية الماضية من سرعة قضاء المهمات ، أومن حيث قيام رجل أواثنين فى مركبة هوائية بما لايقدر على القيام به غير كوكبة من الفرسان .

وتستخدم الطيارات فى تدمير الأساطيل وتشتيت الجيوش وتخريب الحصون برمى القذائف الانفجارية من علوّ لاينالها فيه رصاص البنادق وكرات المدافع .

* * *

ها أنا ذا لخصت لك علم الطيران ، فمن أجنحة أهلـكت الطائرين ، ومن يأس قعد بالطائر ، إلى منطاد يطير بخفته ، إلى طيارات تطير كما يطير الطير ، أجسامها ثقيلة ولها محركات وقوّات موازنة وترتفع بقوّة ثم تحوم إلى أساطيل فى الهواء تحمل الجيوش والمدافع ، وأنواع التجارات المختلفات حتى يخلو وجه الأرض من الطرق الحديدية .

لعلك تقول : انك قرأت موضوعا فكتبته لمناسبة الآية ، وأىّ علاقة للآية بهذا التاريخ الطويل العريض ؟ أقول لك : إن الآية بهذا القول يظهر سرّها ، أليس من العجب أن [ليليا نتال] أخذ يدرس الطيور فى طيرانها عشرين سنة ! لم هذا كله ؟ ولم كان الطيارون فى أوّل أمرهم اذا طاروا بالأجنحة يموتون ولم لجأوا إلى ألايطير إلا المناطيد ، ونكصوا على أعقابهم فلم يجسروا على طيران الانسان ؟ ثم ما هذا الجهد والجدّ والعناء كله ؟ ثم لم يوفق الناس إلا فى أيامنا هذه للطيران ، ومعنى هذا كله أن قوله تعالى : « أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن مايمسكهنّ إلاالرحمن » لاتعرف بعض حقائقه إلابهذا العلم ، أى ان طيران الطائر ليس أمرا سهلا كما يتصوّره الناس ، فماهو إلاأن يزوّد بأجنحة ويطير . كلا . فقد سقط الناس وماتوا لما ظنوا ذلك ، واذا قلنا ان السفينة تجرى فوق البحر فالطير ليس على هذا النظام ، بل الطير جسمه أثقل من الهواء ، أما السفينة فجسمها أخفّ من الماء الذى على مقدار حجمها ، ولذلك تزيح من البحر ماء على مقدار وزنها ، ولم يعرف الانسان سرّ الطيران حتى قطع شوطا بعيدا ، فقوله : « مايمسكهنّ إلا الرحمن » ليس مما يدرك بسهولة ، بل يدرك بهذا العلم : أى ان هذا العلم هو الذى نعرف منه مقدار الصنائع والدقائق والحكم التى أودعها الطائر حتى طار ، إن كل شىء فى نظر الجاهل سهل ، وفى نظر العالم يحتاج إلى أبحاث ، ياليت شعرى : من كان يظنّ من أمم الأرض قبل هذا القرن أن طيران الطائر فيه هذه الحكم والأسرار . بهذا نفهم فى هذا العصر وحده معنى قوله تعالى : « إنه بكل شىء بصير » ، هذا العصر هو الذى فيه يظهر سرّ القرآن وسرّ الوجود ، فاذا كان العالم يظهر سرّه الآن فالقرآن يظهر سرّه الآن ، لأن هذا فعله وهذا قوله وهما متلازمان ، فليقرأ هذا المسلمون وليعلموا « بل هو قرآن مجيد فى لوح محفوظ » وبهذا انتهى الكلام على المقام الأوّل ، والحمد لله رب العالمين .

المقام الثانى فى بنية الطيور ، وأن أجسامها مختصرة من أجسام ذوات الأربع

اعلم أن الأصناف الأربعة من الحيوان البرّى وهى : الأنعام ، والبهائم ، والسباع ، والوحوش أكمل بنية وأتمّ نظاما من الطيور والجوارح ، وكأنّ هذين قد جعلا مختصرين من الأربعة الأول ، ولوانك نظرت إلى الطير صافات فى جوّ السماء لخيل لك أنها صورة مصغرة من البقر والجاموس اذا كنت من الناظرين فى علم الطبيعة بعقولهم لامقتصرين على حواسهم ، فاذا رأيت أبا قردان وهو يأكل الدود فى الأرض المصرية والجاموس يرعى فى مرعاه لرأيت للجاموس أسنانا وآذانا ظاهرة ومعدة وكرشا ومثانة وخرزات ظهر وجلدا ثخينا وشعرا كما كان للغنم صوف وللابل وبر ، وهو ينزو ويلد ويرضع أولاده ويربيها ، أما أبو قردان مثلا وسائر الطيور فانها مختصرة من الحيوان البرىّ ، فليس للطير أسنان ولا آذان بينة ولامعدة ولا كرش ولا مثانة ولاخرزات ظهر ولاجلد ثخين على أبدانها ولاشعر ولاصوف ولاوبر ، وهذا جدول ذلك :

فى حيوان البرّ	فى الطير
المبدل منه	البدل
الأسنان	المنقار
المعدة	الحوصلة
الكرش	القانصة
الجلد الثخين وماعليه	الريش
الحمل والولادة والارضاع	البيض وتربية الفراخ
رأس عريضة	مناقير مدببة ورءوس صغيرة

ثم إن الريش جعل لباسالها ودثارا يقيها الحرّ والبرد ، وهوغطاء ووطاء ووقاية من الآفات العارضة ، وهو فوق ذلك يعينها على النهوض والطيران ، أما المناقير والرءوس الصغيرة فانها لولم تكن كذلك بل كانت كالبهائم لعاقها ذلك عن سرعة الطيران ، لأنهاتصادم الهواء فيعوقها عن سرعة الطيران . انتهى الكلام على اللطيفة الثالثة ، والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة الرابعة فى قوله تعالى : هوالذى أنشأكم وجعل لكم السمع والابصار والافئدة الخ

يقول الله انه أنشأنا ، وانه خلق لنا السمع والأبصار ، ثم يقول ان شكرنا قليل ، وياليت شعرى : أىّ شكر لمن يخلق فى هذا العالم ثم يغادره وهوغافل عما فيه ، هـذه مسألة الطيران يراها أمرا سهلا فى بادئ النظر ، ثم يتضح فى آخر الأمر انها احتاجت إلى أعمار وعصور حتى عرفها الانسان ، وكم فى الدنيا عندنا من مجهول ، إن أسماعنا وأبصارنا وعقولنا نحن مسئولون عنها يوم القيامة ، ومسئولون عنها فى الدنيا ، أما سؤال الدنيا فواضح ، اننا لما أهملنا التفكير فيما حولنا حرمنا منافعه ، والآخرة أدهى وأمرّ .

إن المسلمين اليوم مهملون مواهبهم وعقولهم وأسماعهم وأبصارهم ، أفلانخجل حينما نرى أن علم الطير وطيرانه فى الجوّ لم يقم به إلا قوم ليسوا مسلمين حتى اضطررنا أن ننقل أبحاثهم ونجعلها تفسيرا للقرآن .

إن المسلمين لاتظهرمواهبهم التى أودعت فيهم إلااذا عمموا التعليم للذكور والاناث تعميما تاما ، ثم اصطفوا منهم طوائف للتعليم العالى ، وقامت مدارسهم بكل ما يطلبه المجتمع من نجارة وحدادة وحياكة وكهرباء وما شابه ذلك بحيث تكون المدارس كلها كأنها مملكة لاتحتاج إلى إبرة من الخارج ولا آلة ، فهم الذين يصنعون الآلات والأدوات ، وهم الذين يحرثون و يزرعون و يطبخون و يخدمون و ينظفون الأوانى ، و بالجملة يفعلون كل شىء ، ولايفوتهم علم من العلوم الطبيعية والرياضية وغيرها إلاخصص له منهم طائفة انظر هذا المقام فى سورة آل عمران عند الكلام على قوله تعالى : « ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم » .

ذلك كله فرض كفاية باجماع أئمة الدين ، وفرض الكفاية اذا أهمل أثم المسلمون جميعا ، فالمسلمون آثمون اليوم ، والعذاب واقع الآن فى الدنيا بتسلط الفرنجة ، وفى الآخرة بعذاب أليم ، قال تعالى : « ولعذاب الآخرة أشدّ وأبقى » انتهى الكلام على اللطيفة الرابعة ، والحمد لله رب العالمين .

***

وإذ فرغنا من الكلام على هذه اللطائف الأربع فلنشرع الآن فى ذكر اللطائف العامة التى لم يكن لها وجود عند التأليف ، والتى لم يفتح الله بها إلا عند تقديم هذه السور للطبع :

اللطائف العامة فى هذه السورة

(١) اللطيفة الأولى فى قوله تعالى : « ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور » .

(٢) فى قوله تعالى : « ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين » .

(٣) فى قوله تعالى : « أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات و يقبضن مايمسكهنّ إلا الرحمن إنه بكل شىء بصير » .

اللطيفة الأولى

فى قوله تعالى : ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور

اعلم أن هذه الآية فيها من العلوم المنتشرة اليوم عجيبتان تعدّان معجزتين فى القرآن ، و بيانه أنك اذا نظرت فى المادّة وفى ألوانها لاتجد أبدا فيها شقوقا وفطورا ، فاذا رجعنا البصر ألف مرّة وألف مرّة إلى الألوان والى الأجسام كالحجر والشجر فاننا لانرى فطورا ، فاعجب ثم اعجب من العلم اليوم فى أمر المادّة وفى أمر الألوان ، أما المادّة فلقد تقدّم الكلام عليها فى مواطن كثيرة ، ومن أهمها ما جاء فى [سورة النور] عند آية : « الله نور السموات والأرض » فان هى إلا ذرّات كهربائية سالبة جاريات حول أخرى موجبة وعدد حركاتها فى الثانية نحو ٦ آلاف مليون مليون مرّة ، فنراها حجرا وشجرا وجبلا وجملا وسحابا وكتابا وذئابا ورحابا ، و بين كل ذرّة من ذرّات الحجارة والشجر وغيرها فروج وفطور بحيث لوكان على ذرّة منها سكان تناسبها لم يكن لأحدهم أن ينظر الذرّة التى تليها إلا بمنظار معظم ﴿و بعبارة أخرى﴾ ان الفروج بين كل ذرّة من ذرّات المادّة والأخرى كالمسافة التى بين الأرض و بين النجوم والشمس والقمر ، إذن مع كون المادّة عبارة عن حركات ضوئية نرى ذرّاتها غير متصلة ، إذن كلها فطور وشقوق ، ولكن لشدّة الاحكام والاتقان وعدم التفاوت لانرى شقوقا تخيفنا وتزعجنا ولا فطورا ، فالمادّة مع انها مفعمة بالفطور بل هى أوّلها وآخرها فطور تكاد تكون فراغا كالذى بين السماء والأرض ومع ذلك ترى لافطور فيها ، إذن عالم المادّة عجيب فطور ولافطور كما أن أرضنا دائرة غير دائرة ، نحن نراها ساكنة ولكنها دائرة لاتهدأ وذلك لشدّة الاحكام والاتقان ، وازدياد الأمان لمن عليها .

الفطور فى الألوان

وكما قلنا فى المادّة نقول فى ألوانها ، ألوانها سبعة : البنفسجية ، والنيلية ، والزرقة ، والخضرة ، والصفرة والبرتقالية والحمرة ، ولم نر فى لون منها فطورا وشقوقا ، فهذا لون الزرقة الذى يراه الانسان فى السماء فلننظره فهو أحد الألوان السبعة ، فاذا نظرناه لم نجد فى المادّة التى قام بها شقوقا لأنها محكمة مع كونها ذات فروج عظيمة جدّا وهوات واسعات كما تقدّم ، فهكذا نفس الزرقة لاتجد فيها لونا يداخلها ويقاطعها ، وهذا بحسب الظاهر وما نراه بالعين ، ولكن الحقيقة أن فى كل لون من الألوان السابقة خطوطا سوداء مقاطعة كشفها وأبرزها فى الرسم العلماء ، فكل معدن من المعادن له ضوء خاص ، وهذا الضوء تقاطعه خطوط سود ، وهذه الخطوط السود تختلف فى ضوء كل معدن عن الخطوط السود فى ضوء كل معدن سواه ، و بهذا الاختلاف فى الخطوط السود : أى الفطور والشقوق اللونية قدر الناس أن يعرفوا مافى الكواكب والشموس من المعادن المختلفات بخطوطها السود فى أضوائها ، و بهذه الطريقة عرفوا أن عناصر الأرض من عناصر الشمس ، فهاتان معجزتان قرآنيتان ظهرتا فى الكشف الحديث ، وعسى أن نزيد المقام تبيانا فى [سورة النبأ] عند آية : « و بنينا فوقكم سبعا شدادا » والى هنا تمّ الكلام على اللطيفة الأولى فى قوله تعالى : « ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور » كتب قبيل الفجر يوم الأربعاء ١٤ ديسمبر سنة ١٩٣٢ م — ١٦ شعبان سنة ١٣٥١ هجرية .

اللطيفة الثانية فى قوله تعالى : ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح

مسامرة بينى وبين صديق العالم الذى اعتاد محادثتى فى هذا التفسير

حضر اليوم ٣١ مايو سنة ١٩٣٢ م وأخذ يحادثنى قائلا : لقد ذكرت فى [سورة الذاريات] مجمل الكلام على ضوء الشمس ، وكيف عرف الناس منه عجائب وعجائب ، ووعدت أنك تشرح المقام كله فى هذه السورة ، ووعدت أيضا بذلك فى آخر [سورة الحشر] كما أنك وعدت أن تشرح عجائب النبات وبدائعه بأوضح مما تقدّم فى التفسير فى [سورة النبأ] فأرجو أن تفى بما وعدت الآن . فقلت : حبا وكرامة : « وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا » هاأناذا أحدّثك حديثا جميلا ، انظر هداك الله إلى ضوء الشمس يأتى من نافذة فى مصراع الباب ويدخل فى حجرتك : فأما الجاهل فانه لايرى فى هذا النور سرّا ولا علما وانما هو أمر عادى ، ولكن أهل العلم يقولون :

[أوّلا] — ان هذا النور بدخوله فى الحجرة المظلمة قد أعطانا علمين : العلم الأوّل أن النور يسير على خط مستقيم ، العلم الثانى أن هذا النور الذى يسير على خط مستقيم فى الحجرة تصحبه حرارة ، فهذان علمان : علم أدركناه بحاسة البصر ، وعلم أدركناه بحاسة اللمس ، فالأوّل هو الخط المستقيم ، والثانى هى الحرارة

[ثانيا] — ان هذا النور يدهشنا أمره ونعجب من سرّه ، ذلك أن النور الداخل فى الحجرة المستقيم الخط الحارّ الملمس نراه يحمل صور الأبنية والأماكن والأشجار التى مرّ بها ولكنه يعكسها فيكون الأعلى أدنى وبالعكس ، وذلك بسبب سيره على الخطوط المستقيمة كما ستراه واضحا قريبا .

[ثالثا] — ان هذا النور السائر المستقيم الخط الملازم للحرارة الذى يقلب وضع الصور فيجعل عاليها سافلها سريع السير جدّا ، فهو يسير فى الثانية الواحدة ١٨٥١٥٧ ميلا فى الثانية ، ويدور حول الأرض فى سبع ثانية واحدة .

[رابعا] — ان هذا النور اذا أخذنا مرآة صغيرة وتلقيناه بها فانا نراه أخذ ينعكس على الحائط فى الحجرة ، وتكون هناك زاويتان : إحداهما زاوية السقوط ، والأخرى زاوية الانعكاس ، وهذا مشاهد فى الأماكن التى فيها ماء وقد سقط ضوء عليه من النوافذ فان الضوء ينعكس على الحائط الآخر المقابل لما سقط منه الضوء ، وكلما اضطرب الماء اضطربت صورة الضوء المنعكسة على ذلك الحائط هكذا هذه المرآة كلما حركناها تحرّك الضوء المنعكس عنها تبعا لها ، فهذا هو المسمى عند علماء الطبيعة انعكاس الضوء .

[خامسا] — وبما تقدّم يفهم الناس أوّلا لماذا يرون صورهم فى المرآة كأن المسافة التى بين صورهم وبين المرآة مماثلة للمسافة التى بينهم وبين تلك المرآة ، ثانيا : لماذا تكون أيمانهم فى الصورة جهة الشمال ؟ ولماذا تكون شمائلهم جهة اليمين فى الصورة .

[سادسا] — يرون أن الماء كالمرآة سواء بسواء ، فهو يعكس الضوء كما تعكسه المرآة كما قدّمناه .

[سابعا] — اذا وصلوا إلى هذه النقطة : أى مسألة الماء يرون أمرا عجبا ! يرون أن الصور فى الماء يحصل لها انكسار ، إذ معلوم أن النور يمشى على خط مستقيم ولكنه فى الماء ينكسر ولايستقيم . فقال صاحبى : الانكسار ليس جمالا . فقلت : ستعلم علم اليقين أن هذا الانكسار هو الجمال كله ، فلولا انكسار الضوء الآتى من الشمس السائر فى الجوّ الملاقى للهواء الجوّى ومافيه من الذرّات والهباء ، تلك اللاتى تجعله يجرى على غير استقامة ، فينتشر فى الكرة الأرضية ، ويكون عند الناس شفق وفجر وصبح .

أقول : لولا ذلك الانكسار لم يكن صبح ولاشفق ولاجمال فى المناطق الباردة ، فالانكسار هنا اعتدال ،

اقرأ هذا المقام فى أوّل [سورة الزمر] فهناك ترى العجب العجاب ، وترى علم الطبيعة وعلم الفلك متآخيين ومتصاحبين ومتحابين ومتعانقين ، وذلك كله موضح بالصور الشمسية هناك . فقال حسن . فقلت :

[ثامنا] — إن العقلاء متى وصلوا إلى هـذا المقام أخذوا يبحثون فى الزجاج كما بحثوا فى الماء من حيث انكسار الضوء ، فهو ينكسر فى الزجاج كما انكسر فى الماء ، وهناك يستخرجون [قاعدتين : القاعدة الأولى] أن الماء ينكسر إلى جهة من الجهتين عند مروره من جسم لطيف إلى كثيف و ينكسر إلى الجهة الأخرى اذا مرّ من كثيف إلى لطيف .

[تاسعا] — وهنالك يدخلون فى علم العدسات ، وكل ماتقدّم مقدمة له ، وذلك بأن ينظروا أوّلا فى أنواع الزجاج المذكور ، ذلك أن الزجاج طوع أيدى الناس وليس كالماء ، فهم يقدرون أن يجعلوا الزجاجة محدّبة الوجهين فتكون منتفخة من الناحيتين ، و يقدرون أن يجعلوها مقعرة الوجهين ، فتكون من وسطها كالخصر النحيل ، وقد وجدوا لها فى الحال الأولى خاصة تخالف الحال الثانية ، ولكن الماء ليس كذلك ، بل هو جسم لايقدر الانسان أن يحكمه كما قدّمناه ، فالعدسات المحدّبة الوجهين تكبر الأجسام وقد تقرّبها ، والمقعرة الوجهين تصغر الأجسام وتبعدها ، وهناك يدخل الناس فى باب العمل بهذا العلم والانتفاع به فيجعلون هذه الزجاجات مقوّيات لأبصارهم ، مقرّبات للصور تارة مبعدات لها أخرى على حسب الأبصار طولا وقصرا

[عاشرا] — وهنالك يركبون الزجاجات المكبرة بعضها مع بعض بهيئة مخصوصة فيكون المنظار المعظم والآلة المكبرة التى قد تكبر الجسم عشرين ألف مرة فى زماننا هذا .

✡
✡ ✡

فقال صاحبى : حسن والله ماتقول ، إذن الناس انتقلوا من ضوء داخل من نافذة فى حجرة مظلمة إلى انعكاسه على الحائط وانقلاب صوره ، وهكذا تدرّجوا فى العلم من انعكاس الضوء إلى انكساره وإلى تكبيره للصور وتصغيره وقربها وبعدها ، إلى مساعدة العلماء فى الأرض بتقوية أبصارهم بالزجاجات البصرية ، إلى تكبير الجسم ٢٠ ألف مرّة لازدياد العلم واليقين .

الله أكبر : هذا أحسن جدّا ، ولكن هذه الهداية واللطف اللذان تضمنتهما أسماء الله الحسنى كاسمه اللطيف ، واسمه النور ، واسمه الهادى التى كلامنا فيها لايتمّ ذلك فيها إلا بالمشاهدة التى عليها بنيت سؤالى فأريد أن أشاهد ذلك عيانا وإن كنت تصوّرته بذهنى كما تصوّرت كلام الامام الغزالى رحمه الله تعالى بعقلى فقلت : هذا المقام لخصه الأستاذ [پول برت] الأستاذ بالسربون بفرنسا ، ووزير وزارة المعارف الفرنسية الذى ترجمه من الفرنسية إلى الانجليزية زوجته [جوسيفيا كايتون] الانجليزية الاسكتلندية ، وهاك ترجمته من صفحة ١٦٤ من ذلك الكتاب المسمى « العلوم الطبيعية » إلى صفحة ١٧٦ فقد جاء فيه تحت العنوان التالى مانصه :

أشعة الضوء

أخذ الأستاذ [پول برت] يخاطب تلميذه فى الفصل قائلا :

(س) جورج : من أين جاءت الحرارة ؟ .

(ج) من النار ياسيدى .

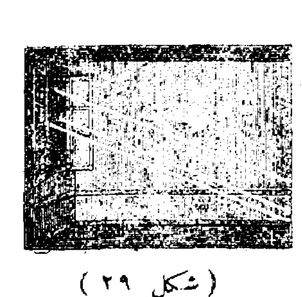
(س) نعم ولعلّ هذه النار خارج حجرة الفصل الذى ندرس فيه .

(ج) آه : أمن خارج الحجرة . كلا . بل هى من الشمس .

(س) حسن جدًا ، ولكن أرى النار والشمس ليس لهما إلا الحرارة وحدها ؟

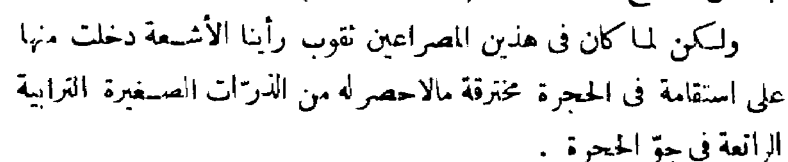
(ج) كلا . انهما يعطيان أيضا نورا .

(س) حقا هذا ، واذا كانت الحرارة مصاحبة للنور فاننا اذا نظرنا إلى النور نعرف بواسطة رؤيته أن هناك حرارة ، وهذا أسهل من معرفة الحرارة بواسطة الترمومتر [مقياس الحرارة] .



(شكل ٢٩)

وهنا أخذ المؤلف يثبت أن الضوء يجرى على خط مستقيم ، وأن الحرارة تصاحبه ، فقال : اننا أولا نرى النور يتحرك على خط مستقيم ، انظر فى هذه الحجرة من حجرات المدرسة ، فانك ترى ضوء الشمس يسطع على مصراعى بابها من الخارج وهما مقفلان (انظر شكل ٢٩)



ولكن لما كان فى هذين المصراعين ثقوب رأينا الأشعة دخلت منها على استقامة فى الحجرة مخترقة مالاحصر له من الذرات الصغيرة الترابية الرائعة فى جوّ الحجرة .

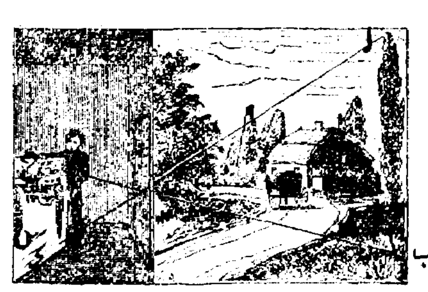
ثم قال للتلميذ : ضع يدك فى خط من هذه الخطوط الضوئية ، انك ستحس بحاسة اللمس بالحرارة .

ثم قال : لاجرم أن هذا برهان آخر على أن الحرارة مصاحبة للنور .

الحجرة المظلمة

ثم قال الأستاذ : إن هذه المسألة تدعونى أن أريك أمرا عجيبا غريبا يابول ! اذهب إلى الحجرة المظلمة وضع قطعة ورق مقوى أبيض حرف [س] (انظر شكل ٣٠) تحت خطوط الشعاع الشمسية [ا د] و [ب ج] وهكذا تلك الخطوط اللامعات من خلال مصراعى الباب .

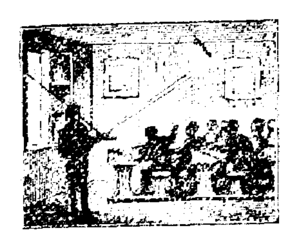
ألاتعجب معى من ذلك ! فهذه المناظر وان كانت واضحة متميزة مفصلة على اللوحة (فدونك هذه البركة التى بجانب منزل [جيمس] وهذه الطريق المرتفعة وفيها العربة) تراها منقلبة ، وهذا عجب عجاب ! قد جعلت أعاليها أسافلها وأسافلها أعاليها ، ولكن تعليل ذلك أمر سهل ، فانك ترى أطراف شجرة الحور عند حرف [ا] مثلا قد جرت الأشعة الشمسية منها على خط مستقيم كما تقدم ، ولكن بعض تلك الأشعة فقط أمكنها أن تدخل من ذلك الثقب حتى وصلت إلى لوحة الورق المقوى عند حرف [د]



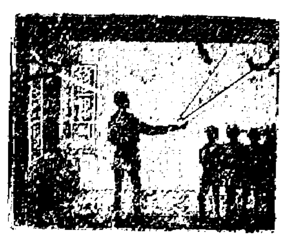
(شكل ٣٠)
الصور الخارجة ظهرت واضحة مفصلة على لوحة الورق المقوى حرف (س) ولكن جعل عاليها سافلها

ثم ان بعض أشعة أخرى من تلك الأشعة اللامعة الحاملة لصورة جذع [شجرة الحور] المذكورة أمكنها أيضا أن تخترق الثقب وتدخل الحجرة ، وهى جارية على خط مستقيم فتصل إلى [ج] انظر شكل ٣٠

وكما أمكن ذلك عند الحرفين [د] و [ج] يمكن أيضا فيما بينهما ، وبسبب ذلك ترى أن شجرة الحور عاليها سافلها ، ومثل ماقلناه فى ذلك نقول بكل وضوح فى جميع مناظر النقط الأرضية ، فتكون الأعالى أسافل وبالعكس يجرى النور على خطوط مستقيمة متقاطعة فتكون صور مقلوبة . ثم شرع المؤلف يذكر سرعة ضوء الشمس ، وهذا تقدم ، وأخذ يشرح بعد ذلك انعكاس الضوء فرسم هذين الشكلين :

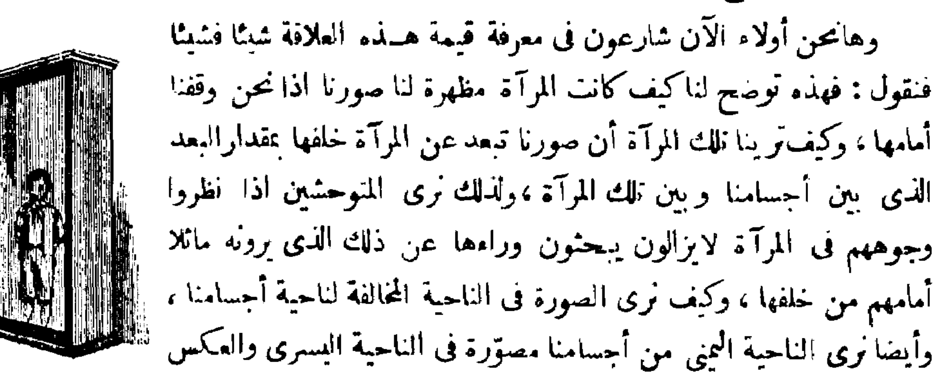


(شكل ٣١)
شعاع الشمس يرى منعكسا على الحائط عند حرف (ا) بواسطة الزجاجة العاكسة الضوء .



(شكل ٣٢)
هناك علاقة بين اتجاه الشعاع الضوئى الواصل للزجاجة والشعاع الضوئى المنعكس عنها الواصل تارة الى حرف (ا) وتارة الى حرف (ب) بحسب اتجاه الشعاع الواصل الى الزجاجة أولا .

وههنا أخذ يوضح ذلك ، فقال : فهاأنت ذا ترى على حائط حجرة المدرسة جزءا من الشعاع الشمسى قد ظهر عند نقطة (ا) فتى حركنا المرآة تحرك ذلك الشعاع مثل حركتها فى اتجاهها ، إن هذه النقطة الشعاعية صوّرها ضوء الشمس ثم سقطت على المرآة ، ومن المرآة أخذت تظهر ثانيا ، وهذا يسمى انعكاس الضوء ، ثم أخذ المؤلف يشرح هذا الموضوع فقال : لندخل الحجرة المظلمة (شكل ٣٢ المتقدّم) ثم لنضع المرآة فى وسط ضوء الشمس الذى يخترق النافذة (ر) التى فى مصراع الباب مخترقا ظلام الحجرة ، ومتى وصل إلى المرآة أخذ ينعكس عنها مرتدا إلى الحائط الآخر جاريا فى الهواء المفعم بالذرات الهبائية الترابية واصلا إلى نقطة (ا) اذا أنا أمسكت بالمرآة على هيئة استقامة ، فاذا أنا أملت المرآة فان نقطة الشعاع تصل إلى حرف (ب) فى الشكل المذكور ، وعلى هذا تكون هناك علاقة تامّة بين اتجاه الشعاع الساقط على المرآة واتجاه الشعاع المنعكس عنها .



وهانحن أولاء الآن شارعون فى معرفة قيمة هذه العلاقة شيئا فشيئا فنقول : فهذه توضح لنا كيف كانت المرآة مظهرة لنا صورنا اذا نحن وقفنا أمامها ، وكيف تر ينا تلك المرآة أن صورنا تبعد عن المرآة خلفها بمقدار البعد الذى بين أجسامنا و بين تلك المرآة ، ولذلك نرى المتوحشين اذا نظروا وجوههم فى المرآة لايزالون يبحثون وراءها عن ذلك الذى يرونه ماثلا أمامهم من خلفها ، وكيف نرى الصورة فى الناحية المخالفة لناحية أجسامنا ، وأيضا نرى الناحية اليمنى من أجسامنا مصوّرة فى الناحية اليسرى والعكس بالعكس .

(شكل ٣٣)
المرآة التى انطبعت فيها الصورة

قال : ولما كان هذا المبحث يعوزه بعض المذكرات الهندسية ليتجلى واضحا وجب تأجيله حتى تعرف تلك المذكرات ، ثم نشرع بعد ذلك فى هذا المبحث ، وهنا أخذ يشرح المرآة فقال : هذه المرآة التى استعملتها منذ دقائق لم تكن إلا من زجاج مطلى بالقصدير ، و بعض المرايات تصنع من المعادن بعد أن تصقل صقلا جيدا ، وهكذا كل سطح مصقول لامع يمكننا استعماله مرآة . فهاك شكل ٣٤ وهو الآتى فى الصفحة التالية :



(شكل ٣٤)
سطح الماء قد انعكست فيه الصور وظهرت كما ظهرت فى وجه المرآة سواء بسواء .

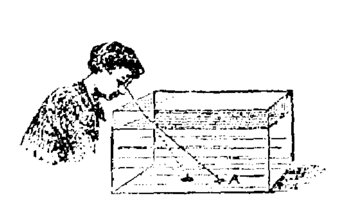
فهاهى ذه الزجاجة المملوءة ماء (شكل ٣٤) ، انظر فهاأناذا أرفعها قليلا إلى مسافة أرفع من عينى حتى يمكنها أن تنظر سطح الماء من أسفل الزجاجة ، إن هذا السطح قد ظهر لى كأنه فضة مصقولة صقلا جيدا ، انظر إليها أنت نفسك ، فهاأنت ذا ترى جميع الصور التى حولها قد عكست عليها واضحة ظاهرة كما تتضح وتظهر على وجه المرآة الحقيقية سواء بسواء . هذا تمام المقال فى هذا الموضوع ، والحمد لله رب العالمين .

ثم أخذ يشرح انكسار الضوء فقال : فلنذر الكلام فى موضوع انعكاس الضوء ، ولنبتدئ المقال فى انكساره فنقول :

انكسار الضوء

إن لفظ انكسار الضوء قد وضع للحقيقة التى تراه منطبقا عليها ، فانظر رعاك الله هذه الزجاجة المملوءة ماء (شكل ٣٦) هاأنا ذا وضعت فيها عصافة من التبن ، والعصافة قد ظهرت لأعيننا وهى مكسورة فى الماء ، وهكذا نراها تزداد اقترابا من الوضع الأفقى كلما أوغلت فى دخولها فى الماء ، هاأنت ذا تعلم علم اليقين أن العصافة ليس بها انكسار ، هذا لاتشك فيه ، ولكنك لن تقدر أن تمنع مخيلتك من تصوّرها مكسورة .

وهناك تجربة أخرى تثبت نفس النتيجة التى قدّمناها ، وهو ما تراه فى (شكل ٣٥) هنا .



(شكل ٣٥)
ان الشعاع اللامع هاهوذا أخذ ينكسر حينما دخل الماء وهو الذى أظهر أن قطعة النقد (بنى) قد ظهرت عند حرف (ا) فى الماء . وهذا المنكسر جاء بدل النقطة الحقيقية التى كان عنها هذا الانكسار .

(شكل ٣٦)
العصافة من التبن ظهرت كأنها مكسورة فى الماء ، وهذا هو الانكسار

ثم أخذ يصف الصندوق فى هذا الشكل ، فقال : هذا صندوق من القصدير ، وقد وضعت فيه قطعة [بنى] من النقود فى قاعه ، وهاأناذا أضع الماء فى قاع الصندوق ، تعال هنا ياجيمس وقف بحيث تقدر أن تنظر الحافة البعيدة من البنى ، ها أناذا أصبّ الماء فى الصندوق قليلا قليلا مع الاحتراس حتى أتجنب أن يتحرّك البنى من مكانه ، فقل لى ياجيمس ما الذى تراه ؟ فأجاب : هاأناذا أرى قطعة النقد ترتفع وتتحرّك رويدا رويدا نحو نقطة (ا) . فقال الأستاذ : نعم ذلك حاصل بسبب أن الشعاع الضوئى اللامع من قطعة النقد أخذ ينكسر كما انكسر من العصافة المتقدّمة قريبا ، هذا هو المسمى « انكسار الضوء » . وههنا قاعدة مطردة ، وهى ان الشعاع متى مرّ من وسط لطيف إلى وسط كثيف فانه يميل إلى جهة من جهتيه كما رأيت فيما تقدّم واذا مرّ من وسط كثيف إلى وسط لطيف مال إلى الجهة الأخرى .

واعلم أن الزجاج المسطح يفعل فى الضوء مايفعله الماء من حيث الانكسار .

هاأناذا أضع قطعة من الزجاج سميكة مسطحة (انظر شكل ٣٧) .

ويمكنك أن ترى الشعاع الضوئى يميل كما مالت العصافة فيما تقدّم ، فاذا



(شكل ٣٧)
ان شعاع الكتاب فى مروره من الزجاجة الى الهواء يميل وهذا انكسار بسيط .

أنا وضعت تلك القطعة من الزجاج على بعد مسافة كبعدها من الكتاب (انظر شكل ٣٨) فان ميل الشعاع فى هذه الحال ينكسر انكسارين : الانكسار الأول يكون حينما يسير الشعاع من الكتاب فى الهواء إلى القطعة الزجاجية ، ويتخللها . الثانى حينما يخرج الشعاع من قطعة الزجاج إلى الهواء ثانيا .

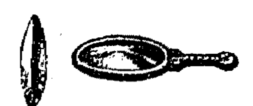


(شكل ٣٨)
الشعاع حينما فارق الكتاب مال فى مروره أولا من الهواء إلى الزجاجة ، ثانيا من الزجاجة إلى الهواء فهذا انعكس مرتين

العدسات : (البلوريات)

وهنا أخذ يشرح أحوال الزجاج الذى ليس مسطحا ، بل هو إما محدّب وإما مقعر ، والمحدب والمقعر أمرهما عجب ، فلكل منهما عمل خاص فى الصور الواردة عليه ، فهذا مكبر وهذا مصغر ، و بيانه أننا إذا وضعنا قطعة من الزجاج غير مسطحة بل هى محدّبة الوجهين فان ميل الضوء عنها يكون أتمّ وأكمل .

(س) — يابول بماذا تسمى هذه القطعة الزجاجية التى فى شكل ٣٩ المعنونة بحرف (ا) التى هى محدّبة الوجهين ؟ .

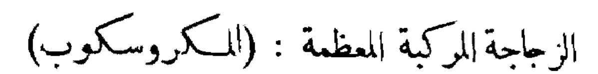


(شكل ٣٩)
عدسات محدبة الوجهين مدورة الناحيتين

(ج) فأجاب قائلا : أسميها زجاجة معظمة للصورة .

(س) نعم هو كذلك ، ولكن علماء الطبيعة يسمونها [عدسة] أو [بلورية] ان اسمها العادى [الزجاجة المكبرة] يدل على حقيقتها ، لأنها تكبر الأشياء الصغيرة خذ هذه فى يدك وانظر الى حروف المطبعة الدقيقة فى هذا الكتاب (شكل ٤٠) . ثم قال له : حسن ما الذى جعلك متحيرا فى دهش ؟ فأجابه التلميذ قائلا : ولم لا أعجب ياسيدى ، اننى لم أر شيئا ألبتة ، فقال الأستاذ : انتظر رويدا ، لاتضع العدسة على عينك ، ولاتجعل أنفك على الكتاب ، بل انظر كما جرت به عادتك ، ولكن بواسطة الزجاجة المكبرة ، فاجعلها أوّلا قريبة من الكتاب (انظر شكل ٤٠) ارفعها قليلا قليلا إلى أعلى وأنت لاتزال تنظر بها ، فها أنت ذا ترى الحروف أكبر شيئا فشيئا ، فاستمر فى الرفع حتى تراها مفصلة ، ولكن اذا داومت على ذلك واستمررت فى رفع الزجاجة المكبرة فانك ترى الحروف تصغر شيئا فشيئا حتى لاتعود ترى ألبتة ، إذن البعد المناسب يجب أن يعرف ، وكل ما كان أطول منه أو أقصر يجب أن توضع له عدسة ، وهذه العدسة التى معك الآن تكبر الأشياء بالضعف ، ويجب أن تجعل العدسة قريبة من الجسم المنظور بمقدار بوصة .

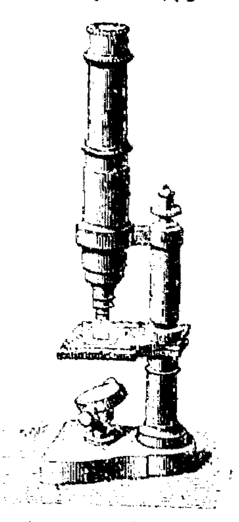
(شكل ٤٠)
زجاجتان محدبتا الوجهين مكبرتان



الزجاجة المركبة المعظمة : (المكروسكوب)

أوّلا : اذا وضعنا عدّة عدسات معا بهيئة خاصة فانها ترينا الشىء أكبر مما هو عليه من حيث حجمه ١٠ مرّات أو ١٢ مرّة مثل حجمه الحقيقى وهذه تسمى [الزجاجة المركبة المعظمة]

ثانيا : [المكروسكوب] يصنع من عدسات أكثر نظاما فى ترتيبها وأبدع إحكاما فى تركيبها (انظر شكل ٤١) .



(شكل ٤١)
المكروسكوب يعظم الصور أكثر

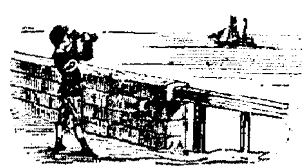
إن [المكروسكوب] [1] فيه قوّة عظيمة جدًا على تكبير الصور ، فقد يعظم الحجم ١٠٠ مرّة ، و٢٠٠ مرة ، بل ألف مرّة أكبر من الحجم الحقيقى .

ثم قال : إنّ ما أقوله فى أمر [المكروسكوب] ربما لايدهشك ، ولايحدث عندك غرابة ، لأنك تقول فى نفسك : وماقيمة تكبير الشىء عشرة أومائة أوألف ؟ إنّ الرجل المخرّف الدجال ربما يقول لنا : أنا أكبر الشىء ألف ألف مرّة ، فاذا كبرت بالمكروسكوب الجسم عشرات أومئات فذلك ليس بمدهش ، لأنا سمعناه والجواب على ذلك أن أقول لك : ان طريقة البعد عند الدجال غير طريقتها هنا فى المكروسكوب ، لأنّ طريقتنا هنا أننا اذا قلنا ان المكرسكوب يكبرالشىء عشرمرّات فمعناه أنه اذا كان طوله عشرالبوصة يصبح ذلك الطول بواسطة المكروسكوب طول البوصة بتمامها ، وهذا ليس معناه أنه كبر عشر مرّات فحسب . كلا . بل اننا اذا قلنا ان هذا الجسم كبر طوله عشر مرّات فمعناه أنه كما كبر فى طوله كبر فى عرضه كبر فى عمقه ، وبضرب ١٠ فى ١٠ فى ١٠ يصير ألف ، فقول الدجال : انى أكبره مليون مرّة ليس أمرا أكثر من أنه زاد طوله فجعله ١٠٠ ومتى زاد طوله مائة كان عرضه كذلك وعمقه ، فهذا هوالمليون بعينه ، إذن تعبيرنا نحن أقرب إلى عدم ضجيج الجهلاء ودهشتهم وتعبيره أدنى إلى ضجيجهم ودهشتهم .

لا أمر أعجب ، ولامنظر أدهش وأدعى إلى سرور نفسك وبهجتها من أن تشهد بنفسك أيها القارىء الكريم بالزجاجة المكبرة عجائب المخلوقات أمامك ، أنا لا أقدر أن أعبر لك عما يخالج نفسك من الدهشة والغرابة والبهجة والاستحسان والروعة عند امتحانك حشرة ، أوزهرة ، أوأىّ شىء حولك ، أونفس جلدك وثوبك وغيرها ، بماذا تدرس هذه العجائب كلها ؟ بزجاجة مكبرة ثمنها شلنان اثنان لاغير .

هل فى الوقت سعة لتفصيل ماتظهره هذه الآلة البديعة من العجائب التى تدهش اللب وتحير العقل وتبعث على الحيرة والعجب : آلاف من الأحياء الصغيرة السابحات فى قطرة ماء فى مستنقع ، وملايين كثيرة من الأجسام الصغيرة الحمراء فى قطرة من الدم ؟ أنا لا أجد وقتا للتوسع والتفصيل ، فذلك ليس فى الامكان .

التلسكوب ، أو (سبيكلاس) : الآلة المقرّبة



(شكل ٤٢)

تلسكوب يكبر الجسم من حيث المسافة ، وينتج ذلك أن الجسم يصير قريبا

وهناك نوع من [المكرسكوب] يكبر الأحجام باعتبار قربها (ومعنى هذا أن الأحجام البعيدة صغرها البعد ، فهذا التلسكوب متى كبرها ظهرت قريبة ، فهذا تكبير للبعيد فيصير فى النظر قريبا) فهذه مكبرة تكبيرا يظهر أثره فى اقتراب الأجسام (انظر شكل ٤٢)

وهذا التلسكوب بواسطة وضع عدسات مختلفات بهيئة أخرى ونظام خاص ، فهذه كما تسمى سبيكلاس تسمى تلسكوب (شكل ٤٢) ، بمساعدة هذه الآلة نقدرأن ندرس النجوم وننظرفيها عجائب مفصلة تفصيلا بديعا لاترى بالعين المجرّدة .

---

(١) كلمة مكرسكوب كلمة مركبة من كلمتين يونانيتين : ميكروس صغير ، وسكوبو : تنظر إلى : اهـ

زجاجة

زجاجة العين ، أو المنظار

وهناك نوع آخر من الزجاجات المكبرات للأحجام معلوم للعموم ، وهو المنظار المعتاد ، وهو عبارة عن قطعة من الزجاج صغيرة بيضاوية الشكل يضعها أمام عينه من اعترى نظره ضعف .

قال المؤلف لتلاميذه : وها أنا ذا ملزم أن أضع هذا المنظار على عينيّ لأنى كبير السن ، فها أنت ذا ترى أن هاتين عدستان بسيطتان مكبرتان ولكن قليلا ، نخذهما فى يدك واستعملهما كما كنت تستعمل الزجاجة المكبرة قليلا ، وانظر هل يمكنك أن تقرأ بهما ؟ فأجاب هنرى وقد حرّك رأسه قائلا : آه : ها أنا ذا أرى ، لماذا ؟ أنا لست الوحيد فى المدرسة الذى يحتاج إلى منظار يضعه على عينيه ، إن جيمس (وان كان شابا) يعوزه منظار على عينيه ، فلما وضعها هنرى على عينيه وجدها على هيئة خلاف ما تقدّمه ، فحصلت للتلاميذ حيرة ، لأن هذا المنظار مبعد لا مقرّب كالأوّل .

شكل ٤٣

عدستان مقعرتان من الجانبين معا ، فهذه بدل أن تجعل الحجم كبيرا تريه للاعين صغيرا ، و بدل أن تجعله قريبا تجعله بعيدا

فقال الأستاذ : أنا أشرح الموضوع لكم تمام الشرح : يجب أن تعلموا أن هناك عدسات أخرى غير المحدبة وهى المقعرة (انظر شكل ٤٣) .

تعال هنا ياجيمس بجانبى ، وأحضر معك منظاريك ولكن لاتضعهما على عينيك وأنا كذلك لا ألبسهما ، ثم تعال هنا ياهنرى ، يامن عيناه قويتان سليمتان ، لاقصر فيهما ولاطول ، تعال معنا أيضا ، فلنقرأ نحن الثلاثة فى كتبنا ذات الحروف المتحدة من حيث مطبعتها ، أما أنا فانى ملزم أن أجعل الكتاب بعيدا عن عينى جدا على طول ذراعى حتى أقدر أن أتبين حروف الكتاب ، لأنّ نظرى طويل ، فأما جيمس فانه على العكس منى ملزم أن يجعل الحروف بجانب عينيه ، لأنّ نظره قصير ، وأما أنت ياهنرى فان نظرك معتدل ، لذلك تضع الكتاب فى المسافة المعتدلة التى تبعد نحو ثمان بوصات عن عينك (انظر شكل ٤٤) فلنضع مناظرنا على أعيننا أنا وجيمس ، الآن صار النظر تاما ، نحن الثلاثة قد وضعنا كتبنا فى مسافة واحدة (انظر شكل ٤٥) .



(شكل ٤٤)

هنرى سليم النظر ، وأنا طويل النظر ، وجيمس قصير النظر .



(شكل ٤٥)

نحن لبسنا مناظيرنا أنا وجيمس ، ونظرنا المنحرف قد اعتدل الآن كنظر جيمس

ثم قال الأستاذ : إن سبب هذه العجائب سأوضحه عند قراءة علم التشريح ، والآن نريد أن ندع الكلام على العدسات المصغرة ، ولنجعل كلامنا خاصا بالعدسات المكبرة ، إننا إلى الآن لم نستعملها إلا فى أمر واحد ، وهو أننا نضعها بين أعيننا و بين الأشياء التى نريد أن نبصرها ، ولكننا الآن نريد أن نستعملها استعمالا آخر ، وهو [بؤرة العدسة] ، انظر الآن هذه العدسة قد وضعتها فى ضوء الشمس (انظر شكل ٤٦) .

(شكل ٤٦)

إن جميع الأشعة الضوئية قد اجتمعت عند نقطة (ا) المسماة بؤرة .

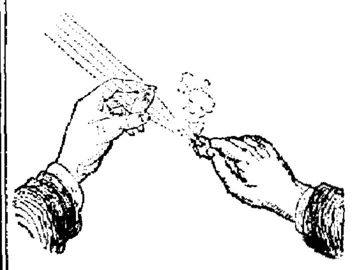
ثم قال : انظر هذه المرّة ما يأتى : هاأناذا وضعت العدسة فى ضوء الشمس (شكل ٤٦) وقد وضعت وراءه قطعة من الورق ، وهذه الورقة أخذت أوجه نحوها بالتدريج العدسة ، فها أنت ذا [أوّلا] ترى أن بقعة بيضاء حرف (ا) حاصلة فى الورقة فى بعد خاص ، ظاهرة على الورقة أمامك ، وهذه البقعة يأخذ شكلها فى الصغر شيئا فشيئا كلما اقتربت منها العدسة شيئا فشيئا أيضا ، ولاتزال تصغر حتى تصير نقطة صغيرة فى مقدارها ، ولكنها فى أثناء تدرّجها فى الصغر تتدرّج أيضا فى ازدياد لمعانها وضيائها ، ولا عجب فى ذلك ، لأن ألوان ضوء الشمس كلها التى سقطت على العدسة قد اجتمعت معا فى هذه النقطة [ثانيا] هذه النقطة نسميها [بؤرة العدسة] فى الاصطلاح ، ومعناها فى اللغة العربية حفرة النار [ثالثا] اذا أردنا أن نستعمل هذه العدسة زجاجة مكبرة وجب علينا إذ ذاك أن نضع الجسم المراد تكبيره بين العدسة و بين بؤرتها ، إياك أن تنسى ذلك .



(شكل ٤٧)
عند البؤرة (ا) فوق يدك كل الأشعة قد اجتمعت معا

ثم قال الأستاذ : تعال هنا ياجيمس وضع يدك فوق قطعة الورق (شكل ٤٧) انظر تجد أن بؤرة العدسة تضىء على يدك ، ولكن لماذا أراك تسحب يدك فترجعها إلى الوراء ؟ فأجاب : ذلك لأنى أحس بأن النقطة شديدة الحرارة .

[رابعا] فأجاب الأستاذ : حسن جدّا ، إنّ هذا يدلك على أن الحرارة دائما تصاحب النور ، وأن البؤرة الجامعة للألوان هى عينها أيضا بؤرة جامعة للاشراق والاضاءة فهى مجمع الألوان والاشراق ، كلما كانت العدسة أوسع وأكبر كانت كميات النور التى تجمعها من الشمس فى مركز النور وهى البؤرة أعظم ، وكانت تلك البؤرة أكثر اشراقا وأشدّ حرارة على مقدار ماجمعت من الأنوار .



(شكل ٤٨)
عند بؤرة عدسق الصغيرة (ا) كل أشعة الحرارة اجتمعت معا فأوقدت قطعة الصوفان

[خامسا] اننا بهذه العدسة الصغيرة نقدر على ايقاد النار فى الصوفان (شكل ٤٨) ، ولكن ليس من الواجب المحتم علينا للوصول إلى هذه النتيجة العجيبة ، وهى إيقاد النار بسبب هذه البؤرة أن تكون العدسة من زجاج . كلا . بل تكون هذه النتيجة ، ولوكانت العدسة من أىّ جسم شفاف ، مثلا الثلج جسم شفاف ، ولقد نعلم أن قائد السفينة فى الأقطار الشمالية القطبية يوقد النور بالأشعة الشمسية الضعيفة فى الأقطار القطبية الشمالية المجتمعة فى بؤرة عدسة كبيرة جدا متخذة من الكتل الثلجية الكبيرة .

الله أكبر : فكم يتعجب سكان تلك الأقطار ، وهم الاكسيمو من ذلك المنظر البديع ، ولكم يدهش البحارة التابعون لقائدالسفينة من ذلك المنظر البديع الذى أبرزه العلم فأخرج الحرارة من البرودة وكأنّ الضد نشأ من ضده ، ذلك أمر عجيب !

(شكل ٤٩)
القطعة الزجاجية حللت النور الشمسى إلى سبعة ألوان : البنفسجى والنيلى ، والأزرق . والأخضر والأصفر ، والبرتقالى ، والأحمر ، واجتماع هذه السبعة يسمى : سبكترام .

الألوان

هانحن الآن نريد أن نبحث فى تجاريب خاصة بأمر أكثر عجبا ، وأجل منظرا ، وأشدّ بهجة فى القلوب ، مظهر تحليل النور وتفرّق أشعته والكلام على ألوان الشمس السبعة ، هاهى ذه قطعة بلور ذات ستة وجوه (انظر شكل ٤٩) .

فهاهي‌ذه أنا أديرها فى ضوء الشمس فوق هذه الورقة ، فهانحن أولاء نرى أنها فى وضع خاص تحدث فوق الورقة نقطة ذات ألوان كثيرة ، فاذا نظرنا بعناية إلى هذه النقطة وتأملناها نجد أن مركزها يشتمل على لونين ، وهما أصفر وأخضر ، وعلى أحد الناحيتين الزرقة ، وعلى الناحية الأخرى الزرقة والبنفسجية ، ولا جرم أنكم قد لاحظتم [قوس قزح] ، ومعلوم أن الألوان المجتمعة فيه سبع ، فاذا ابتدأنا بالبنفسجي الذى هو أسفل الألوان التى فى [قوس قزح] قلنا هكذا : البنفسجي ، النيلى ، الأزرق ، الأخضر ، الأصفر ، البرتقالى ، الأحمر .

هذا بحسب الظاهر ، ولكن فى الحقيقة أن هناك أنواعا من الطيف كثيرة يختلط بعضها ببعض ممتزجات متحدات من الأحمر إلى البنفسجي بحيث لايقدر الانسان أن يميز أوّلها من آخرها ، ولامبدأها من منتهاها .

وعلى ذلك تكون دراسة ألوان ضوء الشمس تختص بهذه الألوان السبع المجتمعة فى صورة [قوس قزح] المعروف ، وهى التى أظهرتها لنا الزجاجة البلورية المسدسة الأوجه التى بها عرفنا كيف يتفرّق النور وينتشر فيصير ألوانا مختلفة .

(شكل ٥٠)
الضوء الأبيض حاصل بسبب اتحاد الألوان السبع (ألوان ضوء الشمس)

إن ما تقدّم به نعلم أن الألوان كلها مجتمعة فى ضوء الشمس وان كانت بحسب الظاهر بيضاء لا لون لها .

تركيب ضوء الشمس الأبيض

لنبرهن الآن بتجربة بسيطة على ما تقدّم فنقول : هاهي‌ذه قطعة من الورق المقوّى مدوّرة ، إنى لوّنتها بسبعة الألوان الظاهرة فى [قوس قزح] (شكل ٥٠) .

إن الورق المقوّى المتقدّم فى مركزه فتحة صغيرة ، وفيها قد ألقت عودا ، وعلى ذلك هاأناذا أديرها بسرعة على هذا العود كأنها تدورحول محور ، هاأنتم أولاء ترون الألوان قداختفت اختفاء تاما بعدالدوران وكانت ظاهرة قبله ، وأصبحت هذه الورقة المقوّاة بيضاء تسرّ الناظرين .

على أنه ليس من الضرورى أن أرسم الورقة بسبعة الألوان حتى تظهر بيضاء عند دورانها السريع ، انه ليجزئنى فى ذلك أن أرسم الثلاثة الألوان الرئيسية ، وهى : الأحمر والأصفر والأزرق ، وسبب ذلك أن بقية الألوان مشتقات من هذه الثلاث ، وهى : البرتقالى ، والأخضر ، والبنفسجي (المؤلف : لم يذكر السابعة ، وهوالنيلى) .

ثم شرع يبين ذلك فقال : إن هذه الثلاثة تحصل باتحاداثنين اثنين من هذه الثلاث ، وبيانه أننا ننظر فى قطعة أخرى من الورق المقوّى ونلوّن نصفها بالحمرة والنصف الآخر بالزرقة ونفعل فيها مافعلناه بسابقتها ، فلما فعل ذلك ظهراللون البنفسجي ، ثم انه لوّن قطعة أخرى نصفها بالحمرة ونصفها الآخر بالصفرة ، فأدارها بسرعة فظهراللون البرتقالى ، ثم ان لونى الصفرة والزرقة انتجا الخضرة .

مامعنى ألوان المادة المشاهدة ؟

ما الذى نعنى بقولنا هذا : الورق المقوى أوغيره أبيض أوذاك أخضر أوأحمرأوأسود ؟ [الجواب] : إن معنى ان الورق المقوّى أبيض ، أوأىّ شىء آخر أبيض انه قد نشر وأذاع كل ماوصل إليه من الألوان السبعة ولم يمتص منها شيئا ، والأزرق والأحمر قد امتص كل منهما ماوصل إليه من الأشعة ، ولم يمتص الأوّل الزرقة ، ولا الثانى الحمرة ، أما الأسود فانه قدامتص جميع الأشعة فلم يبق منها شيئا ينكسرعنه وينتشرانتشارا فسأل أحد التلاميذ المؤلف قائلا : ماسبب هذا ؟ فأجاب : أنا الساعة لست على استعداد للاجابة ، فلتقنعوا

مؤقتا بهذه المعرفة .

وعلى هذه الطريقة يكون قولنا : إن الماء أبيض ، وإن الخمرة حمراء ، وإن الحبر أسود معناه أن الماء أجاز جميع الألوان السبعة أن تقاطعه وتمرّ فى طريقها به ، ولم يحبس لونا منها ، ولم يمرّ لون من الألوان السبعة فى الخمر إلا لون الحمرة ، والبقية قد امتصها ذلك السائل ، أما الحبر فقد امتص جميع الألوان ولم يسمح بمرور واحد منها به ، ذلك هو المعنى الذى يفهم من هـذه الصفات اللونية ، إن التلوّن يحصل باحدى حالين : إما بانتشار الضوء ، وإما بمروره من جسم شفاف ، فمثال الأوّل ماتقدّم من انتشار الضوء بواسطة الورق المقوّى الملوّن ، ومثال الثانى أن نضع بين أعيننا و بين الضوء أجساما غازية ، أوأجساما سائلة ، أوأجساما صلبة شفافة كالزجاج .

ومن أندر ماعرف من صفات الأجسام وعجائبها أن الجسم الواحد يكون لها لونان باعتبارين مختلفين : أى بانتشار الضوء عنه ، أو بمروره منه بهيئة جسم شفاف ، ثم أتى بورقة شفافة رقيقة جدا من الذهب وقال : انظروا هـذه ، فهى صفراء متى انتشر الضوء عنها : أى ان لونها نفس لون الذهب المعروف ، ولـكن اذا نظرناها فى حال وضعها بين أعيننا و بين ضوء الشمس فانها تظهر لنا خضراء ، ومثل هـذه الحال فى الموادّ قليل جدّا اه .

ملخص ماتقدم

فقال صاحبى : ما ملخص هـذا ؟ فقلت : ملخصه أن هذا العقل الانسانى يستنتج أعاظم الأشياء من أصاغرها ، فانه لما رأى الضوء دخل حجرته على خط مستقيم ومعه الحرارة استخرج منه أمرين : ملازمة الحرارة للضوء ، وذلك بحاسة اللمس ، وكون جريه على خط مستقيم بحاسة البصر ، ثم أخذ يستنتج مافوق ذلك مثل ان الأجسام ترسم على الأجسام القابلات للضوء على هيئة مقلوبة ، وأن الضوء اذا وقع على جسم شفاف كالماء فانه ينعكس عنه وتـكون هناك زاويتان : زاوية للسقوط ، وزاوية للانعكاس ، ومن وضع فى يده مرآة وانعكس عنها النور كان ذلك المنعكس تابعا لحركة المرآة ، ثم انتقل العقل الانسانى من هذه المبادىء إلى ماهو أشرف منها ، فنظر فى أمر الصور المرسومة فى المرآة ، فوجد أن المسافة التى بين الانسان و بين المرآة مساوية للمسافة المقدّرة بين نفس المرآة و بين الصورة التى يخيل له أنها وراء المرآة ، وهذه راجعة إلى المسئلة المشابهة لهاهنا ، ثم رأى أن يمينه أصبح فى الصورة يسارا و بالعكس ، فوجد هذه المسألة راجعة إلى أن الصور ترسم مقلوبة كما تقدّم قبل ذلك .

هنالك أخذ يوازن مابين الماء والزجاج ، فوجدهما يقبلان الصور لأنهما شـفافان ، ثم أخذ الانسان يبحث فى انـكسار الضوء كما عرف انعكاسه ، وهو فى حال الانـكسار تعتريه أحوال : مثل ان الجسم فى بعض أحواله يكون حجمه أكبر ممـا هو عليه اذا غمره الماء ، فبدا لهذا الانسان النشط أن يتخذ العدسات ، فجعل منها ماهو مكبر للأجسام الصغيرة ، ومنها ماهو مصغر لهـا ، ومنها ماهو مقرّب لمسافاتها ، فـكانت العدسات المحدّبة الوجهين مـكبرات للأجسام ، و بوضع عدد منها بهيئة منتظمة أمكنه أن يكبر الحشرات بالآلات المعظمة [مكروسكوب] و بوضع آخر منتظم أمكنه أن يقرّب مناظر الأشياء البعيدة [تلسكوب] .

ثم انتقل من هذا إلى أمر طبىّ ، فاستعمل العـدسات على العيون الانسانية ، فان كانت محدّبة نفعت طويل النظر ، وان كانت محدّبة (وظيفتها تصغير الأجسام) نفعت قصير النظر ، وههنا أخذ الانسان ينظر فى الألوان فوجد أن [قوس قزح] فى السماء شرح له ضوء الشمس شرحا وافيا ، فدهش إذ رأى سبعة ألوان واضحات أمامه مبتدئة من الأسفل إلى الأعلى على هـذا النمط : بنفسجى ، نيلى ، أزرق ، أخضر ،

أصفر

أصفر ، برتقالى ، أحمر . فالأحمر أعلى فى قوس قزح ، والبنفسجى أقرب إلى الأرض ، هنالك خطر لهذا الانسان أن ينظر جسما شفافا عسى أن يرى هـذا المنظر ، فماذا فعـل ؟ أخذ صمامة من البلور ، ذلك الجسم الجميل المستخرج من الرمل مع أجسام أخرى مثل البوتاسا أوالصودا ، وجعله مضلعا ، فرأى هذه الألوان واضحة خلفه ، فكان الأزرق والبنفسجى من جهة ، والأحمر من جهة أخرى ، والأصفر والأخضر فى الوسط .

سبحانك اللهم : زوّقت السحاب وجملته بقوس قزح ، وجعلتـه للناس درسا جميلا ليبتهجوا بالمناظر الجميلة ، عجب ! هـذه حدائق وجنات ، الأزهار فى الحدائق ذوات ألوان كألوان الطيف ، وهذه البلورة المضلعة تصنع نفس هذه الألوان البديعة التى تكاد تكون مجرّدة عن المادّة .

اللهم انك لايحجبك عن الابداع أمر مّا ، فهذا السحاب فى السماء خلقته لاصلاح حال كل حيّ على الأرض ، ولكن فى أثناء ذلك لم تدع التزويق والابداع وتحسين أشكال السحاب .

فقال صاحبى : هل ما ترجمته من هذا المقال أحدث أثرا غيرما ذكرته الآن فى نفسك . فقلت : لقد تقدّم ذكر الآلة المكبرة للأجسام فشاقنى ذلك أن أقابل الأستاذ شوقى بك بكيرالذى هو أعظم عالم طبيعيّ فى مصر ، وهو يسكن حلوان ، وأرانى [المكرسكوب] الذى عنده ، وأطلعنى على رجل الذبابة التى كبرها أربعة آلاف مرّة ، وذلك فى يوم [شم النسيم] سنة ١٩٣٢ ثم وضع حجرا صغيرا لايؤبه به استخرجه من جهة تسمى [الحوف] وهو واد يمتدّ فى وسط الجبل الشرقى بالبلاد المصرية ، وما كاد يضع هذا الحجر تحت الآلة حتى ظهرت أنواع من القواقع مختلفات الشكل مما دلّ على أن هـذه الأحجار وهذه الصخور وهذه الجبال قد خلقت فى البحر ، ثم اعترتها أحوال عظيمة غيرت نظام الأرض وأوضاعها ، فظهرت تلك الجبال على ظهر الأرض كما هوالرأى السائد عند علماء هذا الزمان .

ومما قاله إذ ذاك : إن فى وادى الحوف المذكورنباتات تخرج بالفطرة تنفع للمداواة ، فاذا زرعناها فقدت خواصها ، وهـذا عجب يدل على أن العناية الالهية رتبت نظام العوالم لثمرات خاصـة وأكثرالناس لايعلمون .

هنالك أرانى أمرا عجبا ! فقال انظر : فنظرت اذا فوق سقف منزله سلكان مصنوعان من النحاس ، دقيقا صنعهما ، موضوعان بهيئة هندسية بحيث يميل السلك الأوّل عن خط الشمال إلى الغرب عشرين درجة و يميل الثانى عن الأوّل نحو ٦٠ درجة ، وهذان السلكان يجتمعان فى زاوية عند الحائط ، وقد اتصل بهما سلك نزل إلى أسفل المنزل واتصل بالآلة [الراديو] .

فهذان السلكان فوق سقف المنزل يتلقيان ما يأتى به الجوّ من الأصوات التى فى الجهات الأوروبية وغيرها المحصورة بين هذين السلكين ، فكل موج من الأمواج الواقعة بينهما يلتقطهما هذان السلكان ويتلقاه عنهما السلك النازل إلى الآلة فى الدورالأسفل من المنزل : « فتبارك الله أحسن الخالقين » .

سلوك من النحاس تكون فوق السقف توضع بهيئة خاصـة ، تعطى قوّة سحرية بأن تسلب من الجوّ حركات الأصوات الجارية فى الأثير فتحيلها إلى صوت كالذى صدر هناك فى باريس أو لندن أو برلين أو فينا ، إنّ هذا الأمر عجيب ! فقال صاحبى : هذا من أعجب العجب ! فكفى هذا فى الاستطراد ، فهل من رجوع إلى المبحث الذى كنا فيه ، وهو ضياء الشمس ؟ فقلت : نعم .

ضوء الشمس كما يفيد الهداية يفيد الحياة

أيها الصديق : تقدّم كلامنا فى أن ضوء الشمس منه صنع الناس الأعاجيب ، فى الهداية به اهتدوا إلى غرائب وغرائب تقدّم وصف بعضها فى هذا المقام .

رباه : خلقت الشمس وأرسلت منها ضوءا لأرضنا برحمتك ونعمتك ، وجعلت لها نظاما تاما فى سيرها ،

فنظمنا أعمـالنا بنظام سيرها ، ثم نوّعنا فى الانتفاع بذلك النور البديع .

ثم انا نظرنا نظرا آخر فألفينا هـذا النور ليس قاصرا على هدايتنا . كلا . بل هو مفيد لنفس حياتنا ، فهو حياة كما هو هداية ، إن النور يسطع على الورق فى الأشجار والحشائش وسائر النبات ، فيمتزج بالعصارات الجاريات فى تلك النباتات ، فيكون التفاعل والامتزاج ، فيتمّ نموّ النبات (تقدّم هذا واضحا فى سورة يس مشروحا مصوّرا بالتصوير الشمسى عند آية : سبحان الذى خلق الأزواج كلها) وكيف كان النور مساعدا على تغذية النبات وجلبه من الهواء موادّ الكربون السائحة فيه فيقوى النبات و يعيش ، و به تكون حياة الحيوان والانسان .

فقال صاحبى : ما أجمل هذا القول ، فهلا أفضت فيه كما أفضت فى هداية النور . فقلت : أيها الصديق : أنت تعلم أنّ هذا تقدّم فى سور كثيرة مستوفى موضحا ، ولكن ان شاء الله تعالى سأبحث بحثا مفصلا فى [سورة النبأ] ، وأذكر هناك ان شاء الله تعالى عجائب أبهج مما تقدّم عند آية : « لنخرج به حبا ونباتا ، وجنات ألفافا » وهناك ان شاء الله تعالى ترى بهجة الأشجار والشجيرات والنجوم : أى النبات الذى لا ساق له ، وكيف تنوّع الشجر فى هيئة أغصانه وأوراقه ، وكيف تكون الأزهار وهى مصوّرات قد تبدّت أنواع كأسها وتويجها ، وأعضاء ذكورها ، وأعضاء اناثها بحيث ترى واضحة فى الشكل ، وكيف كان من الذكور والاناث ماجاء فى زهرة واحدة كالقطن ، ومنها ماجاء فى زهرتين فى نبات واحد كالذرة ، ومنها ماجاء فى نباتين وهما إما فى جهة واحدة فيحصل اللقح فالثمر كالنخل ، لأنّ اللقاح قد يحصـل بالهواء ، أو بفعل الانسان ، واما أن يكون الذكر فى قارّة والأنثى فى أخرى كما فى الصفصاف ، فكل صفصاف أوروبا إناث ، وكل صفصاف آسيا ذكور ، لذلك لم ير الناس لهذا النوع ثمرا ألبتة ، وهناك ترى عجائب الأزهار ، وكيف حار العلماء فلم يهتدوا لتنظيم أنواع النبات إلا بواسطة أزهارها ، وماعدا ذلك لم يجدوا له قيمة ، وهناك ترى كيف كان ماله فلقة واحدة كالقمح وكالنخل يخالف تركيبه ماله فلقتان كالفول والبطيخ ، وكيف كانت العلاقة بين الثمرات والحبوب و بين نظام أجزاء النبات محكمة كما ستراه هناك ان شاء الله تعالى ، و بهذا انتهى الكلام على اللطيفة الثانية فى قوله تعالى : « ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح » ، والحمد لله رب العالمين . كتب يوم الخميس ٥ صفر سنة ١٣٥١ هـ — ٩ يونيو سنة ١٩٣٢ م قبيل الظهر .

اللطيفة الثالثة

فى قوله تعالى : أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن مايمسكهنّ إلا الرحمن الخ

سألنى العلامة صديقى الذى اعتاد محادثتى فى هذا التفسير . فقال : ما السرّ فى ذكر : « إنه بكل شىء بصير » بعد ذكر أن الطير صافات فى جوّ السماء ، وأن الله هو الممسك لها ؟ ثم ما عجائب الطيور وما تعريفها ، وما أقسامها ؟ انى أرجو أن تذكر لى هنا مجملا من ذلك ليعلم المسلمون فى أقطار الأرض أنهم مقصرون فى هذه الآية ، وأنهم عليهم أن يفهموا هـذه العجائب ، فلن يشكروا النعمة حتى يعرفوها ، والمعرفـة أساس السعادة فى الحياتين . فقلت : لقد ذكرت فى هذا التفسير مقالات كثيرة على الطيور وعلى غيرها . فقال : ولكن المجمل فى هذا المقام لابدّ منه مع بيان صور أهمّ الطيور ومنافعها بقدر الامكان . فقلت : أمامى الآن كتاب الأستاذ [بول بيرت] الوزير الفرنسى الذى ترجمتـه زوجته الانجليزية [جوسفينا كلايتون] مدام بول برت الاسكوتلاندية ، وفيه اختصر المطالب وصور الطيور ، ولابدّ قبل الشروع فى مختصر الكلام على الطيور أن أقدّم مقدّمة فى مجمل علم الحيوان فأقول :

أقسام الحيوان أربعة (١)

القسم الأول : الحيوانات الفقرية

وهى تشمل : الانسان ، وذوات الأربع ، والطيور ، والزواحف ، والسمك

فهذه الخمس هى أقسام الحيوان الذى اشتمل على هيكل عظمى وفقرات ودم ، فالانسان والبهائم من الخيل والبغال والحمير : والأنعام من الإبل والبقر والغنم : والسباع كالذئب والكلب : والطيور الجارحة وغير الجارحة : والزواحف كالحيات والعقارب : والسمك فى البحر وهومعروف ، كل هذه لها عظام ودم ، ولكل نوع من هذه أصناف كثيرة .

القسم الثانى : الحيوانات الحلقية

أى التى تركب جسمها من حلقات مجتمعات منضمات يكون منها جسم هذا الحيوان ، وهذا القسم أنواع وهى : الحشرات ، والعناكب ، وذوات الأرجل الكثيرة ، والحيوانات القشرية ، والدود .

أما الحشرات فهى ما كان لها ستة أرجل ، ولها إما جناحان كالذباب ، وإما أربعة أجنحة كأبى دقيق الذى يعيش فى بلادنا المصرية ويكون منه الدود الذى يفسد شجر القطن ، وهذا سلبنا قطننا ، فلذلك يدرسه الناس الآن فى مصر بعض الدراسة ، وهناك حشرات أخرى لها أربعة أجنحة تسمى باللسان الافرنجى [دراكوفلاى] .

وأما العناكب (جمع عنكبوت) فهى مالها ثمانية أرجل ضعف مالذوات الأربع . وأما ذوات الأرجل الكثيرة فهى ماقد تصل أرجلها إلى عشرين زوجا من كل ناحية عشرون رجلا ، ويقال لها فى بلادنا المصرية [أم أربعة وأربعين] .

وأما الحيوانات القشرية فهى تشمل قرّاض الخشب وحيوانا يسمى [كرايفش] باللسان الافرنجى ، وهو مركب من حلقات مدمجة قوية . وأما الدود فهو يشمل دود الأرض والعلق ، وهذان رؤوسهما متصلة بجسمهما ، وليس لهما أرجل ، وليس جلدهما صلبا قشريا كجلد كرايفش .

القسم الثالث

الحيوانات الهلامية التى جسمها أشبه بالفالوذج الذى هو نوع من الأطعمة ، ومن هذا حيوان يسمى [القوقعة] وهذا الحيوان جسمه يكون من هذا الهلام ، وقد أعطى وقاية من المحار تقيه العاديات والمهلكات ، وهى معدّة كمنزل تسكن فيه ، ومنه حيوان يسمى باللسان الافرنجى [ميوزل] وجسمه محفوظ بين صدفتين من المحار ، فهذا القسم وهو الثالث من أقسام الحيوان لاعظم له ، فليس من ذوات الفقرات ، ولا حلقات له فليس من ذوات الحلقات ، فهو إذن حيوان هلامى .

القسم الرابع : الحيوانات الشعاعية

وهذه منها ماهو على شواطئ البحار المسمى [سمك النجم] ومنها ماهو فى البحار يعيش كهيئة مستعمرات مكوّنة من تلك الحيوانات الصغيرة ، ومن اجتماعها تتكوّن أجسام صخرية ، وقد تتكوّن منها جزائر ،

---

(١) انظر تفصيل هذا المقام فى المجلد الحادى عشر من هذا التفسير فى سورة الحج عند الكلام على آية « ياأيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له » اه

فترى هذين النوعين يختصان بأمرين : الأول أن لهما فما مركزيا يشاهد فى الوسط . الثانى أن الحيوانات حول ذلك الفم ترجع إلى حلقات ضوئية تحيط بذلك الفم أوالمدخل ، ثم ان مشاهدة صورتها تدخل فى النفس عجبا ! فانّ سمك النجم تراه على هيئة بهجة ذات خمسة فروع تحيط بمركزها ، وتلك الفروع كأنها أصابع الانسان ، وذلك الوسط كالكف ، وكل أصبع من هذه الأصابع محلي بأهداب تغطيه ، وفى أصول تلك الأهداب تشاهد نقطا مضيئة كأنها مصابيح لامعة على طول تلك الأصابع ، وهناك أيضا الحيوان المسمى باللسان الافرنجى [بوليبا] فانك ترى الفم المتقدّم أوالمدخل ليس متسعا كما فى سمك النجم ، بل تراه نقطة صغيرة تحيط بها حيوانات لاحصر لها مجتمعة بهيئة ثمان ورقات جميلات ذات شعاع جميل ، كل هذا تراه موضحا بالصورالفوتوغرافية فى سورة الحج عندآية : « يأيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له » الخ فراجعه هناك إن شئت اه .

* * *

وقد جاء فى الكتاب الانجليزى المذكور فى صفحة ٤٤ ومابعدها ماترجمته : « إنّ الطيور لها منقار وريش وجناحان ورجلان ، فالمنقار يمكن رؤيته فى رأس هذا الطائر الذى أحضرته لأجل الدرس (هذا كلام المؤلف الفرنسى) ، ثم وصف هذا المنقار فقال : انه حجاب عظمى يكون غلافا وغطاء للفكين ، أما الريش فانه فى حال كمال نموّه يشتمل على ما يأتى :

(١) أوّلا : أنبوبة بها ينبت الريش فى جلد الطائر .

(٢) ويلى هذه الأنبوبة ساق تحمل فوق كل واحد من جانبيها (دوّارة تدل على جهة الريح) وهذه الدوّارات أيضا تحمل دوّارات أصغر منها ، وهؤلاء أيضا قد يحملان (كما فى الأوز) دوّارات هوائية أقلّ من الحاملات لها ، وكل هذه الدوّارات ملتصقة ببعضها باحكام ومنسوجة نسجا بديعا منتظما .

وليس كل ريش تامّ النظام على هذا المنوال ، وانما وصفنا هذا لما تمّ نماؤه كما قدّمناه ، أما الأجنحة فانها عادة قوية متينة ، بها يقدر الطائر أن يطير فى الهواء ، وبعض الأجنحة ترى قصيرة جدّا مثل أجنحة النعامة بها تقدرأن ترفع عن الأرض ، وبعض الأجنحة يستعملها الطائر استعمال السمك لزعانفه وبمساعدتها تعوم تحت الماء ، إن كل طائر يبيض ، ومعظم الطير يبنى عشا ، إن البيض مركب أوّلا من قشرة حجرية تحوى فى داخلها مادّة بيضاء ، وفى داخل هذه مادّة أخرى صفراء .

ثم يقول المؤلف : انه أرى التلاميذ بيضتين : إحداهما نيئة والأخرى منضجة بالنار ، فلما فتح الأولى أمام الطلبة فما كان داخل القشر أسرع إلى الانحدار فى الطبق . ثم قال : انظروا ألستم ترون فى وسط المادّة الصفراء مادّة صغيرة بيضاء ، هذا هوأصل الجنين الذى يخلق فى البيضة ومنها يخرج فرّوج صغير اذا حافظنا عليه مدة كافية لينمو فى البيضة تحت حضن الدجاجة . ثم قال : هاأناذا الآن أنزع قشر البيضة المنضجة بالنار ، وهاأنا ذا أقسمها بهدوء تام ومحافظة عليها إلى قسمين حتى تميزوا موضع المادّة البيضاء وموضع المادّة الأخرى الصفراء .

كيف تصير البيضة طائراً صغيراً ؟

إن البيض متى حفظ فى مكان دافئ فى مدة طويلة معينة من الزمان فان الجرثومة البيضاء التى تلمع وسط المادّة الصفراء التى هى أصل الفرّوج تنقلب بالتدريج طائرا صغيرا ، ينمو فى سجنه وفى أثناء نموّه يمتصّ ماحوله من المادّة الصفراء والبيضاء حتى يصير كبيرا يملأ داخل القشرة ، وحينئذ يكسرها هو بمنقاره ، هنالك يخرج أعمى لاحراك له مثل هذه الحمامة الصغيرة (انظر شكل ٥١ فى الصفحة التالية) أوكمثل مايخرج من

البيضة ، وهو نشيط الحركة خفيف عالم كيف يلتقط من الأرض مايقوته من الطعام ، وكيف يجرى على الأرض وذلك كهذا الفروج (شكل ٥٢) ومن صغار الطير مايخرج وقد استعد لما هوفوق ذلك ، فلا يكتفى بالجرى فى الأرض ، بل يعوم فى البحر أوالنهر ، وذلك كالأوز والبط ، وههنا أخذ المؤلف يشرح حضن البيض بالطريق الصناعية بحيث يقوم الانسان بهذه العملية بدل الأم ، وأبان صورة الصندوق الذى يقوم مقام الأم فى حفظ حياة الجنين ، ودوام الحرارة المماثلة للحرارة الطبيعية للأم فى عشها المناسب لحال نوع الطير هيئة ومقدارا .



(شكل ٥١)
حمامة خرجت من بيضتها وهى عمياء ولاتقدر على الحركة

(شكل ٥٢)
فروج خارج من بيضة الدجاجة قادر على السعى

الطيور على قسمين : طيور مهاجرة ، وطيور غير مهاجرة

ثم أخذ المؤلف يقول : لست أقتصر معكم فى الطير على ماتقدم ، بل أقول لكم : إن من الطير ماله هجرة كل عام فى أوقات محددة تحديدا تاما ، مثال ذلك : الخطاف والسمانى (١) ، وهو [السلوى] والبلبل ، فهذه طيور تعيش فى البلاد الحارة فى زمن الشتاء ، فاذا أقبل فصل الصيف هاجرت إلى بلادنا (يريد المؤلف بلاد أوروبا) فتعيش على الحشرات المخلوقات فيها ، وتبنى أعشاشها ، وتحضن بيضها ، وتربى صغارها ، ومتى أقبل فصل الشتاء وقلت الحشرات قفلن راجعات إلى أقطارهن الحارة فى افريقيا ، وذلك أبد الآبدين ، ودهر الداهرين .

وهنالك طيور أخرى مهاجرة بهيئة مخالفة للسابقة كالأوز والبط الوحشيين ، فان هذه تعيش فى الأقطار الشمالية الباردة ، فاذا اشتد عليها البرد شتاء أقبلت تسعى إلى بلادنا (يريد أوروبا) . وههنا أخذ يشرح أنواع الطيور وهى :

(١) الجارحة .
(٢) والطيور المقلدة للانسان (كالقرود) ذوات المناظر الجميلة ، والأصوات البديعة .
(٣) والحمام .
(٤) والطيور الدجاجية .
(٥) والطيور الخائضة .
(٦) والنعام .
(٧) والطيور المنسوجة الأرجل .
(٨) وأنواع العصفور الدورى . وهاك تفصيلها :

أولا — [الطيور الجارحة] : إن من الطيور ماتعيش على لحم الحيوان الحى من طيور أخرى ومن ذوات الأربع ومن الزواحف فلذلك سميت طيورا جارحة ، ولذلك نراها قد وهبت سلاحا حادا قويا به تحدث تمزيق فرائسها .

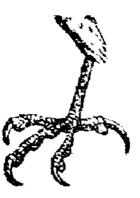
(ا) ألا ترى إلى هذا المنقار الحاد المصنوع كهيئة الشص والخطاف والكلاب (انظر شكل ٥٣ فى الصفحة التالية) .

---

(١) بضم أوله وآخره نون مقصورة بوزن حبارى .

(ب) والى هذا المخلب الطويل المعدّ لاختراق أجسام الفرائس والقبض عليها (انظر شكل ٥٤)

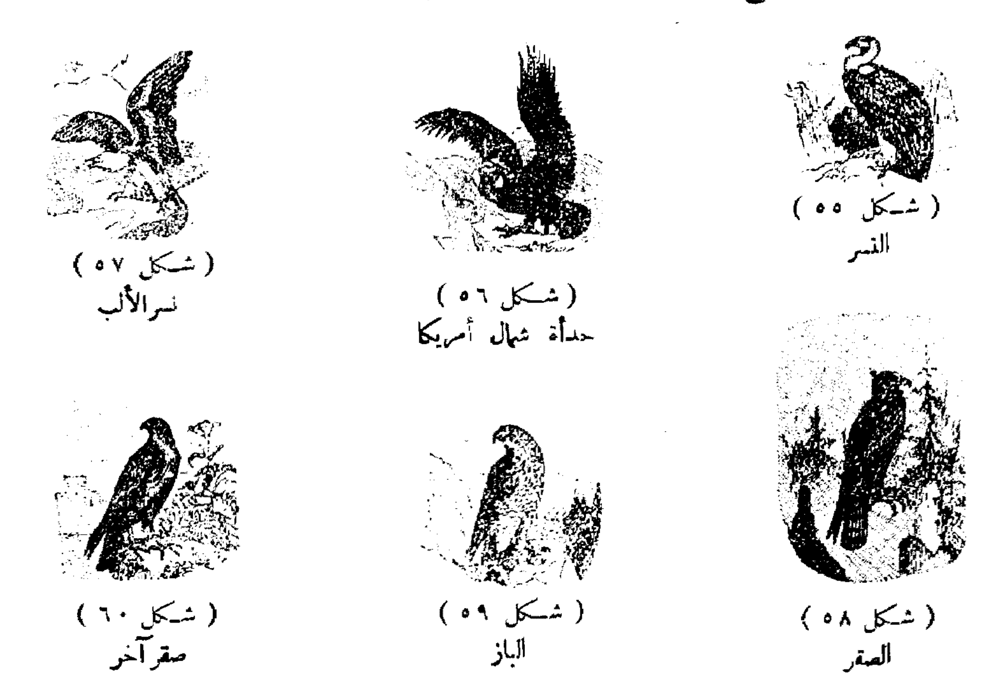

(شكل ٥٣)
منقار الطيور الجارحة
الحادّ المقوس


(شكل ٥٤)
مخالب الجوارح

(ج) والى الجناح الطويل المحدّد : إنهنّ يطرن سراعا بخفة ، ومن أمثلة ذلك أنّ صقرا من النوع المسمى بالافرنجية [فلكون] فرّ من غابة بلدة فى وسط فرنسا تسمى [فونتينبل] عثر عليه فى اليوم الثانى بجزيرة مالطه .

الجوارح على قسمين

إنّ الطيور الجارحة تنقسم إلى قسمين : جارحة ليلية وجارحة نهارية ، فمن الثانية النسر (شكل ٥٥) وهو يعيش على لحوم الحيوانات الميتة ، و بعض هذا النوع عظيم الحجم يعيش فى أوروبا ، إنّ النسور لها منفعة عظيمة جدّا فى الأقطار الحارّة ، لأنها تنظف الجوّ من الرمم التى اذا بقيت أفسدت الهواء ، وأماتت الأحياء ، ومن طيور هذا النوع الحدأة الكبيرة التى تعيش فى شمال أمريكا (شكل ٥٦) ، وهى حدأة كبيرة الحجم فقد يصل مقياسها (إذا مدّت جناحيها) من طرف إلى طرف ١٢ قدما ، ومنها نسر جبال الألب (شكل ٥٧) وهذا أيضا كبير الحجم كسابقه ، وهو ذولحية ، ومنها الصقر (شكل ٥٨) ، وهذا أقوى أجنحة وأحدّ مخاليب من النسر ، وهذه تعيش على لحم الحيوان الحىّ ، ومنها الباز ، وهو نوع من الصقور (شكل ٥٩) وهو أشدّ قوّة على مقتضى حجم جسمه وأكثر جرأة ، وهذا النوع قديما كان الناس فى بلادنا (يريد بلاد أوروبا كالانجليز) يربونه ، ولايزال أهل الجزائر يصيدون به إلى الآن ، وهكذا فى بلاد الشرق ، ومن ذلك نوع آخر من الصقور (شكل ٦٠) وهاك صورها بالترتيب :


(شكل ٥٥) النسر
(شكل ٥٦) حدأة شمال أمريكا
(شكل ٥٧) نسر الألب
(شكل ٥٨) الصقر
(شكل ٥٩) الباز
(شكل ٦٠) صقر آخر

ونوع آخر من الصقور أيضا (شكل ٦١) ومنه نوع يسمى صقر العصفور الدورى (شكل ٦٢) ومنه الحدأة (شكل ٦٣) وهاك صورهن .



(شكل ٦١)
صقر آخر ايضا



(شكل ٦٢)
صقر العصفور الدورى



(شكل ٦٣)
حداة

هذا هو نهاية الكلام على الطيور الجارحة النهارية . ولنشرع الآن فى الكلام على الطيور الجارحة الليلية ، فنقول ومن الله التوفيق :

الكلام على الطيور الجارحة الليلية

(١) هى طيور لها ريش زغبىّ به تقدر أن تطير فلا يسمع لطيرانها صوت .
(٢) ولها آذان مفتحة واسعة جدّا .
(٣) وأعين مدوّرة متجهة إلى الأمام . وهاك صور بعضها :



(شكل ٦٤)
البومة العادية



(شكل ٦٥)
بومة الهرى



(شكل ٦٦)
بومة الصقر



(شكل ٦٧)
أصغر البوم حجما كالطائر الاسود

إنّ هذه الجوارح الليلية لاتذر فأرا ، ولاحيوانا ضارّا إلا أهلكته ، لأجل ذلك يحافظ عليها الناس لتساعدهم فى إبادة المهلكات ، ومن الناس من يجهلون فائدتها فيتلاعبون بها ، و يسمرونها فى أبواب بيوت مواشيهم حماقة وهم لايعقلون ، وبهذا تمّ الكلام على الطيور الجارحة بقسميها ، والحمد لله رب العالمين .

النوع الثانى : الطيور المقلدة للانسان كالقرود

وهى فصيلة الببغاء

والببغاء له منقار غليظ ولسان لحمىّ به يقدر على تقليد الانسان فى النطق ، واثنتان من أصابع رجليه متجهتان إلى الأمام ، واثنتان إلى الخلف ، وبذلك يسهل له الاستمساك بالأغصان والتسلق عليها ، وعجيب ذكائه وفهمه جعله يسمى [قرد ذوات الريش] كالقرد ، وهذا النوع يسكن الأقطار الحارّة ، وبهجة ألوانه وبديع صوته الظريف يسحران قلوب سكان الأقطار الاستوائية فى الدنيا الجديدة والقديمة ويستهويان أفئدتهم وهم طربون .



(شكل ٦٨)
الببغاء

النوع الثالث : الحمام

وهو ظاهر ، فلا حاجة بنا إلى الكلام عليه .

النوع الرابع : الطيور الدجاجية

وتسمى بالفرنجية [كايناسن] و [كالينا] باللاتينية معناها الدجاجة ، ومن هـذا النوع ما يسمى [بيزنت] (شكل ٦٩) والطاووس (شكل ٧٠) والديك الرومى (شكل ٧١) وهذه الطيور الدجاجية تشبه الدجاج فى أنها تأكل الحبوب وهاك صورها :



(شكل ٦٩)
بيزنت



(شكل ٧٠)
طاووس



(شكل ٧١)
ديك رومى

النوع الخامس : الطيور الخائضة

سميت بذلك لأنها ذات أرجل طويلة عارية ، وأكثرها تعيش فى المستنقعات ، وتخوض فى الوحل والماء ، وقد منحت رقابا طويلة ، ومناقير كذلك فضلا عن أرجلها الطويلة ، بها تقدر أن تقتنص الحيوانات الصغيرة التى عليها مدار حياتها ، وهاك منها البجع (شكل ٧٢) وما يسمى بالافرنجية [هيرون] (شكل ٧٣) والكركى (شكل ٧٤) وطير الماء (شكل ٧٥) وهاك صورها :



(شكل ٧٢)
البجع



(شكل ٧٣)
هيرون



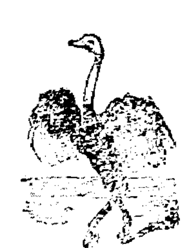
(شكل ٧٤)
الكركي



(شكل ٧٥)
طيرالماء

النوع السادس : النعام

وهذا النوع حجمه كبير وأجنحته (وان كانت قصيرة جدًا) تساعده على أن يجرى بسرعة عظيمة ، إن هذا النوع يسكن بلاد افريقيا ، وله أصبعان فقط ، و يبلغ ارتفاعه أكثر من سبعة أقدام ، وترى فى (شكل ٧٦) الآتى فى الصفحة التالية نعامة افريقيا وارتفاعها ٧ أقدام ، وفى (شكل ٧٧) نعامة أمريكا المسماة [رهيا] ، وهى أصغر ، ولها ثلاثة أصابع ، وفى (شكل ٧٨) نعامة استراليا و بورنيو المسماة : [كسورى] انظر الأشكال الثلاثة فى الصفحة التالية .



(شكل ٧٦)
نعامة أفريقيا ، وارتفاعها سبعة أقدام



(شكل ٧٧)
نعامة أمريكا المسماة (رهيا) وهي أصغر لها ثلاثة أصابع



(شكل ٧٨)
نعامة استراليا ، وبورنيو المسماة : كسوري

وهذا النوع كبير الحجم ولكنه يتضاءل أمام ماكشفه الكاشفون من نوعه فى [مداغشقر] و[زيلنده الجديدة] مما لم يبق له وجود الآن من هذا النوع ، وانما عثرالناس على بعض عظام و بيض له ، وكل بيضة تعادلست بيضات من الكسورى الحىّ الآن ، أوتعادل مائة وخمسين بيضة من بيض الدجاج ، وهاك صورتها التى عثروا عليها (انظر شكل ٧٩) .



(شكل ٧٩)
هيكل طيركبير من الجزيرة الجديدة لم يبق لها وجود الآن ارتفاعها ١٠ أقدام

النوع السابع : الطيور المنسوجة الأرجل

وهذا النوع ترى أصابعه متحدة مع بعضها بنوع من الجلد أوالنسيج لتقدر به على العوم بسهولة (انظر شكل ٨٠) وهذا يساعد الطير على أن يعوم بسهولة ويخترق الماء بدون أقلّ مقاومة ، إن هذا الطائر اذا دفع برجليه إلى خلف ، فانّ ذلك يساعده على السير إلى الأمام ، ومن هذا النوع (شكل ٨١) و (شكل ٨٢) و (شكل ٨٣) وهاك صورها بالترتيب :



(شكل ٨٠)



(شكل ٨١)
البط

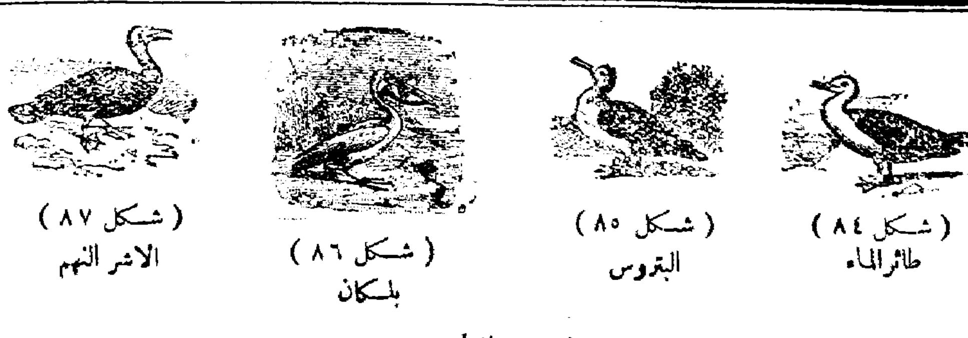


(شكل ٨٢)
الأوز



(شكل ٨٣ : نوع من الأوز يسمى : سوال)

وهذه الثلاثة تتحد فى أنها منسوجة الأكف كما قدمنا فتحسن العوم والطيران ، ولكن مشيها ضعيف جدّا ، ولهنّ مناقير عريضة مساحة بنوع نصل حادّ يقوم بما تقوم به الأسنان الابتدائية ، ومن هذا النوع أيضا طائر الماء (شكل ٨٤ الآتى فى الصفحة التالية) وطائر يسمى بالافرنجية [البتروس] (شكل ٨٥) وآخر يسمى بالافرنجية أيضا [بلكان] (شكل ٨٦) ومنها الأشر النهم (شكل ٨٧) وسترى هذه الأشكال الأربعة فى الصفحة التالية ، وبهذا تمّ الكلام على النوع السابع من الطيور ، والحمد لله رب العالمين .



(شكل ٨٤) طائر الماء (شكل ٨٥) البتروس (شكل ٨٦) بلكان (شكل ٨٧) الاشر النهم

النوع الثامن

من الطيور العصفور الدورى ، فهذا النوع لاهو من الطيور الجارحة ، ولا من المنسوجة الأرجل ولا غيرها وهـذا النوع يشمل كثيرا من الطيور الصغيرة ، و بعضها له أصبعان متجهان إلى الأمام وآخران متجهان إلى الخلف ، بها يسهل للطائر أن يتسلق على سوق الأشجار ، ومن هذا النوع [قرّاض الخشب] (شكل ٨٨) الذى يضرّ بظلمه وعسفه أشجار غاباتنا (يريد انكلترا) ضررا بليغا ، وهو انما يبحث فى الثقوب التى صنعتها الحشرات من قبله ، وترى فى (شكل ٨٩) صورة الغراب وهو معروف ، وهاك صورهنّ :



(شكل ٨٨) قرّاض الخشب



(شكل ٨٩) غراب

و بعض هذا النوع يشبه بعض الشبه الطيور الجارحة ، و بعضه ذو منقار لطيف به يقتنص الحشرات مثـل البلبل ، ومثل الطير الأسود ، ومثـل الطير المستأنس بأمريكا وهو جميل وصغير جدّا حتى ان أصغره لا يكون أكبر من ذكر النحل ، و بعضه له منقار واسع يأكل به الناموس ، والخطاف يفعل ذلك ، ومنه ماله منقار غليظ قصير به يأكل كل نوع من أنواع الحبّ ، وذلك كالقنبرة وخطاف المنازل ، ومنه نوع آخر يستعمل منقاره القوىّ كما يستعمل الناس الفأس فيقلب به الأرض ليستخرج بعض الجثث الميتة فيها فيأكلها ، ومن ذلك أيضا الغراب المتقدم فى (شكل ٨٩) وهو معروف .

يقول مؤلف الكتاب الذى ترجمت منه هذه القطعة : « إنّ فى بلادنا نحو ٢٠٠ مائتى صنف من هذا النوع » ، وهذا آخر ماترجمته فى هذا المقام من الكتاب المذكور ، والحمد لله ربّ العالمين .

تبصرة فى هذه الطيور

أيها المسلمون : يقول الله : « أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات و يقبضن » ثم يختم الآية بقوله : « إنه بكل شىء بصير » .

الله أكبر ، الله أكبر : جلّ الله ، جلّ الله : قد قدّمنا فى [سورة : ق] أن (ا ل م) التى ابتدئت بها [سورة البقرة] هى مفتاح خزائن العلوم كلها ، وقدّمنا بعض هذا فى سورة البقرة عند طبع الجزء الثانى عند آية الطير وابراهيم وماحولها ، وفى سورة آل عمران ، ولشدّ ما اتضح لى اليوم وأيقنته حقا وصدقا ، أنّ (ا ل م) جعلت مفاتيح للعلوم ، ومهاميزبها يساق المسلمون إلى السعادة فى الدنيا والآخرة .

وأقول بأعلى صوتى : أيها المسلمون : هذا السرّ قد ظهر الآن ، يقول المسلم : مامعنى هذه الحروف ؟ فيصل فى البحث إلى ما قلناه فى سورة البقرة ، ظهر سرّ (ا ل م) فى العفة وفى بدائع الكيميا ، فاقرأه هناك ، وظهر فى سورة آل عمران فى عدم اتكال المسلمين على غيرهم من الأولياء والصالحين ، بل عليهم

الجدّ ، وههنا يوبخنا الله على جهلنا بعلوم الطيران التي نام عنها المسلمون وعرفه أهل أوروبا وأهل الشرق الأقصى .
رباه : إليك المشتكى . رباه : نام المسلمون . رباه : ناموا وناموا . اللهم أيقظهم إنك سميع الدعاء ، وأنا موقن بسماع الدعاء ، سبحان الله : أليس من عجائب هذه الطيور أن منها النسر الذى ينظف الأقطار الاستوائية من رمم الحيوان ، ولولاه لم يعش هناك انسان ولا حيوان ، أوليس منها البوم التى تأكل أمثال الفيران المهلكات لزرع الانسان بأكله ونفس الانسان بالعدوى كما قدّمناه فى هذا التفسير عن كبار الأطباء فى هذا العصر ، أفليس من هذه الطيور كما قدّمنا المهاجرات من الأقطار الحارّة إلى الأقطار الباردة فتأكل الحشرات حياة لها وسعادة لنوع الانسان ، ألسنا نرى الطيور مقسمة على الأقطار ، وعلى الليل والنهار ، وعلى الهواء وعلى الأشجار ، وعلى الشواطئ والمستنقعات ، وعلى البحار ، لتكون من المنظمات المساعدات على نظام هذه العوالم العجيبات (١).

هذا معنى قوله تعالى : « ما يمسكهنّ إلا الرحمن إنه بكل شىء بصير » فها هى ذه الرحمة ، رحمة نفس الطائر مثلا بأكله الحشرات ، ورحمة الحيوان والانسان ببقاء الزرع لموت المهلكات من تلك الحشرات .

هذا بعض السرّ فى اختصاص المقام بالاسم [الرحمن] وبالاسم [بصير] . وإلى هنا تمّ الكلام على ﴿ سورة الملك ﴾ والحمد لله رب العالمين . كتب صباح يوم الأربعاء ١٣ سبتمبر سنة ١٩٣٢ م

تفسير سورة القلم

هى مكية

إلا من آية ١٧ إلى آية ٣٣ ، ومن آية ٤٨ إلى آية ٥٠ فمدنية

آياتها ٥٢ — نزلت بعد العلق

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ * مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ * وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ * وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ * فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ * بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ * إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ * فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ * وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ * وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ * هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ * مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ * عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ * أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ * إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ * سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ * إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ

---

(١) مما يناسب الطير مسألة الطيران فى الجوّ بالطيارات التى تقدّمت قريبا ، ونريد أن نبين هنا أن الطيارات قد صوّرت بالتصوير الشمسى فى أوائل سورة النحل ، وقد شرحت أيضا فى سورة المائدة عند آية ابنى آدم : [المؤلف] .

إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ۞ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ۞ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ۞ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ۞ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ۞ أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ ۞ فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ ۞ أَنْ لَا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ ۞ وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ ۞ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ ۞ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ۞ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ۞ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ۞ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ ۞ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ ۞ عَسَى رَبُّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ ۞ كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ۞ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ۞ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ۞ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ۞ أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ۞ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ۞ أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ۞ سَلْهُمْ أَيُّهُمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ ۞ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ۞ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ۞ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ ۞ فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ۞ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ۞ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ ۞ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ۞ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ ۞ لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ۞ فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ۞ وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ۞ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ۞

هذه السورة أربعة مقاصد

(١) حسن الأخلاق النبوية من أول السورة إلى قوله : « وإنك لعلى خلق عظيم » .

(٢) سوء أخلاق بعض الكفار وجزاؤهم من قوله « فستبصر ويبصرون » إلى «سنسمه على الخرطوم»

(٣) ضرب مثل لهم بأصحاب الجنة البخلاء من قوله « إنا بلوناهم » إلى قوله « لوكانوا يعلمون »

(٤) تقريع للمجرمين ، وأمر بالصبر لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم لئلا يكون كصاحب الحوت من قوله « إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم » إلى آخر السورة .

المقصد

التفسير اللفظى

بسم الله الرحمن الرحيم

(ن) النون الدواة . قال الشاعر :

إذا ما الشوق برح بى إليهم * ألفت النون بالدمع السجام

و يطلق على الحوت ، وفى بعض الحيتان مادّة تصلح للكتابة (والقلم) وهوكل مايخط به (ومايسطرون) وما يكتبون : أى والذى يكتب به من الكتب (ما أنت بنعمة ربك بمجنون) أقسم الله بالدواة و بالقلم ، وبكل ما يكتب من كتب الخير ، انك يامحمد ما أنت مجنونا حال كونك منعما عليك بالنبوّة وحصافة الرأى ، وكيف تكون مجنونا والكتب والأقلام والمداد قد استعدّت للعمل فى الشرق والغرب بما ينزل عليك من الوحى ؟ أهذا هوالجنون ، إنّ الله أنعم عليك بنعمة العلم والنبوّة ، وقدأعدّ الأمم للتلقى عنك فلست بمجنون وأىّ شهادة أعظم من نتائج الأعمال ، فهى الشواهد النواطق ، وإدخالها بطريق القسم أبلغ فى الشهادة من قول المتنبى :

الخيل والليل والبيداء تعرفنى * والسيف والرمح والقرطاس والقلم

قال المؤلف الانجليزى كارليل فى كتابه المسمى [البطولة والأبطال] حينما تكلم على صاحب شريعتنا صلى الله عليه وسلم فى نحوسنة ١٢٠٠ هجرية ماملخصه : « إنّ البناء الذى لايحسن البناء لايدوم بناؤه طويلا ، وكلما دام البناء دلّ على صدق البناء (بتشديد النون) فى صناعته والنبىّ محمد صلى الله عليه وسلم أخرج أمة إلى الوجود فدامت هذه الأمة ألفا ومائتى سنة ، إنّ البناء الدعىّ لايدوم بناؤه عشرات السنين فضلا عن المئات والألوف ، ولوكان محمد ﷺ غير نبىّ و بناؤه على غير أساس لم يدم هذه الأزمان كلها ، ثم أخذ يكذب الأوروبيين فى دعواهم أنه غيرنبىّ ، وأنه اخترعها لحاجة فى النفس ، وشنع غاية التشنيع » اه

أقسم الله بالدواة و بالقلم و بالكتب عالما أن هذا الدين يبقى ، وأنه ستتحرّك به الأقلام وتسطر الكتب وتخط ، وكل ما اتصف بذلك لا يكون باطلا ، إذالباطل لاثبات له ، والحقّ هو الباقى .

أقسم بهذه الثلاثة مستدلا بتحققها فى الزمان المقبل بعد القسم وهوعالم بذلك على صدق الرسالة لأنّ الزبد وهو مايعلو وجه الماء عند سقى الأرض يذهب ويرمى به ولابقاء له ، والماء الذى تحته هو الذى يبقى فى الأرض و يسقى الزرع ، فكل باطل ذاهب ، وكل حقّ باق ، فبقاء هذا الدين بكتابة الأقلام وتسطيرالكتب دليل على أنّ محمدا صلى الله عليه وسلم غير مجنون .

أقسم الله بهذه الثلاثة فتحا لباب التعليم العام بالقلم والكتابة ، إن هذا الدين لم ينزل لأجل ألف وثلثمائة وثلاث وأربعين سنة . كلا . ثم كلا . لم ينزل القرآن لأجل جيلنا والأجيال قبله فقط ، إن الله جعل أمّتنا الحالية ومن قبلها مقدّمات لأمم ستأتى بعدنا ، وتكون أرقى منا علما وأخلاقا ونظاما ومدنية ، فهؤلاء حينما يقرءون هذه الآية يفكرون فيها ويقولون : إن الله لايقسم إلا بأمر عظيم ، فاذا أقسم بالشمس والقمر والليل والفجر ونحو ذلك فانما هولعظمة الخلق وجمال الصنع ، أما الدواة والقلم والكتب فما عظمة صنع الله فيها أكالشمس هى ، أم كالقمر والكواكب ؟ إنّ الله لم يقسم بها إلا ليعلمنا ويذكرنا بأعمالنا نحن ، فكما خلق وصوّر وزوّق فى سمواته وأرضه فليكن لنا فى الكتب والأقلام أعمال نرقى بها نفوسنا ومدننا وأحوالنا الاجتماعية ، فلنعمم التعليم .

إن الله أقسم بالكتب و بالأقلام هنا : وأقسم بالرّق المنشور فى سورة الطور ليذكر المسلمين لاسيما فى هذه العصور أن يكون التعليم عاما حتى يكون الرّق منشورا ، والأقلام متحركة ، والكتب مسطورة عامّة ، ذلك من مضمون هذا القسم فضلا عن نفى الجنون المصرّح به فى الآية ردّا على قول الكفار : « يأيها الذى نزّل عليه الذكر إنك لمجنون » .

وكأنه يقال : كيف تسمونه بالجنون وقد استعدّت الكتب أن تنشر باسمه والأقلام أن تخط وتشرح مايقول وسيكون هناك أمم وأمم تتعاقب بعده ولها نظام عظيم ، ويكون القلم والكتاب فى كل مكان .

أقسم الله بهذه الثلاثة ليذكر المسلمين اليوم قائلا : هاأناذا أقسمت بالقلم وبالكتاب ، ولم تكن أمة من أمم الفرس والروم والصين حين نزول الوحى تعمم التعليم ، ولم يعم التعليم فى أوروبا وأمريكا إلا بعد اصطدام الشرق والغرب فى الحروب الصليبية ، إنّ اصطدامهما ولد هذه الحركة القلمية ، وأوّل ظهورها فى الغرب ، وهاهى ذه امتدّت إلى الشرق ، وستأخذون حظكم منها موفورا ، إن تعميم التعليم وعصر الكتب والورق لم يكن إلا بعد نزول القرآن بل بفضل القرآن لاسيما بعد التحارب والتصادم ، وكأنما الشرق والغرب كانا زندين قدحتهما العناية الربانية فتولدت بينهما شرارة ، تلك الشرارة هى العلم ، وأوّل من أثرت فيه هو الغرب ، إنّ الغرب قد طغى على الشرق ، فتحرّك لقتاله ، فرجع الغرب بخفى حنين ، ولكنه حمل بين جنبيه العلم والنور ، فرق الأمم فى بضع مئات السنين ، ذلك كله سرّ القرآن .

الله أقسم بهذه الثلاثة علما منه بتحققها وانتشارها فى كل بيت فى الأمم بعد أزمان النبوّة ، فهو رمز واشارة إلى ما حصل فى العالم الآن ، وستكون أمة الاسلام لها القدح المعلى ، وكما كان نبيها آخر الأنبياء فهاهى ذه الآن ستكون آخر الأمم تعميما للتعليم ، وكما كان شرعها ناسخا للشرائع هكذا سيكون تعليمها العام بشكل ينسخ الأشكال الحاضرة الآن فى أمريكا وأوروبا ، وسيكون فى نظام تعليمنا مايدهش الشرق والغرب ، ونكون رحمة للعالمين ، لأننا سندخل فيه أننا خير الأمم ، وأننا رحمة للعالمين ، وأنّ جيوشنا تكون أقوى الجيوش ، لا لنهدم بل لنصلح الأمم الظالمة ، ولا نبتغى وراء ذلك مأربا ، وسيكون فى هذه الأمة مجتهدون يأخذون الأحكام من القرآن ، وينظرون بعقولهم نظرا ثاقبا ، وسيكون تعليم جميع العلوم السماوية والأرضية للمستعدّين مشوبا بذكر خالقه وحبه ، وإذن تكون العلوم كلها مرتبطة بالصانع .

هذا هو الذى سيكون ميزة أمم الاسلام ، وهذا المهيع يحدث فيهم حكماء نابغين لانظير لهم يقودون أمّتهم والأمم الأخرى إلى سبيل الفلاح « ليظهره على الدين كله » وسيكون عصر المسلمين المستقبل عصر سلام مع الأمم ، وعصر علم ، وعصر حكمة ، ولذلك أعقبه بقوله (وإنّ لك لأجرا غير ممنون) أى لثوابا على احتمال مايقولون والصبر عليه غير مقطوع ، فكون الأجر غير ممنون فيه رمز إلى عدم انقطاع هذه الأمم التى تتعاقب فيزداد الأجر بازدياد الأمم ودوامها ، وقوله (وإنك لعلى خلق عظيم) هو المذكور فى قوله تعالى : « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » وذلك بالتساهل مع الناس فيأخذ بظواهرهم ولايدقق على البواطن ، وذلك بالتسامح والتغافل لا الغفلة ، وهذا معنى العفو ، والباقيان مفهومان .

قالت عائشة رضى الله عنها : « كان خلقه القرآن » ، ألست تقرأ القرآن : « قد أفلح المؤمنون » ، وإذا رجعت إلى مافى سورة المنافقين وقد ظهر نفاق عبد الله ابن أبىّ ونزل به الوحى ، وانه لم يقتله أدركت مكارم أخلاقه صلى الله عليه وسلم وحلمه وصبره . انتهى الكلام على المقصد الأوّل من السورة ، والحمد لله رب العالمين .

المقصد الثانى : سوء أخلاق بعض الكفار وجزاؤهم

قال تعالى (فستبصر ويبصرون ، بأيكم المفتون) أى بأيكم الجنون ، فالمفتون كالمعقول والمجلود كلها مصادر (إنّ ربك هو أعلم بمن ضلّ عن سبيله) وهؤلاء هم المجانين على الحقيقة (وهو أعلم بالمهتدين) الفائزين بكمال العقل ، ثم أمره أن يصمم على معاصاتهم ، إذ قالوا : نعبد الله مدّة وآلهتنا مدّة أخرى ، فقال (فلا تطع المكذبين) وهم مشركو مكة (ودّوا لو تدهن) أى ودّوا لو تلين لهم وتوافقهم بترك الطعن فى آلهتهم أوتوافقهم فى شركهم أحيانا (فيدهنون) فهم تمنوا أن تترك بعض ما أنت عليه مما لا يرضونه مصانعة لهم ومداهنة فيفعلوا مثل ذلك ويتركوا بعض مالا ترضى به فتلين لهم ويلينون لك فلا تطعهم (ولا تطع كل حلاف) كثير الحلف فى الحق والباطل (مهين) حقير الرأى من المهانة وهى الحقارة (همار) عياب (مشاء بنميم) نقال للحديث على وجه السعاية (مناع للخير) يمنع الناس عن الخير كالانفاق والايمان والعمل الصالح (معتد) متجاوز الحدّ فى الظلم (أثيم) كثير الآثام (عتلّ) جاف غليظ ، يقال عتله اذا قاده بعنف وغلظة (بعد ذلك) أى مع ما وصفناه به من الصفات المذمومة (زنيم) وهو الدعىّ الملصق فى القوم وليس منهم فهو دعىّ قريش وليس منهم ، وهذا وصف الوليد ابن المغيرة ، وقد ادّعاه أبوه بعد ثمانى عشرة سنة من مولده ، ويقال : الزنيم هو الذى له زنمة كزنمة الشاة ، وكانت له زنمة يعرف بها ، ويعرف أيضا بالشرّ كما تعرف الشاة بزنمتها ، هذه معان ثلاثة ذكرها المفسرون : فهو ملصق فى قريش ، وله زنمة ظاهرة ، وأيضا يعرف بالشر ، فربما كانت هذه الثلاثة كلها أو بعضها فيه ، ولقد وصف بعشرة أوصاف هى سيئات الأخلاق فى مقابلة عظمة خلقه صلى الله عليه وسلم ، ثم أخذ يقرعه على غروره فقال (أن كان ذا مال وبنين) أى كذب بآياتنا وهو القرآن لاجل كونه ذا مال وبنين ، وكان ماله تسعة آلاف مثقال من فضة ، وبنوه عشرة ، وانما قدرنا فعل كذب لأنه دلّ عليه بقوله (اذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير) أحاديث (الأوّلين) فى كذبهم (سنسمه على الخرطوم) على أنفه مهانة له وعلما يعرف به ، وتلك السمة هى المهانة والاذلال كما تقول : جدع أنفه ، ورغم أنفه ، وكفى بسوء سمعته فى الدنيا بهذه الآيات وفى الآخرة بالفضيحة والعذاب مهانة ، أوهى سمة ظاهرة على الأنف بدون مجاز فيقال : ان أنفه أصيب بجراحة يوم بدر فبقى أثرها سمة له ، وإذن يكون ذلك من علامات النبوّة . انتهى المقصد الثانى من السورة ، والحمد لله رب العالمين .

المقصد الثالث

ضرب مثل لأهل مكة ولكل ذى جهالة من أهل الأرض وحرص وطمع

وقصة أصحاب الجنة انهم قوم من أهل الصلاة كانت لأبيهم جنة بقرية يقال لها ضرواز ، وكانت على فرسخين من صنعاء ، وكان يأخذ منها قوت سنة ويتصدّق بالباقى على الفقراء ، فلما مات قال بنوه : إن فعلنا ما كان يفعل أبونا ضاق علينا الأمر ونحن أولوا عيال ، فحلفوا ليقطعنها وهم داخلون فى الصباح خيفة من المساكين ولم يستثنوا حصة المساكين فأحرقها الله ، وهذه هى القصة (إنا بلوناهم) أى بلونا أهل مكة بالقحط (كما بلونا أصحاب الجنة) التى ذكرناها الآن (إذ أقسموا ليصرمنها) ليقطعنها (مصبحين) داخلين فى الصباح (ولا يستثنون) ولا يخرجون حصة المساكين كما كان يفعل أبوهم (فطاف عليها) على الجنة (طائف) بلاء طائف (من ربك) أى من عذاب ربك ، ولا يكون الطائف إلا ليلا (وهم نائمون فأصبحت كالصريم) كالبستان الذى صرم قطع ثماره بحيث لم يبق منه شىء (فتنادوا مصبحين ، أن

اغدوا على حرثكم) أى بأن اخرجوا إليه غدوة (إن كنتم صارمين) قاطعين له (فانطلقوا وهم يتخافتون) يتسارّون فيما بينهم لئلا يسمع المساكين يقولون (أن لايدخلنها اليوم عليكم مسكين) أى لاتمكنوه من الدخول فأن مفسرة (وغدوا على حرد قادرين) أى وغدوا على جدّ فى المنع قادرين عند أنفسهم (فلما رأوها) أوّل ما رأوها وهى محترقة بالطائف الربانى (قالوا إنا لضالون) طريق جنتنا فأين الطريق إليها ؟ ثم تأمّلوا فعرفوا أنها هى جنتهم وأنها احترقت ، فقالوا مضربين عمـا تقدّم : (بل نحن محرومون) حرمنا خيرها لجنايتنا على أنفسنا (قال أوسطهم) أى أفضلهم فى الرأى وفى السنّ (ألم أقل لكم لولا تسبحون) أى هلاتذكرون الله وتتوبون إليه من خبث نيتكم (قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين) بمنعنا المساكين (فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون) يلوم بعضهم بعضا (قالوا ياويلنا) دعوا على أنفسهم بالويل (إنا كنا طاغين) فى منعنا حقّ الفقراء والمساكين ولم نشكرنعمة الله بالانفاق منها (عسى ربنا أن يبدلنا خيرا منها) ببركة التوبة والاعتراف بالذنب ، وروى أنهم أبدلوا جنة خيرا منها (إنا إلى ربنا راغبون) راجون العفو طالبون الخير (كذلك العذاب) أى مثل ذلك العـذاب الذى ذكرناه من عذاب الدنيا نفعل بمن تعدّى حدودنا وخالف أمرنا سواء أكان من أهل مكة مشركى العرب أومن غيرهم من أمم الاسلام أوأمم أوروبا وبلاد الشرق ، فهذه قاعدة عامّة مطردة لايفلت منها فرد ولامجموع ، ولقد أصبحت هذه القاعدة مشاهدة الأثر فى زماننا ، وقدكنا منذ سنين نظنّ معاشر المسلمين أن دول أوروبا التى ظلمت الشرق لارادع لها ولا زاجر ، وكنا نقول : أين وعد الله باهلاك الظالمين ، فحصلت وقائع غيرت وجه المسكونة ، فماذا حصل ؟ كانت دول أوروبا فى بلاد الشرق لها فى كل دولة منها امتياز واختصاص وتعاظم ، فيكونون فى البلاد ضيوفا فى حين أنهم ساداتها بقوانين يصدرونها ، فيقتل الرجل منهم المسلم الوطنى أوالشرقى الصينى والهندى ثم يفلت من العقاب إذ لايحاكم إلا فى محاكم دولته ، فلقد قلب الله الآية ، والدهرقلب ، فطردهم الترك من بلادهم ، فلااختصاص لهم فى البلاد ولا امتياز ، وهكذا دولة ايران ، وفى أثناء كتابة هذا التفسير بل فى أثناء تفسير هذه السورة قامت ضجة وثورة فى بلاد الصين ضد أوروبا يطالبون ألايسود عليهم الأجنبى فى بلادهم ، وقد أجابت الأمم إلى ذلك ويمدّون المعدّات لاجابة الطلب كما أجابوا بلاد الترك من قبل ، ومن قبل هؤلاء فعل أهل اليابان ذلك ، ولقد سلط الله دولة الروس [البلشفية] فهؤلاء يساعدون كل من أراد أن يطارد هؤلاء الظالمين من بلاده ، ولهم قوّاد عند الامير عبد الكريم ببلاد مراكش للمساعدة على اخراج الظالمين .

كل ذلك مبدأ لما سيحصل فى الأمم المستقبلة فستكون حرّة لاسلطان عليها لظلم أوروبا التى هرمت وشاخت وستقوم دول شابة فى الشرق ، وقد ابتدأت تتحرّك اليوم وتحلّ محل هؤلاء الظالمين ، كل ذلك داخل فى معنى هذه الآية ، فانّ أصحاب الجنة استأثروا بالثمر وحرموا الفقراء ، وهذه الدول ظنت أن الناس مخلوقون لخدمتهم فأرادوا استعبادهم فقلب الله الآية ، وسيدور الفلك دورته ويتمّ الله نصرالمظلومين الذى ابتدأ الآن وسيزيد ارتقاؤه فى المستقبل القريب .

فهذه الأمم اليوم تذوق عذاب الخزى فى هذه الحياة الدنيا بالفقر المدقع الذى استولى على بلادها ، وبالبلشفية التى أصبحت كالسوس تنخر فى عظامها ، وقريبا يذهب ظلمها المتداعى إلى السقوط (ولعذاب الآخرة أكبر) أعظم منه (لوكانوا يعلمون) لاحترزوا عن الفعل الذى يؤدّى إليه . انتهى الكلام على المقصد الثالث من السورة ، والحمد لله رب العالمين .



المقصد الرابع

تقريع المجرمين ، وأمر بالصبر لنبينا صلى الله عليه وسلم لئلا يكون كصاحب الحوت

قال تعالى (إنّ للمتقين عند ربهم جنات النعيم) أى جنات ليس فيها إلا التنعم الخالص ، لا الجنات الدنيوية التي يشوبها العذاب بزوال ثمرها وخلوّ اليد منها . ثم أخذ يردّ على من قال من الكفار : ان صح أننا نبعث كما يزعم محمد ومن معه لم يفضلونا بل نكون أحسن حالا منهم ، لأنّ من أحسن فى الدنيا إلينا فهو محسن إلينا فى الآخرة ، فقال : (أفنجعل المسلمين كالمجرمين) ثم خاطبهم على طريق الالتفات فقال : (مالكم كيف تحكمون) هذا الحكم المعوج وكيف تسوّون بين العاصى والمطيع فضلا عن أن تفضلوا العاصى على المطيع . ثم أخذ يقطع عليهم الحجة ويسدّ عليهم أبوابها فقال : هل تلقيتم كتابا من السماء فقرأتم فيه أنكم تختارون ما تشاءون بحيث تكونون وأنتم مجرمون كالمسلمين الصالحين ! بل هل أعطيناكم عهودا أكدناها بالأيمان المؤكدة عاهدناكم عليها فاستوثقتم بها ، فهى ثابتة إلى يوم القيامة فأقسمنا لكم بها أنا حكمنا لكم وأعطينا كم ماتحكمون لأنفسكم ، بل ألهم أناس يشاركونهم فى هذا القول ويذهبون مذهبهم مع أنه لايسلم لهم بهذا القول أحد ولايساعدهم ، ولا كتاب لهم ينطق به ، ولاعهد لهم عند الله ، واذا زعموا أن لهم أناسا يذهبون مذهبهم فليأتوا بهم يوم شدّة الأمر وصعوبة الخطب ويقال لهم اسجدوا وقت تلك الشدّة توبيخا لهم على ترك السجود فى الدنيا ، وذلك إما فى النزع أو بعد الموت فلايقدرون على السجود وأبصارهم خاشعة ، والذلة محيطة بهم ، مع أنهم كانوا يدعون إلى السجود فى الدنيا وهم متمكنون منه . هذا هوقوله تعالى (أم لكم كتاب فيه تدرسون ، إن لكم فيه لما تخيرون ، أم لكم أيمان علينا بالغة إلى يوم القيامة إنّ لكم لماتحكمون ، سلهم أيهم بذلك زعيم ، أم لهم شركاء فليأتوا بشركائهم ان كانوا صادقين ، يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلايستطيعون ، خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون) .

فقوله : تدرسون : أى تقرءون ، وتخيرون : أى تختارون ، وأيمان : أى عهود ، وبالغة : أى متناهية فى التوكيد ، وقوله : إلى يوم القيامة : أى ثابتة لكم علينا إلى يومها ، وقوله : سلهم أيهم بذلك زعيم : أى أيهم بذلك الحكم قائم يدّعيه ويصححه ، وقوله : يكشف عن ساق : متعلق بيأتوا : أى يوم يشتدّ الأمر ويصعب ، فهوكناية عن الشدّة ، وقد كانوا اذا ابتلوا بشدّة كشفوا عن الساق ، وذلك كما تقول للأقطع البخيل : يده مغلولة مع أنه لايدله ولاغلّ ، فهكذا هنا لاساق ولاكشف ، وقوله : خاشعة أبصارهم : أى ذليلة وقوله : وقد كانوا يدعون إلى السجود : أى فى الدنيا ، وقوله : وهم سالمون : أى أصحاء . ثم ان قوله فى أوّل هذه الآيات : « أم لكم كتاب فيه تدرسون ، إن لكم فيه لماتخيرون » أصله أن بالفتح ، لأنه مدروس لوقوع الدرس عليه ، وإنما كسرت لوجود اللام فى خبرها .

ثم قال تعالى (فذرنى ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لايعلمون ، وأملى لهم إنّ كيدى متين ، أم تسألهم أجرا فهم من مغرم مثقلون ، أم عندهم الغيب فهم يكتبون ، فاصبر لحكم ربك ولاتكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم ، لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهومذموم ، فاجتباه ربه فجعله من الصالحين ، وان يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون انه لمجنون ، وماهو إلا ذكر للعالمين) .

يقول الله سبحانه : خلّ يامحمد بينى وبين من يكذب بهذا القرآن فانى عالم بما ينبغى أن يفعل به مطيق

له فلا تشغل قلبك بشأنه ، وتوكل علىّ فى الانتقام منه ، انا سندنيهم من العذاب درجة درجة ، ونستنزلهم إليه حتى نورطهم فيه فنوالى النعمة عليهم ونرزقهم الصحة والعافية فتزداد معاصيهم من الجهة التى لايشعرون أنها استدراج ، فكلما جددوا معصية جدّدنا لهم نعمة وأنسيناهم شكرها وأنا أمهلهم فانّ استدراجى لهم وكيدى قوىّ متين .

ثم كأنه يقول : يامحمد : ماذا ينقمون منك ؟ أأنت تسألهم أجرا على تبليغ الرسالة فثقل عليهم فامتنعوا ؟ كلا . بل هل عندهم علم الغيب المكتوب فى اللوح المحفوظ فهم يكتبون منه مايحكمون به ! فلاهذا ولاذاك ، إذن القوم معاندون ، لم يبق إلا أن تصبر لحكم ربك فقد حكم بامهالهم وتأخير نصرتك ، فانهم إن أمهلوا لم يهملوا ، وأخذ يذكره بحادثة يونس عليه السلام ، إذ غضب على قومه وفارقهم ، ونزل إلى السفينة فابتلعه الحوت ، ودعا ربه فى بطنه فقال : « لاإله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين » وهو مملوء غيظا ، وهذا هوقوله تعالى « فذرنى ومن يكذب بهذا الحديث » أى كله إلىّ فانى أكفيكه « سنستدرجهم من حيث لايعلمون » سندنيهم ونقرّبهم من العذاب «وأملى لهم» أمهلهم « إنّ كيدى متين» جعل الاحسان كيدا كما جعله استدراجا لكونه فى صورة الكيد « متين » شديد « أم تسألهم أجرا فهم من مغرم مثقلون ، أم عندهم الغيب فهم يكتبون ، فاصبر لحكم ربك » وهو امهالهم « ولاتكن كصاحب الحوت » وهو يونس عليه السلام « إذ نادى وهو مكظوم » مملوء غيظا ، وقوله « لولا أن تداركه نعمة من ربه » أى رحمة « لنبذ بالعراء » أى لطرح بالفضاء من بطن الحوت « وهو مذموم » أى مليم مطرود من الرحمة والكرامة « فاجتباه ربه » وذلك بأن ردّ الوحى إليه « فجعله من الصالحين » أى الكاملين فى الصلاح بأن عصمه فلم تبق له زلة ، وهذه الآية نزلت لما همّ أن يدعو على ثقيف ، أو بأحد حين حلّ بالمسلمين ماحلّ فأراد أن يدعو على المنهزمين « وان يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم » أى انهم لشدّة عداوتهم ينظرون إليك شزرا بحيث يكادون يزلون قدمك ويرمونك ، يقال نظر الىّ نظرا يكاد يصرعنى : أى لوأمكنه أن يصرعنى بنظره لفعله ، أويقال انهم يكادون يصيبونك بالعين ، وذلك أن العين كانت فى بنى أسد فكان الرجل منهم يتجوّع ثلاثة أيام فلايمرّ به شىء فيقول فيه : لم أركاليوم مثله إلاهلك ، فطلب من بعض العيانين أن يقول فى رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل ذلك ، فقال : لم أركاليوم مثله رجلا فعصمه الله من ذلك ، وفى الحديث : « العين حقّ وان العين لتدخل الجمل القدر والرجل القبر » . وعن الحسن : رقية العين هذه الآية .

وقوله : « وان يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم » ان مخففة من الثقيلة ، فهى للتأكيد واللام واقعة فى خبرها ، وقوله « لما سمعوا الذكر » أى حين سمعوا القرآن « ويقولون » حسدا على ماأوتيت من النبوّة « إنه لمجنون » ان محمدا لمجنون حيرة فى أمره وتنفيرا عنه « وماهو » أى القرآن « إلا ذكر » إلا وعظ « للعالمين » للجنّ والانس : أى جننوه لأجل القرآن مع أنه ذكر عام لايدركه ولايتعاطاه إلامن كان أهلا له اهـ

ايضاح

إنّ هذه الآيات متلاحقة متواصلة المعنى ، فان أصحاب الجنة ضربوا مثلا لمن أعطوا نعمة فبخلوا بها عن الناس ، وحرصوا عليها ، فنزل بهم السوء وأحاط بهم ، فزالت نعمتهم ، وهكذا الاستدراج فى النعم ، فان الانسان يعطى النعمة ولاتزال تتوالى عليه وهو غافل ساه ، فيظن أن الله أحبه ، وأن هذا العزّ يدوم

فاذا نعمته زائلة وهمه حاضر ، هذا الحكم يشمل الأفراد و يشمل الأمم ، الأفراد والأمم مشتركون فى هـذه القواعد .

واعلم أن هذه القضية مسلمة عند علماء الاجتماع ، فما من دولة إلاولها زمان ترتقى فيه ، وتكون أشبه بالدابة ترعى فى مرعاها سائمة هائمة آمنة مطمئنة ، فلا تلبث أن تأكل مايضرها فتمرض أو تموت ، وما مثل الأمة وهى فى عنفوان عظمتها إلا كمثل ماوصفه علماء الطب الحديث فى النمسا وألمانيا إذ قالوا : ان أكثر من نراهم أصحاء الأبدان أقوياء الجسم حمر الخدود ، موردى الوجنات ، لما فى تغذيتهم من المواد الكثيرة الغذاء كاللحم والبيض واللبن ، فهؤلاء لايزالون هكذا حتى تتخطفهم المنون وهم لا يشعرون ، وأما ذلك الذى تراه ضعيف الجسم كثير الأمراض فهو الذى نسميه قويا لأن جسمه قدر أن يخرج منه الفضلات الباقيات فى جسمه التى لو بقيت لأهلكته : أما الأوّل الذى يظن الناس أنه قوىّ ويحسدونه فانه هو الضعيف فى نظرنا ، لأنه دائما أوغالبا يموت فجأة وهو غافل ، وما مثل جسد الأوّل وجسد الثانى إلا كمثل بيت لم تجعل له مصارف لمافيه من القاذورات ، و بيت قد جعل له ذلك ، فالثانى خير من الأول قالوا : وهذا هو السرّ فى أنا نرى كثيرا من الضعفاء المهزولين يعمرون وكثيرا من الأقوياء يموتون فجأة وهم فى عنفوان الشباب .

إذا عرفت هذا فهمت أحوال الدول : فالأمم اذا استبحر عمرانها ، وتكاثر نسلها ، واستعمرت الأرض واستكثرت من الشهوات جرّها ذلك الى البطنة وسوء الحال ، فيقول غيرها من الأمم ماأحسن حالهم و يهابونهم ، ولكنهم يكونون قد أشرفوا على الهرم وقاربوا الهلاك .

وهذه دول أوروبا الحالية أمرها على هذه الحال أصبحوا وهم شرهون متنعمون لم يظهرهم الاتفوّقهم فى الصناعة ، ولكنهم مشرفون على حال الهرم وضياع المدنية ، كما ذهبت دولة اليونان والرومان وآبائنا العرب القدماء ، وهذه الحال طبيعية فى الأمم : فأما الأمم التى هى فى حال البداوة فان أخلاقها وعقولها قابلة للرقىّ ، ومتى جاء دورها ولمّ شعثها ، وسيقت لحرب الأمم العظيمة أهلكتها وحلت محلها ، فدولة الرومان أزالها أولئك المتوحشون من الأمم التى نزحت قديما من آسيا ، فأزالوا تلك الدولة وحلوا محلها ، وذلك فى نحو القرن الرابع والخامس بعد الميلاد ، وهكذا دولتنا العربيـة زالت قديما وحلت محلها أمم أخرى كالتتار وكالسلجوقيين وغيرهم ، وأمم أوروبا لاحقة بهم قريبا ، ألاترى الى بلاد مراكش فى أيامنا الحاضرة كيف اتحدت دولتان عظيمتان على قتالهم ، وتعدادهم رجالا ونساء نحو مليون كمايقال ، وهم جهال ، ومع ذلك دوّخوا الدولتين معا ، وفرنسا تستعين بأمم كثيرة من السنغال وتحارب اخواننا مع أنهم جزء قليل من بلاد مراكش ، فهذه الأمم الاسلامية التى لم يقتل النعيم والبطنة هممها ، ولم تدنس الشهوات عقولها ، متى جاء وقتها ، وتسلمت مقاليد المدنية أزالت تلك الأمم من مراكزها ، فأمم الشرق اليوم أشبه بذلك الرجل النحيف المريض ، وأمم الغرب أشبه بذلك الرجل الضخم الجسم الآكل من الموادّ الكثيرة التغذية ، فهذا هو الاستدراج والاستنزال ثم يكون الهلاك .

أمر الله الصادقين فى أعمالهم أن يصبروا لأن دولة الباطل زائلة ، ودولة الحق غالبة ، فها هو ذا سبحانه يقول للقائمين بالحق صبرا صبرا ، لايكن أحدكم مستعجلا فان هؤلاء مستدرجون وفى العذاب واقعون .

فاذا قرأت هذا أيها المسلم فاعلم أن يوم الأمم الشرقية آت و إياك أن تقول : لم لم ينصرنا الله ؟ وأذكرك بصاحب الحوت فانّ أمم الاسلام الحالية تحتاج إلى مدة تستكمل قوتها فيها ، فاعمل لها فلك أجر الفاتحين وان لم يكن على يديك ، وان ركبت متن العجلة بؤت بالندامة ، وندمت ندامة الكسعى ، فاعمل لأمتك وانتظر النتيجة ، وأذكرك أيضا بأن سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم أخبر بفتح فارس والروم ، وفتح القسطنطينية ،

وفارس لم تفتح فى زمانه ، والقسطنطينية فتحت بعده بنحو تسع قرون ، فاصبر لحكم ربك كما صبر ولا تكن كصاحب الحوت فتولى هاربا وتدخل كسر بيتك وتقول مالى وللمسلمين . كلا . ثم كلا فالله سائلك لاسيما بعد التبيان فى هـذا التفسير الذى أنا موقن أن حركة الشرق ستنهض فى إبان ظهوره وتشتد بقراءته وقراءة ما يماثله من كتب العلماء فى البلاد الاسلامية ، وبهذا تم الكلام على [سورة القلم] والحمد لله رب العالمين كتب عصر يوم الخميس ١٦ يوليو سنة ١٩٢٥ م (١)

تفسير سورة الحاقة

هى مكية

آياتها ٥٢ — نزلت بعد سورة الملك

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الْحَاقَّةُ ٭ مَا الْحَاقَّةُ ٭ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ٭ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ٭ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ٭ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ٭ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ٭ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ٭ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ ٭ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً ٭ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ٭ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ٭ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ٭ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ٭ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ٭ وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ٭ وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ٭ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ ٭ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ٭ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ ٭ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ٭ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ٭ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ٭ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ٭ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ٭ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ٭ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ٭ مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ ٭ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ٭ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ٭ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ٭ ثُمَّ فِي

(١) [تذكرة] عاق ضيق المقام عن أن نبين أنواع القلم مثل : الطومار ومختصره ، وثلثيه ، وثلثه ، وقلم الغبار ، وقلم الرقاع ، فأخرنا الكلام على ذلك كله مع صور حروفه إلى سورة العلق إن شاء الله تعالى .

سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ * إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ * وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ * فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ * وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ * لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ * فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لَا تُبْصِرُونَ * إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ * وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ * تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ * وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ * وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ * وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ * وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ * فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ *

هذه السورة مقصدان

المقصد الأوّل : هلاك الأمم فى الدنيا من أوّل السورة إلى قوله « أذن واعية » .

المقصد الثانى فى عذاب الآخرة مختوما بإثبات النبوّة ودحض مفترياتهم من قوله : « فإذا نفخ فى الصور نفخة واحدة » إلى آخر السورة .

المقصد الأول : هلاك الأمم فى الدنيا

التفسير اللفظى

بسم الله الرحمن الرحيم

(الحاقة) أى القيامة ، الساعة الواجبة الوقوع ، الثابتة المجىء ، التى هى آتية لا ريب فيها ، يقال حقّ الشىء يحقّ : أى وجب ، وهـذه مبتدأ خبره هـذه الجملة (ما الحاقة) أى أىّ شىء هى ؟ (وما أدراك ما الحاقة) أى أىّ شىء أعلمك ماهى ؟ فلا علم لك بكنهها ، فلقد بلغت من الشدّة والهول أنه لا يبلغها علم المخلوقين (كذبت ثمود وعاد بالقارعة) أى الحاقة المذكورة التى تقرع قلوب الناس بالمخافة والأهوال ، وتقرع الأجرام بالانفطار والانتشار فتكون هباء متفرّقا فى كل مكان (فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية) وهى الواقعة التى تجاوزت الحدّ فى الشدّة ، وذلك بالصيحة أو الرجفة ، لأنهم كذبوا بالقارعة (وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر) شديدة الصوت فى الهبوب لها صرصرة ، أو الباردة (عاتية) جاوزت الحدّ والمقدار (سخرها عليهم) سلطها عليهم ، هى جملة مستأنفة لبيان فعلها (سبع ليال وثمانية أيام حسوما) حاسمات حسمت كل خير واستأصلته ، وحسمتهم أى قطعتهم بعذاب الاستئصال فلم تبق منهم أحدا ، وهى جمع حاسم ، وهذا من شؤمها ونحسها ، وهى كانت أيام العجوز من صبيحة الأربعاء إلى غروب الأربعاء الآخر ، وسميت عجوزا لأنها عجز الشتاء (فترى القوم فيها صرعى) موتى جمع صريع (كأنهم أعجاز نخل خاوية) أصول نخل متآكلة الأجواف (فهل ترى لهم من باقية) أى من بقاء ، أو من نفس باقية (وجاء فرعون ومن قبله) ومن

تقدمه (والمؤتفكات) أى المنقلبات ، وهى قرى قوم لوط انقلبت بهم (بالخاطئة) أى بالخطأ ، أو بالأفعال ذات الخطأ العظيم (فعصوا رسول ربهم) لوطا (فأخذهم أخذة رابية) شديدة زائدة فى الشدة بنسبة زيادتهم فى القبح (إنا لما طغا الماء) أى ارتفع الماء وقت الطوفان ارتفاعا جاوز الحد (حملناكم) فى أى آبائكم (فى الجارية) وهى سفينة نوح عليه السلام (لنجعلها) أى الفعلة (لكم تذكرة) عبرة (وتعيها) وتحفظها (أذن واعية) حافظة لما تسمع منتفعة به . انتهى الكلام على المقصد الأول من السورة ، والحمد لله رب العالمين .

المقصد الثانى : فى عذاب الآخرة واختتامه بإثبات النبوة

فهو لشرح أحوال القيامة بعد ذكر ماحل بالمكذبين بها فى الحياة الدنيا وهلاكهم فيكون العذاب مذكورا على الترتيب الطبيعى

قال تعالى (فاذا نفخ فى الصور نفخة واحدة) وهى النفخة الأولى (وحملت الأرض والجبال) أى رفعت عن أماكنها (فدكتا دكة واحدة) أى ضرب بعضها ببعض حتى تندق وترجع كثيبا مهيلا (فيومئذ) أى فحينئذ (وقعت الواقعة) نزلت النازلة ، وهى القيامة ، وهذه الجملة جواب اذا ، وقوله (وانشقت السماء) أى فتحت أبوابا (فهى يومئذ واهية) مسترخية ساقطة القوة (والملك على أرجائها) على جوانبها ، وهى جمع رجا بالقصر ، وهذا تمثيل لخراب السماء بخراب البنيان فى الأرض وانطلاق أهله إلى أطرافه وحوله ، فكأن الملائكة وهم سكان السموات لجأوا إلى أطرافها بعد خرابها (ويحمل عرش ربك فوقهم) فوق الملائكة الذين هم على الأرجاء (يومئذ ثمانية) أى ثمانية صفوف من الملائكة لايعلم عددهم ، وهم اليوم أربعة ، وهذا من باب التمثيل لعظمة يوم القيامة بما نشاهد من أحوال الملوك يوم خروجهم على الناس للقضاء العام (يومئذ تعرضون) للمحاسبة تشبيها بعرض السلطان العسكر ليتعرف أحوالهم (لاتخفى منكم خافية) سريرة على الله تعالى ، فاذن ليس العرض للاطلاع عليها ، وإنما المراد افشاء الحال والمبالغة فى العدل . ثم أخذ يفصل أحوال العرض فقال : (فأما من أوتى كتابه بيمينه فيقول هاؤم) أى خذوا كتابى (اقرءوا كتابيه) وهاء اسم فعل ، والميم تلحق بها عند مخاطبة جمع الذكور ، وهاء كتابيه للسكت (إنى ظننت أنى ملاق حسابيه) أى علمت أنى معاين حسابى (فهو فى عيشة راضية) ذات رضى يرضى بها صاحبها (فى جنة عالية) مرتفعة المكان لأنها فى السماء والدرجات والأبنية ، والأشجار (قطوفها) ثمارها (دانية) قريبة من مريديها ، ينالها القاعد والقائم والمتكئ ، ويقال لهم (كلوا واشربوا) أكلا وشربا (هنيئا بما أسلفتم) بما قدمتم من الأعمال الصالحة (فى الأيام الخالية) الماضية من أيام الدنيا (وأما من أوتى كتابه بشماله فيقول) حين يرى سوء العاقبة ، وقبح عمله ، وشناعة مرآه (ياليتنى لم أوت كتابيه ، ولم أدر ماحسابيه ، ياليتها) ياليت الموتة التى متها (كانت القاضية) القاطعة لأمرى فلم أبعث بعدها (ماأغنى عنى ماليه) أى لم ينفعنى ماجمعته فى الدنيا ، والمفعول محذوف لم يغن عنى شيئا (هلك عنى سلطانيه) تسلطى على الناس ، وبقيت فقيرا ذليلا ، أوخلت عنى حجتى التى كنت أحتج بها فى الدنيا ، فيقول الله لخزنة جهنم (خذوه فغلوه) أى اجمعوا يديه إلى عنقه (ثم الجحيم صلوه) أى لاتدخلوه إلا النار العظمى (ثم فى سلسلة ذرعها) طولها (سبعون ذراعا) أى طويلة (فاسلكوه) فأدخلوه فيها بحيث تلف على جسده فلا يقدر على التحرك ، ثم ذكر سببه فقال (إنه كان لايؤمن بالله العظيم ، ولايحض على طعام المسكين) أى ولايحث غيره على بذل طعامه ، وعن بعضهم انه كان يأمر أهله بتكثير المرقة لأجل المساكين ويقول :

خلعنا نصف السلسلة بالايمان أفلانخلع النصف الثانى بالاطعام (فليس له اليوم ههنا حميم) أى ليس له فى الآخرة قريب ينفعه و يشفع له (ولاطعام إلا من غسلين) أى صديد (لا يأكله إلا الخاطئون) أصحاب الخطايا ، يقال : خطئ الرجل اذا تعمد الخطأ المضادّ للصواب (فلا أقسم) أى فأقسم ولفظ لا زائد (بما تبصرون ومالاتبصرون) أى بالمشاهدات والتى لم تشاهد ، وهذا جمع كل شىء من المخلوقات ، وشمل الخالق (إنه) أى القرآن (لقول رسول) يبلغه عن الله (كريم) على الله ، وهو محمد صلى الله عليه وسلم ، أوجبريل (وماهو بقول شاعر) كما يزعم بعضكم (قليلا ماتؤمنون) أى تصدّقون تصديقا قليلا لما ظهر لكم صدقه (ولابقول كاهن) كما يدّعى آخرون منكم (قليلا ماتذكرون) أى تذكرون تذكرا قليلا ، هو (تنزيل من رب العالمين) نزله على لسان جبريل عليه السلام (ولوتقوّل علينا) أى اختلق علينا محمد (بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين) أى بيمينه (ثم لقطعنا منه الوتين) وهوعرق يخرج من القلب و يتصل بالرأس ، وهوتصوير لاهلاكه بأفظع مايفعله الملوك بمن يغضبون عليه ، وهوأن يأخذالقاتل بيمينه و يضرب عنقه بالسيف ، والمقصود أنه لوكذب علينا وتكلف الاخبار عنا لقتلناه إما قتلا معنويا وذلك بأن نهيئ له من يبطل حجته ، ونميت دعوته ، أونسلبه قوّة البيان فلايتكلم بهذا الكذب ، و إما أن نميته ، إذن ليس القصد من الأخذ باليمين وقطع الوتين إلا النتيجة ، وهى ألا ينتشر الأكاذيب ، ولاجرم أن كل متكلف القول غير معبر عما امتلأ به فؤاده ، ووعاه صدره ، وجاشت به نفسه ، بحيث يفيض القول منه فيضا ، لاتمتدّ دعوته ، ولايسمع قوله ، وهذه عادة الله فى خلقه ، فليس لامرئ متكلف من نصيب فى قبول السامعين ، إنّ المؤلفين والخطباء والشعراء اذا لم يكن تآليفهم وخطاباتهم جائشة بها صدورهم فانّ قولهم مرفوض والسامع مله ، وقارئ كتبهم لايميل إليها ، ولايخامر قلبه حبها ، وفى التنزيل : «وما أنا من المتكلفين» . ثم قال تعالى (فما منكم من أحد) أيها الناس (عنه) عن قتل محمد صلى الله عليه وسلم (حاجزين) ولفظ أحد فى معنى الجماعة فلذلك وصف بالجمع (وإنه) أى القرآن (لتذكرة) لعظة (للمتقين) إذ غيرهم لاينتفع به (و إنا لنعلم أن منكم مكذبين) فنجازيهم عليه (و إنه لحسرة على الكافرين) حينما يرون ثواب المؤمنين (و إنه لحقّ اليقين) الذى لاريب فيه (فسبح باسم ربك العظيم) أى نزه ربك العظيم واشكره إذ جعلك أهلا لأن يوحى إليك ، أوفسبح الله بذكر اسمه العظيم تنزيها له عن الرضى بالتقوّل ، وشكرا على ما أوحى إليك . انتهى التفسير اللفظى للمقصد الثانى من السورة ، والحمد لله رب العالمين .

ايضاح

اعلم أن هذه السورة سيقت لتبيان هلاك الأمم الجاهلة فى الدنيا بخرابها ، وفى الآخرة بعذابها ، إنّ التكذيب بالقيامة الذى بنى عليه هذان العذابان : عذاب الدنيا بخراب الدول ، وعذاب الآخرة بجهنم إنما هوعنوان على الجهالة ، فليس خراب تلك الأمم التكذيب بالقيامة وحده ، فقد جاء فيها أن منهم من طفف المكيال والميزان ، ومنهم من ظلم عباد الله ، ومنهم من استغنى بالذكران عن النسوان ، فاذن يرجع الأمر إلى الجهالة ، فيصير الأمر هكذا : ان الأمم التى أقفلت عقول أبنائها وغفل رجالها تعذب عذابين : عذابا فى الدنيا ، وعذابا فى الآخرة ، واذا ضرب الله مثلا بعاد وثمود وقوم لوط وقوم فرعون فكل هذه الأمم كل أمة غافلة جاهلة العواقب لم تتق مايطرأ عليها من حوادث الدهر باعداد المعدّات و إحياء أرضها وعقول أبنائها ، ومعرفة مافى هذه الدنيا من الصناعات والعلوم ، واذا كان جهل الآخرة التى هى غائبة عنا لم نشاهدها يوجب عذاب جهنم ، فكيف إذن يكون جهل ما أحاط بالناس من مدمّرات ومهلكات ! انه أحرى أن يوجب الخزى فى الدارين .

وإيضاحه أن الآخرة أعدّ فيها عذاب جهنم ونعيم الجنة ، فمن جهل هذه العاقبة دخل جهنم ، ومعلوم أن الآخرة لم يعرفها الناس بعقولهم وانما عرفوها بكلام أنبيائهم الصادقين المؤيدين بالمعجزات ، فيقال : اذا كانت هذه حال الناس اذا كذبوا أمرا سمعيا لم يروه فكيف تكون حالهم اذا رأوا الأمم حولهم قد استخرجت منافع ما في الأرض وملكت منها حظا وافرا لغرضين : إحياء أممهم وإماتة غيرهم ، فاذا هم أهملوا ما هو يقين عندهم ، وهو أن تلك الأمم المحيطة بهم ستنقضّ عليهم وربما أفنتهم كما أفنى أهل أوروبا سكان أمريكا الأصليين ، واستأصل الانجليز سكان استراليا الأصليين إلا قليلا فان العذاب يلحقهم فى الدنيا بانقضاض تلك الأمم عليهم : « ولعذاب الآخرة أشدّ وأبقى » .

ثم إن الايمان بالآخرة لا نتيجة له إلا العلم والعمل فى الدنيا ، فأىّ أمة غفلت عما أحاط بها من العلوم فى الأمم حولها ، وما دبرت من كيد وذلّ للضعفاء فان هذه السورة تبين لها مقدار عذابها فى الدنيا بذلها وفى الآخرة بجهنم .

ولقد قلنا فى هذا التفسير إن المسلم اذا ظنّ أن العذاب خاص بأمم معلومة فى الدنيا والآخرة ، وانه هو مبرّأ منه فليعلم أن هذا غرور اختلقه الوعاظ الكاذبون (انظر هذا الموضوع فى سورة آل عمران عند قوله تعالى : « وغرّهم فى دينهم ما كانوا يفترون » وفى سورة البقرة عند مسألة الشفاعة) .

إنّ سنة الله واحدة ، ولن يغيرها لأجل مسلم جاهل مغترّ فى دينه . وأما تعلل المسلم بأنه غير مخلد فى جهنم فليعلم أن العذاب الطويل لا يطاق ، فالمسلم الذى يتكل هذا الاتكال يحرم من السعادة فى الدنيا والآخرة ، فاذا ذكر الله ثمود وعادا ، أو قوم لوط الخ فلنا أن نذكر أيضا خراب الأندلس التى كان يعمرها المسلمون واحتلال مصر بالانجليز وبلاد شمال افريقيا بقوم من الفرنجة ، وهكذا العراق والشام ، أليس هذا هو عذاب الدنيا ، ألم يعذب الله المسلمين بجهلهم ، نعم هم يؤمنون بالآخرة ولكنهم لا يؤمنون بالمحسوسات المشاهدة من ظلم الأمم فلا يحافظون على بلادهم ، ولا يكون ذلك إلا بالعلوم والمعارف .

***

أيها المسلمون : ألستم تعدون أن هذا عذاب من الله : أليس هذا تعجيلا للعذاب ؟ ألستم ترون أنكم بنومكم عن معرفة جمال الله وعظمته ، والاطلاع على آثاره وحكمته ، وبحرمانكم من خيرات ما خلق من البدائع والمنافع قد استحققتم غضبه ، لأنكم غير شاكرين ، ولا متقبلين نعمه .

ياعجبا ! أيظن المسلم أن الله يكتفى منه بأن يقول آمنت ؟ عجبا لأمة الاسلام ! ألم يقرأ المسلمون : «أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون» أى وهم لا يختبرون ، فهذا هو الاختبار ، اختبر عقولكم فوجدها غافلة ، أحاط بها جمال الله فى صنائعه ، أحاط بها أمم الفرنجة بالمدافع والطيارات ، أحاطت بها صناعات الفرنجة تدخل بلادهم فيشترونها بأغلى الأثمان فتفتقر البلاد فتصير ملكا للأجانب ، أليس هذا من الاختبار ؟ ألم يقل الله على لسان قوم ؟ « وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير » ، ألم يقل الله : « إنّ السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا » ، ألم يذكر الله آيات كثيرة فى الحضّ على النظر والتفكر فى السموات والأرض ، غفل المسلمون فليستيقظوا ، ماتوا فليتنبهوا ، فقد جاء دورهم ، أفلم يقرأ المسلمون : « خذوه فغلوه ثم الجحيم صلوه ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه إنه كان لا يؤمن بالله العظيم ولا يحضّ على طعام المسكين » .

أفلا يعلم المسلم أن الاقتصار على جمع المال وادّخاره يحبس العقل فيظلم ، وتصبح النفس مكبلة به لا انفكاك لها منه ، فيعيش للمال ويموت متحسرا عليه : أى يعيش ولا نظر له فى حكمة ، ولا علم ، ولا دولة ، ولا منفعة أمة من الأمم ، لأنه حوّل وجهته إلى غرض واحد هو المال ، ومن كان هذا شأنه تكون جميع أحواله راجعة

لهذا المعنى ، حتى ان كثيرا من عشاقه يعتريهم الوسواس فى آخر حياتهم ، فيقول أحدهم : أين سفنى البحرية أين قصورى ؟ أين كنوزى ؟ أين أموالى ؟ .

وإذا مات لا يفارقه هذا الوسواس ، ولا يغادره هذا الخناس ، فهو كالمقيد بالسلاسل لا خلاص له منها ولا انفكاك ، فلاله فى الدنيا علم ولا عمل ، ولا فكر فى أمته ، وفى الآخرة يكون على منهجه لا يتعدّاه ، فلا يزال فى الجهالة العمياء .

حكاية

وهل لك أن أذكرك بحكاية البخيل الذى مات فى [مدينة أنجوليم] وقد رمز له بحرف (ل) وكان يسكن الطابق السفلى من داره ، فلما مرض لم يعلم أحد بمرضه ، فدخل رجال الحكومة فوجدوه شاخص البصر إلى كمية من النقود الذهبية الملقاة على مائدة أمامه ، فأخرجوه إلى المستشفى فمات ، حينئذ أحضره الجماعة الروحية بعد موته : أى أحضروا روحه ، فقال : إنى لم أمت ، وكان ذلك فى ٢٥ أيلول سنة ١٨٦٣ ثم أحضروه مرّة أخرى ، فقال : ماذا تريدون منى ؟ الأحرى بكم أن تردّوا لى مالى الذى سرقوه منى ، ما أقبح عملهم ، أنا الذى تعبت مدّة حياتى كلها لأجمع قليلا من النقود أستعين بها عند الحاجة فسرقوها منى وأحلوا بى الدمار ، أرجوكم سادتى أن تأخذوا بنصرتى وتسعوا فى ردّ ما أخذوه منى ، فلما قيل له أنت ميت ولا تحتاج للمال ؟ قال : ماهذه الوقاحة ، هل الجنيهات فى نظركم لا تعدّ شيئا ، فلما ذكروه بأن الأجدر به أن يبحث عن كنزه فى السماء ، ردّت الروح قائلة : ما أبلدكم دلونى على المكان الذى فيه كنزى ، وكفوا عن المزاح ، فقيل له ألا تعرف الله ؟ قال : ليس لى هذا الشرف ، أريد استرجاع مالى . انتهى المقصود منه نقلا عن كتابى [الأرواح] الذى ألفته فى هذا الصدد .

أفليس هذا الغنىّ الذى كان المال هو المقصود الأكبر من حياته قد كبله المال فصار فى سلسلته التى كبلته فلا يقدر على الانفصال عنها ، أليس قوله تعالى : « فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه إنه كان لا يؤمن بالله العظيم ولا يحضّ على طعام المسكين » يشير لنحو هذه الحكاية وأمثالها مما فى ذلك الكتاب وغيره مما امتلأت به بلاد أوروبا كلها ، و بلاد الاسلام محرومة منه .

ألم يجعل الله وضعه فى السلسلة الطويلة للجهل والبخل بالمال ، ولاجرم أن العقل متى كان غير منطلق من قيود الجهالة لا يعقل المنافع ، فهذا الفرنسى الذى لم ير بعد الموت أمامه إلا المال هو موضوع فى سلسلة معنوية أعظم من السلسلة الحسية ألف مرّة ، إن المحبوس فى سجن قد يعيش فيه عشرات السنين ، ولكن الذى اعتراه عشق فلك قلبه وهو مطلق السراح فى الفضاء قد يموت ، وقد يقتل نفسه ، وكثير من العشاق ماتوا لأنهم حبست عقولهم فى صورة واحدة لم ينالوها ، وربما جعلت لهم سلاسل حسية وان كانت أقلّ فى التعذيب من السلاسل المعنوية .

إن عذاب الدنيا والآخرة بالسلاسل والضيق والاستعباد يكون بسببين : جهل بالعقول ، وتقصير فى الأعمال وللأوّل الاشارة بقوله : « لا يؤمن بالله العظيم » وللثانى بقوله : « ولا يحضّ على طعام المسكين » .

إن للعقول لذة غير لذة المال : لذة العلم ، لذة ارتقاء الأمة ، لذة النصر على أعداء الأمة ، لذة ارتقاء الصناعات الخ فما المال إلا آلة من آلات الحياة .

إيضاح السلسلة والعذاب بها

اعلم أن الناس عليهم واجبان : واجب للخالق ، وواجب للمخلوق ، فالواجب عليهم لخالقهم أن يعرفوه

﴿ وبعبارة أخرى ﴾ أن يدرسوا نظامه فى العوالم كلها على قدر الامكان ، فالعالم بالدراسة ، والجاهل بالعبادة ، لأنها تذكر بهـذا العالم فى أثناء القراءة ، فان قراءة الصلوات فيها الـكلام على العالمين وعلى الربوبية الخ وفيها قراءة القرآن ، ولاجرم أن القرآن مذكر لهذا العالم .

وأما الواجب للمخلوق ، فهو المساعدة العامة والمعاشرة الجميلة ، فلن يصـل لله إلا بعلم وصولا حقيقيا ، أو بعبادة وصولا ثانويا إجماليا ، ولن تـكون روحه فى الحياة و بعـد الممات فرحة بالأرواح الأخرى إلا اذا كانت تجلب لهم المساعدة ، وتتخذ مودّتهم شعارا لها ، فليعاشر الناس بالأخلاق الحسنة إن لم يمكن بالمساعدة العامة لهم ، فاذن الانسان يحظى بربه و بخلقه بالعلم والعبادة أوّلا ، و بالنفع العام والأخلاق ثانيا ، فاذا لم يوفق إلى إحداهما أو كلتيهما فانه فى سلسلة لاتراها العيون ، ولـكنها سلسلة أشدّ ضنكا وتعذيبا من سلسلة الحديد ، وهاك المثـل المتقدّم فى حكاية البخيل الذى أحضروا روحه : ألم يقل بعد موته انه محتاج لماله ، ألم يقل انه لايعرف الله وليس له هذا الشرف ، أليس هذا مصداق : « ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضلّ سبيلا » ، أليس هذا الرجل أعمى فى الدنيا وأعمى فى الآخرة ، ألم يكن محروما من معرفة الله كما أقرّ بنفسه ، ومن معرفة الحياة بعـد الموت ، ومن محبة الناس ، لأنه بخيل ، أليس هذا هو قوله تعالى : « إنه كان لايؤمن بالله العظيم ، ولايحضّ على طعام المسكين » فضـلا عن أنه هو نفسه ملزم أن يواسيهم بماله ، ولعلك تقول : أين السلسلة التى فى رقبته ؟ أقول لك : السلسلة هنا سلسلتان : حسية ومعنوية ، أما السلسلة المعنوية فانظر :

(١) ألست ترى أن رجلا ارتـكبته الديون وهو شهير بالثروة فقام الدائنون عليه فحجزوا ماله ، فبعض أمثال هذا ينتحرون ؟ لماذا ؟ لأنهم يفتضحون ، فمّ يتخلص هذا ؟ يتخلص من سلسلة معنوية أشد من السلسلة الحسية .

(٢) ألم يقل الله تعالى على لسان مريم : « ياليتنى متّ قبل هذا وكنت نسيا منسيا » فاذن مريم تمنت الموت وفضلته على الحياة ، لماذا ؟ لأنها وضعت فى سلسلة العار التى لاتنفصل عنها .

(٣) العاشق الذى تقدّم ذكره يقدم على الموت تخلصا من السلسلة العشقية التى ربطته ربطا محكما ، وكم من امرئ اعتاد شرب الدخان ، أو الخمر ، أو عادات أخر ، فلازمته فلم تنفك عنه حتى أوردته الهلاك ، وأمثلة هذا المقام كثيرة .

وأما السلسلة الحسية ، فهاك وصفها : انظر : ألست ترى أن القمر يدور حول الأرض ، وهى تدور حول الشمس ، وهى دائرة حول كوكب آخر ، وهكذا سلسلة متناسقة إلى أن تصل إلى الشمس الـكبرى فى المجرّة فهذه شموس متصلات متناسقات كأنها أوراق شجرة كل جماعة فى غصن ، فهذه السلسلة المركبة من شموس وسيارات وأرضين باعتبار العلم الحديث متتالية متجاذبة متماسكة تماسك حلقة السلسلة ، والانسان من بنى آدم حىّ على الأرض فوق حلقة من حلقات تلك السلسلة المحيطة بها كما وصفها المفسرون ، إذ قالوا : إنّ السلسلة تلتفّ عليه وتحيط به ، فالانسان فوق هذه الأرض العائش فوق حلقة من السلسلة مربوط بها وهى محكمة عليه لايقدر على فراق الأرض لأنه مجذوب إليها ، وهو مع ذلك جاهل بما يحيط به ، لم يخترق حجب الـكون حتى يعرف فاعله ، فذلك أحكم عليه رباط السلسلة ، لأنه لايدرس إلا مايسدّ جوعته ، وأما هذا الوجود فانه عنه فى غفلة ، فلايمكنه أن ينفذ منه ويخترق حجبه ليدرك بعقله ماوراءه ، وكيف ينفذ فيعرف إلا بسلطان العلم ، وقوّة النفس ، وأجنحة الهمة ، فهو من هذه الوجهة محبوس لاقدرة له على معرفة ماوراء شهواته ، فاذا مات بقى محبوسا كما هو ، لأنه لم يتزوّد من الأرض معارف تعينه على السير هناك ، ألاترى قول البخيل

المتقدم: [أنا ليس لى شرف معرفة الله] ، فكأن الانسان فى الدنيا مربوط فى سلسلة عظيمة جداً طولها آلاف الآلاف من الأميال ، بل لايعرف مقياسها ، فاذن الواجب أمران : أولهما العلم بنظام العالم ولو بطريق العبادة ، وإليه الاشارة بقوله : « إنه كان لايؤمن بالله العظيم » فهذه العظمة لاتعرف إلا بدراسة هذا العالم لكل امرئ بمقدار طاقته . وثانيهما العمل ، وإليه الاشارة بقوله : « ولايحض على طعام المسكين » ثم ان السلسلة حسية ، وهى هذا الوجود اذا كان مجهولا للانسان فانه يموت وهو محبوس الفكر عن الصعود إلى ماوراء الحس . وسلسلة معنوية ، وهى ماركز فى النفوس من التعلق بأمر مخصوص ، فليس للانسان من دواء إلا بالعلم بالفضائل الخلقية . انتهى تفسير سورة الحاقة يوم الجمعة ١٧ يوليو سنة ١٩٢٥ م

تفسير سورة المعارج

هى مكية

آياتها ٤٤ — نزلت بعد سورة الحاقة

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ * لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ * مِنَ اللهِ ذِى الْمَعَارِجِ * تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ * فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلاً * إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا * وَنَرَاهُ قَرِيبًا * يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ * وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ * وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا * يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ * وَفَصِيلَتِهِ الَّتِى تُؤْوِيهِ * وَمَنْ فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ * كَلَّا إِنَّهَا لَظَى * نَزَّاعَةً لِلشَّوَى * تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى * وَجَمَعَ فَأَوْعَى * إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا * إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا * وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا * إِلَّا الْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ * وَالَّذِينَ فِى أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ * لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ * وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ * وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ * إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ * أُولَئِكَ فِى جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ * فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ

مُهْطِعِينَ * عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ * أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ * كَلاَّ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ * فَلاَ أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ * عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلاَقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ * يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ * خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ *

هذه السورة ثلاثة مقاصد

وهى أشبه بالتى قبلها ، فلذلك ذكرت عقبها ، فهى مبدوءة بوصف يوم القيامة وأهواله ، والنار وعذابها وذلك من أوّل السورة إلى قوله : « وجمع فأوعى » وهذا هومقصدها الأوّل .

ومقصدها الثانى فى صفات الانسان التى أوجبت له الجحيم ، وغرائزه الفطرية التىأوجبتها ، وكيف يجتهد لازالة ذلك النقص حتى يرتقى إلى المعارج ، ويخرج من عالم المادّة ، وذلك من قوله « إن الانسان خلق هلوعا » إلى قوله : « أولئك فى جنات مكرمون » .

ثم المقصد الثالث فيه وعيد لأولئك الكافرين من قوله : « فمال الذين كفروا قبلك مهطعين ، عن اليمين وعن الشمال عزين » إلى آخر السورة .

المقصد الأول : وصف يوم القيامة وأهواله والنار وعذابها

التفسير اللفظى

بسم الله الرحمن الرحيم

(سأل سائل بعذاب واقع . للكافرين) كان أهل مكة يقول بعضهم لبعض : إن محمدا يخوّفنا بالعذاب فمن أهل هذا العذاب ؟ ولمن هو ؟ وكان النضر بن الحرث خاصة ونحوه يقولون : « اللهم ان كان هذا هو الحقّ من عندك فأمطرعلينا حجارة من السماء » فنزلت هذه الآيات . يقول الله : دعا داع ، وطلب طالب ، كالنضر بن الحرث عذابا واقعا كائنا للكافرين ، فالباء فى بعذاب زائدة ، ويجوزأن يكون كقولك : دعا بكذا اذا استدعاه وطلبه فلاتكون الباء زائدة ، وقوله (ليس له دافع) أى ان العذاب واقع بهم لامحالة فلماذا يطلبونه استهزاء ؟ فسيكون فى الدنيا بالقتل ، وفى الآخرة بالنار ، وقد قتل النضر بن الحرث يوم بدر ، فليس لهذا القتل ولا لعذاب الآخرة دافع يدفعه عنهم (من الله) أى يردّه من جهته ، وكيف يردّ وقد تعلقت به إرادته ؟ (ذى المعارج) أى ذى المصاعد ، وهى الدرجات التى يصعد فيها الكلم الطيب ، وذى النعم التى تكون درجات متفاضلة ، وهى تصل إلى الخلق على مراتب مختلفة ، وذى المراتب التى جعلت حقوق الملائكة فيها ، وذى السموات التى هى درجات بعضها فوق بعض .

يقول الله : إن العذاب الذى طلبه السائلون واستبطئوه واقع بهم لامحالة ، وهولم يفعل ذلك إلا لحكمة لأنه لم يفعل ذلك إلا ليضعهم فى دركاتهم التى أهلوا لها باستعدادهم ، وهو قد نظم العوالم كلها ، فجعل منها مصاعد ، ومنها دركات ، فليكن هؤلاء فى الدركات ، وليكن المؤمنون والملائكة فى الدرجات طبقا عن طبق بنظام تام . ثم أخذ يستأنف مبينا ارتفاع تلك الدرجات فقال (تعرج الملائكة والروح إليه فى يوم كان مقداره

خمسين ألف سنة) قدّم الملائكة لأنهم فى عالم الأرواح : أى العالم المبرأ عن المادّة ، وأتبعهم بالروح أى أرواح المؤمنين ، فانها تذهب صاعدة عند الموت إلى مصاعد صعدها الملائكة ، يقتفون آثارهم على مقدار مراتبهم ، فيصعد هذان الصنفان إلى عرش الله ومهبط أمره فى يوم طويل مقداره خمسون ألف سنة من سنى الدنيا ، وليس ذكر الخمسين ألف سنة ، ولا ذكر ألف سنة للتحديد بالمدّة ، بل المقصود أن مقام القدس الإلهى بعيد المدى عن مقام العباد ، فهم فى المادّة مغموسون ، وفى أوحالها مغمورون ، وهناك عوالم ألطف وألطف ، درجات بعضها فوق بعض ، وكل عالم ألطف مما قبله ، وكل مالطف العالم العلوى كان أشدّ قربا وهكذا « وأن إلى ربك المنتهى » .

وتلك الدرجات المتاليات لاحصر لها ، فعبر عن هذا كله بخمسين ألف سنة ، والا فهى بعيدة المدى ، والملائكة درجات بعضها فوق بعض ، وهكذا أرواح المؤمنين وكل منهم يعرج إلى الدرجات العلى .

كأنه عزّوجل يقول : ان هؤلاء اذا عذبتهم فأنا لم أخلق الخلق إلا ليعبدون فيرتقوا إلى درجات القرب ويصعدوا إلى مراتب الكمال ، فأنا ذوالمعارج ، فان عذبت أهل مكة فذلك لنقص فى فطرهم والا فأساس خلق العالم الارتقاء ، أنا ذوالمعارج ولست ذا الدركات ، فالأرواح لاتزال ترتقى إلىّ طبقا عن طبق فى الحياة وبعد الموت فى البرزخ ، وبعد دخول الجنة هم يتسابقون فى الاستعلاء طبقا عن طبق ، فالارتقاء دائم إلى أبد الآبدين ، ودهر الداهرين ، ولا ارتقاء إلا بالكشف العلمى ، وعلمى لانهاية له ، وحكمتى لاغاية لها ، فعبادى المخلصون لايزالون يزدادون منى اقترابا بالعلم فى الدنيا وفى البرزخ وفى الجنة ، بل أعلى درجات الجنة أن يكون الناس فى عالم روحى خالص من المادّة للاستغراق فى العلم ، ولامعنى للقرب منى إلا بالعلم ، وشبهه العلماء بقرب الأستاذ من التلميذ ، فكلما ازداد علما ازداد من أستاذه قربا ، فهذا هو العروج الذى تعرجه الأرواح ، وهذا العروج لانهاية له ، فليعدّ بخمسين ألف سنة ، أوفليعدّ بأضعافها ، فالمقصد المراتب العظيمة ، قال تعالى : اذا سألوا استعجال العذاب على سبيل الاستهزاء والتكذيب بالوحى وكان هذا يورث ضجرك يامحمد (فاصبر صبرا جميلا) بلاجزع ولاشكوى ، لأنه أمر محقق وكل آت قريب (إنهم يرونه) أى العذاب (بعيدا) من الامكان ، أومن الوقوع (ونراه قريبا) أى من الامكان ، أومن الوقوع ، وقوله (يوم تكون السماء كالمهل) أى يقع يوم تكون السماء كدردىّ الزيت ، أوكالفضة المذابة فى تلوّنها (وتكون الجبال كالعهن) أى كالصوف المصبوغ ألوانا ، فان الجبال حمر وبيض وسود ، فاذا بست وفرّقت وطارت فى الجوّ أشبهت العهن المنفوش اذا طيرته الريح (ولا يسأل حميم حميما) أى لايسأل قريب قريبه لشغله بشأن نفسه ، ولا يكلمه لشدّة هول ذلك اليوم حال كونهم (يبصرونهم) أى يرى الأحماء الأحماء ، والحميم فعيل يقع موقع الجمع ، فلايسأل حميم حميما حال كونهم يشاهدونهم ، وذلك لتشاغلهم فلم يتمكنوا من التساؤل . ثم استأنف فقال : (يودّ المجرم) يتمنى المشرك (لو يفتدى من عذاب يومئذ) أى من عذاب يوم القيامة (ببنيه وصاحبته وأخيه) أى فلم يقف الأمر عند التشاغل عن سؤال الحميم حميمه ، بل أصبح الوضع مقلوبا ، فبعد أن كان فى الدنيا يدافع عنه وربما تقدّم للقتل محافظة على حميمه والدفاع عنه صار فى الآخرة يودّ أن يفتدى به ، والصاحبة : الزوجة (وفصيلته) عشيرته (التى تؤويه) تضمه ويأوى إليها (ومن فى الأرض جميعا ثم ينجيه) أى يتمنى لوملك هؤلاء جميعا ثم يفتدى بهم جميعا (كلا) لاينجيه من عذاب الله شىء (انها) الضمير مبهم يفسره (لظى) اللهب الخالص ، أوعلم للنار (نزاعة للشوى) أى لأطراف الانسان كاليدين والرجلين ، أوجمع شواة ، وهى جلدة الرأس تنزعها نزعا فتفرّقها ثم تعود إلى ما كانت عليه (تدعوا) تجذب وتحضر (من أدبر) عن الحقّ (وتولى) عن الطاعة (وجمع فأوعى) وجمع المال فجعله فى وعاء وكنزه حرصا وتأميلا .

والى هنا تمّ الكلام على المقصد الأوّل من السورة ، والحمد لله رب العالمين .

المقصد الثانى فى غرائز الانسان

ووجوب تهذيبها حتى تنجو من هذه النار التى هى فى عالم المادة

وكيف يكون الصعود من الأخلاق الموجبة للنار إلى تلك المعارج ؟

قال تعالى (إنّ الانسان خلق هلوعا) الهلوع فسره الله بما بعده كما قاله ابن عباس (إذا مسه الشرّ جزوعا ، وإذا مسه الخير منوعا) فهو قليل الصبر ، شديد الحرص ، فهو عند مسّ المكروه سريع الجزع ، وعند مسّ الخير سريع المنع والبخل ، فهذا طبع الانسان وقد أمر بمخالفته ، فهوكفحل وقع فى وحل كلما تخلص من ورطة وقع فى أخرى ، فان تخلص من ضرّ أتاه الخير وبالعكس ، فكأنما الخير والشرّ سلسلة طويلة قد أحاطت به فلاينجومنها ، فهو لايخلو من خيرأوشرّ مدة حياته يتعاقبان عليه أمد الحياة وهو موثق بهما و بتعاقبهما ، فعند الشرّ يجزع ، وعند الخير يمنع ، فهذان الخلقان يتعاقبان عليه ، فكيف الخلاص من تلك السلاسل إذن ؟ لذلك أعقبه بالخلاص منها ، وذلك بعشر خصال :

(١) الصلاة .

(٢) المداومة عليها فى أوقاتها المعلومة .

(٣) والمحافظة عليها اذا ابتدءوا فيها بحضورالقلب ، والخشوع ، ومراعاة السنن والفرائض .

(٤) التصديق بيوم الجزاء فيحاسب المرء نفسه فى الدنيا .

(٥) أن يعطوا من أموالهم الزكوات والصدقات لمن يسأل ولمن لايسأل وهوفقير فيظنه الناس غنيا .

(٦) أن يراعوا العهود والمواثيق .

(٧) أن يؤدّوا الأمانات إلى أهلها .

(٨) وأن يحفظوا فروجهم عن الحرام .

(٩) أن يؤدّوا الشهادات على وجهها .

(١٠) أن يكونوا مع هذا كله خائفين من عذاب ربهم .

فهذه الصفات العشرة هى التى تخلص الانسان من تلك السلاسل التى قيدته بها طبائعه وغرائزه التى فطر عليها وعاداته ، وكلها راجعة إلى شيئين : الحرص والجزع ، وقد لخصتها لك بترتيب غير ماتراه فى الآية ليسهل عليك تعقله ، فقوله تعالى (إلا المصلين) استثناء للمصلين الموصوفين بما ذكر من نوع الانسان كله كما أقسم بالعصر : أى الدهر كله : « إنّ الانسان لفى خسر إلاالذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحقّ وتواصوا بالصبر » فالانسان اذا ترك وشأنه فى خسر ، ولكنه اذا علم وهذب فهو خارج من الخسر ، وقوله (الذين هم على صلاتهم دائمون) لايشغلهم شاغل عن أدائها فى أوقاتها (والذين فى أموالهم حقّ معلوم للسائل) الذى يسأل (والمحروم) وهو من لايسأل فيحسب غنيا فيحرم (والذين يصدّقون بيوم الدين) تصديقا موجبا للثمرة المطلوبة ، وهى أن يسخر نفسه وماله فى طاعة الله ومنفعة الناس ، وقوله (والذين هم من عذاب ربهم مشفقون) خائفون على أنفسهم (إنّ عذاب ربهم غير مأمون) أىْ لاينبغى لأحد أن يأمن عذاب الله ، ولوأدّى هذه الطاعات كلها وزاد عليها (والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أوماملكت أيمانهم فانهم غير ملومين ، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ، والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون) ارجع إلى تفسيرهذه الآيات فى سورة المؤمنين (والذين هم بشهاداتهم قائمون) يقومون بها عند الحكام ولا يكتمونها ولا يغيرونها ، والشهادة أمانة ، خصت بالذكر بعد الأمانات لعظم شأنها ، فبها

تكون

تكون الأحكام (والذين هم على صلاتهم يحافظون) فيقدّمون الوضوء، وستر العورة، والمكان الطاهر، ويقصدون الجماعة أوّلا، ثم يفرغون القلب عن الوسواس والالتفات إلى ماسوى الله تعالى مع الخشوع والخوف وإتمام الأركان على ماينبغى، وأن لا يكون مرائيا، ولاقاصدا السمعة (أولئك فى جنات مكرمون) فيها بثواب الله تعالى، وإلى هنا تمّ الكلام على المقصد الثانى من السورة، والحمد لله رب العالمين.

المقصد الثالث فى وعيد الكافرين

قال تعالى (فمال الذين كفروا قبلك) حولك (مهطعين) مسرعين مقبلين إليك، مادّى أعناقهم، ومديمى النظر إليك، متطلعين نحوك، ذلك أن جماعة من الكفار كانوا يجتمعون حول النبيّ صلى الله عليه وسلم يستمعون كلامه، ويستهزئون به، ويكذبونه، يقول الله تعالى: مالهم ينظرون إليك وهم جالسون عندك ولاينتفعون بما يسمعون منك (عن اليمين وعن الشمال عزين) عن يمينك وعن شمالك فرقا شتى حلقا حلقا، والعزون جمع عزة، وأصلها العزوة: أى الجماعة، يقال عزاه يعزوه اذا نسبه، فكل فرقة تعتزى: أى تنتسب إلى غير ماتعتزى إليه الأخرى (أيطمع كل امرئ منهم أن يدخل جنة نعيم) بلا إيمان، وهذا ردّ لقولهم: لوصح مايقوله محمد لكنا أكثر حظا منهم فى الآخرة كما نحن كذلك فى الدنيا (كلا) ردع لهم عن هذا الطمع (إنا خلقناهم مما يعلمون) أى كيف يطمعون أن يدخلوا عالم القدس والأرواح الطاهرة ونحن خلقناهم من النطفة التى تقرّها فى الأرحام، وننقلهم حالا بعد حال ولا مناسبة بين هذه الحياة وبين الحال القدسية، فلابدّ من الاستكمال بالعلم والعمل (فلا أقسم بربّ المشارق والمغارب إنا لقادرون على أن نبدّل خيرا منهم) أى نهلكهم ونأتى بخلق أفضل منهم، أونعطى محمدا صلى الله عليه وسلم بدلكم من هو خير منكم، وقد تمّ ذلك بالأنصار بعد نكوص أهل مكة وكفرهم به (ومانحن بمسبوقين) بمغلوبين إن أردنا أن نفعل ذلك (فذرهم يخوضوا) فى باطلهم (ويلعبوا) فى دنياهم (حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون) ثم فسر ذلك فقال (يوم يخرجون من الأجداث) القبور (سراعا) مسرعين جمع سريع (كأنهم إلى نصب يوفضون) النصب كل شىء منصوب كالعلم والراية ونحوها، وكل منصوب للعبادة، ويوفضون يسرعون، والنصب كجنب وكقفل وكقطب قراءات (خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة) أى ذليلة أبصارهم يغشاهم هوان (ذلك اليوم الذى كانوا يوعدون) يعنى يوم القيامة الذى كانوا يوعدون به فى الدنيا.

انتهى التفسير اللفظى للمقصد الثالث من السورة، والحمد لله رب العالمين.

لطائف هذه السورة

(١) فى قوله تعالى: «من الله ذى المعارج».

(٢) وفى قوله تعالى: «إن الانسان خلق هلوعا. إذا مسه الشرّ جزوعا. وإذا مسه الخير منوعا».

(٣) وفى قوله تعالى: «إنا خلقناهم مما يعلمون» الخ.

اللطيفة الأولى فى قوله تعالى: من الله ذى المعارج

لما وصلت إلى هذا المقام حضر صديق لى من أهل العلم، فقال: هل لك أن أقصّ عليك حكاية عن آبائنا الأوّلين تناسب هذا المقام؟ فقلت: إنى لذلك وامق:

حكاية الشعبي وملك الروم

قال : قرأت فى كتب الأوّلين أنّ عبد الملك بن مروان أرسل وفدا إلى ملك الروم وفيه الشعبي العالم المشهور ، فلما دخل الشعبي على ملك الروم قال له : إنكم تقولون ان الله لا أوّل له ، ولاشىء قبله ، وتقولون ان الانسان يأكل فى الجنة ويشرب ولايبول ولايتغوّط ، وتقولون إن نعيم الجنة لاينفد ، فهل تقدرأن تضرب لى أمثالا مما نشاهده فى الدنيا حتى يقرب ذلك من عقول الناس ؟ .

فقال الشعبي : إن الأعداد أوّلها الواحد ، وما الأعداد إلا الواحد المكرّر ، فبتكرار الواحد حصلت الأعداد أزواجها وأفرادها ولوعدمت الأعداد لم يعدم الواحد ، ولكن لوعدم الواحد عدمت الأعداد أزواجها وأفرادها ، والواحد المذكور لاشىء قبله ، فهذا مثل يكفى لأمرين : ان الله لاشىء قبله ، وأن الموجودات منه استمدّت ، وأيضا تفنى الموجودات وهوالباقى .

أما كون الانسان يأكل فى الجنة ويشرب ولايبول ولايتغوّط ، فهذا له نظير فى الدنيا ، وهوالجنين فى بطن أمّه ، فانه لو بال وتغوّط لأهلكها ، لذلك جعل الله دم الأمّ ممتدّا إليه من عرق متصل بالسرّة يمتدّ فى سائر أطراف الجسم ، فلابول ولاغائط له ، والأمّ تقوم مقامه فى هذا السبيل .

وأما كون نعيم الجنة لاينفد فانا نشاهد السراج فى الدنيا يقبس الناس منه ألف سراج ولاينطفئ : هكذا نعيم الجنة .

فلما سمع ذلك ملك الروم ، قال : عجبت للمسلمين كيف جهلوا فلم يجعلوك ملكا عليهم ، فلما رجع إلى عبد الملك وجد الخبر عنده بتمامه ، فقال له عبد الملك : أتدرى لم قال لك : كيف جهل المسلمون فلم يجعلوك ملكا عليهم ؟ قال لا ، قال حسدنى عليك أراد أن أقتلك ، ولكن خاب فأله ، وأعطاه مالا جزيلا .

فلما أتمّ صاحبي هذه الحكاية قال لى : هكذا هنا يذكر الله المعارج ، ومعارج الآخرة ودرجاتها لم نرها فهل تذكر لنا معارج فى الدنيا حتى نقيس عليها معارج الآخرة ، وتكون معارج الدنيا مضرب أمثال لمعارج الآخرة ؟ فقلت : لأضرب لك سبعة أمثال :

[المثال الأوّل] السلسلة الحيوانية والنباتية والمعدنية المذكورة فى هذا التفسير فى مواضع كثيرة ، وقد وضحت فى ﴿ سورة آل عمران ﴾ فارجع إليها ، فانك ترى هذه المعارج فى الدنيا واضحة ظاهرة ، لأنك ترى المعادن درجات بعضهافوق بعض ، أدناه مما يلى التراب كالجص والزاج ، وأعلاه مما يلى النبات كالذهب والياقوت ، فكم فيها من معارج ومصاعد ، ثم النبات تبتدئ فيه من خضراء الدمن ، وهى تطلع أوّل النهار وتيبس فى وقت الظهيرة ، فهذا أدنى النبات ، ويرتقى درجات إلى مرتبة النخل الذى أشبه الحيوان بأنه اذا قطعت رأسه مات ، وبأن ذكره منفصل عن أنثاه ، وهكذا يكون الحيوان ، فأدناه ما كان أدنى إلى النبات مثل قوقعة تنبت على الصخورفيها دودة على شاطئ البحار ، وليس لها من عالم الحيوان إلا الحسّ والحركة البسيطة ، ولكنها مغروسة فى مكانها لاتبرحه ، وهى قد شاركت النبات فى الحس كما هو موضح فى محله ، وهكذا يرتقى الحيوان طبقا عن طبق إلى أن يصل إلى القرد فالانسان كما عرفته مما تقدّم فى هذا التفسير فهذه سلسلة أدناها الجصّ والزاج ، وأعلاها الانسان ، ومن ذا يحصى مصاعد هذه السلسلة وقد عدّ الحيوان بالملايين والنبات بمئات الآلاف ، لايحصيها أحد ولايقدر على ذلك ، فهذا مثل لمصاعد الآخرة أعطاه الله للعلماء فى الدنيا ، أما الجهال فأعطاهم مثلا يناسبهم ، جعل الناس درجات غنيا وفقيرا ليظهر لهم بعض تلك الدرجات بمقدار طاقتهم .

[المثال الثانى] الجنين فى بطن أمه ينتقل فى أطوار كثيرة ، ففى الخلقة الأولى لايختلف عن كل حيوان

ثم يأخذ فى التمايز والارتقاء طبقا عن طبق ، فيكون أوّلا دودة حقيرة فخلزونة فسمكة ، ثم يكون كالدبابات ، وهكذا إلى أن يشابه القرود ، ثم يكون انسانا ، كل هذه السلسلة ينتقل فيها وهوفى بطن أمه ، وقد تقدّم هذا فى [سورة آل عمران] .

[المثال الثالث] : درجات الانسان بعد الوضع : يخرج من بطن أمه وهولا يعقل ولايسمع ولا يبصر ثم يسمع و يبصر و يعقل تدريجا حتى يصل إلى انسان يفيض النور والعلم على أهل الأرض كلها باختراع أوعلم أونبوّة ، أو يضىء قطعة منها كملكة بالملك والسلطنة أونحوذلك ، فهذه مصاعد للانسان لايحصى عددها فى الحياة الدنيا ، فهذه أمثلة ثلاثة تريك المعارج فى الدنيا .

[المثال الرابع] ارتقاء أحوال الناس فى المال فمن صعلوك لايملك قوته الى متركبير يملك القناطير المقنطرة فيكون عنده مائة مليون .

[المثال الخامس : الجمال] من الناس من هو مثل فى القبح ، ومنهم من هو مضرب الأمثال فى الجمال ، وبينهما درجات لاتحصى .

[المثال السادس] الموجودات الحادثة منها ماهى فى غاية اللطف ، وهى الأثير الذى فيه تكونت هذه المادّة ، ومنها ماهى فى غاية الكثافة كالحديد والذهب والحجارة الصلبة ، و بينهما درجات لاتحصى .

[المثال السابع] درجات الانسان الأخلاقية : انه يرتقى مهما كان نوعه ، كافرا أومؤمنا ، فاسقا أوصالحا فى اخلاقه ارتقاء طبيعيا ، فبعد أن كان فى مبدأ حياته لايفكر إلافى شهوته الخاصة وهو طفل ، فلما كبر وتزوّج وولد أصبح مشغوفا بأبنائه و بناته يسعى عليهم و يربيهم ، و ينمى ثروتهم ، فهذا هو الترقى فى الخلق طبيعة ، لأنه انتقل من تكميل نفسه الجسمى الى تكميل غيره الذى نسيمه إبنا أو بنتا ، وهذا ارتقاء فى معارج الكمال جاء للناس والحيوان بالطبيعة ، ولكن الله لا يكتفى منا بذلك يريد أن يعلمنا الاستقلال فيكون ارتقاؤنا بارادتنا وعلمنا و إلابقينا فى عالم الكون والفساد الأعمى ، والارتقاء بارادتنا هو ماسيجىء فى اللطيفة الثانية ان شاء الله تعالى .

واعلم ان هذه الدرجات والمعارج الحسية إنما هى سياحات للنفس ومناظر ، بدراستها ترتقى فى معارجها المعنوية الى ربها الذى هو حاضر عندها ليس غائبا ، فبالبحث والعلم تنتقل النفس من حال الى حال فى درجات نفسية حتى إذا وصلت لمنتهى لطائفها عاينت ربها ، وليس ذلك بمعارج حسية بل معنوية وماذكرناه أمثلة لها ومدارس .

اللطيفة الثانية

فى قوله تعالى : ان الانسان خلق هلوعا ، إذا مسه الشر جزوعا ، و إذا مسه الخير منوعا

إن هذه السورة كالموضحة للسورة قبلها ، فان قوله تعالى هناك « انه كان لايؤمن بالله العظيم ، ولايحض على طعام المسكين » قد وضح هنا كما فسرناه هناك ، وقلنا مايفيد إن الايمان يرجع للقوة العلمية ، والحض على طعام المسكين يرجع للقوة العملية ، وأن السلسلة هناك مبدؤها وسببها مايوصف به الانسان من الجهالة بهذه العوالم فلا يدرس نظام هذه الشموس والكواكب المنتظمة التى أخذ بعضها ببعض وتجاذبت كأنها سلسلة واحدة ، فمن لم يفك نفسه من هذه العوالم إما بدراستها أو بعبادة صادقة بحضور قلب حتى يخلص لربها ، ومن لم يفك عقال نفسه مما أحيط به من اللذات والشهوات والعادات فانه لامحالة مقرون محبوس فى سلسلة تلك الشهوات لاينفك عنها ، فاذامات وجد نفسه على ماهى عليه ، فالعوالم مجهولة ، وقد أحيط بها والشهوات لازالت تجاذبه ، فنيخلص نفسه منها بالاحسان ، وليتقرب الى أبناء جنسه ،

ولينفعهم حتى يصعدوا معا الى معارج الكمال ، هذا فحوى ما ذكر فى السورة التى قبل هذه .

فاما مبدأ السلسلة المذكورة هناك التى أوضحها هنا فانه بعد أن ذكر أن النار تنزع جلود الرءوس أو الأيدى والأرجل ذكر أن السبب فى ذلك أن الانسان مجبول على جبلات غليظة فلا صبر على بلوى ولا شكر على نعمة والشكر على النعمة يكون بأن يصرفها الى مصارفها التى خلقت لها ، وبين المخرج من ذلك بأمرين : أحدهما نفسىّ ، وثانيهما عملى ، أما النفسىّ فهو العلم المرموز له بالتصديق بيوم الدين ، والخوف من الله فهذان رمز بهما الى كمال النفس بالعلم والحكمة ، وأما العملى فهو الصلاة والمداومة عليها والمحافظة ، والزكاة ، ومراعاة العهود والمواثيق ، وأداء الشهادات على وجهها ، وحفظ الفروج .

وملخص ما تقدم : ذكر سبب وقوع الانسان فى السلاسل بعد الموت ، وذكر الخلاص من تلك السلاسل ولا خلاص منها فى الآخرة إلا اذا خلص منها فى الدنيا ، فالعلم خلاص من الجهل الذى يجعل الانسان حائرا فى هذا الوجود ، وأدنى العلم أن يواظب على العبادة حتى يرسخ فى ذهنه أن وراء هذا العالم حالا أخرى بالتكرار ، ودفع الصدقات وأداء الأمانات وما أشبهه مما تقدم كل ذلك تخليص للنفس من الجزع ومن الحرص ، فاعطاء المال مكروه عند النفس ، وأداء الشهادة فيه إغضاب للمشهود عليه وجلب عداوة ، وأداء الأمانة قطع للطمع فيها ، وكل هذا تقطيع لتلك السلسلة التى قيدتنا فى هذه المادّة ، والى هنا تمّ الكلام على اللطيفة الثانية ، والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة الثالثة فى قوله تعالى : إنا خلقناهم مما يعلمون

أى وقد علموا أنهم خلقوا من نطفة قذرة ، فأنى لهم الوصول إلى جناب القدس مالم يقطعوا مفاوز ، ويصعدوا مصاعد ، وأنى لهم بالمصاعد والمراتب إلا بالعلم والعمل ، ولو تأمل الناس درجات الحياة التى هم فيها وأن الطفل إذ كان فى أوّل حاله دودة فما مضى أربعون سنة حتى كان ذلك الطفل يدبر أمة بتمامها مثلا لأدركوا درجات الآخرة وعظمتها ، فان الروح إذ تخرج من الجسد ترتقى طبقا عن طبق ، فاذا كانت المادّة التى نحن فيها ارتقت فيها الروح الانسانية من نفس كنفس الدودة إلى نفس حكيم أونبىّ أوملك فما بالك به وقد خرج من الجسم ، فللنسمة هناك دودة فى عالم الأرواح ، وهذه الدودة ترتقى هناك ارتقاء يفوق الوصف اذا كانت معها المعدّات التى بها تسير هناك ، واذا كان الارتقاء فى الأرض محدودا لأننا فى عالم المادّة فالارتقاء هناك لاحدّ له يعرف ، ولا آخر يوصف ، لأنه هناك ارتقاء بالعلم ، وعلم الله لاحدّ له ، فالانسان لايزال يرتقى فيه إلى مالايتناهى من الزمن .

هذا هو تفسير هذه الآيات والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ، فيعدّون العدّة بالعلم والعمل للسفر هناك ، والا قعدت بهم الحال ، وأوثقتهم السلاسل فى العذاب ، وبقوا فى عالم المادّة الكثيف .

فلما سمع صاحبى هذا البيان ، قال : الحمد لله الذى بنعمته تتمّ الصالحات ، إن هذا البيان يثلج الصدر وإنى لا أزال أقول إنه ضرب أمثال ، وضرب الأمثال ليس برهانا ، وإنما هو تقريب للأذهان ، وياليت الناس يعرفون ذلك ، وأن الأرواح فعلا ترتقى فى ذلك العالم ، ولكن هذا الكلام الذى قلته أنت أشبه بكلام الصوفية الذين يقولونه بوجدانهم ، والوجدان ليس بدليل ، بل كثيرا ما يكون الوجدان كاذبا فلادليل عليه ، وغاية الأمر أنك حليته بالعلوم الطبيعية وبعلم الانسان والنبات والحيوان والمعدن ، لأنك لكثرة دراستك وتآليفك فى هذه العلوم أصبحت فيك ملكة تضرب بها الأمثال ، فهل من مثال أقرب من هذا ؟

قلت نعم : أقصّ عليك مختصر ما قاله روح [غاليلى] المشهور حين أحضرتها الجمعية النفسية ، فهذه تشم منها رائحة تعرّفك هذه الدرجات الأخروية ، وقد ذكرتها فيما مضى فى هذا التفسير نقلتها من كتاب

[الأرواح]

[الأرواح] ، فلنذكر ملخص مايناسب هنا ، فذكر :

(١) كيف تكوّنت مادّة العالم المشاهد ؟ وذكر التجاذب والنظام ودوران الكواكب .

(٢) بين أن المجرّة هي الأصل ، ومنها اشتقت شموس ، ومن الشموس شموس إلى شمسنا فأرضنا فقمرنا فأقمار زحل وحلقاته النيرة ، والنجوم ذوات الأذناب التي هي أشبه بالمفتشين على الشموس .

(٣) ثم ذكر أن هناك ألوفا من المجرّات منتشرة فى أقاصي العوالم ، كل مجرّة فيها ملايين من الشموس ، وأبان أن شمسنا لها أخوات يدرن معها حول شمس أخرى ، وهذه الأخرى لها أخوات يدرن جميعا حول شمس أخرى ، وهكذا إلى أن تنقطع الفكر ، فهي كدواليب آلة واحدة . ثم قال : إن المجرّات أشبه بالجزائر فى بحر الأثير العظيم .

(٤) ووصف الفضاء والزمان فقال انه لاحدّ له ، وكذب الفلاسفة الذين قالوا ان هناك حدّا له ، وسخر منهم ، وقال : اننا اذا جمعنا ألوفا فى ألوف من القرون والأحقاب لا يكون هذا العدد إلا نقطة زهيدة فى الأبدية ، واذا مضى من حياتنا الروحية عدد من القرون يوازى قدرما يكتب على طول خط الاستواء فانه ينقضى هذا العدد الجسيم والنفس كأنها اليوم ولدت ، واذا أضفنا إلى العدد المذكور سلسلة أخرى من الأعداد ممتدّة من الأرض إلى الشمس أوأكثر فانه ينقضى هذا العدد الذى لايدرك قياسه من القرون والنفس لاتتقدّم يوما واحدا إلى الأبدية فما أهمية عمر الانسان على الأرض .

(٥) وذكر أن الملايين من الشموس المخلوقة فى المجرّة القريبة حولها سيارات كسيارات شمسنا ، وأن منها شموسا كنجم [سريوس] الذى يربو حجمه وجماله ألوفا من المرّات على حجم شمسنا ونورها ، وقال : ان هناك نجوما توائم تختلف وظائفها عن وظائف شمسنا ، فنى السيارات المحيطة بتلك الشموس المثناة لاتعدّ السنون والأيام كما فى أرضنا ، وأحوال الحياة فيها يتعذر على الناس تصوّرها ، ومن الشموس مالاسيارات لها ، إنما أحوال سكانها خير الأحوال .

(٦) وقال أيضا : إنّ البعد الشاسع بيننا و بين الأجرام القاصية لايقطعه النور إلا فى ألوف الألوف من السنين ، وتصل أشعته لكم اليوم مع أنها ربما انبعثت قبل خلق الأرض بأمد مديد . ثم قال : فنى هذه كما فى غيرها تظهر حقارة الانسان وعدم دنياه ، إنما سيأتى يوم فيه يبقى ذكر الأرض فى ذهننا كظلّ بخارىّ بعد أن نكون قد تدرّجنا أجيالا لاعدد لها إلى العوالم العليا ، وحين نتأمّل فى المستقبل عند بلوغنا هذا الحدّ لانرى نصب أعيننا إلا تعاقبا سرمديا من العوالم وأبدية ثابتة لا انقضاء لها . انتهى خلاصة كلام روح غاليلى .

فلما سمع ذلك صاحبى قال : ياعجبا ! أهذا كلام الأرواح ؟ لقد أصبحنا فى زمان ظهرت فيه العجائب المدهشة ، فقد كان الناس يتمنون لو يسمعون كلام الأموات و يسألونهم ماذا حصل لهم ، فان صحّ هذا كان من أعجب الأعاجيب وأبدع الحكم ، وكان أقرب إلى تفسير لفظ المعارج ، فهاهوذا أظهر لنا أن العوالم درجات وأن منها مالانحلم بجماله كمالا و بهاء ، وأن أرضنا الحقيرة فى أثناء ارتقائنا بعد الدهور والعصور لاتكون إلا ظلا فى أذهاننا ، وأن هناك حياة أرقى من حياتنا بما لايتناهى كما كبرت شمسنا عن أرضنا ، وكما كبرت شموس أخرى وفاقت شمسنا حجما و بهاء آلافا مؤلفة ، فالجمال والعظم لاحدّ له ولاحصر فى العوالم طبقة فوق طبقة ، وجمال النظام فى الحياة كذلك لاحدّ له ولانهاية ، فظهرت المعارج فى هذا المقام ظهورا واضحا .

ثم قال صاحبى : ولعلّ هذه المعارج تكون لنا فى حال البرزخ ، أما يوم القيامة فانا نحشر ونجتمع فى صعيد واحد ، وهناك يكون أمر آخر .

ثم قال : ويا ليت روح [غاليلي] روح مسلم حتى كنا نصدّق ماجاءت به ؟ فقلت له : الأرواح بعد الموت تطلع على مقدار استعدادها ، والعلم مشترك بين الأمم ، وإذا كنا نشك فى قول الأرواح الفرنجية فهذه نعمة على أمم الاسلام ليزدادوا علما بالبحث فى العوالم ويحضروا الأرواح ، وتكون لهم جمعيات علمية ، وإذن يبحثون بأنفسهم ، ويجدّون فى أعمالهم ، ويعثرون على مالم يعرفه الفرنجة ، والله هوالولىّ الحميد ، وبهذا تمّ تفسير [سورة المعارج] وذلك فى يوم السبت ١٨ يونيو سنة ١٩٢٥ م والحمد لله رب العالمين .

تفسير سورة نوح

هى مكية

آياتها ٢٨ — نزلت بعد سورة النحل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ * أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ * يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا * وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا * ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا * ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا * فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا * مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا * وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا * أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ طِبَاقًا * وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا * وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا * وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا * لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا * قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا * وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا * وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا * وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا * مِمَّا

خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَاراً فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَاراً * وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً * إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلاَ يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِراً كَفَّاراً * رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلاَ تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ تَبَاراً *

مقاصد هذه السورة اثنان

المقصد الأوّل : دعوة نوح عليه السلام لقومه ، وذلك من أوّل السورة إلى قوله « سبلا فجاجا » .

المقصد الثانى : كفرهم وعقابهم فى الدنيا والآخرة ، وذلك من قوله تعالى : « قال نوح ربّ إنهم عصونى واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خسارا » إلى آخر السورة .

أما الدعوة ففيها ثلاثة مباحث [المبحث الأوّل] ترك الذنوب الايجابية والذنوب السلبية بالاستغفار منها ، فالذنوب الايجابية كتعاطى الخمر والزنا والقتل ، والذنوب السلبية كترك العلوم والصناعات ، فاذا تركوا هذه الذنوب كلها أوجلها أكثر الله لهم المال والبنين والبساتين والأنهار ، وذلك من أوّل السورة إلى قوله : « وقد خلقكم أطوارا » .

[المبحث الثانى] : النظر فى خلق السموات والأرض والأنوار ، وذلك قوله تعالى : « ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا . وجعل القمر فيهنّ نورا وجعل الشمس سراجا » .

[المبحث الثالث] : النظر فى خلق الانسان ، وأنه يخلق من الأرض كما يخلق النبات ، والنظر فى أن الأرض مسخرة لنا نتصرّف فيها كما نشاء تصرّفا نتمكن به من كل ما نحتاج إليه فى حياتنا ، وذلك من قوله تعالى : « والله أنبتكم من الأرض نباتا » إلى قوله « سبلا فجاجا » .

المقصد الأول : دعوة نوح لقومه

التفسير اللفظى

بسم الله الرحمن الرحيم

(إنا أرسلنا نوحا إلى قومه أن أنذر قومك) أى بالانذار (من قبل أن يأتيهم عذاب أليم) الطوفان وعذاب الآخرة (قال ياقوم إنى لكم نذير مبين) أى أنذركم وأبين لكم (أن اعبدوا الله) وحده (واتقوه) بأن تفعلوا الطاعات وتتركوا المعاصى (وأطيعون) فيما آمركم به من العبادة والتقوى (يغفر لكم من ذنوبكم) أى بعض ذنوبكم ، وهى السابقة (ويؤخركم إلى أجل مسمى) أى إلى منتهى آجالكم فلا يعاقبكم (إنّ أجل الله إذا جاء لايؤخرلوكنتم تعلمون) .

اعلم أن الأنبياء جاءوا لاصلاح الأحوال فى الدنيا والآخرة ، فهم يريدون نظام الحياة ونظام الممات . ولما كان نظام الحياة يكون أرق وأجل فكلما استقامت الأمم وانتظم شملها كانت الأموال فيها أوفر اذا تمّ نظامها ، والأعمار تكون أطول والصحة أتمّ والأنهار أجل ، والبساتين أكثر على مقتضى النظام الموضوع فعلى مقدار النظام يكون الهناء والسعادة فى الحياة ، فمن فرّط فى صحته بأن أكثر من المآكل الضارّة أو ترك

الغذاء حتى هلك ، ومن قلت مزارعهم وتجاراتهم فقل غذاؤهم قصرت أعمارهم على تلك النسبة ، ولذلك كلما كثر الجدب فى الأمم قل التناسل ، وكلما عم الخصب كثر النسل ، ولا ريب أن طول الأعمار وقصرها يرجع لأسباب أكثرها مجهولة للناس ، والمعلوم منها المحافظة على الصحة ، ووفرة الغذاء ، والنظافة ، ومأأشبه ذلك ، فأما مالا يعلم فهو عند الله تعالى لايطلعنا عليه ، فههنا رتب على التقوى والطاعة أن تغفر ذنوبهم ، وأن تؤخر آجالهم ، ومتى جاءت الآجال التى حددها الله لهم لاتؤخر لحظة ، فالتقوى والطاعة يؤثران هذا الأثر ، وهو طهارة الأرواح وبقاء الأشباح إلى أمد محدود ، لأن التقوى منها حفظ الأمن والمسارعة إلى اكتساب الفضائل واستنتاج مافى باطن الأرض من المنافع ، فالتقوى ترك الذنوب ، وذلك يجعل فى البلاد أمنا واسعا ، والطاعة تشمل جلب المنافع المادية ، لأن الشكر على النعمة لايتم إلا بمعرفتها وتقبلها من المنعم وصرفها فى وجوهها ، ومتى فعلوا ذلك طالت الأعمار إلى الأمد الذى يناسبها بعد انصراف الموانع بالتقوى والطاعات ، ومامثل العمر إلا كمثل جواد يجرى فى ميدان واسع له نهاية ، وهناك قصبة مركوزة فى آخره علامة على نهاية الميـدان ، والناس يتسابقون فى ذلك الميدان إلى تلك القصبة المغروسة ، فمنهم من يصادفه أثناء الجرى فوق جواده الذى عبرنا به عن العمر من يقتله فيخر صريعا فى أول الميدان ، ومنهم من يقتل بعد ذلك وهكذا ، ولايصل إلى آخر الميدان إلا من لم يصادفه فى الطريق قاتل له ، أولم يسقط فيموت ، هكذا الناس فى الحياة يسيرون إلى النهايات ، فاذا منعتهم الموانع هلكوا ، وهذا مشاهد فى الدنيا كالأمة المصرية فانها فى القرن الماضى لم يكن فيها إلا مليونان أو يزيدون ، فلما جاء الخديوى [محمد على] نظم قناطرها وجسورها ، فما تم مائة سـنة ونيف حـتى وصلت إلى ١٤ مليونا ، كل ذلك لحسن النظام واقامة الترع والجسور والأمن فى البلاد ، فاذا جعل الله غفران الذنوب وطول الأعمار مرتبين على الطاعة فهو من هذا القبيل ، لأن الطاعة فيها الأمن فى البلاد وعدم ترك المواهب الجسمية والنفسية والأرضية ، وإياك أن تسمع مايحتج به العامة والجهلاء وصغار العلماء إن العمر محدد ، فتخصيص العمر منهم جهل فاضح ، لأن التحديد ليس خاصا بالعمر بل التحديد يشمل كل شىء فى الوجود ، بل حركات الكواكب والأقمار والشموس وأنفاس الانسان فكلها مقدرة ، فتخصيص التقدير بالعمر غلط وخطأ فاحش ، فالله قدر كل شىء فكيف يخصصه الجهلاء بالأعمار والله قدرها وقدر غيرها وكتبها عنده لم نطلع عليها وأمرنا بالسعى والطلب ، فمن سعى كما أمره الله فان هذا السعى وافق علم الله القديم فانه ينال نتائج هذا السعى فيطول عمره إلى الأمد المحدد وتزول الموانع فلايموت كما قدرهو فى لوحه المحفوظ ، ومامثل النصائح التى جاءت من الديانات والحكماء والعلماء فى الأمم إلا كمثل طلع النخل وطلع الأشجار الأخرى ، فانه لايتناوله الاحصاء ، والذى يصادف الزهرات الاناث جزء قليل جدا ، وهذا الجزء القليل به ظهرت الثمرات وسعدت الحياة ، هكذا نصائح العلماء والحكماء والديانات كثيرة جدا ، ولكن الذى يعمل بها قليل ، ومن عمل بها وافق عمله ما كتب له ، والذى لم يعمل عرف بعد ذلك أنه قد كتب له أنه لايعمل فحرم الثمرات والمنافع التى ترتب على ذلك ، فأما من اتكل على القضاء ولم يعمل فذلك هو الخاسر الجهول الذى حكم عليه بالمذلة والهوان .

ثم قال تعالى (قال) نوح (رب إنى دعوت قومى) إلى الايمان (ليـلا ونهارا) أى دائما (فلم يزدهم دعائى إلا فرارا) عن الايمان والطاعة (وانى كلما دعوتهم) إلى الايمان والطاعة (لتغفر لهـم) بسببه (جعلوا أصابعهم فى آذانهم) أى سدوا مسامعهم (واستغشوا ثيابهم) تغطوا بها لئلا يرونى كراهة النظر إلى من فرط كراهة دعوتى (وأصروا) على كفرهم (واستكبروا استكبارا) عن اتباعى (ثم إنى دعوتهم جهارا . ثم إنى أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا) فكنت أعلن بأعلى صوتى ، ثم كررت لهم الدعاء معلنا ، فكنت أسر الرجل بعد الرجل أدعوه سرا لعبادتك وتوحيدك ، ثم بين ما كان يقوله فقال

(فقلت

(فقلت استغفروا ربكم) والاستغفار من الذنوب الايجابية كالقتل ، والسلبية كترك العلوم اللازمة لنظام المجموع التى هى فرض كفاية تكتفى بها الأمة عن غيرها فتعرفون ما يناسب زمانكم من العلوم والصناعات فان تركتم ذلك أثمت الأمة كلها ، وان استغفرتم يغفر لكم ربكم (إنه كان غفارا) للتائبين (يرسل السماء عليكم مدرارا) يرسل المطر عليكم متتابعا ، واطلاق السماء على المطر جاء فى قول الشاعر :

إذا نزل السماء بأرض قوم * خلوا حيثما نزل السماء

وقول الآخر :

إذا نزل السماء بأرض قوم * رعيناه وان كانوا غضابا

(ويمددكم بأموال وبنين) أى يكثر أموالكم وأولادكم (ويجعل لكم جنات) بساتين (ويجعل لكم أنهارا) وهذه هى نعم الدنيا التى يميل لها الانسان ، ومن هذا شرع الاستغفار فى الاستسقاء ، ويقال : إن الحسن شكا رجل إليه الجدب ، فقال له : استغفر الله . وشكا آخر الفقر وقلة النسل . وآخر قلة ريع أرضه ، فأمر الجميع بالاستغفار ، فسئل عن ذلك ؟ فتلا هذه الآية ، ولعلّ تكرار الاستغفار كما يمحو الذنوب يستمد المستغفر من ذكر الله فيه قوة تعينه على جلب المصالح ودفع المضارّ ، والله أعلم ، وقد بينت لك الحقيقة آنفا .

وبعد أن أدّبهم الأدب العملى من حيث تهذيب النفوس ، ومكارم الأخلاق ، وتحلية النفس بالأعمال الانسانية والدينية التى أشار إليها الاستغفار شرع يؤدّبهم الأدب العلمى بدراسة علم التشريح والنفس والعوالم العلوية والسفلية فقال : (مالكم لا ترجون لله وقارا) أى مالكم لاتخافون لله عظمة ، أولا تعتقدون له عظمة فتخافوا عصيانه ، فالرجاء إما بمعنى الخوف مجازا ، واما بمعنى الاعتقاد للمناسبة بينهما ، وكيف لاتخافون عظمته (وقد خلقكم أطوارا) أى تارات وكرات ، فكنتم نطفا فى الأرحام ، ثم صرتم علقا بعد أيام ، ثم مضغا تحير الأفهام ، والمضغ قد غيرت إلى عظام ، وعلى العظام اللحم « أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين » .

واعلم أن الأطوار المذكورة قد وضحت فى سور كثيرة كسورة آل عمران وسورة المؤمنين وغيرها فى التفسير ، وهذا هو النظر فى الأنفس ، ثم أتبعه بالنظر فى العالم العلوى فالسفلى فقال : (ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا . وجعل القمر فيهنّ نورا وجعل الشمس سراجا) فهى كالسراج تزيل ظلمة الليل . واعلم أن كون السموات سبعا طباقا بعضها فوق بعض ، والكلام على القمر والشمس قد مرّ الكلام عليه فى سور كثيرة من هذا التفسير ، ففى سورة الفاتحة الاجمال ، وفى البقرة وآل عمران تفصيل ، وهكذا سور كثيرة فارجع إليها (والله أنبتكم من الأرض) انباتا فنبتم (نباتا) وذلك أنكم تنمون كما ينمو النبات وتلدون وتموتون ورءوسكم المرفوعة إلى أعلى كرأس النبات المغروسة فى الطين ، وأيديكم وأرجلكم كأفرع النبات ، والمطلع على عروقكم وتشعبها وجرى الدم فيها وانتشارها فى أطراف الجسم يراها مشابهة لما فى الشجرة جذورا وفروعا وورقا ، فأنتم نبات مقلوب ، وأنتم فى أخلاقكم وأحوالكم مشابهون للنبات فى اختلافه ، فنكم الحلو والمرّ ، والطيب والخبيث ، واستعدادكم مختلف كاستعداد النبات ، فلكل امرئ خاصة كما لكل نوع من النبات خاصة ، والعلوم والصناعات مقسمات على قواكم المختلفة كما قسمت المنافع من اللباس والطعام والفاكهة والدواء على أنواع النبات ، وكما أن كل نوع من النبات اذا فقد ذهبت خاصته على الناس وتعطلت المنافع الناتجة منه ، هكذا لكل جيل ولكل أمة ولكل فرد خاصة ومنفعة ، فاذا عطلت فقد فاتت المنفعة على الأمة وعلى النوع الانسانى ، وكان نقص الأمة وذلها على مقدار ضياع تلك المنفعة ، فاذا لم يكن فى الأرض نبات القطن ، أولم يكن فيها نبات الحنطة مثلا اضطر الناس ألا يلبسوا إلا من جلود الأنعام وأصوافها ورجعوا إلى العهد الأوّل فتأخروا فى مدنيتهم وتقدّمهم ، وأيضا رجعوا إلى أكل نبات الأرض والذرة وذهبت

منافع القمح عليهم ، وحصــل فى الناس بعض الضيق بفقد القمح ، هكذا النوع الانسانى اذا عطلت طائفة منه فلم تقم بما وجب عليها ومايؤهلها له استعدادها نقص النوع الانسانى أوالأمة المقصرة وضعف على مقدار ذلك النقص [مثال ذلك] الأمة الاسلامية اليوم : انها عطلت نصف مجموعها ، وهنّ النساء ، فلم يعلمن العلم ، وقد علموا أن الناس كلهم يعلمون بناتهم ، وهكذا عطلوا الصناعات فلم يقوموا بها : أى ان الرجال الذين خلقوا على استعداد أتم بفطرهم فى المسلمين لصناعة البارود مثلا ونسج الأقمشة وصهر المعادن قد عطلوا عن عملهم ، لأنهم لم يروه ولم يعرض عليهم ، لذلك أصبح نقص الأمة على مقدار النقص المذكور كما يتأخر النوع الانسانى بفقد القطن والحنطة ، فهذا معنى قوله : « والله أنبتكم من الأرض نباتا » فقد جمع هذه المعانى ، ولقد أجمع علماؤنا رحمهم الله : ان العلوم والصناعات فرض كفاية ، ومعنى هذا أن الأمة كلها تعاقب على التهاون بها وعدم إبرازها للوجود كعقاب النوع الانسانى بفقد القطن والقمح ، ثم يوم القيامة يؤخر المجموع الاسلامى عنــد الله بقدر تأخره عن تلك الصناعات ، والمسلمون اليوم آثمون باجماع علمائنا ، والإثم ظهر له أثر فى الدنيا بتسلط الفرنجة علينا ، وسيظهر أثره يوم القيامة على هذه النسبة ، واذا قال المسلم لا لا أنا مسلم فلتقل له انما أنت مغرور : « وغرّهــم فى دينهم ما كانوا يفترون » ارجع إلى هــذا المعــنى فى سورة [آل عمران] .

وأنت أيها الذكىّ القارئ لهذا التفسير فلتكن من القائمين بأمر من حولك من الأمة لأنك عرفت الحقيقة ، واياك أن تقصر والا كان إثمك أشدّ من الذين لايعلمون ، وهذا أمر سيتم ويعلوأمر هذه الأمة علوّا عظيما ، فقم واصدع بالأمر واجهر بما عرفت ، وثق بأن الأمر سيكون وسترتقى هذه الأمم الاسلامية .

هذا هوالمستفاد من قوله تعالى (والله أنبتكم من الأرض نباتا . ثم يعيدكم فيها) مقبورين كما يعيد النبات (ويخرجكم إخراجا) بالحشر ، ثم أخذ يشرح النعم التى أعدّها للانسان فى الأرض من سائر وجوه المنافع وانها مهيأة للانسان طائعة له مسخرة كتسخير البساط للرجل يتقلب عليه كما يشاء إشارة إلى مقدّمنا من أن عليه أن يظهرمواهبه ، ولاظهور للمواهب فى القوى الانسانية إلا بالتسلط على الأرض وخيراتها فقال (والله جعل لكم الأرض بساطا) تتقلبون فيها بخلاف النبات فانه خاضع لما هوفيه قانع بما حوله من غذاء وهومكتف به ، أما أنتم فلستم كذلك ، بل جعلت الأرض لكم (لتسلكوا منها سبلا فجاجا) واسعة جمع فج : أى لتتخذوا منها سبلا فجاجا ، وانما اقتصر على اتخاذ السبل لأنه أظهر أنواع الاتخاذ ، والا فالأرض جعلت لنا لمنافع لاتحصى ولايزال الناس يجدّون فى استخراجها اليوم و بعد اليوم .

وهذه الآيات أرتنا أن نوحا عليــه السلام يأمر قومه بعلوم الأنفس وعلوم الآفاق من المعدن والنبات والحيوان والانسان والسموات والشموس والأقمار ، وجميع منافع الأرض .

ولعلك تقول : لماذا تذكرهذا القول عندكل مناسبة ؟ أقول : لست أنا الذى قلت وانما الله هوالذى قال ، فلعلك تقول الله ذكرالاجمال فما هذا التفصيل ؟ أقول لك : لماذا يؤلف آباؤنا الأوّلون علمابرمته على آيات الميراث ، لماذا يؤلف آباؤنا كتبا مستقلة فى الوقف مع أنه لم يرد إلا فى الحديث ؟ لماذا يجعلون للطهارة كتابا يسمونه [كتاب الطهارة] وانما ذلك لأجل آيات محدودات ، ولماذا يقولون [كتاب الحج] مع أن الحج ليس له إلا آيات محدودات ، فلماذا تجيز تأليف كتب ملأت الشرق والغرب ، ومذاهب متشعبة فى علم الفقه المبنى على مائة وخمسين آية ولاتجيزأن أكتب صفحات معدودات على مايبلغ ٧٥٠ آية فى القرآن !

اللهم إن أمّتنا الاسلامية غفلت غفلة عظيمة ، ونامت نوما عميقا ، اللهم إنى قد عملت جهدى وأدّيت الأمانة إلى أهلها ، وأنت أعنتنى على تأليف الكتاب ، وأنت الذى نشرته ، فلك الحمد ، وانى أرجو منك أيها

الذكىّ

الذكىّ أن تبثّ الدعوة فى هذه الأمة التى لاتسيرطها ولاتعين ، ولم تجد من يوضح لها الأمر ، ولوأن الأمة رأت من يعرّفها الحقيقة لكانت أوّل أمة على سطح هذه الكرة ، وسيكون هذا ان شاء الله تعالى ، وهذا هونهاية الكلام على المقصد الأوّل من السورة ، والحمد لله رب العالمين .

المقصد الثانى

قال تعالى (قال نوح ربّ إنهم عصونى) فيما أمرتهم به (واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خسارا) أى واتبعوا رؤساءهم الذين بطروا بأموالهم ، واغترّوا بأولادهم ، فكان ذلك ازديادا لخسرانهم فى الآخرة ، وهكذا الذين اتبعوهم خسروا مثلهم ، وعطف على [من] قوله (ومكروا مكرا كبارا) أى كبيرا عظيما جدّا ، فهم يحتالون فى نبذ الدين بحيل عظيمة ، ويحرّشون الناس ويحرّضونهم على مقاومة دعوة نوح وإيذائه (وقالوا لاتذرنّ آلهتكم) أى عبادتها (ولاتذرنّ ودّا ولاسواعا ولايغوث و يعوق ونسرا) هذه الأسماء الخمسة كانت أعظم المعبودين عند قوم نوح ، وقد كانوا قوما صالحين فى الأزمان بين آدم ونوح ، فلما ماتوا كان أتباعهم يقتدون بهم و يأخذون بعدهم بأخذهم فى العبادة ، ثم زين لهم الشيطان أن يصوّروا صورهم ، ففعلوا ظانين أن هذا أنشط للعبادة وأشوق لها ، ثم لما طال الزمن عبدوا نفس تلك الصور ، فهذا مبدأ عبادة الأوثان ، وان أردت المزيد فارجع إلى [سورة البقرة] تجد المقال مفصلا فيها ، فترى هناك كيف كانت عبادة الماضين موجهة أوّلا للملائكة ، فالكواكب ، فالأصنام فى الأرض ، ويقال : ان الأصنام التى عبدها قوم نوح صارت تعبد عند العرب :

الصنم	القبيلة
ودّ	كلب بدومة الجندل
سواع	هذيل
يغوث	مراد و بنى غطيف بالجرف عند سبأ
يعوق	همذان
نسر	حمير : آل ذى الكلاع

يقول ابن عباس : « هذه أوثان دفنها الطوفان فاستخرجها العرب فعبدوها » وهناك أصنام أخرى هذا بيانها :

الصنم	القبيلة
اللات	ثقيف
العزّى	سليم ، وغطفان ، وجشم
مناة	خزاعة ، بقديد
أساف	لأهل مكة
نائلة	» »
هبل	» »

ثم قال تعالى (وقد أضلوا كثيرا) أى أضلّ الرؤساء ، أوالأصنام (ولاتزد الظالمين إلاضلالا) أى إلا هلاكا ، وقد بينه تعالى فقال (مما خطيئاتهم) أى من أجل خطيئاتهم ومازائدة (أغرقوا) بالطوفان (فأدخلوا نارا) وهو عذاب القبر وعذاب الآخرة (فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا) وقد كانوا يظنون أن الآلهة

أنصارهم ، فخاب فألهم ، وضلّ سعيهم (وقال نوح رب لاتذر على الأرض من الكافرين ديارا) أى أحدا وهذه الكلمة تستعمل فى النفى العام (إنك ان تذرهم يضلوا عبادك ولايلدوا إلا فاجرا كفارا) ولم يقل ذلك إلا بعد تجربتهم أجيالا (ربّ اغفرلى ولوالدىّ ولمن دخل بيتى) منزلى أومسجدى أوسفينتى (مؤمنا وللمؤمنين والمؤمنات) أى يوم القيامة (ولاتزد الظالمين إلاتبارا) أى هلاكا . انتهى تفسير [سورة نوح] والحمد لله رب العالمين .

تفسير سورة الجن

هي مكية

آياتها ٢٨ — نزلت بعد سورة الاعراف

(بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ)

قُلْ اوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءاناً عَجَباً * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَـَامَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً * وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلاَ وَلَداً * وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللّٰهِ شَطَطًا * وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللّٰهِ كَذِباً * وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقاً * وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللّٰهُ أَحَداً * وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً * وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَصَداً * وَأَنَّا لاَ نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَداً * وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَداً * وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللّٰهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَباً * وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى ءامَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلاَ يَخَافُ بَخْساً وَلاَ رَهَقاً * وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَداً * وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً * وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقاً * لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَاباً صَعَداً * وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلّٰهِ فَلاَ تَدْعُوا مَعَ اللّٰهِ أَحَداً * وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللّٰهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً * قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلاَ أُشْرِكُ بِهِ أَحَداً * قُلْ إِنِّي لاَ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلاَ رَشَداً * قُلْ

إِنِّى لَنْ يُجِيرَنِى مِنَ اللهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً * إِلاَّ بَلاَغًا مِنَ اللهِ وَرِسَالاَتِهِ وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً * حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِراً وَأَقَلُّ عَدَداً * قُلْ إِنْ أَدْرِى أَقَرِيبٌ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّى أَمَداً * عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً * إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً * لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاَتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًا *

مقدمة فى ملخص هذه السورة

ذكرت هذه السورة بعد سورة نوح لأن فيها تفصيلا لاجمال سبق هناك ، وذلك أن سورة نوح فيها : « استغفروا ربكم إنه كان غفارا ، يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا » .

فالتوبة والاستقامة ونظام الأمة يعقبه المال والبنون والجنات والأنهار ، فربما ظن الناس أن الله اذا أعطى هذه النعم فقد رضى على الناس ، فقيل فى سورة الجن . كلا . ثم كلا . إنما أموالكم وأولادكم وأنهاركم وبساتينكم فتنة ، فلافرق عندنا بين الخير والشر فى الابتلاء ، فنحن نبتلى بالشر ونبتلى بالخير ، وهذا فى قوله تعالى : « وأن لواستقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا لنفتنهم فيه » فكأنه يقول : ليس الجنات والأنهار والأموال والبنون المذكورة فى سورة نوح نعمة من غير قيد بل هى اختبار للناس وامتحان لهم . هذا مايقال فى المناسبة بين السورتين .

الكلام على تسمية السور

اعلم أن الله عزّ وجل سمى السور بأسماء تبعث على النظر وتوجب التفكير ، فسمى بالأنعام وببعضها كالبقرة وبالحيوانات الصغيرة ، وهى الحشرات كالنمل والنحل والعنكبوت ، وبما هوألطف من ذلك كالنور كما سمى ببعض الأنبياء كيوسف ويونس وهود ، وببعض الأخلاق كالتوبة ، وببعض الكواكب العلوية ، كالشمس والقمر والنجم ، وببعض الأوقات كالليل والفجر والضحى ، وببعض المعادن كالحديد ، وببعض الأماكن كالبلد والبروج ، وببعض النبات كالتين ، وبكل شىء مما نراه ومالانراه ، فههنا أقسم بعالم غير هذه العوالم كلها ، وهوعالم لانراه وهم الجن ، وهذا العالم لم يعرف فى دين الاسلام إلا من طريق الوحى ، وليس للعقل عليه من دليل ، ولقد أصبح العالم المستتر عنا اليوم هوالشغل الشاغل لنوع الانسان ، وظهرت آيات الله الكبرى فى الكرة الأرضية ، وأصبح العلماء فى أوروبا يجدّون فى مباحث هذه العوالم ، راجع ما كتبناه فى [سورة البقرة] واقرأ ماهنالك تجد الأمم كلها تدرس عالم الملائكة والجن ، ويطلعون على غوامض هذه العوالم ، ولقد نقلنا كثيرا فى هذا التفسير من عجائب هذه العوالم ، ولقد حدّث الناس أرواح أصحابهم الذين ماتوا ، واتصل العالم الانسانى بالعالم الجنى ، وبعالم الأرواح الطاهرة وهم الملائكة ، فاذا سمى الله سورة بهذا الاسم فمعناه أنه قد أعطى هذا العالم الخفىّ عنايته وسمى السورة باسمه كما اعتنى بالحديد وهو نوع من المعادن فسمى باسمه ، وهكذا توجهت عناية عزّته وقدسه إلى النور وأنواع الحيوان والنبات

والأوقات المختلفة ، وبكل شيء نراه ولانراه لنجدّ في البحث عن المعادن كلها وعن حساب الزمان ، ولا يكون هذا إلا بالعلوم الرياضية ، ولنجدّ أيضا في علم النبات والحيوان ﴿ وبعبارة أخرى ﴾ نلمّ بعلوم هـذا العالم ، وهكذا فلنجدّ في علم الأرواح كما جدّ فيه العالم الغربي .

اللهم إنك أنت الذي سميت هذه السور بهذه الأسماء ، سميت لهم أسماء الأشياء المتنوّعة على الأرض حيوانا ونباتا ، وفي باطنها من المعادن ، وفي الجوّ كالرعد ، وفي السماء كالشمس والقمر والنور ، وكالأوقات المختلفة ، ثم انك تجاوزت عالمنا وسميت باسم عالم الجنّ ، ذلك لتحثنا على البحث في علم الأرواح ، فماذاجرى ؟ نام المسلمون الذين أنزل عليهم الكتاب وحثهم على هذا ، وقام بهذه الأعمال كلها الذين لا يؤمنون بهذا الدين ، فياليت شعرى : أمستيقظ المسلمون أم نيام ؟ إن المسلمين اليوم وقبل اليوم بعد العصر الأوّل نيام ، تالله مانزل القرآن لمجرّد التلاوة ، نزل القرآن للعلم ، فاذا بحث المسلم عن شروط الصلاة وأركانها وعن فروض الوضوء فما بحث إلا في مقدّمات معرفة الله لافي معرفة الله ، لأن الوضوء لأجل الصلاة ، والصلاة لأجل حضور القلب ، وحضور القلب لتذكر الله ، وتذكر الله يعدّ القلب للعلم ، فالعلم إذن هو الغاية ، فكيف اجتهد المسلمون في المقدّمات وغفلوا عن العلوم التي هي أشبه بالغايات ، فعلم الفلك والنبات والمعدن والنور والظلام وعلم الأرواح هي العلوم المرقية للمجتمع ، الهادية للفكر ، المرقية للعقل ، التي تجلو الأنظار ، وتقيل العثار ، وتنفع الأهل والجار ، وتدفع العار ، وتوقظ النوّام ، إنّ علم الجنّ وعلم الأرواح يورث اليقين بالله وباليوم الآخر ، ويحدث في النفس أنسا وابتهاجا وانشراحا ، وسرورا وايقانا ، وراحة وطمأنينة .

سمى الله سورة باسم الجنّ ليوقظ المسلمين لتعلم علم الأرواح ، وكأنّ الله ذكرها لايقاظنا نحن في هـذا الزمان لاستكناه الحقائق ، ومعرفة الدقائق ، والوقوف على الرقائق ، والايقان بأن الموت إنما هوانتقال من حال إلى حال ، فلا تعظم على المرء سطوته ، ولا تخيفه سكرته ، ولا تزعجه نزعتـه ، ولا تضيق به ساحته ، بل يستقبله بقلب مملوء بالآمال ، فارغ البال ، فرح بفك العقال ، ولعلك تقول كيف أدرس هذا العلم ؟ وكيف أخاطب عالم الجنّ وعالم الملائكة ؟ وأين هذا العلم ؟ .

أقول : قد ألفت فيه كتابا سميته [كتاب الأرواح] وذكرت فيه ماجرّبه القوم في أوروبا ، وكيف أحضروا الأرواح ، وما الشروط ، وما الواجب على الانسان في ذلك ؟ ومافوائد هذا العلم ومضارّه ؟ .

وأنت اذا اطلعت عليـه أمكنك استحضار أقاربك وأشياخك اذا راعيت الشروط وكنت صادق النية للعلم لا للمال ، فانك تجاب إلى طلبتك وتخاطبك الأرواح كما خاطبت الأوروبيين كما نقلنا بعض العلوم التي ألقتها الأرواح عليهم ، وسأذكر إن شاء الله تعالى ملخص منهج الكتاب في آخر تفسير هذه السورة لتعرف إلى أيّ حدّ وصل نوع الانسان فيما قصر فيه المسلمون مما حثهم عليه كتاب ديننا المقدّس ، وكيف كان غير المسلم هو الذي بحث في مقتضى أسماء هـذه السور ، والمسلم هو الذي لم يعن بشيء منها ، وهو النائم قديما المستيقظ الآن ، وسيزيد استيقاظا بنشر العلوم والآراء بين الأمم الاسلامية خصوصا والشرقية عموما .

ثم اعلم أن علماءنا رحمهم الله قد ذكروا أن الجنّ أجسام عاقلة خفية تغلب عليهـم النارية ، ومن قال منهم انهم أرواح مجرّدة فهولاينافي ماتقدّم ، لأنّ الأرواح المجرّدة منها ماهو أقرب إلى عالم المادّة ، وهم هؤلاء الجنّ ، ومنهم من هوأقرب إلى عالم الروح : أى انه خلص من المادّة ، وهم المسمون ملائكة ، ومنهم من قال : انهم هم النفوس البشرية التي ماتت ، وهذا لاينافي القولين السابقين ، لأنّ النفوس البشرية من كان منهم أقرب الى الشرّ وهوعالم المادّة وذنوبه وشروره فهذا يسمى جنا ، ومن كان منهم يقرب من عالم الأرواح المجرّدة تجريدا تاما ، فهو ملحق بالملائكة كما قال تعالى : « يوم يقوم الروح والملائكة صفا » .

فههنا عالمان خفيان : عالم أقرب إلى الجهالة ، وهم الجن . وعالم أقرب إلى الكمال ، وهم الملائكة ومن يقتربون منهم .

ثم انه قد جاء فى علم الأرواح أن الأرواح الجاهلة تحب التقرب من بنى آدم وتستمع أحاديثهم ، و بيانه أن الأرواح التى فارقت أجسادها من بنى آدم قسمان : قسم ارتقى فى الدنيا ، فهو اذا خلص من هذا العالم الأرضى استعد للتلقى من عالم الملائكة ، لأن روحه قد استعدت بالمواهب التى نالتها فى الدنيا للتلقى عن عالم أرقى من عالم الانسان ، وقسم مات جاهلا لايدرى من هذا الوجود إلا مايمس حاجته ، فهذا لايمكن أن يعقل عن الملأ الأعلى ، فهذا يرجع إلى عالم الانسان ، لأنه أقرب إليه ، و يفهم و يعقل مايقال من الآدميين ، لأنه لايعرف غيرهم ، فأما العوالم الأخرى فهى محجوبة عنه كما حجبنا نحن عن عالم الملائكة المحيطين بنا الآن ، وهكذا حجبنا عن رؤية الله وهو معنا ، وحجبنا عن أن نعرف أن هنا كهرباء قبل كشفها مع أنها فى أجسامنا وتحيط بنا ، هكذا تلك الأرواح التى ماتت ناقصة بسبب الكبرياء أوالطمع أوالشره فانها لايمكنها أن تقابل الأرواح الكاملة للتلقى عنها فترجع إلى بنى آدم وتتقرب منهم كما نرى الطفل يفهم من الطفل ، ونرى المرأة الجاهلة لاتعقل إلا من جاهلة مثلها ، فهكذا الأرواح الناقصة لما كانت محبوسة عن التعلم من العالم الذى هو أعلى منها اضطرت أن تسمع الكلام الذى يقال لأهل الأرض وتعاشرهم وتعقل كلامهم .

فاذا سمعت ابن عباس يقول : إن الشياطين حيل بينهم و بين خبر السماء ، وأرسلت عليهم الشهب ، وانهم رجعوا إلى قومهم وقالوا لهم حيل بيننا و بين خبر السماء وأرسلت علينا الشهب ، وأن قومهم قالوا لهم : ماذاك إلامن شىء حدث فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها فانظروا ماهذا الذى حال بيننا و بين خبر السماء ؟ فانطلقوا يضربون مشارق الأرض ومغاربها ، فمر النفر الذين أخذوا نحو تهامة بالنبى صلى الله عليه وسلم وهو بنخلة عامدين إلى سوق عكاظ ، وهو يصلى بأصحابه صلاة الفجر ، فلما سمعوا القرآن استمعوا له وقالوا هذا الذى حال بيننا و بين خبر السماء ، فرجعوا إلى قومهم فقالوا : ياقومنا « إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدى إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا » فأنزل الله على نبيه صلى الله عليه وسلم « قل أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا » الخ .

اذا سمعت هذا القول أونحوه فى البخارى ومسلم عن ابن عباس فاعلم أن هذا هو الذى أظهره علم الأرواح الحديث ، لأن الأرواح الناقصة هى التى تأخذ من الانسان لقربها من العالم الأرضى ، وهى بطبعها ممنوعة عن عالم الملائكة ، فلايجوز لها ولا يتسنى أن تفهم عن العوالم العلوية إلا اختلاسا كما نرى أهل الأرض ، فان العامة يمنعون من حضور الدروس مع التلاميذ الذين استعدوا لدروس الهندسة والعلوم الأخرى ، والمنع تارة يكون بطبيعة العامة ، لأنهم لايعرفون مايقال فيتنحون ، وتارة بنظام المدارس وطرد من لم يكن من أهل الفن ، والعالم كله على وتيرة واحدة ونظام واحد ، فالأعمى فى الدنيا الجاهل لايناله حظ مالم يستعد له إما بأنه هو يتركه ولايقرب من المشتغلين به لأنه لايفهمهم ، واما أنهم هم يطردونه عن مجالسهم كأهل الأرض . فهذا القانون عام فى الأرض من أول خلق الانسان عليها ، إذ لايعطى الشىء إلالمستحقه ، فهذا هو طرد الشياطين عن استراق السمع وذكر الشهب وأنهم يحترقون بها إما حقيقة واما ضرب مثل لما ذكرناه كما فى أحوال أهل الأرض .

ولما أرسل صلى الله عليه وسلم وكان للأرواح الناقصة بعض الوجهة فى الاستماع من بعض الملأ الأعلى ماقد ينتفعون به كالمواعظ التى يتلقونها اختلاسا منعوا من تلك الدروس فعلا ، وذلك لايقاظهم إلى ماحصل فى العالم الانسانى الذى هم أقرب إليه فيفهمون منه أكثر مما يفهمون عن الملأ الأعلى ، ونبينا صلى الله

عليه وسلم وان كان هو نفسه مع الملأ الأعلى تعالميه يقولها لأهل الأرض ، وأهل الأرض يفهمونها ، فلذلك يفهمها من هم أقرب إليهم ، وهم الأرواح الناقصة ، فهذا تفسير هذا المقام وايضاحه بحسب ماظهر من علم الأرواح .

وقد جاء فى هذا العلم أن الأرواح بعد الموت تسير فى الطريق التى سارتها فى الحياة ، فان كانت ناقصة لازمها النقص ، وان كانت كاملة لازمها الكمال ، وهذه الناقصة قد تتجرّد من بعض نقائصها بالنصائح التى تسمعها من الناس أومن عالم آخر اذا استعدّت لذلك ، وهذا من أعجب العجب أن يأتى القرآن ويكون الكشف الحديث مطابقا له ، ساريا على نهجه .

ياللعجب ! سورة الجنّ سورة لاتعرفها العقول ، وتبقى فى أمة الاسلام ألفا وثلثمائة سنة وعشرات السنين تتلقاها أمم عن أمم ، وأجيال عن أجيال ، ثم يأتى هذا العصر فتظهر الحقائق .

ياعجبا ! إن هذه من السمعيات ، وهى التى لادليل عليها من العقل ، ثم انها تبقى محفوظة مقروءة حتى يأتى وقتها وتظهر فى أوروبا ، يظهر فى أوروبا أن الأرواح الناقصة تسمع كلام الناس وتهتدى به ، وأنها لاتعرف مافوق طاقتها فلاتهتدى بهدى الأرواح العالية ، فيكون العالم من أهل الأرض أوالنبىّ قد ارتقى فى العلم ، والأرواح الناقصة المجرّدة من الأجسام لم تبلغ مبلغ ذلك العالم أوذلك النبى فتتعلم منه ، وتكون تلك الأرواح أشبه بالآباء الجهال إذ يسمعون من أبنائهم المتعلمين العلم ، وحال الأرواح الناقصة بعدالموت هى حالهم المشاهدة فى الدنيا ، فاننا نرى الجهال لايجلسون فى مجالس العلماء إلا قليلا فى حال ما اذا تنزل العلماء لاصلاح حالهم ، وفيما عدا ذلك تجد مجالس التعليم فى أماكن خاصة لايسمعها سواهم ، ولايظهر من العلم للعامّة إلا شذرات قليلة جدّا ، فهم فى حياتنا الدنيا ممنوعون من السمع ، وقد يشتدّ المنع اذا كان فى سماعهم للعلم مفسدة كما نرى فى كل دولة أسرار أعمالها الحربية ، وهم يكتمون مايعلمون فى مصالح الحكومة عن الشعب إلا اذا صار ذلك أمرا نافذا فيظهرونه ، وكما نرى الأمم كلها شرقا وغربا لها خطط سياسية مكتوبة مكتومة بين أرباب الدولة ، ومن أفشى سرّا منها لغيرهم حاكموه ، فهذا منع من السمع فى الدنيا ، وبعد الموت له نظائر ، إذن كل هذا لحفظ الدرجات ونظام المجموع ، بل الملائكة أنفسهم درجات « ومامنا إلاله مقام معلوم» وتلك الدرجات هى المعارج ، فالمنع من السمع لحفظ المعارج لأربابها ، فلنشرع الآن فى تلخيص السورة ، ثم تفسير الألفاظ ، ثم نأتى بشذرات من علم الأرواح فنقول : ان الذى ذكر فى معرض أقوال الجنّ ١٦ حكمة وهذا نصها :

(١) انهم سمعوا كتابا بديعا ، وهوالقرآن يهدى إلى الصواب ، فآمنوا وتركوا الشرك .

(٢) وأن الرّب تعالت عظمته لم يتخذ زوجة ولا ولدا كما يقول كفار الجنّ والإنس .

(٣) وأن الجهال من الجنّ كانوا يقولون قولا متجاوزا الحدّ فى البعد عن الصواب بالنسبة لله تعالى ، إذ ينسبون له الصاحبة والولد .

(٤) وأنهم ما كانوا يظنون أن أحدا يكذب على الله بنسبة الصاحبة والولد إليه لاعتقادهم بصدق من يقولون هذا القول من الجنّ والانس ، وهذا هوعذرهم فى اتباع هؤلاء الكاذبين الذين غشوهم .

(٥) وأن رجالا من الإنس كانوا يستعيذون فى القفر برجال من الجنّ فزاد الجنّ الانس ضلالا باستعاذتهم بهم لظنهم أنهم يعيذونهم .

(٦) وأن الجنّ ظنوا كظنكم أيها الانس أنه لن يبعث الله أحدا .

(٧) وأن الجنّ طلبوا خبر العالم العلوىّ المعبر عنه بالسماء فنعوا .

(٨) وأن الجنّ كانوا يقعدون مقاعد خالية ليتمكنوا من السمع فمنعوا الآن برجم الشهب .

(٩) وأنّ الجنّ لايدرون ماذا يحلّ بأهل الأرض أشرّ أم خير ، لأنّ حراسة السماء ومنع السمع لابدّ أن يكون لأمر هامّ ، فاذا رأينا الحكومة شدّدت فى تعطيل الجرائد ومنع بيعها فى المملكة ، فذلك لابدّ أن يكون لأمر هامّ فى الدولة ، إما لنفعها واما لضرّها ، وقد كانت الحكومات القديمة والحديثة تجدّ فى منع الناس عن الأخبار الخاصة بالدولة فى الأمور الهامّة ، فتراهم الآن يحكمون أحكاما عرفية أثناء الاضطراب أوالحروب ، ويمنعون الناس من التلفظ أوالكتابة فى شيء من أسرار الدولة ، أوأحوال الحرب العامّة التى تضرّ بسير الحرب ، أو بسير الأمة ، وهذا أمر متعارف فى دول الأرض فهكذا دول الأرواح .

(١٠) وأن الجنّ منهم الأبرار ومنهم الفجار ، فلهم مذاهب ، وهم مختلفو الأحوال .

(١١) أن الجنّ علموا أنهم لن يفرّوا من أمر الله ان أراد بهم أمرا على هذه الأرض ، وانهم لن يقدروا على الهرب منه اذا طلبهم .

(١٢) وأنهم لما سمعوا الهدى آمنوا به ، فالمؤمن لاينقص ثواب عمله ولايناله مكروه .

(١٣) وأنهم فريقان : مسلمون ، وجائرون عادلون عن الحقّ ، فالمسلم قصد طريق الحقّ وتوخاه ، وأما الجائر فانه يكون وقودا للناريوم القيامة .

(١٤) وأن الانس والجنّ اذا استقاموا على الطريقة المثلى وسع الله عليهم رزقهم واختبرهم به ، ومن أعرض عن ذكر ربه يدخله عذابا شاقا .

(١٥) وأن المساجد لله فعلى من يدخلها أن يخلص لله فيها ولايشرك به أحدا كما كان المشركون يفعلون

(١٦) وأنه لما قام النبيّ صلى الله عليه وسلم يعبد الله كاد الجنّ يكونون عليه متراكين من ازدحامهم عليه تعجبا مما رأوا من عبادته وسمعوا من قراءته .

ولما انتهى إلى هذا المقام قال الله لنبيه : « قل إنما أدعو ربى ولاأشرك به أحدا » ليبين الدعوة المذكورة فى آخر أقوال الجنّ ومباحثهم ، والمقول له صلى الله عليه وسلم أربعة مقاصد ، وهى :

(١) أنه يدعو ربه ولايشرك به أحدا .

(٢) وأنه لايملك دفع الضرّ عن الناس ، ولايسوق إليهم رشدا ، لأن الضارّ والنافع والمرشد والمقوّى إنما هوالله .

(٣) أنه لن يمنعه أحد من الله ان عصاه ، ولن يجد ملجأ يلجأ إليه دون الله ، وكيف يعصى الله ، ومن يعص الله يدخله نارجهنم مخلدا ، ومتى جاء يوم عذابهم فى الدنيا أوفى الآخرة فسيعلمون أينا أضعف ناصرا وأقلّ عددا أهم أم أنا .

(٤) أنه صلى الله عليه وسلم لايدرى متى يكون وقت تعذيبهم ، أقريب هوأم بعيد ، فالعلم لله وحده ، ولايطلع على غيبه أحدا ، وكما منعت الشياطين من استراق العلم الذى لاطاقة لها به ، هكذا الملائكة درجات لكل منهم علم لايتعداه ، والأنبياء أيضا لاينالون من العلم إلا ما أوجبته المصلحة النبوية ، فاذا علم الأنبياء بعض العلم بالغيب ، فذلك يكون معجزة له ، ثم يحرسه بالملائكة لتحفظ دعوته ، وليقوموا بالهام الناس حفظ الشريعة بعدهم ليتمّ ابلاغ الدعوة وسريانها فى العالم الانسانى .

هذا هو ملخص السورة إجمالا ، ولنشرع الآن فى التفسير اللفظى للسورة كلها فنقول ومن الله التوفيق :

التفسير اللفظى

بسم الله الرحمن الرحيم

(قل) يامحمد (أوحى إلىّ أنه) أن الأمر والشأن (استمع نفر) النفر مابين الثلاثة إلى العشرة (من الجنّ) قد تقدّم الكلام هنا عليهم (فقالوا إنا سمعنا قرآنا) كتابا (عجبا) بديعا مباينا لكلام الناس فى نظمه ودقة معناه ، والعجب مصدر بمعنى العجيب (يهدى إلى الرشد) إلى الحقّ والصواب (فآمنا به) بالقرآن (ولن نشرك بربنا أحدا) من خلقه (وأنه تعالى جدّ ربنا) أى تعالى جلال ربنا وعظمته. قال أنس: كان الرجل اذا قرأ البقرة وآل عمران جدّ فينا: أى عظم قدره (ما اتخذ صاحبة ولا ولدا) أى تعالى عظمة عن أن يتخذ زوجة لأنها انما تكون للحاجة إليها ، ولا ولدا للاستئناس به (وأنه كان يقول سفيهنا) جاهلنا (على الله شططا) كذبا وعدوانا (وأنا ظننا أن لن تقول الإنس والجنّ على الله كذبا) أى كنا ظننا أن الانس والجنّ صادقون فى قولهم أن لله صاحبة وولدا ، وأنهم لا يكذبون على الله فى ذلك (وأنه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجنّ فزادوهم رهقا) فانّ الرجل كان اذا أمسى بقفر قال: أعوذ بسيد هذا الوادى من شرّ سفهاء قومه ، فكانت هذه الاستعاذة تزيد الجنّ رهقا: أى تكبرا ، وتزيد الانس رهقا: أى ضلالا ، وأصل الرّهق فى كلام العرب الاثم وغشيان المحارم ، ولاجرم أن الضلال أصل المحارم ، والكبر والعتوّ من المحارم (وأنهم) أى الانس (ظنوا كما ظننتم) أيها الجنّ (أن لن يبعث الله أحدا) وهذا أيضا من كلام الجنّ بعضهم لبعض (وأنا لمسنا السماء) أى طلبنا خبرها (فوجدناها ملئت حرسا) أى حرّاسا ، وهو اسم جمع كالخدم (شديدا) قويا (وشهبا) جمع شهاب ، وهو المضىء المتولد من النار (وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع) أى مقاعد خالية عن الحرس والشهب ، أوصالحة للترصد والاستماع (فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا) أى شهابا راصدا له ولأجله يمنعه عن الاستماع بالرجم ، ويصح أن يكون الرصد اسم جمع لراصد: أى ذوى شهاب راصدين (وأنا لاندرى أشرّ أريد بمن فى الأرض) بحراسة السماء (أم أراد بهم ربهم رشدا) أى لاندرى هل المقصود من المنع من الاستراق هو شرّ أريد بأهل الأرض أم أريد بهم الاصلاح؟ وقد تقدّم إيضاحه فى مقدمة تفسير السورة ، وفى التعبير بأريد فى باب الشرّ ، وأراد بهم ربهم فى باب الخير حسن أدب وتعليم للناس كيف يتأدّبون فى القول ، فأسند الخير لله ولم يسند الشر إليه وان كان كل من عند الله (وأنا منا الصالحون) المؤمنون (ومنا دون ذلك) أى قوم دون ذلك (كنا طرائق قددا) ذوى طرائق متفرّقة مختلفة ، وقددا جمع قدة من قدّ إذا قطع (وأنا ظننا) علمنا (أن لن نعجز الله فى الأرض) أى لن نعجزه حال كوننا كائنين فى الأرض أينما كنا فيها (ولن نعجزه هربا) هاربين منها إلى السماء (وأنا لما سمعنا الهدى) القرآن (آمنا به فمن يؤمن بربه فلا يخاف) أى فهو لايخاف (بخسا ولارهقا) البخس النقص ، والرّهق الظلم أوالمكروه الذى يغشى المظلوم (وأنا منا المسلمون) وهم الذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم (ومنا القاسطون) الجائرون العادلون عن الحقّ (فمن أسلم فأولئك تحرّوا رشدا) أى قصدوا طريق الحقّ (وأما القاسطون فكانوا) فى علم الله (لجهنم حطبا) وقودا (وأن لواستقاموا) أى القاسطون (على الطريقة) أى طريقة الاسلام (لأسقيناهم ماء غدقا) كثيرا: أى لوسعنا عليهم الرزق ، فان الماء الغدق سبب سعة الرزق (لنفتنهم فيه ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه) يدخله (عذابا صعدا) شاقا يعلوالمعذب ويغلبه (وأنّ المساجد لله) مختصة به (فلاتدعوا مع الله أحدا) فلاتعبدوا فيها غيره ، والمراد بالمساجد مايعبد الله فيها ، وبنيت لذلك

فيدخل فيها الكنائس والبيع . ولما كانت الأرض كلها مسجدا للمسلمين فعليهم ألا يعبدوا فيها غيره (وأنه لما قام عبد الله) محمد صلى الله عليه وسلم (يدعوه) يعنى يعبد الله ويقرأ القرآن ، إذ كان يصلى الفجر ببطن نخلة (كادوا) أى الجن (يكونون عليه لبدا) أى يركب بعضهم بعضا من الازدحام عليه حرصا على استماع القرآن (قل إنما أدعوا ربى ولا أشرك به أحدا) فليس ذلك ببدع يوجب تعجبكم واتفاقكم على مقتى وقد قالوا : قد جئت بأمر عظيم فارجع عنه فنحن نجيرك ، فقال لهم صلى الله عليه وسلم : [إنما أدعو ربى ولا أشرك به أحدا] (قل انى لا أملك لكم ضرا ولارشدا) أى لا أقدر على أن أدفع عنكم ضرا ، ولا أن أسوق إليكم رشدا ، فالله له الأمر (قل إنى لن يجيرنى من الله أحد) أى لن يمنعنى منه أحد ان عصيته (ولن أجد من دونه ملتحدا) ملجأ ألجأ إليه ، وحرزا أحترز به ، أومدخلا فى الأرض مثل السرب أدخل فيه (إلا بلاغا من الله ورسالاته) أى أنا لن أجد ملجأ ألتجئ إليه إلا تبليغ رسالات الله ، فأنا ان لم أبلغها عصيت ربى ، وان بلغتها نجوت من عذابه ، فهو يقول : لاملجأ إلىّ إلا تبليغ الرسالة ، فهو الذى به أنجو من عذاب الله ، فان تركت التبليغ وقعت فى الاثم المبين (ومن يعص الله ورسوله) فى الأمر بالتوحيد (فانّ له نار جهنم خالدين فيها أبدا حتى إذا رأوا مايوعدون) فى الدنيا كوقعة بدر وما بعدها ، أوفى الآخرة (فسيعلمون من أضعف ناصرا وأقلّ عددا ، قل إن أدرى) أى ما أدرى (أقريب ماتوعدون أم يجعل له ربى أمدا) غاية تطول مدّتها ، فانهم كانوا يقولون متى هذا الوعد ؟ فكأنه يقول هو كائن لامحالة ولكن لا أدرى ماوقته (عالم الغيب) هوعالم الغيب (فلايظهرعلى غيبه أحدا) أى لايطلع أحدا على الغيب المختص به هو (إلامن ارتضى من رسول) لعلمه بعضه حتى يكون معجزة للنبوّة (فانه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا) يدخل من بين يدى المرتضى ومن خلفه حرّاسا من الملائكة يحرسونه من كيد الشياطين وتخاليطهم (ليعلم) النبىّ الموحى إليه (أن قدأبلغوا رسالات ربهم) أن قد أبلغ جبريل والملائكة النازلون بالوحى ، أوليعلم الله أن قد أبلغ الأنبياء رسالات ربهم : أى يظهرابلاغ الرسالات محروسة من التغيير (وأحاط بما لديهم) بما عند الرسل (وأحصى كل شىء عددا) أى أحصى ماخلق وعرف ماخلق لم يفته شىء حتى مثاقيل الذرّ والخردل . انتهى التفسير اللفظى للسورة كلها ، والحمد لله رب العالمين .

أقوال الناس قديما وحديثا فى الجنّ ، وبدائع العلم الحديث فيها

وهو معجزة للقرآن ظهرت فى هذا العصر كما قال تعالى : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحقّ »

لقد أفضت الكلام فى سوركثيرة على هذا الموضوع ، فاقرأه فى [سورة البقرة] وفى [سورة آل عمران] وفى سوركثيرة ، ولقد ذكرت فى [سورة آل عمران] نبذة من خطبة [السيرأوليفر لودج] من أشهر علماء الطبيعة فى هذا العصر ببلاد الانجليز ، إذ أكد على جمع من كبار العلماء فى اجتماع رسمى أنه حادث الأموات ، وأن هناك عقولا أسمى من عقولنا فى عالم الأرواح ، وأنهم يهتمون بنا ، وأن اخوانه من الجمعية الروحية الذين ماتوا كلهم بعد موتهم وبرهنوا له ببراهين قاطعة أنهم هم الذين يكلمونه ، وقال : إن كل مايقوله الأنبياء عن عالم الأرواح وعن الله فهو حقّ بلا تأويل ، وقال انه اشتغل بهذا الفن ٣٠ سنة فله الحق أن يحكم بما يقول ، وكذلك نقلت عن اخوان الصفاء مما ذكرته فى كتابى [الأرواح] إذ قالوا فى كتابهم المشهور : ان أرواح الأحياء بعد الموت هم الموسوسون ان كانوا أشرارا ، وهم الملهمون الناس الخير ان كانوا أخيارا ، فارجع إليه هناك إن شئت ، وهاك خلاصة ماذكرته فى كتاب الأرواح المذكور :

(١) قال شيرمحمد فى المجلس السابع : لقد جمعت بين ماجاء به الدين الاسلامى والكشف الحديث ، ذلك أن القوم يقولون : إن كل علم وكل خير وشرّ حاصلات فى الأفئدة منشؤها الأرواح الفاضلة والناقصة ، وهو عين قوله صلى الله عليه وسلم : « فى القلب لمتان : لمة من الملك ، ولمة من الشيطان » وهذا مصداق آية : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم » والعجب أن الفرنجة يكشفون هذا ولايعلمون أنه مصداق دين الاسلام .

(٢) ليس على الأرض كامل ، وظاهر الفضيلة والصلاح لايدل على الكمال التام فى الانسان ، ولوكان كاملا لم يسجن فى هذه الأرض ، وهذا النقص فى الانسان بسبب الذنوب القلبية التى لايعرفها الناس مثل الحقد والطمع والحسد الخ .

(٣) ليس للانسان من طريقة للتخلص من وسوسة الأرواح الشريرة إلابالفضائل ، فهى التى تطردها

(٤) الأرواح الشريرة قد تتقرّب من الانسان لمقاصد رديئة ، وربما تسمع بعض نصائح الانسان عند استحضارها .

(٥) من الأرواح ماتستولى على جسد الانسان ويحاول الأطباء شفاء ظواهر ذلك الجنون فى المارستان بلاطائل ، ولافائدة إلا بالمعالجة الأدبية التى بها وحدها تخرج الروح من الجسم .

(٦) ليس فى مقدور الناس طرد الأرواح من اقترابها من الناس ، لأن ذلك يفيد فوائد كثيرة .

(٧) إنّ ماتقدّم من أن الأرواح الناقصة تهتدى بكلام البشر يناسب ماجاء فى هذه السورة من قول الجن : « إنا سمعنا قرآنا عجبا . يهدى إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا . وأنه تعالى جدّ ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا . وأنه كان يقول سفيهنا على الله شططا . وأنا ظننا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذبا . وأنه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا . وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحدا » .

(٨) فى الأرض أرواح أشبهت الجن فى الجهل والشرّ ، مثل ذلك الغنىّ البخيل الذى مات وأحضروا روحه وقال : هاتوا لى مالى فيما تقدّم فى الكتاب (أى كتاب الأرواح) ومثل ذلك الروح الطائش الذى قال : أنا أسلى نفسى الخ .

(٩) وهذا قوله تعالى : « ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضلّ سبيلا » .

(١٠) ومن الناس من يصدّق كل ماتلقى إليه الأرواح فتسدّ عليه المسالك فلايسمع النصائح من غيرها فتغشه تلك الأرواح ، وهذا قوله تعالى : « وأنه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا » .

(١١) قول الروح : لاتغترّوا بظاهر الفضيلة فانها تستر كبرا وحقدا الخ وهذا قوله تعالى : « سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحقّ » .

هذا ملخص هذا المقال ، وعسى أن نوفق فى المستقبل لاصدار الملحق لهذا التفسير فنستوفى هذا المقام فيه ، ومن قرأ كتابنا [الأرواح] كفاه ، والحمد لله رب العالمين ، كتب صباح يوم الثلاثاء ٢٠ رمضان سنة ١٣٥١ هجرية — ١٧ يناير سنة ١٩٣٣ م .

***

ويحسن أن ننقل لك هنا أيها الذكىّ فهرست كتابنا [الأرواح] الذى ألفته ، لأنك تقف فيه على مجمل هذا العلم ، ويظهر لك سرّ القرآن فى آخر الزمان ، فليس فى طاقتى فى هذا التفسير أن أنقل أكثر من ذلك

إن ملخص فهرس كتاب الأرواح هو ما يأتى :

قراءة هذا الكتاب تدعو إلى اليقين ، وتصفى النفس ، وتذهب الحزن : أهمّ مذاهب الهنود فى معرفة الله تعالى ثلاثة : قوم لا يفكرون إلا فى معرفة النفس ، وقوم يقولون للعالم إله ، ولكنه مختص بتعليم الناس ، وقوم يقولون انه خالق ومنظم وعالم ومعلم ، وهذا الأخير هو الذى فى كتاب الفيدا ، تبيان كلام الأمم فى إثبات الأرواح وفى نفيها ، بيان ثبوت الأرواح بالآيات القرآنية وبالأحاديث ، قول قدماء الفلاسفة : ان أرواح الأموات هى الملهمة للأحياء ، وهى الموسوسة لهم بأمر الله ، [عذاب القبر] من كلام الغزالى رحمه الله ، وأن الأرواح بعد الموت لها ثلاثة أحوال : أسف على فائت ، وعلى ذنب ، وجزع من الجهل . اخوان الصفاء جاء فيه أن الأرواح كالشياطين وكالملائكة ، اعتراضات على المؤلف وأجوبة ، استدلال المؤلف على استحضار الأرواح بآية ، واذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم ، أسباب تحريك الموائد فى استحضار الأرواح ، إحضار زهور وفواكه على أيدى الأرواح فى أوروبا ، إحدى وعشرون سؤالا وجهت إلى الأرواح فى تحريك الموائد ، فأجابت بأن المغناطيسية فى الانسان تساعد مغناطيسية الروح ، وتقول : إن الأحياء جهال جدّا ، فى الأرواح جهال كما فى الأحياء ، اقرار الروح بالعذاب ، البخيل معذب ، والظالم تعتريه حسرة ، ومن الأرواح من طلبت المساعدة لتخلص من العذاب ، آيات قرآنية مطابقة لذلك ، روحان يتيمان ضايقا من ظلمهما ، الأرواح تنتقم بالوسوسة ، وتعطف على الباكين عليها ، كاهن وسيدة نجوا من الخطر بسماع هاتف ، مطابقة كلام الامام الغزالى لما تقدم . ظهور أشباح ، وسماع ألحان ، ودقّ آلات طرب فى ألمانيا وشهدها كثيرون . الروح المزعجة والحديث معها . آراء العلماء والأحاديث الموافقة لما تقدّم . وصف الأرواح للسموات ، الجاهل فى الدنيا جاهل بعد الموت ، مطابقة القرآن لذلك ، الوساطة الروحية المستعملة لأمور الدنيا ضارّة ويكون فيها الكذب ، وصف الأرواح لله عزّ وجل ، روح غاليلى ووصفها لنظام السموات ، وصفها ينطبق على آية « تعرج الملائكة والروح إليه فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة » ، تاريخ مناجاة الأرواح وطرق الاستحضار كالمائدة والفنجال واليد وهكذا ومجموعها ست ، أرواح تكتب بالأقلام ، ظهور روح اسمها [كاتى] وقد أعطتهم قطعا من ثوبها ، آيات قرآنية مطابقات للشريعة الاسلامية ، آداب من يحضرون الأرواح ، التنويم المغناطيسى ، براهين سقراط على بقاء النفس ، وكيف نشأت الفكرة عند المؤلف ، وبراهين ابن مسكويه ، طرق المقلدين فى أمر الروح ، كلام الروح فى حب الانسانية والفلسفة ، محاورة [أوليفرلودج] مع ابنه الميت فى حرب الألمان ، هل تدخن الأرواح ، وهل تشرب الخمر ؟ الأرواح لها ثياب ، فوائد الأنوار عند الأرواح ، تعليم الأرواح لأهل الأرض وموافقته للقرآن ، مناجاة الأرواح فى فى أوروبا والاسلام ، الصوفية يناجون الملائكة بالذكر وترك اللذات ، [براى أودنج] يصف جهنم ومستقبل الأمم والدول وأوروبا ومصر والاسلام ، الميت يدهش من علمه بالموت لا من الموت ، أخلاق الميت أحاطت به بعد موته ، قاعة السكينة ، وصف الروح لجهنم كوصف القرآن . انتهى .

هذا هو ملخص فهرس كتاب الأرواح ، وان أردت المزيد فاقرأ كتبا تعدّ بمئات الألوف باللغات الافرنجية وتجد كتاب [على أطلال المادّة] وكتاب [دائرة المعارف] كلاهما لصديقنا الأستاذ محمد فريد وجدى ، ففيهما غنية فى هذا العلم ، ولعلنا ان طالت الحياة نفصل القول تفصيلا فى ملحق نؤلفه بعد تمام طبع التفسير ان شاء الله تعالى اهـ

وقبل ختام تفسير هذه السورة يحسن بنا أن نذكر هنا ماجاء فى إحدى المجلات المصرية ، وهى [مجلة اللطائف المصوّرة] مناسبا لآية : « وأحاط بما لديهم وأحصى كل شىء عددا » فقد جاء فيها تحت العنوان الآتى مانصه :

لطيفة فى قوله تعالى : وأحاط بما لديهم وأحصى كل شىء عددا

عدد سكان العالم

أحصى أخيرا عدد سكان الكرة الأرضية فبلغ مليارين من النفوس : أى ألفى مليون ، وقد كان فى سنة ١٩١٠ م ألف وستمائة مليون فقط فبلغت الزيادة فى عشرين سنة ٤٠٠ مليون نسمة ، وعدد سكان العالم موزّع كما يلى :

فى آسيا ٩٠٠ مليون ، وفى أوروبا ٥٠٠ مليون ، وفى أمريكا ٢٢٠ مليونا ، وفى افريقيا ١٥٠ مليونا ، وفى استراليا ٨ ملايين .

وأما عدد سكان ممالك أوروبا فهو كالآتى : روسيا أوروبا ١١٥ مليونا ، ألمانيا ٦٢ مليونا ونصف ، وبريطانيا العظمى ٤٢٫٧ مليونا ، ايطاليا ٤١ مليونا ، فرنسا ٣٩٫٥ مليونا ، اسبانيا ٢١٫٣ مليونا ، بولونيا ٢٠ مليونا ، رومانيا ١٧ مليونا ، تشكوسلوفاكيا ١٣٫٦ مليونا ، المجر ٨ ملايين ، بلجيكا ٧٫٨ ملايين ، هولاندا ٧٫٦ ملايين ، النمسا ٦٫٥ ملايين ، أسوج ٦ ملايين ، اليونان ٦ ملايين ، البرتغال ٥٫٤ ملايين ، بلغاريا ٥٫٤ ملايين ، ارلندا ٤٫٢ ملايين ، استونيا ٤٫١ ملايين ، سويسرا ٣٫٩ ملايين ، فانلاندا ٣٫٥ ملايين ، نروج ٢٫٧ مليون ، ليتوانيا ٢٫١ مليون ، تركيا أوروبا ٢ مليون ، ألبانيا ثلاثة أرباع المليون ، دوقية لوكسمبرج ٢٦٠ ألفا . انتهى ماجاء فى المجلة المذكورة . وبهذا تمّ تفسير [سورة الجن] والحمد لله رب العالمين . كتب عصر يوم الأحد ١٩ يوليو سنة ١٩٢٥ — ٢٨ ذى الحجة سنة ١٣٤٣ هجرية .

تفسير سورة المزمل

هى مكية

إلا قوله تعالى : « واصبر على مايقولون واهجرهم هجرا جميلا . وذرنى والمكذبين أولى النعمة ومهلهم قليلا » وقوله : « إنّ ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثى الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك والله يقدّر الليل والنهار » إلى آخر السورة ، فمدنية

آياتها ٢٠ — نزلت بعد سورة القلم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَاأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ * قُمِ ٱلَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً * نِصْفَهُ أَوِ ٱنْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلاً * إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً * إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلاً * إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلاً * وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً * رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لاَ إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلاً * وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ

هَجْراً جَمِيلاً * وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً * إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالاً وَجَحِيماً * وَطَعَاماً ذَا غُصَّةٍ وَعَذَاباً أَلِيماً * يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيباً مَهِيلاً * إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِداً عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً * فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذاً وَبِيلاً * فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيباً * السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً * إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً * إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْءَانِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْراً وَأَعْظَمَ أَجْراً وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ *

ملخص الأحكام فى هذه السورة

(١) أن النبىّ صلى الله عليه وسلم أمر أن يقوم من الليل ثلثه ، أونصفه ، أوثلثيه ، فهو مخير بين هذه الثلاثة .

(٢) وهو فى ذلك يقرأ القرآن بتؤدة حرفا حرفا يقف على العالمين ، وعلى الرحيم ، وعلى الدين ، فيقطع القراءة آية آية .

(٣) وأن يذكر ربه ليلا ونهارا بالتسبيح والتهليل والتمجيد والصلاة والقراءة ودراسة العلم .

(٤) وأن يجرّد نفسه إليه عما سواه .

(٥) وأن يتخذه وكيلا يكل إليه أموره متى فعل مايجب عليه فيها .

(٦) وأن يصبر على ما يقولون فيه وفى ربه : من أنه ساحر ، أوشاعر ، وفى أن ربه له صاحبة أو ولد .

(٧) وأن يهجرهم هجرا جيلا ، وذلك بالمجانبة والمداراة وعدم المكافأة .

(٨) وأن يكل أمرهم إلى الله ، فهو يكافئهم ويكفله .

(٩) وأن يمهل زمانا قليلا فسيرى عاقبته وعاقبتهم .

فهذه الامور التسعة طلبت من النبىّ صلى الله عليه وسلم ومن أتباعه ، ولما شقّ ذلك عليهم ، فقد كان الرجل يصلى الليل كله مخافة ألايصيب ما أمر الله به من القيام . قال الله : انه يعلم أنه صلى الله عليه وسلم يقوم أقلّ من ثلثى الليل تارة ، ونصفه تارة أخرى ، وثلثه مرّة ، وهكذا أصحابه ، واحصاء الليل شاقّ عليهم فلا يقدرون على ضبطه ، ولامعرفة ساعاته ، فانتفخت أقدامهم من طول القيام ، نسخ ذلك وأمرهم بما تيسر

من صلاة الليل ، ثم نسخ ذلك التيسير أيضا من صلاة الليل بالصلوات الخمس ، لأن المسلمين منهم المريض ، ومنهم المسافر للتجارة ، ومنهم المسافر للقتال فى سبيل الله ، فهؤلاء لايتيسر لهم القيام مع هذه الأعمال ، فالصلاة المفروضة كافية للأمة مع إيتاء الزكاة وإدامة استغفار الله فى مجامع أحوالهم ، لأن الانسان لايخلو من تفريط .

هذا ملخص أحكام السورة ، وناسخها ومنسوخها ، ولنشرع الآن فى تفسير الألفاظ للسورة كلها فنقول ومن الله التوفيق .

التفسير اللفظى

بسم الله الرحمن الرحيم

(يا أيها المزمّل) بفتح الميم وكسرها ، وقرئ المتزمّل : أى المتلفف فى ثيابه ، وهوالنبىّ صلى الله عليه وسلم ، وذلك لأنه كان نائما مرتعدا مما دهشه من بدء الوحى ، إذ رجع إلى خديجة يرجف فؤاده فخوطب بهذا القول تهييجا له ، وقد كان متلففا فى قطيفة ، والمتزمّل كما يطلق على هذا المعنى يطلق على من تحمل الحمل : أى الذى تحمل أعباء النبوّة ، فهذا المعنى يؤخذ من باب الكناية تعريضا ، فهو يقول : ياأيها المتلفف بثيابه معرّضا بأنه يحمل عبئا عظيما فليقم لحمل عبئه (قم الليل) أى قم إلى الصلاة وداوم عليها فيه (إلا قليلا نصفه) أى إلا نصفه ، فالنصف بدل من قليلا ، ولاجرم أن النصف قليل بالنسبة للكل (أوانقص منه قليلا) أى انقص من النصف (أو زد عليه) أى إلى الثلثين ، فيكون التخيير بين الثلث والنصف والثلثين ، وبقى النبىّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه على هذه الحال يصلون بالليل اثنى عشرشهرا ، ثم خفف عنهم كما تقدّم إيضاحه ، فصارالمفروض ماتيسرمن الصلاة بالليل ، ثم نسخ بالصلوات الخمس ، وصارقيام الليل سنة إلى يوم القيامة ، وبقى وجوبه فى حقّ النبىّ صلى الله عليه وسلم (ورتل القرآن ترتيلا) أى بينه بيانا ، واقرأه على تؤدة ، وتبين حروفه بحيث يتمكن السامع من عدّه مع الوقوف على كل آية كما تقدّم ، وذلك ليتمكن المصلى من حضور القلب ، والتأمّل والفكر فى حقائق الآيات ومعانيها ، فيستشعر العظمة والجلال بقلبه متى ذكر الله ، والرجاء والخوف عند الوعد والوعيد ، والاعتبار بالقصص والأمثال ، فنتيجة الترتيل حضور القلب ، فأما من يقرأ سورا كثيرة فى ركعة بحيث يكون هذّا كهذّ الشعر [الهذّ سرعة القطع] أى بسرعة وعجلة فذلك لاصلاة له ، ولقد قام النبىّ صلى الله عليه وسلم بآية من القرآن وهى : « ان تعذبهم فانهم عبادك وان تغفرلهم فانك أنت العزيزالحكيم » وقد أخبر صلى الله عليه وسلم بأنه سيأتى قوم يقرءون القرآن يقيمونه كما يقام السهم ، يتعجلونه ولايتأجلونه ، لايجاوز تراقيهم ، وهى جمع ترقوة ، وهو العظم الذى بين نقرة النحر والعاتق . ويقول ابن مسعود : « قفوا عند عجائبه وحركوا به القلوب ، ولايكن همّ أحدكم آخر السورة » (إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا) أى سننزل عليك القرآن وفيه الأمور الشاقة من الأوامر والنواهى عليك وعلى أتباعك ، وكما أنها تثقل عليكم فى العمل فهى فى نفسها راجحة الوزن ليست من سفاسف الأمور وخفافها ، فهوكلام رصين ، وهوأيضا ثقيل فى الوحى ، فقد جاء فى حديث البخارى ومسلم أن الوحى كان يأتيه صلى الله عليه وسلم أحيانا فى مثل صلصلة الجرس ، وهذا أشدّه عليه فيفصم عنه وقد وعى ماقال ، وأحيانا يتمثل له الملك رجلا فيكلمه فيعى مايقول ، وكان ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البردفيفصم عنه ، وإن جبينه ليتفصد عرقا ، ومعنى ينفصم : يفارق ، ومعنى يتفصدعرقا يجرى عرقه كما يجرى الدم من الفاصد ، فملخص ثقل القرآن فى أربعة أشياء : فى التكاليف ، وفى رجحان نفس القرآن من حيث

المتانة والبلاغة والمعنى ، وفى الشدّة على المنافقين لما ينالهم من الغم به ، وفى ثقل الوحى وشدّته عند نزوله ، فهو راجح الوزن ، ثقيل الوحى ، ثقيل التكليف ، ثقيل على المنافقين يغيظهم (إنّ ناشئة الليل) أى قيام الليل (هى أشدّ وطأ) قرئ وطاء كغطاء ، ووطأ كقلب : أى أشدّ موافقة ومواطأة ، لأنّ القلب واللسان والسمع والبصر تكون بالليل أكثر مواطأة منها بالنهار على الأوّل ، وأوطأ للقيام وأسهل على المصلى للعبادة والخلوة برب العباد ، فان الليل أفرغ للقلب من النهار ، ولا يعرض له فى الليل حوائج وموانع مثل النهار ، وأمنع من الشيطان ، وأبعد من الرياء ، وذلك على الثانى وهما متقاربان ، وقوله (وأقوم قيلا) وأثبت قراءة لأن القلب إذ ذاك حاضر ، والأصوات هادئة ، وأبين قولا ، ثم ان الناشئة مصدر نشأ إذا قام ونهض كالعافية ، ويجوز أن يقال : النفس الناشئة التى تنهض من مضجعها للعبادة (إنّ لك فى النهار سبحا طويلا) تقلبا فى مهماتك واشتغالا بها ، فعليك بالتهجد ، فان مناجاة الرب يعوزها الفراغ والتخلى (واذكر اسم ربك) ودم على ذكره ليلا ونهارا بالتسبيح والتهليل والتحميد والصلاة وقراءة القرآن (وتبتل إليه تبتيلا) انقطع إليه بالعبادة ، وجرّد إليه نفسك عما سواه ، هو (ربّ المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا) لأن اختصاصه بالألوهية يوجب أن توكل الأمور إليه (واصبر على مايقولون) فيك وفى ربك مما تقدّم ذكره (واهجرهم هجرا جميلا) بالمداراة والمجانبة وعدم المكافأة (وذرنى والمكذبين) دعنى وإياهم وكل أمرهم إلىّ ، فأنا لست فى حاجة إليك فى مكافأتهم ومجازاتهم (أولى النعمة) أرباب التنعم ، وهم صناديد قريش (ومهلهم قليلا) امهالا أوزمانا قليلا (إنّ لدينا أنكالا) هذا علة لما قبله ، جمع نكل : قيودا ثقيلة (وجحيما) نارا محرقة (وطعاما ذا غصة) غيرسائغ فى الحلق لا ينزل ولا يخرج ، وهوالزقوم وغيره (وعذابا أليما) وجيعا (يوم ترجف الأرض والجبال) يتزلزلان ويتحركان ، وهو يوم القيامة (وكانت الجبال كثيبا مهيلا) الكثيب الرمل المجتمع ، يقال : كثبت الشىء اذا جمعته فهو كثيب : أى مكثوب ، والمهيل هوالذى اذا أخذت منه شيئا تبعك : أى منثورا (إنا أرسلنا إليكم) يا أهل مكة (رسولا شاهدا عليكم) يشهد عليكم يوم القيامة بالتكذيب والكفر (كما أرسلنا إلى فرعون رسولا) وهو موسى عليه السلام (فعصى فرعون الرسول) المتقدّم (فأخذناه أخذا وبيلا) ثقيلا (فكيف تتقون ان كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا) أى فكيف تتقون فى الآخرة عذاب يوم يجعل الولدان شيبا ان كفرتم فى الدنيا ، فهو يجعل الولدان شيبا من شدّة هوله ، وهذا تمثيل لشدّة ذلك اليوم ، فانّ الهموم تضعف القوى وتسرع بالشيب ، ثم وصف اليوم بالشدّة أيضا فقال (السماء) على عظمتها وشدّة إحكامها تنفطر به وتنشق فكيف يكون غيرها من الخلائق ، وقوله (منفطر) إنما ذكر على تأويل السماء بالسقف فهو منشق (به) أى بيوم القيامة : أى انها تنفطر بسبب شدّة ذلك اليوم وهوله (كان وعده مفعولا) أى وعد الله كائنا (إنّ هذه) الآيات المشتملة على الوعيد (تذكرة) موعظة (فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا) أى فمن شاء اتعظ بها واتخذ سبيلا إلى الله بالتقوى والخشية (إنّ ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثى الليل) أى أقلّ منه وأكثرمن النصف (ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك) أى تقوم أنت وطائفة من المؤمنين (والله يقدّر الليل والنهار) إذ لا يعلم مقادير ساعاتهما على الحقيقة إلا هو (علم أن لن تحصوه) أى لن تحصوا تقدير الأوقات ، ولن تستطيعوا ضبط الساعات (فتاب عليكم) بالترخيص فى ترك القيام وعفا عنكم ورفع المشقة عنكم (فاقرءوا ماتيسر من القرآن) أى فصلوا ماتيسر عليكم من صلاة الليل ، فصار التهجد على أى وجه كان واجبا غير مقيد بنصف ولا غيره ، ثم نسخ بالصلوات الخمس (علم أن سيكون) أى أنه سيكون (منكم مرضى) فلا يقدرون على القيام بالليل (وآخرون يضربون فى الأرض) يسافرون حال كونهم (يبتغون من فضل الله) من رزقه بالتجارة أوطلب العلم (وآخرون يقاتلون فى سبيل الله) فلا فرق فى الاسلام بين الجهاد فى قتال العدو

والجهاد فى التجارة لنفع المسلمين وطلب العلم . قال ابن مسعود رضى الله عنه : « أيما رجل جلب شيئا إلى مدينة من مدائن الاسلام صابرا محتسبا فباعه بسعر يومه كان عند الله من الشهداء ، ثم قرأ عبد الله قوله تعالى : « وآخرون يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون فى سبيل الله » (فاقرءوا ماتيسر منه) يعنى ، صلوا وأعاده للتكرير (وأقيموا الصلاة) المفروضة ، كأنه يقول : صلوا وداوموا على الصلاة وقوّموها ، فلاتكون قلوبكم غافلة ، ولا أفعالكم خارجة عن النظام المطلوب لها (وآتوا الزكاة) الواجبة (وأقرضوا الله قرضا حسنا) بالنفقات الأخرى فى سبيل الخيرات ، لأن ذلك باق لكم عند الله (وماتقدّموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله) أى تجدوا ثوابه ، وقوله (هوخيرا) مفعول ثان لتجدوه ، وهو ضمير الفصل (وأعظم أجرا) من الذى تؤخرونه إلى الوصية عند الموت (واستغفروا الله) فى جميع أحوالكم (إنّ الله غفور رحيم) يستر على أهل الذنوب والتقصير . انتهى التفسير اللفظى للسورة كلها ، والحمد لله رب العالمين .

فى هذه السورة لطيفتان

(١) فى قوله تعالى : « ورتل القرآن ترتيلا » .

(٢) فى قوله تعالى : « وآخرون يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله » الخ .

اللطيفة الأولى فى قوله تعالى : ورتل القرآن ترتيلا

مع قوله تعالى : « فاقرءوا ماتيسر من القرآن »

فههنا أمران : قراءة القرآن ، وترتيله . أما قراءة القرآن فقد فسر بها قوله تعالى : « فاقرءوا ماتيسر منه » أى من القرآن ، وذلك بدراسته وتحصيل حفظه ، وألا يعرّض للنسيان ، فيقرأ القرآن عشر آيات فى اليوم والليلة ، أوعشرين فيهما ، أوأربعين ، أوخمسين ، أومائة ، أومائتى آية ، أوخمسمائة آية ، وقد ورد فى كل ذلك أحاديث ، والمقصود أن الانسان لايغفل عن قراءته ولوعشرآيات فى اليوم والليلة ، أما اذا زاد كثيرا فليس بمحمود ، ألاترى إلى عبدالله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما فى الصحيحين قال « قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألم أخبر أنك تصوم الدهر وتقرأ القرآن كل ليلة ؟ قلت بلى يارسول الله ولم أرد بذلك إلا الخير ، قال فصم صوم داود ، وكان أعبد الناس ، واقرأ القرآن فى كل شهر مرّة ، قال قلت يانبىّ الله : إنى أطيق أفضل من ذلك ، قال فاقرأه فى كل عشر ، قال قلت يارسول الله إنى أطيق أفضل من ذلك ، قال فاقرأه فى سبع ولاتزد على ذلك » .

فقد نهاه صلى الله عليه وسلم أن يتجاوز سبع القرآن كل يوم وليلة ، فأنزله بذلك إلى سبع ما كان يقرأ فى كل يوم وليلة ، والقصد من هذا النهى أن يرتله و يقف على معناه .

ولقد ورد فى الخمسين آية وماقبلها من الأربعين والعشرين والعشرة أن صاحبها لا يكون من الغافلين ، وورد فى المائة أنه يكون من القانتين ، وفى المائتين أن القرآن لايحاجه ، وفى الخمسمائة أنه يكون له قنطار من الأجر ، وهذه الأحاديث وان لم تكن فى الصحاح فانها تدلنا على ما كان عليه آباؤنا فى الصدر الأوّل . أما حديث عبد الله بن عمرو بن العاص فهو فى الصحيحين .

الكلام على ترتيل القرآن

وأما ترتيله فقد مرّ بيانه ، وملخصه :

(١) انها تكون مدّا .

(٢) وأن يقرأ بسم الله الرحمن الرحيم يمدّ ببسم الله ، ويمدّ بالرحمن ، ويمدّ بالرحيم .

(٣) وتكون القراءة مفسرة حرفا حرفا .

(٤) ويقول [الحمد لله رب العالمين] ويقف .

(٥) ويقول [الرحمن الرحيم] ثم يقف ، ويقول [مالك يوم الدين] ثم يقف ، ومعنى هذا أنه يقطع قراءته آية آية ، ويروى أنه صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة كان يقرأ على ناقته سورة الفتح فرجع فى قراءته .

هذا ملخص ما جاء فى أحاديث البخارى والنسائى والترمذى ومسلم ، وبهذا تمّ الكلام على اللطيفة الأولى فى قوله تعالى : « ورتل القرآن ترتيلا » ، والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة الثانية

فى قوله تعالى : وآخرون يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله

هاأناذا نقلت لك كلام ابن مسعود فى تفسير هذه الآية : أن التاجر الصالح يكون كالمجاهد ، وأقول لك الآن ما قاله ابن عمر : ما خلق الله موتة أموتها بعد القتل فى سبيل الله أحبّ إلىّ من أن أموت بين شعبتى جبل أضرب فى الأرض أبتغى من فضل الله .

فهذا عبد الله بن مسعود ، وهذا ابن عمر كلاهما يفسر الآية بهذا ، فقد سوّيا بين السفر لطلب الرزق وبين الجهاد ، وأن الموت فى كل منهما شهادة ، واذا كنا نسمع الأئمة رضى الله عنهم يستدلون بقوله تعالى « فاعتبروا ياأولى الأبصار » على ربع الأحكام الفقهية ، وهو القياس ، لأن أصول الفقه ترجع إلى الأربعة : الكتاب ، والسنة ، والاجماع ، والقياس . فاذا كان ربع علم الفقه يرجع إلى القياس المبنى على هذه الآية فكيف يكون الأمر بالآية التى نحن فيها ؟ وهى قوله تعالى : « وآخرون يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون فى سبيل الله » ؟ .

ياليت شعرى : ماذا يكون فى هذه الآية للمسلمين الذين هم الآن ثلثمائة وستون مليونا ؟ هؤلاء المسلمون الذين أخنى عليهم الدهر ، لماذا ؟ لأن تعاليمهم ناقصة بتراء ، إنّ علماء الاسلام قد دفنت منهم هذه الآية دفنا ، ومعنى هذا أنهم واروها عن العيون ودفنوها بين دفتى المصحف : أى لم يظهروها للأمة الاسلامية مشروحة كما شرحت الصلاة والزكاة .

أيها المسلمون : عجبت لكم ! كيف تكون الصلاة ؟ وكيف تكون الزكاة ؟ فوالله لازكاة ولاصلاة ولاحج ولاعلم ولاعمل اذا لم يكن عند الأمة ثروة ، إذن تكون الثروة والقوّة مقدّمتان على الزكاة وعلى الحج ، ومن أين يزكى الناس إلااذا كان عندهم مال ، ومن أين يحجون اذا لم يكن عندهم مال ، بل كيف يصلون اذا كانوا جياعا لامال عندهم ، بل كيف يصلون ويصومون ويحجون اذا لم تكن بلادهم آمنة مطمئنة ، ولاتكون البلاد آمنة مطمئنة من لصوصها فى الداخل ، ومن أعدائها فى الخارج ، إلا اذا كانت الدولة ذات مدافع وطيارات وجيوش جرّارة ، وكيف يتمّ ذلك إلابمال ونظام وحكومة ؟ .

يا أمة الاسلام : أليس ذلك كله قبل الزكاة : أى ان وجود المال مقدّم على وجود الزكاة والحج والجهاد فى سبيل الله .

يا أمة الاسلام : ألم يقل الفقهاء : [إن مالايتمّ الواجب إلا به فهو واجب] وقد استنتجوا من هذه

القاعدة فروعا كثيرة ، منها أن الانسان اذا غسل يديه إلى المرفقين يجب عليه أن يغسل وراء المرفقين جزءا من باب مالايتمّ الواجب إلا به فهو واجب ، بل هم قالوا أيضا قولا اجماليا : ان العلوم والصناعات كلها واجبة على الأمة وجوبا كفائيا .

فليخصص لكل علم ولكل صناعة طائفة من الأمة يكون استعدادهم أقرب لذلك من غيرهم ، لقد راعى الله ذلك وأراده فذكر الضرب فى الأرض والابتغاء من فضله قبل أن يذكر الجهاد . فكأنه جعل كل الامور المعاشية مقدّما على الجهاد ، فهو إذن كالطهارة التى لاتصح الصلاة إلا بها ، فإذا قال الفقهاء : انه يجب على المصلى أن يقدّم الطهارة لتصح الصلاة فليقل علماء الاسلام الآن بأعلى صوت : ليقدّم علوم الصناعة والسياسة والتجارة واستخراج المعادن ، وعلوم طبقات الأرض ، وعلوم نظام أمم أوروبا ، وعلوم نظام المدارس ، وعلوم نظام الطيران فى الجوّ ، وعلوم السفن فى البحر ، وعلوم الرياح ، وعلوم الكهرباء ، وعلوم المغناطيس ، وعلوم الغوّاصات ، وعلوم الغازات الخانقة ، وعلوم الكواكب الثابتة ، وعلوم الكواكب السيارة ، وعلوم النبات ، وعلوم الحيوان ، وعلوم الطب ، وعلوم البيطرة ، إلى غير ذلك .

ليقل علماء الاسلام : فلتتقدّم هذه العلوم وهذه الصناعات على المدافعة عن الأوطان التى هى بعض أنواع الجهاد ، إذ لاتمكن المدافعة عن البلاد اليوم إلا بهذه العلوم وبهذه الصناعات ، وإذا كان الجهاد واجبا ، فهذه مقدّماته ، ومالايتم الواجب إلا به فهو واجب ، وإنما الفرق بين هذه العلوم وبين الوضوء للصلاة أن الوضوء يجب على الفرد وأن هذه العلوم تجب على المجموع . إن المسلمين ناموا عن الواجب الكفائى الذى يعمّ الأمة كلها غفلة وجهالة ، أوماعلموا أن فرض الكفاية اذا فات ماتت الأمة . أما فرض العين فانه اذا فات لم يستضرّ به إلا الذى أهمل فيه . ففرض الكفاية عظيم جدّا جليل ثمرته جليلة ، والثواب عليه لاحدّ له ، وضياع البلاد والعباد مرتب على اهماله ، ولذلك نرى أن أمتنا الاسلامية لما جهلت هذا الفرض تخطفتها أمم أوروبا .

أمة الاسلام التى نراها اليوم ساكنة ساكتة وأمم أوروبا تتفق معا لقتل أهل مراكش الذين يحاربون مع الأمير عبد الكريم ، حتى ان أمريكا أرسلت طيارات لمساعدة فرنسا واسبانيا ضده ، وأنا أكتب هذه السطور ، وأمم الاسلام لضعفها وقلة الحكماء فيها لاتبدى حراكا لجهلها وخوفها من أوروبا ، ولأنّ أغلب بلاد الاسلام فى أيدى الفرنجة ، ألا قاتل الله الجهالة .

فيا ألله : كيف غفل العلماء قديما ؟ أستغفر الله ، انهم ماغفلوا ، ان ماقلته مستمدّ من كلامهم ، ولكن أقول : أهملوا ، أهملوا ، أهملوا : أى أهمل الأمر صغارهم ، أما حكماؤهم فقد وضحوه ولم يصل لعامة المسلمين . ترك العلماء ملوك الاسلام يجيشون الجيوش ويقهرون الأعداء بقوّة السياسة والسيف ، ولم يساعدهم العلماء بما يقوّى أركان دولهم ، كان يجب أن يبثوا فى الشعب ما ذكر فى بطن الكتب أن ذلك كله جهاد ، كان يجب أن ينتشر فى البلاد ، كان يجب أن تؤلف له كتب كما ألف للصلاة والزكاة والبيوع والفرائض .

فياليت شعرى من أين يكون بيوع أومواريث أوقضايا وعبادات اذا لم تكن البلاد فيها كل ماتحتاج إليه ؟ فكيف أطلنا نحن المسلمين فى الثمرات ولم نطل فى الشجرات ، الثمرات هى الشرائع والأحكام والعبادات كالهبة والميراث والبيع والصلاة والزكاة ، ولم نطل فى الأصول : أى فى الأشياء نفسها المخلوقة كالنبات والحيوان والمعادن والزراعة والتجارة والسياسة والعلوم الحديثة والقديمة ، لم نطل فى هذه مع أنه لادين ولاشرع إلا بعد توافر تلك الأسباب كما جعلت الطهارة قبل الصلاة ، فمن لم يتوضأ فلاصلاة له ، هكذا فى الأمم اذا لم يكن لديها ماتحتاج إليه بمناسبة زمانها فلاشريعة لها ولاجهاد ولاعبادات ولابيوع ، لأن مرافقها تصبح بيد غيرها ، وتكون محبوسة فى يد دولة أجنبية تذلها وتفعل بها مافعل الانسان فى الحيوان من ذبح وحمل عليه

وإذلال .

علم الله أن أمة الاسلام ستنسى هذه الواجبات بغفلة صغار العلماء ، وعلم أننا سنصبح فى يد أوروبا فأنزل هذه الآيات لنتفطن لها ونقرأها ونفهم معناها ، فقدّم الضرب فى الأرض والابتغاء من فضل الله على الجهاد من باب تقديم المقدّمات على النتائج ، وتقديم الوضوء على الصلاة ، وقد أخذ الشافعى رضى الله عنه فى الوضوء بحديث : « ابدءوا بما بدأ الله به » ولذلك أوجب غسل الوجه قبل غسل اليدين ، وهكذا مابعدهما مراعاة لهذا الحديث ، واذا كانت مسألة الوضوء التى لاتخرب دولة اذا قدّم الوجه على اليدين أو بالعكس قد تحرّى لها الأئمة إلى هذا الحدّ وقدّموا ماقدّمه الله ، أفلا يكون مايقال هناك يقال هنا ، وهو أن نظام الأمة يجب العناية به حتى يتسنى لنا الجهاد ، إذ لاجهاد إلا بما يقيم أمر البلاد من تجارة وصناعة وزراعة واصلاح طرق وكهرباء وبخار وقطارات حديدية وهكذا مما لايمكن حصره الآن من العلوم .

ولعلك تقول : هناك أمور واجبة وهنا أمر مباح ، نقول : إن هذا هو الخطأ فى الفهم ، هذا المباح الذى ذكرته قد أقررت بأنه فرض كفاية فأصبح واجبا على الأمة ، فلابدّ من أن الحكومات الاسلامية تخصص لكل طائفة من الأمة أعمالا مما تجب فى الوقت الذى هى فيه ، ولعلك تذكر ما نقلته عن مدارس أمريكا فى [سورة آل عمران] وأنهم يعلمون فى المدارس من الصناعات التى تبلغ نحو سبعة آلاف صنعة نحو مائتى صنعة لتلاميذ المدارس ، وأن الصناعات عامة هناك ، وأن الصانع هناك يعتبر كالمهندس وكالطبيب وكالقاضى وما أشبه ذلك .

لعمرك ان هذا هو الحق ، وان هذا هو ديننا ، ديننا الذى يقال فيه : « وآخرون يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله » العلم ، يبتغون من فضل الله الصناعة : المعدن من الأرض ، طبقات الأرض ، سياسة الأمم ، علوم الجوّ ، علوم السفن ، وهكذا مما أسلفناه ، كل هذه داخلة فى قوله : « يبتغون من فضل الله ، وجعل الذين يقاتلون فى سبيل الله فريقا ، وهذا الفريق أخره ، وانما أخره لأجلنا نحن الآن لأجل أن أقول فى هذا التفسير لكم اقرءوا كلام ابن مسعود ، واقرءوا كلام ابن عمرو بن العاص وانظروا أليس المعنى عندهما هو ماقررناه ؟ ولأجل أن أقول : قد قدّم الله هذه العلوم والصناعات على الجهاد كما قدّم الوضوء على الصلاة ليعلم المسلم أنه ان حفر فى طبقات الأرض لاستخراج المعادن فهو فى سبيل الله ، وان تاجر فهو مجاهد فى سبيل الله ، وان قرأ علم البيطرة فهو مجاهد فى سبيل الله ، وان قرأ علم النبات فهو مجاهد فى سبيل الله ، وان قرأ علم الحيوان فهو مجاهد فى سبيل الله ، وان قرأ علم السياسة فهو مجاهد فى سبيل الله ، وان قرأ علم الطيارات فهو مجاهد فى سبيل الله ، وان قرأ الغوّاصات فهو مجاهد فى سبيل الله ، وان قرأ علم الفلك فهو مجاهد فى سبيل الله ، بل هو مقدّم على من يقاتل الأعداء ، لأنه لايتمّ قتال العدوّ إلا بهذه العلوم ، ومن أصلح الطرق الحديدية وأتى عليها بالقطارات فهو مجاهد فى سبيل الله ، وهكذا ، فياليت شعرى لم لانؤلف كتب هذا كثيرة ؟ انتهى .

قاعدة عامة لحياة الأمم

اعلم أن الله عزّوجل لما خلقنا فى الأرض أعطانا مواهب ، وهى الأعضاء والحواس والعقول ، وأعطانا منحا خارجة ، وهى الأرض وما أقلت ، والسماء وما أظلت ، وأوجب علينا أن نستعمل النعمتين : نعمة أنفسنا ، ونعمة الآفاق ، فيجب علينا أن نقوّى الأعضاء كاليدين والرجلين وسائر الأعضاء بالتمرين والحركات العضلية والمشى ، أو الأعمال فى الصناعات ، وأن نبحث فيما حولنا ، وفى الأرض والسماء ، لنستخرج ما كمن فيهما من المواهب الطبيعية والفلكية ، وهكذا لنقوّى حاسة السمع والبصر فينا ، وهكذا قوّة الخيال والذاكرة

والمفكرة والحافظة والواهمة ، وقوّة اليد بالكتابة والصناعات ، فاذن يجب علينا تقوية الأعضاء الخارجة والحواس الظاهرة والحواس الباطنة بالطرق العلمية المذكورة فى محالها . كل ذلك مأخوذ من قوله تعالى : « وآخرون يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله ، وآخرون يقاتلون فى سبيل الله » .

العبادة والأعمال الأخرى

هذه [سورة المزمّل] ابتدئت بالعبادة بالصلاة بالليل ، وكان النبىّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه يصلون نصف الليل ، أو أكثر أو أقل ، متى كان ذلك ؟ كان ذلك قبل أن يستفحل أمر الاسلام ، وتقوم الدولة على أساس متين ، فلما اتسع نطاق المسلمين هاجر قوم إلى الحبشة ، وآخرون إلى المدينة ، واتسع نطاق التجارة ، فلما حصل ذلك وسع الله لهم نطاق العمل ، فبعد أن كان صلاته فى جوف الليل تستغرق ثلثيه أو نصفه أصبح القوم فرقا شتى : ففرقة شغلها أمر التجارة ، وفرقة شغلها أمر الجهاد وهكذا ، لذلك وسع الله أمر الطاعة وجعلها شاملة كاملة ، وأفاد الناس أن هذه الأعمال هى من طاعات الله ، بل أقول ان الأمر فوق ذلك فانا اذا وجدنا انسانا يصلح لعلوم الزراعة ، أو لنفس الزراعة ، أو لأى عمل من الأعمال ، ووجدناه اشتغل بالعبادة أو الصوم وجب قهره والضغط عليه وعقابه ليتخذ له عملا لسعادة نفسه وأمته ، فمن قدر على علم أو صناعة نافعة للعموم فذلك أفضل ، فان عجز فليعمل عملا نافعا فى تجارة ، أو اغاثة الملهوف ، أو نحو ذلك ، فان عجز عن هذا كله فليلتزم العبادات ليلا ونهارا ، فانّ الصحابة لما لم يتسع نطاق أعمالهم كلفوا بالعبادات الشاقة ، فلما كثرت عليهم الأعمال وقويت شوكتهم عملوا وعدّ ذلك من الجهاد ، ولو كان الانهماك فى العبادة أفضل لأمر الله بذلك ، ولكن الله صرف الناس عن المشاق فى صلاة الليل إلى المشاق فى التجارة عند الاقتضاء فذلك هو أفضل من صلوات النوافل ، فلا فرق بين علم وعلم ، ولا بين صناعة وصناعة ، كل ذلك حقا أفضل من العبادة كما قاله علماؤنا ، وكما نص عليه الامام الغزالى فى [بداية الهداية] .

فعلى حكام المسلمين أن يقهروا رجال الصوفية جميعا على الأعمال ، وأن يستخرجوا أناسا يصلحون للأعمال من التكايا ليعملوا أو ليتعلموا صناعات أو علوما نافعة للأمة ، وحرام أن يترك المسلمون سبهللا بدون ضابط ولا قانون .

جلّ الله : يقول الله فى أوّل السورة : « يا أيها المزمّل قم الليل إلا قليلا » أخرجه وأخرج أصحابه من فراشهم إلى الصلاة ، ثم أخرجهم من الصلاة : أى من الاكثار منها إلى الجهاد العام الذى يشمل كل علم وكل صناعة ، كأنه تعالى بهذه الاشارة يقول : اذا كان نبيكم وهو مزمّل فى ثيابه وهو أكثركم طاعة قد أمرناه بالقيام فهكذا أنتم وأنتم أقلّ منه طاعة لنخرجكم إلى العبادات والى الأعمال وأن تكونوا كالمرسلين ، النبىّ صلى الله عليه وسلم لم يكن كاسلا قط ، بل كان مستمرا فى طاعة ربه على دين الخليل وقد نزل له الوحى ولما ارتجف فؤاده وزمّلوه فى ثيابه أمره أن يقوم الليل فمن باب أولى أمته الذين هم مقصرون فى جميع أعمالهم حثهم الله على العمل وعلى العبادات ، وكأنه يقول : اذا كان النبىّ قد زمّل فى ثيابه لحظة قد أمرته بالعمل فكيف بكم وأنتم لا تعملون وكل الأمم حولكم عاملة ؟ فأنتم كأنكم مزملون فى ثيابكم أبدا ، فقوموا للعبادة وقوموا لغيرها من علم وصناعة .

ومن عجب أنه لم يقرن الجهاد وابتغاء الفضل من الأرض والعبادة كلها معا فى سورة واحدة إلا هذه ، ولم يظهر فى سورة فضل الضرب فى الأرض مثل ما ظهر فى هذه السورة ، فكأنّ لفظ المزمّل تشير إلى أن كل ما يوجب الانقطاع عن العمل العام والعمل الخاص يجب أن يتخلص منه ، فكأنّ هذه السورة نزلت لحث الأمة على الأعمال كلها ، بل ان النبىّ صلى الله عليه وسلم مرسل لنا وقصّ الكلام علينا لارشادنا ، فان

هذا

هذا القرآن الآن إنما هولنا نحن الأحياء ننتفع به ، إن نزول هذه السورة بهذا الترتيب عجيب يوجب عليهم القيام بالليل ثم ينسخ الوجوب عليهم ويبقيه على النبيّ صلى الله عليه وسلم ويوجههم إلى الأعمال العامّة ، لماذا هذا كله ؟ ولماذا يقص علينا ؟ لابدّ أن يكون المقصد أن ننظر نحن الآن ، فكلما اتسعت أعمال الأمة شمرنا عن ساعد الجدّ وفتحنا أبوابا لأعمال جديدة ولانقف عند حدّ ، والله فتح لنا الباب فقال انظروا هاأناذا شغلتهم أوّلا بالعبادة ثم فرّقتهم فرقا للعبادة وللعلم وللجهاد وللتجارة ، فهكذا أنتم افعلوا مافعلته أنا مع الصحابة ، فان لم يكن إلا العبادة فبها ، وان كانت لكم دولة وأمة واتسع نطاق الأعمال فلاتدعوها وترجعوا للمساجد ، بل انتشروا فى الأرض وابتغوا من فضلى ، وأما صلاة الليل فهى نافلة لكم ، فافعلوا منها ماتقدرون عليه ، وإيا كم أن تشغلكم عما يهمكم من أمور الحياة الدنيا .

لقد تدهورت الأمة الاسلامية اليوم بالنسبة لقراءة القرآن ، وخالفت ما أمر به النبيّ صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح وما أمر الله به فى القرآن ، أليس من المحزن أن المسلمين اليوم فى مصر وما يماثلها يحفظون القرآن ويقرءونه صباحا ومساء يهذونه هذّا : أى يسرعون فيه اسراعا مع أن القرآن جاء لنتفكر فيه ، وانظر كيف يأمر النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يقرأ فى شهر ، ولما أطال ابن عمر القول عليه قال لاتزد عن سبعة أيام : أى ان ذلك أقلّ مايمكن الفهم فيه .

إن الأمة الاسلامية منيت ورزئت بطائفة من المحدثين أيام العصر الأوّل اخترعوا أحاديث ودوّنوها ، وزعموا أنهم بها يتقرّبون لله تعالى ، وذكروا فيها فضائل وصفات وثوابا لمن قرأ سورة كذا ، فظنّ الناس أن هذا حقّ فدرجوا عليه وقرءوا القرآن وهذّوه هذّا : أى أسرعوا فى قراءته ، وهذا واضح فى كتاب [الاتقان فى علوم القرآن] فأصبحت الأمة اليوم فريقين : فريق لايهتمّ بهذا الدين ولا بالقرآن ، وفريق يقرأ القرآن ولايتدبره ، ويقرؤه قوم فى رمضان مسرعين ، ويقرءون القرآن فى كل ثلاثة أيام ، أليس هذا من الجهالة العمياء ، قوم يحفظون القرآن ولايعقلون ، وقوم لايؤمنون بهذا الدين ، وهم أكثر من درسوا العلوم بأوروبا ، فالقرّاء والعباد قلوبهم فى غطاء وهم عنوان الاسلام ، فالناظر إليهم يقول هؤلاء عنوان الدين ، وماهم بعنوان الدين ، وإنما هم جهال الدين .

مزية الاسلام فى مستقبل الزمان

مزية الاسلام أنه سيعمل بهذه السورة وتفرّق الأعمال على مجموع الأمة كما ظهر فى [سورة البقرة] ووضح هناك فاقرأه ، وأن تكون جميع العلوم منظورا فيها جهة الحياة الدنيا وجهة خالقها ، فتكون كل حرفة وكل علم مشوّقة إلى خالق هذا العالم على نحو مابينا فى هذا التفسير فيكون رجال الدين من هذه الأمة ملمين بأكثر العلوم إجمالا ، وعليه يبعثون فى كل علم همم أربابه إلى استكناه حقائقه مع التشويق لمبدعه من طريق هذا العلم والصناعة التى يكون المرء قائما بها ، والمتصفح لهذا التفسير يقدر أن يفعل ذلك فى كل علم وكل صناعة ، فان فيه من كل فنّ طرفا مطبقا على الدين مذكورا فيه الجهة الإلهية المعشقة للمقام الأقدس ، وهذه المزية توجب النبوغ فى العلوم ، وتكون هذه الأمة أرقى الأمم وأعلاها علوما وصناعات .

غرور المسلمين اليوم

كم من مسلم سمع حديثا مرويا فى فضل الحج ، أوفى فضل الصلاة ، أوفى فضل قراءة القرآن ، أوفى فضل الصدقة ، أوفى فضل عيادة المريض فهيأ له عقله ، وسوّلت له نفسه ، ودله شيخه أن الانقطاع إلى تلك الطاعة والاكثار منها أفضل ، وحينئذ يصبح ذلك المسلم مغرورا ، إن المغرورين من المسلمين قد أوضحناهم

فى سورة [آل عمران] عند قوله تعالى : « وغرّهم فى دينهم ما كانوا يفترون » فقد لخصنا ما قاله الامام الغزالى هناك ، واستبان فى ذلك المقام أن المسلمين اليوم مغترون ، وهذا الغرور ورثناه عن القرون المتأخرة إذ أصبح المسلمون لامرشدين لهم فتركوا وشأنهم يتخبطون فى دياجير الجهالة ، واستنام كل فريق فى طاعة من الطاعات ، فكل واحد من صالحى الامة أصبح مشغولا بعمل من الأعمال الصالحة كقراءة الأوراد التى وضعها الشيوخ ، وكالحج ، وكقراءة القرآن ، و يكثرون من ذلك ، و يتركون الأمة ولايفكرون فيها ، ولافى صناعاتها ، ولافى علومها ، ولافيما يحفظ كيانها .

كل ذلك ابتلاء من الله للأمة ، وسيقيض من قرّاء هذا التفسير ومن غيرهم من يفهمون الأمة أن العلوم كلها والصناعات عبادات وجهاد ، وأن قوله تعالى « يبتغون من فضل الله » بعد قوله « وآخرون يضربون فى الأرض » يشمل كل علم وكل صناعة ، وأن اختيار لفظ « من فضل الله » وعدم ذكر لفظ التجارة التى كانت أهمّ أغراض الصحابة فى الأعمال الدنيوية قد نظر فيه من جناب القدس الأعلى إلى مانحن فيه الآن ، ففضل الله أعمّ من العلوم والصناعات وكل مايحتاج إليه فى هذه الحياة الدنيا .

انظر ماتقدّم فى سورة [آل عمران] فهناك تفصيل المغرورين كما ذكرت لك وتفصيل مايجب على الأمة من تعميم العلوم الخ وكيف يتحد أبناء العرب من مراكش إلى العراق ، وكيف كانوا متفرّقين بالجهالة ، فكم من امرئ قرأ الأحاديث الموضوعة ، أوالضعيفة المروية فى فضل عمل من الأعمال وفوّت على نفسه وعلى أمته مزايا نفسه وما انطوت عليه من شمائل شريفة ، ومزايا منيفة ، وعلوم لطيفة ، وصناعات دقيقة ، وجهل أن هذه المذكورات من أجلّ مايبتغى دين الاسلام .

نام العلماء ولم يذيعوا أمثال مانقله السيوطى رحمه الله فى كتاب الاتقان عن قوم من المحدثين ، وكيف كثر فى القرون الأولى وذاع وملأ الأصقاع ، تلك الأحاديث الواردة فى فضل السور القرآنية وقراءتها ، وكيف كان أحد التابعين يدهش حينما يسمع تلك الروايات ، فركب ناقته وسافر أياما وأياما وقابل الراوى الذى روى الحديث ، فدله على من تلقاه عنه ، فسافر إليه عشرات الأيام ، كل ذلك وهو يضرب فى الأرض يبتغى احقاق الحق وإبطال الباطل حتى وصل إلى من أذاع هذا الحديث ، فوجده رجلا زاهدا صالحا ، فقال له : كيف تقول انك رويت كذا عن فلان وأنا لم أروه عنه ؟ فقال ذلك الصالح : انى أنا الذى زوّرت هذه الأحاديث لوجه الله تعالى ، فقال وكيف ذلك ؟ قال : لأنى وجدت المسلمين قد أكبوا على علم الفقه الذى أذاعه أبوحنيفة النعمان ، نخفت أن يترك المسلمون القرآن اذا اشتغلوا بعلم أبى حنيفة ، فقلت هذه الأحاديث ورويتها وأذعتها ليحفظ القرآن ، فأكثر المسلمين اليوم مسحورون بأمثال تلك الأحاديث وهم تاركون لشئون دينهم ، ثم ان القرآن يقرأ لمجرّد التلاوة لا للفهم ، وهذه من الطامات الكبرى .

إنّ الله خلقنا فى الأرض ورزقنا مواهب بدنية ، ونعما أرضية ، ومنحا سماوية ، وقال : ياعبادى : هذه نعمى فاشكروها ، وهذه آياتى فابتغوها ، وهذه أرضى فاضربوا فيها ، وزينوا أنفسكم بالعلوم والصناعات ، واستخرجوا كنوزى ، فانى وعزّتى وجلالى ماخلقتها باطلا ، ولاأودعتها أرضكم لتكون عبثا عليها بلاعائدة ، فلم خلقت فيكم الأسماع والأبصار ، ولم علمتكم سبل الاستبصار ، ولم زوّدتكم بنعمة العقل ، ودقة السمع ، وبهجة البصر ، وأعطيتكم أقوى سلاح من الأعضاء الظاهرة والجوارح القوية ، ومكنتكم فى الأرض تمكينا وسلطتكم عليها تسليطا ، وقلت لكم : هاهى ذه أرضى فاعمروها ، وهذه حواسكم وجوارحكم فلاتهملوها ، وأنزلت عليكم فى كتابكم وآخرون يضربون فى الأرض يبتغون من فضلى فيها .

ويقول للمسلمين : لاعقولكم اتبعتموها ، ولا آياتى فهمتموها ، ولانعمى قبلتموها ، ولا حواسكم توليتموها

ولاجوارحكم مرتقوها ، فهل أعطل نعمي لأجل جهلكم ، أوأبقى أرضى بلا زرع لغفلتكم ؟ كلا . فأنا الحكيم العليم ، فان توليتم عن اصلاح حواسكم وجوارحكم وعمارة أرضكم بطشت بكم وسلمتها لغيركم جزاء وفاقا ، الأرض أرضى ، والناس عبادى ، وأنا عالم من هو الذى يصلح لاستخراج ثمراتها والقيام بأمرها ، فهذا هو الذى أسلمه قيادها .

أيها المسلمون : كنتم قديما أولى من غيركم فسلمتكم قياد أرضى ، والآن وجدت تعاليمكم مشوّهة ، وعلومكم منحرفة ، ودروسكم مظلمة ، فسلبتكموها وأعطيتها لغيركم ، وهاهوذا آن الأوان لظهور مالم يظهر من كوامن غرائزكم ، وبواطن أرضكم ، ومزايا نفوسكم ، واشراق علومكم ، ولذلك بدت طلائع العلم والحكمة فى بلاد الاسلام ، وظهر أرباب العقول اليوم فى بلاد العرب والترك والفرس ، وسيزداد الأمر وتأخذ الأمم الاسلامية مكانتها : « اعلموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون » انتهى تفسير سورة المزمّل صباح يوم الثلاثاء ٢١ يوليو سنة ١٩٢٥ م وهو التاسع والعشرون من شهر ذى الحجة الحرام من سنة ١٣٤٣ هجرية ، والحمد لله رب العالمين .

تفسير سورة المدثر

هى مكية

آياتها ٥٦ — نزلت بعد سورة المزّمل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ * وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ * وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ * فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ * فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ * عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ * ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً * وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُوداً * وَبَنِينَ شُهُوداً * وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيداً * ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ * كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيداً * سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً * إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ * فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ * إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ * سَأُصْلِيهِ سَقَرَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ * لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ * لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ * عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ * وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَاناً وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ

مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ * كَلَّا وَالْقَمَرِ * وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ * وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ * إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ * نَذِيرًا لِلْبَشَرِ * لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ * كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ * إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ * فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ * عَنِ الْمُجْرِمِينَ * مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ * قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ * وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ * حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ * فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ * فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ * كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ * فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ * بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُنَشَّرَةً * كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ * كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ * فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ * وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ *

مقاصد هذه السورة

[أولا] ست أوامر للنبيّ صلى الله عليه وسلم وهى :

(١) الانذار .

(٢) وتكبير الله .

(٣) وتطهير الثياب .

(٤) وهجر مايؤدّى إلى العذاب .

(٥) والاتمنّ على أصحابك بما تعلمهم من أمر الدين وتبلغهم من أمر الوحى كالمستكثر بذلك عليهم ، ولاعلى الفقراء بما تعطيهم استكثارا منك لتلك العطايا ، فتعليمك وعطاياك يجب أن تكون موجهة لجناب الحق مع الاخلاص وعدم المنة على المتعلمين ، ولاعلى الفقراء ، فان الخلق عباده ، وأنت جعلت أبا لهم ، هذا فى أمر أصحابك وأتباعك .

(٦) فأما الكفار بك والمؤذون لك فاصبر على أذاهم ، فتى فعلت ذلك كنت شاكرا صابرا .

[ثانيا] تبيان العقاب المنزل على من خالف الدين وعاند الرسول دلالة على أن صبره صلى الله عليه وسلم عليهم عاقبته النصر له فى الدنيا والآخرة وخذلان المعاندين ، وذكر من هؤلاء أوصاف الوليد بن المغيرة وأنه أعطى مالا وفيرا وعشرة بنين ورئاسة ووجاهة ، فعاقبه الله بعد نزول هذه السورة فنقصت أحواله كلها فى الدنيا : « ولعذاب الآخرة أخزى » ، وذكر كيف استهزأ برسول الله صلى الله عليه وسلم وأدبر واستكبر وذمّ القرآن وجعله سحرا ، وأنذرعلى ذلك بسقر ، ثم وصفها بأنها عليها تسعةعشرصفا من الملائكة إلى آخر ماسيأتى من عظيم أمرها ، وذكر أن كل نفس مرهونة بعملها ، وأن أهمّ أعمال أهل النار ترك الأعمال وتعطيل القوى ، فلاعقولهم يفكرون بها إذ يعرضون عن التذكرة كالحمر المستنفرة الفارّة من الأسد ،

ولا

ولاجوارحهم يستخدمونها فى الأعمال كالصلاة وغيرها ، ولأموالهم يشكرون الله عليها فيعطون منها الفقراء .
هذا ملخص السورة إجمالا ، والحمد لله رب العالمين .

المقصد الأول

المدثر هو لابس الدثار فإنه تأذى من قريش فتغطى بثوبه مفكرا ، وكان نائما متدثرا فنزلت ، وفى البخارى ومسلم أن النبى ﷺ قال : جاورت بحراء شهرا ، فلما قضيت جوارى هبطت فنوديت فنظرت عن يمينى فلم أر شيئا ، وقال مثل ذلك فى الشمال والخلف وجهة الرأس . ثم قال : فأتيت خديجة فقلت دثرونى ، فدثرونى وصبوا على ماء باردا ، فنزلت : « يا أيها المدثر . قم فأنذر . وربك فكبر . وثيابك فطهر . والرجز فاهجر » .
وفى رواية قال مايفيد أنه رأى الملك الذى جاءه بحراء قاعدا على عرش فى الهواء ، فأخذته رجفة شديدة الخ .

مقدمة لتفسير هذه السورة وصلتها بما قبلها

اعلم أن [سورة المزمل] ذكرت بعد [سورة الجن] لأن السورتين مشتركتان فى أن كلا منهما تفيد الاتصال مع العالم الروحى ، فسورة الجن لاعلام الناس أن الجن لهم اتصال بعالم الإنس ، وأنهم سمعوا القرآن فآمنوا به ، وسورة المزمل تشير إلى أن عالم الملائكة يتنزل على الأنبياء ، والأنبياء عنه يبلغون ، فيكون ذكر سورة المزمل كذكر السبب وراء المسبب ، لأن عالم الجن يسمع من النبى صلى الله عليه وسلم ، والنبى صلى الله عليه وسلم يتلقى عن عالم الملائكة ، فهو أسمع الجن مايسمعه من الملائكة ، وأن الانسان الحى قد يكون واسطة بين عالمين روحانيين ، فإن هؤلاء الجن الذين سمعوا منه صلى الله عليه وسلم ما كان لينبغى لهم أن يسمعوا من جبريل ولا أمثاله من الملائكة ، وأنى لهم ذلك وهم عن السمع معزولون ، وإنما يسمعون بالواسطة ، وهذا على حد قول الشاعر :

بكل تداوينا فلم يشف مابنا ☆ على أن قرب الدار خير من البعد
على أن قرب الدار ليس بنافع ☆ اذا كان من تهواه ليس بذى ود

فالمتجاوران المتنافيان المتضادان لايجتمعان ولايتفاهمان ، والمتباعدان المتصادقان متى ما يقتربان ويتناجيان وروى «أن لله ملائكة يسوقون الأشكال إلى أشكالها» ، وهذا القرآن بين ظهرانينا فيه الكلام على الجن وعلى الملائكة ، ولكن لما كان المسلمون غير مستعدين لهذه العلوم فى الأزمان المتأخرة نقل الله العلم إلى بلاد الغرب وبحثوا فيه هم ، وأتوا بمثات من الغرائب التى نطق بها كتابنا وذكرنا بعضها ، وسيظهر كل مافى القرآن من سر ، وماسبب ذلك إلا الاستعداد ، فلما كانت الأمم الاسلامية قبل اليوم غير أهل لهذه العلوم صرفها الله عنهم إلى غيرهم وإن كان القرآن بين ظهرانيهم يقرءونه صباحا ومساء ، فيكون القرآن مع المسلمين كالملائكة مع الجن ، فهما فى عالم واحد روحانى ، فلما لم يأتلفا كلم الملائكة من تأهل للعلم من الناس وهو النبى صلى الله عليه وسلم ، والنبى صلى الله عليه وسلم علم الجن وإن لم يعلم به إلا من الوحى كما تقدم ، فالمسلمون كالجن ، والقرآن كالملائكة ، فلما لم يفهموه ولم يفكروا فيما اشتمل عليه جعل علومه تظهر على يد أمم أخرى ، وسيعرف أبناؤنا علوم الأمم ويتمون البحث .

هذه هى المناسبة بين سورة المزمل وسورة الجن ، وسورة المزمل فيها بعث الهمم على العبادات وقيام الليل لاستخراج ما كمن فى النفوس من المواهب ، فإن العبادات والذكر وهجر النوم والتوجه لله تبعث فى النفوس وجدانا لاتبعثه العلوم ، ولم يقم فى الأرض قائم بعمل إلا اذا تحرك إليه وجدانه ، إن أهل الأرض

جميعا لايقومون لتأسيس دولة ، أو اقامة عمل إلا بوقظ يوقظهم ، وهذا الموقظ المحرك الهمم لاقدرة له على بعث تلك الهمم لما يريد إلا اذا انبعثت همته هو أولا .

هذه قاعدة مطردة ، أما الخطيب ، أو الواعظ ، أو المؤلف الذين خلت نفوسهم من الوجدان ومن الحب لما يقولون فان السامعين والقارئين لما يقولون وما يكتبون لايحسون بوجدان فى نفوسهم ، إن هناك صلة بين القائل والسامع والكاتب والقارىء ، فعلى مقدار تأثر الكاتبين والقائلين تكون الآثار فى نفوس السامعين قلة وكثرة ، هذا أمر لامرد له ، فكل ذى وجدان مؤثر أثرا ما ، وهذا الأثر بقاؤه فى الأمم يكون على مقدار القائمين به من حيث وجدانهم وآثارهم ، ففى سورة المزمل أمر بقيام الليل ، وبقى الوجوب فى حقه ونسخ فى حق الأمة ، وبقى الندب ، فصلاة الليل نافلة ، وبذلك فتح الباب للأمة ليتهجد من يشاء كما تهجد النبى صلى الله عليه وسلم ، وليعلم كل مطيع ومتهجد أنه بهذه الطاعة تنساق إليه طلائع الفهم ومقدمات العلم ، واذن يدخل فى باب الحمد ، وقد قدمنا فى الفاتحة وغيرها أن الحمد لايتم إلا بالعلم ، فالتهجد إذن مفتاح لانشراح الصدر وقبول العلم ، فاذا تهجدت أيها الذكى فسترى فى قلبك آثار الانشراح لاسيما اذا استحضرت معانى القراءة وتوجهت بقلبك إلى الله وخاطبته كأنك تراه ، ومتى انفتح لك باب الفهم وأحببت العلم فهاهو ذا باب الحمد ، فانه لاحمد إلا على معلوم ، والنعمة التى لاتعلم كيف نحمد عليها ؟ فقام الحمد يستلزم معرفة مافى السموات ومافى الأرض ، إذن فادرس ما أمكنك من عالم السموات والأرض ، وقد أودعنا جواهر علومهما فى هذا التفسير ، وهذا من مبادىء مقام الحمد .

فاذا أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يتهجد بالليل فذلك لتعليمنا أن نوجه قلوبنا بذلك إلى الله ، وبه يفتح مغلق الفهم .

هذا ما تقتضيه سورة المزمل ، أما سورة المدثر فهى للانذار والتعليم ، فبسورة المزمل انفتح باب الفهم للمصلين ، فاذا انفتح ذلك الباب تعلموا مع الوجدان ، واذن يصلحون لارشاد غيرهم ، وذلك هو أول سورة المزمل ، فهذا الترتيب فى السور جعل مقصودا لتعليمنا ، والا فلماذا تكون سورة الجن فالمزمل فالمدثر ؟ .

ذكر الأوامر الستة التى أمر بها الرسول صلى الله عليه وسلم . وهى جملت تعليما لنا

اعلم أن من يتصدى لتعليم الناس يجب عليه أولا أن يكون موقنا بما يقول كما شرحناه ، بل يكون من وجدانه ، وأعظم شىء فى الدعوة النبوية أن يكون القائم بها موقنا أن ربه منزه عن كل ماهو من صفات الحوادث لايبلغ وصفه الواصفون ، وأنه أجل من أن تعرف غاية كمالاته ، فاناذا اعتقد ذلك لاجرم سار فى دعوته غير هياب ولاوجل ، لأنه يعلم أنه ينشر دعوة لأعظم موجود ، وهو المفيض الوجود على كل موجود ، فيصبح ويمسى وهو مسرور الفؤاد فرح بما يلقى إليه صابر منشرح الصدر متوكل عليه ، لأنه موقن أنه مطلع عليه فلايخاف من الناس ، واذا تذكر الموت فرح به ، لأنه يعلم أنه قد اصطفى لذلك الأمر من بين الناس ، هذه المعانى يشير لها قوله (يا أيها المدثر . قم فأنذر . وربك فكبر) والداعى الناس إلى ربه الكبير لايتم له ذلك إلا اذا كان متخلقا بأخلاقه ، فاذا كان الله منزها بكبريائه عن سمات الحوادث ، أفلا يكون القائم بأمره منزها عن النقائص الانسانية ، وكيف تكون المناسبة هناك مالم يكن قد تحلى المرء بالصفات الجميلة وتخلى عن الصفات الناقصة ، فعبر عن ذلك كله بقوله (وثيابك فطهر) .

اعلم أن هذه الجملة يعرف نظيرها عند العرب بطهارة النفس كالصدق والوفاء ، يقولون فلان طاهر الثياب اذا كان صادقا وفيا ، واذا كان غادرا يقولون هو دنس الثوب ، ولاتزال هذه المعانى تستعمل إلى الآن فى بلادنا المصرية ، يقولون : فلان طاهر الذيل ، يريدون أنه لايلامس امرأة أجنبية .

وهذا القول من باب الكناية ، والكناية لفظ أطلق وأريد به لازم معناه مع جواز إرادة المعنى الأصلى ، والكناية أحد الأقسام الثلاثة فى علم البيان وهن : التشبيه ، والمجز ، والكناية ، وهذه كثيرة فى القرآن . فاذا سمعت قول الخنساء :

طويل النجاد رفيع العما * د كثير الرماد اذا ماشتا

فاعلم أنها تريد أنه طويل القامة شريف بين قومه كريم ، هذه هى المعانى المقصودة لها ، فأما كون علاقة السيف طويلة ، أو أن عماد البيت مرتفع ، أوأن رماد وقوده الذى يطبخ به الطعام كثير ، فليست هذه المعانى التى هى موجودة فعلا أو غير موجودة مقصودة لذاتها فربما وجدت وربما لم توجد ، واذا وجدت فليست هى المقصودة ، وأيضا قولها لما خطبها دريد بن الصمة .

معاذ الله يرضعنى حبركى * قصير الشبر من جشم بن بكر

تقول : أنا لا أتزوّجه لأنه قصير من قبيلة غير مرضية عندى ، ولكن لم تنطق بهذا القول بل قالت أنا لا أرضع ولدا قصيرا بهذه الصفة ، فكنت بارضاع من هذه صفته عن زواج والده ، فاذا منعت الرضاع فقد منعت الزواج ، ولاجرم أن الكناية أبلغ من الحقيقة ، فاذا لم تكن البلاغة فى كتاب الله فأين تكون ؟ فاذا سمع العربى قوله تعالى : « وثيابك فطهر » خطر بباله طهارة النفس وشرفها و بعدها عن كل ريبة ، فتكون طهارة النفس بالصفات الجميلة ، والأخلاق الفاضلة ، و بعدها عن الغلّ والحقد والحسد والمكر والخبث وكراهة الناس ، كل هذه هى المقصودة ، وذكر طهارة الثياب كذكر طول النجاد ، فان من طال نجاد سيفه فهو طويل لامحالة .

واعلم أن هذه الملازمة : أى بين طهارة الثياب وطهارة القلوب التى جعلت كالملازمة بين طول النجاد وطول القامة قد ظهرت اليوم بأظهر معانيها ، وقد ذكرناها فى [سورة البقرة] عند قوله تعالى : « إنّ الله يحبّ التوابين ويحبّ المتطهرين » فهناك نقلت عن علماء أوروبا المشتغلين بأصول القوانين أن أكثر الناس قذرا فى جسمه وثيابه أكثرهم ذنوبا ، وأطهرهم بدنا وثيابا أبعدهم عن الذنوب ، و بنوا على ذلك أنهم أمروا المسجونين بكثرة الاستحمام ونظافة الثياب فحسنت بذلك الأخلاق ، وخرج المسجونون أقرب إلى الأخلاق الفاضلة منهم إلى الرذائل ، هذا هو قوله تعالى : « وثيابك فطهر » فكلما كان الانسان أطهر ثوبا و بدنا كان أقرب إلى طهارة النفس ، ولذلك كثرت الطهارة فى ديننا وأثنى عليها الأستاذ [بنتام] فى كتابه [أصول الشرائع] وقال : « إن كثرة الطهارة فى دين الاسلام مما يدعو معتنقيه إلى رقّ الأخلاق والفضيلة اذا قاموا بأوامره فى النظافة خير قيام » .

فاذا عرف الداعى إلى الله ربه واستعدّ لذلك بطهارة الأخلاق والظواهر من ثوب وبدن فانه يستعدّ إلى ترك مايخلّ بأخلاقه الظاهرة والباطنة فينجو من العذاب ، وهذا قوله (والرجز فاهجر) فالرجز العذاب : أى فاترك أسباب العذاب يوم القيامة ، بل سوء الأخلاق هى العذاب فى الدنيا والآخرة ، اقرأ ماذكرته فى [سورة البقرة] عن الفيلسوف اليونانى المسمى قابس الذى شرح أخلاق الناس ومواهبهم وجعل أكثر حياة الناس عذابا ، وأصحاب الأخلاق الفاضلة هم المنعمون فى هذه الدنيا ، فاذن يكون لفظ الرجز يشمل عذاب الدنيا والآخرة ، ففى الدنيا يحسّ الانسان بمقت الناس وضيق صدره اذا ساءت أخلاقه ، و ينقلب ذلك بعد الموت إلى عذاب آخر شديد .

هذا معنى قوله : « والرجز فاهجر » فكأنّ هجر الرجز من تمام طهارة النفس أومن لوازمها ، ومتى طهرت النفس وسلم الانسان من الآثام ، هنالك تكون نفسه قد استعدّت للافاضة على الناس وهم يقبلون على الداعى ، وحينئذ لايبقى أمام الداعى إلا عقبتان : إحداهما الغرور والفخر والعظمة ، فيقول : أنامفيض

المعروف عليكم أيها الناس ، أنا أعظم قدرا ، ويحصل له الغرور العظيم . والعقبة الثانية أنه له أعداء ، وهؤلاء يؤذونه ويتربصون به الدوائر ، ويتعقبونه ولايرحمونه ، ويذمونه فى كل مكان ، ويتألبون عليه ليلا ونهارا ، وذلك هو المثبط لأكبر الدعاة ، فانهم حينما يرون العقبات أمامهم يكرّون راجعين ويقولون : مالنا ولقوم لايسمعون قولنا ، فلندخل فى كسر بيتنا ، ولنبتعد عن الناس ، فانهم لايفهمون ، ولايعرفون قدر النعم ، ولا يشكرون المنعمين ، فلهاتين العقبتين قال الله تعالى (ولاتمنن تستكثر . ولربك فاصبر) أى فلاتمنّ على أصحابك بما علمتهم وبلغتهم من الوحى حال كونك مستكثرا ذلك عليهم ، وقد قرئ تستكثر بالسكون على الابدال من تمنن ، ولوجه ربك وأمره فاستعمل الصبر على أذى من خالفك ، وملخصه الايمنّ على تابعيه ولايجزع من أذى مخالفيه ، فهو أوّلا ذكر العلم ، ثم العمل ، ثم التبليغ ، وهذه الصفات ان لم تتوفر فى الداعى لاتتمّ دعوته .

واعلم أيها الذكىّ أن الذى أضرّ بأمّتنا الاسلامية إنما هو الجهل بمقاصد القرآن ، فانهم اذا سمعوا هذه الأوصاف ظنوا أن ذلك لايعنيهم ، وفاتهم أنهم أتباع النبىّ صلى الله عليه وسلم ، فليس يبلغ المسلم من سامعيه مايريد إلا اذا كان متحققا بالعلم الذى يلقيه وقد كملت نفسه ، فان نفوس الناس لها إحساس وشعور تدرك به مافى قلب القائل ، وتحسّ بأثره ان كان كاملا ، وتحسّ بالاعراض ان كان ناقصا .

ثم انك بعد التحقق من هذا الكتاب ستجد فى نفسك أثرا تاما وحبا لنفع الأمة ، فستقف فى طريقك العقبتان اللتان ذكرتا تعليما لك أنت فتقول فى نفسك مالى أنفع الناس وهم لايقومون بما يجب عليهم نحوى وقد علمت أن الشمس والقمر والكواكب لاينفعها الناس ، وأن الله خالق الناس بفضله وأنت قد أعددت نفسك أن تكون خليفة قائما بالأمر ، فلتتخلق بأخلاق الله تابعا نبيك صلى الله عليه وسلم ، فتعطيهم العلم وتواسيهم بالمال ان قدرت ، ولاتطلب جزاء ولاشكورا ، وتصبر على أذية أعدائك .

واياك أن يكون الذم والاحتقار والعداوات مانعات لك عن الجدّ فى عملك والمضىّ فيه ، فلتلزم الصبر فان لم تصبر دلّ ذلك على ضعف فى قوّتك النفسية فاحذر ، ولتعلم أن مافى هذا القرآن من الوعد بالنصر لنبينا صلى الله عليه وسلم هو نفسه وعد لك بالنصر فى هذه الحياة وبعدها اهـ

***

لقد ذكرت لك أن [سورة الجنّ] أتى بعدها بسورة المزمّل ثم المدّثر ، لأنّ الجنّ ليس عندهم استعداد لتلقى العلوم عن عالم الملائكة ، وأنهم لايليقون لذلك العالم وان كانوا معهم فى عالم الأرواح ، وأن المناسبة هى التى توجب العلم ، وأزيد الآن أن الحيوانات الذرّية [المكروب] والكهرباء ومنافع البخار كانت حاضرة معنا ، ولكن كان استعدادنا لمعرفتها غير حاضر عندنا ، فالمعلوم حاضر ، ولكن الاستعداد لعلمه غير موجود فمنعنا عنه ، فليس منعنا عن الكهرباء لبعد المسافة بيننا وبينها ، ولا الحيوانات الذرّية الضارّة والنافعة فى داخل أجسامنا وخارجها لبعدها عنا بل هى موجودة فعلا فى داخل أجسامنا تعدّ بآلاف الآلاف وفى طعامنا وفى شرابنا ، ولكن الذى منعنا هو جهلنا وفقد الطرق الموصلة للمعرفة .

أفلايحقّ لنا أن نقول بعد هذه المقدّمات التى صارت معلومة ان بعد السعادة عن النوع الانسانى فى حياته الدنيا وشقاءه فيها ، ليس ذلك لبعد السعادة عنه ولكن لجهله بالطرق الموصلة لها ، لقد صدق سقراط إذ يقول : « إن الناس ماأشقاهم إلا جهلهم ، فلوكان عندنا من العلم ما يكفينا لكنا فى الحياة الدنيا سعداء » .

أقول : ولكنا نتعلم القليل لنطير به إلى عالم نرتقى فيه هناك بذلك القليل ، ألا يمكننا الآن أن نفهم ماجاء فى [سورة الحديد] : « ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولاخمسة إلا هو سادسهم ولاأدنى من ذلك ولاأكثر إلا هو معهم أينما كانوا » وأيضا قال تعالى : « وهو الله فى السموات وفى الأرض يعلم سركم وجهركم

ويعلم

و يعلم ما تكسبون » فليس بعد الله عنا بالمكان ، إذ ليس بجسم حتى نسافر إليه ، ولا بعض الأمكنة يختص به دون الآخر ، بل هو موجود لا يختص به مكان ولا زمان ، ومامنعنا من النظر إلى ذاته إلا أننا فى عالم لا يسمح بذلك ، فبعد المكانة وشدّة الحجاب هى التى منعتنا أن نراه لا بعد المكان ، وليس ارتقاؤنا فى الأحقاب التالية سفرا فى العوالم ، بل السفر بالهمة وقطع العقبات النفسية ، وكشف الحجب ، ولطف النفوس ، وكما لطفت النفوس اليوم فعرفت بعض المعرفة أدقّ الحيوانات و بعض الأرواح معرفة قليلة ، هكذا تترقى بعض النفوس على طول الزمان فتصل بخفة نفوسها واشراق ذواتها إلى النظر لوجه الله ، وهذا فى حياة مجهولة لنا لا نتخيلها الآن إلا بما ضربنا من الأمثال ، كان الناس يكذبون بكل حىّ غير ما عرفناه من الحيوان ، ويكذبون بالملك والجانّ ، فأصبحوا يحدّثونهما . فهكذا هناك ملائكة علويون لا يمكن لأهل الأرض مخاطبتهم ، وهكذا الله من فوقهم .

إن نفوسنا وان كانت محبوسة فى هذه الأجسام نراها لا تطيق الحبس ، فهى تبحث فى السموات والأرض و بينما هى مفكرة فى الأرض اذا هى فى السماء ، إنّ نفوسنا قبسة من اشراق النور الإلهى ، ولذلك لم تجد لها سرورا فى العالم المادّى .

ثم قال تعالى (فاذا نقر فى الناقور) أى نفخ فى الصور ، وهو القرن الذى ينفخ فيه الملك ، مأخوذ من النقر بمعنى التصويت ، وأصله القرع الذى هو سبب الصوت . يقول الله : ولربك يا محمد فاصبر على أذاهم فانّ بين يديهم يوما عسيرا فيذوقون عاقبة كفرهم وأذاهم ، وتنال فيه جزاءك الحسن ونعيمك المقيم ، فجواب اذا محذوف كما ذكرنا دلّ عليه قوله (فذلك يومئذ يوم عسير) وأكده بقوله (على الكافرين غير يسير) واذا كان كل عسر ينقلب فى آخر الأمر إلى يسر فهؤلاء يومهم عسر لا يسر معه ولا بعده ، كأنّ الله يقول : فاذا نقر فى الناقور عسر الأمر عليهم ، و يومئذ متعلق بالخبر . ثم أخذ يذكر أوصاف الوليد بن المغيرة ، وذلك أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قام فى المسجد يصلى والوليد بن المغيرة قريب منه يسمع قراءته ، وهو يقرأ [حم . تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذى الطول لا إله إلا هو إليه المصير] ، فلما فطن النبىّ صلى الله عليه وسلم إلى استماعه أعاد القراءة ، فانطلق الوليد حتى أتى مجلس قومه من بنى مخزوم فقال : والله لقد سمعت من محمد آنفا كلاما ماهو من كلام الإنس ، ولا من كلام الجنّ ، والله ان له لحلاوة ، وان عليه لطلاوة ، وان أعلاه لمثمر ، وان أسفله لمغدق ، وانه يعلو وما يعلى عليه ، ثم انصرف إلى منزله ، فقالت قريش : صبأ والله الوليد ولتصبونّ قريش كلهم ، فقال أبو جهل : أنا أكفيكموه ، فانطلق حتى جلس إلى جنب الوليد حزينا ، فقال له الوليد : مالى أراك حزينا يا ابن أخى ؟ فقال : وما يمنعنى أن أحزن وهذه قريش يجمعون لك نفقة يعينونك على كبر سنك و يزعمون أنك زينت كلام محمد ، وأنك تدخل على ابن أبى كبشة وابن أبى قحافة لتنال من فضل طعامهم ، فغضب الوليد وقال : ألم تعلم قريش أنى من أكثرهم مالا وولدا ، وهل شبع محمد وأصحابه من الطعام حتى يكون لهم فضل طعام ! ثم أتى مجلس قومه مع أبى جهل فقال لهم : تزعمون أن محمدا مجنون فهل رأيتموه يخنق قط ؟ قالوا اللهم لا ، قال تزعمون أنه كاهن فهل رأيتموه قط تكهن ؟ قالوا اللهم لا ، قال تزعمون أنه شاعر فهل رأيتموه ينطق بشعر قط ؟ قالوا اللهم لا ، قال تزعمون أنه كذاب فهل جرّبتم عليه شيئا من الكذب ؟ قالوا اللهم لا ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمى الأمين قبل النبوّة لصدقه ، ثم قال : ماهو إلا ساحر أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه فهو ساحر ، ومايقوله سحر يؤثر ، فهذا هو ماسيأتى من قوله تعالى : « إنه فكر » أى فى أمر محمد والقرآن « وقدر » فى نفسه ماذا يمكنه أن يقول فى محمد وفى القرآن .

هذا وقد كان الوليد يسمى الوحيد ، لأنه وحيد فى قومه ، فماله كثير جدًّا فيه الزرع والضرع والتجارة ، يقال انه كان ألف ألف درهم ، وقيل تسعة آلاف مثقال فضة ، وكان له بين مكة والطائف إبل وخيل ونعم

وغنم وعبيد وجوار ، وكان له بستان بالطائف لاتنقطع ثماره شتاء وصيفا ، وكان أبناؤه عشرة يشهدون المحافل والمجامع أسلم منهم ثلاثة وهم : خالد وهشام وعمارة ، ثم ان الوليد قد بسط الله له الرزق وطال عمره مع الجاه العريض والرياسة فى قومه ، وكان من أكابر قريش ، ويسمى [ريحانة قريش] ، فهو ريحانة وهو وحيد ، فاذا عرفت هذا أمكنك فهم الآيات الآتية :

قال تعالى (ذرنى ومن خلقت وحيدا) أى ذرنى معه فانى أكفيكه ، وكيف لاأكفيكه وقدكفر بنعمتى ؟ ألم أخلقه وحيدا فى قومه حتى نعتوه بذلك ؟ (وجعلت له مالا ممدودا) مبسوطا كثيرا ، أوممدودا بالنماء (وبنين شهودا) حضورا معه بمكة يتمتع بلقائهم لايحتاجون إلى سفر لطلب المعاش استغناء بنعمته وخدمه وعبيده يقومون مقامهم فى ذلك (ومهدت له تمهيدا) بسطت له فى العيش وطول العمر بسطا مع الجاه العريض والرياسة فى قومه (ثم يطمع) يرجو (أن أزيد) أى أزيده مالا وولدا وتمهيدا (كلا) لاأفعل ولا أزيد ، فأخذ ماله فى النزول بعد ذلك حتى هلك ، ثم علل ذلك فقال (إنه كان لآياتنا عنيدا) معاندا فلايؤمن ببعث ، ولايوحد الله تعالى (سأرهقه صعودا) سأغشيه عقبة شاقة المصعد ، وهذا مجاز يراد به شدة الأمر عليه حتى جاء فى الحديث «انه جبل من النار يصعد فيه سبعين خريفا ثم يهوى» (إنه فكروقدر) تعليل للوعيد ، يقول الله : اذا أنا لم أزد ماله ونعمته فذلك لأنه معاند لآياتنا ، واذا جشمته العذاب يوم القيامة فذلك لأنه فكر فيما تخيل طعنا فى القرآن وقدر فى نفسه مايقول فيه (فقتل كيف قدر) أى لعن كيف قدر ، وهو على طريق التعجيب والانكار والتوبيخ (ثم قتل كيف قدر) تكرير للمبالغة (ثم نظر) فى أمر القرآن (ثم عبس وبسر) قطب وجهه مما لم يجد فيه طعنا ولم يدر مايقول (ثم أدبر) عن الحق (واستكبر) عن اتباعه (فقال إن هذا إلاسحر يؤثر) يدرس ويتعلم (إن هذا إلاقول البشر) تأكيد للجملة قبلها (سأصليه سقر) هذه مبدلة من قوله « سأرهقه صعودا » (وما أدراك ماسقر) تفخيم لشأنها حال كونها (لاتبقى ولاتذر . لواحة للبشر) البشرجمع بشرة ، وهى ظاهر الجلد ، فهى تسود الجلود وتحرقها (عليها تسعة عشر) صنفا من الملائكة ، أوصفا ، وانما جعلوا تسعة عشر لأن الحواس الظاهرة خمس ، والباطنة خمس ، وهى : الحس المشترك ، والخيال ، والمفكرة ، والواهمة ، والذاكرة ، فهذه خمس تضم لما قبلها تكون عشرة ، ويضاف إليها اثنان : الغضب والشهوة ، فهذه ١٢ ويضاف إليها سبعة طبيعية فى فى الانسان وفى الحيوان ، وهى : الجاذبة والهاضمة والماسكة والدافعة والغاذية والنامية والمصورة ، فهذه سبعة فى النبات والحيوان ، والاثنا عشر قبلها فى الحيوان والانسان ، فهذه التسعة عشر نوعا من الصفات الحيوانية جمعت فى الانسان ، فكان عذابه على مقدار مافرط فى هذه المنح (وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة) فليسوا من جنس المعذبين حتى يرقوا إليهم ويرحموهم . ولما سمع أبو جهل هذه الآية قال لقريش : أيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا برجل منهم فنزلت هذه الآية (وما جعلنا عدتهم إلافتنة للذين كفروا) أى وماجعلنا عددهم إلا العدد الذى اقتضى فتنتهم ، وهوالتسعة عشر ، فهم قد افتتنوا به واستقلوه ، واستهزءوا به ، واستبعدوه ، وقالوا : كيف يتولى هذا العدد القليل تعذيب الثقلين ؟ (ليستيقن الذين أوتوا الكتاب) أى ليكتسبوا اليقين بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم وصدق القرآن ، إذ يرون هذا العدد فى كتابهم (ويزداد الذين آمنوا إيمانا) بالايمان به وتصديق أهل الكتاب (ولايرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون) فى ذلك ، وهذا تأكيد للاستيقان وزيادة الايمان (وليقول الذين فى قلوبهم مرض) شك ونفاق حينما يكونون بالمدينة فيما بعد الهجرة التى لم تكن معلومة لهم عندنزول هذه السورة (والكافرون) الجازمون بالتكذيب (ماذا أراد الله بهذا مثلا) أى أى شىء أراد بهذا العدد المستغرب استغراب المثل ، أوهو نفسه مضروب مثلا لشدة استبعاده عندهم (كذلك يضل الله من يشاء ويهدى من يشاء) أى

مثل

مثل ذلك المذكور من الاضلال والهدى يضلّ الكافرين ويهدى المؤمنين (ومايعلم جنود ربك) أى جموع خلقه على ماهم عليه فى الحقيقة إلا هو ، وكيف يقف أحد على حصر الممكنات ومعرفة مستقرّها ومستودعها وخواصها ؟ انظر ما ذكر فى أوّل سورة الملك فى أنواع الحيوان وتكاثره ، فما يعلم هذه كلها (إلا هو وماهى) أى وماهذه السورة المشتملة على سقر وعدّة الخزنة (إلا ذكرى للبشر) إلا تذكرة لهم (كلا) ردع لمن أنكرها (والقمر ، والليل إذ أدبر) ولى ذاهبا (والصبح إذا أسفر) أى أضاء وتبين ، وجواب القسم قوله (إنها لإحدى الكبر) يعنى ان جهنم إحدى البلايا الكبر والأمور العظام (نذيرا للبشر) أى كبرت سقر حال كونها منذرة للبشر . ثم قال : (لمن شاء منكم أن يتقدّم) إلى الخير (أو يتأخر) عنه ، فقد علمتم سقر وعذابها وملائكتها ، فمن تقدّم الى الخير أطلقناه ، ومن تأخر عن الخير سلكناه فيها (كل نفس بما كسبت رهينة) مرهونة عندالله ، أومرتهنة فى النار بكسبها ومأخوذة بعملها ، وهذه الكلمة ليست وصفا بل هى مصدر كالشكيمة جعلت بمعنى اسم المفعول ، ولو كانت وصفا لقيل رهين ، لأنّ فعيلا بمعنى مفعول يستوى فيه المذكر وغيره (إلا أصحاب اليمين) فانهم فكوا رقابهم من الرهن بما أحسنوا من أعمالهم ، وهكذا الأطفال إذ لاتكليف عليهم ومثلهم الملائكة حال كونهم (فى جنات يتساءلون عن المجرمين) أى يسألون غيرهم عن حالهم ، فيقول المسئولون عن المجرمين للسائلين ماجرى بينهم و بين المجرمين من السؤال والجواب ، وهذا صورة ما جرى : قلنا لهم (ماسلككم فى سقر) أى أىّ شىء أدخلكم فيها ؟ (قالوا لم نك من المصلين) الصلاة الواجبة (ولم نك نطعم المسكين) مايجب إعطاؤه (وكنا نخوض مع الخائضين) أى نشرع فى الباطل مع الشارعين فيه (وكنا نكذب بيوم الدين حتى أتانا اليقين) الموت ومقدّماته (فما تنفعهم شفاعة الشافعين) لوشفعوا لهم جميعا (فمالهم عن التذكرة معرضين) أى معرضين عن التذكير : أى عن القرآن ومافى معناه (كأنهم حمر مستنفرة) بالكسر أى نافرة ، وبالفتح أى منفرة مذعورة ، فهم مثلها فى اعراضهم ونفورهم عن استماع الذكر (فرّت من قسورة) أى أسد (بل يريد كل امرئ منهم أن يؤتى صحفا منشرة) قراطيس تنشر وتقرأ ، إذ كانوا يقولون : لن نؤمن لك حتى تأتينا بكتاب من السماء نقرؤه (كلا بل لايخافون الآخرة ، كلا) ردع لهم (إنه تذكرة) أى انه عظة عظيمة (فمن شاء ذكره) أى اتعظ به فيعود نفعه عليه (ومايذكرون إلا أن يشاء الله) أى إلا أن يشاء الله لهم الذكر فيتذكروا ويتعظوا (هو أهل التقوى) حقيق بأن يتقى (وأهل المغفرة) حقيق بأن يغفر للمتقين من عباده . انتهى التفسير اللفظى للسورة كلها ، والحمد لله رب العالمين .

لطيفة فى قوله تعالى : ومايعلم جنود ربك إلاهو وماهى إلا ذكرى للبشر . كلا والقمر . والليل إذ أدبر . والصبح إذا أسفر .

إنّ فى ذكر إدبار الليل واسفار الصبح مايشير إلى أن الناس فى الحياة الدنيا كأنهم فى ظلمة ، فاذا جاء يوم القيامة ظهرت الحقائق كما يظهر الصبح اذا أدبر الليل ، إنّ الحياة فى الدنيا والآخرة وتناسقها ترتقى من حال مظلمة إلى حال ظاهرة واضحة ، فنحن اليوم فى حالك الحياة ، وكلما اقتربنا من الحقائق كان ذلك نورا لنا فاذا وصلنا إلى الحقائق وصولا تاما فى عالم غيرعالمنا فهناك السعادة ، فالعلم بالحقائق هونهاية السعادة ، والجهالة نهاية الشقاء ، بل قال [سقراط] : « إن الناس معذبون فى الأرض بجهالتهم ، ولوعرفوا الحقائق كما هى ماشقوا » فكأن ذكر الظلام فالضياء بعد ذكر القيامة وحديثها يشير إلى ذلك ، وهذا فى الموفقين كما هو معلوم ، وقول المصلى : « السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين » يشير إلى حال السلامة التامة ، ولاسلامة

إلا بمعرفة الحقائق معرفة تامة ، إن ظواهر الدنيا كلها ظلمات وأحزان ، ولكن بواطن هذا العالم جمال وسعادة فلقد ضرب بين السعداء والأشقياء بسور من الجهل له باب باطنه فيه الرحمة متى عرفت الحقائق ، وظاهره من قبله العذاب باقتحامها .

ثم إن جنود ربك أعظمهم فى عالم السموات ، وهذا من أسباب ذكر الليل وادباره ، والصبح وإسفاره ، فلأذكر لك الآن الجنود السماوية ، ثم أتبعها بالجنود الحيوانية ، والجنود النباتية ، لتطلع على صفوف من جنوده ، وأنواع من عجائب جيوشه البديعة المنظمة ، وانما نبدأ بالجنود السماوية تبركا بالآية ولتظاهر العظمة فى جمال النجوم فنقول :

عدد النجوم

إن النجوم التى ترى بالعين المجرّدة محصورة ، وهى نحو ٣٠٠٠ فقط ، والمنظار المقرّب يرينا نحو ١٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ فأما اللوحة الراسمة [الفوتوغرافيــة] فانها اذا طال تعرّضها للنور ترينا ملايين الملايين ، فانها ترسم فى الساعة الواحدة ٣٦٠٠ ضعف ماترسمه فى الثانيــة الواحدة ، وبهذه الطريقة كشف الفلكيون مايعجز العين المجرّدة والمنظار المقرّب .

أبعاد النجوم التى هى من جنود الله وأحجامها

الشعرى اليمـانية

هى أثقل من الشمس جرما عشرين مرّة ، وأضوأ منها خمسين مرّة ، وأبعد منها ألف ألف بعدها عنا ، وتجرى بسرعة ألف ميل فى الدقيقة .

بنات نعش

واحدة منهن أضوأ من الشمس أربعمائة مرّة ، والثانية أضوأ منها ٤٨٠ ، والثالثة أضوأ منها ألف مرّة ، وسهيل أضوأ من الشمس ألفين وخمسمائة مرّة .

السماك الرامح

هو أضوأ من الشمس ثمانية آلاف مرّة ، وهو أسرع النجوم سيرا ، وأشدّها تألقا ، وأكبرها حجما ، فسرعته ثلاثمائة ميل فى الثانية الواحدة ، ونوره ثمانية آلاف ضعف نور الشمس ، وحجمه ثمانون ضعفا من حجمها ، ونوره يصل لنا فى مائتى سنة ، مع العلم بأن نور الشمس يصل إلينا من بعد ٩٢٫٥٠٠٫٠٠٠ ميل فى ثمان دقائق وثمان ثوان .

الثريا

تبعد عنا ألفا وخمسمائة بليون من الأميال ، ولست أطيل فى ذكر هـذه الأقدار والأبعاد ، وأذكرك بما كتبتـه فى [سورة آل عمران] نقلا عن الأكاديمية الفرنسية ، وبما كتبته فى [سورة البقرة] فى أوائلها من حيث تعداد النجوم وأضوائها ، فراجعه هناك إن شئت .

جنود الحيوان

ذكر حيوان البحر

إن فى البحار أنواعا عظيمة من الحيوانات :

الاخطبوط

[الأخطبوط] — منه مايعيش فى مياه (نيوفوندلاند) وهذا يبلغ طوله نحو ستين قدما من طرف إلى طرف ، و بعض الحيتان يبلغ طولها سبعين قدما ، ومن الحيتان وهو المسمى [الكاشالوت] مايطرف المحيط عرضا وطولا ، وله أنياب محددة يسطو بها على ضعاف الحيوانات البحرية ، واذا أصيب أىّ اصابة فتك فتكا ذريعا ، فقد حدث مرّة أن حوتا من هـذا النوع هاجم مركبا أمريكيا ولم يزل به حتى حطمه وأنزله فى دركات المياه .

[حوت يسمى الروركال] — هذا الحوت يطول إلى ١٢٠ قدما .

[حوت يسمى سيبالد] — يبلغ طول هذا النوع من ٨٠ إلى ٩٠ قدما .

أما الحيوانات الصغيرة فى البحرفقد ذكر [سكورسبى] أن الحيوان المسمى [قريص البحر] ربما ملأ أميالا كثيرة من البحر ، والميل الواحد المكعب يشمل من هذا الحيوان ٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ر٨٨٨ر٢٣ إن كثيرا من النوتية اجتازوا أميالا وأميالا فى البحر فوجدوا ماءها ملوّنا بتلك الحيوانات الدقيقة ، فكم يكون عدد الحيوانات فى تلك الأميال الكثيرة ؟ « ومايعلم جنود ربك إلا هو وماهى إلاذكرى للبشر » .

الحشرات على وجه الأرض

إن الحشرات كثيرة ، وقد عدّ العلماء من أنواع الخنافس نحو ٠٠٠ر٨٠ وأنواع الحشرات المعروفة الآن نحو ٠٠٠ر٠٠٠ر٢٠٠ وهم يتوقعون أن يكشفوا من أنواعها ألف ألف .

ولأكتف من الحيوانات وجنودها بما ذكرناه استدلالا بما ذكر على مالم يذكر ، ولوأننا فتحنا باب الحيوانات الذرّية التى فى أجسامنا كالكرات الحمراء والكرات البيضاء التى تحارب كل منها الحيوانات الداخلة عليها كحيوانات الوباء والجدرى الخ .

لوأننا فتحنا هذا الباب لوجدنا مالايخطر بالبال من أعداد لانستطيع حصرها ، فالانسان قد ملئ جسمه منها لتحافظ عليه وتقاتل مالاحصرله من أمثالها الهاجات عليه لأمراضه أولقتله مما أصبح اليوم معلوما مشهورا فلانطيل به . اقرأ هذا المقام فى [سورة الفتح] عند تفسير مثل هذه الآية .

النبات وكثرته

ونكتفى من عالم النبات بأدقّ مافيه ، وذلك هو الطلع ، فانك اذا عددت حبات اللقاح فى زهرة [القادنيا] وهوعود الصليب وجدتها تحتوى على ٠٠٠ر٠٠٠ر٣ أو ٠٠٠ر٠٠٠ر٤ من حبات اللقاح ، وهذا العدد فى زهرة واحدة ، فماذا يكون فى شجرة واحدة ؟ ثم فى بستان واحد ، ثم فى الكرة الأرضية كلها ؟ لابدّ أنك تقول : « ومايعلم جنود ربك إلا هو وماهى إلا ذكرى للبشر » ، إذن لاعجب إذا رأيت فوق بعض الغابات غيما عظيما سائرا فى الجوّ وماهو بماء ولابتراب وانما هوتلك الحبات المتطايرة من الأزهار اجتمعت فى الجوّ وسارت فى طرق مختلفة باختلاف الأنواع التى طارت منها وسارت إلى الزهرات فى الأقطار البعيدة لتلقحها من غير قصد ، والذى يصيب الزهرات من ذلك السحاب الطامى قليل جدّا ولكنه كاف فى نماء الثمرات فى أنحاء الكرة الأرضية ، فأما باقى ذلك الغيم الكثيف فانه يتبدد و ينتشر بلافائدة معروفة للانسان ، وانما جعل هذا كله فى الطبيعة ليكون ضمانا لحفظ الأنواع النباتية ، ولولا ذلك لانعدمت هذه الأنواع من الأرض ، وليس يمكن أن يجاب السائل عن هذه الأعداد بغير جواب القرآن : « ومايعلم جنود ربك إلا هو وماهى إلاذكرى للبشر » انتهى تفسير [سورة المدّثر] يوم الأربعاء ٢٢ يوليوسنة ١٩٢٥ غرة المحرّم الحرام سنة ١٣٤٤ والحمدلله رب العالمين .

ولقد كنت كتبت مقالة مطوّلة تحت عنوان هذه الآية : « وما يعلم جنود ربك إلا هو وماهى إلا ذكرى للبشر» بتاريخ ٢٢ يناير سنة ١٩٢٧ م ولما كان المقام لا يسعها أرجأنا درجها للملحق الذى وعدنا بنشره بعد تمام التفسير ان شاء الله وطالت الحياة اهـ

تفسير سورة القيامة

هى مكية

آياتها ٤٠ — نزلت بعد سورة القارعة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ * وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ * أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ * بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ * بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ * يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ * فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ * وَخَسَفَ الْقَمَرُ * وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ * يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ * كَلَّا لَا وَزَرَ * إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ * يُنَبَّأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ * بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ * وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ * لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ * كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ * وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ * وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ * تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ * كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ * وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ * وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ * وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ * إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ * فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ * وَلَٰكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ * ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ * أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ * ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ * أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى * أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَىٰ * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ * فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَىٰ * أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ *

هذه السورة كلها فى وصف يوم القيامة ، وقد بدئت بالاستدلال بعجائب خلق الانسان وتسوية عظامه ، وختمت بمثل ذلك ، و بقيتها فى الحساب وأهوال القيامة .

التفسير اللفظى

بسم الله الرحمن الرحيم

(لا أقسم بيوم القيامة ، ولا أقسم بالنفس اللوّامة) يقول الله : أقسم بيوم القيامة وأقسم بالنفس التى تلوم نفسها أبدا وان اجتهدت فى الطاعة ، أوجنس النفوس ، فان كل نفس يوم القيامة سواء أكانت بارّة أم فاجرة تلوم نفسها ، ان عملت خيرا قالت كيف لم أزدد ، وان عملت شرّا قالت ياليتنى كنت تركته كما أفاده حديث مروىّ فى ذلك .

أقسم الله بالقيامة و بتلك النفس على بعثنا : أى لتبعثن ، فقد أقسم بعظمة القيامة ، والنفس الطماحة إلى الرقىّ ، الجانحة إلى العلوّ ، التى لاترضى بمرتبة إلا طلبت سواها ، ولا بحالة إلا أحبت ماتلاها ، ورامت مافوقها ، وهذا القسم كأنه استدلال على القيامة ، يقول : إنّ مافى النفوس من حبّ الرقىّ وعدم الوقوف عند حدّ محدود فى هذه الحياة ، وفى كل حياة دليل على أن هناك حالا أخرى ينال فيها الانسان ما كان يرغبه ، إن طبع الانسان يدل على القيامة ، إن طموح الناس للمعالى وجشعهم وحرصهم وازديادهم فى المال والعلم وعدم الوقوف على حال واحدة دليل على أن هناك حالا أخرى ، إن النفوس الانسانية مشغوفة بالاستطلاع ، مجبولة على حب البحث ، مفطورة على حب الغلبة والقهر ، ذلك لتستطيع أن تملك أكثر مما ملكت ، وتحوز أكثر مما حازت ، وتعلم أكثر مما علمت ، انها لاتكتفى بعلم ولا بمال ، وما رأينا ملكا يحكم أمة إلا طمع أن يأخذ غيرها ، ولاغنيا ورث مالا وزاد عليه إلا طمع فيما سواه ، ولايملأ عين ابن آدم إلا التراب ، فهل خلقت هذه الشهوات والرغبات فينا عبثا ؟ كلا . ثم كلا . إن ذلك لم يكن إلا لسرّ سيتضح بعد الموت و يوم القيامة ، إن لم يكن للانسان مثل تلك الغاية فالحياة باطلة وكل نظام فى الأرض خسران مبين ، لم نجد قوّة كامنة فينا وفى الحيوان إلا لغاية ، فياليت شعرى ماغاية هذه الأطماع والحروب والتفانى فى العلوم ، والتملك والقهر ، و بناء السفن ، واختراع الأسلحة ، وماهذا الجشع ، وماهذا الهلع ؟ أكل هذا لحياة قصيرة لاتساوى كل هذا العناء ؟ يجيبك القرآن قائلا : أنا أقسم بالنفس التوّاقة إلى المعالى التى لاتقف عند حدّ ، ومعنى هذا أن تلك القوّة أودعت فى نفوسنا ، لأنها خلقت لتكون فى عالم يطلع على كل شىء ولايعزب على شىء وهو عالم الأرواح فى أعلى الجنان ، فمادام لم يصل إلى ذلك العالم فانه يظنّ أنه خلق لهذه المادّة وتملكها لعدم علمه بالحقائق فيتخبط فى الحياة ، إذن هذا القسم ذكر للاستدلال ، فطموح النفوس إلى العلا برهان على أنها ستكون فى عالم آخر تنال فيه بغيتها ، فاذا أقسم الله بمخلوقاته على حكمته وعلوّ شأنه وعظمته استدلالا على ذلك ، فهكذا هنا يقسم بالنفس اللوّامة استدلالا على أنها واصلة يوما مّا إلى عالم أكمل من هذا العالم لتنال فيه ماتطلبه ، إن فى إلهام النحل جمع العسل ، وفى عدم إلهام الجراد والزنابير الجمع والادّخار ، وأن الأوّل يعيش فى الشتاء والآخرين لايعتاجان فيه دليلا عجيبا لحكمة هذا القسم فتفطن .

إن هذا القسم وأمثاله لم يطرق آذان العرب ، أولئك الذين لايقسمون إلا بأشياء معهودة فيما بينهم ، لايتجاوزونها فيقسمون بالأب و بالعمر و بالكعبة ، ولكنهم لايقسمون بهذه الأقسام العجيبة التى فيها دلائل على مايقصد فى جوابها ، وفيها فتح باب للبراهين والحكمة والعلم .

ثم إن [لا] التى ذكرت قبل القسمين زائدة للتأكيد واردة فى كلام العرب ، ألاترى إلى قول امرىء القيس :

لا وأبيك ابنة العامرى ✲ لايدّعى القوم أنى أفر

وقول غيره :

تذكرت ليلى فاعترتنى صبابة * وكاد ضمير القلب لاينقطع

أقسم الله بالقيامة وبالنفس اللوّامة التوّاقة للمعالى أننا سنبعث ، ثم أردفه باستنكار استبعاد ذلك ، إذ روى أن عدى بن أبى ربيعة سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أمر القيامة ، فأخبره به فقال : لوعاينت ذلك اليوم لم أصدّقك ، أن يجمع الله هذه العظام فقال (أيحسب الانسان) أى جنسه ، والمراد به المنكر للبعث المذكور وغيره (أن لن نجمع عظامه) بعد تفرّقها ورجوعها رفاتا (بلى) أى نجمعها حال كوننا (قادرين على أن نسوّى بنانه) أى نسوّى سلامياته على صغرها ودقتها ونؤلف بينها حتى تستوى البنان ، فمن يقدر على جمع العظام الصغار فهو لامحالة على غيرها من الكبار أقدر .

واعلم أن عظام أصابع اليدين ثلاثون ، وعظام أصابع الرجلين ٢٨ فيكون مجموعهما ٥٨ وهذه عظام دقيقة وضعت لمنافع لولاها ماتمت تلك المنافع كالقبض والبسط واستعمال اليدين فى الجذب والدفع وغيرهما مما لايحصى ، فلولا دقة هذه العظام وحسن تركيبها ما انتظمت الأعمال المترتبة على اليدين ، وجميع العظام فى الانسان ٢٤٨ عضوا ، وهاك بيانها :

١٢٦		١٢٢	
٦	عظام الرأس .	٢	الزندان الأعليان .
٤	عظام الزوج .	٢	الزندان الأسفلان .
١٤	عظام اللحى الأعلى .	١٦	عظام رسغى الكفين .
١٦	عظام الأسنان العليا .	٨	عظام مشط الكفين .
١	العظم الشبيه بالوتد .	٣٠	عظام أصابع اليدين .
٢	عظام اللحى الأسفل .	٢	عظام الوركين .
١٦	الأسنان السفلى .	٢	عظام الفخذين .
٢٤	فقار الصلب .	٢	عظام الركبتين .
٣	عظام العجز .	٤	قصب الساق .
٣	عظام العصعص .	٢	الكعبان .
٢٤	عظام الأضلاع .	٢	العقبان .
٧	عظام القص .	٢	العظام الزورقية .
٢	الكتفان .	٨	عظام رسغى القدمين .
٢	رأسا الكتفين .	١٠	عظام مشطى القدمين .
٢	عضدان .	٢٨	عظام أصابع الرجلين .
		٢	عظم العانة .

المجموع ٢٤٨

وأنت ترى أن أصابع اليدين وحدهما فيهما ٣٠ فاذا أضيف الرسغان ١٦ ومشطا الكفين ٨ كان المجموع ٥٤ فيكون لكل يد ٢٧ وحدها من الرسغ إلى أطراف الأصابع ، وهذا العدد هو عين عدد الجمجمة ٦ مضافا إليها عدد الأسنان ٣٢ والفكين ١٦ .

أيها الذكىّ : ما أحسن العلم والحكمة ، أنظر تجد عظام الأنسان مجموعة ، وكيف هندمت على هذا

النظام لفوائد نافعة فى الحياة ، انظر كيف ركب الرسغان فى اليدين من ١٦ عظما ومشطا الكفين من ٨ ثم ركب مشطا كفى الرجلين ورسغاهما من أعظم متعددة لشدة الحاجة إلى العمل والحركة ، أما جمجمة الرأس فمن ستة أعظم لاغير ، إن أصابع اليدين والرجلين تبلغ عظامهما ٥٨ عظما ، وجمجمة الرأس لاتزيد عن ستة ، ذلك لأن الجمجمة لمجرد الوقاية ، أما الأصابع فهى للعمل ، فلذلك صنعت بدقة واحكام ، وانظر إلى الفقرات كيف تعددت ولم تجعل عظمة واحدة ، ذلك لأنها لوكانت كذلك لعاقت الحركات ، ولامتنعت البركات ، ولم يعش بالسعادة والخير الانسان ، فجعلت الفقرات متتاليات ليمكنه الحركة والسكون ، ويكون ذلك سهلا عليه أينما كان ، فلولا الفقرات وتفصيلها لم يقدر على الانحناء للأعمال والحركات المختلفة ، بل يكون منتصبا كالخشبة ، أوكالعمود ، ثم عطف على قوله : « أيحسب الانسان » قوله (بل يريد الانسان ليفجر أمامه) وهذا اضراب عما قبله ، يقول : إن الانسان يريد أن يدوم فجوره فيما يستقبل من الزمان ، لاينزع عن فجوره ، ولايتخلى عن شروره ، ولذلك ترى الكافر من نوع الانسان (يسأل أيان يوم القيامة) أى متى يكون يوم القيامة ؟ وهذا استبعاد واستهزاء (فاذا برق البصر) تحير فزعا عند رؤية أهوال القيامة (وخسف القمر) ذهب ضوءه (وجمع الشمس والقمر) جمعهما وصف واحد ، وهو ذهاب الضوء (يقول الانسان يومئذ أين المفر) أى المهرب ، وهذا ظاهر فى أحوال القيامة ، ونظيره فى الدنيا مايخص المرء فى نفسه فيحار بصره فزعا ، ويذهب ضوء البصر عند الموت ويموت فيجتمع العقل الذى هو شبيه بالقمر مع الأرواح العليا التى كان يستمد منها الشبيهة بالشمس ، فيصير معنى العبارة : فاذا قامت القيامة يقول الانسان يومئذ أين المفر ، وهذا كناية عن ساعة الموت : وقد بينت لك فيما تقدم أن هذه الكناية ملىء بها القرآن ، فاذا ذكر يوم القيامة فقد ورّى بحال الموت ، والحق أن الانسان فى حال موته تقوم قيامته الخاصة به ، فمتى فزع هو وذهب بصره واجتمع هو بالملأ الأعلى ، فهذا كل مايخصه من أحوال الآخرة القريبة ، أما يوم القيامة فهو نتائج لما يلقاه فى البرزخ ، فيكون ظاهر اللفظ للعموم ، والكناية يفقهها الخواص (كلا) ردع عن طلب المفر (لاوزر) لاملجأ ولاحرز ولاجبل ، وقد كانوا إذا فزعوا يلجئون إلى الجبال فقيل لهم : لاجبل لكم يومئذ تتحصنون فيه (إلى ربك يومئذ المستقر) مستقر الخلق (ينبأ الانسان يومئذ بما قدم وأخر) بما قدم من عمل عمله وبما أخر منه لم يعمله (بل الانسان على نفسه بصيرة) أى بل الانسان على نفسه شاهد ، فتكون الهاء للمبالغة ، فالانسان حجة بينة على أعمال نفسه ، لأنه يشاهدها (ولو ألقى معاذيره) ولوجاء بكل ما يمكن أن يعتذر به ، جمع معذار وهو العذر ، فذنوب الانسان إذن ملازمة له لاتفارقه ، لأنها أخلاق ملازمة له ، لاصقة به ، تابعة له فى حله وترحاله ، ناهيك بما ترى من العادات التى تأخذ بالألباب ، ولاتذر أربابها ككثرة الكلام وشرب الخمر والدخان وما أشبه ذلك ، فهذه الأخلاق تؤذى صاحبها وتقوم حجة بينة على نفسه فيقذف به فى المهاوى البعيدة (لاتحرك) يامحمد (به) بالقرآن (لسانك) قبل أن يتم وحيه (لتعجل به) لتأخذه على عجلة مخافة أن ينفلت منك (إن علينا جمعه) فى صدرك (وقرآنه) واثبات قراءته فى لسانك ، فالقرآن القراءة (فاذا قرأناه) أى قرأه عليك جبريل ، فجعل قراءة جبريل قراءته (فاتبع قرآنه) أى قراءته عليك (ثم ان علينا بيانه) اذا أشكل عليك شىء من معانيه فنحن نبينه لك ، وذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم كان اذا أشكل عليه شىء سأل جبريل عن معانيه ، لأنه حريص على العلم فقيل له نحن نبينه لك ، وقوله تعالى (كلا) ردع للرسول صلى الله عليه وسلم عن العجلة وللكفار عن انكار البعث ، يقول الله : أنتم أيها الكفار تريدون العاجلة ، وأنت أيها النبى تعجل عند تلقى الوحى (بل تحبون العاجلة) أى أنتم يابنى آدم تعجلون فى كل شىء لأنكم خلقتم من عجل وطبعتم عليه ، ومثال ذلك أنكم تحبون العاجلة الدنيا وشهواتها (وتذرون الآخرة) الدار الآخرة ونعيمها فلاتعملون لها

(وجوه يومئذ ناضرة) حسنة مسرورة بالنعيم ، مسفرة مضيئة بيض ، يعلوها نور وبهاء ، مشرقة بالنعيم (إلى ربها ناظرة) أى تنظر إلى ربها عيانا بلاحجاب فتكون نضرة ، وهى تنظر إلى الخالق (ووجوه يومئذ باسرة) شديدة العبوس كالحة متغيرة مسودّة قد أظلمت ألوانها وعدمت آثار النعمة والسرور منها لما أدركها من اليأس (تظنّ) تستيقن (أن يفعل بها فاقرة) أى داهية عظيمة تكسر فقار الظهر وتقصمه ، وأشدّ أنواع الفاقرة أن يحجب الانسان عن رؤية الله (كلا) ردع عن إيثار الدنيا (إذا بلغت التراقى) أى اذا بلغت النفس أعالى الصدر ، وهى جمع ترقوة ، وهى العظام التى بين ثغرة النحر والعاتق ، وهذا كناية عن اشراف النفس على الموت . قال دريد بن الصمة :

ورب عظيمة دافعت عنها ✡ وقد بلغت نفوسهم التراقى

وقوله (وقيل من راق) أى وقال من حضره : هل من طبيب يرقيه ويداويه مما نزل به ويخلصه من ذلك برقيته ودوائه ؟ (وظنّ أنه الفراق) أى وظنّ المحتضر أن الذى نزل به فراق الدنيا ومحابها (والتفت الساق بالساق) أى والتوت ساقه بساقه فلا يقدر على تحريكها ، وهذا يكنى به عن التفاف شدّة فراق الدنيا بشدّة خوف الآخرة (إلى ربك يومئذ المساق) أى سوقه إلى الله تعالى وحكمه (فلا صدّق) بالرسول والقرآن ، أولا صدّق ماله : أى زكاه (ولاصلى) مافرض عليه ، الضمير فى صدّق وصلى للانسان (ولكن كذب وتولى) عن الطاعة (ثم ذهب إلى أهله يتمطى) يتبختر افتخارا بذلك ، من المط ، فانك ترى المتبختر يمدّ خطاه ، إذن أصله يتمطط (أولى لك فأولى) أى ويل لك مرّة بعد مرّة : أى أولاك الله ماتكرهه ، واللام مزيدة ، فيكون الفاعل مضمرا والمفعول الثانى محذوف (ثم أولى لك فأولى) أى يتكرّر عليه ذاك مرّة بعد أخرى (أيحسب الانسان أن يترك سدى) أى أيحسب الكافر أن يترك مهملا لايؤمر ولا ينهى ، ولايبعث ولايجازى ، وكيف يهمل ؟ (ألم يك نطفة من منىّ يمنى) أى يراق فى الرحم (ثم كان علقة) أى صار المنى قطعة دم جامد (فخلق فسوّى) فخلق الله منه بشرا سويا (فجعل منه) من الانسان (الزوجين الذكر والأنثى) أى الصنفين (أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى) أى أليس الفعال لهذه الأشياء بقادر على إعادتها . انتهى التفسير اللفظى للسورة كلها ، والحمد لله رب العالمين .

لطيفة ذات شعبتين

الأولى فى قوله تعالى : وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة

الثانية فى قوله تعالى : ألم يك نطفة من مني يمنى ، ثم كان علقة فخلق فسوّى ، فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى

فلنبدأ الكلام على الشعبة الأولى ، وهى النظر إلى وجه الله ، ونبدأ بما ورد فى الصحيح فنقول ومن الله التوفيق :

جاء فى رواية البخارى ومسلم عن جرير بن عبد الله قال : « كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فنظر إلى القمر ليلة البدر ، وقال : انكم سترون ربكم عيانا كما ترون هذا القمر لاتضامّون فى رؤيته : أى لاينضم بعضكم إلى بعض ولاتزدحمون وقت النظر إليه ، فان استطعتم ألاتغلبوا عن صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا » .

وفى حديث رواه مسلم ، قال : « اذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تبارك وتعالى : هل تريدون شيئا

أز يدكم ؟ فيقولون : ألم تبيض وجوهنا ، ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار ، قال فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم تبارك وتعالى » .

ويروى عن أبي رزين العقيلي . قال «قلت يارسول الله : أكلنا يرى ربه مخليا به يوم القيامة ؟ قال نعم ، قلت : وما آية ذلك في خلقه ؟ قال يا أبا رزين : أليس كلكم يرى القمر ليلة البدر مخليا به ؟ قلت بلى ، قال فالله أعظم ، إنما هو (أي القمر) خلق من خلق الله ، فالله أجل وأعظم » .

هذا ما أردت ذكره من الأحاديث في هذا المقام ، هاأنت ذا اطلعت على كلام النبوة ، وأنه صلى الله عليه وسلم أخبر في الصحيح أن الناس بعد أن ينالوا جزاءهم المادي في الجنة ينقلهم إلى مرتبة أعلى ومقام أجلى ، وهي أن يكشف لهم الحجاب فيرونه .

هذا هو الذي ورد في الصحيح ، ومعنى هذا أن السعادة قسمان : حسية ، وعقلية ، والحسية هي الجنة ونعيمها ، والعقلية النظر إلى وجه الله ، وقد فضل الله النظر إليه عن الجنة وجعلها أفضل منها .

واعلم أن هذا القول ليس يعقله جميع الناس ، وإنما يعقله الخواص ، وهاأناذا أبين هذا المقام بعض التبيان فأقول :

اعلم أن نفوس بني آدم متفاوتة في هذه الأرض ، فمنهم من لايحب ربه إلا لأجل اللذات الحسية ، وليس له منها إلا هذا الحظ ، فاذا قابل ربه فليس يحب لقاءه لذاته بل للفوائد المترتبة عليه ، وبيانه أن الخدم والعبيد وأصحاب النفوس الضعيفة لايحبون المخدومين ولا السادة ولا العظماء إلا لجلب منفعة أولدفع مضرة ، فأما المحبة المبنية على الاخاء والاخلاص وتناسب الأرواح وتمازجها واتفاقها فلا ، وكيف يحب الذليل العزيز والنفسان مفترقتان ؟ وكيف يكون الحب إلا بالاتحاد ، فاتحاد الأنفس في الصفات والأخلاق والعادات هو الموجب للحب ، وعدم الاتحاد هو الموجب للتفرق ، وحب العبد لله لن يكون قط إلا اذا كانت صلة ، وأين الصلة بين الخالق والمخلوق ، فلاسبيل للصلة بين الذاتين ، ولكن هناك أمر واحد هو العلم .

قد يحب الانسان ربه لأنه آتاه بلذات يشتهيها ، فاذا ذهبت تلك اللذات فأين ذهب الحب ، واذا مات وقد حرم أهله وماله وتمتع به أعداؤه فأين يكون الحب إذن ؟ لايبقى إلا أمر واحد هو العلم ، العلم هو مبدأ الحب الحقيقي ، وكلما ازداد العبد علما بهذا العالم ازداد من خالقه قربا ، وقرب العبد من الله بالعلم بما في هذا العالم من الجمال والحكمة ، وهذا أمر لايدرك إلا بكثرة الممارسة والنظر والفكر ، فهذا الحب يكون باقيا مابقي العلم ، فالمغرمون بالعلم في الدنيا هم الفرحون بالنظر إلى وجهه يوم القيامة : أي بانكشاف الحقائق لنفوسهم ومعرفة ربهم معرفة أرقى من معرفة البصر ، إن البصر لايرى إلا ظواهر الأجسام ، والعلم يدرك الظواهر والبواطن ، وكل يوم القيامة يعرف من الله على مقدار علمه في الدنيا ، ويرى العابدون ربهم رؤية أقل من رؤية العلماء بما لايتناهى .

ألا فليعجب المسلمون كيف كانت رؤية الله الواردة في الصحيح أجل من الجنة ، وكيف كانت على مقدار العلم في الدنيا ، ولامعنى للعلم في هذا المقام إلا العلم بصفات الله ، وذلك بدراسة الآثار : أي بدراسة علوم الطبيعة والفلك ، وكل ماظهر من العلوم في الأرض .

عجبا عجبا ! هل يعلم المسلمون ذلك ؟ هل يعلمون أنهم بالعلم في الدنيا ينظرون ربهم في الآخرة ؟ هل يعلم المسلمون أن قراءة العلوم الطبيعية والفلكية من الوجهة الإلهية ترقيهم عند ربهم يوم القيامة كما أن قراءتها من الوجهة الدنيوية ترقيهم في الدنيا ، إذن المسلمون اليوم نائمون عما يقربهم من ربهم وعما يرقيهم في دنياهم ، إذن رقي دولهم في الدنيا ونبوغهم في علوم الكائنات هو نفسه يفتح لهم باب النصر والسعادة في الدنيا ، ونفس هذا الحب هو الباب للرؤية ، فاذن المسلمون اليوم لاهون عن أمرين : عن رؤية ربهم

يوم القيامة ، وعن الرقيّ فى الدنيا ، أليس هذا من العجب ! جهالة فى الدنيا واحتجاب عن الله ، ورقىّ فى الدنيا ورؤية الله ، أحدهما بالجهل ، والثانى بالعلم ، هل يعلم المسلمون ذلك ؟ .

إياك أيها الذكىّ أن تشك فى قولى إن الرؤية فى الآخرة راجعة للعلم فقد قرّرها العلماء ، لاترى الله بعينيك هاتين ، هاتان العينان ترى بهما الحيوان والانسان والجماد وامرأتك وأولادك ، فأما العلم فانه يريك المتقدمين والمتأخرين ، ويريك علوم الهندسة والحساب ، فأنت توقن أن زوايا المثلث تساوى قائمتين بعقلك لابعينك ، فهناك رؤية أجلّ من رؤية العين ، فهذا مثل ضربته لك لتعلم أن الله يرى بعين أخرى غير هذه العين ، بل هى أرقى منها ، ومقدّمة تلك العين العلوم فى الدنيا ، وأنت اليوم تعرف نفسك فان رأيت أنك مغرم بعجائب هذه الدنيا وحكمها وبهجتها لذاتها ، ورأيت فى قلبك غراما بالصانع ، وكلما زدت علما بالعالم الذى نحن فيه زاد قلبك حنينا إلى من صنع هذه الصنعة ، فاعلم أن هذا مبدأ لأسباب الرؤية ، فكلما ازددت علما ازددت حبا وغراما وعشقا ، وهكذا يتوالى العلوم يتوالى الحبّ وتسمو نفسك ، وترى أنك فى عالم غريب عن ذلك الجمال وتمنى لوتكون فى خلوة مؤتنسا بهذا الجمال ، فاعلم أنك أنت الذى ستلاقى ربك ملاقاة أفضل من ملاقاة العابد الذى أحبه بالوجدان وحده وهوخال من العلم ، فرؤية القمر فى الحديث ضرب مثل لماذكرناه ، فاذا تحققت بالعلم على الوجه الذى ذكرته لك رأيت فى نفسك عجبا ! رأيت حبك للناس يزداد ، وترى فى نفسك ميلا لرقيهم ، ثم هم يقبلون منك ، أتدرى لماذا ؟ لأنك أهل للعلم والتعليم لمابينك وبين الله من صلة ، وهى العلم ، فيمدّك وتمدّ الناس ، واذا أكثرت من الذكر اللفظى والقلبى زاد تلك العلاقة . وهنا نذكر الشعبة الثانية :

الشعبة الثانية

وفيها مقامان : المقام الأوّل فى قوله تعالى : « كلا اذا بلغت التراقى ، وقيل من راق ، وظنّ أنه الفراق ، والتفت الساق بالساق إلى ربك يومئذ المساق ، فلاصدّق ولاصلى ، ولكن كذب وتولى ثم ذهب إلى أهله يتمطى ، أولى لك فأولى ، ثم أولى لك فأولى ، أيحسب الانسان أن يترك سدى ، ألم يك نطفة من منىّ يمنى ، ثم كان علقة فخلق فسوّى »

المقام الثانى فى قوله تعالى : « فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى »

[المقام الأوّل] يصف الله تعالى حال الانسان عند الاحتضار بصفات :

(١) أن تبلغ الروح التراقى صاعدة من الجسم إلى العالم الروحى .

(٢) ويقول من حول المحتضر : من ذا الذى يرقيه ، ومن المرض يشفيه ؟ وفى ذكر [راق] من البلاغة مايعجز كل لبيب ويقف دونها كل منطيق ، وذلك أن حول المحتضر جماعتين ، أهله الباكون ، والملائكة الموكلون ، فبينما أهله يقولون نرقيه من الرقية ليشفى من مرضه يقول الملائكة بعضهم لبعض من يرقى روحه اذا خرجت فيصعد بها إلى ملائكة الرحمة أوملائكة العذاب ، فهى إما للتورية ، وإما للكناية ، فهذه الكلمة لايحلّ غيرها محلها ، وهذه بلاغة تعجز أكابر الفصحاء ، فانه لوحظ فيها عمل الملائكة وأعمال الانسان ، وهذا كقول الشاعر :

خاط لى عمرو قباء ✽ ليت عينيه سواء

وعمرو كان أعور فلايدرى أيريد أنه يكون أعمى أويكون صحيح العينين ، فهكذا هنا لايدرى أهومن رقية الشفاء ، أومن الترقية التى تتبع الموت ، والحقيقة أن ملاحظة المعنيين فى هذا المقام من أدقّ التعبير ، وأعجب الأساليب ، وأبدع الأحكام ، فكأنّ الله يقول : ان الميت يندبه أهله ، ويبكيه خاله وعمه ، ويطلبون

الطبيب لانقاذه من الموت ، والملائكة إذ ذاك يتشاورون فى أمر هلاكه : وفوت أملاكه ، ولايزال الأوّلون يطلبون والآخرون يقبضون حتى تزهق روحه إلى ذى العزّة والجلال .

(٣) وظنّ المريض أن هذا هوالفراق .

(٤) والتفت الساق بالساق .

(٥) فهنالك تصعد الروح إلى ربها .

(٦) ويحاسب على النقير والقطمير وحبة البرّ ، وحبة الشعير ، وهنا قرع الانسان على جهله بما يأتى : انه كان نطفة ، ثم علقة فقدّرالله خلقه ، ثم سوّاه ، وهذا المقام يشمل جملة علوم : التشريح ، وعلم الأجنة ، وعلم النبات ، وعلم الحيوان ، وعلم الطب ، وعلم السياسة والاجتماع ، وعلم الأخلاق ، وعلم التربية ، وعلم المنطق أيضا ، وسيجىء فى المقام الثانى علم اصلاح العالم الانسانى الآن .

ذكرت لك سابقا أن النظر لوجه الله فى الآخرة لن يكون إلا للعاشقين هنا ، ولاعشق إلا بعلم ، ولاعلم فى هذا المقام إلا بهذه العوالم الجميلة المحيطة بنا ، وقلت أيضا : إن العلوم التى بها نرقى أممنا هى أنفسها التى بها نحب ربنا ونراه ، وقلت : ان المسلمين عن هذا القول معرضون .

أقول : كنا نودّ أن نوضح هذا المقام بنبذة من علم التشريح لم يسبق ذكرها فى هذا التفسير من كتابى [الفلسفة] الذى ألفته للطبقة المتعلمة فى البلاد المصرية وغيرها ، وهى تشمل : وصف القدماء للدماغ والغشاءين الرقيق والغليظ ، وكذلك مافيه من التقاسيم والرئة والقلب ، وكيف يتفرّع الدم منه إلى كل جزء من أجزاء الجسم ، وهكذا الطحال والكبد ليوازن الأذكياء بين وصف القدماء ووصف علماء العصر الحاضر الذى تقدّم كثيرا فى هذا التفسير مشروحا موضحا بالصور الشمسية لاسيما فى أمثال [سورة فاطر] ولكن اخترت أن أرجئه لفرصة أخرى فى ملحق التفسير ان شاء الله تعالى وطالت الحياة ، والله هوالولىّ الحميد .

وهذا التشريح فى حدّ ذاته غيرمقصود ، وانما يقصد لجملة علوم :

(١) العلم الأوّل — علم الطب : إن الطبيب يعتمد كل الاعتماد على علم التشريح الدقيق المستوفى ، فهو يبحث ويعرف كل عضو فى الجسد ومستقرّه ، فيعرف الرئة والقلب والطحال والكبد والمعدة والأمعاء الدقاق والغلاظ ، ويدرك العلاقة بين الأعضاء ، وبالجملة يكون الطبيب أعلم الناس بأعضاء الجسم وجميع مايشتمل عليه .

(٢) العلم الثانى — علم الأجنة : المسمى [بيولوجى] ولست أقول ان علم التشريح يكون سبيلا لهذا العلم ، وانما علم الأجنة بالنسبة لعلم التشريح أشبه بعلم اللغة بالنسبة لعلم الصرف ، فعلم الأجنة يبين سير الجنين فى النموّ فى بطن أمه والدرجات التى مرّ عليها أثناء الحمل فيه ، وأما علم التشريح فقد عرفته .

(٣) العلم الثالث — علم النبات ، وليس المقصود أن علم النبات نتيجة لعلم التشريح ، بل هناك اشتراك فى بعض خواص ، وهاك بيانها :

إن النبات يتغذى وينمو ويلد ويموت ، وايضاحه أنك ترى الانسان يزدرد الطعام فتتلقاه القوّة الجاذبة فتمسكه فى المعدة الماسكة لئلا ينحدر قبل الهضم فتهضمه الهاضمة فتدفعه قوّة أخرى وهى الدافعة ، ثم تتلقى الخالص النقىّ منه قوّة أخرى وهى الغاذية ، ثم أخرى وهى النامية ، ثم يلد المثل فتكون القوّة المصوّرة ، فهذه سبع قوى : الجاذبة ، الماسكة ، الهاضمة ، الدافعة ، الغاذية ، النامية ، المصوّرة .

فهذه القوى السبع فى الانسان ، وفى الحيوان ، وفى النبات ، فبهذا لما درسنا التشريح درسنا معه قوى النبات ، وقوى الحيوان الذى اشترك معه فى تلك القوى السبع .

(٤) العلم الرابع — علم الحيوان : وقد علمت أن القوى السبع المذكورة عرفناها فى الحيوان مع الانسان ، وهناك قوى أخرى خاصة بالحيوان والانسان ولاتكون فى النبات ، وهى الحس والحركة ، والحس عبارة عن خمس حواس ، والحركة إما عن شهوة ، أو غضب ، أو للجلب والدفع ، فاذا درسنا حس الانسان وحركته فقد درسنا معه الوصفين فى الحيوان .

(٥) العلم الخامس : من العلوم المناسبة للتشريح علم النفس ، ولقد بينت ملخصا منه فى هذا التفسير ، والنفس يفصل فيها القوة الشهوية ، والقوة الغضبية ، والقوة العاقلة ، و يبين خصائص تلك القوى وأحوالها

(٦) العلم السادس — علم التربية : وهو [البيداجوجيا] ، وهو الفن الذى به يعلم التلميذ بأسهل الطرق ، وهذا الفن له ارتباط بعلم النفس وعلم النفس مرتبط بالتشريح .

(٧) العلم السابع — علم السياسة : وذلك أن العلامة الفارابى ألف كتابا يسمى [آراء أهل المدينة الفاضلة] وهذا الكتاب مبنى كله على علم التشريح ، فانك تراه شرح الرأس ، وفقار الظهر ، وأعصاب الحس وأعصاب الحركة ، وقال : إن النخاع الشوكى متصل بالمخ ، والأوامر تصدر من الدماغ محل الفكر إلى النخاع الشوكى ، والنخاع الشوكى موصل إلى الأعصاب المحيطة بالفقرات ، فتلتقط أعصاب الحس الأخبار وتوصلها إلى الأعضاء العاملة ، فتتحرك بأعصاب الحركة بعد انتقال الأوامر من أعصاب الحس ، وجعل الجسم كله مابين خادم ومخدوم كالفم والمعدة والأمعاء والكبد والحالبين والمثانة ، فكل واحد من هؤلاء خادم لما بعده ، وهكذا إلى آخرها ، فكما أن المنافع موزعة على الأعضاء هكذا أعمال المدينة توزع على الأشخاص كل بحسبه ، فلاتوضع المعدة محل الرأس فى التفكير ، هكذا نظيرها فى نوع الانسان ، وعلى ذلك يوضع كل واحد فى مركزه ، والرئيس فى مركزه ، وان لم يوجد رئيس مستوفى الشروط فليكن جمع فيه هذه الشروط ، وقال : إن الأمة كلها يجب أن تكون على هذا الوضع ، والأمم على سطح الأرض يجب أن يكونوا هكذا كأنهم جسم واحد ، وحينئذ تكون أرضنا كرة فاضلة ، هذا ملخص الكتاب الذى بنى على التشريح .

(٨) العلم الثامن — علم ما وراء الطبيعة : هاأنت ذا عرفت أن علم التشريح أحاط به علوم سبعة من علم الأجنة إلى علم النبات والحيوان والنفس الخ ، وليس فى علم من هذه الثمانية ، وهى التشريح وما اتصل به شىء من معرفة الله ، ولذلك تجد عالم النبات ، أوالحيوان ، أوالنفس ، أوالأجنة ، أوعالم الاجتماع ، أوعالم البيداجوجيا ، أوعالم الطب ، كل هؤلاء ، وكذا عالم التشريح يعيشون و يموتون ولايدرون ربهم ولا اليوم الآخر ، هذه هى الحقيقة واضحة جلية .

إن التشريح ومامعه من العلوم السبعة يتعلمها الناس فى الشرق والغرب ولاتدلهم على خالق ولابعث ، وأكثر الذين تعلموا هذه العلوم يكفرون بالديانات ، فاذن مامعنى قوله تعالى : « فخلق فسوّى فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى » وقوله فى أوّل السورة : « بلى قادرين على أن نسوّى بنانه » ؟ الجواب على ذلك أن هذا علم يدرس بنفسه كالعلوم الأخرى ، وهو علم ما وراء الطبيعة : أى العلم الذى لايختص بفنّ ، بل ينظر للعلوم كلها كأنها شجرة واحدة لها جذع وأغصان متفرعات عنه و يصبح العالم عند عالم هذا الفن كأنه شجرة واحدة مفرّعة إلى فروع ، وكأنما هو جسم واحد له أعضاء متضامة ، فهؤلاء هم الذين يدرسون نظام الكون كله ، و يستخدمون جميع العلوم فى علمهم ، فمعنى كونه وراء الطبيعة أنه لايختص بعلم الرياضيات ولا بعلم الطبيعيات ، بل هو علم عام يبحث فى العلوم جميعها وتقسيمها ، و يستدل على العالم الذى لم نره وفى الله وفى النبوّات وما أشبه ذلك ، ومنه مبدأ العلوم ، وهذا العلم هو طريق القرآن ، فصاحب هذا الفنّ ينظر من وجهة خاصة ، فليس ينظر من حيث سير الجنين فى نموّه ، ولامن حيث القوى الحيوانية ، أوالنباتية ، أو

المرض

المرض والصحة ، وانما ينظر من حيث حسن الصنعة والاتقان والابداع ، فما أصحاب العلوم السابقة إلا كأصحاب الحقول يزرعونها ولا يعقلون مازرعوا من علم النبات ، هكذا هؤلاء يعرفون علومهم ولكن لايعنيهم حسن النظام والاتقان والاستدلال على الخالق ، ثم حبه ، ثم الغرام ، ثم النظر إلى وجهه ، فحينئذ قوله تعالى « بلى قادرين على أن نسوّى بنانه » وقوله : « ألم يك نطفة من منىّ يمنى ، ثم كان علقة فخلق فسوّى ، فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى » لايدل على المقصود فى هذا المقام إلا اذا نظر له من حيث الاتقان وابداع الصنع ، ثم انك تعلم أن العلوم السبعة المذكورة ضرورية للأمة ، والا كانت ذات نقص مشين ، فهذه العلوم كلها واجبة على الأمة لتحيا ، ولتحفظ ثروتها وقوتها ، وتصحّ أجسام أهلها ، ولكن ليس معنى هذا أنهم يعرفون الله بها ، بل انما يعرف الله بالنظر الخاص من وجهة الصنعة والصانع ، فعلمت إذن أن العلوم المذكورة كلها مطلوبة ، لأنها واجبة فرض كفاية ، ومع ذلك لابدّ من النظر لها من حيث الوجهة الإلهية حتى تدل على الصانع الحكيم وعلى قدرته .

ضرب مثل بالقصر

واعلم أن الناس فى الدنيا أشبه بجماعة يسكنون قصرا بديعا ، فأكثر السكان مشغولون بلذاتهم وأحزانهم وأفراحهم ، وقليل منهم من فكر فى بنائه ، وحسن نظامه ، والاعجاب بالعالم الذى أبدعه ، والنظام الذى أخرجه ، والثروة التى أنتجته ، والغرام بمن بناه وحبه ، ثم الاقتداء به ، والشوق إلى لقائه ، هكذا أهل الأرض يسكنونها و يقرءون علومها ليعيشوا بها ، ومن العلوم التشريح المذكور فى هذه الآية ، وما اتصل به من علم الأجنة والنبات والحيوان والطب وعلم النفس وعلم التربية وعلم السياسة العامة ثم علم الأخلاق لأن له اتصالا تاما بعلم النفس ثم علم المنطق ، يقرأ الناس هذه العلوم ليعيشوا بها ، ولكن هناك علم ماوراء الطبيعة ، وهو الباحث عن النظام العام كما شرحناه ، فليس يتقنه إلاقليل ، وهؤلاء عليهم قوام النوع الانسانى واجتماع كلمته ، والأنبياء أوحى إليهم مايؤيد هذا العلم ويتبعهم الحكماء .

فهل عرفت ما قلته لك : ان معرفة الله وارتقاء المدنية يرجعان لهذه العوالم المشاهدة ، فهى من حيث انها متقنة توصلنا لصانعها ، ومن حيث انها تنفعنا توصلنا لحياتنا الدنيا ، فهى للعقول مرقية ، ولله موصلة ، وللحياة متممة . انتهى الكلام على المقام الأوّل ، والحمد لله رب العالمين .

المقام الثانى فى قوله تعالى : فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى

لعلك فى المقام الأوّل هالك ماترى من علوم متعدّدة قد اقتضاها قوله تعالى : « فخلق فسوّى » وكيف كان علم البحث فى النظام غير العلوم العشرة الأخرى ، وأنه لايلزم من علم الطب أن يعرف الانسان الخالق مالم يدرس الدراسة المطلوبة ، فلئن عجبت من كثرة العلوم فلتعجبنّ ألف مرّة كيف يكون قوله تعالى : « فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى » قد تضمن علما هو معجزة آخر الزمان ، وهو حكمة القرآن ، فانظر وتأمّل فى الذكور والاناث على سطح الكرة الأرضية ، لقد ثبت يقينا أنك اذا حسبت الصنفين فى مواليد الأمم شرقا وغربا أمة أمة ، وقرية قرية ، و بلدة بلدة ، ومجموع الأمم وجدت الصنفين متكافئين عدّا ، فعدد الذكور كعدد الاناث تقريبا ، وهذا التقريب للعوارض التى تحلّ بالأمم أحيانا ، ولما تحققت هذه النظرية فعلا ألفت كتابا مبنيا عليها وعلى حسن النظام فى العالم سميته [أين الانسان] فأين الانسان من هذه الآية وأمثالها كقوله تعالى : « ومن كل شىء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون » .

هذا الكتاب لما ألفته أرسلته إلى بعض جرائد أوروبا ومجلاتها ، وساعدنى على ذلك سيدة من علماء

بلاد الروسيا ، فقد عرضته فى مجتمع علمى ببلاد اليونان ، وممن أخذه الأستاذ [سنتلانه الطليانى] ، ولخص الكتاب تلخيصا ، وقرّظه فى مجلته ، وترجمها المرحوم مصطفى بك رياض من التليانية إلى العربية ، والكتاب ألفته قبل الحرب الكبرى بأربع سنين ، وقد كنت أقول فى نفسى : [إن أوروبا تريد ظلم بلاد الاسلام فلأؤلفن كتابا يكون حجة عليها فى الأجيال المقبلة ، وليكون تذكرة للشبان المسلمين بعدنا . وملخصه يرجع إلى أن نظام هذه الدنيا والأمم والحكومات يجب أن يكون تابعا للنظام الإلهى ، فانا نجده جعل الذكور والاناث متساوبين عدّا مما يدل أن هناك عناية بكل مخلوق ، وهكذا نجد العقول متفاوتة ، والأرض مختلفة البقاع والخواص ، ولابدّ أن يكون هناك تناسب بين العقول والادراكات والخواص الانسانية و بين هذه الأرض وماعليها ، فليغير نظام الأرض والدول ، ولتكن أمم أرقى من هذه . ولما كان شرح الكتاب هنا يطول اختصرت القول ، وقد نقلت لك ما كتبه الأستاذ سنتلانه المذكور المترجم إلى العربية فيما تقدّم فى هذا التفسير عند آية : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا » فى سورة الحجرات ، فقد أثبتّ هناك أن هذه الآية تحضّ المسلمين على أن يكون لهم وجهة تتجه إلى جمع العالم كله فى هيئة تعارف عام ، فاقرأه هناك :

(١) لتطلع على آراء الاوروبيين وفلاسفتهم فى النهضة التى نريدها للمسلمين .

(٢) ولتعلم أن الاسلام يشير إلى مدنية أرقى من مدنية المسلمين اليوم وقبل اليوم ومدنية أوروبا الآن .

(٣) وليكون ذلك داعيا أمم الاسلام أن يأخذوا بمقاليد العلم والحكمة ويتخذوا لهم أسلوبا لترقية النوع الانسانى .

(٤) ولتعلم أن كتاب [أين الانسان] من أجلّ معجزات القرآن فى هذا الزمان .

(٥) وليعلم المسلمون أن ديننا الى الآن لم تظهر كوامنه ، وأن عجائبه لاتظهر إلا بحكماء وعلماء ومفكرين

(٦) وليكون ملخص الكتاب الذى ذكرته مشوّقا لك ومشجعا على سلوك سبل العلم والتفكير اهـ

تذكرة فى قوله تعالى : بلى قادرين على أن نسوّى بنانه

كتب يوم الثلاثاء ١٣ شوّال سنة ١٣٥١ هجرية

اعلم أن مسألة تسوية البنان من أبدع ماجاء به الذكر الحكيم ، ومن أعجب المعجزات القرآنية ، لقد قدّمت فى المجلد التاسع عشر من هذا الكتاب فى تفسير [سورة فصلت] تفصيل الكلام على آية : « حتى اذا ماجاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون . وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شىء وهو خلقكم أوّل مرّة واليه ترجعون . وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولاجلودكم ولكن ظننتم أن الله لايعلم كثيرا مما تعملون » وهناك تقرأ تاريخ بصمات الأصابع ، وأنه تاريخ حديث النشأة ابتدأ ابتداء حقيقيا فى أيام حياتنا نحن سكان الأرض الآن : أى فى أواخر القرن التاسع عشر المسيحى ، ودخل الآن فى دور التنفيذ الفعلى فى الشرق والغرب ، وذلك مبنىّ على أن كل امرئ فى هذه الأرض لاتشابه خطوط أصابعه خطوط أصابع غيره ، وبذلك قامت هذه حجة على السارقين والقاتلين فى أوروبا والشرق الأقصى والشرق الأدنى ، ومنها بلادنا المصرية ، فالقضاة فى المحاكم الأهلية يعوّلون على بصمات الأصابع ، وهناك ترى رسوم أنواع الأكف بالتصوير الشمسى ، وأن خطوط الأصابع مهما تنوّعت تنحصر فى أربعة أقسام ، وكل قسم تكون له أشكال لانهاية لها .

الله أكبر : إذن ذكر البنان فى القرآن لحكمة لم يظهر أثرها فى الحياة الدنيا ظهورا واضحا إلا فى زماننا

وترى فى [سورة يس] أيضا هيئة الشرطة فى اليابان ، وكيف عثروا على الشاب الذى قتل معشوقته بطريق بصمات أصابعه .

إن رحمة الله تجلت فى القرآن وفى الآفاق معجزات ومعجزات ، إذن لاعجب فيما أخبرنى به صديقى محمود بك سالم الذى عاش أكثر حياته بأوروبا لاسيما فرنسا ، فقد قال فى مجمع عظيم مصرى وهو يخطب : ان عالما ألمانيا منذ بضع عشرات السنين اعتنق الاسلام فقيل له لماذا ؟ قال لآية : « بلى قادرين على أن نسوّى بنانه » فان الكشف عن أمر بصمات الأنامل لم تعرفه أوروبا فضلا عن العرب إلا فى زماننا هذا ، إذن هو كلام الله لا كلام البشر » . وبهذا تم الكلام على [سورة القيامة] والحمد لله رب العالمين .

تفسير سورة الانسان

هى مدنية

آياتها ٣١ — نزلت بعد سورة الرحمن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُوراً * إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً * إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً * إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالاً وَسَعِيراً * إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً * عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً * يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً * وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُوراً * إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً * فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً * وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً * مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْساً وَلَا زَمْهَرِيراً * وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً * وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا * قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيراً * وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْساً كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلاً * عَيْناً فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً * وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَنْثُوراً * وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً * عَالِيَهُمْ

ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا * إِنَّ هٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا * إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا * فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا * وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا * وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا * إِنَّ هٰؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا * نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا * إِنَّ هٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا * وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللّٰهُ إِنَّ اللّٰهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا * يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا *

تشتمل هذه السورة على ثلاثة مقاصد [الأول] كيف خلق الله الانسان ؟ تتميما لما ذكر فى آخر سورة القيامة ، وذلك من أول السورة إلى قوله : « سميعا بصيرا » [الثانى] فى جزاء الشاكرين والكافرين ، ووصف الجنة والنار ، وذلك من قوله : « إنا هديناه السبيل » إلى قوله : « وكان سعيكم مشكورا » . [الثالث] أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم بالصبر ، وذكر الله ، والتهجد بالليل ، وذلك من قوله تعالى : « إنا نحن نزّلنا عليك القرآن تنزيلا » إلى آخر السورة . ولنشرع فى تفسير السورة فنقول :

المقصد الأول : كيف خلق الله الانسان ؟

التفسير اللفظى

بسم الله الرحمن الرحيم

(هل أتى على الانسان) أى قد مضى عليه (حين من الدهر) طائفة محدودة من الزمان الممتدّ الذى لاحدّ له حال كونه (لم يكن شيئا مذكورا) أى لايذكر ولايعرف ، ولايدرى ما اسمه ، وما المراد منه ، وانما كان يسمى بأسماء مختلفة ، فأما آدم أبوالبشر فانه بقى أربعين سنة طينا ، وأربعين سنة حمأ مسنونا ، وأربعين سنة صلصالا كالفخار ، فتمّ خلقه فى مائة وعشرين سنة كما يقال فى الآثار ، وهذه السنين ربما كانت رمزا إلى أزمان طويلة مجهولة لنا ، وأما بنوآدم فانهم يسمون قبل خلقهم بهيئة الانسانية نطفا فى الأصلاب ، ثم علقا ، ثم مضغا فى الأرحام ، ففى تلك الأيام لم يذكروا بشىء ، ثم أتبعه بذكر تاريخ العناصر الداخلة فى الانسان قبل تكوّنه فى الأصلاب الأرحام فقال (إنا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج) أى أخلاط حال كوننا (نبتليه) أى مريدين اختباره (فجعلناه سميعا بصيرا) ليتمكن من مشاهدة الدلائل ، واستماع الآيات ، والتعقل والتفكر ، ذلك أننا خلقناه من النطفة ، وهى تكون فى الرجل وتكون فى المرأة ، فهاتان النطفتان باتحادهما يتكوّن الجنين ، ومن أين هاتان النطفتان ؟ هاتان النطفتان مخلوقتان من عناصر مختلفة وتلك العناصر آتية من النبات والحيوان الداخلين فى طعام الآباء والأمهات ، ومن الماء الذى يشربونه ، والأملاح التى يتعاطونها ، وجميع الموادّ التى دخلت فى أصول التغذية من الطعام والشراب عشرة ، وهى :

الأوكسوجين ، والأودروجين ، والكربون ، والأوزوت ، والكبريت ، والفوسفور ، والبوتاسيوم ، والمغنسيوم ، والكالسيوم ، والحديد .

فهذه هي العشرة التي تدخل في كل نبات ، ومن باب أولى في كل حيوان لأنها طعامه ، وفي كل انسان فالنطفة إذن مكوّنة من هذه الأمشاج العشرة ، فهي أخلاط كوّنت ومزجت وصارت دما فنطفة فعلقة الخ فجعل لها السمع والبصر والعقل ، وهذه من عالم أشرف من عالم المادّة الميتة التي هي في أسفل درجات النقص والكمال إنما نزل إليها من عالم أرقى منها ، وهو العالم الالهي الروحي ، فاما أن ترجع إلى حب المادّة والاستكانة لهذه المشاهدات ، واما أن تجدّ وتتفكر فترجع إلى عالم الكمال والجمال بالعلم والعمل : وهذا هو قوله تعالى : « نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا » : أى نعامله معاملة المختبرين ، أيميل لأصله الأرضي من الأمشاج ليكون حيوانيا نباتيا معدنيا شهوانيا ، أم يكون إلهيا معتبرا بالسمع والبصر والعقل التي من طباع أرقى من طباع المادّة التي تكون فيها ، فاذن الانسان مكوّن من عالمين : عالم فاعل ، وعالم منفعل ، فالعالم الفاعل عالم الروح وهو إلهي ، والعالم المنفعل عالم المادّة ، وهي الأمشاج ، فاذا حكم النفس وقهرها بحيث يتجاوز عن أخلاق المادّة وعن الشهوات فقد صفت نفسه ، وسمت إلى عالم أعلى ، وان صفت ومالت إلى المادّة فانها ترجع إلى أخلاقها وتدخل في جهنمها وعذابها في الدنيا بالحيرة والشكوك وتشابه أخلاط المادّة عليها وذهولها من تتبعها « ولعذاب الآخرة أشدّ وأبقى » ولذلك أعقبه بالمقصد الثاني :

المقصد الثاني : في جزاء الشاكرين والكافرين ، ووصف الجنة والنار

قال تعالى (إنا هديناه السبيل) فأعطيناه السمع والبصر والفؤاد ، وأريناه الحجة ، ونصبنا له الدلائل في الأنفس والآفاق ، ليبتعد عن أصله الأرضي إلى سببه السماوي ، فهناك حواس وعقل له في نفسه ، ويقابلها مخلوقات أرضية وسماوية تكون مسرحا لفكره ، ومغنما لعقله ، فنحن إذن هديناه السبيل حال كونه (إما شاكرا واما كفورا) فبعض الناس شاكر بالاهتداء ، وبعضهم كفور بسبب الاعراض عنه . ثم شرع يبين حال الفريقين فقال (إنا أعتدنا للكافرين سلاسل) ليقادوا بها (وأغلالا) بها يقيدون (وسعيرا) بها يحرقون (إن الأبرار) جمع برّ كأرباب جمع رب (يشربون من كأس) الكأس الزجاجة فيها الخمر ، أو يراد بها نفس الخمر مجازا (كان مزاجها كافورا) أى كان ماتمزج به كافورا لبرودته وعذوبته وطيب عرفه ولاجرم أن مافي الدنيا ليس فيه مما في الجنة إلا الاسم ، فاذا قال المفسرون انها اسم لعين في الجنة ماؤها في بياض الكافور ورائحته وبرده ، فقد قالوا مايؤخذ من اللفظ ، والافي الجنة مالاعين رأت ولا أذن سمعت ولاخطر على قلب بشر ، وانما أخذوه من قوله تعالى (عينا) لأنها بدل من كافورا ، ومعلوم أن الكافور لا لذة فيه ، وشرابه مضرّ ، فاذن يرجع المعنى إلى الأوصاف المذكورة من البرودة والرائحة الخ (يشرب بها) أى يشرب منها (عباد الله) أى أولياؤه (يفجرونها تفجيرا) يقودونها إلى منازلهم وقصورهم حيث شاءوا سهلا لايمتنع عليهم ، فهؤلاء يشربون منها على طريق مزجها بالخمر . ولما كان هذا النعيم له أسباب في الدنيا أعقبه بقوله (يوفون بالنذر) بما أوجبوا على أنفسهم ، ولاجرم أن من وفى بما أوجبه على نفسه فهو على الوفاء بما أوجبه الله عليه أوفى (ويخافون يوما كان شرّه مستطيرا) أى شدائده منتشرة ، يقال استطار الفجر : انتشر وظهر (ويطعمون الطعام على حبه) أى مع الاشتهاء والحاجة إليه ، أو على حب الله (مسكينا) فقيرا عاجزا (ويتيما) صغيرا لا أب له (وأسيرا) مأسورا من أسارى الكفار ، فقد كان صلى الله عليه وسلم يؤتى له بالأسير فيدفعه إلى بعض المسلمين فيقول أحسن إليه ، فهؤلاء يطعمون الطعام حال كونهم يقولون في أنفسهم (إنما نطعمكم لوجه الله) فلانمنّ عليكم ، أونتوقع المكافأة فانها تنقص الأجر ، وقد كانت عائشة

رضى الله عنها تبعث الصدقة إلى أهـل بيت من البيوت ، ثم تسأل المبعوث فان ذكر دعاء دعت لهم بمثله ، ليبقى ثواب الصدقة لها خالصا عند الله ، فنحن نطعمكم حال كوننا (لانريد منكم جزاء ولاشـكورا) أى شكرا (إنا نخاف من ربنا) فلذلك أحسنا إليكم ولم نطالب المكافأة منكم (يوما) عذاب يوم (عبوسا) تعبس فـيه الوجوه (قمطريرا) شـديد العبوس ، يقال : اقمطرت الناقة إذا رفعت ذنبها وجمعت قطريها (فوقاهم الله شرّ ذلك اليوم) لأنهم خافوا وتحفظوا (ولقاهم نضرة وسرورا) بدل عبوس الفجار وحزنهم (وجزاهم بما صـبروا) على أداء الواجبات ، واجتناب المحرّمات ، والايثار على أنفسهم بالأموال (جنة) بستانا يأكلون منه (وحريرا) يلبسونه حال كونهم (متكئين فيها على الأرائك) جمع أريكة ، وهو السرير فى الحجلة ، والحجلة هى الناموسية المعروفة ، ولا يسمى السرير أريكة إلا داخلها (لايرون فيها شمسا ولازمهريرا) أى لايؤذيهم حرّ الشمس ولابرد الزمهرير كما كان يؤذيهم فى الدنيا ، والزمهرير أشدّ البرد ، فهواء الجنة معتدل ، فلاهو حار محمّ ولا بارد يؤذى . ويقال فى لغة طيء : الزمهرير القمر . قال راجزهم :

وليلة ظلامها قد اعتـكر * قطعتـها والزمهرير مازهر

فيكون المعنى على هذا أن جوّ الجنة مضيء بذاته لايحتاج فيه إلى شمس ولا إلى قمر ، واذا كان الأمر كذلك دلّ هذا على أن الأحوال هناك مخالفة كل المخالفة لعالم أرضنا ، فلاالبستان ، ولاالحرير ، ولاالسرير ، ولا الأريكة كالذى نشاهده فى الدنيا ، بل هى مخالفة كل المخالفة كما قاله ابن عباس . قال تعالى : (ودانية عليها ظلالها) أى قريبة منهم ظلال أشجارها : أى وجنة أخرى دانية عليهم ظلالها ، ويصح أن تكون حالا أخرى : أى حال كونهم متـكئين وغير رائين ودانية (وذللت قطوفها تذليلا) أى سخرت للقائم والقاعد والمتكئ : أى تدنو ظلالها عليهم فى حال تذليل قطوفها عليهم ، ويصح أن نقول : ودانيـة عليهم ظلالها ومذللة الخ ، والقطوف الثمار ، جمع قطف (ويطاف عليهم بآنية من فضـة) أى يدير عليهم خـدمهم كؤوس الشراب ، والآنية جمع إناء ، وهو كأس الشراب (وأكواب) أى من فضـة ، جمع كوب ، وهو ابريق لاعروة له (كانت قواريرا ، قوارير من فضة) أى تـكوّنت جامعة بين صفاء الزجاجة وشفيفها ، وبياض الفضة ولينها : يعنى أن آنية أهل الجنة من فضة بيضاء فى صفاء الزجاج ، فيرى مافى باطنها من ظاهرها وقوارير كل قوم تنشأ كل أرضهم ، وأرض الجنة أشبه بالفضة ، ولاجرم أن قوارير الدنيا من الرمل وبعض العناصر ، وقوارير الجنة من الفضـة ولـكنها تـكون أصفى منها ، وقرئ قوارير من فضـة بالرفع : أى هى قوارير ، وهو على النصب بدل (قدّروها تقديرا) أى ان السقاة والخدم الذين يطوفون عليهم قدّروها لهم على قدر كفايتهم لاتزيد ولاتنقص ، فهى على قدر ريّ شاربها ، فهى ألذ لهم وأخفّ عليهم ، لاتفيض ولاتغيض (ويسقون) أى الأبرار (فيها) فى الجنـة (كأسا) خمرا (كان مزاجها زنجبيلا ، عينا) بدل من زنجبيلا (فيها) فى الجنة (تسمى) تلك العين (سلسبيلا) ففى تلك العين طعم الزنجبيل ، ولا جرم أن العرب تستلذه وتستطيبه ، وسميت زنجبيلا لذلك ، وسلسبيلا لسلاسة انحدارها فى الحلق ، وسهولة مساغها وعذوبتها وطيبها ، وانما جعل العرب الزنجبيل فى شرابهم ، لأنه يحصل فيه ضرب من اللذع . قال الأعشى :

كأن القرنفل والزنجبيل * باتا بفيها وأريا مشورا

الأرى : العسل ، والمشور المستخرج من بيوت النحل . وقال المسيب بن علس :

فكأن طعم الزنجبيل به * إذ ذقته وسلافة الخمر

فلذلك وصف الله به شراب أهل الجنة ، وشراب أهل الجنة على برد الـكافور ، وطعم الزنجبيل ، وريح المسك ، ولاجرم أن هذا كله ماهو إلا أسماء لما فى الدنيا ، وهناك مالاعين رأت ولا أذن سمعت ، فالمعانى

غير

غيرمانعهده ، والألفاظ لمجرّد تخيل شيء نراه كما حققه ابن عباس (ويطوف عليهم ولدان مخلدون) دائمون (إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا) من صفاء ألوانهم ، وانبثاثهم فى مجالسهم ، وانعكاس شعاع بعضهم إلى بعض ، واللؤلؤ المنثور أزين فى النظر من المنظوم (وإذا رأيت ثمّ) أى فى الجنة : أى اذا رأيت ببصرك ونظرت به (رأيت نعيما) لايوصف عظمه (وملكا كبيرا) فأدناهم منزلة من ينظر فى ملكه مسيرة ألف عام يرى أقصاه كما يرى أدناه ، هذا ملك غير العارفين ، أما ملك العارفين فليس يحدّ بمئات الألوف بسير الضوء لابسير الناس ، فانّ العلوم والمعارف اذا انتقشت فى نفس العارف واطلع على تلك العوالم التى ذكرناها فى هذا التفسير فى سور مختلفة ورأى أن نظامها متناسق أصبح ينظر إليها نظر الفرح بما ملك ، وتصبح هذه كلها جنة له وسرورا لايفارقه ، فالعلم جنة العارفين (عاليهم ثياب سندس) أى يطوف عليهم ولدان حال كون المطوف عليهم عاليهم ثياب سندس ، وهو رقيق الديباج (خضر) جمع أخضر (وإستبرق) غليظ (وحلوا أساور من فضة) أى وقد حلوا أساور من فضة . قال ابن المسيب : لا أحد من أهل الجنة إلا وفى يده ثلاث أسورة : واحدة من فضة ، وأخرى من ذهب ، وأخرى من لؤلؤ ، وهذا يجمع بين ماهنا ومافى سور أخرى (وسقاهم ربهم شرابا طهورا) وهذا الشراب غير ماتقدم وأرقى منه ، فشراب الله غير شراب السقاة فى الجنة ، فشراب السقاة بآنية الفضة والأكواب والكأس التى مزاجها زنجبيل ، وهذه يطاف عليهم بها ، أما الشراب الطهور فالذى يسقيه لهم ربهم ، ووصف بالطهور لحكمة سأذكرها فى أواخر تفسير هذه السورة إن شاء الله تعالى ، ثم يقال لأهل الجنة (إنّ هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا) مجازى عليه غير مضيع ، وشكر الله لعباده أن يرضى منهم بالقليل ، ويعطيهم الجزيل من الخيرات . انتهى المقصد الثانى .

المقصد الثالث : أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالصبر ، وذكر الله ، والتهجد بالليل

قال تعالى (إنا نحن نزّلنا عليك) يامحمد (القرآن تنزيلا) متفرّقا آية بعد آية ، ولم ننزله جملة واحدة لحكمة بالغة تقتضى تخصيص كل شيء بوقت معين ، فليثبت قلبك ولينشرح صدرك (فاصبر لحكم ربك) بتأخير نصرك على كفار مكة وغيره (ولاتطع منهم آثما أوكفورا) أى لاتطع كل واحد من مرتكب الاثم ومن متجاوز الحدّ فى الكفر ، فأو بمعنى الواو ، فاذا قال لك الآثم وهو عتبة : اترك الصلاة وأنا أزوّجك ابنتى وأسوقها إليك بغير مهر ، وإذا قال الكفور ، وهو الوليد بن المغيرة : أنا أعطيك من المال حتى ترضى اذا رجعت عن هذا الأمر ، فلاتطع واحدا منهما ولاغيرهما ، فقد أعددنا لك نصرا فى الدنيا وجنة فى الآخرة قد عرفت وصفها ، فاستعدّ للنعيم المقيم بالصبر أوّلا ، وداوم على ذكر ربك لاسيما وقت صلاة الفجر ووقت الظهر والعصر ، وهذا قوله تعالى (واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا) فهو إما بمعنى الدوام ، واما بمعنى الوقتين المذكورين (ومن الليل فاسجد له) أى وبعض الليل فصلّ له تعالى كصلاة المغرب والعشاء (وسبحه ليلا طويلا) أى وتهجد له طائفة من الليل طويلة ، فأما هؤلاء فانهم غافلون عن هذه المعالى (إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم) أمامهم (يوما ثقيلا) شديدا ، فالثقيل يكون باهظا للحامل ، فلذلك أمرناك بصلاة المغرب والعشاء وصلاة التهجد الطويلة لتكون فى مأمن من هذا اليوم الثقيل ، وكيف يغفلون عنا (نحن خلقناهم وشددنا أسرهم) وأحكمنا ربط مفاصلهم بالأعصاب ، فالأسر الأوصال قد شدّت بعضها إلى بعض بالأعصاب وامتدّت فيها العروق واتصلت وشدّت عليها فكيف نتركهم سدى بعد هذا الاحكام والعناية فى الخلق (وإذا شئنا بدّلنا أمثالهم تبديلا) فانّ عادتنا أن نزيل مالا يصلح للرقىّ من خلقنا ، فنهلك هؤلاء ونبدّل أمثالهم فنجعلهم مكانهم يكونون أطوع منهم (إنّ هذه) السورة (تذكرة) كسائر القرآن (فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا) تقرّب إليه بالطاعة (وماتشاءون إلا أن يشاء الله) أى وماتشاءون ذلك إلاوقت

أن يشاء الله مشيئتكم (إن الله كان عليما) بما استعدّ له كل أحد (حكيما) لايشاء إلا على مقتضى الحكمة والنظام العدل (يدخل من يشاء فى رحمته) فيهديه ويوفقه للطاعة على حسب استعداده (والظالمين) الذين لم يستعدّوا للهداية (أعدّ لهم عذابا أليما) انتهى التفسير اللفظى للسورة كلها ، والحمد لله رب العالمين .

لطائف هذه السورة

(١) فى قوله تعالى : « إنا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا » .

(٢) فى قوله تعالى : « ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا » .

(٣) فى قوله تعالى : « ولقاهم نضرة وسرورا » .

(٤) فى قوله تعالى : « وسقاهم ربهم شرابا طهورا » .

اللطيفة الأولى فى قوله تعالى : إنا خلقنا الانسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا

يقول الله : إن الانسان مخلوق من نطفة ، والنطفة مكوّنة من أمشاج ، وما الأمشاج فى الانسان إلا الاكسوجين ، والأدروجين ، والكربون ، والأوزوت ، والكبريت ، والفوسفور ، والبوتاسيوم ، والمغنيسيوم والكلسيوم ، والحديد .

فهذه هى الأمشاج والأخلاط التى كوّن منها الانسان ، والانسان يتولد فيه النطفة ، والنطفة يتكوّن منها انسان جديد ، فهذا الانسان مبدؤه من الحديد والفوسفور والكبريت الخ .

الانسان مركب من موادّ بعضها محرق ، فالفسفور سريع الاشتعال متى عرض للهواء ، والبوتاسيوم جسم أبيض فضىّ لماع لين كشمع العسل يصهر على درجة ٩٢٫٥ ويتطاير على درجة دون الاحمرار ، ولون بخاره أخضرجيل ، ومتى لامس الهواء تغيرلونه ، ومتى ألقيت قطعة من البوتاسيوم فى الماء فانك ترى كرات البوتاسيوم تحمر بسبب شدّة ارتفاع الحرارة الناتجة عن التفاعل ، ويلتهب الادروجين المتصاعد ، وتدوركرات البوتاسيوم بعضها على بعض سابحة على بعد من سطح الماء ، ثم بعد زمن تحوّل إلى بوتاسا وتسقط على الماء فيتكوّن بخار الماء ، وتحصل فرقعة بسبب التفاعل . والبوتاسيوم داخل فى تركيب ملح البارود ، والبارود يدخل فى تركيبه ملح البارود المذكور والكبريت والفحم ، ومعلوم أن الفوسفور داخل فى تركيب العظام ، حتى ان الأنوار التى تشاهد من وقت لآخر فوق المقابر إنما نشأت من ملامسة الفوسفور للهواء الجوّى فتحصل إضاءة .

فهذه أربعة عناصر من عشرة كلها نارية وثلاثة منها لتركيب البارود ، ثم الحديد يظهرأثره فى الكرات الدموية ، فلولا الحديد لم يكن فيها لون الحمرة .

انظر أيها الذكىّ إلى صنع الانسان ، انظر إلى عناصر يدخلها هذه الموادّ الجهنمية المحرقة ، ألاترى أن تفاعلها مع بقية العناصر لطف حدّتها ، ماهو السرّ الذى أوجب أن تكون هذه المتناقضات ذات حسّ وحركة وعقل ، فوسفور وبارود مع موادّ أخرى تصبح عاقلة مفكرة حكيمة .

جسم الانسان ذومادّة مشتعلة ، لذلك نراه يحبّ القتال ، نراه يستعمل بعض عناصر جسمه لاهلاك غيره ، يصنع البارود من الفحم وأخويه ويقذف به على أبناء جنسه ، خلق الانسان من صلصال ، والصلصال هوالفخار ، والفخار طين أحميت عليه النار ، والانسان دخلت فى تركيبه الموادّ النارية .

الانسان ذو روح غير ساكنة كثيرة الحركة كثيرة الوثوب لاتفتأ تتقلب ، فبينما هى تفكر فى الخير اذا

هى انتقلت إلى الشرق ، واذا فكرت فى مكان شرقى انتقلت إلى نظيره فى الغرب من غير زمان ، واذا فكرت فى الماء الشفاف الجميل تذكرت نجوم السماء بلا زمن ؛ فنفوسنا لا بد لها تقطع الفيافى والأبعاد الطويلة بلا زمان .

هذه قدرة هائلة ، لذلك وضعت فى قطعة من المادة محترقة ، وكيف تعيش الروح ذات الحركات البعيدة والتنقلات المدهشة إلا فى مكان يناسبها ، لابد من المناسبة بين المكان والسكان ، فالكبريت والفوسفور والبوتاسيوم ، كل هذه أجسام وثابة طيارة جعلت فيها النفس الطيارة الوثابة « وربك يخلق مايشاء ويختار »

حكم نسجت بيد حكمت ✡ ثم انتسجت بالمنتسج

لذلك نرى الأجسام الحيوانية والانسانية سريعة الذوبان تموت بلا إبطاء وتنحل سريعا فى أزمان مختلفة ، هذا هو السبب فى قراءة الحكمة ونزول الديانات تنبيها للناس أن حياتهم لاتدوم ، وكيف تدوم والجسم مركب من عناصر سريعة الانفصال ، قليلة الثبات ، متقلبة ، فالجسم ذائب ، والروح بحركتها السريعة ترجع إلى عالمها اللطيف . انتهى الكلام على اللطيفة الأولى ، والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة الثانية فى قوله تعالى : ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيما وأسيراً

هذه الآية ترجع إلى الاحسان واذابة المهجة فى خدمة النوع الانسانى ، إن الآية مدح فى السخاء بحيث يكون الانسان نعمة على الفقراء من أمته والضعفاء ، وعلى من هو أجنبى عنه ، بل هو من أعدائه ، فالمسكين واليتيم قد يكونان من أمته ، فأما الأسير فانه من قوم أعداء حاربوهم فأسروا فريقا منهم ، فهؤلاء الأسرى حمد الله الاحسان إليهم ، فملخص الآية أن الانسان يجب أن يكون نورا ونافعا لبنى وطنه وغيرهم ، فان جميع الناس عباد الله وأقربهم إليه ألطفهم بعباده ، وكلما زاد الانسان رأفة بهم زاد من الله قربا .

هذا هو الصراط المستقيم ، فليكن الانسان على سنن الله وصراطه المستقيم ، ألاترى أنه أرسل الشمس والقمر والنجوم ، فأضاءت على البر والفاجر ، والخبيث والطيب ، والصحيح والمريض ، فكلما عم نفع الانسان كان إلى ربه أقرب ، ويشاهد ذلك فى الالهامات التى تتوالى عليه ، وفى المساعدات الدائمة ، فلتكن فيك خصلتان : حب العلم مع حب الله ، وحب الناس ، ففكر فيهما وتخلق بهما والله يكون معك ، فهذا هو المقصود من الآية .

أما ذكر السبب وتعيينه فى نزول الآية كأن يروى أنها نزلت فى رجل يسمى أبا الدحداح من الأنصار صام يوما ، فلما كان وقت الافطار جاء مسكين ويتيم وأسير ، فأطعمهم ثلاثة أرغفة ، وبقى له ولأهله رغيف واحد ، أوكأن يروى أنها نزلت فى سيدنا على رضى الله عنه ، إذ نذر هو وفاطمة رضى الله عنهما وفضة جاريتهما أن يصوموا ثلاثة أيام ان برئ الحسن والحسين ، فلما برئا واستقرض على رضى الله عنه صاعا وخبز خمسة أقراص ، فوضعوها بين يديهم ليفطروا ، فلما جاء مسكين أعطوه ولم يأكلوا ، وفى الليلة الثانية وقف يتيم فأعطوه ولم يأكلوا ، وفى الليلة الثالثة أسير .

فسواء كان السبب هذا أوذاك أوغيرهما فلاتضيع زمانك فى تحقيق الحوادث ، واشتغل بما هو أهم لك ، وهو مقصود الآية أن تكون عونا لجميع الناس فى وطنك وغير وطنك .

وان من شرائط العلو ✡ العطف فى البؤس على العدو

فأما العامة فانهم لاحظ لهم إلا أن يتسلوا بتلك الحكايات ويتفكهوا بها ، ويرون أنهم لاقبل لهم بشىء من هذا ، فأما العالم فانه يعتبر بذلك ويفكر فى إسعاد نفسه ورقيه بأشرف الأخلاق وأجل الأعمال . انتهى الكلام على اللطيفة الثانية ، والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة الثالثة فى قوله تعالى : ولقاهم نضرة وسرورا

إن تلك النضرة والسرور هما اللذان يؤخذان من قوله تعالى : « وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة » فهذه النضرة والجمال فى الوجوه سببهما النظر لوجه الله ، والنظر لوجه الله يرجع إلى العلم والحكمة ، فعلى مقدار العلم بالصنعة يكون القرب من الصانع ، وهنا يمكن ايضاح هذا المقام فى اللطيفة الآتية :

اللطيفة الرابعة فى قوله تعالى : وسقاهم ربهم شرابا طهورا

هنا يقف القارئ وقفة ليعرف أين محل الطهور من الشراب ؟ وأى مناسبة للشراب حتى يوصف بالطهور ؟ إن الطهارة ليست من صفات الشراب التى تجعله لذيذا فى الطعم ، بل يقال ماء فرات ، أو شراب لذيذ ، أو شراب ممزوج بالزنجبيل ، وما أشبه ذلك مما تقدم فى هذه السورة ونحوها ، فليس الطهور من الصفات التى بها تكون اللذة ، وانما يحسن هذا الوصف للماء الذى نتطهر به من الحدث والنجس فيقال طهور ، نعم ان الماء الطهور قد يكون صالحا للشرب ، لكن ليس وصف الطهارة هو الذى جعله كذلك بل العذوبة وكونه باردا وما أشبه ذلك من كونه خاليا من المواد الضارة للانسان ، وأن تكون جراثيمه قد ذهبت منه ، وأن يكون مروقا مصفى ، إذن فلنبحث عن السبب فى ذكر الطهور والا كان هذا مما لا يناسب البلاغة والفصاحة ، واذا كان القرآن أفصح كلام وأبلغه فلماذا يكون هذا التعبير ؟ فنجيب على ذلك بما يأتى :

اعلم أن الوصف بالطهارة إنما جاء هنا ليوجه العقول إلى المقصود من الجنة ومن النعيم فيها ، وليدلنا على المقصد الذى ترمى إليه تربية الانسان فى هذه الدنيا .

إن أحوال الجنة التى ذكرت فى هذه السورة وغيرها لاتعدو أمرين اثنين لاثالث لهما : لذة جسمية ، ولذة روحية ، فاللذة الجسمية واضحة فى هذه السورة ، فترى البساتين والولدان والخمر الممزوجة والأرائك والجو المعتدل والحرارة والضوء الجميل البهج بلاشمس ولاقر والظلال والقطوف الدانية والنعيم والملك الكبير والثياب من سندس أخضر وحرير غليظ ، والتحلى بالأساور الفضية والذهبية واللؤلؤية ، والنساء الجميلات ، والحور البديعات المقصورات فى الخيام التى لم يطمثهن انس قبلهم ولاجان .

هذه مجامع النعم الجسمية ، أما النعم الروحية فهى طهارة نفوسهم من عالم المادة وخلوصها من الطبيعة ، وارتقاؤها إلى عالم القدس والأرواح وقربها من العالم الالهى البديع ، وكلما كانت أبعد عن المادة كانت أقرب إلى الله وأكثر اطلاعا على بهجة العوالم ونظام الخليقة العام ، فاذا كانت اللذات الجسمية تحضر بأيدى الخدم ويطوف بها عليهم ولدان ويحظون بالحور ، فاللذات العقلية ينالونها من ربهم مباشرة ، فلذلك قيل : « وسقاهم ربهم » وهل يسقى الله إلا ما كان أقرب إلى الكرامة والعالم الروحى العالى ، فاسناد السقى إلى الله راجع إلى أن الشراب ليس جسميا ، فالولدان يطوفون بالأكواب والأباريق ويسقون الخمر ، والله لايسقى الخمر ولايعطى شرابه فى أكواب وأباريق ، ولكن شراب الله العلوم والحكمة ، وههنا يفهم ذكر الطهور ، فالطهارة هنا الخلوص من المادة بجميع أنواعها ، وهذه أعلى اللذات فى الجنة ، واياك أن يهجس فى قلبك أن المفسرين الذين أشاروا إلى هذا كانوا مخدوعين ، أوأنهم قالوه لمجرد التقليد ، إياك أن يهجس فى نفسك هذا وأمثاله ، وانما يخطر هذا فى بال الذين هم محجوبون لم يتعلموا تعلما كاملا .

اللذات الحسية واللذات العقلية فى الحياة الدنيا

اعلم أن الناس فى هذه الدنيا يتمتعون باللذتين : الحسية والعقلية وهم لايشعرون ، وأن رصفى اللذات

المذكورين فى هذه السورة قد وجدت مقدماتهما فى الدنيا ، ولأضرب لك مثلين :

[المثل الأول] : انظر إلى الرجال والنساء فى الكرة الأرضية ، أنهم فى أول حياتهم لاينظرون من الحياة إلا إلى شهواتهم الجسمية ، فالرجل يريد المرأة والمرأة تريد الرجل للشهوة البدنية ، ويأكلون ويشربون ويستلذون لقضاء مآرب الأنفس وحدها ، فاذا انقضى الدور الأول من الحياة جاء دور آخر فرأينا الرجل والمرأة أخذا يتركان تلك اللذات ووجدناهما مكبين على طفل أوطفلة ، فأخذا يقبلانه معا ، فبعد أن كانت القبل محصورة بينهما أصبحت منصبة على الطفل وعلى الطفلة ، وكلما ازدادا كبرا ازدادا زهدا فى أنفسهما وحرصا على أبنائهما ، فلايزالان يبتعدان عن المادة لأنفسهما و يقتربان من التخلى عنها لأبنائهما ، حتى اذا قرب الرحيل ودعا العالم وفرحا بأن لهما خلفا يقوم مقامهما .

الرجل والمرأة عاشا فى أول الحياة باللذة الجسمية ، وفى آخرها باللذة العقلية ، فهذا انتقال طبيعى من حال جسمية إلى حال عقلية ، ألاترى أن الرجل يفدى ولده بماله اذا وقع فى خطر ، مع أن كثيرا من الأبناء لايرجى منهم نفع لآبائهم ، فان طبيعة الحياة الحيوانية المحافظة على النسل بدون مقابل ، فأما المنافع المادية التى قد تكون من الأبناء فهى أشبه بالظل للشجر يأتى غير مقصود لذاته . انتهى المثل الأول .

[المثل الثانى] : من المعلوم أن مايفعل بالطبيعة عاما للناس يجوز فعل مثله بالارادة ، وما كان بالارادة أرقى مما كان بالطبيعة ، ترى الناس جميعا يحرصون على أولادهم ويمدونهم بمالهم ، و يقدمون لهم كل مايملكون لتعليمهم ، بل اننا نرى فوق ذلك أن الأبناء فى الأمم التى ارتقت يبذل آباؤهم عليهم كثيرا من أموالهم ليكونوا قادة الشعوب ورؤساء فى الحكومات ، وقليل من هؤلاء المتعلمين الذين لهم رواتب باهظة فى الحكومات من يفضل عن مصرفهم شىء لآبائهم ، فان مناصبهم ومظاهرهم تحتم عليهم أن يصرفوا كل مايأتيهم ولايبقى شىء إلا لمن كان مقترا أوكان مرتشيا ، ولايبقى غالبا للأمهات وللآباء شىء ، ومن غير الغالب نجد منهم المواسين المكرمين للأبوين ، فهذا كله جاء من قبيل الفطرة لعمومه سائر الناس . فأما مايأتى بالارادة فهو الحكمة والعلم وخلوص القلب لهما ، وهاأناذا أبينه لك فأقول :

اعلم أننا نرى الناس فى الشرق والغرب ينقادون للممتازين بالحكمة والعلم ، أو الزهد فى الدنيا والصلاح ، وهذه غريزة فى النوع الانسانى وفطرة فيه شائعة بحيث تجدها فى كل أمة ، فالعامة من كل أمة والخاصة يحترمون الأنبياء ، والعامة وحدهم يخضعون للوعاظ ، والخاصة يحبون الحكماء ، فترى القسيس عند النصارى والحاخام عند اليهود ، والشيخ عند المسلمين ، كل هؤلاء معظمون عند العامة الذين حولهم ، لأنهم فى نظرهم قد حلوا شريعة نبيهم ، وقد يكون فى هؤلاء من لم يحمل تلك الشريعة حقا ، ولكن الغريزة قد تخطىء فى الأشخاص ولكنها لاتخطىء من حيث العموم كما أن غريزة الطعام فى الانسان صادقة لحفظ الحياة ولكنها قد تقع فى أكل مايضر بصحتها فذلك لايمنع كونها صادقة ، هى صادقة من حيث نظامها ، والخطأ فى الجزئيات لاينافى الصدق فى الكليات .

وترى الناس يعظمون الذى يعتقدون أنه حائز صفة العلم و يقدسونه ، وكلما ازداد علما ازداد فى نظرهم محبة ورغبة ، وهكذا يحبون الشجعان الذين ذكرت لهم تواريخهم والمحسنين ، أتدرى لماذا هذا كله ؟ لأن العلم شىء خارج عن المادة ، والشجاع أقدم على هلاك نفسه لمنفعة غيره ، والمحسن حرم نفسه وأعطى غيره ﴿ وبعبارة أخرى ﴾ ان الناس يعظمون من تخلص من المادة وسلطانها بالزهد أو ببذل المال واشتهر بذلك ، أو ببذل النفس ، وهذا أقل الكمال ، و يعظمون من تحلى بالعلم ، لأن العلم كمال للروح ، والناس ميالون بفطرهم لكل ماهو من عالم الأرواح ، الناس ينقادون للأنبياء و يحبونهم لأنهم اتصفوا بالأمرين :

الزهد فى المال ، والتحلية بالعلم ، و بعض الحكماء يقلدهم فى ذلك ، وليس يعقل أن يبرع الانسان فى علم مالم يحبه ، فالمحبة أساس النجاح فى العلم .

كثير من الناس من نبذوا المال والأهل وعكفوا على العلم غراما ، وهم ينالون لذة لا يعرفها الناس والا لم يتمكنوا من التبريز فيــه ، اذا رأينا فى الناس من أضاع ثروته لأجل امرأة غير حسنة السمعة ورفت من وظيفته ، وخرج من كل ماءلك ، فيقال له : أنت عاقل فلماذا رضيت بضياع شرفك وه يتك وعظمة آبائك وثقة الناس بك ؟ أكل هذا لأجل امرأة ، فيجيب : هاتوا لى قلبا غير هذا القلب ، أنا أعلم هذا كله ولكن لا أملك نفسى .

هذا النوع من الناس موجود فى كل أمة ، ووجد فى بلادنا المصرية ، كل ذلك للذة وليس يعرفها إلا الذى هو متلبس بها .

اذا كان هــذا فى باب اللذات الحسية فهكذا وجد فى النوع الانسانى فى كل أمة من حصلت لهم هذه اللذة فى باب العلم والحكمة فعكفوا عليها ولم يبالوا بضياع المال والثروة ولا يريدون إلا الحكمة ، وكما أن الذى عكف على المرأة ينال من الذم والاحتقار مالا حصر له يكون الذى عكف على لذة العلم قد نال مالا حصر له من المدح والثناء والاعظام ، فهو فى نفسه فى لذة والناس حوله يمدحونه و يثنون عليه .

عجب ! لماذا كلاهما فى لذته ! فكيف كره الناس الأوّل وذمّوه ، وأحبوا الثانى وعظموه ومدحوه ؟ الجواب على ذلك : أن الأوّل شرب شراب اللذات من المخلوق ، والثانى شربها من الخالق ، فالشراب الأوّل ليس طهورا ، والشراب الثانى طهور طهر النفس من رجس المادّة ، ورجع الروح إلى عالمها المحبوب ، فشراب الأوّلين غير طهور ، وشراب الآخرين طهور .

فياليت شعرى أيرضى ذلك الذى أحبّ العلم فى هذه الحياة الدنيا أن يعكف بعد الحياة الدنيا على غير العلم ، كلا والله ، فاذا كان الله سقاه شراب العلم الذى طهره من المادّة وأدرانها فانه بعد الموت لا يشرب إلا من شراب ربه و يزيد فيه مايشاء ، وهذا قوله : « نورهم يسعى بين أيديهم و بأيمانهم » فالنور الذى رآه فى الدنيا يراه يوم القيامة ، وهل نور أجلّ من العلم ! ان الشراب الطهور هو العلم ، وأما بقية أوصاف الجنة وأحوالها فانها تكون لمن لم يعشقوا العلم فى الحياة الدنيا ، « ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضلّ سبيلا » .

إن فى الجنة مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، إن من لم يفهم أحوال هذه الدنيا وهو فيها يموت أعمى ، ولا يمكن لامرئ أن يعقل مافى هذه السورة إلا اذا فكر فى أحوال أهل الأرض ، و بغير العلم والفكر لا يصل الانسان لسعادة فى الدنيا ولا فى الآخرة اهـ

هذا هو نهاية الكلام على [سورة الدهر] وقد كتب ذلك يوم الجمعة الثالث من شهر المحرّم الحرام سنة ١٣٤٤ هجرية الموافق ٢٤ من شهر يوليو سنة ١٩٢٥ م والحمد لله رب العالمين .



تفسير سورة المرسلات

هي مكية

إلا آية : واذا قيل لهم اركعوا لا يركعون . فمدنية

آياتها ٥٠ — نزلت بعد سورة الهمزة

بسم الله الرحمن الرحيم

والمرسلات عرفا * فالعاصفات عصفا * والناشرات نشرا * فالفارقات فرقا * فالملقيات ذكرا * عذرا أو نذرا * إنما توعدون لواقع * فإذا النجوم طمست * وإذا السماء فرجت * وإذا الجبال نسفت * وإذا الرسل أقتت * لأي يوم أجلت * ليوم الفصل * وما أدراك ما يوم الفصل * ويل يومئذ للمكذبين * ألم نهلك الأولين * ثم نتبعهم الآخرين * كذلك نفعل بالمجرمين * ويل يومئذ للمكذبين * ألم نخلقكم من ماء مهين * فجعلناه في قرار مكين * إلى قدر معلوم * فقدرنا فنعم القادرون * ويل يومئذ للمكذبين * ألم نجعل الأرض كفاتا * أحياء وأمواتا * وجعلنا فيها رواسي شامخات وأسقيناكم ماء فراتا * ويل يومئذ للمكذبين * انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون * انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب * لا ظليل ولا يغني من اللهب * إنها ترمي بشرر كالقصر * كأنه جمالت صفر * ويل يومئذ للمكذبين * هذا يوم لا ينطقون * ولا يؤذن لهم فيعتذرون * ويل يومئذ للمكذبين * هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين * فإن كان لكم كيد فكيدون * ويل يومئذ للمكذبين * إن المتقين في ظلال وعيون * وفواكه مما يشتهون * كلوا واشربوا هنيئا بما كنتم تعملون * إنا كذلك نجزي المحسنين * ويل يومئذ للمكذبين * كلوا وتمتعوا قليلا إنكم مجرمون * ويل يومئذ

لِلْمُكَذِّبِينَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ * فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ *

هذه السور المتلاحقة متشابهة المقاصد ، فني هذه السورة وصف المكذبين وعذابهم ، والمتقين ونعيمهم ، ويتخلل ذلك وصف خلق الانسان ، والأرض والجبال ، وعموم القدرة ، وعظمة الخالق جلّ وعلا .

التفسير اللفظى

بسم الله الرحمن الرحيم

(والمرسلات عرفا . فالعاصفات عصفا . والناشرات نشرا . فالفارقات فرقا . فالملقيات ذكرا) قد علمت ما جاء فى [سورة الدهر] وكيف جاء فى أواخرها « وسقاهم ربهم شرابا طهورا » وعرفت هناك أن هذا الشراب يطهر شاربه عن الميل إلى اللذات الحسية والركون إلى ماسوى الحقّ ، فيجرّد لمطالعة جماله ، ملتذا بلقائه ، باقيا ببقائه ، وعلمت أن هذا منتهى درجات الصدّيقين ، فهنا ابتدأ الله السورة بقوله « والمرسلات عرفا » الخ ، أقسم الله بطوائف من الملائكة ومن الأرواح التى نزلت إلى عالم الأجسام فى أرضنا ، ومنهم الأنبياء والحكماء وأكابر العلماء .

أقسم الله بهذه الأرواح المرسلات عرفا : أى لأجل الاحسان والمعروف ، فأما الملائكة فانها تلقى الوحى إلى الأنبياء ، والإلهام إلى العلماء والصالحين ، وأما النفوس الانسانية الكاملة فانها تعلم غيرها ، فكل هؤلاء أرسلوا لأجل الاحسان والمعروف للناس بالأمر والنهى ، وهم يعصفون ماسوى الحقّ فيبعدونه كما تبعد العواصف التراب والتبن والهباء ، وينشرون آثارهم فى الأمم وفى النفوس الحية ، ويفرقون بين الحقّ والباطل فيلقون ذكرا ، أما الملائكة فلهداية الناس ، وأما الأنبياء فللتبليغ وتكميل النفوس ، وأما الأرواح الكاملة فانها تتهذب ولاتذكر إلا الله فى القلب واللسان ، فالملائكة والأرواح المرسلة إلى أجسامها فى الأرض هى المقسم بها لأنها إما سقاها ربها شرابا طهورا ، وإما لاتزال فى طريق الوصول لذلك السقى ، وليس يكمل فى نفسه أويكمل غيره إلا أمثال هذه النفوس من الملائكة والأنبياء والأرواح المستعدّة للكمال ، وانما حملنا المرسلات على هؤلاء لأن إلقاء الذكر لا يكون إلا من عاقل ، أما الرياح فليست تلقى الذكر إلا على حسب التأويل فاخترنا الأوّل ، وقوله (عذرا أونذرا) أى للاعذار والانذار من الله ، وجواب القسم قوله (إن ماتوعدون) من أمر الساعة ومجيئها (لواقع) أى لكائن نازل لامحالة ، فان قيل متى يكون ؟ يجاب بقوله تعالى (فاذا النجوم طمست) محقت وذهب نورها (واذا السماء فرجت) فتحت فكانت أبوابا (واذا الجبال نسفت) كالحب ينسف بالمنسف (واذا الرّسل أقتت) عين لها وقتها الذى يحضرون فيه للشهادة على الأمم بحصوله ، فانهم لا يتعين لهم قبله ، وجواب الشرط معلوم مماقبله : أى وقع الفصل ، ويقال (لأىّ يوم أجلت) أى أخرت وأمهلت ، فهذا استفهام بمعنى التهويل والتعجيب ، كأنه قيل : أىّ يوم هذا الذى أجل اجتماع الرسل إليه ؟ إنه ليوم عظيم ، ثم بين ذلك اليوم فقال (ليوم الفصل) وهوالذى يفصل فيه بين الخلائق ، فهذا هواليوم الذى أجل اجتماع الرسل له (وما أدراك مايوم الفصل) تعجيب ثالث وتعظيم لأمره ، ثم أبان المقصود من هذا التهويل وصرّح بالمراد فقال (ويل) أى ثبات الهلاك ودوامه (يومئذ) ظرف أوصفة (للمكذبين) بذلك اليوم ، وهذا خبر (ألم نهلك الأوّلين) الأمم الخالية المكذبة (ثم نتبعهم الآخرين) جملة مستأنفة : أى ثم نفعل بأمثالهم من الآخرين مافعلنا بالأوّلين لأنهم كذبوا مثل تكذيبهم ، وهذا وعيد

لأهل مكة (كذلك) أى مثل ذلك الفعل الشنيع (نفعل بالمجرمين) بكل من أجرم (ويل يومئذ للمكذبين) بما أوعدنا (ألم نخلقكم من ماء مهين) حقير، وهو النطفة المشروح الكلام عليها فى [سورة الانسان] وفى [سورة القيامة] (فجعلناه فى قرار مكين) مقر يتمكن فيه، وهو الرحم حال كونه مؤخرا (إلى قدر معلوم) أى إلى مقدار من الوقت معلوم قد علمه الله، وهو تسعة أشهر فأكثر أوأقل (فقدرنا) أى فقدّرنا ذلك تقديرا، وفى قراءة بالتشديد (فنعم القادرون) أى فنعم المقدرون له نحن، ويجوز أن يكون الفعل واسم الفاعل معا من القدرة (ويل يومئذ للمكذبين) بنعمة الفطرة وحكمة الخالق وحسن التقدير (ألم نجعل الأرض كفاتا) أى كافتة: أى جامعة ضامّة، يقال كفت الشيء إذا ضمه وجمعه فهو مصدر وصف به، وقوله (أحياء وأمواتا) مفعولان لكفاتا: أى جامعة أمواتا فى بطنها وأحياء على ظهرها ولذلك تسمى الأرض أما لأنها تضم الناس كأنها أم تضم أولادها (وجعلنا فيها رواسى شامخات) جبالا ثوابت متصلة بالطبقة الصوّانية التى هى أبعد طبقات الأرض عن سطحها، وتلك الطبقة تضم فى جوفها كرة النار المشتعلة العظيمة التى هى باطن الأرض، وظاهرها هذه القشرة التى نحن عليها، وهى طبقات أعلاها هى التى نحن عليها، وأدناها الصوّانية، والجبال ممتدّة إلى هذه الصوّانية ثابتة عليها، ولولا الطبقة الصوّانية التى امتدّت منها الجبال لهوت القشرة ومن عليها فى النار التى فى باطنها التى هى البحر المسجور المذكور فى [سورة الطور] كما تقدّم، فهذه الجبال رست فى أبعد الأعماق، وشمخت إلى أعالى الجوّ، فهى طوال ذاهبة علوّا كما ذهبت سفلا، وهذه الجبال مخازن للمياه التى تنزل من السحب فتنشر بها فى باطنها وتحفظ فى طبقاتها ثم تخرج للأنهار الجاريات تستمدّ بمائها، والثلج يدوم فوقها أمدا طويلا، ويتنزّل فى باطن الجبل شيئا فشيئا ليجرى من العيون الجاريات تسقى الناس والأنعام والزرع تدريجا على طول السنة، وهكذا تكون تلك الجبال كأنها مسنيات تحفظ الرياح والسحاب الجاريات بين تلك الجبال الممتدّات إلى بعد عظيم فى اليابسة فتخرج السحاب من فوق البحار وتمتدّ إلى مسافات طويلة لأن الجبال تحفظ الرياح والسحاب من الذهاب يمينا أو يسارا، بل تبقى إلى أن تصل إلى مابعد من اليابسة، فتسقى الزرع، وتدرّ الضرع، وهذا هو قوله تعالى (وأسقيناكم ماء فراتا) إما بالسحاب الذى حفظته الجبال بارتفاعها، واما بالعيون النابعات منها التى يمدّها الثلج الذى يذوب شيئا فشيئا فوق ظهرها متنزلا إلى بطنها، ساعيا إلى عيونها الجاريات (ويل يومئذ للمكذبين) بأمثال هذه النعم، فهؤلاء المكذبون يقال لهم (انطلقوا إلى ماكنتم به تكذبون) من العذاب (انطلقوا) كرّر للتوكيد (إلى ظلّ) أى إلى ظل دخان جهنم (ذى ثلاث شعب) يتشعب لشدّة عظمته، لأننا نرى الدخان العظيم يتشعب ويتفرّق كما تتفرّق الذوائب، وفى التعبير بالثلاث إما للاشارة إلى أن عالم المادّة فيه الطول والعرض والعمق، والمادّة محل حبس الأنفس، أو الى الحسّ والخيال والوهم، فهذه الثلاثة هى التى تسبب العذاب للانسان، ثم وصف الظلّ بقوله (لاظليل) وهذا تهكم بهم: أى لامظلّ (ولايغنى) أى وغير مغن لهم (من اللهب) أى من حرّ اللهب: أى غير دافع شيئا منه (إنها) أى النار (ترمى بشرر) وهو مايتطاير من النار (كالقصر) أى أى كل شرارة كالقصر فى عظمها، ويقال هو الغليظ من الشجر، الواحدة قصرة (كأنه) يعنى الشرر (جمالات) جمع الجمال (صفر) جمع أصفر: أى لون ذلك الشرر أصفر.

[فائدة] سئل ابن عباس عن قوله تعالى: «ترمى بشرر كالقصر»؟ فقال: هى الخشب العظام المقطعة، وكنا نعمد إلى الخشبة فنقطعها ثلاثة أذرع وفوق ذلك ودونه وندخرها للشتاء، وكنا نسميها: القصر (ويل يومئذ للمكذبين. هذا يوم لاينطقون. ولايؤذن لهم فيعتذرون. ويل يومئذ للمكذبين) بهذا اليوم (هذا يوم الفصل) بين المحق والمبطل والمحسن والمسيء (جمعناكم) يا مكذبى محمد (و) المكذبين (الأوّلين)

هذا بيان وتقرير للفصل (فان كان لكم كيد فكيدون) أى فان كان لكم حيلة فى دفع العذاب فاحتالوا علىّ بتخليص أنفسكم من العذاب ، يقال كدت فلانا اذا احتلت عليه (ويل يومئذ للمكذبين) بالبعث (إنّ المتقين فى ظلال) جمع ظلّ (وعيون) جارية فى الجنة (وفواكه مما يشتهون) لذيذة مشتهاة ، فهم مستقرّون فى ظلال حال كونهم مقولا لهم (كلوا واشربوا هنيئا) خالص اللذة لايشوبه تنغيص (بما كنتم تعملون) فى الدنيا (إنا كذلك نجزى المحسنين) فأحسنوا تجزوا بهذا (ويل يومئذ للمكذبين) بالجنة فان لهم العذاب المخلد ، ثم خاطب المكذبين مهدّدا لهم فى الدنيا فقال (كلوا وتمتعوا قليلا) لأنّ متاع الدنيا قليل (إنكم مجرمون) كافرون ، فكل مجرم يأكل ويتمتع أياما قلائل ثم يبقى فى الهلاك الدائم (ويل يومئذ للمكذبين) بالنعم (واذا قيل لهم اركعوا) أطيعوا واخضعوا ، أوصلوا ، أواركعوا فى الصلاة (لايركعون) لايمتثلون ، ولقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ثقيفا بالصلاة فقالوا لانحنى : أى لانركع فانها مسبة (ويل يومئذ للمكذبين) بالأمر والنهى (فبأىّ حديث بعده) بعد القرآن (يؤمنون) اذا لم يؤمنوا به ، وهومعجز بذاته مشتمل على الحجج الصحيحة . انتهى التفسير اللفظى للسورة كلها ، والحمد لله رب العالمين .

لطائف هذه السورة

(١) فى قوله تعالى : « ألم نهلك الأوّلين » الخ .
(٢) فى قوله تعالى : « ألم نخلقكم من ماء مهين » .
(٣) فى قوله تعالى : « ألم نجعل الأرض كفاتا أحياء وأمواتا » الخ .

اللطيفة الأولى فى قوله تعالى : ألم نهلك الأولين . ثم نتبعهم الآخرين

ذكر الله إهلاك الأمم السابقة بتقصيرهم فى الايمان ، وذكر أنه يفعل مع الآخرين مافعله بالأوّلين ، فاذا قصرت أمة فى الايمان بالله وأهلكها فيما مضى فهو هكذا يفعل بالتى تكذب فيما بعد فيهلكها ، والعبرة فى هذا أنه يجب على المسلمين أن يتبصروا ويتذكروا ويقيسوا الأشباه بأشباهها ، فما فعل بالأوّلين يفعل بالآخرين ، فلتنظر أمة الاسلام ماحلّ ببلاد الأندلس ، فان اكبابهم على الملاهى والتنعم والكسل والتقليد الأعمى أضاع بلادهم وأخذتها الفرنجة ، كذلك يفعل الله بالمقصرين من أمم الاسلام ، لأنّ الله جعل الأوّلين عبرة للآخرين ، دخل الفرنجة بلاد الجزائر وبلاد تونس ، وعرجوا على مصر وأخذوها ، كل هذا لأنه فعل بالآخرين كما فعل بالأوّلين ، فقد قصر أهل الأندلس فأزالهم الله ، فلما قصر بقية المسلمين ولم يعمموا التعليم ولم يفكروا فيه ولم ينهجوا نهج الأمم المفكرة أذاقهم الله الخزى فى الحياة الدنيا ، وسيزول هذا الخزى قريبا ، كل هذا يؤخذ من قوله تعالى : « كذلك نفعل بالمجرمين » ولكن على طريق الاعتبار والقياس ، لاعلى طريق النص كما قال تعالى : « فاعتبروا يا أولى الأبصار » واذا قال الله : « ويل يومئذ للمكذبين » بآيات الله وأنبيائه فويل كذلك لمن لم يفهم ماهو حاصل بالأمم الاسلامية من الذلّ والقهر بسبب جهلها ، فالويل للمسلمين من حيث مجموعهم اذا داموا على ماهم عليه من حيث التقصير فى العلوم والصناعات التى هى واجبة على مجموع الأمة وجوبا كفائيا ، فاذن المسلمون اذا لم يفكروا فى ذلك يزيد عذاب الفرنجة عليهم ، فهم وان لم يكونوا مكذبين فهم عاصون والعذاب يقع عليهم فى الدنيا بذهاب دولهم ، وفى الآخرة بعذاب جهنم ، وهذا اجماع من علماء الاسلام ، لأنهم يعتقدون أن العذاب يقع على الأمة كلها فى الدنيا والآخرة بترك فروض

الـكفايات ، وفروض الـكفايات هي التي بها نظام الدول العام بحيث يشترك فيه الشعب كله بإخلاص . انتهى الـكلام على اللطيفة الأولى ، والحمد لله رب العالمين .

اللطيفة الثانية فى قوله تعالى : ألم نخلقكم من ماء مهين

الـكلام فى النطفة ، والجنين فى الرحم ، ومدة الحمل ، وتقدير الله لذلك ، والنظام المتبع فيه ، كل ذلك يراد به معرفة الأجنة ، وعجائب الخلق ، والتفـكر فى ذلك ، وهذا يرجع لعلوم كثيرة قد شرحناها فى [سورة القيامة] قريبا ، وتقدّم فى سور أخرى منها سورة [آل عمران] بطريق أوسع ، فراجعه هناك إن شئت .

اللطيفة الثالثة فى قوله تعالى : ألم نجعل الأرض كفاتا أحياء وأمواتا

الأرض تسع الحيّ والميت ، وفيها الجبال الشامخات ، والماء الذى يسقى الزرع ويدرّ الضرع ، ذكر الأرض التى تقلنا وتحملنا ، وتضمنا فى بطنها اذا متنا ، وفيها مخازن الماء ومسنياتها وما يمسكها لئلا تتشتت وتزول ، وذلك يوجب تيقظ الانسان للأمور العامة ، فيدرس الأرض وطبقاتها ، ومن على ظهرها وجبالها وهواءها وسحابها ومطرها وعيونها وأنهارها ، والتفرّج على عجائبها ، ثم أوعد المعرضين بالعذاب فى جهنم ، وكما أن الناس اذا حلت الجيوش فى بلادهم على جهلهم وظلمهم ونومهم وخرافاتهم لا ينطقون لانقطاع حججهم فيقول المستعمر لبلادهم افعلوا كذا فيفعلون ، ولا تقرءوا من العلم إلا مابه تؤمرون ، ولا تفـكروا إلا على قدر مانحن مريدون ، وإياكم أن تنطقوا بالشكوى فانكم تمزّقون ، و بالمدافع تضربون ، و بالنار تحرقون ، و بالصواعق من الطيارات تهلـكون ، أنتم مأمورون لا آمرون ، وسامعون لا متكلمون ، وعبيد لنا مسخرون ، لتخرسنّ ألسنة الأمم المغلوبة ، ولتـكن الحرّية مسلوبة ، والجماهير فى أيدينا ألعوبة ، ونحن القاهرون . وهم المقهورون ، فلا رقيب منه نخاف ، ولا من محنة الأيام وغوائلها نضطرب .

أقول : اذا كان هذا هو الحاصل الآن فى بلاد الشرق حيث يفعل الاوروبيون معهم ذلك فـمابالك بيوم القيامة ، إذ تنقطع الحجة ويصبح المرء مقطوع الأمل من كل عمـل ، مسلوب اللب والمال والولد ، مفقود الأصحاب والأهل ، محروما من كل سند وخلّ وولد ، هنالك لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون .

[حكاية] دخل [هولاكو] التتارى مدينة بغداد وأحضر الخليفة العباسى وهو غافل لا يدرى ، فلما أحضر بين يديه المائدة نظر فوجد فوقها أوانى مملوءة جواهر فى كل طبق نوع كالزمرد والياقوت والمرجان والذهب والزبرجد والماس ، فقال له [هولاكو] كل ، فقال : هذا لا يؤكل ، فقال [هولاكو] : أتدرى من أين هذا ؟ انه من خزائنك أحضرته جنودى الآن ، إنك قد أهملت الملك فلست تصلح له ، والله سلبه منك ، ثم قتله هو وابنه وذهبت الدولة اهـ

انظر كيف فعل الله بالأوّلين منا ، فلما لم يعتبر المتأخرون فعل بهم مافعل بالأوّلين ، وتقصير المسلمين أنهم كانوا عن التفـكر معرضين ، وفى النزاع مجدّين ، وعن الاتحاد نائمين .

ذكر الله نقمه على الأوّلين والآخرين ، وذكر نعمه بالخلق على الناس ، ونعمه بالأرض وجبالها ومائها ، وذكر بعد ذلك الويل للمـكذبين بذلك . والى هنا تمّ الـكلام على سورة المرسلات ، والحمد لله رب العالمين كتب ليلة السبت ٤ من شهر المحرّم الحرام سنة ١٣٣٤ هجرية .

(تمّ بحمد الله وحسن توفيقه الجزء الرابع والعشرون من كتاب الجواهر فى تفسير القرآن الكريم ، ويليه الجزء الخامس والعشرون ، وأوّله تفسير سورة النبأ)

الخطأ والصواب

غلبنا التصحيح ففاتنا سقط وأشياء أخرى يدركها القارئ بلا تنبيه . وهذا جدول مما عثرنا عليه من ذلك ، وهاهو ذا :

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٩	١٠	بسبيلا	فتيلا
٩	١٩	نسفه	نفسه
١١	١٦	من اسم	. . .
١٣	٣	أو يوم القيامة أو جميع ذلك	. . . .
١٣	١٠	بحيث يكون ما فى القصص كله	مصوغة
١٥	٢٢	لعة	لغة
١٦	٢٣	أبا الشجر أم القمر الى آخره	. . . . .
٢٤	٣٥	لان	ان
٦٨	١٢	بالجزاء	بالجزية
٧٢	٢١	ذكر	ذكر الله
٨٠	٢٢	تفوق	تعوق
٨٩	٣٢	أشبه عدم	مشبه عدم
٩٧	٣٥	الاولى	. . .
٩٩	٣	مرتبطان	مرتبطات
١٠٩	١٨	فلنحبر	فلنجتز
١١٤	٢٣	قدر	قدرها
١١٤	٢٣	(٢٠٠) مليون	(٢) مليون
١١٧	١٩	آجامها	فى آجامها
١١٧	٣٤	تنظر	ننظر
١٢٨	١٨	جلها	جلتها
١٣٥	١١	بعد	بغير
١٤٦	٢٣	لما	ما
١٥٣	٣	التكبر	المتكبر
١٥٣	٣	بالنسبة	بالنسبة له
١٧١	٦	لـ كالطّولِ	لَـكالطّوَلِ
١٩٧	١٦	عليها	عليهما
١٩٨	٣٥	القريه	الجنة
٢٠١	٣٥	تنزيه	ترقّ
٢٠٣	٨	عنه	عنهم
٢٠٩	٢١	المحدوده	المحد
٢٠٩	٣١	ويقطع	وتقطع
٢٢٣	٣	الناحيتين الزرقة	الناحيتين الحمرة
٢٢٤	٣١	محدبة	مقعرة
٢٦٧	٢٢	اقسم	سمى
٢٧٣	٣٥	ماذكرته	مماذكرته
٢٧٨	١١	المترمّل	المتزمل
٢٩٣	٥	فعرفت	عرفت
٣٠٧	٢٥	العشرة	١٠٠
٣٠٨	٦	مما	وهذا
٣١١	١٣	من تقبعها	منها
٣١٢	٣١	منثورا	مشورا
٣١٥	٥	ينابها	يناسبها

(تمت)



فهرس
الجزء الرابع والعشرين
من كتاب
الجواهر فى تفسير القرآن الكريم

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

الطبيعة والتاريخ الطبيعى ، وذكر مصابيح روعى فيه الموازنة بين نظامنا فى بيوتنا ونظام العالم كله .

٢٠٨ اللطيفة الثالثة فى آية : « أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات » وفيها مقامان : مقام علم الطيران ، ومقام أن الطيور مختصرة من أجسام ذوات الأربع .

المقام الأول : كيف عرف الناس يطيرون فى الجو ؟ وأن ذلك مبنى على محاولة تقليد الطير ، فأول من قام بذلك أربعة فأخفقوا جميعا ، فرجل إيطالى ، وراهب ألمانى ، ومركيز فرنسى ، وصاحب الصحاح وهو الجوهرى ، هذه هى الخطوة الأولى .

٢٠٩ أما الخطوة الثانية : أخذ الأستاذ [بورلى] يدرس حركات الطيور ، فتبين له أن الانسان عاجز حق العجز عن تقليده .

والخطوة الثالثة : عمل المناطيد : لأن الناس يئسوا من الطيران كالطير ، فلم يبق لهم إلا أن يستعينوا بالغاز لخفته ، ولكن الخطوة الرابعة كانت مبتدئة سنة ١٨٩١ م إذ راقب [ليليانتال] حركات الطيور عشرين سنة ، ولكنه سقط قتيلا ، وبعده قام الشابان الأمريكيان سنة ١٩٠٠ م فنجحا ، وأعلنت الولايات المتحدة ذلك سنة ١٩٠٧ م .

٢١٠ وسنة ١٩٠٩ ينزل ذكرها فى التاريخ بأنها فاتحة عهد جديد للطيران ، وأخذ يرتقى إلى وقت كتابة هذه الأسطر فى هذا الفهرست ، وهى سنة ١٩٣٣ م فهاهى ذه الطيارات تستخدم فى تدمير الأساطيل وتشتيت الجيوش ، وتخريب الحصون .

٢١١ المقام الثانى فى بنية الطيور ، وأن أجسامها مختصرة من أجسام ذوات الأربع ، مثلا : منقارها فى مقابل الأسنان ، والحوصلة فى مقابل المعدة ، والقانصة فى مقابل الكرش ، والريش فى مقابل الجلد الثخين وماعليه ، وهكذا .

٢١٢ اللطيفة الرابعة فى قوله : « هو الذى أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ماتشكرون » اللطائف العامة فى هذه السورة .

٢١٣ اللطيفة الأولى فى قوله تعالى : « ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت » الفطور فى الألوان ، والفطور فى المادة لايراهما الناس ، وهما فعلا موجودان ، ولكن عجائب الحكمة أكملت النظام مع وجودهما ،

٢١٤ اللطيفة الثانية فى قوله تعالى : « ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح » وههنا عجائب الانوار وبدائعها ، فترى النور الداخل فى حجرتك ، فالجاهل لايعقل منه شيئا ، ولكن العالم يستخرج من هذا الأمر المعتاد مالايخطر ببال الجهال ، فهو يرى أنه على خط مستقيم بحاسة البصر ، وانه حار باللمس ، ثم ينتقل من ذلك إلى أن وضعه مقلوب داخل الحجرة ، وهناك زاوية السقوط وزاوية الانعكاس ، وهناك تتجلى للعالم كيف يرى الانسان صورته فى المرآة مقلوبة ، ثم ينتقل من ذلك إلى انكسار الضوء ، ثم يلى ذلك البحث فى الزجاج ، وأن الضوء فيه انكسار كانكساره فى الماء إلى جهة من الجهتين على حسب الكثافة واللطافة ، ثم يلى ذلك الكلام على العدسة المحدبة الوجهين التى تكبر الأجسام وقد تقربها ، والمقعرة الوجهين التى تصغر الأجسام وقد تبعدها ، وهناك تكون الزجاجات مقويات للأبصار مقربات للصور أومبعدات وهكذا .

٢١٦ شكل ٢٩ صورة الضوء ، وهو على خط مستقيم فى الحجرة المظلمة ، وفى شكل ٣٠ الصور الخارجة ظهرت واضحة مفصلة على لوحة الورق ، فظهر عاليها سافلها فيه .

صفحة

صفحة

(تمت الفهرست)



يطلب من

شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

جمهرة

خطب العرب

في عصور العربية الزاهرة

العصر الجاهلي العصر الإسلامي العصر الأموي العصر العباسي الأول

جمعه وضبطه وشرحه

أحمد زكي صفوت

أستاذ اللغة العربية بمدرسة دار العلوم

أوّل كتاب استقصى بين صحائفه جميع ماقيل من الخطب والوصايا فى أزهى العصور العربية .

وقد اعتنى المؤلف الذى يتولى التدريس فى أكبر مدرسة عالية بوزارة المعارف المصرية بجمع أشتاتها : منقبا فى بطون الأسفار العدة ، عدا ماتجشمه من مجهود فى ردّ الألفاظ المنبهم معناها والمستغلق فهمها إلى أصولها الصحيحة وتخليصها من شوائب التشويه الشائن الفاشى فى كتب الأدب والتاريخ .

وقد عقب كل خطبة ووصية بذكر مصدرها الذى نقله منه وذيلها بشرح يفسر غريب ألفاظها ويحلّ عسير كلماتها ، وأورد فيها كل مايحتاج إليه فى فهمها من نبذ تاريخية توضح الظروف والمناسبات التى قيلت فيها .

فأصبح ديوانا تاما ومرجعا عاما مهد السبيل لمقتنيه ، وقطوفا ثمارها دانية لطالبيه ، يوفر على المعلم وقته الثمين ويذلل مايعترضه من عقبات ، ويكون للطالب خير معين .

[مطبوع على ورق عال بحرف مضبوط بالشكل]